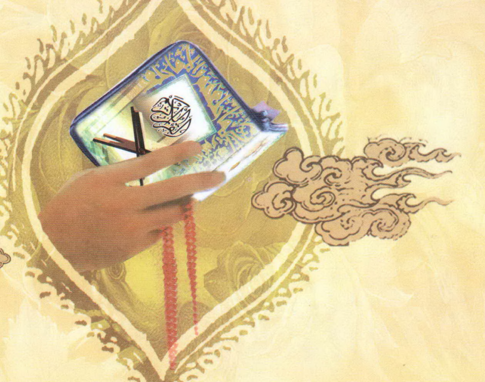


تزكية النفس



تأليف سماحة آية الله العظمى

السيد كاظم الحسيني الحائري دام ظله

إصدار مكتب سماحة آية الله العظمى

السيد كاظم الحسيني الحائري دام ظله



تزكية النفس


بسم الله الرحمن الرحیم



قم المقدّسة ـ شارع صفائية ـ زقاق بيكدلي ـ دارالبشير ـ الهاتف : ٧٨٣٥٠٢٣

■ اسم الكتاب :. . . . . تزكية النفس
■ المؤلّف : . . . . سماحة آية الله العظمى السيّد كاظم الحسينيّ الحائريّ دام ظلّه
■ الناشر : . . . . دارالبشير
■ الطبعة وتاريخ النشر : . . . . الخامسة / ١٣٨٨ش ـ ١٤٣٠هـ. ق
■ المطبعة : . . . . خاتم الأنبياء ـ قم
■ الكميّة :. . . . . ٢٠٠٠ نسخة
■ الشابك : . . . . ١ ـ ٢٢ ـ ٨٣٧٣ ـ ٩٦٤

إصدار مكتب المرجع الدينيّ سماحة آية الله العظمى السيّد كاظم الحسينيّ الحائريّ (دام ظلّه)



تأليف

سماحة آية الله العظمى

السيد كاظم الحسيني الحائري دام ظله

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[1]. صدق الله العليّ العظيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلوات علىٰ أفضل النبيِّين محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين.

وبعد: إنَّ تحصيل علوم الإسلام: من أُصول الدين وفروعها، ومن الفقه والأُصول، وتفسير القرآن الكريم وما إلىٰ ذلك، لهو سيف ذو حدَّين، فهي علوم تنفع مَنْ تعلَّمها إن كان قد حظي بتزكية نفسه، ممَّا يؤدِّي إلىٰ العمل بتلك العلوم، وتضرُّه إن انفصلت عن تزكية النفس، ممَّا يؤدِّي إلىٰ ترك العمل بتلك العلوم. وقد قال عزَّ مِنْ قائل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[2].

وها هو بين يديك كتابٌ متواضع يتحدَّث عن تزكية النفس بشكل مختصر، وهو مُقسَّم إلىٰ أربع حلقات:

الحلقة الأُولىٰ: تشتمل علىٰ البحث العلمي عن الموضوع.

والحلقة الثانية: تشتمل علىٰ مدخل البحث العملي عن الموضوع.

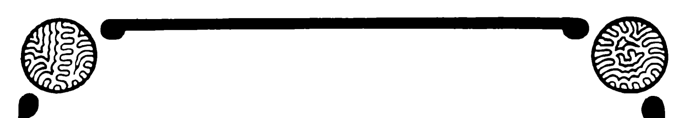
والحلقة الثالثة: تشتمل علىٰ البحث العملي عن تزكية النفس.

والحلقة الرابعة: تشتمل علىٰ بحث المثبِّطات عن تزكية النفس والمحفِّزات إليها.

---

(١) السورة ٩١، الشمس، الآيات: ١ ـ ١٠.

(٢) السورة ٩١، الشمس، الآيات ٩ ـ ١٠.



الحلقة الأُولىٰ

البحث العلمي لتزكية النفس





وها هي الحلقة الأُولىٰ بين يديك تتحدَّث عن أُمور:

أوّلاً: عن مِقياس الحسن والقبح، أو الفضيلة والرذيلة.

ثانياً: عن مِقياس الوجوب والاستحباب، أو الحرمة والكراهة في منطق العقل العملي، أو قلْ: في منطق الأخلاق.

ثالثاً: عن الجبر والاختيار؛ إذ لا فضيلة ولا رذيلة لو أَنكرنا الاختيار.

رابعاً: ما هو مَغْزىٰ الربط بين الخالق والمخلوق، وما معنىٰ كون المخلوق تجلِّياً من تجلِّيات الخالق، وهل هذا يعني العينيَّة، وأَنَّ ما عدا الربّ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عدم محض، كما عليه بعض العرفاء، أَو أَنَّ هناك تغايراً بين الوجودين: الوجود الأَصيل والوجود التعلّقيّ، كما هو المشهور في الرأي الفلسفيّ؟

خامساً: ماهو مدىٰ إِمكان تنامي البشريَّة في سُلَّم العرفان والذوبان في الله تعالىٰ، وفي تزكية النفس وتهذيبها؟

فها هي نقاط خمس نبحثها في هذه الحلقة إنْ شاء الله:

النقطة الأُولى
في مِقياس الحسن والقبح أو الفضيلة والرذيلة

ونذكر بهذا الصدد عمدة ما قيل أو يقال من المقاييس.

المِقياس الأوَّل ـ العرف أو بناء العقلاء:

فكلّ ما تطابق العرف أو العقلاء علىٰ حسنه أصبح حسناً، وكلّ ما تطابقوا علىٰ قبحه أصبح قبيحاً.

ومقياسيَّة ذلك تكون بأحد وجوه أربعة:

الأوَّل: دعوى حكم العقل بوجوب اتِّباع العقلاء فيما تطابقوا عليه من حسن أو قبح، بمعنى ولاية العقلاء علينا. فما هو الحَسَن ذاتاً هو اتِّباع العقلاء، وما هو القبيح ذاتاً هو مخالفتهم. فهذا مرجعه إلىٰ مقياسيَّة العقل مع تطبيق مصداق حكم العقل في اتِّباع العقلاء.

ولكنَّ الواقع أنَّنا لا نجد في عقولنا ووجداننا دلالة علىٰ ولاية العقلاء علينا.

والثاني: دعوىٰ أَنَّ العرف أو العقلاء هم المؤسِّسون للحسن والقبح. وهذا ما يُفهَمُ من روح كلام المرحوم الشيخ محمّد رضا مظفَّر [1]. وقد صرَّح بأَنَّ قضايا الحسن والقبح داخلة في المشهورات الصرفة التي لا واقعية لها إلَّا الشهرة.

---

(١) راجع أُصول الفقه: مج ١ / ٢ / ٢٢٥.

وأمّا المرحوم آية الله الشيخ الإصفهاني ﷺ فقد صرَّح ـ أيضاً في بحث التجرّي ـ بأنَّ هذه القضايا داخلة في القضايا المشهورة المسطورة في علم الميزان في باب الصناعات الخمس. وبَرْهَن علىٰ عدم كونها قضايا برهانيَّة أو مضمونة الصحَّة(١).

ولكنْ لم أَجد له تصريحاً بأنَّ هذه القضايا أو مطلق ما يُسمّىٰ بالقضايا المشهورة لا واقع لها إلّا شهرتها.

والواقع : أَنَّ إرجاع الحسن والقبح إلىٰ جعل العرف أو العقلاء يساوق ـ في الحقيقة ـ إنكار واقع الحسن والقبح؛ لأنَّ ما يكون قابلاً للجعل والاعتبار، ويكون أَمره بيدِ الجاعل والمُعتبِر، إنّما هو عنوان الحسن والقبح لا واقعهما، فَمَنْ يدرك بضميره وجود حسن وقبح حقيقيّين، أو فضيلة ورذيلة واقعيّتين، لا يصحُّ له أَنْ يذهب إلىٰ هذا المقياس.

والثالث : دعوى أَنّ ما تطابق عليه العرف أو العقلاء، قد أعطىٰ كلُّ إنسان عرفيٍّ أو كلُّ عاقل التزاماً بالوفاء به، وباتِّباع ما عليه العرف أو العقلاء، ويجب عقلاً الوفاء بهذا الالتزام. فالمِقياس الأصليّ ـ في الحقيقة ـ هو الوفاء بالالتزام، أو قلْ: هو حكم العقل المنطبق مصداقاً علىٰ هذا الوفاء.

ولكن لو صحَّ هذا لأمكن لكلِّ فرد أن يتحرَّر من جميع الأخلاقيَّات بعدم إعطاء التزام من هذا القبيل، فيصحُّ له مثلاً ضرب اليتيم، أو الأخذ في فصل المرافعات بجانب الظالم لا المظلوم، وما إلىٰ ذلك ممَّا هو خلاف ما يحكم به الوجدان والضمير، سواءٌ التزمنا باتِّباع العرف أو العقلاء أو لم نلتزم.

وخلاصة الأَمر : أَنَّ إدراك الضمير للقضايا الخُلُقيّة لا يدور مدار هذا الالتزام نفياً وإثباتاً.

والرابع : دعوى أَنَّ تطابق آراء العرف أو العقلاء علىٰ الآراء المحمودة والآداب

---

(١) راجع نهاية الدراية ٢ / ٨.

العامَّة نشأت ممَّا تحفظه هذه الآداب والأَخلاق من المصالح واتِّقاء المفاسد، فترجع مقياسيّة هذا المقياس إلىٰ مقياسيّة المصلحة والمفسدة. وهذا ما سنبحثه فيما بعد إنْ شاء الله.

إلَّا أَنّ الذي نشير إليه هنا هو: أَنَّ الشخص قد يعتقد أنَّ الفضيلة المفروضة المتّفق عليها مشهور الآراء ليست في مصلحته في الظرف المفروض.

وهذا علاجه ينحصر إمَّا بدعوىٰ أَنَّ المِقياس هي: المصلحة العامَّة لا مصلحة الشخص، أو بدعوى أَنَّ الفضيلة المفروضة لئن خالفت مصلحة هذا الشخص هذه المرَّة لصالح الآخرين، فهي تعوِّضه بحفظ مصلحته في مقابل الآخرين في مرّات أُخرى. فهي علىٰ العموم في صالح الجميع.

وعلىٰ أيٍّ حال، فنحن لو آمنَّا بمقياسيّة المصلحة والمفسدة ـ وهذا ما سيأتي بحثه إنْ شاء الله ـ لا نؤمن بأنَّ بناء العرف أو العقلاء علىٰ الأُخلاق والآداب ينشأ دائماً من حفظ المصالح واتِّقاء المفاسد الواقعيّتين؛ ولذا ترى التناقضات العجيبة بين المجتمعات في ذلك، فقد يعتقد مجتمع ما أنَّ احتجاب النساء من الرجال وحفظ العِرض والحياء من أفضل الصفات الحسنة والفضائل الراقية، ويعتقد مجتمع آخر أَنَّ هذا وهم وخرافة، وأنَّ المصلحة تكون في سفور النساء وتحرُّرهن من القيود الجنسيّة والحياء.

وقد تحصَّل أنَّ هذا المقياس غير صحيح بكلِّ معانيه الأربعة.

المِقياس الثاني ـ القانون:

وهو قد يكون نابعاً من أعلىٰ، كما لو كان من قبل شريعة سماويّة، أو من قبل سلطان مستبدٍّ برأيه، أو حزب متسيطر علىٰ رقاب الناس أو ما شابه ذلك. وقد يكون نابعاً من الناس أنفسهم، كما لو انتُخِب القانون بالتصويت ولو عن طريق

البرلمان الذي أُنتُخِب أعضاؤه من قبل الناس.

أمّا ما كان من قِبل شريعة سماويّة فلكي يختلف عن مِـقياس الديـن ـ الذي سيأتي ذكره فيما بعد إنْ شاء الله ـ بالإمكان تفسيره: بأنَّ القانون هو الدستور الذي يكون بيد القوّة المجرية، في حين أنَّ الدين ليس سوى الدستور الذي يُتديَّن به ولو لم يكن بيد قوّة مجرية، فكان الناس يعصونه جهاراً.

وأمَّا ما كان نابعاً من الناس فلكي يختلف عن المِقياس الأوَّل ـ وهو العرف أو العقلاء ـ بالإمكان تقييده بنوع من التحدُّد والصرامة غير الموجودين في مـجرّد بناء العرف والعقلاء، أو تفسيره ـ أيضاً ـ بالدستور الذي يكون بيد القوّة المجريّة، في حين أنَّ بناء العرف والعقلاء ربَّما لا يكون علىٰ شكل دستور يجرىٰ بيد القوّة المجرية رغماً لمن يحاول التمرُّد والخلاف.

وأمّا قيمة هذا المِقياس فالقانون النابع من سلطان مستبدٍّ برأيه، أو فئة متسيطرة بالقهر والغلبة علىٰ الناس، لا قيمة له، ولا ينبغي لعاقل أن يتصوَّر كـونه مِـقياساً للفضيلة والرذيلة.

وأمَّا القانون النابع من الدين فقيمته قيمة ذلك الدين، ولا ينبغي ـ أيضاً ـ لعاقل أَن يتصوّر قيمة أخلاقيّة لقانون تجريه القوّة المجرية علىٰ أساس دين باطل غير ذي قيمة حقيقيّة.

إذن، فلا معنىٰ لفرض القانون النابع من الدين مِقياساً للفضيلة والرذيـلة وراء الدين الذي هو مِقياس آخر يأتي بحثه إن شاء الله.

وأمّا القانون النابع من الناس فهو وإن اختلف موضوعاً عن العرف وبناء العقلاء بما مضىٰ من تفسيره بما يتَّسم بنوع من التحدُّد والصرامة غير المـوجودين فـي مجرّد بناء العرف والعقلاء، أو بالدستور الذي يكون بيد القوّة المـجرية، إلَّا أنَّـه بلحاظ التقييم يرجع إلىٰ نفس روح المِقياس السابق أعـني: مِـقياس العـرف أو

العقلاء، وتأتي هنا نفس الوجوه الأربعة: فإمّا أَن يُدَّعىٰ أنَّ مقنِّن القانون ـ وهم الأكثريّة المشتركون في تقنينه ـ له حقُّ الولاية علىٰ مَنْ أراد مخالفة القانون، أو يُدَّعىٰ أنَّ الحسن والقبح أمران جعليان واعتباريان يُجعلان عن طريق جعل القانون، أو يُدَّعىٰ أَنَّ مَنْ ساهم في جعل هذا القانون ولو بمعنى مساهمته لإمضاء جعل حقٍّ تشريع القانون بيد الأكثرية، لا ينبغي له أن يخالف وعده وشرطه، بل يجب عليه الوفاء بذلك، أو يُدَّعىٰ أنَّ القانون حافظ للمصالح ودافع للمفاسد. ومناقشة هذه الوجوه ـ أيضاً ـ هي عين المناقشات الماضية في المِقياس السابق.

نعم، يمتاز هذا المِقياس عن المقياس السابق بأنَّ انطباق عنوان الوفاء بالشرط والالتزام هنا قد يكون أوضح وأوسع من انطباقه علىٰ المِقياس الأوّل، أعني: العرف وبناء العقلاء؛ وذلك علىٰ أساس الفكرة المعروفة في بناء أساس الدولة عن جان جاك روسو.

وهناك رأيٌ يقول: بأنَّ مَنْ رأَى عدم صحّة قانون ومخالفته للمصلحة فما دام القانون قائماً يجب علىٰ هذا الشخص كسائر الناس اتِّباعه، إلَّا أنَّه يجدُّ ويجتهد في تغيير القانون بمثل: تقديم اقتراح علىٰ مجلس النوَّاب يوضِّح فيه ضرر هذا القانون، وكالكتابة في الجرائد وما إلىٰ ذلك، وفي أثناء جهاده في تغيير القانون يجب أن يحترمه ويخضع له، كما جاء في كتاب الأخلاق لأحمد أمين[1] ، قال: «ومن خير الأمثلة علىٰ ما يجب أن يعمل في مثل هذا الموقف ما حُكي عن جُون همْبدِنْ (Hampden) أحد أعضاء البرلمان الانجليزي في حكم شارل الأوّل، ذلك أنّ الملِك سنة ١٦٣٦ م كان في حاجة إلىٰ المال، ففرض علىٰ الأهالي ضريبة من غير أن يستشير البرلمان في فرضها، واحتجّ أعوان الملِك بأنَّ له الحقَّ قديماً أن يفرض الضرائب من غير برلمان، واحتجَّ معارضوه بأنَّ سلطة الملِك قد تقيَّدت

---

(١) كتاب الأخلاق: ١٥٤ ـ ١٥٥.

بالبرلمان، فلم يعد من سلطانه فرض الضرائب. فلمّا ذهب المحصّلون إلىٰ همبدن قالوا له: «يجب أن تدفع الضريبة بحكم القانون» فأجاب: «أنَّ القانون لم يُوجِبْ عليَّ شيئاً، وإنَّ طلبكم غير قانوني» (ويجب أن يلاحظ هنا: أنّه لم يُجِبْ بأنَّ القانون سيِّئ، وإنَّما أجاب بأنّه لم يكن قانوناً مستوفياً لشروط التشريع) ثُمَّ قُدِّم للمحاكمة، وعيِّن لمقاضاته اثنا عشر قاضياً، انحاز ثمانية منهم إلىٰ رأي الملِك، فكانت الأغلبيّة علىٰ همبدن، فحُكِم عليه، فاحترم الحكم، وخضع له، ودفع الضريبة؛ لأنَّه بحكم المحكمة صار الدفع قانونيّاً، ولكنّه رأىٰ أنّه قانون ظالم، فجدَّ في تغييره. ولما رأى همبدن أنّ ملِك انجلترا وأعوانه يخرجون علىٰ القانون، ويضعون القوانين الظالمة، اجتهد في تأليف جماعة كبيرة علىٰ رأيه، وجاهد في سبيل ما يعتقده الحقَّ، وفي تغيير ما يراه ظالماً حتّىٰ قتل سنة ١٦٤٣ م».

أقول: وأمّا مناقشة فكرة جان جاك روسو فهي مشروحة مفصَّلاً في كتاباتنا الأُخرى من قبيل كتابنا المُسمَّىٰ بـ(أَساس الحكومة الإسلاميّة) ولا نعيدها هنا.

وقد تحصَّل أنّ هذا المِقياس معطوف علىٰ المِقياس السابق في عدم صحته.

المِقياس الثالث ـ الدين أو الوحي:

وطبعاً مِقياسيّة الدين تتوقَّف علىٰ كونه ديناً حقّاً. وقد ثبت في محلِّه أنّه ليس لأحد حقُّ العبادة والتديّن بدينه علىٰ آخر إلّا الله سبحانه وتعالىٰ، ولا دين يجب اتِّباعه عدا الدين النازل حقاً من السماء.

والدين الحقُّ يكون مِقياساً للحسن والقبح بأحد معنيين:

إمَّا بمعنى كشفه عن الحسن والقبح؛ لأنَّ الله يأمر بالحسن وينهىٰ عن القبيح، كما قد يكشف الدين ـ أيضاً ـ عن المصالح والمفاسد.

وإمَّا بمعنى أنَّ أمر الله ونهيه موضوع لحسن الطاعة وقبح المعصية علىٰ أساس

ولاية الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ القائمة إمّا علىٰ مبدأ وجوب شكر المنعم، أو علىٰ مبدأ المالكيّة الحقيقيّة نتيجة الخالقيّة والمخلوقيّة.

فالدين في الحقيقة: إمّا كاشف عن الحسن والقبح الثابتين بمِقياس آخر أو محقّق لمصداق حسن وقبح ثابتين بمِقياس آخر. وإن شئت فاجعل هذا الكلام تصديقاً لمِقياسيّة الدين في الحسن والقبح بمعنى صغروي لا كبروي.

المِقياس الرابع ـ المصلحة والمفسدة، أو اللذّة والألم، أو الكمال والنقص، أو السعادة والشقاء، أو النفع والضرر:

والواقع أنَّ هنا عنوانين قد يُفترض أحدهما أو كلاهما مِقياساً للفضيلة والرذيلة: أحدهما عنوان اللذّة والألم، والآخر عنوان الكمال والنقص. وهذان العنوانان أحدهما غير الآخر: فالعلم والقدرة والشجاعة مثلاً كمال ولو لم يلتذّ صاحبها بها، والجهل والعجز والجبن نقص ولو لم يتألّم صاحبها بها، فقد يُفترض أنَّ الأوّل هو المِقياس للفضيلة والرذيلة، وقد يُفترض أنَّ الثاني هو المِقياس لهما، إلّا أنّنا لم نشأ أن نفرد لكلٍّ واحد منهما بحثاً مستقلاً؛ لأنَّ الفوارق البحثيّة بينهما ليست بنحو تقتضي الإفراد.

وقد يُفترض أنَّ المِقياس هو الجامع بينهما الذي إن شئت فعبِّر عنه بالسعادة والشقاء، أو بالنفع والضرر، أو بالمصلحة والمفسدة.

وعلىٰ أيّة حال فتعليقنا علىٰ كون المِقياس للفضيلة والرذيلة هي اللذّة والألم، أو الكمال والنقص هو: أنّه يكفي لتنبيه الوجدان إلىٰ بطلان ذلك إلفات النظر إلىٰ بعض الأمثلة ولو الافتراضيّة التي لا واقع خارجي لها: فلو كان كشفك سرّ أخيك موجباً لالتذاذك الكبير بذلك من دون أن يتألّم أخوك به؛ وذلك علىٰ أساس أنَّ أخاك لا يطّلع علىٰ هذا الكشف كي يتألّم به، أو كان كشفك سرّ أخيك مُقدّمة

لتحصيلك درجة كبيرة من العلم، فكان مقدار تأثير ذلك في كمالك النفسي بالعلم أكثر بكثير من مقدار تأثير ذلك في نقص ملكة كتمان السرِّ التي هي ـ أيضاً ـ كمال نفسي، أو ضمن لك قادر تثق بقدرته أنّك لو كشفت لنا سرَّ فلان فسوف نعيد لنفسك ملكة كتمان السرّ بأقوى ممّا كانت قبل الكشف بكثير، فالوجدان والضمير المدركان للقضايا الخُلُقيّة ـ والتي هي أُمور واقعيّة في رأينا وأُمور وهميّة في رأي بعض ـ يقضيان بأنَّ كلَّ هذا لا يكون مسوِّغاً لكشف السرِّ الموجب للإحساس بالخيانة والخجل ووخز الضمير واقعاً أو وهماً.

وهذا يعني: أنَّ عنوان الفضيلة والرذيلة علىٰ ماهما عليه من واقعيّة أو وهميّة عنوان ثالث غير عنواني اللذّة والألم، والكمال والنقص، وإن أمكن التعبير عن الجامع بين اثنين منها أو الثلاثة بالمصلحة والمفسدة، أو الضرر والنفع، أو السعادة والشقاء.

فهذا المِقياس حاله حال المِقياسين الأوَّلين في عدم الصحَّة.

وأيضاً يمكن أن نمثِّل في خصوص اللذّة والألم بأنَّ المريض الذي تضعف نفسه عن الحِمْية من الغذاء الذي يضرُّه، فيأكل ذلك الغذاء، ويضرُّ به نفسه، لا يحسُّ بتأنيب الضمير والوجدان في ترك الحِمْية ولا بالخيانة والخسَّة، في حين أنّه حينما يكشف سرَّ أخيه مثلاً يحسُّ بكلِّ ذلك. فهذه وأمثالها من الأمثلة الوجدانيّة خير دليل علىٰ بطلان هذا المِقياس علىٰ تحقيق وتفصيل موجودين في تقريرنا لبحث الأُصول لأُستاذنا الشهيد الصدر؛ في الجزء الأوّل من القسم الثاني من مباحث الأُصول[1].

وللمحقِّق الخراسانيّ؛ بيان لربط الحسن والقبح بالمصلحة والمفسدة

---

(١) ص ٥١٥ ـ ٥١٧.

وبالملائمة والمنافرة للقوّة العاقلة[١].

وحاصله : الاستفادة ممّا ذهب إليه الفلاسفة: من أنَّ الوجود خير محض، وأنَّ العدم شرٌّ محض، فكلٌّ شيء كان أوسع وجوداً كان أوسع خيريّة، وكلٌّ ما كان أضأل وجوداً وجانب العدم أغلب عليه كان أكثر شرّيّة، واتّصافُ بعض الوجودات بالشرّ يكون باعتبار ما يلازمها أو يترتّب عليها من الأعدام، كما أنَّ اتّصاف بعض الأعدام بالخير يكون باعتبار ما يلازمها أو يترتّب عليها من الوجودات، فالإنسان مثلاً أكثر خيراً وآثاراً من الحيوان؛ لكونه أوسع وأرقىٰ وجوداً منه. وكذلك الحيوان أكثر بركة وآثاراً من النبات، والنبات من الجماد، وكذلك الكلام في تطبيق القاعدة علىٰ الأفعال، فكلٌّ فعل يكون جانب الوجود فيه أوسع فهو أكثر خيريّةً، وكلٌّ ما كان من الأفعال ضئيلاً وحقيراً، وكان جانب العدم هو الغالب عليه، كان أشدُّ شرّيّة.

وكما أنَّ كلَّ قوّة من القوىٰ في الإنسان كقوّة البصر والذوق والشمّ وغير ذلك تنبسط وتنشرح بإدراك ما يلائمها، وتتضجّر وتنكمش بإدراك ما ينافرها، فالباصرة ـ مثلاً ـ تنبسط لرؤية الحديقة والأزهار، وتتضجّر لرؤية ما تستقبحه من صور الأشياء الكريهة، وكذلك الشامّة بالنسبة للروائح وغيرها من القوىٰ، كذلك الحال في رئيس تلك القوىٰ، وهي: القوة العاقلة، فتنبسِط لإدراك ما يلائمها، وتنكمش من إدراك ما ينافرها. ومِقياس الملائمة والمنافرة لها هي: درجة التسانخ وعدمه. وبما أنَّ القوّة العاقلة موجود بسيط ومجرَّد ومن أوسع الوجودات وأرقاها، فكلٌّ فعل كان أوسع وجوداً كان أشبه وأنسب بالقوّة العاقلة وأكثر سنخيّة لها، فتنبسط القوّة العاقلة بإدراكه لها تصوّراً وتصديقاً، وكلٌّ فعل كان أضيق وجوداً

---

(١) راجع الفوائد للمحقّق الخراسانيّ: ٣٣٠ ـ ٣٣٢، ط ـ منشورات مكتبة بصيرتي في ذيل طبعة حاشيته علىٰ فرائد الأُصول.

وجانب العدم أكثر غلبةً عليه كان أكثر مباينة لتلك القوّة، فتنكمش منه، وهذا معنىٰ إدراك العقل للحسن والقبح. وهذا يُوجِب لا محالة صحَّة مدح الفاعل وذمّه علىٰ الفعل الحسن أو القبيح.

أقول: إنَّ هذا المدح والذمّ الوليدين لمجرد ملائمة القوّة العاقلة أو منافرتها إنَّما هو من سنخ مدح ذي الصورة الحسنة أو ذي الصورة القبيحة الملائمة للقوة الباصرة أو المنافرة لها، ومن سنخ مدح ذي الطعم الشهيّ أو ذمٍّ ذي الطعم الكريه، أو الرائحة الشهيّة والكريهة الملائمين أو المنافرين للذائقة والشامَّة. وهذا غير المدح والذمِّ الخُلُقيين.

ولأُستاذنا الشهيد الصدر حديث مفصَّل في مناقشة كلام المحقِّق الخراساني أقتصر هنا علىٰ نقل قطعة منه مع تلخيصها، وهي: أنَّ المقصود بملائمة العقل ومنافرته لما يدركه من الفعل بسبب السنخيّة وعدم السنخيّة إن كان هو التسانخ وعدمه مع المُدرَك بالعرض ـ وهو واقع الفعل ـ فقد حُقِّق في محله أنَّ المُدرَك الحقيقيّ ليس هو ذاك، وأنّ الإدراك وكذلك الحبّ والبغض ونحو ذلك كلِّها تُصَبُّ علىٰ الصور لا علىٰ ذوات الصور الخارجيّة.

وإن كان هو التسانخ وعدمه مع المُدرَك بالذات ـ وهي الصورة ـ فالمُدرَك بالذات دائماً علىٰ حدٍّ سواءٍ من حيث التجرد وسعة الوجود، بلا فرق بين أن يكون المُدرَك بالعرض وسيعاً أو ضيقاً، فإنَّ من أَوليّات علم النفس في الفلسفة أنَّ إدراكات قوّة واحدة تناسب تلك القوّة في التجرّد وسعة الوجود علىٰ نهج واحد، فليس ـ مثلاً ـ إدراك الأمر المادِّي مادِّياً والمجرّد مجرّداً، بل إدراك ماهو من أرقىٰ الوجودات يساوي من حيث التجرُّد والمسانخة للعقل إدراك ماهو من أخسِّ الوجودات، كالبياض ـ مثلاً ـ الذي هو وجود عرضيٌّ حالٌّ في وجود مادِّيٍّ وما للمُدرَك بالعرض من السعة والضيق أو الخيريّة والشرِّيّة لا يسري إلىٰ المُدرَك

بالذات، وإنَّما يحكم علىٰ المُدرَك بالذات بأحكام وخصائص المُدرَك بـالعرض بمنطق الفناء، ولا يُوجب الفناء سريان الخصائص والآثار من الخارج إلىٰ الصورة حقيقة، فصورةُ النار ـ مثلاً ـ لن تحرق بفنائها في ذي الصورة، وإدراك الوسيع أو الضيِّق لن يكون وسيعاً أو ضيقاً بلحاظ المدرك بالعرض، كي يترتَّب عـلىٰ ذلك انبساط القوّة العاقلة وانقباضها؛ ولذا ترى وجداناً أنَّ القوّة العاقلة ليس الأولى بها أن تدرك العدل فقط دون الظلم، كما كان الأَولىٰ بالقوّة الباصرة أن تدرك الصورة الحسنة دون القبيحة، والأولىٰ بالقوّة الشامّة أن تشمَّ الروائح العطرة دون الكريهة. هذا ما أردنا الاقتصار عليه من نقل كلام أُستاذنا الشهيد ﷺ[١] .

وفي نهاية البحث عن مقياسيّة المـصلحة والمـفسدة بـودِّي أن أُشـير إلىٰ أنَّ إنكارنا لهذا المِقياس إنَّما يعني مغايرة عنوانيْ الحسن والقبح أو الفضيلة والرذيلة لعناوين اللذّة والألم أو الكمال والنقص، وعدم الملازمة فيما بينها، فلو كنتَ تلتذُّ بإيذاء الآخرين أو تحصل علىٰ كمال علميٍّ من وراء اغتصاب شـخص لتـعليمه إيّاك من دون رضاه مثلاً، فهذه رذيلة لك وليست فضيلة، وهذا لا ينافي كون حفظ مصالح الناس أو درء المفاسد عنهم أمراً حسناً في ذاته بحكم العقل، وتوريطهم في المفاسد أمراً قبيحاً بحكم العقل، ولكنْ لا يـجوز لك ـ أيـضاً ـ تـوفير المـصلحة لشخص بإدخال المفسدة عـلىٰ شـخص آخـر وإن صـغرت المـفسدة وكـبرت المصلحة؛ لأنَّ توفير المصلحة للناس مستحب في منطق العقل العملي، وإدخـال المفسدة علىٰ الناس حرام في منطق العقل العملي.

وقد اتّضح بما ذكرناه: أنَّ مِقياسيّة المصلحة والمفسدة أو اللذّة والألم إن كانت بمعنىٰ مِقياسيّة المصلحة أو اللذّة الشخصيتين، فهذا مِقياس باطل؛ لما أشرنا إليه من بعض النقوض.

---

(١) راجع كتابنا مباحث الأُصول الجزء الأوَّل من القسم الثاني: ٥١٩ ـ ٥٢٣.

وإن كانت بمعنىٰ مِقياسيّة المصلحة أو اللذّة النوعيتين، فتوفير مصلحة الناس يمكن أن يجعل مصداقاً من مصاديق الفضيلة الثابت حسنها بمِقياس آخر، وليس هذا العنوان هو المِقياس الأوّلي للحسن والقبح وإلّا لورد عليه النقض أيضاً، وإن شئت فاجعل هذا تصديقاً في الجملة بمِقياسيّة المصلحة والمفسدة بالمعنىٰ الصغرويّ دون الكبرويّ.

المِقياس الخامس ـ العواطف:

ومعنىٰ مِقياسيّة العواطف: أنَّ ما نحسُّ به من حسن بعض الأُمور وقبح بعضها ليس مرجعه عدا العواطف الموجودة فينا، فنحن إنَّما نقول: إنَّ ضرب اليتيم قبيح، وإنَّ الترفيه عنه حسن؛ لما نملكه في أنفسنا من صفة الرقَّة والحنان والشفقة عليهم، في حين أنَّنا لا نقول بقبح قتل الحشرات المزاحمة لراحة الإنسان؛ لأنَّنا لا نملك رأفة وشفقة عليها.

ولو فرضنا مجتمعاً قسيَّ القلب لا يعطف علىٰ يتيم أو ضعيف، ولا يتألَّم بأذاهم، ولا يرتاح براحتهم لما قالوا بقبح ضرب اليتيم وحسن مساعدة الضعيف.

ويمكن تنبيه الوجدان إلىٰ خطأ فكرة من هذا القبيل بالفاته إلىٰ بعض الأمثلة الوجدانيّة: من قبيل إحساس وجداننا بحقَّانيّة القِصاص حتّىٰ لو كان القِصاص يجرح عواطفنا؛ لأنَّه كان يرد علىٰ ابننا مثلاً، فيؤدِّي إلىٰ قتله أو جرحه أو نحو ذلك، فتنجرح عاطفتنا الرحميّة باصابة ابننا الأذىٰ، ولكننا مع ذلك نحسُّ بحقَّانيّة هذا القِصاص.

وأيضاً نرىٰ أنَّ الضمير والوجدان يحكمان بحسن العفو وبحقانيّة القِصاص في مورد واحد وفي وقت واحد، في حين أنَّه لو أُرجع ذلك إلىٰ العواطف لكان هذا تناقضاً؛ لأنَّ الشخص إمّا أن تنحاز عاطفته بعد الكسر والانكسار نحو العفو أو نحو

القِصاص، فما معنىٰ حسن العفو وحقَّانيّة القِصاص في وقت واحد؟!

وبالإمكان افتراض أنَّ المِقياس في الحسن والقبح هو العادة، فالذين تعوَّدوا علىٰ ترك أكل لحم الحيوانات يحكمون بقبح ذلك، والذين تعوَّدوا علىٰ احتجاب النساء من الرجال يحكمون بحسن ذلك وبقبح سفورهن، والذين تعوَّدوا علىٰ سفورهن يحكمون بحسن السفور وبقبح الحجاب للنساء.

إلَّا أنَّنا لم نرَ حاجة إلىٰ إفراز العادة بالبحث المستقل، فمِقياس العادة إمّا هو شبيه بمِقياس العواطف، ويمكن تنبيه الوجدان علىٰ خطأ ذلك بمثل الطريقة التي سلكناها لتنبيه الوجدان علىٰ خطأ مِقياسيّة العواطف، فحتى الشخص أو المجتمع الذي تعوَّد علىٰ إيذاء الضعيف لو لم يبلغ أمره إلىٰ حدٍّ موت الوجدان والضمير يحكم وجدانه وضميره بقبح ذلك، إلَّا أنَّه يستهين بارتكاب القبيح.

وإمّا هو شبيه بمِقياس العرف والعقلاء، وبإمكانك أن تسمِّيه باسم مِقياس العرف والعقلاء، إلَّا أنَّه كان المقصود فيما مضىٰ رأيهم، والمقصودُ هنا عادتهم، وقد مضىٰ الجواب عن مِقياسيّة العرف والعقلاء.

المِقياس السادس ـ العقل:

وهذا يعني: أنَّ العقل يدرك الحسن والقبح كما يدرك الوجوب والاستحالة وما إلىٰ ذلك. وقد يُسمَّى الثاني بالعقل النظريِّ، والأوّل بالعقل العمليِّ. وقد يُسمّىٰ ما يدرك بالعقل النظريِّ بما ينبغي أن يعلم، وما يدرك بالعقل العمليِّ بما ينبغي أن يُعمل.

وخلاصة المدَّعىٰ لأصحاب هذا المِقياس: أنَّ الحسن والقبح ليسا مجرّد أمر مشهوريٍّ واقعه نفس تطابق العرف أو العقلاء أو المجتمع عليه، بل لهما ثبوت في أُفق الواقع يدركهما العقل، وما يصحُّ من المقاييس الأُخرىٰ يُشكِّل ـ بقدر ما

يصحّ ـ مصداقاً لهذا المِقياس. فمثلاً: مِقياس المصلحة والمفسدة وإن لم نقبله بشكل العموم، وقلنا: إنّ الحسن والقبح غير اللذّة والألم وغير الكمال والنقص، إلّا أنّه لا إشكال في حسن مراعاة مصالح الناس أو مصالح المجتمع في حد ذاتها، ولا في قبح الإضرار والإفساد فيما بين الناس أو في المجتمع في ذاته.

ونقول : إنَّ هذا الحسن والقبح ـ أيضاً ـ ليسا مجرّد أمر اعتباري تطابق عليه المجتمع، أو حكم به العقلاء أو القانون مثلاً، بل هما أمران واقعيّان أدركهما العقل. وكذلك مِقياس الدين بمعنى وجوب اتِّباع الدين الحقّ يعني حسن اتِّباعه عقلاً وقبح مخالفته علىٰ أساس مولويّة المولىٰ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ المدركة بالعقل العملي.

والواقع : أنَّ العقل العمليَّ والعقل النظريَّ أمر واحد، وهي: القوّة المُدركة المُودَعة من قبل الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في الإنسان، وإن كان قد يُصطَلح عليهما باسمين مختلفين؛ نتيجة اختلاف المدرَكات من حيث كونها علميّة بحتة أو عمليّة، أو كونها ممّا هو كائن أو ممّا ينبغي أن يكون.

وللمحقِّق الإصفهاني‎ؒ برهان علىٰ عدم ضمان حقّانيّة مُدرَكات العقل العملي، وأنَّها ليست بأعلىٰ مستوىٰ ممّا يُسمَّىٰ في علم الميزان بالقضايا المشهورة. وحاصل كلامه مع تغيير يسير في تعبيره ما يلي[1] : يقول‎ؒ: وهذا الحكم العقليُّ من الأحكام العقليّة الداخلة في القضايا المشهورة المسطورة في علم الميزان في باب الصناعات الخمس، وأمثال هذه القضايا ممّا تطابقت عليه آراء العقلاء؛ لعموم مصالحها، وحفظ النظام، وبقاء النوع بها.

وأمَّا عدم كون قضيّة حسن العدل وقبح الظلم ـ بمعنىٰ كونه بحيث يستحقّ عليه المدح أو الذم ـ من القضايا البرهانيّة.

---

(١) راجع نهاية الدراية ٢ / ٨.

فالوجه فيه : أنَّ مواد البرهان منحصرة فـي الضـروريّات الستِّ: فـإنَّها إمَّـا أوليَّات، ككون الكلّ أعظم من الجزء، وكـون النـفي والإثـبات لا يـجتمعان. أو حسِّيات سواءٌ كانت بالحواس الظاهرة المسمَّاة بالمشاهدات، ككون هذا الجسم أبيض أو هذا الشيء حلواً أو مرّاً، أو بالحواس الباطنة المسمَّاة بـالوجدانـيّات، وهي: الأُمور الحاضرة بنفسها للنفس. كحكمنا بأنَّ لنا علماً وشوقاً وشـجاعة. أو فطريات، وهي: القضايا التي قياساتها معها، ككون الأربعة زوجاً؛ لأنَّها مـنقسمة بالمتساويين، وكلُّ منقسم بالمتساويين زوج. أو تـجربيَّات بـتكرّر المشـاهدة، كحكمنا بأنَّ مادَّة الاسبرين تقطع الحمّىٰ مثلاً. أو متواترات، كحكمنا بوجود البلاد النائية التي هي غائبة عنَّا، ولكن ثبت لنا وجودها بأخبار جماعة يمتنع تواطؤهم علىٰ الكَذِب عادة. أو حدسيَّات موجبة لليقين، كحكمنا بأنَّ نور القمر مستفاد من الشمس؛ للتشكلات البدرية والهلاليّة وأشباه ذلك.

ومن الواضح : أنَّ استحقاق المدح والذم بالإضافة إلىٰ العَدل والظُّلم ليس من الأوَّليَّات بحيث يكفي تصور الطرفين في الحكم بثبوت النسبة، كيف وقـد وقـع النزاع فيه من العقلاء. وكذا ليس من الحسِّيات بمعنييها كما هو واضح؛ لعدم كون الاستحقاق مشاهداً، ولا بنفسه من الكيفيات النفسانيّة الحاضرة بنفسها للـنفس. وكذا ليس من الفطريّات؛ إذ ليس معها قياس يدلُّ علىٰ ثبوت النسبة. وأمّا عـدم كونه من التجربيَّات والمتواترات والحدسيَّات ففي غاية الوضوح، فثبت أنَّ أمثال هذه القضايا غير داخلة في القضايا البرهانيّة، بل من القضايا المشهورة.

أقول: من الصحيح ما ذكره من أنَّ أصل الحسن والقبح بوصفهما أمرين واقعيين قد وقع الخلاف فيه؛ لأنَّ بعض الفلاسفة والمفكرين أنكروا إدراك ذلك، وجـعلوه من سنخ المشهورات، أو العادات أو المسلَّمات المأخوذة من أعلىٰ، إلّا أنَّ مجرّد وقوع الخلاف ليس دليلاً علىٰ نفي بداهة القضيّة وأوَّليتها؛ إذ قد يكون الخـلاف

علىٰ أساس شبهة حصلت للمخالف غطَّت إدراكه النابع من حاقّ نفسه، وقد يكون ـ بغضّ النظر عن فرض عروض شبهة ـ غير قادر علىٰ إدراك ما أدركه غيره بالبداهة؛ لأنَّ البشر المتمتع بشيء من التكامل في الإدراك وفق الحركة الجوهريّة ليسوا سواءً في ذلك، بل هم مختلفون في الاستعداد والإدراك، فلو أدرك أحد شيئاً ولم يدرك الآخر لم يكن ذلك مساوقاً؛ لفرض أنَّ إدراك المُدرِك ناشئ من تدخل أُمور خارجيّة: كالعادة والشهرة وغير نابع من حاقّ نفسه.

وفي مقابل هذا البرهان الذي أفاده المحقِّق الإصفهاني﵀ لنفي إدراك واقعيّة الحسن والقبح وحقَّانيتهما علىٰ مستوىٰ الواقع، لا علىٰ مستوىٰ مجرّد تطابق العقلاء، يوجد برهان معاكس قد يُبرهَن به علىٰ واقعيّة الحسن والقبح وحقَّانيّتهما.

وهذا البرهان يأتلف من مُقدّمتين :

الأولىٰ : أنَّ المعارف الناشئة من حاقِّ النفس تُصيب الواقع ولا تخطأ، ومن هنا كانت الضروريّات ـ علىٰ حدِّ تعبير علم الميزان ـ مضمونة الحقَّانيّة؛ إذ نشأ فهمها من حاقِّ النفس البشريّة، لا بتأثُّر من أمر خارجيٍّ: كعرف، أو عادة وقانون، أو بناء المجتمع، أو العقلاء، أو ما إلىٰ ذلك.

أمَّا المعارف الناشئة بمعونة هذه المؤثِّرات الخارجيّة ونحوها، فليست مضمونة الواقعيّة والحقَّانيّة؛ لأنَّ هذه المؤثِّرات الخارجيّة ربَّما لا تصيب الواقع.

والثانية : أنَّ كثيراً من قضايا الحسن والقبح والأحكام الخُلُقيّة ناشئة من حاقِّ النفس؛ والذي يشهد لنشوئها من حاقِّ النفس البشريّة تطابق الناس عليها عادةً وغالباً، برغم اختلافهم في البيئات والظروف والعادات وما إلىٰ ذلك. فلو كانت ناشئة من البيئات والملابسات الخارجيّة لاختلفت باختلاف الناس.

نعم، نحن نحسُّ بوقوع الخلاف في القضايا الخُلُقيَّة في ثلاثة موارد، وكلُّها لا تضرُّ بما شرحناه: من أنَّ إطباق النفوس علىٰ درك قضايا خُلُقيّة دليل علىٰ

نشوئها من حاقّ النفس:

الأوّل: الاختلاف الصغرويُّ الذي قد يقع في التطبيق لا في أصل الفكرة، فلا يضرُّ ببداهة الفكرة وضروريّتها، مثال ذلك: أنَّ مجتمعاً ما وفي زمان ما يطبّق حسن إحسان فرد علىٰ فرد بالتصدُّق عليه، ويعتبر هذا فضيلة وعملاً ممدوحاً، في حين أنّ مجتمعاً آخر أو نفس المجتمع في زمن آخر يعتقد أنّ هذا الأُسلوب من العطاء والإحسان لا يُميَّز فيه بين المستحقّ وغيره ويُميت الهمم، ويميت ما في النفوس من شرف وإباء واستعداد للعمل، فالصحيح هو: إنشاء جمعيّات للإحسان تجتمع عندها عطاءات الناس، وهي التي تتولّىٰ الإنفاق علىٰ المعوزين بعد أن تدرس أحوالهم، وتحاول إيجاد عمل لمن لا عمل له.

وهذا كما ترىٰ ليس خلافاً في كبرى حسن إعانة العاجز وفضيلة الإحسان إلىٰ الناس، وإنّما الكلام في تشخيص الطريقة التي تكون أوصل إلىٰ المطلوب.

والثاني: إنكار واقعيّة الحسن والقبح أو التشكيك فيها؛ لشبهة حصلت للمنكر أو المشكِّك، من قبيل البرهان الذي مضىٰ ذكره عن المحقّق الإصفهاني ﷺ؛ لنفي كون إدراك ذلك من سنخ إدراك الضروريّات. وقد مضىٰ الجواب عن ذلك، فترى أنَّ الإنكار أو التشكيك ـ علىٰ أساس تخيُّل ذلك البرهان ـ إنكارٌ أو تشكيك عن شبهة غطَّت الفهم الناشئ من حاقِّ النفس، وحالت دون الوصول إلىٰ إدراك الحسن والقبح، ولا يكون ذلك شاهداً لعدم ضروريّة هذا الإدراك أو عدم نشوئها من حاقِّ النفس.

والثالث: بعض القضايا الخُلُقيّة الناشئة من المؤثِّرات الخارجيّة، فإنَّنا حينما نقول بواقعيّة الحسن والقبح وضروريتهما ونشوء إدراكهما من حاقِّ النفس لا ندَّعي أنَّ جميع الأخلاقيَّات من هذا القبيل، فربَّما يكون الإيمان بحسن الحجاب أو السفور أو قبحه للنساء ناشئاً من المؤثِّر الخارجيِّ: من دين، أو عادة،

أو ملاحظة المصالح والمفاسد المختلف فيها؛ ولذا ترى اختلاف مجتمع عن مجتمع في كون الحجاب والعفَّة فضيلة، والسفور وترك الحياء رذيلة، أو العكس. وهـذا لا يضرُّ بالاعتراف بواقعيّة الحسن والقبح في قضايا أُخرى يؤمن بها الجـميع أو الغالبية الساحقة من غير منْ حصلت له الشبهة، من قبيل: حسن الصدق والوفاء والإيثار، وقبح الكذب والغدر والإيذاء، وما شابه ذلك.

فقد اتَّضح بهذا العرض: أنَّ كثيراً من القضايا الخُلُقيّة قد نتج إدراكها من حاقِّ النفس؛ لتطابق غالبيّة الناس عـليها البـعيدين عـن شـبهة تـغطِّي الفـهم الأوَّليَّ، ولا قاسم مشترك فيما بينهم ممَّا يمكن أن يكون منشأً للفهم والإدراك عدا النفس البشريّة، فنستكشف أنَّ علَّة هذا الفهم المشترك بينهم هي: حاقُّ النفس التي هي القاسمة المشتركة بينهم.

إلَّا أنَّ هذا الدليل لواقعيّة الحسن والقبح قابل للمناقشة؛ وذلك بالمناقشة فـي المُقدّمة الثانية، وهي: انحصار العامل المشترك بين غـالبيّة النـاس فـي النـفس البشريّة، فإنَّهم مشتركون ـ أيضاً ـ في غريزة جلب المصالح ودفع المفاسد، فلعلَّ ذلك جرَّهم بشكل وآخر إلىٰ أن يجنحوا إلىٰ القول بحسن جملة من الأشياء وقبح جملة منها، ممَّا يشتمل علىٰ مصالح نوعيَّة أو مـفاسد نـوعيّة، وأيـضاً نـقول: إنَّ النماذج التي عاشرناها من المجتمعات البشريّة مشتركون في أصـل خـضوعهم لقوانين وحكومات وانتظامات، فلعلَّ هذا أوحىٰ إليهم بالحسن والقبح.

وكأنَّه لعلاج هذا الإشكال قد يُطوَّر من صياغة الاستدلال وتُغيَّر إلىٰ الصـيغة التالية، وهي ما يلي:

لو أنَّ أحداً خُلِقَ منفرداً في مكان، وعـاش وحـده مـن دون أن يشـاهد أيَّ مجتمع، أو يُؤثِّر فيه أيُّ تعليم ونحوه، ثُمَّ قال له أحد مثلاً: أنا أُعطيك طعاماً شهيّاً في كلِّ يوم علىٰ أن تتكلَّم بخبر سواءٌ كان صدقاً أو كذباً، فذلك الشخص سـوف

يختار الصدق إن لم توجد له أدنىٰ فائدة في الكذب. وهذا شاهد علىٰ أنَّه يُدرِك حسن الصدق وقبح الكذب، فهذا إدراك ناشئ من حاقِّ النفس؛ لعدم وجود مؤثِّرات خارجيّة حسب الفرض.

وبكلمة أُخرى : إنَّ الإنسان الذي ينمو ويترعرع بعيداً عن كلِّ المؤثِّرات الخارجيّة ـ حسب الفرض ـ لو سألناه عن شيء وقرَّر أن يجيب عن سؤالنا فهو بطبعه الأوَّلي يجنح إلىٰ الصدق لا الكذب. فهذا ليس علىٰ أساس المؤثِّرات الخارجيّة، ولا علىٰ أساس حبِّ الذات؛ إذ هو لا يعلم أنَّ الصدق نافع والكذب ضار حتّىٰ يدفعه حبُّ الذات إلىٰ ذلك.

والجواب :

أوَّلاً : أنَّ هذا الميل إلىٰ الصدق قد يكون بنفسه طبعاً وغريزة، أو أنَّ أوَّل وأشدَّ ما يجلب ذهن المخبر إلىٰ نفسه هو الواقع الذي علمه، لا خلافه، ولا يكون هذا راجعاً إلىٰ باب الإدراك أصلاً؛ ولذا نرى أنَّ حالة الصدق موجودة لدىٰ الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا بعدُ مبلغاً يُدرِكون قبح الكذب أو حسن الصدق.

وثانياً : لو غضضنا النظر عن الميل الطبيعيِّ والغريزيِّ إلىٰ الصدق، أو كون الواقع المعلوم أكثر جلباً للنظر من خلافه مثلاً، فمن أين لنا العلم بأنَّ هذا الشخص الذي فرضنا أنّه عاش منفرداً وترعرع منفرداً يجنح إلىٰ الصدق لا الكذب؟! فإنَّ هذه الفرضيّة لم نجرِّبها خارجاً، ولو عَلِمنا بذلك عن طريق إيماننا بحسن الصدق وقبح الكذب، أو عن طريق إيماننا بغريزيّة الصدق مثلاً فأَيُّ فائدة تترتَّب علىٰ افتراض هذه الفرضيَّة؟!

والواقع : أنَّ حقّانيّة الإدراك العمليِّ لا يمكن أن تثبت ببرهان، ولا أن تُرَدَّ ببرهان، وإنَّما الأمر الممكن هو تنبيه الوجدان بذكر بعض الأمثلة الواضحة، من

قبيل: قبح قتل الناس وإيذائهم بلا سبب، وحسن إعانة العاجز ونحو ذلك، فالذي لا يدرك ـ حتّىٰ بعد إلفاته إلىٰ مثل هذه الأمثلة الواضحة ـ الحسن والقبح والفضيلة والرذيلة لا يمكن إثبات ذلك له بأيٍّ برهان من البراهين، والذي يدرك ذلك فبالإمكان أن يُطرَح أمامه احتمالان:

الأوّل: احتمال أن يكون هذا الإدراك حقّانيّاً ونابعاً من حاقِّ النفس.

والثاني: احتمال أن يكون ذلك ناشئاً من العادة أو الشهرة أو الدين أو القانون أو العاطفة أو ما إلىٰ ذلك، فبعد طرح هذين الاحتمالين عليه إن احتمل صحّة الثاني، زال عنه ذلك الإدراك، ولا يمكن إرجاعه إليه ببرهان صحيح، وإن لم يحتمل صحّة الثاني لم يحتج إلىٰ برهان.

ونحن نؤمن بهذا المِقياس، ونعتقد رجوع المقاييس الأُخرى الصحيحة ولو في الجملة بقدر مِقياسيَّتها إلىٰ هذا المِقياس، كمِقياس الدين، أو مِقياس المصلحة والمفسدة.

ومن أراد التوسع أكثر من هذا فليراجع كتابنا مباحث الأُصول الجزء الأوَّل من القسم الثاني بحث الاعتماد علىٰ الحكم العقليِّ لاستنباط الأحكام الشرعيّة في قبال الأخباريين المنكرين لذلك.

المِقياس السابع ـ نظريّة الأوساط أو الوسط العادل:

إنَّ لحكماء اليونان ومن تابعهم في الأُسلوب كلمات كثيرة في بيان الفضيلة والرذيلة، ولم نعلم هل كانوا حقّاً بصدد ذكر ضابط يُرجَع إليه في مقام تمييز الفضيلة عن الرذيلة، أو لا؟ ونحن نذكر منها هنا ثلاث كلمات:

الكلمة الأُولىٰ: ما نُقِل عن سقراط: من أنَّه ليست هناك في الحقيقة إلَّا فضيلة

واحدة، وهي: المعرفة. وقد نُقِل عنه[١] ما يرجع إلىٰ تحديد مِقياسيّة المعرفة. وتفسيرها بجانبين:

الأوّل ـ الجانب السلبيُّ، وهو: أنَّه لا خير إلّا بالعلم، فإنَّ الإنسان لو عمل عملاً لا يعلم بخيريَّته فليس خيراً ولا فضيلة.

والثاني ـ الجانب الإيجابي، وهو: أنَّ من عَلِم علماً تاماً بأنَّ الشيء خير، فعلمه يحمله حتماً علىٰ عمله، ومعرفته بضرر شيء تحمله حتماً علىٰ تركه، وليس أحد يعمل الشرَّ وهو عالم بنتائجه، فكلُّ الشرور ناتجة من الجهل.

وشيء من الجانبين غير صحيح:

أمَّا الجانب السلبيُّ فلأنَّ الخير لا يتقوّم بالعلم بكونه خيراً، فمَنْ يُكرِم الناس أو المجتمع ويُعين المظلوم فقد فعل خيراً، وكان متَّصِفاً بصفة حسنة، ولو لم يعلم هو بخيريّة هذا الفعل وهذه الصفة. وقد ثبت في علم الأُصول أنَّ الشيء يستحيل أن يتقوَّم بالعلم بنفسه.

نعم، حسن السريرة وسوء السريرة يتقوَّمان بمدىٰ انكشاف موضوع حسن الفعل وقبحه، ومدىٰ قصد الفاعل لذلك الموضوع، كما أنَّ سوء السريرة يتقوَّم بمدىٰ انكشاف نفس قبح الفعل، وليس فقط بانكشاف موضوعه، فمن تربّىٰ ـ مثلاً ـ في بيئة تعتبر أنَّ النهب والغارة والتهجّم شجاعة حسنة واعتقد بذلك، ففعله لذلك لا يدلُّ علىٰ سوء سريرته، ولكن فعله قبيح علىٰ أيِّ حال، والذم ينصبُّ علىٰ الفعل ولا ينصبُّ علىٰ سريرة الفاعل.

وأمّا الجانب الإيجابيُّ فلأنَّه ليس كلُّ مَنْ يعلم بخيريّة الخير وشريَّة الشرِّ وكان ملتفتاً إلىٰ الآثار والنتائج كان من المحتَّم أنّه سوف يتَّجه نحو الخير ويترك الشر؛ لأنَّ الحاكم في النفس البشريّة ليس منحصراً في العقل حتّىٰ يتبع ما يراه حقّاً

---

(١) كتاب الأخلاق: ١٩٣.

وصحيحاً، بل العواطف والشهوات والميولات النفسيّة كلُّها ممَّا يُصدِر الحكم في نفس الإنسان، بمعنى تأثيره في تحديد إرادة الإنسان وشوقه. وما أكثر مَنْ يعرف الحقَّ أو الخير أو الصلاح ويخالفه، ومن يعلم الشرَّ أو المفسدة ويرتكبه.

علىٰ أنَّه لو كان مقصود صاحب هذا الكلام جعل مِقياس وضابط يرجع إليه في مقام تمييز الفضيلة عن الرذيلة، قلنا: لا يمكن جعل الضابط عبارة عن العلم ـ حتّىٰ لو آمنّا بالجانبين السلبي والإيجابي ـ بل الضابط بهذا المعنىٰ يجب أن يكون شيئاً آخر؛ لأنَّ الضابط المميِّز هو الذي يُورِث العلم بالخيريّة أو الشرِّيّة، فلا يمكن أن يكون هو نفس العلم.

الكلمة الثانية : ما اشتهر بينهم: من أنَّ أُصول الفضائل أربعة: الحكمة، والعفَّة، والشَّجاعة، والعَدل، وبياناتهم في حصر أُصول الفضائل مختلفة:

فمنها : ما نُقِلَ عن أفلاطون تلميذ سقراط: من أنَّ في الإنسان قوىٰ ثلاث:

العاقلة، وهذه إذا اعتدلت نشأت عنها فضيلة الحكمة.

والقوّة الغضبيّة، وهذه إذا اعتدلت نشأت عنها الشَّجاعة.

والقوّة الشهويّة أو البهيميّة، وهذه إذا اعتدلت نشأت عنها العفَّة. وهذه الفضائل الثلاث باعتدالها ينشأ عنها العَدل، فالعَدل تتَّصف به النفس عند أداء هذه القوىٰ الثلاث وظائفها باعتدال وعندما تكون متساندة بحيث تتعاون كلُّ قوَّة مع الأُخرى[1].

ومنها : أنَّ النفس ذات قوى أربع: العاقلة، والعاملة، والشهويّة والغضبيَّة. وتنشأ الفضيلة من إطاعة القوىٰ الثلاث الأخيرة للأُولى، فبإطاعة القوّة العاملة للعاقلة واعتدالها تحصل الحكمة، وبإطاعة القوّة الشهويّة لها واعتدالها تحصل العفَّة، وبإطاعة القوّة الغضبيّة لها واعتدالها تحصل الشَّجاعة. ثُمَّ تحصل من حصول هذه

---

(١) منقول عن كتاب الأخلاق: ١٩٦.

الفضائل الثلاث ـ المترتب علىٰ تسالم القوىٰ الأربع وانقهار الثلاث تحت الأُولىٰ ـ حالة متشابهة هي كمال القوىٰ الأربع وتمامها، وهي: العَدالة[١].

ولا يخفىٰ أنَّه علىٰ هذين الوجهين لا يمكن عدُّ العَدالة فضيلة مستقلّة تجاه الفضائل الثلاث الأُخرى إلّا بلقلقة اللسان، ولا تتحصَّل من وراء الحكمة والعفَّة والشَّجاعة من هذين البيانين فضيلة أُخرى اسمها العدالة. وبعد فرض اعتدال القوىٰ الثلاث ونشوء الحكمة والعفَّة والشَّجاعة ما معنىٰ فرض اعتدال آخر فيما بينها ؟!

(هذا. وهم يقصدون بالقوّة الغضبيّة مبدأ دفع غير الملائم وبقوّة الشهوة مبدأ جلب الملائم)[٢].

ومنها : أنَّ النفس ذات قوى أربع، وهي ما مضت: من العاقلة، والعاملة، والشهويّة، والغضبيّة. ويحصل من تهذيب العاقلة العلم والحكمة، ومن تهذيب العاملة العَدالة، ومن تهذيب الغضبيّة الحلم والشَّجاعة، ومن تهذيب الشهويّة العفَّة والسخاء[٣].

والنراقيُّ في جامع السعادات بالرغم من ذهابه إلىٰ هذا الوجه يرىٰ أنَّ العَدالة ليست فضيلة مستقلَّة في مقابل سائر الفضائل حيث يقول: إنَّ العَدالة عبارة عن انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوَّتي الغضب والشهوة. فليست وراء فضائل العاقلة والغضب والشهوة ـ التي تحصل باستعمال العاملة لها ـ فضيلةٌ أُخرى[٤].

---

(١) مأخوذ من جامع السعادات ١ / ٧٠.

(٢) مأخوذ من المصدر السابق: ٦٩.

(٣) المصدر السابق: ٦٩.

(٤) راجع المصدر السابق: ٧٢.

وليس من الصحيح ما جاء في الوجهين الأخيرين: من افتراض قوّة عاملة في النفس (وهي مبدأ تحريك البدن) في مقابل قوَّتي الغضب والشهوة، وهما مبادئ دفع غير الملائم وجلب الملائم، فإنَّهما بنفسهما عاملتان ومحرِّكتان بلا حاجة إلىٰ فرض قوَّة عاملة أُخرى.

كما أنَّ ما في هذه الوجوه الثلاثة من حصر قوى النفس المرتبطة بالأوصاف والأفعال في هذه القوى الثلاث أو الأربع لا مُبرِّر له، فمثلاً: قوّة العطف والرقَّة والترحُّم علىٰ الضعيف والمظلوم قوّة تحبِّذ للإنسان نصرة الضعيف والمظلوم، لا من باب أنَّ هذا جلب لما يلائم النفس أو دفع لما ينافرها، بل تكون نصرة الضعيف والمظلوم ملائمة للنفس، وتركها منافراً لها في طول هذه القوّة.

هذا بناءً علىٰ افتراض وجود قوّة ـ حقّاً باسم قوّة جلب الملائم، وقوّة أُخرى ـ حقّاً باسم قوّة دفع المنافر وراء نفس القوى التي جعلت الملائم ملائماً والمنافر منافراً.

وأمّا بناءً علىٰ ما لا تبعد صحته من أنَّ قوّة جلب الملائم أو دفع المنافر عبارة عن نفس القوى الملائمة لبعض الأشياء والقوى المخالفة لبعضها، فهي بمعونة القدرة وقوّة العضلات تحرّك الإنسان نحو الجلب والدفع. إذن ففرض كلٍّ من قوتي جلب الملائم ودفع المنافر أو كلٍّ من قوتي الشهوة والغضب قوّة واحدة ليس إلّا لعباً بالالفاظ وتسميةً لعنوان انتزاعيٍّ انتزع من مجموعة قوى باسم قوّة واحدة.

وأمّا كلمة الاعتدال التي جاءت في بعض هذه الوجوه فقد ترجع إلىٰ نظريَّة الأوساط التي سيأتي الكلام عنها في الكلمة الثالثة.

الكلمة الثالثة: هي نظريّة الأوساط أو الوسط العادل. فقد نُقِلَ عن أرسطو أنّه كان يذهب إلىٰ أنّ جِماع الفضائل «خضوع الشهوات لحكم العقل وتسليم زمام الشهوات للعقل يقودها» فللفضيلة عنصران: العقل والشهوة، فلا بدَّ من شهوة

لتُضبَط. فالزهَّاد الذين يقتلعون الشهوات من جذورها فـي ضـلال مـبين، إنَّـهم ينسون أو يجهلون أنَّ الشهواتِ جزء أساس من الإنسان، فاستئصالها ضارٌّ بطبيعته مُضيِّع لشطر منه، بل إنَّ استئصال الشهوات مضيِّع للفضيلة؛ لأنَّ الفضيلة ـكما بيَّنا ـ معناها شهوات موجودة يضبطها العقل، لا شهوات مستأصلة.

وبكلمة أُخرى : الفضيلة شهوات معتدلة، ومن ثمَّ كان هـناك طـرفان يـنبغي تجنُّبهما: الطرف الأوّل محاولة استئصال الشهوات. والطرف الثاني إرخاء العنان لها، إنَّما الفضيلة الاعتدال بحيث لا تطغى الشهوات علىٰ العقل ولا يطغى العـقل عليها فتستأصل. فهذا القول جرَّ أرسطو إلىٰ وضع نظريّة الأوسـاط، أي: أنَّ كـلَّ فضيلة وسط بين رذيلتين: رذيلة الإفراط ورذيلة التفريط، فالشَّجاعة وسط بين التهوُّر والجبن، والكرم وسط بين السرف والبـخل، والعـفَّة وسـط بـين الفـجور والخمود... وهناك فضائل لم تضع اللُّغة أسماء لطـرفيها الرذيـلين، ولكـن هـذا لا ينفي أنَّ الفضيلة في هذه الحالة ـ أيضاً ـ وسط بين رذيلتين[1].

وهل المقصود الوسط الحقيقيُّ أو الوسط النسبيُّ والإضافيُّ؟

يظهر من كتاب جامع السعادات أنَّ الفضيلة الكاملة هي الوسط الحقيقيُّ، ولكن الوسط المعتبر هنا هو الإضافيّ؛ لتعذّر وجدان الحقيقيّ والثبات عليه؛ لكونه في حكم نقطة غير منقسمة؛ ولذا تختلف الفضيلة بـاختلاف الأشـخاص والأحـوال والأزمان، فربَّما كانت مرتبة من الوسط الإضافيِّ فضيلة بـالنظر إلىٰ شـخص أو حال أو وقت، ورذيلة بالنسبة إلىٰ غيره، ومَنْ هو متصف بـفضيلة مـن الفـضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة هي الوسط الحقيقيّ إلّا أنّه لمَّـا كـانت تـلك الفضيلة قريبة إليه ولا يمكن وجود الأقرب منها إليـه له يـحكم بكـونها وسـطاً إضافيّاً؛ لأقربيتها إليه بالنسبة إلىٰ سائر المراتب، فالاعتدال الإضافيُّ له عـرض،

(١) مأخوذ من كتاب الأخلاق: ١٩٦.

وسطه الاعتدال الحقيقيُّ، وطرفاه طرفا الإفراط والتفريط، إلّا أنَّه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالاً إضافيّاً، وكُلَّما كان أقرب إلىٰ الحقيقيِّ كان أكمل وأقوى، وإذا خرج عنهما دخل في الرذيلة[١].

ولم نعرف من هذا الكلام ماهو الميزان في حدود الوسط الإضافيّ إلَّا أن يكون المقصود: أنَّ الميزان هو قدرة الشخص، أي: أنّه إذا عجز عن الوصول إلىٰ الوسط الحقيقيِّ فالفضيلة بالنسبة لكلِّ شخص هي أقرب النقاط إلىٰ الوسط الحقيقي ممّا يمكنه الوصول إليه.

ثُمَّ لو كان مقصودهم ـ حقّاً ـ جعل الوسط مِقياساً يرجع إليه لتشخيص الفضيلة والرذيلة، وتمييز إحداهما عن الأُخرى، فهذا أمر غير ممكن؛ إذ لا يمكن تعيين الوسط بمثل الشبر والذراع قبل معرفة الفضيلة، بل يجب أن نعرف الفضيلة أوَّلاً، وعن طريق معرفتنا لها نعرف أنَّ طرفيها إفراط وتفريط، وأنَّها هي الوسط، فهذا ليس مِقياساً بمعنى كونه مميِّزاً للفضيلة والرذيلة.

علىٰ أنّه لا برهان ولا وجدان يحكم علىٰ أنَّ الفضيلة في كلِّ شيء وبالقياس إلىٰ كلِّ صفة إنَّما هي الوسط.

وقد قال أحمد أمين في كتاب الأخلاق[٢]: إنَّ هناك كثيراً من الفضائل لا يظهر فيها أنَّها أوساط بين رذائل كالصدق والعَدل، فليس هناك إلّا كذب أو صدق، وعدل أو ظلم. وقول ابن مسكويه: إنَّ العَدل وسط بين الظلم والانظلام لعب بالألفاظ دعاه إليه تصحيح كلام أرسطو، فليس الانظلام إلَّا أثر الظلم.

أقول: إنَّ الاعتراض عليهم بالنقض بمثل الصدق والكذب، أو الإرشاد والتضليل باعتبار أنّه لا تُتصوَّر في طرفي الفضيلة رذيلتان تعتبر الفضيلة وسطاً

---

(١) مأخوذ من جامع السعادات ١/٧٨ و ٧٩.

(٢) كتاب الأخلاق: ١٩٧.

بينهما، لو عُرِضَ عليهم فمقتضى المشي علىٰ مشاربهم وأساليب بحثهم أن يجيبوا عن ذلك بأنَّ الصدق والكذب، أو الإرشاد والتضليل[١] ـ مثلاً ـ ليسا من الفضائل والرذائل الأصيلة، بل يرجعان إلىٰ الفضائل الأربع وأطرافها، كما قال في جامع السعادات[٢] : إنَّ الكذب في القول إذا نشأ من العداوة أو الحسد أو الغضب، كان من رذائل قوّة الغضب، وإذا نشأ من حبّ المال والطمع أو الاعتياد الحاصل من مخالطة أهل الكذب، كان من رذائل قوّة الشهوة.

فالنراقيُّ ﷺ يعدِّد مناشئ الكذب في القول ويرجعها إلىٰ أُصولها، فمثلاً إذا نشأ الكذب من قوّة الغضب فهو واقع في أحد طرفي الإفراط أو التفريط للغضب، والحدُّ الوسط له هو الشَّجاعة، وهكذا.

إلَّا أنَّ هذا الجواب ـ الذي في أكبر الظنّ سوف يجيبون به لو وجِّه إليهم الإشكال ـ لا يسمن ولا يغني من جوع؛ إذ هذا إنَّما يتمُّ لو قلنا: إنَّ الصدق والكذب، أو الإرشاد والتضليل ليسا بما هما حسناً وقبيحاً، وإنَّما يتصفان بالحسن والقبح لدخولهما ـ مثلاً ـ في التهوُّر أو الجبن، وهما قبيحان، أو في الشَّجاعة، وهي حسن، في حين أنّه ليس الأمر كذلك، فقبح الكذب أو التضليل ـ مثلاً ـ ثابت حتّىٰ لو فرض عدم نشوئهما من التهوُّر أو الجبن، أو من أيِّ طرفين من طرفي الإفراط والتفريط التي تذكر للفضائل الأربع.

وممَّا يشهد لذلك أنَّهم قد فسَّروا التهوُّر الذي هو طرف الإفراط للشجاعة بالإقدام علىٰ ما ينبغي الحذر منه، والجبن الذي هو طرف التفريط للشجاعة

---

(١) هذا التعبير الثاني فرقه عن التعبير الأوّل أنّه يشمل التورية ـ أيضاً ـ ولا يختصّ بالكذب.

(٢) جامع السعادات ٢/٢٤٦.

بالحذر ممّا ينبغي الإقدام عليه[١] فأَخذوا في موضوع التهوُّر والجبن عنوان ما ينبغي، وهذا معناه ثبوت انبغاء وعدم انبغاء (وهو حقيقة الأخلاق) قبل التهوُّر والجبن.

ولو تأمّلت فيما ذكرناه لا نفتح عليك باب واسع لنسف الأُسس التي أُسِّس عليها علم الأخلاق في مثل كتاب جامع السعادات.

وأمّا النقض بالعَدالة والظلم فإنّما يرد علىٰ مبنى عدِّ العَدالة فضيلة مستقلّة في مقابل سائر الفضائل، ولا يرد علىٰ مثل النراقيّ في جامع السعادات.

وعلىٰ أيٍّ حال، فما قيل من أنَّ العَدالة وسط بين الظلم والانظلام مَهْزلةٌ من الكلام، فإنَّ الانظلام يُقصَد به هنا قبول الظلم وعدم دفعه، فإن عُدَّ هذا مشاركة في الظلم مع الظالم؛ لأنَّه كما لا يجوز ظلم الآخرين كذلك لا يجوز ظلم النفس إذن، فالانظلام ظلم وليس طرفاً آخر للعدالة غير الظلم، وإلَّا فليس الانظلام قبيحاً.

ومن النقوض التي ترد عليهم مثال الحكمة لو بنينا علىٰ ما بنوا عليه من عدِّ الحكمة من الفضائل.

وقد جاء في كتاب جامع السعادات[٢]: أَنَّ حقيقة الحكمة هو العلم بحقائق الأشياء علىٰ ماهي عليه، وهو موقوف علىٰ اعتدال القوّة العاقلة، فإذا حصلت لها حِدَّة خارجة عن الاعتدال تخرج عن الحدِّ اللائق، وتستخرج أُموراً دقيقة غير مطابقة للواقع، والعلم بهذه الأُمور هو ضدُّ الحكمة من طرف الإفراط، وإذا حصلت لها بلادة لا ينتقل إلىٰ شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق، وهذا هو الجهل، وهو ضدُّه من طرف التفريط، فالحكمة وسط بين طرفين: الجربزة والبله، أو السفسطة (أي الحكمة المموّهة) والجهل (أي البسيط منه).

---

(١) جامع السعادات ١/٨١.

(٢) جامع السعادات ١/ ٨٠و ٨١.

أقول: لا أدري كيف جعل استخراج أُمور دقيقة غير مطابقة للواقع إفراطاً في القوّة العاقلة وحِدَّة لها، أفهل ترى لو استعملت القوّة العاقلة أكثر ممّا يُسمّى بالحدّ الوسط أوجبت خطأً ولماذا؟ أوليست قوّة العقل والإدراك كلّما اشتدَّت في الإنسان وقوي الإنسان علىٰ استعمالها كان ترقُّب كشف الحقائق أكثر؟! وليس استعمال قوّة التفكير بمنهج غير صحيح وموجب للوقوع في الخطأ إلّا نقصاً في عرض نقص عدم استعمال تلك القوّة أو البلادة الموجب للجهل البسيط، وجعل استعمال القوّة العاقلة بالنحو الصحيح وسطاً بين عدم استعمالها رأساً واستعمالها بشكل غير صحيح ليس ـ أيضاً ـ إلّا تلاعباً بالألفاظ.

المِقياس الثامن ـ حسن العَدل وقبح الظلم:

بمعنى أنَّ العناوين التي تحمل بذاتها الحسن والقبح إنَّما هي العَدل والظلم، وما سواهما يكون حسناً إذا دخل في العَدل، وقبيحاً إذا دخل في الظلم، فضرب اليتيم ـ مثلاً ـ ليس في ذاته حسناً أو قبيحاً، ولكنّه حينما يدخل في العَدل كما في ضرب وليِّه إيّاه لغرض التأديب يكون حسناً، وحينما يدخل في الظلم كما لو كان لغرض الإيذاء لا التأديب يكون قبيحاً. ومن هنا لا ترى مجتمعاً أو شخصاً اعتياديّاً يناقش في حسن العدل أو قبح الظلم، ولكن يجري الاختلاف في حسن أو قبح عناوين أُخرى؛ نظراً لاختلافهم في دخولها في العَدل أو الظلم.

ثُمَّ إنَّنا لو فسَّرنا العَدالة بمعنىً يكون مترتِّباً علىٰ سائر الفضائل، من قبيل ما مضىٰ عن بعضهم: من أنَّ الفضائل الثلاث ـ وهي: الحكمة، والعفَّة، والشجاعة ـ إذا اعتدلت نشأ عنها العَدل، فلا معنىٰ لفرض العَدالة والظلم مِقياساً للفضيلة والرذيلة، بمعنىٰ كونهما رأس الخيط لذلك.

ولو فسَّرنا العَدالة ـ كما مضىٰ عن بعض آخر ـ بأنَّها عبارة عن انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوتيْ الغضب والشهوة، كان هذا عبارة أُخرى عن أنَّ مِقياس الفضيلة والرذيلة هو العقل.

إلَّا أنَّ هذه التفاسير للعَدالة لا ترجع إلىٰ محصَّل، ولا نتصوَّر قوّة عـاملة فـي البشر محرِّكة لسائر القوى كالقوة الغضبيّة التي فسَّروها بقوّة دفع المنافر، والشهويّة التي فسَّروها بقوّة جلب الملائم، أفليست ها تان القوّتان هما العاملتين، فتحتاجان إلىٰ قوّة أُخرى تحركهما تُسمّىٰ بالقوّة العاملة؟! كما لا نتصوّر فرضيّة كون سـائر الفضائل موجبة لانتزاع فضيلة جديدة اسمها العَدالة.

وخير ما يقال في تفسير العَدالة والظلم هو: أنَّ العَدالة عبارة عن إعـطاء ذي الحقِّ حقَّه، والظلم عبارة عن سلب ذي الحقِّ حقَّه.

وما قد يقال من : (أنَّ العَدالة عبارة عن وضع الشيء في موضعه، والظلم عبارة عن وضعه في غير موضعه) لا نفهم له مفهوماً إلَّا برجوعه إلىٰ ما قلناه: من إعطاء ذي الحقِّ حقَّه، وسلب ذي الحقِّ حقَّه. وأنت ترىٰ أنّه لا معنىٰ لثبوت الحـقِّ إلّا الانبغاء والضرورة الخُلُقيّة، فمعنىٰ أنَّ فلاناً له حقٌّ عليَّ أن لا أُوذيـه أو حـقٌّ أن أُحسن إليه هو: أنّه من الضرورة الخُلُقيّة وممّا ينبغي أن لا أُوذيه أو أُحسن إليه، وليس هذا إلّا عبارة عن الحسن والقبح أو الفضيلة والرذيلة، إذن، فقولنا: العدل حسن أو الظلم قبيح قضيّة ضروريّة بشرط المحمول، وقـد أُخـذ مـحمولها فـي موضوعها، ويرجع روحها إلىٰ أنَّ الحسن حسن والقبيح قبيح. وهذا هو السرُّ في أنّك لا ترى إنساناً اعتياديّاً يشكّك في هاتين القضيتين، فإنَّ الإنسان الاعتياديَّ لا يشكّك ـ طبعاً ـ في الضروريّة بشرط المحمول.

ومن هنا يتّضح أنَّ جعل العَدل والظلم مِقياساً للفضيلة والرذيلة ليس ـ أيضاً ـ إلّا لَعِباً بالألفاظ.

وقد تحصَّل بكلِّ ما ذكرناه أنَّ الحسن والقبح أمران واقعيّان يدركهما العـقل، وأنَّ المِقياس الأوّلي لهما هو درك العقل بالضرورة، ولهما مقاييس أُخرى مؤيِّدة من قبل العقل: كالدين الصحيح، وكالمصلحة والمفسدة في الجملة، كما أشرنا إليه فيما مضىٰ.

النقطة الثانية
حقيقة الوجوب والاستحباب
أو الحرمة والكراهة في منطق العقل العملي

بعد أن عرفنا واقعيّة الحسن والقبح وإدراك العقل لهما، ولو علىٰ مستويات مختلفة ممّا وصل إليه الناس من الدرك بحسب اختلافهم في مستوى كمالهم العقليّ بالحركة الجوهريّة، وأسمينا ذلك بالعقل العمليّ، يقع الكلام في حقيقة الوجوب والاستحباب، أو الحرمة والكراهة في منطق العقل العمليّ.

والواقع : أنَّ الحديث عن الفرق بين الوجوب والاستحباب، أو بين الحرمة والكراهة في منطق العقل العمليّ يختلف عن الحديث عن ذلك في فقه الشريعة، ففي الفقه يقال عادة: إنَّ الفرق بين الوجوب والاستحباب هو: أنَّ الوجوب طلبٌ من الشريعة لا يطيب المشرِّع نفساً بمخالفة العبد له. والاستحباب طلبٌ من الشريعة يطيب المشرِّع نفساً بمخالفة العبد له.

وبتعبير أدقّ ـ حسب تحقيق نقَّحناه في علم الأُصول ـ: إنَّ الاستحباب طلبٌ مرافق لرغبة المولىٰ فيكون العبد حرّاً في تصرّفه وأن لا يحسّ بالحرج ولابدّيّة الإتيان بذلك الفعل. والوجوب طلب لا يرافق رغبة من هذا القبيل، بل يريد المولىٰ إلزام العبد وتقيُّده بذلك المطلوب. وقلْ بنظير ذلك في الفرق بين الحرمة والكراهة.

وسواءٌ عبَّرنا بتعبير طيب نفس المولىٰ بالترك وعدمه أو عبَّرنا بتعبير رغبة

المولى في حرّيّة العبد وعدمها، فالتعبير بكلا شكليه إنّما يناسب فقه الشريعة؛ لأنّ للمولىٰ أمراً ونهياً ورغبةً وحكماً، وهذا لا يأتي في بحثنا عن العقل العملي؛ لأنّ العقل ليس له حكم ورغبة بمعنى الكلمة، وإنّما العقل شأنه الدرك لا أكثر، فلابدّ من بيان فرق آخر في المُدرَك بالعقل العملي بين الوجوب والاستحباب، أو الحرمة والكراهة.

وما يمكن أن يُفترَض في المقام كتفسير للفرق بين الأمرين أحد تفاسير ثلاثة:

فأوّل تفسير قد يخطر في الذهن هو التفسير باختلاف الدرجة، بأن نقول: إنّ الحَسَن الشديد الحُسن هو الواجب والقبيح الشديد القبح هو الحرام، وما بينهما متوسطات، والمتوسط الحقيقيُّ بينهما يكون مباحاً عقلاً لا يعدُّ فضيلة ولا رذيلة، فكأنّ لدينا سُلّماً واحداً، وقع في الدرج الأسفل النهائيِّ منه أشدُّ الرذائل المحرّمة، وفي الدرج الأعلىٰ النهائيِّ منه أشدُّ الفضائل الواجبة، وبينهما متوسطات يخفُّ قبحها أو حسنها بمقدار بُعدها عن أحد القطبين، ويكون الوسط الحقيقيُّ في هذا السُلّم هو رفُّ المباحات.

إنّ هذا التفسير يشتمل علىٰ بعض المفارقات من قبيل:

١ ـ إنّنا لا نمتلك حَدّاً مشخِّصاً لفصل الواجبات عن المستحبات، فيا تُرىٰ هل يُفترض أنّ الحسنَ البالغَ المرتبة السبعين هو الواجب، وما نقص عنه ولو مرتبة واحدة هو المستحب مثلاً أم ماذا؟

٢ ـ إنّ لازم ذلك أن يصحّ القول بأنّ كلّ ماهو حسن فنقيضه قبيح؛ لأنّ الفعل ونقيضه ككفّتي الميزان، وبقدر ما يصعد أحدهما ينزل الآخر، فبقدر ما يقترب الحُسن إلىٰ ذروة السُلّم يقترب نقيضه إلىٰ أسفله، في حين أنّ هذا خلاف الوجدان، فإنّنا نرىٰ بوجداننا أنّ العفو حَسن وفي مرتبة عالية من الحسن، ولكنّ القصاص ليس قبيحاً، وكيف يكون قبيحاً وهو حقٌّ؟! والحقّانيّة لا تجتمع مع القبح.

٣ـ إنَّه لو وقع التزاحم بين قبيح في أقلِّ مراتب الحرمة وحَسَن غير بالغ مرتبة الوجوب، لزم أن يجوز ارتكاب ذاك القبيح، وتنتفي حرمته؛ وذلك لأنّه سيتنزَّل عن قبحه ولو جزئيّاً بالمزاحمة مع الحَسَن، وبهذا التنزُّل يخرج من حريم الحرمة؛ لأنّنا كنّا قد فرضناه في المراتب الدنيا من الحرمة.

مثال ذلك :

ما لو كان كشف سرٍّ مختصر عن أَمر له ألف طرف يؤدِّي إلىٰ الإضرار بواحد منهم إضراراً خفيفاً، وفي نفس الوقت يؤدِّي إلىٰ نفع تسع مئة وتسعة وتسعين نسمة نفعاً كبيراً، فكانوا راضين بكشف السرِّ، ولم يكن تحقيق هذا النفع واجباً علينا، فيا تُرىٰ هل يصبح كشف السرِّ هذا جائزاً عقلاً، ولا نكون مُلزَمين أمام ذاك الواحد؛ لأجل أنّه استلزم نفع كثير من الناس ممّا لم يكن واجباً؟! كلّا إنّ ضميرنا لا يدلّ علىٰ ذلك. وكذلك ضرب يتيم ضربةً ضعيفة لا يبكي منها إلّا دقائق موجباً لنفع آخرين نفعاً هائلاً في غير ما يكون واصلاً حَدَّ الوجوب كإنجاء النفس من الهلكة مثلاً، فهل يجوز ظلم هذا اليتيم باقلِّ ظلم في سبيل إدخال نفع هائل في جيب آخرين والذي لولا استيجابه لظلم اليتيم لكان من أفضل الأعمال غير الواجبة؟! كلّا.

وعليه فلننتقل إلىٰ تفسير ثانٍ للوجوب والاستحباب، أو للحرمة والكراهة في باب الفضائل والرذائل العقليتين، وهو: أن نفترض للفضائل والرذائل سُلَّمين متباينين بدلاً عمّا مضىٰ من افتراض سُلَّم واحد لها جميعاً، فهناك سُلَّم للفضائل، وهي: ما يكون فعلها حسناً، وسلم آخر للرذائل، وهي: ما يكون فعلها قبيحاً. وهما سُلَّمان متوازيان لا يلتقيان، ولا يستلزم حسن الشيء قبح نقيضه وبالعكس. ونفترض الفرق بين الوجوب والاستحباب فرق درجة، وكذلك الفرق بين الحرمة والكراهة.

وهذا التفسير ـ أيضاً ـ باطل؛ لأنّه لا يخلو من بعض المفارقات، من قبيل:

١ ـ لم يتّضح لنا ما هو الحَدُّ الدقيق بين الوجوب والاستحباب، والمفروض أنَّ الواجبات والمستحبّات في سُلّم واحد، والفرق بينهما فرق درجة. وكذلك لم يتَّضح لنا ما هو الحَدُّ الدقيق بين الحرمة والكراهة، والمفروض أنَّ المحرمات والمكروهات في سُلَّم واحد، والفرق بينهما فرق درجة. ولا أظن إمكان الوصول إلىٰ حدٍّ مائز إلّا بالاعتباط.

٢ ـ يلزم من ذلك عدم استبطان الوجوب لعنصر الإلزام؛ لأنَّ الإلزام مساوق للذَّم علىٰ الترك، والذَّم علىٰ الترك مساوق لقبح الترك، وقد فرضنا عدم استلزام الحُسن قبح النقيض، وبالعكس. ولا معنىٰ لفرض مساوقة شدة الحسن لقبح النقيض، فإنَّ الحسن الشديد لو ساوق قبح النقيض شديداً لكان الحسن الخفيف ـ أيضاً ـ مساوقاً لقبح النقيض، ولكن بدرجة أخفّ. وهذا رجوع إلىٰ التصوير الأوّل الذي كان السلم فيه واحداً، أيْ: كان الحسن والقبح فيه عبارة عن نسبة كلّ من الفعل والترك إلىٰ نقيضه في درجة الرجحان.

وعليه، فينحصر الأمر في التفسير الثالث، وهو أن يقال: إنَّ للحسن والقبح سُلَّمين: سُلّم للحسن وسُلَّم للقبح، ويكون سُلَّم الحسن هو سُلَّم المستحبات والمكروهات، أيْ: أنَّ كلَّ حسن مستحب ونقيضه مكروه، وسلم القبح هو سلم الواجبات والمحرّمات، أيْ: أنَّ كلَّ قبيح حرام ونقيضه واجب.

وبكلمة أُخرى: إنَّ الحسن مهما بلغ ذروته لا يستبطن الإلزام، وإنَّما الإلزام عنصر مستبطن في القبح، فإنَّ الإلزام عبارة أُخرى عن استحقاق الذم علىٰ المخالفة، وهو عبارة أُخرى عن قبح المخالفة.

إذن، فالفرق بين الواجب والمستحبِّ في منطق العقل العملي عبارة عن أنَّ المستحبَّ ما لا يحكم العقل العملي بقبح تركه وإن حكم بحسن فعله، وعنصر

الحسن غير عنصر قبح الترك. ومهما صعد الحسن في سُلَّمه لا يعني قبح الترك، فالمستحبُّ ما يكون حسناً وليس تركه قبيحاً، كالعفو، والواجب ما يكون تركه قبيحاً، سواءٌ كان فعله حسناً بحسن آخر أو كان حسن فعله عبارة أُخرى عمَّا فيه من الاحتراز عن القبيح. وأيضاً نقول: المكروه العقليُّ ما يكون تركه حسناً من دون أن يكون فعله قبيحاً، وذلك من قبيل: القِصاص في مورد يحسن العفو. والحرام العقلي ما يكون فعله قبيحاً، سواءٌ كان تركه حسناً بحسن آخر أو كان حسن تركه عبارة أُخرى عمَّا فيه من الاحتراز عن القبيح.

ومثال ذلك:

إيذاء شخص بلا سبب فإنَّه قبيح وحرام عقلاً، وتركه لا حسن فيه إلّا بمعنى مجانبة القبح؛ ولذا ترى أنَّ فاعل الإيذاء يستحقُّ الذمَّ والتقاصَ من قبل الشخص المؤذىٰ، ولكن تارك الإيذاء لا يستحقّ شكراً من قبل الشخص الذي لم يؤذه[١].

---

(١) مأخوذ من كتابنا مباحث الأُصول الجزء الأوّل من القسم الأوّل مبحث دلالة الأمر علىٰ الوجوب. تحت الخط (مخطوط).

النقطة الثالثة

في الجبر والاختيار

لا يخفى أنَّنا لو لم نؤمن بالحسن والقبح كمفهومين واقعيَّين خُلُقيَّين يستتبعان ـ عقلاً ـ استحقاق المدح والذمِّ، لا من سنخ مدح اللؤلؤ علىٰ ضوئه وبهائه وذمِّ حجر كريه المنظر علىٰ كراهة منظره، بل من سنخ استحقاق خُلقيٍّ يستتبع الثواب والعقاب، بل فرضنا أنّ الحسن والقبح ـ مثلاً ـ ليسا إلّا أمرين اعتباريَّين ومجعولين من قبل العقلاء أو الشرع أو القانون؛ لحفظ المصالح ودرْء المفاسد، فهذا المعنىٰ الخاوي للحسن والقبح عن المغزىٰ الخُلُقيِّ ينسجم مع الجبر، كما ينسجم مع الاختيار، فحتّىٰ لو قلنا بالجبر قلنا: إنَّ جعل الحسن والقبح من قبل العقلاء أو القانون أو الشرع وفرض ثواب وعقاب علىٰ ذلك، إنَّما كان لفائدة انعطاف الإنسان إلىٰ حفظ المصالح ودرْء المفاسد ولو جبراً.

ولكن بعد فرض الإيمان بأنَّ الضرورة الخُلُقيّة ـ وهي الانبغاء وعدم الانبغاء ـ أمرٌ واقعيٌّ يتبعه المدح والذمُّ الخُلُقيّان عن استحقاق عقليٍّ، وكذلك الثواب والعقاب، (وهذا ما ادَّعينا أنَّ الضمير والوجدان شاهدان عليه) فهذا لا ينسجم إلَّا مع فرض الاختيار؛ لشهادة الوجدان بأنَّ المجبور لا يستحقُّ مدحاً ولا ذمّاً ولا ثواباً ولا عقاباً؛ كما أنَّ حركة يد المرتعش لا تمدح ولا تذمُّ ولا يثاب عليها ولا يعاقب عليها إن ترتّب عليها شيء.

والواقع : أنَّ اختيار الإنسان ليس شيئاً يثبت بالبرهان، وإنَّما هو أمر ثابت بالوجدان.

وقد اشتهر لتوضيح الاختيار التمثيل برغيفيْ الجائع وطريقيْ الهارب، فياتُرىٰ لو آمَنَّا بالجبر وعدم صدور الفعل إلّا بمرجِّح يؤثِّر قهراً في النفس أفلا يعني ذلك: أنَّ هذا الجائع لو لم يكن له مرجِّح لأحد الرغيفين فسوف يموت جوعاً. وهذا الهارب لو لم يكن له مرجِّح لأحد الطريقين فسوف يستسلم لافتراس الأسد مثلاً أو لوقوعه في أسر العدوِّ؟! أوليست هذه النتيجة أمراً بديهيِّ البطلان؟!

والواقع : أنَّ ذكر هذه الأمثلة لو قُصِدت به البرهنة علىٰ الاختيار بما اتَّفق حتَّى الآن في العالَم من أمثال هذه الأمثلة، وأنَّنا لم نرَ ـ ولا مرّة واحدة ـ أنَّ مَنْ ابتُلي بشيء من هذا القبيل ـ مع دوران حاله بين فعلين لم يعرف مرجِّحاً لأحدهما علىٰ الآخر ـ ترك الفعلين واستسلم للمحذور الذي يقع فيه لدىٰ ترك الفعلين، أمكن الإيراد عليه باحتمال وجود مرجِّح في الواقع مؤثِّر في لا شعوره غير ملتفت هو إيّاه تفصيلاً.

أمّا لو قُصِد بذكر مثل هذه الأمثلة مجرّد تنبيه الوجدان علىٰ الاختيار، فهذا الاعتراض لا يرد عليه؛ لأنَّ المقصود بذكر هذه الأمثلة ـ عندئذٍ ـ تنبيه الوجدان الحاكم بأنّه حتَّى لو لم يكن في الواقع وفي اللّاشعور مرجِّح لأحد الأمرين لن يستسلم هذا الشخص للموت بالجوع أو بافتراس الأسد أو لأيِّ مشكلة أُخرى، بل يختار أحد الأمرين من دون مرجِّح.

والانصاف : أنَّ هذه الأمثلة من خير المنبِّهات علىٰ الوجدان الحاكم بالاختيار.

وكذلك من خير المنبِّهات علىٰ ذلك الوجدان الخُلُقيّ والاستحقاق الخُلُقيّ للمدح والذمِّ والثواب والعقاب في أفعال الناس؛ لأنّ ذلك لا يمكن أن يكون علىٰ الأفعال غير الاختياريّة.

والذي يقف أمام الخضوع لحكم الوجدان بالاختيار هو البرهان الفلسفي المتخيَّل لإثبات الجبر، فنحن لسنا بحاجة إلىٰ إقامة البرهان علىٰ الاختيار، وإنّما نحن بحاجة إلىٰ بطلان برهان الجبر؛ كي يعمل الوجدان بعد إبطال برهان الجبر عمله في النفس، ويتَّضح لصاحب الشبهة الاختيار بعد زوال شبهته.

والبرهان الفلسفيُّ للجبر مؤتلف من مقدّمتين:

الأُولىٰ: أنَّ الاختيار ينافي الضرورة، فإنَّ الضرورة تساوق الاضطرار المقابل للاختيار، من قبيل حركة يد المرتعش التي هي ضروريّة.

والثانية: أنَّ صدور الفعل من الإنسان يكون بالضرورة؛ لأنَّ الفعل الصادر منه ممكن من الممكنات، فتسوده القوانين السائدة علىٰ عالَم الإمكان والتي منها أنَّ الممكن ما لم يجب بالغير لم يوجد، فبالجمع بين هاتين المقدّمتين يثبت أنَّ الإنسان غير مختار في أفعاله؛ إذ لا يصدر عنه فعلٌ إلَّا بالضرورة والضرورة تنافي الاختيار.

والبحث هنا مفصَّل، والوجوه والآراء حول الجواب عن ذلك متشعِّبة، وذكرها مع تقييمها لا يناسب المقام وبإمكانك ـ لو أردت التفصيل ـ أن تراجع كتابنا مباحث الأُصول الجزء الأوّل من القسم الأوّل ضمن بحث (دلالة الأمر علىٰ الوجوب) والجزء الأوّل من القسم الثاني ضمن بحث (الحسن والقبح العقليين)[1].

ونحن نقتصر هنا علىٰ ذكر ما أفاده أُستاذنا الشهيد الصدر ﷺ في المقام ردّاً علىٰ مبنى فلسفيّ معروف.

ذلك أنَّ الفلاسفة ذكروا: إنَّ نسبة شيء إلىٰ شيء ـ بعد فرض إخراج الامتناع من المقسم ـ إمّا هي الوجوب أو الإمكان، فنسبة الشيء إلىٰ قابله هي الإمكان

---

(١) مباحث الأُصول الجزء الأوّل من القسم الثاني: ٥٢٧ ـ ٥٣٤.

وإلىٰ فاعله هي الوجوب، وقد قالوا بذلك في تمام عوالم الإمكان، بلا فرق بين الأفعال الاختياريّة وغيرها، فحركة يد المشلول وتحريك اليد اختياراً سيَّان في هذا الأمر، ومن هنا جاءت شبهة الجبر.

ولكنَّ الواقع: أنَّ تخيّل انحصار النسبة في الوجوب والإمكان غير صحيح، وأنَّ نسبة الفعل الاختياري إلىٰ فاعله نسبة ثالثة، هي: بالتعبير الاسمي: نسبة (السلطنة) وبالتعبير الحرفي: نسبة (له أن يفعل وله أن لا يفعل) والقاعدة العقليّة المعروفة القائلة: (إنَّ الشيء ما لم يجب لم يوجد) ليست ـ بدقيق معنىٰ الكلمة ـ صادقة، وإنَّما الصحيح لو أردنا أن نعبِّر بتعبير دقيق هو: أنَّ الشيء لا يوجد إلَّا بالوجوب أو السلطنة، فموضوعها هو الجامع بين الوجوب والسلطنة لا نفس الوجوب فحسب. نعم، بما أنَّ السلطنة غير موجودة في العلل التكوينيّة فوجود معلولاتها لا يكون إلّا بالوجوب.

وما ادَّعيناه من وجود نسبة أُخرى إلىٰ صفٍّ نسبة الوجوب والإمكان يكون ـ بحسب عالم التصور ـ بديهيّاً كبداهة الوجوب والإمكان، والوجود والعدم، فلا غبار ـ بحسب عالم التصور ـ علىٰ وجود نسبة ثالثة في قِبال نسبة الوجوب والإمكان، فهذه غير الوجوب وغير الإمكان.

أمّا أنَّها غير الوجوب فللتضادِّ الواضح بين عنوان (له أن يفعل) وعنوان (لا بدَّ له أن يفعل).

وأمَّا أنَّها غير الإمكان فلأَنَّ الإمكان عبارة عن القابليّة، وهي: التأهُّل للقبول، وهذا مفهوم لا يُتصوَّر إلَّا بين الشيء وقابله دون الشيء وفاعله بخلاف مفهوم (له).

وقاعدة أنَّ (الشيء ما لم يجب لم يوجد) ليست قاعدة قام برهان عليها، وإنَّما هي قاعدة وجدانيّة ومن المُدرَكات الأوَّليّة للعقل، فإنَّه وإن كان قد يُبرهَن عليها

بأنَّ الحادث لو وُجِدَ بلا علَّة ووجوبٍ لَزِمَ ترجيح أحد المتساويين علىٰ الآخر بلا مرجِّح، وهو محال، لكنَّك ترى أنَّ استحالة الترجيح أو الترجُّح بلا مرجِّح هي عبارة أُخرى عن أنَّ المعلول لا يوجد بلا علَّة. إذن، فلابدَّ من الرجوع في هذه القاعدة إلىٰ الفِطرة السليمة مع التخلُّص من تشويش الاصطلاحات والألفاظ؛ لنرى ماهو مدىٰ حكم الفطرة والوجدان بهذه القاعدة؟

والفِطرة السليمة تحكم بأنَّ مجرّد الإمكان الذاتي لا يكفي للوجود.

وهنا أمران إذا وُجِد أحدهما رأىٰ العقل أنّه يكفي لتصحيح الوجود:

أحدهما : الوجوب بالغير، فانه يكفي لخروجه من تساوي الطرفين ويصحِّح الوجود.

والثاني : السلطنة، فلو وجدت لفاعل ما السلطنة رأىٰ العقل بفطرته السليمة أنَّ هذه السلطنة تكفي للوجود.

وتوضيح ذلك : أنَّ السلطنة تشترك مع الإمكان في شيء، ومع الوجوب في شيء، وتمتاز عن كلّ منهما في شيء:

فهي تشترك مع الإمكان في أنَّ نسبتها إلىٰ الوجود والعدم متساوية، لكن تختلف عن الإمكان في أنَّ الإمكان لا يكفي لتحقق أحد الطرفين، بل يحتاج تحقّقه إلىٰ مؤونة زائدة، وأمّا السلطنة فيستحيل فرض الحاجة معها إلىٰ ضمِّ شيء آخر إليها لأجل تحقّق أحد الطرفين؛ إذ بذلك تخرج السلطنة عن كونها سلطنة، وهو خلف، بينما في الإمكان لا يلزم من فرض الحاجة إلىٰ ضمِّ ضميمةٍ خلفُ مفهوم الإمكان، إذن، فالسلطنة لو وُجِدت فلابدَّ من الالتزام بكفايتها.

وهي تشترك مع الوجوب في الكفاية لوجود شيء، بلا حاجة إلىٰ ضمِّ ضميمة، وتمتاز عنه بأنَّ صدور الفعل من الوجوب ضروريٌّ، ولكن صدوره من السلطنة ليس ضروريّاً؛ إذ لو كان ضروريّاً لكان خلف السلطنة. وفرق بين حالة (له أن

يفعل) وحالة (عليه أن يفعل). والعقل ينتزع من السلطنة ـ باعتبار وجدانها لهذه النكات ـ مفهوم الاختيار بالمعنى المنسجم مع الحسن والقبح الخُلُقيَّين.

يبقىٰ شيء وهو: أنَّنا لو حصلنا علىٰ برهان علىٰ ثبوت هذه السلطنة في الإنسان ثبت الاختيار بالمعنى المصحِّح لقضايا الأخلاق بالبرهان، ولو لم نحصل علىٰ برهان علىٰ ذلك فمجرد تصوُّرنا البديهيِّ لمفهوم السلطنة في مقابل مفهوم الوجوب والإمكان، وتصديقنا بأنَّه لو وجد لذلك مصداق ثبت الاختيار، وصحَّ وجود الفعل من دون أن يجب، كافٍ في إبطال برهان الجبر القائم علىٰ أساس تخيُّل أن المصحِّح للوجود لا يمكن أن يكون إلَّا الوجوب، فإذا بطل برهان الجبر سهل علىٰ الإنسان الرجوع إلىٰ وجدانه الذي كان لدىٰ صاحب الشبهة مغطَّىٰ بالبرهان المتُخيَّل.

والسلطنة التي تكلَّمنا عنها بعد فرض عدم امتلاك برهان عليها ينحصر أمر إثباتها خارجاً للإنسان بالشرع أو بالوجدان، بأن يقال مثلاً: إنَّنا ندرك مباشرة بالوجدان ثبوت السلطنة فينا، وأنَّنا حينما يتمُّ الشوق الأكيد في أنفسنا نحو عمل ما لا نقدم عليه قهراً، ولا يدفعنا إليه أحد، بل نقدم عليه بالسلطنة بناءً علىٰ دعوىٰ أنَّ حالة السلطنة من الأُمور الموجودة لدىٰ النفس بالعلم الحضوريِّ، من قبيل: حالة الجوع، أو العطش، أو حالة الحبِّ، أو البغض، وهذا يعني: وجدانيّة الاختيار.

النقطة الرابعة

ما هي مَغْزىٰ الربط بين الخالق والمخلوق؟

وهنا ننقل ما أوردناه في مباحث الأُصول الجزء الأوّل من القسم الأوّل ضمن بحث (دلالة الأمر علىٰ الوجوب) في ذيل بحث (الأمر بين الأمرين) تحت الخط. وهو ما يلي:

تعارف القول بأنَّ الماهيّة من حيث هي ليست إلّا هي، وأنّها في مرتبة ذاتها ليست وجوداً ولا عدماً، وإن كان لابدَّ أن يحمل عليها إمّا الوجود وإمّا العدم، فهي إمّا موجودة وإمّا معدومة.

ولكن لا يخفى أنَّ هذا النوع من التصوُّر يشتمل علىٰ شائبة أصالة الماهيّة وعروض الوجود علىٰ الماهيّة شاء صاحبه أم أبىٰ، ويفترض أنَّ للماهيّة ثبوتاً في عالم التقرُّر، وتتلبَّس إمَّا بثوب الوجود أو بثوب العدم، في حين أنَّ من الواضح: أنّه لا يُتصوَّر قبل الوجود شيء يلبس ثوب الوجود.

وبهذا ينهار البيان الفلسفيُّ القائل: إنَّ العالم مركَّب من وجود وماهيّة، وإنَّ الماهيّة إن كان ينبع من ذاتها الوجود كانت واجبة الوجود، وإلّا كانت ممكنة الوجود، أو ممتنعة الوجود، وبما أنَّ العالم لا ينبع من ذاته الوجود؛ لأنّه متغير والمتغير حادث، إذن، فلابدَّ له من علّة، ولابدَّ من انتهاء العلَّة إلىٰ واجب الوجود.

والبيان الصحيح الذي يحلُّ محلَّ هذا البيان هو: أنّه لا شيء في العالَم إلّا

الوجود، وأمّا الماهيّة فليست إلّا عبارة عن حَدِّ الوجود وانتهاء الوجود، أيْ: أنَّ الماهيّة عدم صِرف، والذي يكون بذاته هو حقيقة الوجود المستقل يكون واجب الوجود، ولا يتَصوَّر العقل له حداً، وما لا يكون كذلك يكون عدماً صِرفاً، إلّا أن يوجد ويخلَق، وبما أنَّ كلَّ ما في هذا العالم محدود وكذلك هو متغيّر فيستحيل أن يكون هو واجب الوجود، فلابدَّ من انتهائه إلىٰ واجب الوجود.

وبكلمة أُخرى: أنَّنا بدلاً عن أن نُقسِّم الشيء إلىٰ ما يكون الوجود واجباً لماهيّته، أو ممتنعاً عليها، أو ممكناً لها، نُقسِّمه إلىٰ الوجود المستقل الواجب، أو الوجود التعلّقي، أو العدم.

وبما ذكرناه إنهار ـ أيضاً ـ ما عن المحقّق الإصفهاني ﷺ: من أنَّ كلَّ وجود محدود له حدَّان: حَدّ وجوديّ، وهو: مقدار وجدانه المصحوب بالفقدان، وحَدّ عدميّ، وهو: اللازم لحدِّه الوجوديِّ، وإن كان من ذوات الماهيّة فله حَدٌّ ثالث، وهو: الحَدُّ الماهويُّ[1].

وعلىٰ أيّة حال، فإذا صحَّ أنَّ الوجود اللَّامحدود هو واجب الوجود لا غيره، ثبت بذلك بعد ثبوت أصل الواجب تعالىٰ:

أوّلاً: استحالة تعدُّد واجب الوجود؛ إذ لو تعدَّد لشكّل كلٌّ واحد منهما حَدّاً للآخر؛ لأنَّ أحدهما يجب أن ينتهي منذ أن يبدأ الآخر.

وثانياً: استحالة ثبوت وجود آخر ولو ممكناً إن كان بحيث يحدُّ وجود ذلك الواجب؛ لأنّه لو صار الواجب محدوداً لكان ذلك خلف وجوبه.

ولتطبيق هذه النتيجة الثانية علىٰ واقع الحال من وجود إلٰه خالق وعالم مخلوق

---

(١) راجع كتاب توحيد علمي وعيني الرسالة الرابعة للشيخ الإصفهاني ﷺ جواباً عن رسالة السيّد أحمد الكربلائي ﷺ: ٩٦. والصحيح: أنَّ للوجود المحدود حدّاً واحداً، إن شئت فسمِّه بحدِّه العدميِّ، وإن شئت فسمِّه بحدِّه الماهويِّ.

تصويرات ثلاثة لا رابع لها بعد التسليم بوجود العالَم حقيقةً:

التصوير الأوّل: افتراض أنَّ واجب الوجود أو الوجود المطلق لا يحدُّه إلَّا واجب مثلُه أو وجود مطلق مثلُه، وأمّا الوجودات المخلوقة فليست حَدّاً لوجود الواجب؛ ولهذا اجتمع بالفعل وجود واجب الوجود من ناحية ووجود عالم مخلوق له من ناحية أُخرى.

إلَّا أنَّ هذا التصوير ما لم يرجع إلىٰ التصوير الثاني يبدو بظاهره باطلاً؛ لما قد يقال: من أنَّ الوجود المطلق إن كان مطلقاً حَقّاً لم يبقَ مجالاً لأيٍّ وجود آخر، وأيُّ وجود آخر يُفترض في مقابل هذا الوجود يعني ذلك: انتهاء ذاك الوجود المطلق من حين ابتداء هذا الوجود. ومجرّد افتراض رابطة التعلُّق بين الوجودين علىٰ شكل كون الوجود المطلق علَّة أو خالقاً، والوجود الآخر المحدود معلولاً أو مخلوقاً، لا يحلُّ مشكلة استحالة وجود آخر إلىٰ صف الوجود المطلق.

التصوير الثاني: افتراض أنَّ إطلاق الوجود يعني إطلاق الوجود المستقل، ولا تعارضه الوجودات التعلُّقيّة، فإنّنا لا نفترض وجودات مستقلَّة مُتَّصفة فيما بينها بصفة العلّيّة والمعلوليّة كي تحدَّ تلك الوجودات المستقلَّة المعلولة وجودَ العلَّة.

وبكلمة أُخرى: إنَّنا لا نفترض أنَّ نسبة الواجب ـ تعالىٰ ـ إلىٰ مخلوقاته كنسبة العلل والمعلولات المادّيّة التي أَلِفْناها، والتي يُفترَض فيها وجودان مستقلان بينهما رابطة التعلّق أو نسبة العليَّة والمعلوليّة، بل نقول: إنَّ وجودات المخلوقات هي كلُّها وجودات تعلّقيَّة، في حين أنَّ وجود الله ـ تعالىٰ ـ هو الوجود المستقل المطلق، فليس هذا التعلُّق خيطاً رابطاً بين شيئين مستقلَّين، بل المخلوق هو عين التعلُّق والارتباط. وهذا هو الفهم السائد بين الفلاسفة الإسلاميين. وعلىٰ هذا الأساس قالوا: إنَّ علم الله ـ سبحانه ـ بمخلوقاته علم حضوريٌّ لا حصوليٌّ.

التصوير الثالث : ما نُسِبَ إلىٰ جمع من العرفاء: من أنَّ أيَّ وجود يُفتَرض غير وجود الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يكون ذلك حَدّاً لوجوده تعالىٰ، سواءٌ فرضناه وجوداً استقلاليّاً أو فرضناه وجوداً تعلُّقيّاً، فهو ما دام شريكاً مع الله في الوجود ولو بمرتبة افترضناها نازلة فقد شكَّل هذا الوجود حَدّاً لوجوده سبحانه وتعالىٰ عن ذلك علوّاً كبيراً، ولا فرق في لزوم التحديد بين أن يُفتَرَض وجودٌ في مقابل وجود الله صغيرٌ كجناح بعوضة، أو ذرَّة لا تُرىٰ بالعين، أو هو أصغر من ذلك، أو يفترض وجود من أعظم الخلائق وأكبرها، وكذلك لا فرق بين أن يُفتَرَض وجود من أعلىٰ مراتب الوجود شدّةً وقوّةً وكثرةً، أو من أدناها مرتبةً وضعفاً وقلّةً.

وعليه، فالواقع: انَّ الممكنات أو الماهيّات في الحقيقة هي: شبكات لذلك الوجود المستقل المطلق، وهو وجود الله تعالىٰ، ويُرَىٰ من خلالها ذاك الوجود[١].

إذن، فصاحب هذا الرأي لا يقول: بأنَّ العالم وهم وخيال، أو اعتبار محض لا وجود له، أو أنَّ إطلاق عنوان الموجود فيه يكون علىٰ أساس مجرّد نسبته إلىٰ وجود الله، من قبيل: التامر، واللابن، نسبةً إلىٰ التمر واللبن. ولا يَرى أنَّ وجود الله حلَّ في الوجودات الممكنة، أو اتَّحد معها، أو ما إلىٰ ذلك من عناوين تقتضي نوعاً من الاثنينيّة أوّلاً، ثُمَّ الحلول أو الاتحاد، بل يرىٰ صريحاً أنَّ العالم ـ بكلٍّ ما يزخر به ظاهراً من الممكنات ـ شبكة يُرى بها وجود الله الذي هو الوجود الحقيقيّ، والمستقل، والمطلق والبسيط، وغير المشكِّك، وإن كان المرئيُّ كأنَّه يتقدَّر بتقديرات اعتبارية باختلاف الشبكات التي يرىٰ بها الرائي.

ويعتقد ـ عادةً ـ أصحاب هذا المسلك: أنَّ هذا سرٌّ لا يصحُّ إفشاؤه أمام عامّة

---

(١) راجع كتاب توحيد علمي وعيني، تذييل السيّد محمّد حسين الطهراني علىٰ الرسالة الرابعة للشيخ الإصفهاني ﷺ : ١٩٥ ـ ٢٢٠، وصاحب التذييل يدَّعي: أنَّ هذا هو رأي جميع العرفاء بالله.

الناس؛ لأنّهم لا يدركونه، ولا يتحمّلونه. وعلىٰ هذا الأساس قال القائل بالفارسيّة:

گــفت آن يــار كـزو گشت سـردار بـلند
جرمش اين بود كه اسرار هويدا مى‌كرد[١]

وكأنَّ كلّاً من أصحاب هذين التصويرين الثاني والثالث ينزِّل علىٰ تصوّره ما تقوله الآيات القرآنيّة، من قبيل قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿ وهُوَ الَّذي في السَّماءِ إلٰهٌ وَفِي الأرضِ إلٰه... ﴾[٢].

٢ ـ ﴿ هُوَ الأوّلُ والآخِرُ والظّاهِرُ والبَاطِنُ وَهُوَ بكُلِّ شيء عَليمٌ ﴾[٣].

٣ ـ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَما كُنتُم... ﴾[٤].

٤ ـ ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَجْوىٰ ثَلاثَةٍ إلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أدْنى مِن ذٰلِكَ وَلا أكْثَرَ إلَّا هُوَ مَعَهُمْ أيْنَما كَانُوا... ﴾[٥].

٥ ـ ﴿ وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَحولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ... ﴾[٦].

٦ ـ ﴿ وَنَحْنُ أقْرَبُ إليْهِ مِنْ حَبْلِ الوَريدِ ﴾[٧].

وكذلك بعض الكلمات المنقولة عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام من قبيل قوله عليه السلام:

١ ـ «مع كلِّ شيء لا بمقارنة وغير كلِّ شيء لا بمزايلة»[٨].

٢ ـ «هو في الأشياء علىٰ غير ممازجة، خارج منها علىٰ غير مباينة، فوق كلِّ

---

(١) ديوان حافظ (آينۀ جام)، الغزل رقم ١٤٢.

(٢) السورة ٤٣، الزخرف، الآية: ٨٤.

(٣) السورة ٥٧، الحديد، الآية: ٣.

(٤) السورة ٥٧، الحديد، الآية: ٤.

(٥) السورة ٥٨، المجادلة، الآية: ٧.

(٦) السورة ٨، الأنفال، الآية: ٢٤.

(٧) السورة ٥٠، ق، الآية: ١٦.

(٨) نهج البلاغة: ١٤، رقم الخطبة: ١.

شيء فلا يقال: شيءٌ فوقه، وأمام كلِّ شيء، فلا يقال: له أمام، داخل في الأشياء لاكشيءٍ في شيءٍ، وخارج منها لا كشيءٍ من شيءٍ خارج...»[١].

٣ـ «... ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج...»[٢].

أقول: لابدَّ من توجيه سؤال إلىٰ صاحب التصوير الثالث، وهو: أنّه لئن كانت الممكنات عبارة عن الهيئات التي هي شبكات مصوّرة علىٰ وجود الله تعالىٰ، وتلك الشبكات هي اعدام بحت واعتباريات صرف، إذن، فمن المخاطب بالتكاليف الشرعيّة، هل هو ما يُرى من هذه الشبكات من وجود الله، أو نفس الشبكات التي هي اعدام، أو المجموع المركب منهما تركيباً اعتبارياً، ومن الذي يثاب، ومن الذي يعاقب، وما هو الهدف من بعث الرسل وإنزال الكتب؟! ثُمَّ ما الذي خلقه الله تعالىٰ، هل هو المرئي بالشبكة، وهو الله تعالىٰ، أو نفس الشبكة الذي هو عدم محض، أو إنَّ المقصود بالخلق هو مجرّد الاعتبار الذي لا يكون وحده إلّا لعباً، وهو يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[٣].

أمّا حديث كون الوجود التعلُّقيِّ حدّاً للوجود المطلق الإلهيِّ، فكلام غريب؛ لأنَّ الوجود التعلُّقيَّ إنّما يُعتَبر حداً لذاك الوجود لو كان يفسح عدمُه مجالاً لامتداد ذاك الوجود المطلق، فيقال: إنَّ هذا الوجود يعني حدّاً لذاك؛ إذ لا يبدأ هذا إلّا من حين ينتهي ذاك، ولكنَّ الأمر ليس كذلك؛ لأنّ عدم الوجود التعلُّقيِّ لو فسح مجالاً للامتداد لكان الامتداد وجوداً تعلُّقيّاً، وتعالىٰ الله عن أن يكون شيء من وجوده وجوداً تعلقياً سواءٌ وُجِدَ وجود تعلُّقيٌّ آخر أو لم يوجد، فأيُّ تأثير في حساب البرهان الذي اقتضىٰ الإطلاق والصرافة في وجود الله لوجود تعلُّقيٍّ مخلوق لله

---

(١) التوحيد: ٣٠٦، الباب ٤٣، الحديث ١.

(٢) نهج البلاغة: ٣٦٧، رقم الخطبة: ١٨٦.

(٣) السورة ٢١، الأنبياء، الآية: ١٦.

تعالىٰ؟! والبرهان إنّما اقتضى الوجود المستقل لواجب الوجود لا شيئاً آخر، بل البرهان نافٍ للوجود التعلُّقيِّ عنه، فالذي ينافي البرهان إنّما هو فرض وجود مستقل آخر، فهو الذي ينفي صرافة الوجود المستقل لله تعالىٰ.

نعم، لا شكَّ أنَّ الآيات المشار إليها، والأحاديث التي نقلناها عن عليٍّ عليه السلام وما أشبهها تنفي الفهم الساذج لبعض عوام الناس، الذي يعني: كون نسبة الله إلىٰ العالم كنسبة العلل المادية إلىٰ معلولاتها المادية التي تنفصل عن عللها أو كبنّاء بنىٰ بيتاً ثُمَّ انفصل عنه؛ ولكن لا ظهور لها في التصوير الثالث في مقابل التصوير الثاني، ولو فُرِضَ لها ظهور أوّليّ في ذلك لكان ظهوراً منعدماً بحكم العقل. انتهىٰ ما أردنا نقله عن كتابنا في الأُصول.

أقول: وعلىٰ هذا التصوير لوجود المخلوقين ـ وهو الوجود التعلُّقيُّ الذي أشرنا إليه في التصوير الثاني ـ يترتَّب تصوير الأمر بين الأمرين في أفعال العباد، فهي في عين انتسابها إلىٰ العباد حقيقة تكون مسبَّبة لله تعالىٰ؛ لأنّ إضافة المولى ـ سبحانه ـ إلىٰ مخلوقيه إضافة إشراقيّة، فمخلوقوه وأفعالهم مخلوقة لله برغم أنّها صادرة منهم وباختيارهم من دون أن يكونوا محالّاً لتلك الأفعال، وتكون تلك الأفعال منتسبة إلىٰ الله فحسب فهي أفعالهم مختارين فيها، ولكن في نفس الوقت يصحّ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا تَشَاؤون إلَّا أن يَشاءَ الله...** ﴾[١].

---

(١) السورة ٧٦، الإنسان، الآية: ٣٠، والسورة ٨١، التكوير، الآية: ٢٩.

النقطة الخامسة
ما هو مدىٰ إمكان تنامي البشريّة في سُلَّم العرفان والذوبان في ذات الله تعالىٰ وتزكية النفس؟

وهنا ـ أيضاً ـ نقتصر علىٰ نَقْلِ ما ذكرناه في كتابنا مباحث الأُصول الجزء الأوّل من القسم الأوّل ضمن بحث (دلالة الأمر علىٰ الوجوب) تحت الخط، وهو ما يلي:

ذكر أُستاذنا الشهيدﷺ في مُقدّمة كتاب فلسفتنا[1] ما حاصله: أنَّ المحرك الرئيسي للإنسان في كلٍّ نشاطاته هو: حبُّ الذات، فهو الواقع الطبيعيُّ الذي يكمن وراء حياة الإنسانيّة كلِّها، ويوجهها بأصابعه، والذي نعبِّر عنه بحبِّ اللذّة وبغض الألم. ولا يمكن تكليف الإنسان أن يتحمَّل مختاراً مرارة الألم دون شيء من اللذّة في سبيل أن يلتذَّ الآخرون وينعموا، إلّا إذا سُلِبت منه إنسانيّته، وأُعطيَ طبيعة جديدة لا تتعشَّق اللذّة ولا تكره الألم، وحتَّى الألوان الرائعة من الإيثار التي نشاهدها في الإنسان ونسمع بها عن تاريخه تخضع في الحقيقة ـ أيضاً ـ لتلك القوة المحرِّكة الرئيسة: (غريزة حبّ الذات).

فالإنسان قد يُؤْثِر ولده أو صديقه علىٰ نفسه، وقد يضحِّي في سبيل بعض المُثُل والقيم، ولكنَّه لن يقدم علىٰ شيء من هذه البطولات ما لم يحسّ فيها بلذَّة خاصة ومنفعة تفوق الخسارة التي تنجم من إيثاره لولده وصديقه أو تضحيته في سبيل

---

(١) راجع فلسفتنا: ٣٥ ـ ٥٠.

مَثل من المُثل التي يؤمن بها. وهكذا يمكننا أن نفسِّر سلوك الإنسان بصورة عامّة في مجالات الأنانية والإيثار علىٰ حدٍّ سواء، ففي الإنسان استعدادات كثيرة للالتذاذ بأشياء متنوعة: مادِّيّة كالالتذاذ بالطعام والشراب وألوان المتع الجنسية وما إليها، أو معنويّة كالالتذاذ الخُلُقيّ والعاطفيِّ بقيم خُلُقيّة أو أليف روحي، أو عقيدة معيَّنة حين يجد الإنسان تلك القيم أو ذلك الأليف أو هذه العقيدة جزءاً من كيانه الخاصِّ.

وهذه الاستعدادات التي تهيِّئ الإنسان للالتذاذ بتلك المتع المتنوِّعة تختلف في درجاتها عند الأشخاص، وتتفاوت في مدىٰ فعليَّتها باختلاف ظروف الإنسان وعوامل الطبيعة والتربية التي تؤثِّر فيه، فبينما نجد أنَّ بعض تلك الاستعدادات تنضج عند الإنسان بصورة طبيعيّة كاستعداده للالتذاذ الجنسي مثلاً، نجد أنَّ ألواناً أُخرى منها ربَّما لا تظهر في حياة الإنسان، وتظلُّ تنتظر عوامل التربية التي تساعد علىٰ نضجها وتفتُّحها، وغريزة حبِّ الذات من وراء هذه الاستعدادات جميعاً تُحدِّد سلوك الإنسان وفقاً لمدى نضج تلك الاستعدادات، فهي تدفع إنساناً إلىٰ الاستئثار بطعام علىٰ آخر وهو جائع، وهي بنفسها تدفع إنساناً آخر لإيثار الغير بالطعام علىٰ نفسه؛ لأنَّ استعداد الإنسان الأوّل للالتذاذ بالقيم الخُلُقيّة والعاطفيّة الذي يدفعه إلىٰ الإيثار كان كامناً، ولم تتح له عوامل التربية المساعدة علىٰ تركيزه وتنميته، بينما ظَفِرَ الآخر بهذا اللَّون من التربية، فأصبح يلتذُّ بالقيم الخُلُقيّة والعاطفيّة، ويضحِّي بسائر لذَّاته في سبيلها.

إذن، فكلُّ الويلات المنتشرة في العالم قامت علىٰ أساس مجموع أمرين:

الأوّل : هو حبُّ الذات الكامن في نفس الإنسانيّة، أو قل: تعشُّق اللذّة وكره الألم.

والثاني : انحصار المصالح التي تحقِّق اللذّة وتعالج الأَلم في مصالح مادّيّة

دنيويَّة ضيّقة يقع التكالب عليها بين الناس والتزاحم والمنافسات، فتحصل ما تحصل من المصائب والمحن والظلم والرزايا التي يضجُّ بها العالم اليوم.

وتدَّعي الشيوعيّة أنَّها ستعالج ذلك عن طريق القضاء علىٰ الأمر الأوّل وهو حبُّ الذات، فيصبح الفرد ـ عندئذ ـ متعشِّقاً للمجتمع لا لنفسه.

إلَّا أنَّ هذا الحلَّ حلٌّ طوبائيٌّ بحت؛ لأنَّ حبُّ الذات ذاتيٌّ للإنسان، ولا معنىٰ لا نتزاعه عنه، إلَّا بانتزاع ذاتيَّته وتبديلها إلىٰ شيء آخر غير الإنسان.

ويقول الإسلام: إنَّ علاج المشكل يجب أن يكون بمعالجة الأمر الثاني، وذلك بتوسيع نطاق المصالح في دائرة عريضة لا يؤدِّي التسابق فيها إلىٰ التزاحم والتعارض والتكالب، فيحصل كلُّ فرد علىٰ مصالحه وملاذّه بقدر ما أُوتيَ له من قوَّة، من دون أن ينقص من الآخر شيء. وبالفعل هذا هو الذي فعله الإسلام بتوسيعه لدائرة المصالح من بُعدين:

أحدهما: بيان أنَّ مصالح الفرد ليست محصورة في دائرة المصالح المادِّيّة الدنيويّة الضيِّقة؛ بل له جَنَّة عرضها السماوات والأرض أُعدَّت للمتقين.

والثاني: تربية الجانب الخُلُقي النبيل في الإنسان، وتنمية قابلياته الأخلاقيّة الكامنة في نفسه: من صفات الإيثار، والعطف، والرحمة، والوفاء، والصدق، وما إلىٰ ذلك. وتتصادق كلتا المصلحتين الأُخرويّة والخُلُقيّة في تحصيل رضا الله سبحانه وتعالىٰ.

وهذا هو الأُسلوب المعقول القابل للتطبيق، فإذ أصبح المجتمع لا يهدِف إلَّا رضا الله سبحانه وتعالىٰ ـ والذي يكون كفيلاً له بكلتا اللذّتين وجامعاً له المصلحتين ـ تنتهي كلُّ ألوان الظلم والتعسف والويلات والدركات، ويسود العالَم العدل والرفاه والخيرات والبركات.

أقول: قد يورد علىٰ ذلك: بأنَّه لمْ يبقَ إذن فرق في القيمة المعنويّة والخُلُقيّة، بين

عمل الظالم الجائر الخسيس اللئيم وعمل الإنسان الشهم النبيل الشريف ما داما جميعاً يتحركان من وراء اللذّة وحبِّ الذات.

ولكنَّ الجواب إلىٰ هذا الحدِّ واضح، فإنَّ الفرق في القيمة بينهما يبقى في أنَّ الرذل والخسيس هو الذي يلتذُّ بالرذائل والخسائس والسفاسف، والشريف وطيِّب النفس هو الذي يلتذُّ بالفضائل والحسنات وصفات الإيثار والنُبل. والفرق بين العملين أو الوصفين أو الشخصين يبقى كالفرق بين الأرض والسماء، فهما شريكان في أصل الالتذاذ، واندفاع كلٍّ منهما وراء ما يلتذُّ به، ولكنَّهما يختلفان اختلافاً عظيماً يصعب تصوّر مداه فيما يلتذّان به ويقصدانه.

وأقصى ما يمكن أن يُتوقَّع من المجتمع العام في الاهتمام بتحصيل رضا الله هو: الوصول إلىٰ هذا المستوى الذي لو كان هناك أمل في وصول الجميع أو الأكثريّة القاطعة إليه، فإنّما هو بلحاظ زمان حضور المعصوم وعمله المباشر في تربية البشريّة.

ولكن هذا كلّه لا يمنع عن بيان أنَّ الخاصّة من العارفين بالله يكون طريق التعالي لهم مفتوحاً بما هو أكثر من ذلك.

ولتوضيح ذلك نبدأ بالحوار الذي جرىٰ بيني وبين أُستاذي الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ حول ما مضىٰ نقله عن مقدّمة فلسفتنا حيث قلت له ﷺ: إنَّ هذا البيان يقلِّل من قيمة البطولات الإسلاميّة والتضحيات والالتزام بالمُثُل وبالفضائل؛ وذلك لأنّها ـ حسب الفرض ـ تنشأ من نفس المنشأ الذي تنشأ منه الرذائل وشتّىٰ ألوان الظلم والخيانة والإجرام، وهو: حبُّ الذات واللذّة وكُره الألم (صحيح: أنّه لا يقاس بين من يلتذُّ بالفضائل ومن يلتذّ بالرذائل، ولا بين اتِّصاف الشخص بهذه أو بتلك، أو بين إتيانه بهذه لداعي الالتذاذ بها أو بتلك لداعي الالتذاذ بها) ولكن مع ذلك نرىٰ ـ علىٰ أيِّ حال ـ أنَّ هذا إسقاط للقيم العالية والمُثُل العُليا التي تصدر

بروح الفداء والتضحية والنُبل والشهامة عن درجة كُنَّا نفترضها ونتصوَّرها إذ تبيَّن أنّها ـ علىٰ أيَّة حال ـ تنشأ من دافع حبِّ الذات والأنا والالتذاذ.

فأجاب ـ رضوان الله تعالىٰ عليه ـ عن ذلك بأنَّ ما قلناه: ـ من أنَّ اللذّة والألم هما اللذان يدفعان الإنسان النبيل إلىٰ النُبل والفضيلة، كما يدفعان الإنسان اللئيم إلىٰ اللؤم والرذيلة ـ لم نقصد به كون تلك اللذّة أو اندفاع الألم هما العلَّتان الغائيَّتان للفعل، وإنّما قصدنا كونهما العلَّتين الفاعليَّتين، فالذي يضحِّي في سبيل مَثَلٍ أو مبدأ، أو في سبيل محبوب له، كولدٍ له أو صديق أو الله سبحانه وتعالىٰ، فهو لا يفعل ما يفعل لغاية التذاذه هو أو ارتياحه من الألم النفسيِّ، بل يفعل ذلك لأُجل ذاك المَثَل أو المبدأ أو المحبوب؛ لأنّه يعشق ذلك، ولكن هذا العشق أو الحبّ قد جعل في الفعل لذَّة أو في الترك ألماً، والإنسان خُلِق بنحو لولا هذه اللذّة أو ذاك الألم لما اندفع نحو ما يندفع، فهذه اللذّة أو ذاك الألم هو الذي يُؤثِّر فاعليَّاً في اندفاعه نحو محبوبه أو في فراره من مبغوضه. إذن، ففرقٌ بين الغاية التي يندفع باتجاهها، وهي: ما يحبُّه ويريده والدافع الذي يدفعه بذاك الاتجاه دفعاً فاعلياً، وهو: اللذّة الكامنة في الفعل، والقيمةُ الخُلُقيّة تنشأ من شرافة الغاية وسموِّ الهدف.

أقول: إنَّ حصر العلَّة في اللذّة والألم غير صحيح، سواءٌ كان الملحوظ هي العلَّة الغائيَّة أو العلَّة الفاعليَّة.

أمّا لو كان الملحوظ هي العلَّة الغائيَّة، فإنَّنا نستطيع توضيح بطلان ذلك بإلفات النظر إلىٰ مقدّمتين:

الأولىٰ: أنَّ اللذّة والألم غير الحبِّ والبغض كما هو واضح، فإنَّ الحبَّ والبغض يتحقَّقان قبل تحقُّق المحبوب والمبغوض، واللذّة والألم يتحقَّقان بتحقُّقهما ولو في علم الشخص، أيْ: بالوجود العلميِّ والذهنيِّ لتحققهما، سواءٌ طابق الواقع أو لا، فهما وليدا الحبِّ والبغض، بل هما وليدا العواطف المرافقة للحبِّ والبغض، لا وليدا

نفس الحبِّ والبغض؛ ولذا قد ترى ـ نادراً ـ التفكيك بينهما، كمن ينتزع قُرطيْ بنت الحسين عليها السلام ويبكي، فهناك لديه عاطفة أَوْجَبَتْ ألمه وبكاءه، لكنَّه كان انتزاع القُرط لديه ـ بعد التكاسر بين مجموع المصالح والمفاسد في نظره ـ محبوباً، فالعاطفةُ التي أَوْجَبَتْ بكاءه انفصل مسيرها صدفة عن مسير الحبِّ الذي تعلَّق بعد تكاسر المصالح والمفاسد بالفعل.

والثانية: أنَّ كون الشيء غاية للإنسان عبارة أُخرى عن مطلوبيّته له ومحبوبيَّته وتعلّق شوقه المؤكَّد به. إذن، فالعلَّةُ الغائيّة ليست هي تحقُّق اللذّة واندفاع الألم، بل هي مُتعلَّق الحبِّ الذي هو أقدم من اللذّة أو نقيض متعلَّق البغض الذي هو أقدم من الألم.

ويشهد لما قلناه: انَّنا نحسُّ في وجداننا وضميرنا: بأنَّ مَنْ أحسن إلىٰ شخص استحقَّ شكراً من قبل ذاك الشخص أكثر ممّا قد يشكر الإنسان شخصاً أحبَّ أن يُحسن إليه فعجز عن ذلك، فهذا الشكر إن كان في مقابل اتِّصاف هذا الشخص بصفة الفضيلة وهي حبُّه للإحسان إلىٰ الضعيف مثلاً فهما سيّان في هذا الاتِّصاف، وإنّما ترك من ترك منهما الإحسان إلىٰ هذا الشخص بسبب العجز، فيبقىٰ الفارق بين الشكرين بلا مقابل. إذن، فهذه الزيادة تكون في مقابل فعل الإنسان، ولو كانت الغاية له من هذا الفعل التذاذ نفسه دون ارتياح الشخص الضعيف لما استحقَّ هذه الزيادة من الشكر.

نعم، لا ننكر أنَّ نفس اللذّة والألم ـ أيضاً ـ قد يكون محبوباً أو مبغوضاً فيريد الشخص الأُولىٰ ويهرب من الثانية، أيْ: أنَّ اللذّة والهرب من الألم ـ أيضاً ـ يدخلان في غايته من دون أن يولِّد ذلك لذَّة غير تلك اللذّة أو ألماً غير ذاك الألم، وإلَّا لتسلسل.

وقد تلخَّص: أنّ الغاية ـ دائماً ـ هي المحبوب أو نفي المبغوض، لا اللذّة ونفي

الألم، وإن كانا هما ـ أيضاً ـ قد يتعلق بهما الحبّ والبغض فيدخلان في الغاية بهذا الاعتبار.

وأمّا لو كان الملحوظ هي العلَّة الفاعليَّة قلنا: إنَّ كون اللذّة والألم هما العلَّة الفاعليّة للتحرك نحو الفعل أو نحو الفرار لا يُتصوَّر إلَّا بأحد معاني ثلاثة:

إمَّا بمعنىٰ كونهما دافعين للإنسان من دون اختياره، فَمَنْ يلتذُّ بشيء يتحرّك نحوه بلا اختيار، ومن يتألَّم من شيء يندفع نحو الفرار منه من دون اختيار.

وإمّا بمعنى دخلهما في القدرة مع فرض حفظ الاختيار بعد تحقُّق القدرة، فاللذّة الموجودة في الشيء تخلق في الإنسان القدرة علىٰ الاندفاع إليه، فيندفع إليه باختياره، والألم الموجود في الشيء يخلق في الإنسان القدرة علىٰ التحرك نحو الهرب منه، فيهرب منه اختياراً، ولولا اللذّة والألم لما كان الإنسان قادراً علىٰ التحرك نحو المحبوب أو باتجاه الفرار من المبغوض.

وسواءٌ قلنا: إنَّ اللذّة والألم دافعان قهريان أو قلنا: إنَّهما يؤثّران في القدرة علىٰ الاندفاع لا ينافي ذلك أن تكون الغاية هي ما يندفع إليه من المحبوب أو نفي المبغوض لا نفس اللذّة أو نفي الألم وحده.

وإمّا بمعنى كون اللذّة والألم دخيلين في تحقُّق الإرادة برغم فرض انحفاظ القدرة والاختيار بغضّ النظر عنهما.

وكلّ هذه الفروض باطل :

أَمّا الفرض الأوّل ـ وهو : فرض الاندفاع وراء اللذائذ والفرار من الآلام قهراً، فهذا يساوق الجبر وإنكار الاختيار، وهذا خلف موضوع علم الأخلاق بعد فرض كون الحسن والقبح أمرين واقعيَّين مُدرَكَيْن بالعقل، لا أمرين اعتباريِّين مجعولين من قبل العقلاء أو الشريعة، وقد كان هذا هو فرض بحثنا في المقام، فنحن وإن كنَّا لا نمانع عن كون بعض القضايا الأخلاقيّة اجتماعيّة أو شرعيّة، لكن لو لم نؤمن

بقضايا أخلاقيّة واقعيّة وبالحسن والقبح الذاتـيَّين والعـقليَّين، لم يـبقَ مـوضوع لبحثنا هذا.

وأمّا الفرض الثاني ـ وهو : دخل اللذّة والألم في القدرة، فهذا يعني: أن لا يقدر الإنسان إلّا علىٰ الفعل الذي يلتذّ به، وترك ذلك الفعل يكون مبغوضاً له، فبغضه إنّما أولد له القدرة علىٰ الفرار منه، ومن المعلوم: أنّ فرض تعلّق القدرة بأحد النقيضين دون الآخر هو عين الجبر تماماً، فإنّ القدرة لابدّ أن تتعلّق بطرفي النقيض سواءً بسواءٍ.

وأمّا الفرض الثالث ـ وهو: عدم تحقّق الإرادة نحو الشيء، إلّا بفرض الالتذاذ به أو التألّم من فقده علىٰ رغم انحفاظ اختياره وقدرته لولا اللذّة والألم، وعلىٰ رغم فرض حبّه أو بغضه للمتعلق في المرتبة السـابقة عـلىٰ اللـذّة والألم، فـهذا ـ أيضاً ـ أمر غير معقول سواء، فسّرنا الإرادة بـمعنى الشـوق الأكـيد كـما هـو المعروف، أو فسّرناها بما يشابه أن يقال بأمر وسط بين الشوق الأكيد والفـعل، وهو: حملة النفس بدعوى أنّها هي مركز القدرة والسلطنة.

أمّا علىٰ الأوّل فلوضوح أنّ الشوق الأكيد هو الحبّ الأكيد الذي هو في الرتبة السابقة علىٰ اللذّة.

وأمّا علىٰ الثاني فلوضوح أنّ توقّف حملة النفس علىٰ اللذّة والألم مع انحفاظ كامل القدرة والاختيار في المرتبة السابقة عليهما وتماميّة الحبّ والشوق، أمـر غير معقول، إلّا بمعنى: أنّ الغاية المحبوبة كانت عبارة عن نفس اللذّة والألم، وهذا رجوع إلىٰ الشقّ الأوّل الذي أبطلناه.

وبهذا تمّ برهان كامل علىٰ أنّ العلّة الغائيّة والعلّة الفاعليّة متّحدتان، غاية الأمر أنّ العلّة الغائيّة تكون بوجودها العلميّ ـ ولو الخاطئ ـ مُحرّكة.

نعم، لا إشكال ـ كما أشرنا إليه ـ في أنّ اللذّة والألم قد يدخلان بنفسهما فـي العلّة الغائيّة، ويكون الأوّل محبوباً والثاني مبغوضاً.

وقد يقول قائل: إنَّ حبُّ الدَّعة والراحة الموجود في الإنسان لابدَّ أن يتكاسر مع حبٍّ آخر، ويقع مقهوراً تحت شعاعه؛ كي يتحرّك الإنسان نحو ما يكون في وضعه الأوّلي موجباً لسلب الدّعة والراحة. والمقصودُ بعلّيّة اللذّة والألم هو: أنّه لولاهما لما كان المحبوب الأصلي من المُثُل والقيم والمبادِئ ورضا الله وما إلىٰ ذلك قادراً علىٰ الغلبة علىٰ حبِّ الراحة، فلكي يغلب حبَّ الراحة أو قُلْ: (لكي تصبح راحة الشخص في خلاف راحته الظاهريّة) لابدَّ أن ينضمَّ إلىٰ تلك الغاية الشريفة غاية اللذّة أو الفرار من الألم، وعند ذلك تكون الغلبة لمجموع الغاية الشريفة النبيلة مع اللذّة ودفع الألم علىٰ حبِّ الراحة، فيقوم الإنسان بالعمل النبيل، ويكون الشخص بقدر ما كان من حصَّة الدخل في الغاية لذاك المبدأ النبيل والشريف مستحقاً للمدح والثواب، وبهذا قد جمعنا بين القول بأنّه لابدَّ لتحريك الإنسان من وجود اللذّة والألم في المتعلَّق من ناحية، وبين نُبل التضحيات في سبيل المبادِئ والعقائد الحقَّة والمُثُل والقيم العُليا ورضا الله سبحانه وتعالىٰ من ناحية أُخرى. فليكن هذا نوع توجيه لكلام أُستاذنا الشهيدﷺ.

إلَّا إنَّ هذا التوجيه ليس شاملاً لمورد ما قد يتَّفق من عدم وجود زحمة وأقل صعوبة في التحرك، أو كان المطلوب هو الترك ولم يكن في الترك أيّ زحمة ومشقَّة، وإنّما يمكن تطبيق هذا التوجيه في موارد صعوبة العمل وفق ماهو مطلوب أخلاقيّاً.

والظاهر : أنَّ هذا التوجيه ـ أيضاً ـ غير صحيح.

وتوضيح ذلك: أنَّ عدم تحرّك الشخص من دون لذَّة أو ألم لكون حبِّه للمحبوب غير كافٍ لتحريكه، ولكن مع دخول الحبِّ كجزء للعلَّة في الحساب يصبح كافياً له، قد يكون صحيحاً بشأن بعض السالكين، ويكون هذا الشخص أعلىٰ درجة ممَّن لا يتحرّك إلَّا من وراء اللذّة والألم، ولكن ليس هذا هو آخر الدرجة الممكنة من

درجات مرقاة الكمال في سُلَّم الفضائل. والدليل علىٰ ذلك مؤتلف من مقدّمتين:

الأولى: أنَّ التقدير المعنوي لمقدار تلك اللذّة المعنوية يقول لنا بفهم الوجدان: إنَّ درجة تلك اللذّة توازي درجة الحبِّ لذلك المبدأ النبيل، وكُلّما اشتدَّ حبُّه اشتد بقدره الالتذاذ به، وكُلَّما ضعف حبُّه ضعف بقدره الالتذاذ به.

والثانية: أنَّ هذا الالتذاذ قد يفوق في بعض الحالات لذَّة الراحة التي كانت تثبت في ترك التحرك نحو ذاك المحبوب، وآية ذلك: أنَّ الإنسان ـ عندئذٍ ـ لا يحسُّ بالراحة النفسيَّة في الترك، بل يحسُّ بأنَّ راحته النفسيّة في الفعل فحسب، في حين أنَّ من لم يصل حبُّه إلىٰ هذا المستوى يحسُّ بالتعب النفسيِّ في عمله، ولكنّه يتحمَّل هذا التعب في سبيل محبوبه.

والنتيجة: أنّه ـ إذن ـ سيكون حبُّه لذاك المحبوب غالباً علىٰ حبِّه للدَّعة والراحة؛ لأنّه يوازي لذَّته الغالبة علىٰ لذّة الدَّعة والراحة، ويكون وحده كافياً للغلبة علىٰ المزاحم[1]، نعم، لاشك أنّه يحصل ـ إضافة إلىٰ ما حصل عليه من

---

(١) قد تقول: إنّه يوجد في طرف الدَّعة والراحة شيئان: حبُّه للدَّعة والراحة، والتذاذه بهما. وفي طرف المبدأ النبيل ـ أيضاً ـ يوجد شيئان: حبُّه للمبدأ النبيل، والتذاذه بتحقيقه، فصحيح: أنّ التذاذه بالمبدأ النبيل غالبٌ علىٰ التذاذه النفسيِّ بالدِّعة والراحة، ومن ثُمّ يكون حبّه لذاك المبدأ غالباً علىٰ حبِّه للدِّعة والراحة، لكنّ هذا لا يعني غلبة حبِّه للمبدأ أو لله أو لرضوان الله أو ما إلىٰ ذلك علىٰ مجموع حبّه للدَّعة والراحة والتذاذه بهما، فقد يُدّعىٰ أنَّ الغلبة علىٰ المجموع لا تكون إلّا بعد انضمام الالتذاذ بذلك المحبوب الشريف إلىٰ حبّه.

والجواب: أنَّ هذا غفلة عن الفرق بين حبِّ الدَّعة والراحة وحبِّ الله أو حبِّ رضوان الله أو حبِّ الفضائل ونحو ذلك، أو قُلْ: هذا غفلة عموماً عن اللذائذ الماديّة واللّذائذ المعنويّة؛ وذلك لأنّه في اللذائذ الماديّة لا يُتصوَّر محرِّكان ينضمُّ أحدهما إلىٰ الآخر؛ لأنّ الحبَّ في الماديات ليس إلّا حبّاً للذَّة أو للفرار من الألم، ولولا التذاذه بالدَّعة والراحة لما أَحبَّهما، فليس حبُّهما شيئاً جديداً يضاف إلىٰ اللذّة في الداعويّة، في حين أنّه في الحبِّ المعنويِّ تكون اللذّة في طول الحبِّ، وليس العكس، فلأنَّ الشخص يحبُّ ابنه مثلاً وراحة ابنه يلتذُّ براحته، لا العكس.

الفضيلة ـ علىٰ لذّة فائقة أيضاً، ولكنّها واقعة تحت الشُعاع لما يطلبه من مبدأً أو فضيلة أو رضا الله سبحانه وتعالىٰ، فذاك المبدأ أو حبُّ الله هو محركه الحقيقيُّ، وتترتّب علىٰ ذلك اللذّة والانبساط كزيادة خير.

وقد اتّضح بكلِّ ما شرحناه: أنَّ المطيع تنقسم إطاعته بحسب الدوافع النفسيّة إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأوّل: دافع اللذّة أو الألم الثابتين بالثواب والعقاب، وتلك طاعة التجار أو العبيد.

والثاني: المزدوج من دافع حبِّ الطاعة ورضوان الله ودافع اللذّة والألم، وتلك طاعة الخواص.

والثالث: دافع حبِّ الله سبحانه وتعالىٰ وتحصيل رضاه، وتلك طاعة خاصّة الخواصِ حيث يكون التذاذه بالطاعة ـ أيضاً ـ مندكاً تحت داعويّة أصل الطاعة.

والالتفات إلىٰ ما قلناه لو لم ينفعنا في ارتقائنا السلوكي إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ في مرقاة هذه الكمالات، فلا أقلَّ من أن يكون نفعه لنا عبارة عن الاعتصام في مقابل صفة العُجب؛ لأنّنا ما لم نصل إلىٰ المرحلة الثالثة، وهي: داعويّة نفس الطاعة ورضوان الله دون الالتذاذ بهما أو في الأقل الثانية، وهي: الدافع المزدوج، فنحن في الحقيقة قد عبدنا لذّتنا وعشقنا ذاتنا، فأيُّ استحقاق لنا للثواب؟! وأيّة عبوديّة تكون هذه العبوديّة؟!

وأنا لا أقصد بنفي استحقاق الثواب نفيه من باب أنّنا مملوكون ملكيّة حقيقيّة لله، فلانستحقُّ شيئاً منه تعالىٰ في قبال طاعتنا إيّاه، ولا نفيه من باب أنَّ الاستحقاق إنّما يكون لمن أعطىٰ من نفسه شيئاً لغيره، ونحن كلَّ ما أعطيناه لله سبحانه كان من الله، لا من أنفسنا كي نستحقَّ شيئاً بالمقابل، فإنَّ أمثال هذه الأُمور لا تختص بنا، بل تشتمل حتّىٰ المعصومين عليهم السلام.

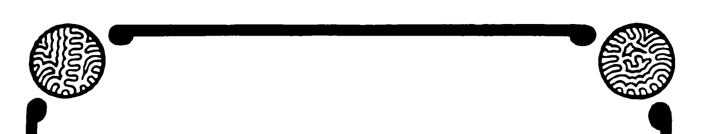
بل أقول ـ بغضّ النظر عن هذه النكتة ـ: إنّنا غير مستحقّين للثواب بعقليّة مكافئة الإحسان؛ لأنّنا في الحقيقة لم نعمل له، بل عملنا لأنفسنا، فلا مكافئة علىٰ أعمالنا إلّا بفضل الله ورحمته ورأفته.

نعم، تصحُّ في العرف الفقهي عباداتنا؛ لأنّها تشمُل علىٰ القربة بالمعنىٰ المقصود في الفقه حيث قرّروا فيه كفاية الداعي إلىٰ الداعي القربي، وهذا موجود في المقام؛ لأنّا نعمل بداعي الامتثال والطاعة وإن كان الداعي لنا إلىٰ هذا الامتثال والطاعة ثوابه، أو الفرار من عقابه، أو الالتذاذ بطاعته، إلّا أنّ هذا كما ترىٰ حيلة شرعيّة علّمتنا نفس الشريعة إيّاها، وقبلها الله منّا بقبول حسن بلطفه وكرمه، وإلّا لهلكنا جميعاً، إلّا أنّ هذا لا يعني: أنّ الاستحقاق ـ إذن ـ أصبح واقعيّاً (بعد غضّ النظر عن المملوكيّة وعدم الواجديّة الذاتيّة)، فغير الواصل إلىٰ ابتغاء رضا الله ـ لأنّه رضاه لا لنعيم الجنّة ولا للفرار من الجحيم ـ إن كان مطيعاً فهو في مرحلة العرفان يكون صاعداً من مستوى تحت الصفر إلىٰ مستوىٰ الصفر لا أكثر من ذلك، ومن يلتفت إلىٰ ذلك كيف يبتلي بالعُجْب؟!

أمّا من صعد من هذه المرتبة إلىٰ ابتغاء مرضاة الله تعالىٰ وإرادة ذاته عزَّوجلَّ، فهو ليس بحاجة إلىٰ ما قلناه في الارتداع عن العُجْب، بل الذي يردعه عن العُجْب قول إمامنا زين العابدين عليه السلام: «وما قدر أعمالنا في جنب نعمك، وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك»[١].

اللّهُمَّ ارزقنا توفيق الطاعة، وبُعد المعصية، وعرفان الحرمة، إنّك أنت السميع المجيب بمحمد وآله الطاهرين.

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.



الحلقة الثانية

مدخل البحث العملي لتزكية النفس





المدخل

إنَّ العمل في سبيل تزكية النفس ضروريٌّ لكلِّ إنسان مؤمن إلىٰ آخر عـمره، ولن يصل إلىٰ مستوىً يغنيه عن مجاهدة النفس وطلب التقوىٰ والتـزكية؛ وذلك لأمرين:

أوّلاً: إنَّ الكمال لا يتناهىٰ ـ والكمال المطلق هو الله سبحانه وتعالىٰ ـ فلن يصلَ العبد يوماً ما إلىٰ نهاية طريقٍ غير متناهٍ فلا يحقُّ له أن يقول يوماً: إنَّني اكتفيت.

وثانياً: إنَّه لو فُرِضَ لأَحد من السالكين أن أراد ـ لا سمح الله ـ الوقوف علىٰ حدٍّ معين من التزكية، فليس تركه لعمليّة المجاهدة والتزكية سبباً لوقوفه في حدِّه، بل يكون سبباً لتراجعه القهقرىٰ، تماماً كالجسد الذي لو لم يصله طعامه لتحلَّلت قواه، ولانهدَّت أركانُه.

وقلَّ ما يصل أحدٌ إلىٰ مستوىٰ من قال الله تعالىٰ بشأنه: ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنا ... ﴾[١] فسواءٌ فُسِّرت الآيات التي آتاها الله تعالىٰ إيّاه بمعنىٰ أسماء الله العظمىٰ، أو بأَيٍّ تفسير آخر، لا إشكال في أَنَّ هذا التعبير يدلُّ علىٰ وصول هذا الشخص إلىٰ مقامات سامية يندر أن يصلَ إليها أحد، ولكنّه مع ذلك لم يسلم من

---

(١) السورة ٧، الأعراف، الآية: ١٧٥.

الانزلاق إلىٰ حدٍّ إنَّ الله ـ سبحانه ـ قال بشأنه: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ * ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إلىٰ الأرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)].

ويندر أن يصل أحدنا في المقامات السامية إلىٰ ما وصل إليه إبليس الذي قيل عنه: إنَّه أصبح معلِّماً للملائكة، والذي ورد بشأنه في نهج البلاغة قوله عليه السلام[(٢)]: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أَحبط عمله الطويل وجهده الجهيد ـ وكان قد عبد الله ستَّة آلاف سنة لا يُدرىٰ أَمن سِني الدنيا أم من سِني الآخرة ـ عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم علىٰ الله بمثل معصيته؟! كلَّا ما كان الله سبحانه ليُدخِل الجنَّة بشراً بأمر أَخرج به منها ملكاً، إنَّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة[(٣)] في إباحة حمىً حرَّمه علىٰ العالمين...».

أَلم تسمع قِصَّة محمّد بن عليّ بن بلال الذي كان من ثقات الإمام العسكري عليه السلام، وبلغ من الشأن أَنَّ أبا القاسم حسين بن روح رضي الله عنه الذي صار بعد ذلك أَحد النوَّاب الخاصِّين للإمام عليه السلام كان يراجعه في الاسترشاد به فيما اختلف فيه الشيعة من التفويض وغيره، ولكنَّه بعد ذلك أَخلد إلىٰ الأرض واتَّبع هواه، وادَّعىٰ البابيَّة، وورد التبرِّي منه من قبل الإمام صاحب الزمان ـ عجَّل الله تعالىٰ فرجه ـ علىٰ يد

(١) السورة ٧، الأعراف، الآيتان: ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) نهج البلاغة: ٣٨٦، رقم الخطبة: ١٩٢.

(٣) الهَوادة: بمعنى المحاباة، أي: ليس بين الله وبين أحد اختصاص به وميل خاص إليه في أَن يُبيح له حمىً محرَّماً علىٰ باقي الناس.

أبي جعفر محمّد بن عثمان[١].

وقد ورد عن الرضا عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام أَنَّـه قـال: «الدنيا كلُّها جهل إلَّا مواضع العلم، والعلم كلُّه حُجَّة إلَّا ما عمل به، والعمل كلُّه رياء إلَّا ما كان مخلصاً، والإخلاص علىٰ خطر حتّىٰ ينظر العبد بما يُختَم له»[٢].

وبهذا نفهم أَنَّنا يجب أن نكون دائماً علىٰ حذر من سوء العاقبة ولابدَّ لنا من تحصيل علاج لمشكلة سوء العاقبة.

وعلاج مشكلة سوء العاقبة عبارة عن مجموع أَمرين:

الأمر الأوَّل: التضرُّع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وطلب حسن العاقبة منه، كما يشهد لذلك ما ورد بشأن أَحمد بن هلال العبرتائي[٣] الذي كان صالحاً في أوَّل أمره، وقد حجَّ أربعاً وخمسين حِجَّة، عشرون منها علىٰ قدميه، وكـان رواة أصـحابنا بالعراق قد لقوه وكتبوا منه، ثُمَّ خرج ذمُّه من قبل إمامنا أَبي محمّد العسكري سلام الله عليه، وكتب عليه السلام إلىٰ قوَّامه بالعراق: «إحذروا الصوفيَّ المـتصنِّع» فأنكـر رواة أصحابنا في العراق ماورد بذمِّه، فحملوا القاسم بن علاء علىٰ أَن يراجع في أَمره، فخرج مرَّة أُخرى ذمُّه والتبرِّي منه، فثبت قوم علىٰ إنكار ما خرج فيه، فعاودوه فيه، فخرج: «لا شكر الله قدره، لم يدعُ المرء ربَّه بأَن لا يزيغ قلبه بعد أَن هداه، وأَن يجعل ما منَّ به عليه مُستقرّاً ولا يجعله مُسْتَوْدعاً ...».

والأمر الثاني: أَن يعمد الإنسان إلىٰ عدم خروج النكتة السوداء في قلبه؛ وذلك بترك الذنب. ولو خرجت يعمد إلىٰ علاجها ومحوها بالتوبة قبل أَن تتَّسع، فإنَّ في

---

(١) راجع معجم رجال الحديث ١٦/٣٠٩ فصاعداً.

(٢) البحار ٢/٢٩.

(٣) راجع معجم رجال الحديث ٢/٣٥٦.

سَعتها خطرَ استيعاب السواد للقلب، وسقوط الإنسان إلىٰ ما لا رجعة له منه، كما ورد في الحديث عن أَبي بصير قال: سمعت أَبا عبدالله عليه السلام يقول: «إِذا أَذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإِن تاب انمحت، وإِن زاد زادت حتىٰ تغلب علىٰ قلبه، فلا يفلح بعدها أَبداً»[١].

وورد عن زرارة، عن أَبي جعفر عليه السلام[٢] قال: «ما من عبد إِلَّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإِذا أَذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإِن تاب ذهب ذلك السواد، وإِن تمادىٰ في الذنوب زاد ذلك السواد حتىٰ يغطِّي البياض، فإِذا غطَّىٰ البياض لم يرجع صاحبه إلىٰ خير أَبداً، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[٣]».

وقد ورد عن أَبي محمّد الحسن العسكري عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: كتب الصادق عليه السلام إلىٰ بعض الناس: «إِن أَردت أَن يُختمَ بخير عملك حتىٰ تُقبض وأَنت في أَحسن الأَعمال، فعظِّم لله حقَّه، أَن تبذل نعمائه في معاصيه، وأَن تغترَّ بحلمه عنك، وأَكرمْ كلَّ مَنْ وجدته يذكرنا أَو ينتحل مودَّتنا، ثُمَّ ليس عليك صادقاً كان أَو كاذباً، إِنَّما لك نيَّتك وعليه كذبه»[٤].

إِنَّ السلوك إلىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بعد تكميل أُصول العقائد بحاجة إلىٰ أركان ثلاثة: إلىٰ كتاب يكون دستوراً لعمله، وإلىٰ عبادة بينه وبين ربِّه يختلي فيها مع الله سبحانه، وإلىٰ سلوك مع الطبيعة ومع الناس، أو قلْ: ارتباط مع المخلوقات،

---

(١) الوسائل ١٥/٣٠٢، الباب ٤٠ من جهاد النفس، الحديث ١٢.

(٢) المصدر السابق ١٥ / ٣٠٣، الحديث ١٦.

(٣) السورة ٨٣، المطففين، الآية: ١٤.

(٤) البحار ٧٨/١٩٥.

فالكتاب الأوَّل هو: القرآن الكريم، والعبادة الأُولى هي: الصلاة، والارتباط الأوّل بالطبيعة وبالناس هو: كشف أسرار الطبيعة، واستثمارها في سبيل مصالح النـاس وارتباط الرعاية، والهداية، وقضاء الحوائج للناس. وبكلمة مختصرة: العمل معهم بما تقتضيه خلافة الله عزَّ وجلَّ علىٰ وجه الأرض.

وممَّا يشهد للأوّل ـ أعني: ضرورة جعل القرآن كتاباً للدستور والتـدبُّر فـيه ـ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفالُهَا**﴾[1].

وممَّا يشهد للثاني ـ أَعني: أَنَّ أوّل العبادات التي يتقرَّب بها إلىٰ الله والتي تكون أَساس تهذيب النفس هي الصلاة ـ قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَـنْهىٰ عَـنِ الْـفَحْشاءِ والمُنْكَرِ...**﴾[2].

وممَّا يشهد للثالث ـ أَعني: ضرورة كون الارتباط بالطبيعة والنـاس ارتـباط الخلافة ـ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...**﴾[3].

فإِنَّ الذي يبدو لنا: أَنَّ المقصود بالخلافة خلافة الله، وليس خلافة إِنسان سابق علىٰ وجه الأرض؛ لأَنَّ المتكلم إِذا أَطلق كلمة (الخليفة) وأَراد الخلافة عن غير نفسه، كان عليه ذكر غيره. وأيضاً الذي يبدو لنا هو: أَنَّ المقصود خـلافة البشـر لا خلافة آدمعليه‌السلام بالخصوص، كما يشهد لذلك اعتراض الملائكة بقولهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...**﴾[4].

وعليه نحصر حديثنا في المَدخل بكلمات مختصرة عن خمس نقاط :

---

(١) السورة ٤٧، محمّدصلى‌الله‌عليه‌وآله، الآية: ٢٤.

(٢) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) السورة ٢، البقرة، الآية: ٣٠.

(٤) المصدر السابق.

الأولىٰ : ما يظهر من الآيات المباركات من الربط الوثيق بين القرآن والصلاة.

الثانية : التأكيد علىٰ كون القرآن هو الكتاب الأوّل لدُسْتُور السالك إلىٰ الله تعالىٰ.

الثالثة : التأكيد علىٰ أَنَّ الصلاة هي العمل الأوّل والأساس لتهذيب النفس.

الرابعة : التأكيد علىٰ ضرورة العمل الاجتماعي مع الناس ومع الطبيعة، وأَنَّ ذلك لا ينافي العمل في سبيل تهذيب النفس وتزكيتها، بل بالإمكان أَن يجعل ذلك بنداً من بنود التهذيب والتزكية.

الخامسة : التمييز بين العارفين بالعرفان الصحيح، والمتصوِّفة أَو العرفاء الكاذبين.

النقطة الأُولىٰ
وهي التشابك الموجود بين كتاب السالك
وهو القرآن وأَساس أعماله وهي الصلاة

إِنَّ كلَّ أَحد يعلم أَنَّ الصلاة لا تكون إِلَّا مع قـراءة القرآن من سـورة الحـمد التي هي أُمُّ الكتاب وسورة أُخرى.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة»[1].

والتشابك بين القرآن والصلاة منعكس في آيات عديدة، من قبيل قوله سبحانه وتعالىٰ:

١ ـ ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ...﴾[2].

ويحتمل أن يكون النظر الخاصّ في هذه الآية المباركة إلىٰ تـلاوة الكـتاب ضمن إِقامة الصلاة بالخصوص، ولا ينافي ذلك إِطلاق النظر إلىٰ تلاوة الكـتاب منفردةً عن الصلاة أيضاً.

٢ ـ ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3]. وقد فُسِّـرت

---

(١) البحار ٩٢ / ٢٠٠.

(٢) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) السورة ٧، الأعراف، الآية: ٢٠٤.

الآية في خبر صحيح[١] بقراءة القرآن ضمن الصلاة من قبل إمام الجماعة.

٣ ـ ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[٢].

والظاهر: أَنَّ المقصود بقرآن الفجر هو: القرآن ضمن صلاة الصبح.

٤ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ واللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُم مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ...﴾[٣].

والظاهر: أَنَّ النظر الخاصّ، إلىٰ قراءة القرآن ضمن صلاة الليل، ولا ينافي ذلك فرض الإطلاق لقراءة القرآن مستقلَّة عن الصلاة أيضاً.

٥ ـ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَحْمٰنِ الرَحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾[٤].

والظاهر: أَنَّ هذه الآيات ـ أيضاً ـ ناظرة إلىٰ ترتيل القرآن ضمن صلاة الليل. والتي مضىٰ ذكرها من الآية عشرين من نفس السورة كأنَّها تخفيف عن الرسول ﷺ وأصحابه عمّا نطقت به هذه الآية علىٰ أساس أَنَّ الله تعالىٰ علم أنّه منهم مرضى... الخ.

وكأَنّ في هذه الآيات المباركات إرشاداً للسالك إلىٰ الله وبياناً لنكتة تربويّة

---

(١) الوسائل ٨/٣٥٥، الباب ٣١ من صلاة الجماعة، الحديث ٣.

(٢) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٧٨.

(٣) السورة ٧٣، المزّمّل، الآية: ٢٠.

(٤) السورة ٧٣، المزّمّل، الآيات: ١ ـ ٧.

هامّة، توضيحها: أَنَّ السالك إلىٰ الله وإن كان جميع أعماله عبادة وبأَهداف إِلٰهية، ولكنّه بحاجة ماسَّة يوميّاً إلىٰ أَن يُفرِّغ شيئاً من وقته للمناجاة مع الله والتكلُّم معه والتوجّه الحضوري إليه، وليس كالتوجّه العام الثابت في كـلّ الأعـمال القـربيّة كالجهاد، والأمر بالمعروف، وتحقيق مـصالح الإسـلام والمسـلمين، ومـراعـاة الضعفاء والمحتاجين، وتحصيل العلوم الإسلاميّة النافعة، أو العلوم النافعة للبشر، وما إلىٰ ذلك ممّا تكون كلُّها عبادة بالمعنىٰ العام. وخير ساعة يفرغها السالك لهذا النمط من تربية النفس هي: أَن تكون من الليل ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾. ولا نشكُّ في أَنّ رسول الله ﷺ كانت جميع أعماله عبادة، ولم يكن شيء منها عملاً دنيويّاً، بل كان صارفاً وقته تماماً فيما يريد الله: من جهاد، أو إرشاد، أو إصلاح أُمور المجتمع الاسلاميّ، أو حلّ مشاكل المسلمين، أو غير ذلك، وبرغم ذلك قال له الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾. وهذا يعني: أَنَّه لم يكن المقصود بهذا الكلام تأجيل الأعمال الدنيويّة للنهار كي يخلو جوف الـليـل للعبادة الخاصّة، بل المقصود تأجيل كلّ شيء حتّىٰ الأعمال العباديّة بمعناها العام للنهار كي يخلو جوف اللّيل للعبادة الخاصّة. وبهذا يثبت ما قلناه: من أَنَّ السالك إلىٰ الله لا يكفيه أَن تكون كلُّ أعماله عبادة بالمعنىٰ العـام، بـل هـو بـحاجة إلىٰ تخصيص شيء من أوقاته (وأفضلها جوف الليل) للـمناجاة مـع الربِّ بـحضور القلب بمعناه الخاصّ.

وقد قالوا في تفسير قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾[١] : إِنَّ المقصود به أمر النبيِّ ﷺ بصلاة الليل لينال بذلك مقام الشفاعة[٢] .

---

(١) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٧٩.

(٢) راجع تفسير «نمونه» ١٢ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥ و ٢٣١ ـ ٢٣٢.

النقطة الثانية

وهي ضرورة التدبُّر في القرآن للسالك إلىٰ الله

فقد مضىٰ أَنَّه ممّا يدلُّ علىٰ ذلك قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1] وقد ورد عن الصادقعليه السلام في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ إنَّ لك قلباً ومسامع وإنّ الله إذا أراد أَن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، وإذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه، فلا يصلح أبداً. وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2].

وأيضاً ممّا يدلُّ من الآيات القرآنيّة علىٰ أَنَّ القرآن كتاب التربية والتزكية وشفاء النفس من الأدْواء الروحيّة قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾[3]. ومن الواضح: أَنَّ المقصود بذلك الشفاء من الأمراض الروحيّة. ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

---

(١) السورة ٤٧، محمّدصلى الله عليه وآله، الآية : ٢٤.

(٢) تفسير «نمونه» ٢١/ ٤٧٠.

(٣) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٨٢.

(٤) السورة ١٠، يونس، الآية: ٥٧.

وممّا يدلُّ علىٰ ذلك ـ أيضاً ـ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

فلو أنّ قلوبنا لم تخشع ولم تتصدّع من خشية الله فهذا دليل علىٰ أنّ القرآن لم ننزّله بمعنىٰ الكلمة علىٰ قلوبنا، ولم نهضمه فيما بين جوانحنا، وحينما نقرأه لا نهتم

---

(١) السورة ٥٩، الحشر، الآية: ٢١.

وهذه الآية من الآيات التي تدلُّ ـ علىٰ ما يبدو لنا ـ علىٰ أنَّ للجماد نوع شعور مناسب لنشأته بحيث لو أَنزل الله ـ تعالىٰ ـ هذا القرآن بالنشأة المناسبة لنشأة الجبل لخشع وتصدَّعَ من خشية الله. ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿... فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً...﴾ السورة ٧، الاعراف، الآية: ١٤٣.

فالمقصود هنا ـ أيضاً ـ تجلِّي الربِّ بالنشأة المناسبة لنشأة الجبل. ونظير هاتين الآيتين قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ السورة ٢، البقرة، الآية: ٧٤.

فلو أمكن حمل قوله تعالىٰ: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾ و ﴿لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ علىٰ نوع من البيان الاستعاري أو الكنائي أو المجازي والبلاغي إذ فُرِضَ تفجر النهر والتشقق بالماء من قبيل لين القلب، فكيف نفسر قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه﴾؟! إلّا بتفسير: أنَّ للجماد نشأة خاصة به، وله بلحاظ تلك النشأة الخشية من الله تعالىٰ. ومن هنا يبدو أنَّ ما يقال من تفسير عرض الأمانة علىٰ السماوات والأرض والجبال بعرضها علىٰ أهلها كالملائكة، أو بكون ذلك تمثيلاً وتقديراً، وكون الإباء والاشفاق بعنوان لسان الحال، كلُّ هذه بعيدة عن الواقع، بل الآية محمولة علىٰ معناها الظاهري والحقيقي، إلّا أَنَّ العرض كان بالنشأة المناسبة لنشأة الجمادات. وما أحلى ما قال الرومي بالفارسيّة:

گر ترا از غيب چشمي باز شد	با تو ذرات جهان همراز شد
نطق خاک ونطق آب ونطق گل	هست محسوس حواس اهل دل
جملهٔ ذرّات در عالم نهان	با تو ميگويند روزان وشبان
ما سميعيم وبصير وبا هشيم	با شما نامحرمان ما خامشيم

إلّا بقراءة الألفاظ من دون إنزال المعاني بدقيق الكلمة علىٰ أفئدتنا.

وفي الحديث عن الصادقﷺ: «لقد تجلّىٰ الله لخلقه في كلامه، ولكنّهم لا يبصرون»[١]. وكلّنا نعلم أنّ كتاب الشخص يمثّل شخصيّته، وحتّىٰ الرسالة المختصرة التي تُردّد بين صديقين قد تُمثّل شخصية صاحب الرسالة، فمن الطبيعي أنّ يقال: «لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكنّهم لا يبصرون» وهذا المعنى صادق بلحاظ كتابي الآفاق والأنفس أيضاً، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**...﴾[٢]، إلّا أنّه بالنسبة للقرآن أوضح وأسهل للدرك لدىٰ الناس الاعتياديين.

وتوجد بعض القصص والحكايات في تأثير التدبّر في القرآن وإحيائه للقلوب من قبيل:

١ ـ ما يُحكىٰ عن الفضيل بن عياض: أنّه كان في أوّل أمره يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس، وعشق جارية، فبينما يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**...﴾[٣]. فقال: يا ربِّ قد آن، فرجع وأوىٰ إلىٰ خربة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم نرتحل، وقال بعضهم حتّىٰ نصبح، فإنّ فضيلاً علىٰ الطريق يقطع علينا. فتاب الفضيل وآمنهم. وحكي أنّه جاور الحرم حتّىٰ مات[٤].

٢ـ قيل: كان لفضيل ولد اسمه عليّ، وكان أفضل من أبيه في الزهد والعبادة، إلّا أنّه لم يتمتع بحياته كثيراً، وكان سبب موته أنّه كان يوماً في المسجد الحرام واقفاً

---

(١) البحار ٩٢ / ١٠٧.

(٢) السورة ٤١، فصّلت، الآية: ٥٣.

(٣) السورة ٥٧، الحديد، الآية: ١٦.

(٤) سفينة البحار ١٠٣/٧، مادة (الفضيل).

بقرب ماء زمزم فسمع قارياً يقرأ: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ فصعق ومات[١].

٣ـ رُوي : أنّ رجلاً جاء إلىٰ رسول الله ﷺ وقال: علّمني ممّا علّمك الله، فأودعه الرسول إلىٰ رجل من أصحابه كي يعلّمه القرآن، فعلّمه سورة الزلزلة.. إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾، فقام الرجل وقال: حسبي هذا، فقال رسول الله ﷺ: «رجع فقيهاً»[٢].

ويناسب هنا أن نتذكّر كلام إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتّقين: «... أمّا الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن، يرتّلونه ترتيلاً، يحزّنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنّوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أُصول آذانهم ...»[٣].

نعم، إنّ القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، ولكنّه في نفس الوقت لا يزيد الظالمين إلّا خساراً، كما هو معروف بشأن الخوارج الذين كانوا تالين للكتاب. وقد روي أنّه خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة من مسجد الكوفة متوجهاً إلىٰ داره، وقد مضى ربع من الليل ومعه كميل بن زياد رضي الله عنه، وكان من خيار شيعته ومحبّيه، فوصل في الطريق إلىٰ باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت، ويقرأ قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ...﴾[٤] بصوت شجيّ حزين، فاستحسن كميل ذلك في باطنه، وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئاً، فالتفت صلوات الله عليه إليه وقال: «يا

---

(١) المصدر السابق، والآيتان: ٤٩ ـ ٥٠ في سورة ١٤ إبراهيم.

(٢) تفسير «نمونه» ٢٧/٢٣١ ـ ٢٣٢، والآيتان: ٧ ـ ٨ في السورة ٩٩، الزلزلة.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤١٠، رقم الخطبة: ١٩٣.

(٤) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٩.

كميل لا تعجبك طنطنة الرجل، إنّه من أهل النار، وسأُنبّؤك فيما بعد» فتحيّر كميل لمكاشفته له علىٰ ما في باطنه، ولشهادته بدخوله النار مع كونه في هذا الأمر وتلك الحالة الحسنة. ومضت مدّة متطاولة إلىٰ أن آل حال الخوارج إلىٰ ما آل، وقاتلهم أمير المؤمنين عليه السلام، وكانوا يحفظون القرآن كما أُنزل، فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ كميل بن زياد وهو واقف بين يديه والسيف في يده يقطر دماً، ورؤوس أُولئك الكفرة الفجرة محلّقة علىٰ الأرض، فوضع رأس السيف علىٰ رأس من تلك الرؤوس وقال: يا كميل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ...﴾، أي: هو ذاك الشخص الذي كان يقرأ القرآن في تلك الليلة، فأعجبك حاله، فقبّل كميل قدميه عليه السلام واستغفر الله[١].

(١) سفينة البحار ٥٣٨/٧، والبحار ٣٩٩/٣٣.

النقطة الثالثة
وهي أنّ الصلاة هي العمل الأوّل والأساس لتهذيب النفس

فقد قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿...أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1].

وقد يبدو للخاطر : أنّه ما معنىٰ إخباره سبحانه وتعالىٰ عن نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر في حين أنّ أكثر الناس الاعتياديين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، بدليل أنّهم يصلّون وفي نفس الوقت ـ أيضاً ـ يصدر منهم بعض الفسوق.

ولكن الواقع : أنّه في الغالب بل الدائم لا تنفك الصلاة عن النهي عن الفحشاء والمنكر، إلّا أنّ هذا النهي يتقدّر بقدر حضور المصلي لدىٰ المليك المقتدر في صلاته. وكيف يتعقّل ـ عادة ـ أن يحضر العبد بمحض اختياره ورغبته لدىٰ سلطان دنيويّ في اليوم خمس مرّات، ويحسّ بعظمته وجلاله ثمّ لا يؤثّر ذلك في ترك مخالفته لذلك السلطان، أو تقليل المخالفة ولو جزئياً؟! فإذا كان هذا حال الحضور لدى سلطان دنيويّ عاجز مسكين مستكين فكيف بالحضور لدىٰ المليك المقتدر؟ وإن كانت سَعة رحمته قد تُجرّئ العبد علىٰ المعصية. «فلو اطّلع اليوم علىٰ ذنبي

---

(١) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٤٥.

غيرك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنّك أهون الناظرين إليَّ، وأخفّ المطّلعين عليّ، بل لأنّك ياربّ خير الساترين، وأحكم الحاكمين، وأكرم الأكرمين...»[١]. نعم، يتقدَّر النهي عن الفحشاء والمنكر بقدر ما يكون للإنسان من حضور القلب، فمن يضعف ويقلُّ حضوره يقلّ نهي الصلاة إيّاه عن الفسوق، ولكن لو كان يترك الصلاة لكان يتوغّل في هاوية الفسوق أكثر، ومن يتمُّ حضوره في الصلاة أمام الربّ بتمام ما للكلمة من معنىٰ يكون ذلك في نهيه إيّاه من الفحشاء والمنكر بمرتبة ما يوازي العصمة أو يقاربها.

وقد روي عن ابن عباس: أنّه أُهدي إلىٰ رسول الله ﷺ ناقتان عظيمتان، فجعل إحداهما لمن يصلّي ركعتين لا يهمّ فيهما بشيء من أمر الدنيا. ولم يجبه أحد سوىٰ عليّ عليه السلام، فأعطاه كلتيهما[٢].

وقد ورد ـ أيضاً ـ أنّ عليّاً عليه السلام كان في صلاته يستغرق في الله إلىٰ حدّ أُستخرج السهم من رجله في حال الصلاة فلم يلتفت[٣]. وقد روىٰ الفيض الكاشاني رحمه الله في المحجّة: أنّ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وقع في رجله نصل، فلم يمكّن من إخراجه، فقالت فاطمة عليها السلام: أخرجوه في حال صلاته، فإنّه لا يحسّ بما يجري عليه، فأُخرج وهو عليه السلام في صلاته[٤].

ومن هنا قيل: إنّه أُعترض علىٰ بعض الخطباء ـ وقيل: إنّه ابن الجوزي ـ بأنّ عليّاً عليه السلام مع استغراقه الكامل في ذات الله لدىٰ الصلاة كيف التفت إلىٰ السائل وأعطاه خاتمه؟!

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) البحار ٤١/١٨.

(٣) تفسير «نمونه» ٤/٤٢٨، وأنوار المواهب: ١٦٠.

(٤) المحجة البيضاء ١/٣٩٧ ـ ٣٩٨.

فأجاب الخطيب بالبداهة بقراءة هذين البيتين :

يسقي ويشربُ لا تُلْهِيهِ سكرتُه　　عن النديمِ ولا يلهو عن الكاسِ
أطاعه سُكرُهُ حتّىٰ تمكَّنَ من　　فعلِ الصُحاة فهذا أفضلُ الناسِ[١]

وكأنّ المقصود : أنّ عمل الالتفات إلىٰ السائل والتصدّق عليه كان عبادة. فالالتفات إلىٰ ذلك في أثناء الصلاة كان ـ أيضاً ـ التفاتاً إلىٰ الله؛ ولهذا لم يصبح استغراقه في ذات الله مانعاً عن ذلك، ولم يكن هذا الالتفات التفاتاً إلىٰ النفس كما في فرض الالتفات إلىٰ إخراج السهم ـ مثلاً ـ حتّىٰ يكون نسيانه لذاته في الصلاة مانعاً عن ذلك.

وقد ورد في وصايا رسول الله ﷺ لأبي ذرّ : «يا أبا ذرّ رَكْعتان مقتصدتان في تفكّر خيرٌ من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ»[٢].

وروي عن رسول الله ﷺ : أنّه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: «أما انّه لو خشع قلبهُ لخشعت جوارحُه»[٣].

وعن النبيّ ﷺ : «إذا قام العبد إلىٰ صلاته وكان هواه وقلبه إلىٰ الله انصرف كيوم ولدته أُمّه»[٤].

وأيضاً روي عن رسول الله ﷺ : «مَنْ صلّى رَكْعتين لم يُحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه»[٥].

وأيضاً روي عن النبيّ ﷺ : «أنّ العبد ليصلّي الصلاة لا يُكتب له سدسُها ولا

---

(١) أنوار المواهب: ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) البحار ٧٧ / ٨٢.

(٣) مجمع البيان مج ٤ / ٧ / ١٧٦، في ذيل تفسير قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ السورة ٢٣، المؤمنون، الآية: ٢.

(٤) كتاب أسرار الصلاة للحاج ميرزا جواد الملكي: ١٢٧، ط الناشر مكتبة فرهومند.

(٥) المحجة البيضاء ١/٣٤٩.

عشُرها، وإنّما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»[١].

وأيضاً روي عن بعض أزواج النبيّ ﷺ قالت: كان رسول الله يحدّثنا ونحدّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيء. وكان عليّ عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل، فيقال له: مالك يا أمير المؤمنين؟! فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله علىٰ السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها». وكان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا حضر الوضوء اصفرّ لونه[٢].

وأيضاً ورد عن الرسول ﷺ: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «من أحبّ أن يعلم أقُبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر، فبقدر ما منعته قبلت منه»[٤].

وبمعرفة معنىٰ نهي الصلاة عن المنكر، وأنّ النهي يقوى ويتمّ إذا قوي حضور قلب المصلّي لدىٰ الله وتمَّ، قد يتّضح معنىٰ غسل الصلاة لدرن الروح باليوم خمس مرّات كمن يغسل بدنه بنهر جارٍ باليوم خمس مرّات، فلا يبقىٰ درن في بدنه، كما ورد عن الباقر عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «لو كان علىٰ باب دار أحدكم نهرٌ، فاغتسل في كلّ يوم منه خمس مرّات أكان يبقىٰ في جسده من الدرن شيء؟ قلنا: لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري كلّما صلّى صلاة كفّرت ما بينهما من الذنوب»[٥].

وورد في رواية اُخرى عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أحدهما عليهما السلام يقول:

---

(١) المصدر السابق ١ / ٣٦٨.

(٢) المحجة البيضاء ١/٣٧٨.

(٣) تفسير «نمونه» ٢٨٦/١٦ و ٢٨٧.

(٤) تفسير «نمونه» ٢٨٦/١٦ و ٢٨٧.

(٥) الوسائل ١٢/٤، الباب ٢ من أعداد الفرائض، الحديث ٣.

إنّ عليّاًعليه السلام أقبل علىٰ الناس فقال: أيّة آية في كتاب الله أرجىٰ عندكم؟ فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء...﴾[1]. قال: حسنة وليست إيّاها. وقال بعضهم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ[2] ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[3]. قال: حسنة وليست إيّاها. فقال بعضهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4]. قال: حسنة وليست إيّاها. وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[5]. قال: حسنة وليست إيّاها. قال ثمَّ أحجم الناس فقال: مالكم يا معاشر المسلمين؟ قالوا: لا والله ما عندنا شيء. قال: سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: أرجىٰ آية في كتاب الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[6]. وقال: يا عليّ والذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ أحدكم ليقوم إلىٰ وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل عن صلاته وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أُمّه، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين

(١) السورة ٤، النساء، الآيتان: ٤٨ و١١٦.

(٢) لعلّه إشارة إلىٰ أنّ المذنب قد ظلم نفسه وأضرّ بنفسه وليس بربّه، فإنّ الله غنيّ عن العالمين.

(٣) السورة ٤، النساء، الآية: ١١٠.

(٤) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٥٣.

(٥) السورة ٣، آل عمران، الآيتان: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٦) السورة ١١، هود، الآية: ١١٤. وستأتي في بحث الشفاعة رواية اخرى تعيّن أرجىٰ آية في آية الشفاعة.

كان له مثل ذلك حتّىٰ عدّ الصلوات الخمس، ثُمّ قال: يا عليّ إنّما منزلة الصلوات الخمس لأُمتي كنهر جارٍ علىٰ باب أحدكم، فما ظنّ أحدكم لو كان في جسده درن ثمّ اغتسل في ذلك النهر خمس مرّات في اليوم أكان يبقىٰ في جسده درن؟! فكذلك والله الصلوات الخمس لأُمتي[١].

وفي أكبر الظنّ أنّ المقصود هو : إمكانية غسل الدرن بالصلوات الخمس لا زوال الدرن قهراً، فإنّ الصلاة شُبِّهت بنهر الماء ولو أنّ أحداً دخل فيه عشرات المرّات، وخرج من دون أن يغتسل وينظف بدنه بفرك ونحوه، لم يخلص من درنه، وكذلك الصلاة إنّما تغسل الدرن وتزيل الذنوب لمن يغسل بها روحه. ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وآله: «فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه...» إذن فلو لم يستقبل الله إلّا بتوجيه الوجه نحو الكعبة، ومن دون التوجّه بالقلب نحو الله، لم تكن فيه هذه الفائدة بكاملها، وإن كانت لا تخلو صلاته عن شيء من هذه الفائدة. وكذلك يشهد للمقصود تمسّكه عليه السلام بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ فأكبر الظنّ: أنّ المقصود بهذه الآية ليس هو مجرّد أن الحسنة تقتضي عفو الله عن ذنب العبد بمعنى ترك عقابه عليه (وان كانت الحسنة لا تخلو من تأثير في ذلك)، فإنّ هذا ليس إذهاباً للسيّئات؛ لأنّ عفو الله بترك العقاب عليها لا يعني زوالها واضمحلالها، فهي موجودة، إلّا أنّ الله ـ تعالىٰ ـ برحمته ربّما لا يؤاخذ العبد عليها ويعفو عنه. أمّا الإذهاب الحقيقي للسيّئات فهو عبارة عن غَسل الدرن الذي اتّجه إلىٰ الروح، وإزالة الظلمة التي سيطرت علىٰ القلب بسبب الذنوب، ومحو الآثار التي خلّفت الذنوب علىٰ النفس. وهذا هو الذي يكون ذكرى للذاكرين، فقد يتخيّل المؤمن الذي ابتلى بالذنب ـ نتيجةً لعدم العصمة ولاستيلاء الشهوات عليه المودعة فيه من قبل الله تعالىٰ ـ أنّه لا علاج للخلاص عن السقوط الذي وقع فيه،

---

(١) البحار ٨٢ / ٢٢٠.

فيذكِّره الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ بأنّك تستطيع علاج مرض الذنوب بدواء الحسنات.

ولعلّه اتّضح بهذا ـ أيضاً ـ معنىٰ ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام من كون «الصلاة عمود الدين مثلها كمثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب»(١).

وليعلم أنّ الصلاة صُمِّمت بشكل يساعد علىٰ حضور القلب، وتلهم بكل خطواتها ذكر الله سبحانه وتعالىٰ، وتساعد إلىٰ حدّ كبير في النهي عن الفحشاء والمنكر.

ولتوضيح ذلك نذكر نموذجاً مختصراً عن إلهامات الصلاة بقدر ما يتطلّبه هذا المدخل المختصر:

فأوّلاً ـ استقبال الكعبة:

إنّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ موجود في كلّ مكان، ونسبة جهة الكعبة وما يعاكسها إليه سواه **﴿وَلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ ...﴾**(٢)، ولكن الإسلام أراد للإنسان اتّجاهاً حسّياً لدىٰ إرادة الاتّجاه إلىٰ الله، باعتبار أنّ الإنسان خُلِق حسّياً أكثر من كونه عقليّاً، فجعل الكعبة رمزاً لبيت الله، وأمرنا بالتوجّه إلىٰ جهة المسجد الحرام بقوله تعالىٰ: **﴿... وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾**(٣)، أفيكون من وظيفتنا في الصلاة توجّه الجسم إلىٰ ما جعل رمزاً لبيت الله، ولا يكون من وظيفتنا توجّه القلب في الصلاة إلىٰ الله سبحانه والذي به تتمّ روح العبادة؟!

---

(١) البحار ٨٢ / ٢١٨.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ١١٥.

(٣) السورة ٢، البقرة، الآيتان: ١٤٤ و ١٥٠.

وثانياً ـ التكبير:

لئن كبّرنا ـ حقّاً ـ متوجّهين إلىٰ مغزىٰ التكبير، وقاصدين معناه، ومؤمنين بأنّ الله أكبر من كلّ شيء، أفهل يُعقل أن نعصي الله، ونتّجه إلىٰ غيره من هدف صغير أو كبير ممّا هو لا شيء بالقياس إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ؟!

وثالثاً ـ سورة الفاتحة:

وليست هي أوّل سورة نزلت من القرآن، فعجباً لماذا أصبحت فاتحةً للكتاب؟! أفلا يرمز ذلك إلىٰ عظمة هذه السورة المباركة، ولقد فُسِّر السبع المثاني بهذه السورة، وجُعِل السبع المثاني في عرض تمام القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾[١]. وفي الحديث عن عليّ عليه السلام قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ الله ـ تعالىٰ ـ قال لي: يا محمّد ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾، فأفرد الامتنان عليَّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بإزاء القرآن العظيم. وإنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش...»[٢].

ولفاتحة الكتاب ميزة لم توجد في أيّة سورة أُخرىٰ من سور القرآن، وهي: أنّ جميع سور القرآن لسانها لسان مخاطبة الله سبحانه وتعالىٰ للناس، ماعدا هذه السورة المباركة التي كان لسانها من أوّلها إلىٰ آخرها لسان مخاطبة العبد لله سبحانه وتعالىٰ[٣].. ولعلّ هذا هو السرّ في أنّه لا تخلو صلاة منها، ولا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب[٤]. ولعلَّ هذا هو السرّ أو أحد الأسرار في جعل هذه السورة أوّل

---

(١) السورة ١٥، الحجر، الآية: ٨٧.

(٢) تفسير البرهان: ١ / ٤١.

(٣) تفسير «نمونه» ١ /٢.

(٤) راجع الوسائل ٦/٣٧ ـ ٣٩، الباب ١ من أبواب القراءة في الصلاة.

سورة من القرآن برغم نزولها المتأخّر.

ومن يبدأ القراءة في الصلاة بالاستعانة بالله الرحمن الرحيم، ويعترف بأنّه تعالىٰ مالك يوم الدين، ويحصر العبادة والاستعانة بالله تعالىٰ، كيف يتّخذ بعد ذلك إلٰههُ هواه، ويستعين بنعم الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ معصيته؟!

ورابعاً ـ الركوع والسجود:

وقد قالوا عنهما: إنّهما عبادة ذاتيّة؛ لأنّ العبادة تذلّل، والتذلّل بالعبائر إنّما تكون بمعانيها اللُغويّة التي تختلف من لغة إلىٰ لغة ومن قوم إلىٰ قوم، في حين أنّ دلالة الركوع والسجود علىٰ التذلّل دلالة عالمية أجمع عليها كلّ الملل وكلّ اللغات، فكأنّ دلالتها علىٰ ذلك ذاتيّة، ومن يتذلّل لله بهكذا تذلّل بمحض اختياره ومن دون أيّ إجبار؛ لأنّ «...اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[١] كيف يعارض الله ـ تعالىٰ ـ بعد ذلك بمعصيته؟!

إلىٰ هنا تكلّمنا حول تفسير قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ...**﴾[٢]. ولا بأس بتكميل البحث بحديث مختصر عن ذيل الآية، وهو قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...**﴾ وفيه احتمالان:

الاحتمال الأوّل: أن يكون المقصود بالذكر ذكر العبد لله تعالىٰ. ويؤيّد هذا الاحتمال ما ورد في تفسير الذكر في هذه الآية المباركة عن الصادق عليه السلام من قوله: «ذكر الله عندما أحلّ وحرّم»[٣]. وليس معنىٰ الآية علىٰ هذا الاحتمال: أنّ ذكر الله أكبر من الصلاة، وذلك لوضوح أنَّ الصلاة من أبرز مصاديق الذكر وأكملها، بل

---

(١) نهج البلاغة: ٨٠، رقم الخطبة: ٤٢.

(٢) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) تفسير «نمونه» ١٦/ ٢٨٩.

كأنّ معناها: إمّا هو تعليلٌ لنهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر: بأنّ ذكر الله أكبر من كلّ ما يكون قابلاً للنهي عن الفحشاء والمنكر، أي: بما أنّ الصلاة تكون أبرز أنحاء الذكر وأتمّها وأكملها فهي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وإمّا هو بيان لكون ذكر الله ـ ومن أتمّها وأكملها الصلاة ـ أكبر من كلّ اللّذائذ والتي منها لذّة النفس الأمّارة، وهي لذّة الفحشاء والمنكر[١].

والاحتمال الثاني: أن يكون المقصود بالذكر ذكر الله للعبد، فيكون معنىٰ الآية: أنّ ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لله.

قال الله تعالىٰ: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ...**﴾[٢]. ويؤيّد هذا الاحتمال ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...**﴾ أنّه يعني: «ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إيّاه، ألا ترىٰ أنّه يقول: ﴿**اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ...**﴾»[٣].

استنتاجٌ وإضافة:

أمّا الاستنتاج: فقد اتّضح أنّ أوّل خطوة للسلوك هو الخشوع في الصلاة، وقد أشار القرآن إلىٰ ذلك في آيتين:

الأُولى: قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[٤]. فقد جعل أوّل علامة الإيمان هو الخشوع في الصلاة.

والثانية: قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى**

---

(١) راجع بهذا الصدد رسالة السير والسلوك المنسوب إلىٰ السيّد بحر العلوم مع تعليق السيّد محمّد حسين الطهراني: ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٥٢.

(٣) البحار ٨٢/٢٠٦.

(٤) السورة ٢٣، المؤمنون، الآية: ١ ـ ٢.

الْخَاشِعِينَ﴾[١].

فمن يصلّي بهدف التخلّص من مسؤوليّة الوجوب، وليس بدافع خشوعه القلبي لله واستغراقه في ذات الله، يحسّ بثقل الصلاة، ويتمنّىٰ في أثناء صلاته بين آونة واُخرى أن تنتهي الصلاة كي لا تشغله عن أعماله وعن علاج مشاكله التي هو مصاب بها، فَمَثله مثل رجل مريض يراجع الطبيب، وينتظر في صفّ المرضىٰ المنتظرين ولو لعدّة ساعات، ويتحمل ذلك لعلمه بأنّ هذا لابدّ له منه علاجاً لمرضه أو نجاةً من الموت الاحتمالي، لكنّه يتمنّىٰ في كلّ لحظة أن تنتهي هذه المراجعة كي يفرغ لسائر أعماله وهمومه. أمّا من يتشرف بلقيا عظيم من العظماء كالسيد الإمام‌ﷺ أو السيّد الشهيد الصدرﷺ ممّن يكون خاشعاً له مستغرقاً في حبّه ملتذّاً بحضوره لديه فقد تمضي عليه الساعات الطوال ولا يحسّ أصلاً بمرور الزمن، فكأنّ هذا هو معنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، أي: أنّ غير الخاشع إن كان يصلّي يرىٰ أنّ صلاته قد زاحمت أعماله وأشغاله الأُخرىٰ، فهو قد يأتي بالصلاة باعتبار اعتقاده بوجوبها، لكنّه يحسّ بثقلها ومشقّتها. وأمّا الخاشع فهو الذي يلتذّ بالصلاة، فلا يحسّ بثقلها، وكأنّه يغفل عن مرور الزمن عليه في حال الصلاة.

للهِ قومٌ إذا ما الليل جنّهمو	قاموا من الفرشِ للرحمنِ عُبّادا
ويركبون مطايا لا تملّهمو	إذا هُمو بمنادي الصبحِ قد نادا
هُمو إذا ما بياضُ الصبحِ لاحَ لهم	قالوا من الشوقِ ليت الليلَ قد عادا
الأرضُ تبكي عليهم حينَ تفقدُهمْ	لأنّهم جعلوا للأرضِ أوتادا

ثُمّ إنّني لا أتصوّر أن تكون الصلاة التي هي كبيرة إلّا علىٰ الخاشعين عبارة عن صلواتنا التي قد تكون نقراً كنقر الغراب، أو لا تستغرق إلّا خمس دقائق،

(١) السورة ٢، البقرة، الآية ٤٥.

ولا تكون إلّا بالمقدار المجزي فقهيّاً، فأيّ ثقل مهمّ لهذه الصلاة حتّىٰ يقال عنها: ﴿إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾؟!

وأمّا الإضافة فأُمور ثلاثة:

الأوّل: هناك عدّة طرق لتحصيل حضور القلب في الصلاة، منها:

١ ـ أن يبادر قبل الدخول في الصلاة بحلّ مشاغله الآنيّة، كمدافعة الأخبثين، وألمٍ يمكن تسكينه ولو نسبيّاً في وقت قصير، ونحو ذلك. وقد وردت النصوص في النهي عن الصلاة مع مدافعة الأخبثين[١].

وقد رُوي عن أبي الدرداء أنّه قال: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة؛ ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ[٢].

٢ ـ أن يفرّغ نفسه قبل الصلاة عن أفكاره الأُخرى ومشاغله دنيويّة أو أُخرويّة، ويفكّر في عظمة الله ورحمته وغضبه، وفي الموت وما بعده.

٣ ـ أن يتأمّل في الصلاة في معاني ما يقول. وطبعاً التوجّه إلىٰ الله من خلال الكلمات ليس هو الأصل؛ بل الأصل هو العكس، ولكن هذا ممّا لابدّ منه في بداية الطريق.

الثاني: علىٰ السالك أن يتدرّج في السلوك، ولا يحمّل نفسه فوق طاقته، ولا يبغّض إلىٰ نفسه العبادة بالإكثار، ويداري حالات قلبه المختلفة من الإقبال والإدبار.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أنّه قال لعليّ عليه السلام: «يا عليّ إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلىٰ نفسك عبادة ربّك إنّ المنبتّ ـ يعني المفرط ـ لا ظهراً أبقىٰ ولا أرضاً قطع، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً

---

(١) راجع الوسائل، ج ٧، الباب ٨ من قواطع الصلاة.

(٢) راجع المحجة البيضاء ١/ ٣٩٨.

واحذر حذر من يتخوّف أن يموت غداً»[١].

وعن أحدهماعليهما السلام قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفّلوا، وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة»[٢].

وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها علىٰ النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها علىٰ الفرائض»[٣].

الثالث: كلّما تقدّم السالك في سلوكه ازداد ثقل كاهله، ولن يصل إلىٰ مرحلة التخفيف، فهاهم أنبياء الله العظام الذين وصلوا في سلوكهم فوق ما يتصوّره متعارف الناس ترى عظم مسؤوليتهم وثقل كاهلهم. وكنموذج لذلك نشير إلىٰ قِصَّة يونس علىٰ نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام، فهو حينما غضب علىٰ قومه الكفرة الفجرة، وكان غضبه لله لم يستطع الصبر علىٰ ذلك حتّىٰ دعا عليهم، وهذا أمر لو صدر من أحدنا لشكرنا الله عليه، ولكُنّا بذلك من الممدوحين، ولكنّ الله تعالىٰ أدّبه علىٰ ذلك بسجنه في بطن الحوت، وقال: **﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾**[٤]. وذلك لا لشيء إلّا لأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، ولا لشيء إلّا لأنّه كان يتوقّع منه أن يكون أوسع صدراً من ذلك. وهذه مسؤوليّة لا نتحمل نحن عُشراً من معشارها.

وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله قد أذِنَ للبعض بهدف المداراة وحسن السلوك مع الناس؛ لتقريبهم بذلك إلىٰ الله الأمر الذي لو صدر من أحدنا لكُنّا من الممدوحين والمشكور علىٰ عملهم، ولكنّ الله تعالىٰ أدّبه فأحسن تأديبه حينما قال: **﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾**[٥].

---

(١) الوسائل ١ / ١١٠، الباب ٢٦ من مقدّمة العبادات، الحديث ٧.

(٢) الوسائل ٤ / ٦٩، الباب ١٦ من أعداد الفرائض، الحديث ٨.

(٣) نهج البلاغة: ٧٢١، رقم الحكمة: ٣١٢.

(٤) السورة ٣٧، الصّافات، الآيتان: ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٥) السورة ٩، التوبة، الآية: ٤٣.

النقطة الرابعة
وهي التأكيد علىٰ ضرورة العمل الاجتماعي مع الناس ومع الطبيعة وعدم الابتعاد عن العمل السياسي وعدم تنافي ذلك كلّه لتهذيب النفس وتزكيتها، بل إنّ هذا أيضاً عامل من عوامل التهذيب والتزكية

فالمألوف الغالب في وضع الصوفيّة إبعاد الناس الذين يفتتنون بهم عن العمل السياسي الاجتماعي. وقد يدّعىٰ أنّ تزكية النفس بحاجة إلىٰ الاختلاء والابتعاد عن وضع المجتمع.

ونحن نقول: صحيح أنّ تربية النفس لا تستغني عن نوع من الاختلاء بالله، وهو أمر مرغوب فيه شرعاً، إلّا أنّ الشريعة أمرت بتوزيع هذا الاختلاء علىٰ تمام العمر يوماً فيوماً بتخصيص ساعة للاختلاء، وأفضل الساعات لذلك هو جوف الليل الغابر **﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾**[1]. فالنهار يناسب السبح في المجتمع وفي مسرح الحياة وفي الأعمال الدنيويّة والأُخرويّة، وغابر الليل يناسب الخلوة مع الله سبحانه وتعالىٰ. وهذا معنىٰ توزيع الخلوات علىٰ تمام أيّام العمر من دون الانقطاع عن الأعمال الاجتماعيّة والسياسيّة، وكشف منابع الطبيعة ونعمها واستثمارها. أمّا الانصراف تمام العمر أو

---

(١) السورة ٧٣، المزمّل، الآيتان: ٦ ـ ٧.

ردحاً من الزمن عن العمل السياسي الاجتماعي وبحُجّة تزكية النفس أو بأيّة حُجّة أُخرى، فهذا ليس من دأب الإسلام، وهذا خلاف العمل بخلافة الله علىٰ وجه الأرض.

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ...**﴾(١).

والمقصود بالخلافة: الخلافة عن الله لا الخلافة عن إنسان قديم، فإنّ المَخلف عنه لو كان غير المتكلّم لوجب التنبيه عليه.

والمقصود بالخليفة: الإنسانيّة بالذات لا شخص آدمعليه‌السلام وأكبر الظنّ أنّ هذا هو الذي أثار مخاوف الملائكة ﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ...**﴾(٢). أمّا شخص آدمعليه‌السلام فلم يكن يثير تخوّفاً في نفوس الملائكة. والسجود وإن كان بوجهه الخاص لآدمعليه‌السلام أو للإنسانيّة المعصومة وللمعصومين في صلب آدمعليه‌السلام، ولكنّه بوجهه العام كان سجوداً للإنسانيّة.

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ...**﴾(٣). فذيل الآية يشير إلىٰ وجه السجود الخاص بآدم أو بالمعصومين، لأنّه أو لأنّهم الفرد الكامل في الخلافة المشتملة علىٰ ولاية الطاعة. وقد ورد عن الرضاعليه‌السلام: «كان سجودهم لله ـ تعالىٰ ـ عبوديّة، ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه»(٤). وصدر الآية يشير إلىٰ وجه السجود العام؛ إذ دلَّ علىٰ أنّ خلق آدم كان خلقاً لكم أيُّها البشر، وتصويره كان تصويراً لكم، فالسجود له كان سجوداً لكم. وسجود الملائكة للإنسانيّة فيه إشارة عظيمة إلىٰ عظمة الإنسان الكامنة في امتيازه

---

(١) السورة ٢، البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ٣٠.

(٣) السورة ٧، الأعراف، الآية: ١١.

(٤) تفسير «نمونه» ١/١٨٣.

عن الملائكة، وكان امتياز الإنسان فيما له من الخلافة. وليس المقصود بـخلافة الإنسان أن يكون بكلِّ أفراده وليّاً واجب الطاعة، بل المقصود: أنّ الإنسان بكلِّ أفراده يخلف المنوب عنه في رعايته للمخلف فيه، والمخلف فيه هو الأرض وما علىٰ الأرض.

فليس معنىٰ **﴿جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** كون مهبط الخليفة هو الأرض فحسب من دون أن تكون الخلافة علىٰ الأرض، بل معناه: أنّه في الأرض، وأنّه خـليفة علىٰ الأرض، فعليه أن يستعمر الأرض ويستثمرها، ويرعىٰ ما عليها ومَنْ عليها كلّ بمستواه، وطبعاً مستوىٰ المعصومين هو الخلافة المشتملة علىٰ ولاية الطاعة. وقد ورد في الحديث: «مَن أصبح لا يهتمّ بأُمور المسلمين فـليس بـمسلم»[١]. وورد: «لا رهبانيّة في الإسلام»[٢].

ورسول الله ﷺ لم يـربِّ أصـحابه عـلىٰ الانـفصال عـن العـمل السـياسي الاجتماعي دائماً أو ردحاً من الزمن، بل زجّهم ـ من أوّل زمن شوكة الإسلام ـ في الحروب والأعمال السياسيّة، وكانت الخلوة مع الله ثابتة بينهم بشكل موزّع علىٰ أيّام العمر، وكان هو وطائفة من الذين معه يقومون بالعبادة في جوف الليل الغابر.

هذا، والعزوف عن الحياة الاعتياديّة والترهبن والتعمد في ترك اللذائذ المحلّلة ـ أيضاً ـ أمر مرغوب عنه في الإسلام.

وإليك بعض الآيات :

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّـهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللّهَ الَّـذِي أَنـتُم بِـهِ

---

(١) راجع الوسائل ١٦/٣٣٦ ـ ٣٣٧، الباب ١٨ من أبواب فعل المعروف.

(٢) سفينة البحار ٣/٤٢٨، مادّة (رهب).

مُؤْمِنُونَ﴾[١].

٢ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

٣ ـ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾[٣].

٤ ـ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ...﴾[٤].

وإليك بعض الروايات:

١ ـ عن عليّ عليه السلام قال: «إنّ جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء، والإفطار بالنهار، والنوم باللّيل، فأخبرت أمُّ سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج إلىٰ أصحابه، فقال: أترغبون عن النساء؟! إنّي آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام باللّيل، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي...»[٥].

٢ ـ عن الصادق عليه السلام قال: «جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله إنّ عثمان يصوم النهار ويقوم اللّيل. فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله مغضباً يحمل نعليه حتّىٰ جاء إلىٰ عثمان، فوجده يصلّي، فانصرف عثمان حين رأى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: يا عثمان لم يرسلني الله بالرهبانيّة، ولكن بعثني بالحنيفيّة السمحة أصوم وأُصلّي وألمس أهلي، فمن أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي، ومن سنّتي النكاح»[٦].

---

(١) السورة ٥، المائدة، الآيتان: ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) السورة ٦٦، التحريم، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٣) السورة ٧، الاعراف، الآية: ٣٢.

(٤) السورة ٢٨، القصص، الآية: ٧٧.

(٥) الوسائل ٢٠ / ٢١، الباب ٢ من مقدّمات النكاح، الحديث ٩.

(٦) الوسائل ٢٠/١٠٦ ـ ١٠٧، الباب ٤٨ من مقدمات النكاح، الحديث ١.

٣ـ عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ ثلاث نسوَة أتين رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: إحداهنّ: إنّ زوجي لا يأكل اللّحم. وقالت الأُخرىٰ: إنّ زوجي لا يشمّ الطيّب. وقالت الأُخرى: إنّ زوجي لا يقرب النساء. فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله يجرّ رداءه حتّىٰ صعد المنبر، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال: ما بال أقوام من أصحابي لا يأكلون اللّحم، ولا يشمّون الطيّب، ولا يأتون النساء؟! أمّا إنّي آكل اللّحم، وأشمّ الطيب، وآتي النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»[١].

٤ـ في نهج البلاغة[٢] دخل عليّ عليه السلام بالبصرة على العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعوده، فلمّا رأىٰ سَعة داره قال: «ما كنت تصنع بسَعة هذه الدار وأنت إليها في الآخرة كنتَ أحوج؟ وبلىٰ إن شئت بلغتَ بها الآخرة تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتُطلِع منها الحقوق مطالعها، فإذن أنت قد بلغت بها الآخرة.

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال: وماله؟ قال: لبس العباءة وتخلّىٰ عن الدنيا. قال: عَليَّ به، فلمّا جاء قال: يا عُدَيّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمتَ أهلك وولدك، أترىٰ الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها؟! أنت أهون علىٰ الله من ذلك!

قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك.

قال: ويحك إنّي لست كأنت، إن الله ـ تعالىٰ ـ فرض علىٰ أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضَعفة الناس كي لا يتبيّغ بالفقير فقره». ورواه ابن أبي الحديد مع بعض الفوارق[٣].

---

(١) المصدر السابق ٢٠ / ١٠٧، الحديث ٢.

(٢) نهج البلاغة: ٤٣٩ ـ ٤٤٠، رقم الخطبة: ٢٠٩.

(٣) راجع البحار ١٢١/٧٠ ـ ١٢٢ ناقلاً له عن ابن أبي الحديد.

٥ـ ورد عن ابن القدّاح قال: «كان أبو عبدالله عليه السلام متكئاً عليَّ، أو قال: على أبي، فلقيه عبّاد بن كثير وعليه ثياب مَرْويّة حسان، فقال: يا أبا عبدالله إنّك من أهل بيت النبوّة، وكان أبوك وكان، فمالهذه الثياب المزيّنة عليك؟! فلو لبست دون هذه الثياب.

فقال له أبو عبدالله عليه السلام: ويلك يا عبّاد ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ...﴾ إنّ الله عزّ وجلّ إذا أنعم علىٰ عبد نعمةً أحبّ أن يراها عليه ليس به بأس، ويلك يا عبّاد إنّما أنا بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله فلا تؤذني». وكان عبّاد يلبس ثوبين قطريين (قطوبين خَ لَ)[1].

٦ـ روىٰ في البحار[2] عن تحف العقول قال: «دخل سفيان الثوري علىٰ أبي عبدالله عليه السلام، فرأىٰ عليه ثياب بياض كأنّها غِرْقِئ البيض[3]، فقال له: إنّ هذا اللباس ليس من لباسك.

فقال له: اسمع منّي وعِ ما أقول لك، فإنّه خير لك عاجلاً وآجلاً إن كنت أنت متّ علىٰ السنّة والحقّ، ولم تمت علىٰ بِدْعة: أُخبرك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جَشِب، فإذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها، فما أنكرت يا ثوريّ؟ فو الله إنّي لمع ما ترىٰ ما أتىٰ عليَّ مذ عقلتُ صباح ولا مساء ولله في مالي حقّ أمرني أن أضعه موضعاً إلّا وضعته.

فقال: ثمَّ أتاه قومه ممّن يظهر التزهّد، ويدعون الناس أن يكونوا معهم مثل

---

(١) الوسائل ٥/١٦، الباب ٧ من أحكام الملابس، الحديث ٤.

(٢) البحار ٧٠/١٢٢ ـ ١٢٨.

(٣) جاء هنا في البحار تحت الخط ما يلي: الغِرْقِئ ـ كزبرج ـ القشرة الملتزقة ببياض البيض، شبهه بها للطافتها وشفوفها ونعومتها وبياضها.

الذي هم عليه من التقشّف، فقالوا: إنّ صاحبنا حَصِرَ عن كلامك، ولم تحضره حجّة[١].

فقال لهم: هاتوا حججكم. فقالوا: إنّ حججنا من كتاب الله. قال لهم: فأدلوا بها، فإنّها أحقّ ما اتُّبع وعمل به.

فقالوا: يقول الله تبارك وتعالىٰ يخبر عن قوم من أصحاب النبيّ ﷺ: **﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[٢]. فمدح فعلهم، وقال: في موضع آخر **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾**[٣] فنحن نكتفي بهذا.

فقال رجل من الجلساء: إنّا ما رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيّبة ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتّىٰ تتمتّعوا أنتم منها.

فقال له أبو عبدالله عليه السلام: دعوا عنكم مالا ينتفع به[٤].

أخبروني أيّها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الأُمّة؟ فقالوا له: أو بعضه فأمّا كلّه فلا. فقال لهم: من هنا أُتيتم، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ.

فأمّا ما ذكرتم من إخبار الله إيّانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحاً جائزاً، ولم يكونوا نهوا عنه، وثوابهم منه علىٰ الله؛ وذلك أنّ الله ـ جلّ وتقدّس ـ أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره ناسخاً لفعلهم، وكان نهي الله

---

(١) أي: أنّ سفيان الثوري لم تحضره الحجّة فعجز عن الجواب، ونحن لدينا الحجّة، ومستعدون للاحتجاج عليك بها.

(٢) السورة ٥٩، الحشر، الآية: ٩.

(٣) السورة ٧٦، الإنسان، الآية: ٨.

(٤) كأنّه خطاب للرجل المعترض عليهم، أي: اتركوا الجدال في أنّهم هل يعملون بما يقولون أو لا؛ كي ننشغل بالبحث عن أصل صحّة ما يقولون وفساده.

ـ تبارك وتعالىٰ ـ رحمة للمؤمنين ونظراً؛ لكي لا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضعفة الصغار، والولدان، والشيخ الفانِ، والعجوز الكبيرة الذين لا يصبرون علىٰ الجوع، فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً.

فمن ثمَّ قال رسول الله ﷺ : «خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان علىٰ والديه، ثمّ الثانية علىٰ نفسه وعياله، ثمّ الثالثة القرابة وإخوانه المؤمنين، ثمّ الرابعة علىٰ جيرانه الفقراء، ثمّ الخامسة في سبيل الله، وهو أخسّها أجراً».

وقال النبيّ ﷺ للأنصاريّ حيث أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق، ولم يكن يملك غيرهم، وله أولاد صغار: «لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنونه مع المسلمين، ترك صبية صغاراً يتكففون الناس». ثمّ قال: حدّثني أبي أنّ النبيّ ﷺ قال: «ابدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى».

ثُمَّ هذا ما نطق به الكتاب ـ ردّاً لقولكم ونهياً عنه ـ مفروض من الله العزيز الحكيم، قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[١] أفلا ترون أن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قال غير ما أراكم تدعون [الناس إليه من الأثَرَة علىٰ أنفسهم وسمّىٰ مَن فَعَل ما تدعون][٢] إليه مسرفاً، وفي غير آية من كتاب الله يقول: ﴿... إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٣] فنهاهم عن الإسراف، ونهاهم عن التقتير، لكن أمر بين الأمرين: لا يعطي جميع ما عنده، ثُمّ يدعو الله أن يرزقه، فلا يستجيب له للحديث الذي جاء عن النبيّ ﷺ: «إنّ أصنافاً من أُمّتي لا يستجاب دعاؤهم:

---

(١) السورة ٢٥، الفرقان، الآية: ٦٧.

(٢) ورد في البحار هنا تحت الخط: أن ما بين العلامتين ساقط من نسخة التحف والكمباني أضفناه من نسخة الكافي.

(٣) السورة ٦، الأنعام، الآية: ١٤١، والسورة ٧، الأعراف، الآية: ٣١.

رجل يدعو علىٰ والديه، ورجل يدعو علىٰ غريم ذهب له بمال ولم يشهد عليه، ورجل يدعو علىٰ امرأته وقد جعل الله تخلية سبيلها بيده، ورجل يقعد في البيت يقول: يا ربّ ارزقني ولا يخرج يطلب الرزق، فيقول الله ـ جلّ وعزّ ـ: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلىٰ الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة؟ فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري، ولكي لا تكون كَلّاً علىٰ أهلك، فإن شئت رزقتك، وإن شئت قترت عليك وأنت معذور عندي، ورجل رزقه الله مالاً كثيراً، فأنفقه، ثمَّ أقبل يدعو يا ربّ ارزقني، فيقول الله: ألم أرزقك رزقاً واسعاً؟! أفلا اقتصدت فيه كما أمرتك، ولم تسرف كما نهيتك. ورجل يدعو في قطيعة رحم».

ثُمَّ علّم الله نبيّه كيف ينفق؛ وذلك أنّه كان عنده أوقية من ذهب فَكَرِه أن تبيت عنده، فصدّق، وأصبح ليس لديه شيء وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه، فلامه السائل، واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيماً رفيقاً، فأدّب الله نبيّه بأمره إيّاه فقال: **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾**[١].

يقول : إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك كنت قد حسرت من المال.

فهذه أحاديث رسول الله يصدّقها الكتاب، والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين. وقال أبو بكر[٢] عند موته: أُوصي بالخمس والخمس كثير، فإنّ الله قد رضي بالخمس، فأَوصى بالخمس، وقد جعل الله له الثلث عند موته، ولو علم أنّ الثلث خير له أَوصى به.

---

(١) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) كأنّ هذا احتجاج معهم بأبي بكر باعتبارهم من السُنّة.

ثُمَّ من قد علمتم بعده في فضله وزهده سلمان وأبو ذرّ:

فأمّا سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتّىٰ يحضره عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبدالله أنت في زهدك تصنع هذا؟! وإنّك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً. وكان جوابه: أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليَّ الفناء؟! أومَا علمتم يا جهلة أنّ النفس قد تلتاث[١] علىٰ صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما يعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت.

فأمّا أبو ذرّ فكانت له نويقات[٢] وشويهات[٣] يحلبها ويذبح منها إذا اشتهىٰ أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأىٰ بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشاء علىٰ قدر ما يذهب عنهم قرم اللحم[٤]. فيقسّمه بينهم، ويأخذ كنصيب أحدهم لا يفضل عليهم.

ومَن أزهد من هؤلاء؟! وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتّة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم، ويؤثّرون به علىٰ أنفسهم وعيالاتهم.

واعلموا أيّها النفر أنّي سمعت أبي يروي عن آبائه: أنّ رسول الله ﷺ قال يوماً: ما عجبت من شيء كعجبي من المؤمن إنّه إن قُرِّض جسده في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له، فكلّ ما يصنع الله به فهو خير له، فليت شعري هل يحيق[٥] فيكم اليوم ما قد شرحت لكم أم أزيدكم؟

---

(١) أي: تلتفّ بصاحبها وتوسوسها.

(٢) جمع نويقة مصغّر ناقة.

(٣) جمع شويهة مصغّر شاة.

(٤) فسّر تحت الخط بشهوة اللحم والميل المفرط بأكله.

(٥) فسّر تحت الخط بمعنى: هل يؤثّر وينفذ فيكم هذا المقدار.

أو ما علمتم أنّ الله ـ جلّ اسمه ـ فرض علىٰ المؤمنين في أوّل الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم، ومن ولّاهم ـ يومئذٍ ـ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار، ثمَّ حوّلهم من حالهم رحمة منه لهم فصار الرجل منهم عليه أن يقاتل الرجلين من المشركين تخفيفاً من الله عن المؤمنين، فنسخ الرجلان العشرة.

وأخبروني ـ أيضاً ـ عن القضاة أجورٌ منهم حيث يفرضون علىٰ الرجل منكم نفقة امرأته إذا قال: أنا زاهد، وأنّه لا شيء لي؟ فإن قلتم: جور ظلمتم أهل الإسلام، وإن قلتم: بل عَدل، خصمتم أنفسكم. وحيث يردّون صدقة مَنْ تصدّق علىٰ المساكين عند الموت بأكثر من الثلث.

أخبروني لو كان الناس كلّهم كما تريدون زهّاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم فعلىٰ مَنْ كان يتصدّق بكفّارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة من الإبل والغنم والبقر، وغير ذلك من الذهب والفضّة والنخل والزبيب وسائر ما قد وجبت فيه الزكاة إذا كان الأمر علىٰ ما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلّا قدّمه وإن كان به خصاصة؟ فبئس ما ذهبتم إليه وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله وسنّة نبيّه وأحاديثه التي يصدّقها الكتاب المنزل، وردّكم إيّاها بجهالتكم وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي.

وأخبروني أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام حيث سأل الله مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه الله ذلك، وكان يقول الحقّ ويعمل به، ثُمَّ لم نجد الله عاب ذلك عليه ولا أحداً من المؤمنين، وداود قبله في مُلْكه وشدّة سلطانه.

ثُمّ يوسف النبيّ حيث قال لملك مصر: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ**

عَلِيمٌ﴾[١] فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلىٰ اليمن، فكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم، وكان يقول الحقّ، ويعمل به، فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه.

ثُمَّ ذو القرنين عبد أحبَّ الله فأحبّه، طوىٰ له الأسباب، وملّكه مشارق الأرض ومغاربها، وكان يقول بالحقّ، ويعمل به، ثُمَّ لم نجد أحداً عاب ذلك عليه.

فتأدّبوا أيُّها النفر بآداب الله للمؤمنين، واقتصروا علىٰ أمر الله ونـهيه، ودعـوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لا علم لكم به، وردّوا العلم إلىٰ أهله تؤجروا وتعذروا عند الله، وكونوا في طلب علم الناسخ من القرآن مـن مـنسوخه ومـحكمه مـن متشابهه، وما أحلّ الله فيه وما حرّم، فإنّه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل، ودعوا الجهالة لأهلها، فإن أهل الجهل كثير، وأهل العلم قليل، وقد قال الله: ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٢] » انتهى الحديث[٣].

وللكلام عن مدىٰ وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن، وأنّ النسخ هـنا هـل يحمل علىٰ معناه المصطلح لدىٰ الفقهاء، أو يفسّر بتفسير آخر مجال آخر.

ولنلخص الكلام حول المقصود ببيان أنّ هناك طُرُقاً ثـلاثة لتـهذيب النـفس وتصفيتها، ثالثها هو الصحيح، والأوّلان ليسا شرعيين:

الطريق الأوّل: الترهبن أو ترك الدنيا ونعيمها. وهذا ما عرفت ـ ممّا سردناه لك من الآيات والروايات ـ خطأه، نعم، هناك نكتتان لا ينبغي إغفالهما:

الأُولىٰ: أنَّ تنعّم العبد بما آتاه الله ـ تعالىٰ ـ من النعم المحلّلة في الدنيا لا ينبغي أن يوجب تغافله عن مواساة الآخرين، أو تناسيه لما ينبغي أن يصرفه في مصالح

---

(١) السورة ١٢، يوسف، الآية: ٥٥.

(٢) السورة ١٢، يوسف، الآية: ٧٦.

(٣) وقد ورد هذا الحديث أيضاً في البحار ٤٧/٢٣٢ ـ ٢٣٧ نقلاً عن الكافي مع فارق يسير.

الإسلام والمسلمين، أو انشغاله عن أمر الآخرة. وقد مضى كلام أمير المؤمنين عليه السلام للعلاء بن زياد: «ما كنت تصنع بسَعة هذه الدار وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج، وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة...».

والثانية : أنّ التنعّم بتلك النعم المحلّلة لا ينبغي أن يصل إلىٰ مستوىٰ تعلّق القلب بها، فيأسو علىٰ ما فاته، بل ينبغي أن يكون في الرضا بقضاء الله علىٰ مستوىٰ بحيث لو عاش في اليوم الأوّل غارقاً في النعم وفي اليوم الثاني فاقداً لها جميعاً لكان وضعه النفسي سواءً، وذلك تسليماً لما يرضاه الله تعالىٰ وثقةً بأنّه سبحانه وتعالىٰ لا يقدّر إلّا ما فيه الخير والصلاح. وهذا هو الزهد المفهوم من قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ...﴾[1] فالزهد الحقيقي هو أن لا يملكك شيء، لا أن لا تملك شيئاً.

والطريق الثاني : الابتعاد عن الخدمات الاجتماعيّة والسياسيّة للإسلام وللمسلمين، والتفرغ للخلوة مع الله سبحانه وتعالىٰ وتزكية النفس، وهذا ـ أيضاً ـ غير صحيح، فإنّه خلاف مقام خلافة الإنسان لله علىٰ وجه الأرض، وخلاف ضرورة الاهتمام بأُمور المسلمين، وخلاف طريقة تربية الرسول صلى الله عليه وآله لأصحابه.

والطريق الثالث : هو العمل في خطّين متوازيين في وقت واحد :

أحدهما خطّ الخلوة مع الله وتصفية الباطن عن طريق مدارسة الوضع الباطني والاهتمام به. والثاني خط الاهتمام بأُمور الإسلام والمسلمين. وهذا هو الطريق الصحيح.

وتوضيح المقصود : أنّ في النفس البشريّة نقصين لابدّ من علاجهما في مقام السلوك إلىٰ الله وارتقاء مدارج الكمال:

الأوّل : ضيق أُفق نفس الشخص عن مصالح غيره وعدم الاهتمام إلّا بمصالح

---

(١) السورة ٥٧، الحديد، الآية: ٢٣.

نفسه، في حين أنّ الآخرين ـ أيضاً ـ هم عباد الله، والله ـ تعالىٰ ـ يريد مصلحتهم.

والثاني: سُمك المادّة الذي حجبه عن المصالح المعنويّة والأُمور الروحانيّة.

ولربما يخفّف بعض الضيق الأوّل، فتراه يهتمّ بمصالح غيره ولو في إطار من القوميّة مثلاً والذي هو إطار ضيّق بالقياس إلىٰ إطار البشريّة أو إطار المذهب الصحيح، ولكنّه لم يخفّف عن نفسه سُمك المادة، بل ربّما لا يكون مؤمناً بما وراء المادّة، ولا يؤمن بالله العليّ العظيم وإن كان من صفته وشيمته الاهتمام بقومه أو بالإنسانيّة مثلاً.

ولربّما ترىٰ بعض أهل العرفان (غير العرفان الصحيح الذي أراده الإسلام) يعكس الأمر، فقد يخفّف حجاب سُمك المادّة عن بصيرته، ويلتذّ بلقاء الله بالمعنىٰ المعنوي من اللقاء، ولكنّه يحصر ذلك في إطار نفسه؛ لأنّه يعيش ضيق أُفق النفس، فلا يهمّه الآخرون ويقول: إنّ علاج الآخرين إنّما يصحّ لي حينما لا يضر بحالتي العرفانيّة أو يزاحمها. وقد تراه يستدلّ بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿... **عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ...﴾(١) غفلةً عن أنّ معنىٰ الآية المباركة لو كان ذلك لكانت الآية في تناقض مع آيات الجهاد وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إذن فمعنىٰ الآية ليس هو هذا، فإنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، وإنّما معنىٰ الآية: عدم التحسّر علىٰ الذين لا ينفعهم الإرشاد والهداية. فوزان الآية وزان قوله تعالىٰ: ﴿... **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ...﴾(٢) وقوله تعالىٰ: ﴿... **وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** ...﴾(٣).

---

(١) السورة ٥، المائدة، الآية: ١٠٥. وراجع بهذا الصدد كتاب روح مجرّد: ٥٩٨ كي ترى نموذجاً من هذا الاستدلال.

(٢) السورة ٣٥، فاطر، الآية: ٨.

(٣) السورة ١٦، النحل، الآية: ١٢٧، والسورة ٢٧، النمل، الآية: ٧٠.

وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ : أنّه سُئِلَ عن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿... عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ...﴾ فقال ﷺ : «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنياً مؤثرة وشحاً مطاعاً وهوىً متّبعاً وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، وذر عوامهم»[١].

وحينما وجب الجهاد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبح الإتيان بذلك جزءاً من مفاد قوله تعالىٰ: ﴿... عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ...﴾؛ لأنّ ترك ذاك الواجب يضرّ بأنفسنا.

ولو صحّ ما يقوله بعض المنحرفين: من أنّ الإنسان يصل بتهذيب النفس والتجرّد عن سُمك المادّة إلىٰ حدّ يذوب ذوباناً حقيقيّاً في الله، فلا يبقىٰ إلّا الله نفسه، لكان كلا النقصين اللذين أشرنا إليهما في النفس البشريّة يرتفعان بذلك؛ لأنّه كان هو الله سبحانه وتعالىٰ، وصحّ له أن يقول: ليس في جبّتي إلّا الله.

ولو كان كلامهم هذا جدّياً وعلىٰ نحو الاعتقاد لا الكذب والدجل، كان جوابه الفلسفي: أنّنا لو آمنّا بأنّه ليس في الوجود إلّا الله، وأنكرنا أيَّ وجود آخر حتّىٰ الوجود التعلّقي، فهذا المقام ثابت للإنسان، بل لأيّ موجود قبل تهذيب النفس والتزكيّة؛ لأنّه أمر واقعي وأساسي منذ البدء، والتعبير بالإنسان أو بأيّ موجود ليس إلّا تعبيراً اعتبارياً وعلىٰ أساس ضيق التعابير. ولو لم نؤمن بذلك فالذوبان الحقيقي مستحيل، وتهذيب النفس لا يؤدّي إلىٰ ذلك حتّىٰ لو فُرِضَ التجرّد عن المادّة حقيقة قبل الموت، أو وصلنا إلىٰ الموت الإرادي وافترضنا أنّه يساوق التجرّد عن المادة؛ فإنّ النقص البشري ليس فقط في الجانب المادّي حتّىٰ يُفترض أنّ التخلّص عن هذه المادّة والتجرّد الحقيقي عنها ـ لو أمكن ـ لا يُبقي فرقاً بينه

---

(١) تفسير «نمونه» ٥/ ١١٠.

وبين الله ويكون هو هو، بل الجانب المجرّد من الإنسان ـ أيضاً ـ مشتمل علىٰ الحدّ الماهوي ونقص الإمكان والحدوث والتعلق وسائر النقائص التي هي ذاتية له، فلا معنىٰ لفرض التجرّد عنها.

والصحيح: هو ضرورة علاج كلا النقصين اللذين أشرنا إليهما بقدر الإمكان، وهما: حجاب سُمك المادّة في مقابل المعنويات، وضيق الأُفق في مقابل الآخرين. وهذان المنهجان ـ أعني: منهج ترقيق حجاب المادّة والالتذاذ بالمعنويات، ومنهج توسيع الأُفق الضيّق الذي حصرنا في الاهتمام بالتذاذ أنفسنا ولو التذاذاً معنوياً ـ لو لم يعمد إلىٰ الفصل بينهما فهما بحدّ ذاتهما وفيما بينهما متفاعلان.

وقد ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام: «خصلتان مَنْ كانتا فيه وإلّا فأعزب ثُمّ أعزب ثُمّ أعزب، قيل: وماهما؟ قال: الصلاة في مواقيتها والمحافظة عليها، والمواساة»[١].

أقول: كأنّ الأُولىٰ وهي: المحافظة علىٰ الصلاة وفي مواقيتها تنظر إلىٰ جانب ترقيق حجاب سُمك المادة ـ والثانية وهي: المواساة تنظر إلىٰ جانب كسر ضيق أُفق النفس وتمحوره علىٰ مصالح نفسه دون الآخرين.

وقد ورد في كلمات أهل العرفان الكاذب: أنّه لابدّ للسالك أن يذبح نفسه كي يصل إلىٰ المقصود، ولا يقدر أحد علىٰ ذبح نفسه؛ لأنّه يتحرّك علىٰ أيّ حال عن التذاذ نفسه وحبّه لنفسه، وحتّىٰ حينما يريد أن يصل إلىٰ مرحلة الفناء في الله إنّما يريد ذلك ليكمّل نفسه بذلك. إذن فالعلاج في تحقّق الذبح هو: أن يذبحه غيره علىٰ خلاف رغبته وطلبه[٢].

---

(١) البحار ١٢/٨٣.

(٢) راجع كتاب روح مجرّد: ٥٩١.

ومن القصص التي يذكرها هؤلاء ما يلي :

جاء في كتاب روح مجرّد[١] : أن الحاج محمّد رضا كان له مقام علمي، وله تأليفات كثيرة، وكان يسكن بروجرد، واتّهمه البروجرديون بالتصوّف، وصادروا أمواله، وأخرجوه من بروجرد، فذهب إلىٰ تبريز، وأصبح محبوباً لدىٰ أهل تبريز، وكان يجتمع تحت خطابه خلق كثير، وفي أحد الأيّام كان جميع الناس ملتفّين حول منبره لسماع خطابه، وكانت للتجمع منظرة عظيمة، فخطر في نفسه: أنّ هذا التوجّه والالتفات من قبل التبارزة عوض من الأذايا والمحن التي شاهدها من البروجرديين، وإذا بدرويش دخل واتّجه رأساً نحو المنبر، وناجاه في أُذنه بكلام، وكأنّه كان ذاك الكلام: (هل أفعل ما يجب أن أفعل؟) فقال له الحاج محمّد رضا: نعم، فأخذ الدرويش عمامة الحاج محمّد رضا، ولفّها حول عنقه، وجرّه من علىٰ المنبر، وأخرجه من المسجد تلافياً لهذا الخطور النفساني. وهذا الدرويش كان قد أرسله من دَكن ـ الذي هو من بلاد الهند ـ أُستاذ الحاج محمّد رضا المدعو: السيّد علي رضا الدكني قائلاً له: اذهب فوراً إلىٰ تبريز، فإنّ وليّاً من أولياء الله كاد أن يهلك، فعليك بإنقاذه. وبهذا الأُسلوب نجا الحاج محمّد رضا من الهلاك.

أقول : لو صحّت هذه الكلمات ولم تكن دجلاً فعليك بالمقايسة بين هذا الأُسلوب وأُسلوب تربية الإسلام الذي يعالج في وقت واحد حجاب سُمك المادّة وضيق النفس الموجب لدورانها حول ذاتها، فيهيئ الإنسان لتضحية نفسه بنفسه، لا لذبح شخص آخر له علىٰ رغم رغبته وارادته. وإليك بعض الأمثلة:

١ ـ زهير بن القين كان يمتنع عن منازلة الحسين عليه السلام في الطريق، فنزل في منزل لم يجد بدّاً من أن ينازله، فبينما هو وأصحابه جلوس يتغذّون إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّىٰ سلّم ثُمَّ دخل، فقال: يا زهير بن القين إنَّ أبا عبدالله الحسين

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٦٢ تحت الخط.

بعثني إليك لتأتيه، فطرح كلٌّ إنسان منهم ما في يده حتّىٰ كأنّ علىٰ رؤوسهم الطير. فقالت له امرأته: سبحان الله أيبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه؟! لو تأتيه فسمعتَ كلامه، ثُمّ انصرفت. فأتاه زهير بن القين فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه وثقلِه ومتاعه فقوّض وحمل إلىٰ الحسين عليه السلام، ثمّ قال لامرأته: أنت طالق، الحقي بأهلك فإنّي لا أُحبّ أن يصيبك بسببي إلّا خير، وقد عزمتُ علىٰ صحبة الحسين لأُفديه بروحي وأقيه بنفسي، ثُمّ أعطاها مالها، وسلّمها إلىٰ بعض بني عمّها ليوصلها إلىٰ أهلها، فقامت إليه، وبكت، وودّعته، وقالت: خار الله لك، أسألك أن تذكرني في يوم القيامة عند جدّ الحسين عليه السلام. ثُمّ قال لأصحابه: مَنْ أحبّ منكم أن يتبعني وإلّا فهو آخر العهد، إنّي سأحدّثكم حديثاً: إنّا غزونا البحر ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان: أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم، فقال: إذا أدركتم سيّد شباب آل محمّد صلى الله عليه وآله فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معه ممّا أصبتم اليوم من الغنائم، فأمّا أنا فأستودعكم الله. قالوا: ثُمّ والله مازال في القوم مع الحسين حتّىٰ قُتِلَ رحمه الله[1].

هكذا يعلّم الإسلام الإنسان درس التضحية والفداء بمحض اختياره وتمام

---

(١) البحار ٤٤ / ٣٧١ ـ ٣٧٢. أمّا ماجاء فيه من كلمة (إنّا غزونا البحر) فيبدو أنّه قد ورد في بعض نسخ التأريخ: (إنّا غزونا البحر من بلاد الخزر)، وفي بعض نسخ التأريخ: (إنّا غزونا بلنجر من بلاد الخزر). راجع بهذا الصدد الدوافع الذاتيّة لأنصار الحسين تأليف محمّد عليّ عابدين: ١٥٥.

وقد ورد في كتاب معالم المدرستين للسيّد العسكري حفظه الله المجلد الثالث: ٧٩ حسب الطبعة الرابعة: (غزونا بلنجر، ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الباهلي: أفرحتم...). وقد نقل الرواية عن الطبري: ٦ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥، وقال تحت الخط: سلمان المذكور هو ابن ربيعة الباهلي، أرسله الخليفة عثمان لغزو اران من آذربايجان، ففتح كورها صلحاً وحرباً، وقتل خلف نهر بلنجر. فتوح البلدان: ص ٢٤٠ ـ ٢٤١. وراجع ترجمته في أُسد الغابة: ٢/٢٢٥. انتهى مافي تحت الخط من كتاب السيّد العسكري حفظه الله.

إرادته، لا الذبح بيد شخص آخر علىٰ رغم عدم طوعه ورغبته، فهذا الذي كـان أبغض شيء عليه منازلة الحسينعليه السلام آل أمره إلىٰ أن قال للحسينعليه السلام حينما رفع بيعته عن أصحابه ليلة العاشر من المحرّم: والله لوددت أنّي قتلت ثُمّ نُشرت، ثُمّ قتلت حتّىٰ أُقتل هكذا ألف مرّة وإنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك[١].

٢ـ شبابنا في جبهة القتال في الحرب الظالمة التي شنّها طاغية العراق صـدّام علىٰ إيران الإسلام كانوا يتهافتون ويتسابقون لتفدية أنفسهم بالسير علىٰ الألغام لفتح الطريق للمقاتلين، لا لتكميل انفسهم (وان كملوا بذلك) بل لإعلاء كلمة الله علىٰ وجه الأرض.

٣ـ العبّاسعليه السلام لا يمتنع عن شرب الماء لتكميل نفسه وإنْ كملت نفسه بذلك، أو كانت كاملة من قبل، وإنّما يمتنع عن ذلك لأنّه تذكّر عطش الحسينعليه السلام وأهل بيته، فرمىٰ الماء وملأ القربة، وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبـعده لا كـنت أن تكـوني

هـذا الحسـين وارد المـنون ... وتشـربين بـارد المـعينِ

تـالله مـا هـذا فـعـال ديـنِ[٢]

هذا هو والله ذبح النفس المنتهي إلىٰ خطاب العبّاسعليه السلام لنفسه بالأمر بالهوان وبالفناء، وليس ذبح النفس أن يأتي درويش ويلفّ العمامة علىٰ عنق الخـطيب، ويخرجه من المسجد، فإنّ ذبح شخص لنفس شخص آخر لا قيمة له، وإنّما القيمة تكمن في التضحية والفداء بمحض الإرادة والاختيار.

والعمل السياسي الاجتماعي في سبيل الله من أقصر الطرق لرفع سُمك المادّة

---

(١) البحار ٤٤/٣٩٣.

(٢) البحار ٤٥/٤١، المتن وتحت الخط.

عن ملاحظة المعنويات أيضاً ولتهذيب النفس وتزكيتها. وإليك مَثَلان مـن آلاف الأمثلة:

١ ـ رُوِيَ[١] أنّ وهب كان نصرانيّاً فأسلم هو وأُمّه علىٰ يـدي الحسـين عليه السلام. وأمرته أُمّه في يوم عاشوراء بنصر ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أَفعل يا أُمّاه ولا أُقصّر، فبرز وقاتل وقَتَل من الأعداء جماعة. فرجع إلىٰ أُمّه وامرأته، فوقف عليهما فقال: يا أُمّاه أرضيتِ؟ فقالت: ما رضيت أو تقتل بين يدي الحسـين عليه السلام فـقالت امرأته: بالله لا تفجعني في نفسك، فقالت أُمّه: يا بنيّ لا تقبل قولها وارجع، فقاتل بين يدي ابن رسول الله، فيكون غداً في القيامة شفيعاً لك بين يدي الله. فـرجـع وقاتل وقتل جمعاً إلىٰ أن قطعت يداه، فأخذت امرأته عموداً وأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأمّي قاتل دون الطيّبين حرم رسول الله، فأقبل كي يـردّها إلىٰ النساء، فأخذت بجانب ثوبه وقالت: لن أعود أو أموت معك، فقال الحسين عليه السلام: «جزيتم من أهل بيتي، ارجعي إلىٰ النساء رحمك الله». فانصرفت، وجعل يقاتل حتّىٰ قُتِلَ رضوان الله عليه.

٢ ـ إنّ حرّ بن يزيد الرياحي ارتكب أعظم جريمة بمنعه للحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته عن الرجوع إلىٰ المدينة، ولكنّ المشهد الاجتماعي الذي شاهده فـي كربلاء هزّه[٢] إلىٰ حدّ أخذته الرعدة، فقال له المهاجر بن أوس: إنّ أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قطّ مثل هذا، ولو قيل لي: مَن أشجع أهل الكوفة؟ لما عدوتك، فما هذا الذي أرىٰ منك؟

فقال له الحرّ: إنّي والله أُخيّر نفسي بين الجنّة والنار، فوالله لا أختار علىٰ الجنّة شيئاً ولو قُطّعت وأُحرِقت. ثمّ ضرب فرسه فلحق الحسين عليه السلام، فـقال له: جـعلـ

---

(١) راجع البحار ٤٥/١٦ ـ ١٧.

(٢) راجع البحار ٤٥/١٠ ـ ١١ و ١٤.

فداك يابن رسول الله أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، وما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم، ولا يبلغون منك هذه المنزلة، والله لو علمت أنّهم ينتهون بك إلىٰ ما أرىٰ ما ركبت مثل الذي ركبت، وأنا تائب إلىٰ الله ممّا صنعت، فترى لي من ذلك توبة؟ فقال له الحسين عليه السلام: « نعم يتوب الله عليك ». فقاتل رضي الله عنه الأعداء إلىٰ أن قُتل في سبيل الله، فاحتمله أصحاب الحسين عليه السلام حتّىٰ وضعوه بين يدي الحسين عليه السلام وبه رمق، فجعل الحسين يمسح وجهه ويقول: «أنت الحرّ كما سمّتك أُمّك، وأنت الحرّ في الدنيا، وأنت الحرّ في الآخرة».

والخلاصة : أنّ المسلك الصحيح في تهذيب النفس وتزكيتها هو: الجمع بين الأمرين: كسر ضيق النفس عن مصالح الآخرين، وتخفيف حجاب سُمك المادّة عن مشاهدة المعنويات والسفر إليها والالتذاذ بلقاء الله بعين القلب والبصيرة.

ففي الأوّل يجب أن نقتدي بإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يعطف علىٰ الأسير الذي تحت يده وإن كان قاتلاً له عليه السلام، ويقول للحسن عليه السلام: «ارفق ياولدي بأسيرك، وارحمه، وأحسن إليه، وأشفق عليه، ألا ترى إلىٰ عينيه قد طارتا في أُمّ رأسه، وقلبه يرجف خوفاً ورعباً وفزعاً.

فقال له الحسن عليه السلام: يا أباه قد قتلك هذا اللعين الفاجر، وأفجعنا فيك وأنت تأمرنا بالرفق به؟!

فقال له : نعم يا بنيّ نحن أهل بيت لا نزداد علىٰ الذنب إلينا إلّا كرماً وعفواً، والرحمة والشفقة من شيمتنا لا من شيمته، بحقّي عليك فأطعمه يا بنيّ ممّا تأكله، وأسقه ممّا تشرب، ولا تقيّد له قدماً، ولا تغلّ له يداً، فإن أنا متّ فاقتصّ منه: بأن تقتله وتضربه ضربة واحدة، ولا تحرقه بالنار، ولا تمثّل بالرجل، فإنّي سمعت جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور» وإن أنا عشت فأنا

أولىٰ بالعفو عنه، وأنا أعلم بما أفعل به، فإن عفوت فنحن أهل بيت لا نزداد علىٰ المذنب إلينا إلّا عفواً وكرماً»(١).

ولنعم ما قال الشاعر الإيراني المعروف بشهريار باللغة الفارسيّة:

مـــيزند پس لب او كـــاسهٔ شـــير مـى كـند چشـم اشـارت بـه اسـير

چه اسيرى كـه هـم او قـاتل اوست تو خدائـى مگـر اى دشـمن دوست

وفي الثاني ـ أيضاً ـ لدينا نصوص كثيرة، وإليك القليل منها:

١ ـ روىٰ المجلسي رحمه الله عن السيّد الداماد: في الخبر عن مولانا الصادق عليه السلام: «إن القلب السليم الذي يلقي ربّه وليس فيه أحد غيره»(٢).

وهذا يعني: أنّ كلّ ما سوىٰ الله ليس له وجود في قلبه، إلّا بأن يـتلوّن بـلونه سبحانه، فإذا أحبّ ولده أو تلاطف مع عائلته فإنّما يفعل ذلك لأنّ الله أمر بذلك، وإذا أحبّ أولياء الله فلأنّهم متّصفون بصفات الله ومتقرّبون إلىٰ الله، وإذا اكتسب أخاً فهو يكتسبه في الله...

٢ ـ وقد ورد ـ أيضاً ـ عن سفيان بن عيينة قال: «سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: السليم الذي يلقىٰ ربّه وليس فيه أحد سواه»(٣).

٣ ـ وعن الصادق عليه السلام: «صاحب النيّة الصادقة صاحب القلب السليم؛ لأنّ سلامة القلب من هواجس المذكورات تخلص النيّة لله في الأُمور كلها»(٤).

٤ ـ وعن الصادق عليه السلام: «القلب حرمُ اللهِ، فلا تُسكن حرم الله غير الله»(٥).

---

(١) البحار ٢٨٧/٤٢ ـ ٢٨٨.

(٢) البحار ٣٠٥/٨٢.

(٣) البحار ٥٩/٧٠.

(٤) تفسير «نمونه» ٨٨/١٩.

(٥) البحار ٢٥/٧٠.

٥ـ ورُوِيَ ـ أيضاً ـ «أنّ لله في عباده آنية، وهو: القلب، فأحبها إليه أصفاها وأصلبها وأرقّها: أصلبها في دين الله، وأصفاها من الذنوب، وأرقّها على الاخوان»[١].

٦ـ وعن عليّ عليه السلام: «يا كميل بن زياد إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها...»[٢].

٧ـ وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لولا أنّ الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلىٰ الملكوت»[٣].

٨ـ ورد في دعاء كميل: «واجعل لساني بذكرك لهجا، وقلبي بحبّك متيّما...» يعني: مستعبداً مذلّلاً.

٩ـ وأيضاً ورد في دعاء كميل: «فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي صبرت علىٰ عذابك فكيف أصبر علىٰ فراقك».

١٠ـ ورد عن الصادق عليه السلام: «العبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله ـ عزّ وجلّ ـ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ طلب الثواب فتلك عبادة الأُجراء، وقوم عبدوا الله ـ عزّ وجلّ ـ حبّاً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة»[٤].

١١ـ قال الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٥].

وطبعاً المقصود هو النظر ببصيرة القلب لا بباصرة الوجه.

وفي مقابل ذلك ما ورد في القرآن بشأن المكذّبين من قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ

---

(١) البحار ٧٠/٥٦.

(٢) نهج البلاغة: ٦٨٥، رقم الحكمة: ١٤٧.

(٣) البحار ٧٠ / ٥٩.

(٤) الوسائل ١/٦٢، الباب ٩ من مقدّمة العبادات، الحديث ١.

(٥) السورة ٧٥، القيامة، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[(١)] .

١٢ ـ وقال الله تعالىٰ: **﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[(٢)] . إذن فرضوان الله خير من جنّات عدن، ولنعم ما قال الشاعر بالفارسيّة:

الهى زاهد از تو حور مى‌خواهد قصورش بين
بجنّت مى‌گريزد از درت يا رب شعورش بين

وأيضاً نعم ما قال الشاعر بالفارسيّة :

آن كس كه تورا شناخت جان را چه كند
فرزند وعيال وخانمان را چه كند
ديوانه كنى هر دو جهانش بخشى
ديوانهٔ تو هر دو جهان را چه كند

١٣ـورد في دعاء أبي حمزة الثمالي: «... لئن أدخلتني النار لأُخبرنّ أهل النار بحبّي لك...»[(٣)] .

١٤ ـ ورد ـ أيضاً ـ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سَيبَكَ من بين الأشهاد، ودللت علىٰ فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلىٰ النار، وحلت بيني وبين الأبرار، ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبّك من قلبي، أنا لا أنسى أياديك عندي، وسترك عليّ في

---

(١) السورة ٨٣، المطفّفين، الآية: ١٥.
(٢) السورة ٩، التوبة، الآية : ٧٢.
(٣) راجع مفاتيح الجنان: ١٩٧.

دار الدنيا»[١].

١٥ ـ ورد في دعاءٍ عن الإمام زين العابدين عليه السلام هذا المقطع الرائع: «... سيّدي لو أنّ عذابي ممّا يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه، غير أنّي أعلم أنّه لا يزيد في ملكك طاعة المطيعين، ولا ينقص منه معصية العاصين...»[٢].

١٦ ـ أختم هذا المختصر من تجميع الكلمات العرفانيّة الراقيّة والمنتشرة في نصوص الكتاب والسنّة والتي هي فوق أفهامنا الاعتياديّة بما كان يشير إليه السيّد الإمام الخمينيّ قدس سره في بعض بياناته، وهو التعبير الوارد في المناجاة الشعبانيّة: «الهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتّىٰ تخرق أبصارُ القلوب حجبَ النور، فتصلَ إلىٰ معدن العظمة، وتصيرَ أرواحنا معلقة بعزّ قدسك»[٣].

---

(١) راجع مفاتيح الجنان: ١٩٣.

(٢) البحار ٧٨/١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣) راجع مفاتيح الجنان: ١٥٨ ـ ١٥٩.



النقطة الخامسة

وهي الحديث عن بعض العلامات التي تميّز بين المتصوّفة أو العرفاء الكاذبين والعرفاء الحقيقيين

فقبل الدخول في صلب البحث نشير إلىٰ أمرين، ثمّ نعقّب بالإشارة إلىٰ بعض تلك العلامات إن شاء الله:

١ ـ يقول بعض: إن الفارق بين التصوّف والعرفان هو: أنّ التصوّف طريق الترقّي وقوّة النفس، والعرفان هو طريق فناء النفس[١].

ويقول بعض آخر: إن العرفاء والمتصوّفة فرقة واحدة، وليسا فرقتين، إلّاأنّه حينما ينظر إليهم من زاوية الجانب الثقافي يسمّون باسم العرفاء، وحينما ينظر إليهم من زاوية الجانب الاجتماعي يسمّون باسم المتصوّفة[٢].

٢ ـ من الطريف ما جاء نقله في كتاب روح مجرّد[٣] وملخّصه ما يلي:

سأل بعض السيّد هاشم الحدّاد: أنّه لقد ثبت أنّ بعض مرتاضي الهند من عبدة البقر يخبرون بحسب حركات البقر وسكناته عن بعض المغيّبات، كوقوع الثورة في كذا مكان من أقصى نقاط الشرق أو الغرب، ثمَّ تنكشف صحّة الخبر، فما علاقة

---

(١) روح مجرّد: ١٢٧.

(٢) خدمات متقابل اسلام وايران: ٦٢٩.

(٣) روح مجرّد: ٥٨٦ ـ ٥٩٠.

ذلك بحركات البقر؟

فأجاب الحدّاد: أنّ ذلك راجع إلىٰ الارتباط الوثيق الثابت فيما بين موجودات العالم، وبما أنّ هذا المرتاض وصل عن طريق الرياضة إلىٰ مستوىٰ كشف وحدة النظام الحاكم علىٰ العالم، أصبح باستطاعته الإخبار بواسطة أيّ حركة أو سكون ولو كان بشكل لا تُرى له أهميّة عن جميع التغييرات والتبديلات والحركات والسكنات في العالم. وكما أنّ هذا المرتاض الهندي ارتبط بواسطة الرياضات النفسانيّة بالروح الكلّية للبقر فاستطاع أن يرتبط بذاك النظام الواحد عن طريق أرواح البقر، فأصبح يخبر عن الرموز الخفيّة بواسطة شبكة البقر، كذلك بإمكان أحد أن يصل إلىٰ نفس المستوىٰ بعبادته للطير أو الهِرّ أو النجوم أو الشمس أو القمر وبالرياضة النفسانيّة التي توصله إلىٰ النفوس الكلّية لأحد هذه الأُمور أو غيرها، فيستدل ـ عندئذٍ ـ عن طريق ذلك الشيء الذي فنىٰ فيه علىٰ ما يحكمه ذاك النظام الوحداني. ولكن بما أنّ الإنسان أشرف المخلوقات لا ينبغي له أن يفني نفسه في نفوس أنزل من نفسه أو فيما يساوي نفسه، فإنّ هذا الفناء مستلزم لسقوط الإنسان وانحطاطه عن درجة الإنسانيّة؛ ولهذا منع الإسلام عن عبادة البقر والنجم والحجر والملائكة والأجنّة وعبادة إنسان آخر وما إلىٰ ذلك. أضف إلىٰ ذلك أنّ الفناء في هذه المعبودات ـ غير الله سبحانه وتعالىٰ ـ لا يوصل الإنسان في التجرد والعلم والإحاطة إلىٰ أكثر من النفوس الحيوانيّة أو الفلكيّة أو الجماديّة، ولا يصل الشخص عن هذه الطرق إلىٰ مستوىٰ العلوم التوحيديّة والإلهيّة. أمّا من يفنىٰ في ذات الله فتصبح علومه علوماً كلّيّة بتمام معنىٰ الكلمة، وتجرّده تجرّداً غير متناه، ويصل إلىٰ حقائق التوحيد والعرفان انتهى الكلام ملخّصاً.

ومن الطريف أن ما جاء في كلام الحدّاد هنا ـ إن صحّ نقل مصنف كتاب (روح مجرّد) ـ من مسألة الارتباط بالنفوس الكلّية للبقر أو الطير أو النجوم أو ما إلىٰ

ذلك يذكّرنا بعقليّة الكلّيّ الهمداني.

وعلىٰ أيّة حال فقد كان هدفي من نقل هذا الكلام أن يُعرف اعترافهم بأنّ مجرّد تقوية الروح في مقابل البدن شيء، والتقرّب إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ شيء آخر. فالأوّل يكون حتّىٰ لدىٰ الملحدين والمشركين، فكما أنّ هناك أُناساً يقوّون أجسامهم بالرياضات البدنيّة ولا فرق في ذلك بين المشرك والموحّد، كذلك يوجد هناك أُناس يقوّون أرواحهم بالرياضات الروحيّة ولو كانوا مشركين، فلو رأى أحد بعض التصرّفات الدالّة علىٰ قوّة الروح لدىٰ من يدّعي العرفان لا يكون مجرّد ذلك كافياً في الاستدلال علىٰ كون طريقه صحيحاً في نظر الشرع، وكونه متقرّباً إلىٰ الله سبحانه.

وأيضاً قال بعضهم: إنّ المكاشفات الروحيّة تحصل قبل الوصول إلىٰ عالم التوحيد وعالم الله، وتكون مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا يدلّ ثبوتها علىٰ الكمال، ولا عدم ثبوتها علىٰ نفي الكمال[١].

أقول: وقد يتوهّم بعض: أنّ بعض الغرائب التي تصدر من الشخص نتيجة لتقوية الروح يعتبر أمراً من سنخ المعاجز، غاية ما هناك أنّها لا تسمّىٰ معاجز؛ لأنّها لم تقترن بدعوى النبوّة أو الإمامة، فهي كرامات لأولياء الله، في حين أنّ هذه الغرائب تصدر حتىٰ من المرتاضين الملحدين أو المشركين.

وحلّ ذلك هو: أنّ الإعجاز يكون خرقاً لقوانين الطبيعة والذي لا يكون إلّا من قبل خالق الطبيعة، أو من يكون حقّاً مَظْهراً للخالق من نبيّ أو إمام أو وليّ من أولياء الله، وفي الثالث يسمّىٰ بالكرامة لا بالإعجاز. وأمّا الخوارق التي تصدر من المرتاضين والمتصوفين وما إلىٰ ذلك فهي: وإن كانت خوارق لما اعتاد عليه الناس، ولكنّها ليست خوارق لقوانين الطبيعة، بل تكون هي نتيجة المشي علىٰ

---

(١) راجع تعليق السيّد محمّد حسين الطهراني علىٰ الرسالة المنسوبة إلىٰ بحر العلوم: ١٦٠.

بعض قوانين الطبيعة، ويصل إليها كلّ إنسان يلتزم بسلوك ذاك الطريق الطبيعي من دون فرق بين أن يكون مسلماً أو ملحداً أو مشركاً أو نحو ذلك.

وبعد هذا ننتقل إلىٰ ذكر بعض المميّزات التي يكون العثور علىٰ واحد منها فيمن يدّعي العرفان كذباً كافياً في التمييز بينه وبين العرفاء الحقيقيّين. وذلك بما يلي:

١ ـ ارتكاب محرّمات الشريعة. وأذكر هنا لذلك أمثلة :

الأوّل: تجويز تركيز النظر علىٰ فتاة جميلة محرّمة مقدّمةً للحصول علىٰ قدرة جمع الحواسّ علىٰ نقطة واحدة كي ينتهي السالك ـ بعدئذٍ ـ إلىٰ التركيز علىٰ ذات الله تبارك وتعالىٰ. وهنا نتبرّك بنقل كلام سيّد العرفاء الحقيقيّين ـ والمرجع الديني العظيم، ومؤسّس وقائد الثورة الإسلاميّة الإمام الخمينيّ قدّس الله روحه الزكيّة ـ الوارد في كتابه المبارك (الأربعون حديثاً)، وأنقل النصّ عن الترجمة التي كتبها السيّد محمّد الغروي حفظه الله[1]، وذلك ما يلي:

«ومن التصرّفات الخبيثة للشيطان إضلال القلب وإزاغته عن الصراط المستقيم، وتوجيهه نحو فاتنة[2] أو شيخ مرشد. ومن إبداع الشيطان الموسوس في صدور الناس الفريد من نوعه وهو: أنّه مع بيان عذب أو مليح وأعمال مغرية قد يعلق بعض المشايخ بشحمه أُذن فاتنة[3] جميلة، ويبرّر هذه المعصية الكبيرة، بل هذا الشرك لدىٰ العرفاء[4] بأنّ القلب إذا كان متعلقاً بشيء واحد استطاع أن يقطع علاقاته مع الآخرين بصورة أسرع، فيركز كلّ توجيهه أوّلاً علىٰ الفتاة الجميلة بحجّة أنّ القلب ينصرف عن غيرها، وأنّه منتبه إلىٰ شيء واحد، ثمّ يقطع

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٤٧٣.

(٢) تعبير المتن الأُصلي الفارسي في كتاب چهل حديث: ٥٣٢ «بصورت شوخى يا شيخى»، وكلمة (شوخ) تناسب الفاتن أيضاً ولا تختصّ بالفاتنة.

(٣) في الأُصل الفارسي : ٥٣٢ «شوخى دلبر».

(٤) في الأُصل الفارسي: ٥٣٢ «بلكه اين شرك عرفانى را».

هذا الارتباط الوحيد، ويركز قلبه علىٰ الحقِّ المتعالي. وقد يدفع الشيطان بإنسان أبله[١] «نحو إنسان أبله»[٢] نحو محيّا مرشد مكّار وحش[٣] بل شيطان قاطع للطريق، ويلتجئ في تبرير هذا الشرك الجليّ إلىٰ أنّ هذا المرشد هو الإنسان الكامل، وأنّه لا سبيل للإنسان في الوصول إلىٰ مقام الغيب المطلق إلّا بواسطة الإنسان الكامل المتجسّد في المرآة الأحديّة للمرشد، ويلتحق كلّ منهما بعالم الجنّ والشياطين، ذاك المرشد بالتفكير في جمال معشوقه ومفاتنه إلىٰ نهاية عمره، وهذا الإنسان البسيط بالانتباه الدائم إلىٰ محيّا مرشده المنكوس حتّىٰ آخر حياته، فلا تنسلخ العلقة الحيوانيّة عن المرشد، ولا يبلغ الإنسان الأبله الأعمىٰ إلىٰ منشوده ومبتغاه».

والثاني: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجّة استلزامهما لتكدّر الذهن المانع عن الوصول.

لاحِظ بهذا الصدد ما نقله صاحب كتاب روح مجرّد[٤] عن الحدّاد، وحاصله ما يلي:

حوِّل النجاسة إلىٰ غيرك لا إلىٰ نفسك، فلو رأيت ـ مثلاً ـ أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدّيان بك إلىٰ حالة الغضب، وتكدّر الفكر، وانكسار صفاء الذهن، وهذا أضرّ عليك ممّا يوجبه ارتكاب الجرم والحرام من الضرر علىٰ ذاك الفاعل، فاتركه علىٰ حاله، واحتفظ أنت بصفاء نفسك. انتهى ملخّصاً.

انظر إلىٰ هذه التوصية للوصول إلىٰ مدارج كمال النفس وتحصيل صفائها بترك

---

(١) في التعبير الفارسي: ٥٣٢ «بعض شوخ چشمان ابله را».

(٢) هذه الجملة كأنّها زيادة من القلم، فإنّها غير موجودة في المتن الأصلي الفارسي.

(٣) ورد في الأصل الفارسي (ديوسيرت).

(٤) روح مجرّد: ٥٩٦.

واجب من الواجبات؟!

والثالث: ما اشتهر عن الصوفيّة وعن محافلهم من الرقص والسماع تحصيلاً لما يسمّىٰ بالحال أو الوجد حتّىٰ أنّه نُقل عن الشيخ أبي سعيد أبي الخير: أنّه كان ذات يوم في ضيافة محمّد القائيني، وانشغل هو وجماعته بالسماع والوجد والرقص والصياح، وإذا بصاحب البيت وهو محمّد القائيني أبلغهم حضور وقت الصلاة فأجاب الشيخ نحن في الصلاة، فبقوا مستمرين في رقصهم وسماعهم، وانصرف صاحب البيت إلىٰ الصلاة[1].

ولنعم ما قيل:

ألا خيل التصوّف شرّ خيل	لقد جئتم بشيء مستحيل
أفي القرآن قال لكم إله	كلوا مثل البهائم وارقصوا لي
اگر مرد خدا آن مرد چرخی است	يقين دان كاسيا معروف كرخی است
وگر كف بر دهن عرش است معراج	يقين ميدان شتر منصور حلاج[2]

والرابع: ارتكاب المحرّمات بهدف السقوط عن أعين الناس؛ كي يسلم هذا المرتكب من آفات الجاه والرياء. وأقتصر هنا علىٰ ما رواه المحدّث القمّي ﷺ في سفينة البحار[3] عن كتاب ابن الجوزي الذي ألّفه في الردّ علىٰ الصوفيّة باسم (تلبيس إبليس)، والنصّ ما يلي:

«وقد تسمّىٰ قوم من الصوفية بالملامتيّة، فاقتحموا الذنوب فقالوا: مقصودنا: أن نسقط من أعين الناس، فنسلم من آفات الجاه والمرائين. وهؤلاء مثلهم كمثل رجل زنىٰ بامرأة فأحبلها، فقيل له: لم لا تعزل؟ فقال: بلغني أنّ العزل مكروه، فقيل

---

(١) جلوه حقّ لآية الله مكارم: ١٨٩ ـ ١٩٠ نقلاً عن كتاب أسرار التوحيد: ١٨٦.

(٢) سفينة البحار ٥/٢١٠، وسيأتي إن شاء الله التشكيك فيكون المعروف الكرخي منهم.

(٣) سفينة البحار ٥/٢٠٩.

له: وما بلغك أن الزنىٰ حرام؟!».

وفي ختام الحديث عن إرتكابهم لمحرمات الشريعة أنقل لكم ـ أيضاً ـ عن سفينة البحار[١] ما رواه عن كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي بشأن الغزالي، والنصُّ ما يلي:

«قال في كتاب (تلبيس إبليس) ص ٥٩٧ وقد حكىٰ أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء قال: كان بعض الشيوخ فيبداية إرادته يكسل عن القيام، فألزم نفسه القيام علىٰ رأسه طول الليل؛ لتسمح نفسه بالقيام عن طوع. قال: وعالج بعضهم حبّ المال: بأن باع جميع ماله ورماه في البحر، إذا خاف من تفرقته علىٰ الناس رعونة الجود ورياء البذل. قال: وكان بعضهم يستأجر من يشتمه علىٰ ملأ من الناس؛ ليعوّد نفسه الحلم. قال: وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الموج ليصير شجاعاً.

قال المصنف (أي صاحب تلبيس إبليس): أعجبُ من جميع هؤلاء عندي أبو حامد كيف حكىٰ هذه الأشياء ولم ينكرها؟! وكيف ينكرها وقد أتىٰ بها في معرض التعليم؟! وقال قبل أن يورد هذه الحكايات: ينبغي للشيخ أن ينظر إلىٰ حالة المبتدئ، فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر حاجته أخذه وصرفه في الخير، وفرّغ قلبه منه حتّىٰ لا يلتفت إليه، وإن رأىٰ الكبرياء قد غلب عليه أمره أن يخرج إلىٰ السوق للكدّ، ويكلّفه السؤال والمواظبة علىٰ ذلك، وإن رأىٰ الغالب عليه البطالة استخدمه في بيت الماء وتنظيفه، وكنس المواضع القذرة، وملازمة المطبخ ومواضع الدخان، وإن رأىٰ شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم، وإن رآه عزباً ولم تنكسر شهوته بالصوم أمره أن يفطر ليلة علىٰ الماء دون الخبز، وليلة علىٰ الخبز دون الماء، ويمنعه اللحم رأساً. قلت (يعني ابن الجوزي): وإنّي لأتعجّب من أبي

---

(١) سفينة البحار ٦ / ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

حامد كيف يأمر بهذه الأشياء التي تخالف الشريعة، وكيف يحلّ القيام علىٰ الرأس طول الليل، فينعكس الدم إلىٰ وجهه ويورثه ذلك مرضاً شديداً؟! وكيف يحل رمي المال في البحر وقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن إضاعة المال؟! وهل يحلّ سبّ مسلم بلا سبب؟! وهل يجوز للمسلم أن يستأجر علىٰ ذلك؟! وكيف يجوز ركوب البحر زمان اضطرابه، وذلك زمان قد سقط فيه الخطاب بأداء الحج[1] ؟! وكيف يحل السؤال لمن يقدر أن يكتسب؟! فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالي الفقه بالتصوّف».

وقال أيضاً في ص ٣٧٩ (أي من كتاب تلبيس إبليس) «وحكى أبو حامد الغزالي عن ابن الكريني: أنّه قال: نزلت في محلّة فعرفت فيه بالصلاح، فدخلت في الحمّام، وعيّنت علىٰ ثياب فاخرة، فسرقتها ولبستها، ثُمّ لبست مرقعتي فوقها، فخرجتُ فجعلتُ أمشي قليلاً قليلاً، فلحقوني فنزعوا مرقعتي، وأخذوا الثياب، وصفّعوني، فصرت بعد ذلك أُعرف بلصّ الحمام، فسكنت نفسي. قال أبو حامد: فهكذا كانوا يروّضون أنفسهم حتّىٰ يخلّصهم الله من النظر إلىٰ الخلق، ثُمّ من النظر إلىٰ النفس وأرباب الأحوال، ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه[2] مهما رأوا صلاح قلوبهم، ثُمّ يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا في الحمام.

قلت (يعني ابن الجوزي) : سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الإحياء، فليته لم يحك فيه مثل هذا الذي لا يحل، والعجب أنّه يحكيه

---

(١) هذا راجع إلىٰ الأزمنة السالفة التي كان ينحصر فيها طريق الحج من بلد يفصله البحر عن الحج في ركوب السفينة.

(٢) يناسب المقام هذا البيت: من ديوان حافظ، حرف اللام:

حلّاج بر سردار اين نكته خوش سرايد   از شافعى نپرسند امثال ايـن مسـائل

ويستحسنه، ويسمّي أصحابه أرباب الأحوال، وأيّ حالة أقبح وأشدّ من حال من يخالف الشرع، ويرىٰ المصلحة في المنهيّ عنه وكيف يجوز أن يطلب صلاح القلوب بفعل المعاصي، أوَقد عدم في الشريعة ما يصلح قلبه حتّىٰ يستعمل ما لا يحلّ فيها؟! وكيف يحلّ للمسلم أن يعرّض نفسه لأن يقال عنه: سارق؟! وهل يجوز أن يقصد وهن دينه ومحو ذلك عند شهداء الله في الأرض؟! ثُمّ كيف يجوز التصرف في مال الغير بغير إذنه؟! ثُمّ في نصّ مذهب أحمد والشافعي: أن من سرق في الحمّام ثياباً عليها حافظ وجب قطع يده، فعجبي من هذا الفقيه المستلب عنه الفقه بالتصوّف أكثر من تعجّبي من هذا المستلب الثياب» انتهى.

٢ ـ **دعوى ما يكذّبه الوجدان،** وهو الضمير الذي أنعم الله ـ تعالىٰ ـ به علىٰ الإنسان والذي لا يخطأ، والمفروض بالعرفان الصادق أن يذكي الضمير ويجلّيه، وينفض عنه الغبار، لا أن يعكّر صفاءه، ويسمّم أجواءه، وإن شئت فأدخل هذا البند فيما سيأتي إن شاء الله من قسم الخرافات، كقول من يقول: يصل السالك إلىٰ مقام لا يعرف إلّا ربّه، بل الربّ هو الذي يعرف نفسه(١).

وهذا الكلام له أحد منشأين: فإمّا أنّ صاحبه يعتقد بوحدة الوجود، بمعنى: إنكار أي وجود آخر غير وجود الله حتّىٰ الوجود التعلقي.

وقد أجابوا في الفلسفة عن ذلك بما مضى حديث مختصر عنه في الحلقة الأُولىٰ من هذا الكتاب من توضيح: أنّ وجود المخلوقين وجود تعلقي، وبالإضافة الإشراقيّة لا المقوليّة التي تتطلب استقلال أحد الوجودين عن الآخر مع وجود رابط بينهما بل هو عين الربط، وهذا بالدقّة غير دعوىٰ نفي الوجود نهائيّاً عن المخلوق.

وعلىٰ أيّ حال، فنحن هنا نكتفي بدلالة الوجدان والضمير علىٰ وجودٍ ضالٍّ

---

(١) راجع لبّ اللباب: ١٦٢.

أراد الله أن يهديه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولو كان الربّ هو الذي يعرف نفسه وليس غيره فما معنىٰ إرسال الرسل وإنزال الكتب؟! وما معنىٰ ما يدّعيه صاحب هذا الكلام من تربية النفس بالعرفان، وأيّ نفس يربّيها؟ وهل يريد بتربية نفسه تربية العدم المحض المتمثّل في التعيّنات الماهويّة، أو تربية الله سبحانه وتعالىٰ؟!

وإمّا أنّ صاحبه يعتقد أنّه وإن كان هو غير الله إلّا أنّه بالتربية والرياضة والعرفان والسلوك يفنىٰ في الله بالوصول إليه بخرق الحُجب، فلا يبقى غير الله، فيكون الربّ هو الذي يعرف نفسه[١].

والخطأ الفلسفي في هذا الكلام كما مضى هو: أنّ التجرد عن البدن والجوانب المادّية لو تمّ بمعنى الكلمة فالجانب المجرّد من النفس لم يكن نقصه وحدّه مخصوصاً بما كان معه من البدن والمادّة وبنقائصهما وأعراضهما، بل نفس إمكانه وحدوثه وفقره بما هو، ومحدوديّةُ ذاته والتي كلّها تكون علائم تدلّ علىٰ النقص الذاتي الذي يمنع عن وصوله إلىٰ مقام الربّ تعالىٰ أُمورٌ ذاتيّة له، فلا يمكنه التجرّد عنها، وذاتيّةُ النقص في الممكن المخلوق ـ أيضاً ـ أمرٌ وجداني.

ويقول بعض[٢]: إنّ التجرّد الكامل ومن جميع الجهات لا يحصل إلّا بعد

---

(١) أُنظر الفارق الكبير بين تفسير خرق الحُجُب والفناء الكامل بمعنى أنّه لم يبق شيء غير الربّ، والربّ هو الذي يعرف نفسه، وبين ما يقوله آية الله جوادي آملي ـ حفظه الله ـ في تقدمته لكتاب سرّ الصلاة في الصفحة الثامنة عشر: من أنّ الخرق النهائي عبارة عن أن لا يرى الإنسان نفسه، وليس عبارة عن الانعدام، فإنّ الانعدام ليس كمالاً، وإنّما الكمال هو عدم الرؤية، والسالك يصل في مقام الفناء التامّ إلىٰ مستوىٰ أنّه لا يرى شيئاً غير الله، فلا يرىٰ نفسه، ولا غيره ولا عدم رؤيته للغير، ولا رؤيته للحقّ...

(٢) راجع تعليق السيّد محمّد حسين الطهراني علىٰ الرسالة المنسوبة لبحر العلوم: ٣٩ ـ ٤٠، والرسالة تسمّى سير وسلوك.

الموت؛ وذلك لأنّه في هذا العالم نرى أنّه لو دخل السالك إلىٰ عـالم اللاهـوت، وفنىٰ في جميع الأسماء بما فيها اسم (أحد)، وحصل له البقاء بعد الفناء، وهو البقاء بالمعبود، فعندئذٍ وإن كان قد حصل له التجرد بقدر الاستعداد الإمكاني، ولكنّه لم يحصل له التجرد الكامل ومن جميع الجهات حتّىٰ عن الاستعداد الإمكاني؛ وذلك لأنّه ـ برغم أنّ علمه عندئذٍ علم إلهي، ويكون مع كلّ موجود، ويكون مطلعاً علىٰ الماضي والمستقبل ـ تكون له علاقة إجماليّة بتدبير البدن، وهذا يمنعه عن حصول التجرّد التامّ فيما فوق الإمكان. نعم، بعد الموت تنقطع علاقته بالمرّة عن البـدن، فيحصل له التجرّد التامّ اللاهوتي.

ثمّ ينقل صاحب هذا الكلام عمّن يسمّيه بالشيخ وليّ الله الدهلوي: أنّه قال في كتاب الهمعات: أَفْهَموني أنّ قطع علاقة الروح عن البدن يتمّ بعد خمس مئة سنة من الموت.

أقول: إنّ إمكان الإنسان وحدوثه ذاتيّان للإنسان، فلا معنىٰ لانفصالهما عـن الإنسان حتّىٰ بعد الموت، فحتّىٰ التجرّد بعد الموت لا يعني الفناء الحقيقي في الله.

وخلاصة الكلام: أنّ الانمحاء والاضمحلال بمعنى انشغال الذهن بالله وحده، أو عدم رؤية شيء غير الله بعين البصيرة شيء قد يحصل بالرياضة، أمّا الاندكاك الواقعي لواقع الروح أو لواقع الجسم والروح من باب أنّ العالم بأجمعه تجلٍّ من تجلّيات الربّ فهذا أمر سابق علىٰ كلّ الرياضات، وليس أمراً يحصل بالرياضة. وأمّا الاندكاك بمعنى ارتفاع الحدود الإمكانيّة والماهويّة والنقائص التابعة لذلك جسماً أو روحاً، أو جسماً وروحاً فهذا من المستحيلات؛ لأنّها أُمور ذاتيّة للممكن الذي لابدّ من افتراض وجود تعلّقي له، فلا معنىٰ لانفكاكها عن السالك ووصول السالك إلىٰ الربّ.

٣ ـ الاحتيال والمخادعة بما قد ينطلي علىٰ بعض السذّج. وعلىٰ سبيل المثال أُشير

إلىٰ قصّتين مرويّتين في كتاب روح مجرّد عن الحدّاد:

الأولىٰ[١] : كان الحدّاد يسافر مع خمسة آخرين من كـربلاء إلىٰ الكـاظميّة، فطالبهم السائق أو صانعه بأُجرته، وقال: كم نفر أنتم؟ فقال الحدّاد: خمسة، وقال السائق: بل أنتم ستّة، فحسب الحدّاد الركّاب وقال مرّة أُخرىٰ: نحن خمسة، وكرّر الصانع مرّة أُخرىٰ: أنتم ستّة، قال الحدّاد: (خوي ما تشـوف؟! هـاي[٢] واحـد أُوهاي اثنين أُوهاي ثلاثة أُوهاي أربعة أُوهاي خمسة بعد شتگول أنت).

فقال له: (يا سيّد أنت ما تحاسب[٣] نفسك). وقد قال الركّاب: من الغريب أنّ الحدّاد كان قد فقد نفسه إلىٰ حدّ لم يلتفت إلىٰ نفسه حتّىٰ بعد قول صانع السائق: (أنت ما تحاسب نفسك)، فقد كان الحدّاد غارقاً في عالم التوحيد، ومنصرفاً عن الكثرة إلىٰ مستوىٰ لم يكن يمكنه برغم كلّ هذا الالتفات إلىٰ بدنه وحسابه فـي زمرة الركّاب.

يقول مؤلّف الكتاب (أي كتاب روح مجرّد) : إنّ حضرة السيّد الحدّاد ذكر لي بنفسه أنّه في تلك الحالة كان عاجزاً تماماً عن عدّ نفسه. وأخيراً قال له الركّاب: (أنت احسب نفسك) وإنّ الحقّ مع الصانع، فأعطيتُه أُجرة ستّة أنفار لا للعلم بصحّة كلامه، بل تعبّداً برأي الرفقاء.

أقول: لا أدري : أنّ عدم عدّ نفسه علىٰ رغم أنّه كان يعدّ الآخرين ويحسبهم هل كان نتيجة أنّ البدن كان مضمحلاً وفانياً ومنعدماً حقيقة؟ فهذا خلاف ما يمكن أن يفترض الوصول إليه بالرياضة، فإنّ ما يمكن أن يفترض الوصول إليه بالرياضة

---

(١) روح مجرّد: ٧٥.

(٢) يبدو أنّ كلمة (هاي) استعملت هنا بدلاً عن كلمة (هذا) من باب جهل مؤلّف الكـتاب باللغة العربيّة الدارجة.

(٣) وهذا خطأ آخر من المصنّف نتيجة الجهل باللغة، فهو يقصد: ما تحسب.

هو: ذوبان النفس في الله تعالىٰ مثلاً. لا ذوبان البدن وفناءه حقيقة، أو كان نتيجة أنّ ذوبانه في ذات الله وانغماسه في عالم التوحيد أنساه الكثرة أو أعجزه عن رؤية الكثرة؟! فعندئذ كان المفروض به أن يقول: لا أحد في السيارة، فلا معنىً لمطالبة الأُجرة، أمّا عدّ الآخرين مع عدم عدّ نفسه، ونسيان نفسه من دون نسيان الآخرين فلم يعرف وجهه.

وأمّا لو كان المقصود: أنّه لا وجود حقيقي إلّا لله فالمفروض ـ أيضاً ـ إنكار أصل الأجرة والمؤجر والمستأجر.

الثانية [١] : سافر الحدّاد إلىٰ إيران، وكان من البلاد التي زارها همدان، وكان الرفقاء قد استأجروا له بستاناً في خارج البلد، فكان يقضي النهار في ذاك البستان، ويعود بالليل إلىٰ همدان في بيت الحاج محمّد حسن البياتي، وزار يوماً من الأيّام المقبرة الواقعة في بهار همدان، وزار فيها قبر المرحوم الشيخ محمّد البهاري، يقول مؤلف الكتاب: قال لي حضرة السيّد: إنّي كنت سامعاً أن المرحوم الأنصاري كان يزور كثيراً قبر المرحوم الحاج الشيخ محمّد البهاري، وقد كان يأتي أحياناً من همدان إلىٰ هذا المقصد مشياً علىٰ الأقدام رغم فاصل فرسخين، وقد تبيّن لي الآن: أنّ هذا لم يكن لأجل الاستمداد من روح هذا المرحوم وروحانيّته، وأنّ هذا المرحوم لم يكن له ذلك المقام الذي يستمدّ منه المرحوم الأنصاري ويلقى لديه ضالّته، بل المرحوم الأنصاري كان يفحص عنّي، ويستشمّ رائحتي علىٰ أساس مجيئي بعد ذلك في هذه الساعة إلىٰ هذا المكان.

أقول: لو كان المرحوم الأنصاري يهدف إلىٰ استشمام رائحة الحدّاد الذي سيأتي في المستقبل إلىٰ هذا المكان أفلم يكن يدرك أنّه لا حاجة له إلىٰ إتيان هذه المقبرة لهذا الهدف؛ إذ كان الأفضل له أن يأتي إلىٰ البستان الذي استوجر له في

---

(١) روح مجرّد: ١٥٥ ـ ١٥٧.

خارج همدان، وقضى فيه أياماً، أو إلىٰ بيت الحاج محمّد حسن البياتي الذي قضىٰ فيه الحدّاد ليالي؟!

٤ ـ صدور الخرافات ممن يدّعي السلوك والعرفان غير الحقيقي. وأذكر لذلك بعض الأمثلة:

أ ـ يُروىٰ عن الحدّاد: أنّه كان يفرّق بين البصاق والنخامة: بكراهة إلقاء الأوّل في بيت الخلاء، وعدم كراهة إلقاء الثاني فيه؛ بدليل أنّ البصاق من أجزاء بدن المؤمن، فلا ينبغي أن يختلط بالقاذورات، والنخامة من أجزاء بدنه، وهي ـ أيضاً ـ من الفضلات كما هو الحال في القاذورات، فلا بأس باختلاطها معها[١] .

ب ـ يُروىٰ عن الحدّاد[٢] : أنّه كان يتعجّب من بكاء الناس وحزنهم في أيّام عاشوراء، وهو ـ أيضاً ـ كان يبكي، ولكنّه كان يبكي بكاء شوق وليس بكاء حزن؛ وذلك لأنّه كان يرىٰ هذه الأيّام أيّام فرح وسرور؛ لأنّها أيّام ظفر أهل البيت، وورودهم في حريم الله وحرم الأمن والأمان، وطيّهم الدرجات والمراتب، ووصولهم إلىٰ أعلىٰ درجات ذروة الحياة الأبديّة.

ثُمّ يحاول صاحب كتاب (روح مجرّد) الراوي لهذه القِصّة توجيه هذا الكلام من قبل الحدّاد: بأنّ هذا الكلام صدر منه في أيّام طيّه لعوالم الكثرات، ووصوله إلىٰ الفناء المطلق في الله، وبكلمة أُخرى في أيّام انتهائه من السفر إلىٰ الله، وانشغاله بالسفر الثاني، وهو: السفر في الله، أمّا بعد أن انتهى من الأسفار الأربعة وآخرها البقاء بالله فتشكل بأشكال عوالم الكثرة والوحدة في وقت واحد، وأدّىٰ حقّ كلّ عالَم من العوالم بالذي ينبغي ويناسب ذاك العالم، فعندئذٍ كان يُرىٰ في أواخر عمره أنّه يبكي في مجالس الحسين عليه السلام بكاء حزن وحرقة قلب حيث كان

---

(١) روح مجرّد: ١١٢.

(٢) روح مجرّد: ٨٤ ـ ٩٢.

متّصفاً بالصفات الخَلْقيّة في عين اتِّصافه بصفات الوحدة الربوبيّة، كما أنّ الحسين عليه السلام كان كذلك، فمن ناحية كان من خصائصه هو وبعض مَن معه أنّه تشرق ألوانهم بتلك المصائب، وتهدأ جوارحهم، وتسكن نفوسهم. فقال بعضهم لبعض: انظروا لا يبالي بالموت، ومن ناحية أُخرىٰ كان يقول لبنته سكينة: لا تحرقي قلبي بدمعك حسرة ما دام منّي الروح في جثماني.

أقول: ليكن السالك الذي يسافر إلىٰ الله ثمّ يفنىٰ في الله تنكشف لديه الحقائق التي لم تكن تنكشف بالعقل، ولكن هذا لا يعني أن يفقد الانكشافات الحاصلة بالعقل قبل السلوك إلىٰ أن يرجع مرّة أُخرى إلىٰ عالم الكثرة، والعقل يعرف قبل السلوك أن قضيّة عاشوراء عملة ذات وجهين: فمن أحد الوجهين بطولة وعزّ ومقام وفخر واعتزاز، ومن الوجه الآخر مصيبة ورزيّة وفجيعة عظمىٰ، وليس من لوازم السلوك الحقيقي والعرفان الإلهي فقدان منكشفات العقل بالأخص المنكشفات الدينيّة والايمانيّة والعرفانية كأوجه عُملة عاشوراء الحسين عليه السلام.

ولعلّ قائلاً يقول: إنّ الحدّاد كان غارقاً في عالم الفناء غافلاً عن عالم الكثرة، وعُملة عاشوراء إنّما تكون مصيبة ورزيّة بوجهها الخَلقِي وبلحاظ الكثرة؛ ولذا لم يكن يدرك هذا الجانب من العُملة، ولكنّني لا أدري أنّه لو كان الأمر كذلك كيف أدرك أساساً كون قِصّة عاشوراء تعتبر مصيبة عند الناس، ويبكون لأجلها بكاء الحزن؟! ولِمَ لم يغفل عن ذلك؟! فمثلاً مَنْ يغرق في الله، ويخشع له لدىٰ الصلاة، ويفنى فيه لا يلتفت إلىٰ الناس وإلىٰ غير الله، لا أنّه يلتفت إليهم ويتعجب من انشغالهم بغير الله.

ج ـ روىٰ صاحب كتاب (نشان از بى نشانها) المسمّى بعلي المقدادي الإصفهاني قِصّة بشأن أبيه الحاج الشيخ حسن عليّ الإصفهاني والذي يعتبره من العرفاء الكبار، والقِصَّة يرويها عن السيّد أبي الحسن المرتضوي: إنّه كان يقول:

كنت في مشهد الرضاعليه السلام بخدمة الحاج الشيخ حسن عليّ إذ جاءه رجل وقال: كنت اقرأ الفاتحة علىٰ مزار الشيخ الطبرسي وإذا بعقرب لسعتني في يدي، فسأله الشيخ: اين صار العقرب؟ فقال: دخل في ثقب. قال الشيخ: إنّ هذه العقرب قد ضلّت عن بيتها اذهَبْ إلىٰ ذاك المكان، واجعل فمك قريباً من ذاك الثقب، وقل: أمر الحاج الشيخ حسن عليّ بأن تخرجي من الثقب، فإذا خرجت من الثقب احملها برفق، وضعها في باطن كفّك، واذهب بها إلىٰ المقبرة الفلانيّة، واتركها قريباً من الثقب الفلاني؛ كي تُشفىٰ يدك، ثمّ ارجع واخبرنا عن عملك.

قال الذي حكى هذه القِصّة: إنني كنت بخدمة الشيخ إذ رجع ذاك الرجل، وأخبر أنّه فعل ما أمره الشيخ به، وشفيت يده(١).

د ـ روي في كتاب (روح مجرّد)(٢) عن الحدّاد: أنّه سُئِل ذات يوم عن اللعن الكثير الشديد الوارد في زيارة عاشوراء ودعاء علقمة ونحو ذلك كيف يلتئم مع روح الإمام المعصوم الذي هو منبع الرحمة والمحبّة؟!

فأجاب الحدّاد: أنّ كلَّ لعن من هذا القبيل يكون من الرحمة علىٰ الملعون، وطلب الخير له؛ لأنّه بقدر ما تطول حياته وتكثر نعمه وقدراته تزداد معاصيه، ويشتدّ عذابه، ويوجب الإضرار بغيره ـ أيضاً ـ عن طريق الإجرام فسلب هذه النعم أو القدرات أو الحياة عنه خير له ولغيره.

أقول: لا أدري كيف ينسجم هذا الكلام مع آيات من القرآن من قبيل قوله تعالىٰ:

١ ـ **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمِ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾**(٣).

---

(١) نشان از بى نشانها: ٧٠ ـ ٧١.

(٢) روح مجرّد: ١١٣ ـ ١١٥.

(٣) السورة ٣، آل عمران، الآية: ١٧٨.

٢ ـ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[١].

٣ ـ ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[٢].

فيا ترى هل إنّ الله تعالىٰ يملي لهم ليزدادوا إثماً ولكن المعصوم يلعنهم كي لا يزدادوا إثماً؟!

هـ ـ ورد عن ناسخ الرسالة المنسوبة إلىٰ بحر العلوم[٣] في مقام بيان الطريق الذي سلكه هو من الأذكار من أجل سلوك مدارج العرفان: أنّه كان يتوسّل أحياناً بنجمة عطارد؛ لأنّ هذه النجمة تمدّ من روحانيتها أهل الأسرار، وينبغي للسالك في بداية أمره حينما ينظر إليها بعد غروب الشمس أو قبل طلوعها لدىٰ إمكانية رؤيتها أن يسلّم عليها، ويؤخّر خطوة ويقول:

عطارد أيم الله طال ترقبي ... صباحاً مساءً كي أراك فأغنما

ثمّ يؤخّر خطوة أُخرى ويقول:

وها أنا فامنحني قوىً أُدرك المنىٰ ... بها والعلوم الغامضات تكرّما

ثُمّ يؤخّر خطوة أُخرى ويقول:

وها أنا جدلي الخير والسعد كلّه ... بأمر مليك خالق الأرض والسما

وينبغي تكرار هذا العمل في بوادئ السلوك.

أقول: لو فرض التوسل بعطارد بما هو فهذا شرك صريح. ولو فرض التوسل بهذا الجماد بما هو مظهر من مظاهر الربّ فهذا ـ أيضاً ـ يذكّرنا بمشركي قريش الذين

---

(١) السورة ٧، الأعراف، الآيتان: ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) السورة ٦٨، القلم، الآيتان: ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩، حسب الطبعة المشتملة علىٰ تعليق السيّد محمّد حسين الطهراني.

نقل الله سبحانه وتعالىٰ عنهم أنّهم كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّـهِ زُلْفَىٰ ...﴾[(١)] . ولكنّنا لا نعرف من هو هذا الناسخ.

و ـ ويذكر في الرسالة المنسوبة إلىٰ بحر العلوم[(٢)] :

أنّ من آثار السلوك حصول أنوار في القلب، ويكون بدء حصول النور في القلب علىٰ شكل السراج، وبعده علىٰ شكل الشعلة، وبعده علىٰ شكل الكوكب، وبعده علىٰ شكل القمر، وبعده علىٰ شكل الشمس، وبعده يغمر القلب، ويعرىٰ عن اللون والشكل، وكثيراً مّا يكون علىٰ شكل البرق، وأحياناً علىٰ شكل المشكاة والقنديل. ويستشهد ببعض الروايات من قبيل ما في أُصول الكافي[(٣)] عن الباقر عليه السلام قال: «إنّ القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس، وقلب مطبوع، وقلب أزهر أجرد. فقلت: ما الأزهر؟ قال: فيه السراج، فأمّا المطبوع فقلب المنافق، وأمّا الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شكر، وإن ابتلاه صبر...».

أقول : انظر إلىٰ هذا الجاهل ـ وحاشا أن يكون السيّد بحر العلوم رحمه الله ـ كيف يتخيّل كون نور قلب المؤمن علىٰ هيئة الأنوار المادّيّة، ولا أدري كيف يفسّر هذا الرجل الفقرة الواردة في دعاء الندبة بشأن الأئمّة عليهم السلام: «أين الشموس الطالعة، أين الأقمار المنيرة، أين الأنجم الزاهرة» فيا تُرىٰ هل يعتقد أنّ أئمّتنا عليهم السلام كانوا علىٰ شكل الشموس والأقمار والأنجم بمعانيها المادّيّة؟!

ز ـ ويذكر ـ أيضاً ـ في تلك الرسالة[(٤)] : أنّ من آثار السلوك حدوث الصوت في القلب، ويكون في أوائل الأمر كصوت الطير، ثُمَّ كصوت وقوع حصاة في الطاس، ثُمّ علىٰ شكل همهمة كهمهمة الذباب الذي يجلس علىٰ خيط الأبريسم.

---

(١) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٣.

(٢) ص ١٩٤، حسب الطبعة التي أشرنا إليها.

(٣) أُصول الكافي ٢/٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٤) ص ١٩٧، حسب الطبعة المشار إليها سابقاً.

أقول: إنّ نسبة كلّ هذه الخرافات إلىٰ هذا السيّد الجليل العظيم القدر، أمرٌ لا يحتمل صحّته، فإنّ السيّد مهدي بحر العلوم ـ رضوان الله عليه ـ من العلماء الأعلام العظام صاحب الزهد والتقوى والعرفان الصحيح، وقد ورد عنه كثير من الأُمور الدالّة علىٰ جلالة قدره، وأذكر منها هنا قصّتين:

الأُولى: ما رُوِيَ عن تلميذه المولى زين العابدين السلماسي ﷺ: أنّه قال: إنّ السيّد مهدي بحر العلوم كان يمشي في الليالي في أزقّة النجف، وكان يعطي لبيوت الفقراء الخبز ونحوه، ثُمّ ترك التدريس فترة من الأيّام، فشفّعني الطلبة لديه؛ كي يعود إلىٰ التدريس، فأبلغته ذلك، فامتنع عن العودة إلىٰ التدريس، ثُمَّ طلب منّي الطلبة مرّة أُخرىٰ أن أسأله عن سبب ترك الدرس، فسألته عن ذلك؟ فقال: أنا لا أسمع من بيوت الطلبة حينما أمشي في أزقّة النجف في جوف الليل صوت المناجاة والتضرّع، وأنا لا أرىٰ هكذا طلبة مستحقّين لإلقاء الدروس عليهم، فلمّا سمع الطلبة بذلك انشغلوا في جوف الليالي بالبكاء والمناجاة، فعاد السيّد إلىٰ التدريس[١].

والثانية: ما رُوِيَ ـ أيضاً ـ عن السيّد بحر العلوم ﷺ، قال ذات ليلة: إنّي لا أشتهي العشاء، ثُمَّ أمر بصبّ غذاء كثير في ظرف من الظروف، وأخذه وذهب به إلىٰ أزقّة النجف حتّىٰ انتهى إلىٰ باب دار كان صاحبها حديث عهد بالعرس، وكان هو وزوجته في تلك الليلة لا يمتلكان طعاماً، وكانا يعيشان الجوع، فدقّ السيّد ﷺ الباب، فخرج الزوج لفتح الباب، وقال السيّد ﷺ: الآن قد جعت أنا أيضاً، فقسموا الطعام إلىٰ ثلاثة أقسام، وأُعطيت قسمة للعروس، وأكل الباقي السيّد بحر العلوم مع الزوج[٢].

---

(١) قصص العلماء: ١٧٣.

(٢) المصدر السابق: ١٧١.

ح ـ قال بعض: إنّ الجنّة والنار وجودان صوريّان نفسيّان، وليستا خارجيّتين[١]، وإنّ الجنّة وما فيها من حور وقصور وأنهار، والنار بكلّ ما فيها من غسلين وزمهرير ما هي إلّا ذات من حلّ فيها، والخارج مقولة جوفاء[٢].

وكنت أُريد أن أعترض علىٰ صاحب هذا الكلام: بأنّه لِمَ لم يلتزم بهذه المثاليّة في دار الدنيا؟! فلئن كان الثبات دليلاً علىٰ الواقع الخارجي، وبه يمتاز عالم اليقظة عن عالم النوم الذي لا ثبات في الأحلام التي تقع فيه، فهذا الثبات موجود في عالم الآخرة أيضاً، فيجب الالتزام بواقعيّتها، ورفض خياليّتها ومثاليّتها. ثمّ التفتّ إلىٰ أنّ صاحب هذا الكلام قد التزم بالمثاليّة حتّىٰ بلحاظ دار الدنيا، فهو يقول: وكلّ ما يتراءىٰ لنا من الصور الطبيعيّة والدنيويّة ما هي إلّا مظاهر نفسانيّة غير خارجة عن قوانا الإدراكيّة[٣].

أقول: إنّ إبطال المثاليّة له مجال آخر غير هذا الكتاب، ولكنّي أُشير إلىٰ أنّ أُستاذنا الشهيدؒ قد أوضح بطلانها عن طريق حساب الاحتمالات في كتابه القيّم: (الأُسس المنطقيّة للاستقراء)[٤].

ط ـ رُوِيَ في كتاب الإسراء والمعراج[٥] عمّن يسمّونه بالشيخ الأكبر، وهو ابن العربي: أنّه قال في كتاب الفتوحات[٦]: «إنّ أهل العذاب الذين يخلدون في النار بالنيّات يأخذ الألم جزاء العقوبة موازياً لمدّة العمر في الشرك في الدنيا، فإذا فرغ الأمد حصل لهم نعيم في الدار التي يخلدون فيها، بحيث إنّهم لو دخلوا الجنّة

---

(١) راجع الإسراء والمعراج: ١١٧.
(٢) المصدر السابق: ١٢١.
(٣) راجع الإسراء والمعراج: ١٢٠.
(٤) راجع كتاب الأُسس المنطقية للاستقراء: ٤٥٢ ـ ٤٧٠.
(٥) الإسراء والمعراج: ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٦) ٣/٤٦٣.

تألّموا؛ لعدم موافقة الطبع الذي جُبلوا عليه، فهم يتلذذون بما فيها من نار وزمهرير، وما فيها من لدغ الحيّات والعقارب كما يلتذّ أهل الجنّة بالظلال والنور ولثم الحسان من الحور؛ لأنّ طبائعهم تقتضي ذلك... ومن الشاهد أنّ الواحد منّا إذا لامس بدنه الماء الساخن نفر منه ولم يستسمجه، ثمّ بعد ذلك يلائمه ويستعذبه...

إلىٰ أن قال: وبقي أهل هذه الدار الأُخرىٰ فيها، فغلّقت الأبواب وأُطبقت النار، ووقع اليأس من الخروج، فحينئذٍ تعمّ الراحة أهلها؛ لأنّهم قد يأسوا من الخروج منها، فإنّهم كانوا يخافون الخروج منها لما رأوا إخراج أرحم الراحمين... فيستعذبون العذاب... ولهذا سمّي عذاباً؛ لأنّ المئآل استعذابه لمن قام به كمن يستحلي للجرب من يحكه».

أقول: ما أجرأهم علىٰ تأويل كلمات الله ورسوله ﷺ.

٥ ـ حالة الاعتزال عن العمل السياسي الاجتماعي بتخيّل أو بدعوى توقّف تهذيب النفس علىٰ ذلك، في حين أنّه عن طريق العمل الاجتماعي يتمّ علاج ضيق النفس، ويتحقّق ذبح النفس بيد صاحبها لا بيد شخص آخر. وقد مرّ تفصيل ذلك في النقطة الرابعة فلا نعيد.

٦ ـ معرفة أصل هؤلاء وسندهم ونسبهم. ونذكر هنا ترجمة نصّ الكلام الوارد في كتاب لبّ اللّباب حيث قال[1] :

«حقيقة العرفان مأخوذة من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والطرق التي

---

(١) لبّ اللباب: ١٥٤ ـ ١٥٨.

ولا يخفىٰ أن صاحب لب اللباب قد نسب في مقدّمة كتابه صفحة ٢٠ ـ ٢١ مطالب الكتاب إلىٰ المرحوم العلّامة الطباطبائي رحمه الله صاحب كتاب الميزان بعنوان كونه تقريراً لدرسه مع تنقيحات وإضافات.

أقول : مجرّد اعترافه بوجود تنقيحات وإضافات من قبله كاف في أن لا تجوز لنا نسبة ما فيه من بعض الأخطاء إلىٰ المرحوم العلّامة الطباطبائي رحمه الله.

نشرت هذه الحقيقة وإن جاوزت المئة أخيراً، ولكن أُصول طوائف التصوّف لا تزيد علىٰ خمس وعشرين سلسلة، وهذه السلاسل تنتهي جميعاً بعلي بن أبي طالب عليه السلام، وفرقتان أو ثلاث فرق منهم شيعة وباقي الفرق جميعاً سنّة، وبعضهم تنتهي سلسلته إلىٰ معروف الكرخي، ومنه إلىٰ الإمام الرضا عليه السلام، ولكن طريقتنا وهي نفس طريقة المرحوم الآخوند لا تنتهي إلىٰ شيء من هذه السلاسل.

وإجمال المطلب: أنّه قبل حوالي أكثر من مئة سنة كان في تُستر عالِم جليل القدر، وكان مصدراً للقضاء ومراجعات عامّة الناس، وكان يسمّىٰ بالسيد عليّ التُستري، وكان كسائر العلماء متصدّياً للأُمور العامة والتدريس والقضاء والمرجعية، وإذا بيوم من الأيّام دقّ أحد باب بيته، فقال له: من أنت؟ فيقول: افتح الباب، فإنّ شخصاً مّا يطلبك في شغل له معك، فحينما فتح السيّد عليّ الباب رأىٰ رجلاً حائكاً علىٰ الباب، وقال له: ماذا تريد؟ فقال له: ما أصدرته من الحكم وفق شهادة الشهود بأنّ فلاناً مالِكٌ للشيء الفلاني غير صحيح، وإنّما ذاك ملك طفل صغير يتيم، وسنده مدفون في المحلّ الفلاني، وهذا الطريق الذي أنت تسلكه غير صحيح، وطريقك سبيلٌ آخر غير هذا.

فقال آية الله التُستري: أفأخطأت أنا؟ فقال له الحائك: الحقيقة ما بيّنته لك. ثمّ ينصرف الحائك ويبقى آية الله التُستري حائراً في فكره من هو هذا الرجل؟! وماذا قال؟! ثُمّ يحقّق عن مسألة سند الملك، فيحصل عليه مدفوناً في نفس المكان الذي أشار إليه ذاك الرجل، فيغور في الخوف والخشية، ويقول: أخشىٰ أن يكون كثير ممّا أصدرته من الأحكام من هذا القبيل[١]. وفي الليلة الآتية يأتيه في نفس

---

(١) كأنّ ناقل القِصّة يتعقّل فرضيّة أنّ عالماً جليلاً من علماء الشيعة حينما يظهر له الخطأ الواقعي في قضاء له كان تامّاً علىٰ وفق مقاييس البيّنات والأيمان لا يفهم أنّ هذا كان هو شأن ←

الساعة الرجل الحائك ويقول له: أيّها السيّد عليّ التُستري ليس الطريق ما تسلكه. وفي الليلة الثالثة تتكرر نفس الواقعة، ويقول له الحائك: بيعوا البيت، واجمعوا فوراً أثاث البيت، وانتقلوا إلىٰ النجف الأشرف، وبعد ستة أشهر انتظروني في وادي السلام. وعلىٰ هذا الأساس انشغل المرحوم التُستري فوراً بتنفيذ ما قاله له هذا الحائك، وباع البيت وجمع الأثاث، وجهّز للسفر إلىٰ النجف الأشرف، وبمجرد وروده إلىٰ النجف الأشرف رأىٰ في وقت طلوع الشمس الرجل الحائك في وداي السلام وكأنه نبت من الأرض، وحضر أمامه، وأعطاه الأوامر اللازمة واختفى[1]. ودخل المرحوم التُستري النجف الأشرف، وعمل بأوامر الحائك إلىٰ أن وصل إلىٰ المرتبة والمقام الذي لا يوصف ولا يذكر رضوان الله عليه وسلام الله عليه، وأخذ يحضر المرحوم السيّد عليّ التُستري بحث المرحوم الشيخ مرتضى الأنصاري احتراماً له فقهاً وأُصولاً، وكان يحضر الشيخ بالأُسبوع مرّة بحث السيّد في الأخلاق، وبعد أن توفّي الشيخ ﵀ جلس السيّد التُستري ﵀ في مسند تدريس الشيخ، وأخذ يدرّس من النقطة التي انتهى إليها الشيخ، ولكن لم يطل عمره بعد

←

رسول الله ﷺ حينما قال في الخبر الصحيح السند: «إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان، وبعضكم ألحن بحجته من بعض، فأيّما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً فإنّما قطعت له به قطعة من النار».. الوسائل ٢٧ / ٢٣٢، الباب ٢ من كيفيّة الحكم، الحديث ١.

أفهل يفترض أنّ العالم الجليل الشيعي يغور في الخوف خشية أن يكون كثير من أحكامه ـ برغم موافقته للمقاييس التي يجب اتّباعها ـ علىٰ خلاف الواقع، وهو يعلم أنّ هذا ما حذّر به رسول الله ﷺ المترافع الذي يعلم بنفسه أنّه ليس علىٰ الحقّ، ولكنّ رسول الله ﷺ يحكم لصالحه علىٰ وفق المقاييس الظاهريّة، أم كان هذا العالم الجليل يريد القضاء علىٰ وفق الواقع بينما لم يكن ذلك لرسول الله رسول الإسلام ﷺ.

(١) كأنّ ناقل القِصّة يفترض أنّ عالماً جليلاً شيعيّاً ينفّذ أوامر شخص مجهول، بل شخص لم يعرف أنّه إنس أو جنّ، أو ملك أو شيطان.

ذلك أكثر من ستّة أشهر، وارتحل بعد ذلك إلىٰ رحمة الله الأبديّة. وفي خلال هذه الأشهر الستّة كتب المرحوم التُستري رسالة إلىٰ أحد مبرّزي طلّاب المرحوم الشيخ الأنصاري، وهو: الآخوند المولى حسين قلي الدرجزيني الهمداني، وقد كانت منذ سنين عديدة في زمان حياة المرحوم الشيخ الأنصاري رابطة الأُلفة قائمة بين الآخوند والسيّد التُستري، وكان الآخوند يستفيد الأخلاق والعرفان من السيّد التُستري، وكان الآخوند بعد وفاة الشيخ الأنصاري مصمّماً علىٰ التدريس، وكان بانياً علىٰ تكميل بحث الشيخ الذي كان قد كتبه هو ـ أيضاً ـ بعنوان التقريرات، وإذا برسالة السيّد التُستري تصل إلىٰ الآخوند الهمداني ويقول له فيها:

هذا الطريق غير صحيح لك، ولابدّ لك أن تدرك مقامات عالية أُخرى... إلىٰ أن يؤثّر السيّد في الآخوند، ويقلبه إلىٰ وادي الحقّ والحقيقة، وأخيراً أصبح الآخوند في المعارف الإلهيّة فوق الأقران، وكان من عجائب الدهر وهو ـ أيضاً ـ ربّىٰ تلاميذ علىٰ هذا الخط أصبح كلّ واحد منهم أُسطوانة للمعرفة والتوحيد وآية عظيمة. ومن أبرزهم: المرحوم الحاج ميرزا جواد آقا الملكي التبريزي، والمرحوم السيّد أحمد الكربلائي الطهراني، والمرحوم السيّد محمّد سعيد الحبوبي، والمرحوم الحاج الشيخ محمّد البهاري.

وكان الأُستاذ الكبير والعارف بلا بديل المرحوم الحاج عليّ آقا القاضي التبريزي رضوان الله عليه من تلاميذ مدرسة السيّد أحمد الكربلائي. هذه هي سلسلة اساتيذنا المنتهية إلىٰ المرحوم التُستري ومن ثمّ إلىٰ ذاك الشخص الحائك، ولم يُعلم من هو هذا الرجل الحائك، وبمن كان مرتبطاً، ومن أين أتى بهذه المعارف، وبأيّ وسيلة حصل عليها؟» انتهى.

أقول: إنّني لا أُريد أن أتّهم الأفاضل الأعلام الموجودة أسماءهم في القِصّة التي قصّها صاحب كتاب لبّ اللباب إلىٰ ارتباطهم برجل حائك لم يعرف هل هو إنس

أو مَلَك أو جنّ، ولا أعرف مدىٰ صدق القِصّة، وإنّما أُريد مناقشة أصل الكلام الوارد في هذا الكتاب.

فأقول: لا شكّ أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو سيّد العارفين وكهفهم وملاذهم وإمامهم وإمام المؤمنين، وأقصد بذلك العرفان بالمعنى الوارد في قوله عليه السلام في دعاء كميل: «يا غاية آمال العارفين» لا بالمعنى الذي ناقشناه حتّىٰ الآن، وأتساءل أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام لو كان على رأس نحوٍ من خمس وعشرين سلسلة للصوفيّة علىٰ ما ورد في لبّ اللباب فلماذا انتخب عليه السلام أكثرهم من السُنّة حسب ما مضٰى من قوله في لبّ اللباب: (أن فرقتين أو ثلاثاً منهم شيعة والباقي سنّة) وهلّا علّم عليه السلام هذا الطريق ميثم التمار وصعصعة بن صوحان العبدي ورشيد الهجري[(١)] وكميل بن زياد وأصبغ بن نباتة والحجر بن عديّ الكندي[(٢)] وأمثالهم من أعاظم أصحابه رحمهم الله.

إنّ الحقيقة ليست هكذا، بل الحقيقة: أنّ التصوّف دكّان فتحه أعداء عليّ وأعداء الأئمّة عليهم السلام في مقابل أئمّتنا المعصومين؛ ذلك أنّ الشيطان لا يستطيع أن يُغري ـ ابتداءً ـ كلَّ أحد عن طريق الخمور أو النساء أو الملاهي أو ما إلىٰ ذلك، فلربّ إنسان لا يأنس إلّا بالمسجد، فطريق حرفه عن الحقّ هو بناء مسجد ضِرار، ولربّ إنسان لا يستذوق إلّا العرفان، فطريق حرفه عن جادّة الحقّ هو اختلاق العرفان الكاذب. ومن نقاط القوّة في أئمّتنا عليهم السلام الجاذبة للنفوس الطيّبة كان هو العرفان الإلهيّ الشامخ المضيء الذي يشعّ شيءٌ يسير منه فيما وصلنا من اليسير من

---

(١) روى الكشي: أنّه كان أُلقي إليه علم المنايا والبلايا. راجع معجم رجال الحديث ١٩٢/٧.

(٢) روى الشيخ الطوسي رحمه الله : أنّه كان من الأبدال، راجع معجم رجال الحديث للسيّد الخوئي رحمه الله: ٤ / ٢٣٧.

أدعيتهم وكلماتهم المضيئة والتي أشرنا إلىٰ نزر منها في النقطة الرابعة، فكان لا بدّ للشيطان أن يفتح دكّاناً في مقابل الأئمّة عليهم السلام باسم التصوّف، وكان خير مناخ لتأسيس هذا الدكّان هو مناخ غير الشيعة؛ لأنّ الشيعة غالباً كانوا مكتفين بالأضواء الحقيقيّة التي تشع من أئمّتهم عليهم السلام، ولهذا لا ترىٰ أثراً من هذا الدكّان لدىٰ الشيعة في أوائل الأمر، وإنّما انحدر هذا الطريق إليهم واستهوىٰ بعضهم بعد ما تمّ تأسيسه وتشييد بناءه لدىٰ غيرهم.

وبودّي أن أُشير إلىٰ أنّ ما فرضه صاحب كتاب لبّ اللباب من انتهاء بعض سلسلة الصوفيّة إلىٰ معروف الكرخي صاحب الإمام الرضا عليه السلام لم نرَ عليه شاهداً في ترجمته إلّا ادّعاء الصوفيّة أنفسهم لذلك من دون ذكر سند ودليل.

فقد ادّعوا أنّ بعض سلاسلهم تنتهي إلىٰ معروف الكرخي، ومنه إلىٰ الإمام الرضا عليه السلام، ومنه إلىٰ آبائه عليهم السلام إلىٰ عليّ عليه السلام، ويسمّون هذه السلسلة بالسلسلة الذهبيّة، ونحن لا نعلم هل حقّاً كان معروف الكرخي من الصوفيّة أو لا؟

نعم، رُوِيَ عنه: أنّه قال للإمام الصادق عليه السلام: «أوصني يابن رسول الله، فقال: أقلل معارفك، قال: زدني قال: انكر من عرفت منهم»[1].

وهذا الحديث يناسب ذوق المتصوّفة، إلّا أنّ ذلك لا ينسجم مع ما ورد في ترجمته: من أنّه أسلم في صباه علىٰ يد الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام.

فقد روى السيّد الخوئي رضوان الله تعالىٰ عليه[2] عن ابن شهرآشوب في المناقب الجزء الرابع باب إمامة أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: ذكر ابن الشهرزوري في مناقب الأبرار: أنّ معروف الكرخي كان من موالي عليّ ابن موسىٰ الرضا عليه السلام، وكان أبواه نصرانيين، فسلّما معروفاً إلىٰ المعلّم وهو صبيّ، وكان

---

(١) مجمع البحرين في ذيل مادة (عرف).

(٢) في معجم الرجال ١٨/ ٢٣١. راجع ـ أيضاً ـ تنقيح المقال ٣/ ٢٢٨.

المعلم يقول له: قل ثالث ثلاثة، وهو يقول: بل هو الواحد، فضربه المعلم ضرباً مبرحاً، فهرب ومضى إلىٰ الرضا عليه السلام، وأسلم علىٰ يده، ثُمّ إنّه أتى داره فدقّ الباب، فقال أبوه: مَنْ بالباب؟ فقال: معروف، فقال: علىٰ أيّ دين؟ قال: علىٰ ديني الحنيفي، فأسلم أبوه[1] ببركات الرضا عليه السلام. قال معروف: فعشت زماناً. ثمّ تركت كلما كنت فيه إلّا خدمة مولاي عليّ بن موسى الرضا عليه السلام. وعن ابن خلكان وغيره نظير ذلك.

وعلىٰ أيّة حال، فتصوّف معروف الكرخي غير ثابت لدينا، كما أنّ كونه من خدّام الإمام الرضا عليه السلام ليس قطعيّاً عندنا، فإنّ خلوّ كتبنا الرجاليّة طرّاً عن ذكره وعلىٰ الخصوص خلوّ كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام عن نقل رواية عنه عليه السلام بواسطته ممّا يريب الفطن في اختصاصه بالرضا عليه السلام.

وقبره في عصرنا الحاضر في بغداد لا يزوره عادة إلّا السُنّة، وهم يمجّدون به. وتفترض الصوفيّة أنّه كان من أكابرهم، ويقول الشيخ المامقاني رحمه الله: لم يُنقَل عنه ما يقضي بالتصوّف، وإنّما نسب المتصوّفون إليه التصوّف رواجاً لطريقتهم الفاسدة، وهذه عادة أهل المذاهب الفاسدة ينسبون إلىٰ مؤمن تقيّ مذهبهم كذباً وبهتاناً؛ لترويج مذهبهم الفاسد، أليس ينسبون التصوّف إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام البريء منهم ومن مسلكهم؟!![2].

ثُمّ إنّنا لا نستبعد أن يكون انتماء كثير من السُنّة إلىٰ سلك التصوّف نتيجةً لتعطّشهم إلىٰ الجانب الروحي، وعدم إمتلاكهم المعين الصافي للقضايا الروحيّة الذي كانت الشيعة تمتلكه، وهو: معين أئمّتهم سلام الله عليهم؛ ولذا ربّما لا ترىٰ

---

(١) هكذا ورد فيما عندي من نسخة معجم رجال الحديث، ولكن ورد في تنقيح المقال: أسلم أبواه.

(٢) تنقيح المقال ٣/٢٢٩.

بلحاظ عصر حضور الأئمّة عليهم السلام؛ أيّ رواج لسلك التصوّف لدىٰ الشيعة، وإنّما بدأ ذلك ببداية عصر الغيبة. وأظنّ أنّ أوّل شيعي أو متشيّع أظهر هذا الأمر وبدأ يدعو الناس إليه هو: حسين بن منصور الحلّاج. ويعدّه المتصوّفون من أنفسهم، وكان إضافة إلىٰ هذه الحالة يدّعي البابيّة للإمام صاحب الزمان ـ عجّل الله فرجه ـ علىٰ ما رواه الشيخ الطوسي رحمه الله في كتاب الغيبة بسنده إلىٰ الحسين بن عليّ بن الحسين أخي الشيخ الصدوق رحمه الله: من أنّ حسين بن منصور الحلّاج كتب رسالة إلىٰ قرابة أبي الحسن ـ والد الصدوق ـ يستدعيه ويستدعي أبا الحسن أيضاً، ويقول: أنا رسول الإمام ووكيله، قال: فلمّا وقعت المكاتبة في يد أبي رحمه الله خرقها، وقال لموصلها إليه: ما أفرغك للجهالات!...[(١)].

ولعلّ أوّل من سُمّي باسم التصوّف أو من أوائلهم الحسن البصري المتولّد سنة (٢٢)، والمتوفّىٰ سنة (١١٠) هجريّة.

وقال الشيخ المطهّري رحمه الله: إنّ الحسن البصري لم يكن يُسمّىٰ في عصره صوفيّاً، وإنّما سُمّيَ بعد ذلك بهذا الاسم؛ أوّلاً: بسبب كتاب ألّفه باسم (رعاية حقوق الله) والذي يمكن أن يُفترَض أوّل كتاب للتصوّف؛ وثانياً: بسبب أنّ العرفاء ينهون بعض سلاسل طريقتهم إليه، ومنه إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام، من قبيل سلسلة مشايخ أبي سعيد أبي الخير...[(٢)].

أقول: وبهذه المناسبة أذكر بعض ما ورد في رواياتنا عن أهل البيت عليهم السلام بشأن الحسن البصري:

---

(١) راجع البحار: ٥١/ ٣٧٠.

(٢) خدمات متقابل اسلام وايران: ٦٤٤ ـ ٦٤٥ بحسب طبعة انتشارات صدرا التي هي الطبعة الثامنة.

١ ـ ورد في الوسائل[(١)] عن عبدالله بن سليمان قال: «سمعت أبا جعفرعليه السلام وعنده رجل من أهل البصرة، وهو يقول: إنّ الحسن البصري يزعم أنّ الذين يكتمون العلم تُؤذي ريح بطونهم أهل النار، فقال أبو جعفرعليه السلام: فهلك إذن مؤمن آل فرعون، مازال العلم مكتوماً منذ بعث الله نوحاً، فليذهب الحسن يميناً وشمالاً فوالله ما يوجد العلم إلّا هاهنا».

٢ ـ رُوِيَ أنّ عليّ بن الحسينعليه السلام رأىٰ يوماً الحسن البصري وهو يقصّ عند الحجر الأسود، فقال لهعليه السلام: «أترضى يا حسن نفسك للموت؟ قال: لا، قال: فعملك للحساب؟ قال: لا، قال: فثمّ دار للعمل غير هذه الدار؟ قال: لا، قال: فللّه في أرضه معاذٌ غير هذا البيت؟ قال: لا، قال: فلِمَ تشغل الناس عن الطواف»[(٢)].

٣ ـ وقيل لعليّ بن الحسينعليه السلام يوماً: «إنّ الحسن البصري قال: ليس العجب ممّن هلك كيف هلك؟ وإنّما العجب ممّن نجا كيف نجا.

فقالعليه السلام : أنا أقول: ليس العجب ممّن نجا كيف نجا، وأمّا العجب ممّن هلك كيف هلك مع سِعة رحمة الله»[(٣)].

وقد يقال: إنّ أوّل من سُمّي باسم الصوفي أو بذر مسلك التصوّف بين المسلمين هو: أبو هاشم الكوفي[(٤)].

وقد رُوِيَ عن الإمام العسكريعليه السلام عن الصادقعليه السلام: بشأن أبي هاشم الكوفي: إنّه كان فاسد العقيدة جدّاً، وهو الذي ابتدع مذهباً يقال له: التصوّف[(٥)].

وممّن اشتهر بكونه من الصوفيّة: سفيان الثوري. وقيل: إنّه تلميذ لأبي هاشم

---

(١) الوسائل ٢٧/١٨ ـ ١٩، الباب ٣ من صفات القاضي، الحديث ٦.

(٢) البحار ٧٨ / ١٥٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع خدمات متقابل اسلام وايران: ٦٤٣، وجلوه حقّ لآية الله مكارم: ١٩.

(٥) سفينة البحار ١٩٨/٥.

الصوفي[١].

وكذلك ممّن اشتهر بذلك امرأة اسمها رابعة العدويّة، ويبالغون فيها وفي قداستها وعظمتها وكشفها وشهودها وما إلىٰ ذلك: وقيل إنّ سفيان الثوري كان يطرح عليها مسائله، وكان يتعظ بمواعظها.

وقيل ـ أيضاً ـ: إنّه حينما توفّي عنها زوجها أراد الحسن البصري أن يتزوج بها، فطرحت رابعة اسئلة علىٰ حسن البصري، وعجز الحسن عن الجواب، فحينما رأت رابعة خلوَّ الحسن البصري عن تلك المعارف امتنعت من قبول طلبه، وأرسلت إليه الأبيات التالية:

راحتي يا إخوتي في خلوتي   وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجده عن هواه عوضاً   وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنتُ أُشاهدْ حسنه   فهو محرابي إليه قبلتي
إنْ أمتْ وجداً وما ثمّ رضا   واعَنائي في الورىٰ واشقوتي
يا طبيبَ القلبِ يا كلَّ المنىٰ   جدْ بوصلٍ منكَ يشفي مُهْجتي
يا سُروري وحياتي دائماً   نشأتي منكَ وأيضاً نشوتي
قد هجرت الخلقَ جَمْعاً أرتجي   منكَ وصْلاً فهو أقصىٰ مُنيتي

وقيل ـ أيضاً ـ: إنّه قال لها ذات يوم سفيان الثوري: صفي لي درجة إيمانك واعتقادك بالله جلَّ وعلا، فقالت رابعة: إنّي لا أعبد الله شوقاً إلىٰ الجنّة، ولا خوفاً من جهنم، وإنّما أعبده لكمال شوقي إليه، ولأداء شرائط العبوديّة. وبعد ذلك أنشأت هذه المناجاة:

أُحبّك حبّين حبَّ الهوىٰ   وحبّاً لأنّك أهلٌ لذاك
فأمّا الذي هو حبُّ الهوىٰ   فشغلي بذكراك عمّن سواك

---

(١) راجع خدمات متقابل اسلام وايران: ٦٤٦.

وأمّـــا الذي أنت أهـــلٌ له فـحبٌّ شُـغِلتُ بـه عـن سـواك
فـلا الحـمد فـي ذا ولا ذاك لي ولكـن لك الحـمد فـي ذا وذاك[١]

ولنعم ما قال الشيخ ذبيح الله المحلّاتي في كتاب (رياحين الشريعة)[٢] تعليقاً علىٰ هذه المطالب المنقولة عن رابعة العدويّة، وهو: أنّ هذه الامرأة عاصرت ثلاثة أئمّة: الإمام زين العابدين عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام، ولا يـوجد ـ برغم هذا ـ في كلماتها اسم ولا رسم عن أهل البيت عليهم السلام الذين هم أحد الثقلين. والوليّ الحقيقي لله سبحانه هو الذي يتراود مع آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله لا مع سفيان الثوري وحسن البصري.

وهذا الاستغراب من قبل الشيخ المحلّاتي واكتشافه لعدم واقعيّة وضع رابـعة العدويّة صحيح. فلئن كانت رابعة العدويّة سيّدة زمانها في تزكية النفس وتـصفية الباطن أفلم تكن سـامعةً بـوضع الإمـام زيـن العـابدين عليه السلام وكـذلك الإمـامين الآخَرين؟! فهب أنّها لم تكن تؤمن بإمامتهم ولكن ألم تكن سامعة بصفاء باطنهم وعرفانهم الإلهي المشتهر بين الناس حتّىٰ ملأ الخافقين، فهلّا اهتمّت بـالتشرّف بخدمة أحدهم والاستضاءة بروحانيّته في أقلّ تقدير؟!

ومن الذين ترى الصوفيّة أنّه من أركانهم عبدالقادر الجيلاني. وسلسلة القادريّة تُنهي نفسها إليه. وقد نقلت عنه دعاوىٰ كبيرة في مراتب العرفان والكشوف. وقد مات في سنة (٥٦٠) أو سنة (٥٦١)[٣].

وعلىٰ أيّة حال، فلا شكّ لدىٰ الشيعة في أنّ عبدالقادر الجـيلاني أحـد أئـمّة الضلال وأركانهم. وكان منصوباً في مقابل أئمّتنا المعصومين عليهم السلام.

---

(١) رياحين الشريعة ٤/٢٥٠ ـ ٢٥٢.
(٢) المصدر السابق ٤/٢٥٢.
(٣) خدمات متقابل اسلام وايران: ٦٥٤ بحسب الطبعة المذكورة آنفاً.

ويعجبني أن أذكر هنا عن عبد القادر الجيلاني قِصَّتين مع شيء ممّا علّق عليهما الشيخ العلّامة الأميني[1]:

الأولىٰ: ما ورد في مرآة الجنان[2] كالتالي:

روى الشيخ الإمام الفقيه العالم المقري أبو الحسن عليّ بن يوسف بن جرير بن معاضد الشافعي اللخمي في مناقب الشيخ عبدالقادر بسنده من خمس طرق، وعن جماعة من الشيوخ الجلّة أعلام الهدىٰ العارفين المقتنين للاقتداء، قالوا: جاءت امرأة بولدها إلىٰ الشيخ عبدالقادر، فقالت له: يا سيّدي إنّي رأيت قلب ابني هـذا شديد التعلّق بك، وقد خرجتُ عن حقّي فيه لله عزّ وجلّ ولك، فقبله الشيخ، وأمره بالمجاهدة وسلوك الطريق. فدخلت أُمّه عليه يوماً فوجدته نحيلاً مصفرّاً من آثار الجوع والسهر، ووجدته يأكل قُرْصاً من الشعير، فدخلت إلىٰ الشيخ فوجدت بين يديه إناءً فيه عِظام دجاجة مسلوقة قد أكلها، فقالت: يا سيّدي، تأكل لحم الدجاج، ويأكل ابني خبز الشعير؟! فوضع يده علىٰ تلك العِظام، وقال: قومي بإذن الله تعالىٰ الذي يحيي العِظام وهي رميم، فقامت الدجاجة سويّة وصاحت، فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا فليأكل ما شاء.

قال الشيخ العلامة الأميني فيما قال تعليقاً علىٰ هذه القِصّة: هل لأكل خبز الشعير وما جَشِبَ من الطعام بمحضه أن يوصل السالك إلىٰ مرتبة يحيي الموتى، وإن كان المولى ـ سبحانه ـ يعلم أنّه متى بلغ هذه المرتبة ألهـاه أكـل الدجـاجة المسلوقة أكلاً لمّا؟! وهل الرياضة شرط في حدوث القوّة في النفس والملكات الفاضلة، وليست شرطاً في بقائها...؟!

---

(١) راجع الغدير ١١ / ١٧٠ ـ ١٧٢.

(٢) مرآة الجنان ٣ / ٣٥٦ بحسب تخريجة الغدير ١١ / ١٧٠.

الثانية : ذكر الشعراني في الطبقات الكبرى[١] قال: كان الشيخ عبدالقادر الجيلاني يقول: أقمت في صحراء العراق وخرائبه خمساً وعشرين سنة مجرّداً سائحاً لا أعرف الخَلْق ولا يعرفوني، يأتيني طوائف من رجال الغيب والجانّ أُعلّمهم الطريق إلىٰ الله عزّ وجلّ، ورافقني الخضر في أوّل دخولي العراق، وما كنت عرفته، وشرط أن لا أُخالفه، وقال لي: اقعد هنا، فجلست في الموضع الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كلّ سنّة مرّة، ويقول لي: مكانك حتّىٰ آتيك، قال: ومكثت سنة في خرائب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات، فآكل المنبوذ ولا أشرب الماء، ومكثت فيها سنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ، وسنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام، ونمت مرّة بإيوان كِسرىٰ في ليلة باردة، فاحتلمت، فقمت وذهبت إلىٰ الشطّ، واغتسلت، ثُمّ نمت فاحتلمت، فذهبت إلىٰ الشط، واغتسلت، فوقع لي ذلك في تلك الليلة أربعين مرّة وأنا أغتسل، ثُمّ صعدت إلىٰ الإيوان خوف النوم.

قال الشيخ الأميني تعليقاً علىٰ هذه القِصّة: اقرأه بإمعان وتبصّر في شأن هذا العارف معلّم طوائف من رجال الغيب والجانّ الذي اتّخذوه الطريق إلىٰ الله، وكان رفيق الخضر، وأعجب من إنسان لم يأكل سنة، ولم يشرب أُخرى، ويتركهما ثالثة، ولم تخرّ قواه حتّىٰ يحتلم في ليلة شاتية أربعين مرّة، ويعبث به الشيطان بهذا العدد الجمّ وهو فانٍ في الله، ولو كان اتّفق له ذلك خلال تلكم الأيّام التي كان يأكل فيها الدجاجة المسلوقة، ويحيي عِظامها كما مرّ لكان يُعدّ بعيداً عن الطبيعة البشريّة، وما أطول تلك الليلة حتّىٰ وسعت أربعين نومة ذات احتلام وأغسالاً بعدها علىٰ عدد الأحلام المتخلّلة بالذهاب إلى الشط والإياب إلىٰ مقرّه ومنامه، وبعد ذلك كلّه تبقى منها برهة يصعد الشيخ إلىٰ الإيوان خوفاً من النوم، ولعلّه لو نام بعد نومته المتمّمة للأربعين لبلغ العدد الأربع مئة أو أكثر، ولم يكن الشيطان يفارق

---

(١) الطبقات الكبرى ١ / ١١٠ بحسب تخريجة كتاب الغدير ١١ / ١٧١.

ذلك الهيكل القدسي واللعب به مهما امتدّت ليلته، وليس إحياؤه عظام الدجاجة بأعظم من هذه الكرامة، وإن هي إلّا أحلام نائم نسجتها أيدي العرونة[١] غلوّاً في الفضائل. انتهى كلام الشيخ الأميني.

وعلىٰ أيّة حال، فنحن لا نهدف هنا إلىٰ ذكر أعمدتهم وأركانهم، وإنّما كان هدفنا الإشارة إلىٰ أنّ مدرسةً فُتِحت في أحضان أبناء العامّة، ثمّ سرت في وقت متأخّر ـ وفي أغلب الظنّ بعد غيبة الإمام ـ إلىٰ الشيعة يكون أمرها مُريباً لنا؛ لأنّه لا يتحقّق هذا الوضع إلّا لسببين: فتح مدرسة في مقابل مدرسة الأئـمّة، وإرواء العطش الروحي لدىٰ السُنّة الذي لم يكن يُحَسّ بـه لدىٰ الشـيعة؛ وذلك لارتوائهم من معين الأئمّة المعصومين.

وهذا شبيه تماماً بما وقع في علم الأُصول من حُجيّة القـياس والاسـتحسان والمصالح المرسلة لدىٰ السُنّة دون الشيعة فهي عبارة عـن مـدرسة الرأي ـ فـي مقابل مدرسة الأئمّة التي هي مدرسة النص ـ التجأ إليها السُنّة لفـقرهم فـي مدارك تحصيل الأحكام، بينما لم تكن الشيعة تحسّ بهذا الفـقر؛ وذلك لامـتداد عصر النصّ عندهم بامتداد الأئمّة.

وأُؤكّد ـ هنا أيضاً ـ أنّني لا أثِق بأنّ كلّ من طرحته الصوفيّة بعنوان أنّه منهم أو من اركانهم فهو كذلك.

وختاماً أُشير إلىٰ أنّ هناك نمطاً آخر ممّن تـفترضهم الصـوفيّة مـن أركـانهم ودعائمهم يختلف عن نمط الأسماء التي مضى ذكرها، وهو عبارة عن أُناس سجّل لهم التأريخ نوعاً من الورع والتقوى، ونوعَ تعاطفٍ مع أئمّتنا ممّا يشهد علىٰ أنّهم لم يكونوا أعداءً للأئمّة برغم عدم اعترافهم بإمامتهم، ولا ندري هل كانوا حقّاً منتمين إلىٰ مدرسة التصوّف ولو إرواءً لعطشهم الروحي، بعد عدم اعترافـهم

---

(١) لعلّ الصحيح: الرعونة.

بإمامة الأئمّة، أو إنّ الصوفيّة لمّا رأوا أنّ التأريخ سجّل لهم الورع والتقوى اشتهوا أن ينتحلوهم؛ لكي يقووا بهم، أو لكي ينهوا سلاسلهم إلى أُناس متقين. وأذكر هنا علىٰ سبيل المثال ثلاثة أسماء:

الأوّل: شقيق البلخي الذي يقال عنه: إنّه كان صوفيّاً، وكان تلميذاً لإبراهيم الأدهم[١]. وقد سجّل له التأريخ[٢] أنّه كان في بداية أمره صاحب ثروة ومكنة كبيرة، وكان يُكثر الأسفار للتجارة، فسافر في بعض السنين إلىٰ بلاد الترك إلىٰ بلد كان أهله وثنيين، فقال لأحد أكابرهم: إنّ عبادتكم لهذه الأصنام باطلة، فهي ليست بآلهة، وللمخلوق خالق سميع عليم لا يشبهه شيء، وهو الرازق لكلّ حيّ، فقال له ذاك الوثني:

إنّ قولك يخالف فعلك، قال شقيق: وكيف ذلك؟ فقال له الوثني: أنت ترى أنّ لك خالقاً يرزق المخلوقين وبرغم هذا الاعتقاد تتحمل عناء ومشقة السفر إلىٰ هذه البلاد لطلب الرزق. فتنبّه شقيق علىٰ أثر هذه الكلمة، ورجع إلىٰ بلده، وتصدّق بكلّ ما يملك، ولازم العلماء والزهّاد إلىٰ آخر حياته.

وهو وإن لم يذكر بشأنه الاهتداء إلىٰ خطّ الإمامة الثابت لدىٰ الشيعة، ولكن رُويت عنه قِصَّة طريفة مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وهي القِصّة المرويّة في كتاب كشف الغُمّة لعليّ بن عيسى الإرْبِليّ: من أنّ شقيقاً قال: «خرجت حاجّاً في سنة تسع وأربعين ومئة، فنزلت القادسيّة، فبينا أنا أنظر إلىٰ الناس في زينتهم وكثرتهم فنظرت إلىٰ فتىً حسن الوجه، شديد السُمرة، ضعيف، فوق ثيابه ثوب من صوف مشتمل بشملة، في رجليه نعلان، وقد جلس منفرداً، فقلت في نفسي: هذا الفتى من الصوفيّة يريد أن يكون كَلّاً علىٰ الناس في طريقهم، والله لأمضين إليه،

---

(١) خدمات متقابل اسلام وايران: ص ٦٤٦.

(٢) راجع منتهى الآمال: ٢/٢٠٧.

ولأُوبّخنّه، فدنوت منه فلمّا رآني مقبلاً قال:

يا شقيق، اجتنبوا كثيراً من الظنّ؛ إنّ بعض الظنّ إثم، ثمّ تركني ومضى. فقلت في نفسي: إنّ هذا الأمر عظيم، قد تكلّم بما في نفسي، ونطق باسمي، وما هذا إلّا عبد صالح لألحقنّه ولأسألنّه أن يحلّلني، فأسرعت في أَثَره، فلم ألحقه، وغاب عن عيني. فلمّا نزلنا واقصة وإذا به يصلّي، واعضاؤه تضطرب، ودموعه تجري، قلت: هذا صاحبي أمضي إليه واستحلّه، فصبرت حتّىٰ جلس، وأقبلت نحوه، فلمّا رآني مقبلاً قال: يا شقيق، اتل **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾**[١] ثمّ تركني ومضىٰ. فقلت: إنّ هذا الفتى لمن الأبدال، لقد تكلّم علىٰ سرّي مرتين، فلمّا نزلنا زُبالة إذا بالفتى قائم علىٰ البئر، وبيده رَكوة يريد أن يستقي ماءً، فسقطت الرَّكوة من يده في البئر وأنا أنظر إليه، فرأيته قد رمق السماء، وسمعته يقول:

أنْتَ ربّيْ إذا ظمئتُ إلىٰ الماءِ وقوتيْ إذا أردتُ الطعاما

اللهمّ سيّدي مالي غيرها فلا تعدمنيها.

قال شقيق: فو الله لقد رأيت البئر وقد ارتفع ماؤها، فمدّ يده، وأخذ الرَّكوة وملأها ماءً، فتوضّأ وصلّى أربع ركعات، ثمّ مال إلىٰ كثيب رمل فجعل يقبض بيده ويطرحه في الرَّكوة، ويحرّكه ويشرب، فأقبلت إليه، وسلّمت عليه، فردّ عليّ، فقلت: أطعمني من فضل ما أنعم الله عليك؟

فقال: يا شقيق، لم تزل نعمة الله علينا ظاهرة وباطنة، فأحسن ظنّك بربّك، ثُمّ ناولني الرَّكوة، فشربت منها فإذا هو سويق وسكّر، فوالله ما شَرِبت قطّ ألذّ منه، وأطيب ريحاً، فشَبِعت ورَوِيت، وأقمت أيّاماً لا أشتهي طعاماً ولا شراباً، ثُمّ لم أره حتّىٰ دخلنا مكّة، فرأيته ليلةً إلىٰ جنب قبّة الشراب في نصف الليل قائماً يصلي بخشوع وأنين وبكاء، فلم يزل كذلك حتّىٰ ذهب الليل، فلمّا رأى الفجر جلس في

---

(١) السورة ٢٠، طه، الآية: ٨٢.

مصلّاه يسبّح، ثمّ قام فصلى الغداة، وطاف بالبيت أُسبوعاً، وخرج، فتبعته وإذا له غاشيةٌ وأموال، وهو علىٰ خلاف ما رأيته في الطريق، ودار به الناس من حوله يسلّمون عليه، فقلت لبعض من رأيته يقرب منه: من هذا الفتى؟ فقال هذا موسىٰ بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام فقلت: قد عجبت أن يكون هذه العجائب إلّا لمثل هذا السيّد».

وقد قيل بهذا الصدد:

سلْ شقيقَ البلخي عنه وماعا — ينَ منه وما الذي كان أبصر
قالَ لمّا حججتُ عاينتُ شخصاً — شاحبَ اللونِ ناحلَ الجسمِ أسمر
سائراً وحدَه وليس له زا — دٌ فما زلتُ دائماً أتفكر
وتوهمّت أنّه يسأل الناسَ — ولم أدرِ أنّه الحج الأكبر
ثمّ عاينته ونحن نزولٌ — دونَ قيدٍ علىٰ الكثيب الأحمر
يضع الرملَ في الإناء ويشرَ — بـه فناديته وعقلي محيّر
أسقني شربة فناولني منه — فعاينته سويقاً وسكّر
فسألت الحجيج مَنْ يكُ هذا — قيل هذا الإمام موسى بن جعفر[1]

ولنعم ما قيل باللغة الفارسيّة:

به راه كعبه شخصى را بديدم — نزار و زرد رنگ و ناتوان بود
به تنهائى بدون توشه مى رفت — كه از تنهائيش دل بدگمان بود
گمانم آمد از اهل سؤال است — ندانستم كه جان كعبه آن بود
چو بنشستيم در نزديک چاهى — در آنجا تلّ سرخى هم عيان بود
به من از آب وخاكش شربتى داد — كه شهد سكّرم در كام جان بود
چو پرسيدم ز حالش قائلى گفت — امام هفتمين شيعيان بود

---

(١) البحار ٤٨/٨٠ ـ ٨٢، وراجع أيضاً منتهى الآمال: ٢/٢٠٥ ـ ٢٠٦.

ومن الروايات الطريفة ما ورد في روضات الجنّات[١] من أنّ شقيق البلخي سأله[٢] جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يوماً عن الفتوّة؟ فقال: «ما تقول أنت؟ فقال شقيق: إن أُعطينا شكرنا، وإن مُنِعنا صبرنا. فقال الصادق عليه السلام: الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل! فقال شقيق: يابن رسول الله ما الفتوّة عندكم؟ فقال: إن أُعطينا آثرنا، وإن مُنِعنا شكرنا».

والثاني: الفضيل بن عياض، وقد مضىٰ فيما سبق في حديثنا عن النقطة الثانية ذكر قِصّة توبته لدىٰ سماعه لقارئ يقرأ: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ...﴾**[٣]. فقال ياربِّ قد آن. وقد ذكر النجاشي رحمه الله عنه أنّه عاميّ ثقة، وأنّ له نسخة يرويها عن الإمام الصادق عليه السلام[٤].

وقد نقل المحدّث القمّي رحمه الله عن المحدّث النوري رحمه الله أنّه ذكر في المستدرك في شرح حال كتاب مصباح الشريعة: لا أستبعد أن يكون المصباح هو النسخة التي رواها الفضيل، وهو علىٰ مذاقه ومسلكه، والذي أعتقده أنّه جمعه من ملتقطات كلماته عليه السلام في مجالس وعظه ونصيحته، ولو فُرِضَ فيه شيء يخالف مضمونه بعض ما في غيره وتعذّر تأويله، فهو منه علىٰ حسب مذهبه، لا من فريته وكذبه، فإنّه ينافي وثاقته انتهى[٥].

ومن الحكايات التي لها صلة بالفضيل بن عياض ما ورد في عيون أخبار

---

(١) روضات الجنّات ٤/١٠٨.

(٢) هكذا ورد فيما عندي من نسخة روضات الجنّات، وأظنّ أنّ الصحيح: سأل (يعني شقيق) جعفر بن محمّد عليه السلام.

(٣) السورة ٥٧، الحديد، الآية: ١٦.

(٤) راجع معجم رجال الحديث ١٣/٣٣١.

(٥) راجع سفينة البحار ٧/١٠٣.

الرضا[١] في الاحتجاج بين الإمام موسىٰ بن جعفرعليه السلام وهارون الرشيد حيث وضّح الإمام موسىٰ بن جعفرعليه السلام لهارون الرشيد: أنّهمعليهم السلام هم ورثة النبيّصلى الله عليه وآله دون بني العبّاس؛ وذلك أنّه ادَّعىٰ هارون الرشيد أنّ بني العبّاس أولىٰ بالإرث؛ لأنّ أبا طالبعليه السلام كان قد مات في زمن رسول اللهصلى الله عليه وآله والعبّاس بقي حيّاً إلىٰ ما بعد الرسول، فحجب عليّاًعليه السلام عن الإرث؛ لأنّ العمّ يحجب ابن العمّ عن الإرث. فأجابه الإمامعليه السلام بأنّه قال عليّعليه السلام: «إنّه ليس مع ولد الصلب ذكراً كان أو أُنثىٰ لأحد سهم إلّا للأبوين والزوج والزوجة، ولم يثبت للعمّ مع ولد الصلب ميراث، ولم ينطق به الكتاب إذن ففاطمةعليها السلام حجبت العبّاس عن الميراث» إلّا أنّ تيماً وعدياً وبني أُميّة قالوا: العمّ والد رأياً منهم بلا حقيقة، ولا أثَر عن الرسولصلى الله عليه وآله، ومن قال بقول عليّعليه السلام من العلماء فقضاياهم خلاف قضايا هؤلاء، هذا نوح بن دراج يقول في هذه المسألة بقول عليّعليه السلام، وقد حكم به، وقد ولّاه أمير المؤمنين (يعني هارون الرشيد) المصرين الكوفة والبصرة، وقد قضى به... فأمر هارون الرشيد بإحضار نوح بن دراج، وإحضار من يقول بخلاف قوله منهم سفيان الثوري، وإبراهيم المدني، والفضيل بن عياض، فشهدوا أنّه قول عليّعليه السلام في هذه المسألة، فقال لهم: فيما أبلغني بعض العلماء من الحجاز (يعني موسىٰ بن جعفرعليه السلام) فلم لا تفتون به وقد قضىٰ به نوح بن دراج؟! فقالوا جسر نوح وجبنّا.

والثالث: بشر الحافي وقد جعلوه ـ أيضاً ـ من مشاهير العرفاء[٢] وقد ثبّت التأريخ عنه توبته عن معاصيه علىٰ يد الإمام موسى بن جعفرعليه السلام، وإن لم يثبّت له رجوعه إلىٰ التشيّع وإلىٰ إمامة الإمام موسى بن جعفرعليه السلام وقصته ما يلي:

روى العلّامة الحلّيرحمه الله في منهاج الكرامة أنّه مرّ الإمام موسىٰ بن جعفرعليه السلام ذات

---

(١) عيون أخبار الرضا ١/٨٢ـ ٨٣.

(٢) راجع خدمات متقابل اسلام وايران: ٦٤٧.

يوم في طريقه علىٰ باب بشر فسمع من البيت صوت الملاهي والأغاني والرقص، وخرجت من البيت جارية تحمل الوساخات التي تجمع من البيت بالمكنسة، فصبّتها في خارج البيت، فقال لها الإمامعليه‌السلام يا جارية هل صاحب هذا البيت حرّ أو عبد؟ فقالت: بل حرّ، فقالعليه‌السلام: صدقتِ لو كان عبداً لكان يخشىٰ مولاه. فلمّا رجعت الجارية إلىٰ البيت كان سيّدها بشر جالساً علىٰ مائدة الخمر، فسألها عن سبب تأخيرها، فقصّت الجارية له ما جرىٰ بينها وبين الإمام من الحديث لدىٰ الباب، فأثّر ذلك في نفس بشر، وخرج حافياً إلىٰ الإمامعليه‌السلام، وبكىٰ واعتذر وتاب علىٰ يدهعليه‌السلام[1].

وعلىٰ أيّة حال، فلو ثبت أنّ بعض هؤلاء كانوا من الصوفيّة ومع ذلك كانوا يحبّون الإمام المعصومعليه‌السلام أو يستفيدون من معينه بعض الفوائد، فهذا لا يبرّر صحّة طريقهم، فإنّ الإمامعليه‌السلام لا يبخل حتّىٰ بهداية المنحرفين الذين لا يقبلون رفض انحرافهم من الأساس، ولكنّهم يقبلون ببعض الإرشادات الصحيحة.

النتيجة:

والذي نستنتجه من مجموع ما ذكرناه في النقطتين الرابعة والخامسة ما يلي:

إنّنا لا نقبل بما يسمّىٰ بالعرفان ويكون مليئاً بالخُرافات، والذي يرادف التصوّف، أو يُفتَرض مرتبة أعلىٰ من التصوّف، ولكنّنا في نفس الوقت لا نقبل بأنّ أمر الشريعة مقتصر علىٰ القشر الذي يكتفي به جَمْع ممن يُسمّون بالمقدّسين: من صلاة ظاهريّة، وصوم جافّ وما إلىٰ ذلك «وَكم مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إلَّا الجُوعُ والظّمأ، وَكَم مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إلَّا السَّهَرُ والعَنَاءُ، حبَّذا نَوْمُ الأكْيَاسِ

---

(١) راجع منتهىٰ الآمال ٢/١٩٠.

وإفطارُهُمْ»[١].

وطبعاً نحن نسلّم أنّ الصلاة والصيام وسائر العبادات والأعمال لو اشتملت علىٰ الشرائط الفقهيّة صحّت وأجزأت، ولكنّنا نقول: إنّ روح الشريعة وأهدافها المقدّسة لا تقتصر علىٰ هذا القشر، وتلك الروح نسبتها إلىٰ هذا القشر نسبة اللُّحمة إلىٰ السُّدىٰ، أو البطانة إلىٰ الوجه، وكلاهما يشكّلان ثوباً واحداً، وهو: ثوب التقوىٰ. قال الله تعالىٰ: **﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾**[٢] ودليلنا علىٰ وجود لبّ لهذا القشر، أو بطانة لهذا الوجه، أو لُحمة لهذا السُّدىٰ أمران:

الأمر الأوّل: أحوال المعصومين عليهم السلام من بكائهم وتضرّعهم ومناجاتهم وخشيتهم وتوبتهم وما إلىٰ ذلك، فياتُرى هل يُحتَمل بشأن المعصوم أن يتورّط في ترك هذه الصلاة الظاهريّة أو الصوم أو الحج أو في شرب الخمر أو الزنا نعوذ بالله أو الكذب أو النميمة أو ما إلىٰ ذلك من المعاصي؟!

أفهل يعقل أن يكون سفير الله إلىٰ عباده غير عارف بعظمة الله، أو غير مكتشف لحقيقة المعصية، وما تشتمل عليه من رجاسة ونجاسة؟! أم هل يعقل صدور المعصية ممّن وصل إلىٰ عظمة الله، أو عَرف حقيقة المعصية وقبحها ودناءتها؟!

أتَرى أنّ إثبات عصمة المعصومين يتوقّف علىٰ براهين من قبيل: لولا عصمتهم لما أمكن الاعتماد علىٰ ما أبلغوه من الرسالة. أو إنّ عصمتهم أوضح من ذلك بداهة عدم تعقّل صدور المعصية ممّن ذاق حلاوة الاتّصال بالله، أو عرف حقائق المعاصي، فلا يُعقَل أن يفكّر أحدهم في معصية، كما لا يُعقَل أن يفكر أحدنا في أكل القاذورات مثلاً.

---

(١) نهج البلاغة: ٦٨٤، رقم الحكمة: ١٤٥.

(٢) السورة ٧، الأعراف، الآية: ٢٦.

وبعد أن كان الأمر كذلك بلاشك، قلْ لي بـالله: مـا مـعنىٰ تـوبة المـعصومين واستغفارهم؟! وما معنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ مخاطباً لأشـرف المـخلوقين ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ...﴾[1]، وكذلك قوله عزّوجلّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...﴾؟![2].

ثمّ قلْ لي: ما معنىٰ ما قد يتراءىٰ في باديء الأمر من القسوة عـلىٰ نـبيّ مـن الأنبياء في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3]. فالله الذي هو أرحم الراحمين، ويغفر الكـبائر لأصـحاب الكـبائر والجرائم لأصحاب الجرائم لمن يشاء ما لم يكن شركاً، بل وحتّىٰ الشرك للتائب ما معنىٰ قسوته علىٰ نبيّ صدر منه الغضب لله علىٰ الأُمّة الكافرة، فدعا عـليهم، فيؤدّبه علىٰ هذا العمل الذي يكون أشدّ تعبير عنه هو أن نـفترضه تـركاً للأولى، ويكون التعبير اللطيف عنه هو أن ندخله تحت عنوان حسنات الأبـرار سـيّئات المقربين، ويكون تأديبه بسجنه في بطن الحوت، ثُمّ يقسو عـليه لولا كـونه مـن المسبّحين بفرض اللبث في هذا السجن إلىٰ يوم يبعثون؟!

ثُمّ قلْ لي : ما معنىٰ بكاء إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام علىٰ ذنوبه، وبـثّه وشكـواه وقوله: «إلهي أُفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثُمّ أذكر العـظيم مـن أخـذك فتعظم عليّ بليّتي...» إلىٰ أن أنعم في البكاء، فلم يسمع أبو الدرداء له حسـاً ولا حركةً، قال: «... فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته فلم يتحرّك، وزويته فلم ينزو، فقلت: إنّا لله وإنا إليه راجعون، مات والله عليّ بن أبي طالب، فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قِـصّته؟

---

(١) السورة ٤٠، غافر، الآية: ٥٥.

(٢) السورة ٤٧، محمّد ﷺ، الآية: ١٩.

(٣) السورة ٣٧، الصافات، الآيتان: ١٤٣ ـ ١٤٤.

فأخبرتها الخبر، فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله ...»[١]. أفهل كان عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه يُحتَمل بشأنه التورّط في الذنوب بالمعنى الذي نحن نفهمه للذنب: من كذب أو نميمة أو سرقة أو ما إلىٰ ذلك؟!!

ثُمّ قل لي بالله عليك: ماهي خطايا إمامنا زين العابدين وسيّد الساجدينعليه السلام التي كان يقول عنها: «ويلي كلّما طال عُمُرِي كثرت خطاياي ولم أتب أما آن لي أن أستحي من ربّي ...» إلىٰ أن قال طاووس: «ثُمّ خرّ إلىٰ الأرض ساجداً، فدنوت منه، وشلت برأسه، ووضعته علىٰ ركبتي، وبكيت حتّىٰ جرت دموعي علىٰ خدّه، فاستوىٰ جالساً وقال: من ذا الذي أشغلني عن ذكر ربّي؟! فقلت: أنا طاووس يا بن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟! ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا، ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن عليّ، وأُمّك فاطمة الزهراء، وجدّك رسول اللهصلى الله عليه وآله؟! قال: فالتفت إليّ وقال: هيهات هيهات يا طاووس دَع عنّي حديث أبي وجدّي، خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشيّاً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشيّاً، أما سمعت قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[٢]، والله لاينفعك غداً إلّا تقدمة تقدّمها من عمل صالح»[٣].

وكذلك هلمَّ معي لنقف وقفةً قصيرة تجاه أحوال إمامنا موسىٰ بن جعفرعليه السلام، فمن أيّ شيء كان يخاف علىٰ نفسه؟! وقد رُوِيَ عن حفص أنّه قال: ما رأيت أحداً أشدّ خوفاً علىٰ نفسه من موسىٰ بن جعفرعليه السلام، ولا أرجىٰ للناس منه، وكانت

---

(١) البحار ٤١/١٢.

(٢) السورة ٢٣، المؤمنون، الآية: ١٠١.

(٣) البحار ٤٦/٨١ ـ ٨٢.

قراءته حزناً، فإذا قرأ فكأنّه يخاطب إنساناً[١] وما ذنبه بأبي هو وأُمي حينما كان يقول: «عظم الذنب من عبدك، فليحسن العفو من عندك» وكان يقول: «اللّهمَّ إنّي أسألك الراحة عند الموت، والعفو عند الحساب» ويكرّر ذلك، وكان يبكي من خشية الله حتّىٰ تخضّل لحيته بالدموع[٢] وفي نقلٍ آخر كان يقول في سجوده: «قَبُحَ الذنب من عبدك، فليحسن العفو والتجاوز من عندك»[٣].

آباؤنا وأُمهاتنا وأنفسنا فداءٌ لذنوبك يا أبا الحسن يا موسىٰ بن جعفرعليه السلام، وليتنا كنّا نعقل ماهي ذنوبك كي نزيّن أنفسنا بها، ويكون ذلك لنا فخراً واعتزازاً، وبأمل أن نصبح بذلك من الأبرار؛ لأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقربين[٤].

---

(١) البحار ٤٨/١١١.

(٢) البحار ٤٨/١٠١.

(٣) البحار ٤٨/١٠٨.

(٤) البحار ٢٥ / ٢٠٥. أمّا تفسير هذه العبارة: فنحن مشينا في هذا الكتاب علىٰ تفسير (حسنات الأبرار سيّئات المقربين) بمعنى: الصالح والأصلح، أو الحسن والأحسن، ولكن مقصود أهل العرفان هو: أنّ شيئاً ما حسن من أُناس واصلين إلىٰ مستوى من العرفان، ولكنّه سيء من أناس واصلين إلىٰ مستوى أعلىٰ، فمثلاً يُدَّعىٰ أنّ الفناء في بعض أسماء الله يكون حسناً لأُناس يرقّيهم هذا الفناء من مرتبتهم الفعليّة النازلة إلىٰ أن يصلوا إلىٰ مستوى يجب أن يرتقوا إلى الفناء في ذات الله، ويصبح الاسم عندئذٍ ـ حجاباً ـ وكذلك التأسّف علىٰ الذنوب، والبكاء عليها، وجعلها نصب العين، وتأنيب النفس عليها، حسن في مقام تطهير النفس، وتخليصها من مفاسد تلك الذنوب، ثمّ بعد ذلك يصل العارف إلىٰ مستوىً يصبح جعل الذنوب نصب العين والاستمرار علىٰ تأنيب النفس معكّراً لجو الحبِّ والأُلفة مع الله الذي يكون المفروض بالعارف الفناء فيه، فيصبح حجابا مانعاً عن الرقّي، فلا بدَّ من تركه.

ونحن بما أنّنا نرىٰ أنّ هذه في أغلب الموارد تلفيقات من قبلَ الصوفيّة ومن تبعهم في ذلك غفلةً، ولم تُؤثَر عن أئمّتناعليهم السلام الذين هم أعرف بطرق تهذيب النفس وترقيتها في سلم العرفان، ولا دلّ عليها في أغلب مواردها العقلُ، عدلنا عن استعمال هذه الجملة بذاك المعنى إلىٰ المعنى الذي عرفت.

ثُمّ يا ليتنا كنّا نفهم ماهو مدىٰ التذاذكَ بمناجاة الربِّ وعبادته حيث قلت في سجن فضل بن الربيع: «اللّهمَّ إنّك تعلم انّني كنتُ أسألك أن تفرغني لعبادتكَ، اللّهمَّ وقد فعلتَ، فلكَ الحمد»[١].

فنحن نعلم أنّك أنت وآباءكَ الطيبين وأبناءك الطاهرين كنتم تتعشّقون العمل الاجتماعي في سبيل الإسلام وإن أدّىٰ ذلك إلىٰ التضحية بالنفس حتّىٰ أصبح القتل لكم عادةً وكرامتكم من الله الشهادة، فما هي لذّة المناجاة عندكَ التي ضاهت لذّة العمل الاجتماعي في سبيل المبدأ والعقيدة، فطلبت من الله أن يفرّغكَ لها؟!

ثُمّ يا ليتنا نعرف ماذا كنت تعاني في السجن حينما تبدّلت موجة دُعائك هذه المرّة من طلب الفراغ للعبادة إلىٰ طلب الخلاص من السجن، فكنت تقول: «يا مُخلِّص الشجر من بين رمل وطين وماء، ويا مُخلِّص اللبن من بين فرث ودم، ويا مُخلِّص الولد من بين مشيمة ورحم، ويا مُخلِّص النار من بين الحديد والحجر، ويا مُخلِّص الروح من بين الأحشاء والأمعاء، خلّصني من يدي هارون»[٢].

وأيضاً ممّا ورد في توصيف مناجاته وتضرّعه وبكائه ما جاء في زيارة لهعليه‌السلام حليفِ السجدة الطويلة، والدموع الغزيرة، والمناجاة الكثيرة، والضراعات المتصلة...[٣].

ولا غرو أنّ تُؤثّر حالة عرفانه سلام الله عليه في تلك الجارية التي أرسلها هارون الرشيد إلىٰ السجن بعنوان أن تخدم الإمام موسىٰ بن جعفرعليه‌السلام فيتقلب حالها إلىٰ حالة الانمحاء في عبادة الله. وفي أغلب الظنّ أنّ هارون كان قد بعثها إلىٰ الإمامعليه‌السلام بتخيّل أن يفتنه بها، فانقلب السحر علىٰ الساحر.

---

(١) البحار: ٤٨/١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) البحار ٤٨/٢١٩.

(٣) منتهى الآمال ٢/٢٢٣.

والقِصّة علىٰ ما ورد في التأريخ ما يلي: قال العامري: «إنّ هارون الرشيد أنفذ إلىٰ موسى بن جعفر جارية خصيفةً لها جمال وضّاءة؛ لتخدمه في السجن، فقالعليه السلام: قل له: ﴿... بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾(١) لا حاجة لي في هذه ولا في أمثالها. قال: فاستطار هارون غضباً وقال: ارجع إليه، وقل له: ليس برضاك حبسناك، ولا برضاك أخذناك، واترك الجارية عنده وانصرف، قال: فمضىٰ ورجع، ثُمّ قام هارون عن مجلسه، وأنفذ الخادم إليه ليستفحص عن حالها، فرآها ساجدةً لربّها، لا ترفع رأسها، تقول: قُدّوس سبحانَك سبحانَك. فقال هارون: سحرها والله موسىٰ بن جعفر بسحره، عليّ بها، فأُتي بها وهي ترعد شاخصةً نحو السماء بصرها، فقال: ما شأنك؟ قالت: شأني الشأن البديع، إنّي كنت عنده واقفةً وهو قائم يصلّي ليله ونهاره، فلمّا انصرف عن صلاته بوجهه وهو يسبّح الله ويقدّسه، قلت: يا سيّدي هل لك حاجةٌ أُعطيكها؟ قال: وما حاجتي إليك؟ قلت: إنّي أُدخلت عليك لحوائجك، قال: فما بال هؤلاء؟ قالت: فالتفتُّ فإذا روضة مزهرة لا أبلغ آخرها من أوّلها بنظري ولا أوّلها من آخرها، فيها مجالس مفروشة بالوشي والديباج، وعليها وصفاء ووصائِف لم أرَ مثل وجوههم حُسْناً، ولا مثل لباسهم لباساً، عليهم الحرير الأخضر والأكاليل والدرّ والياقوت، وفي أيديهم الأباريق والمناديل، ومن كلِّ الطعام، فخررت ساجدةً حتىٰ أقامني هذا الخادم، فرأيت نفسي حيث كنت. قال: فقال هارون: يا خبيثة لعلّك سجدت فنمت، فرأيت هذا في منامك؟ قالت: لا والله يا سيّدي إلّا قبل سجودي رأيت فسجدت من أجل ذلك، فقال الرشيد: اقبض هذه الخبيثة إليك، فلا يسمع هذا منها أحد، فأقبلت في الصلاة، فإذا قيل لها في ذلك؟ قالت: هكذا رأيت العبد الصالحعليه السلام، فسئلت عن قولها؟ قالت: إنّي لمّا عاينت من الأمر نادتني الجواري يا فلانة ابعدي عن العبد

---

(١) السورة ٢٧، النمل، الآية: ٣٦.

الصالح حتىٰ ندخل عليه، فنحن له دونكِ. فما زالت كذلكَ حتّىٰ ماتت، وذلك قبل موت موسى عليه السلام بأيّام يسيرة»[١].

وأقول أيضاً: بماذا تُفسّر وقفة الإمام المعصوم الحسين عليه السلام عشيّة عرفة حينما خرج من خيمته في عرفات بغاية التذلّل والخشوع، ووقف في مسيرة الجبل، وتوجّه إلىٰ جهة الكعبة، ورفع يده حذاء وجهه كالسائل المسكين، وقال في جملة ما قال: «أنا الذي أسأت، أنا الذي أخطأت، أنا الذي هممت، أنا الذي جهلت، أنا الذي غفلت، أنا الذي سهوت، أنا الذي اعتمدت، أنا الذي تعمّدت، أنا الذي وعدت، وأنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت، أنا الذي أقررت، أنا الذي اعترفت بنعمتك عليّ وعندي وأبوء بذنوبي فاغفرها لي...» وفي أواخر الحديث يقول الراوي: «ثُمّ رفع رأسه (يعني الحسين عليه السلام) ونظر إلىٰ السماء وعيناه تقطران دموعاً كأنّهما سقاءان يجري منهما الماء، ونادىٰ بأعلىٰ صوته: يا أسمع السامعين، يا أبصر الناظرين...» إلىٰ آخر الدعاء. قال: «وقد صغىٰ كلّ من كان في محضره عليه السلام لدعائه، واكتفوا بقولهم آمين، ثُمّ ارتفعت أصواتهم بالبكاء معه عليه السلام حتّىٰ غربت الشمس...»[٢].

وبودّي أن أقف وقفةً قصيرةً علىٰ قوله عليه السلام: «أنا الذي وعدت، وأنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت» فقل لي بالله عليك: من الذي يكون أوفىٰ بالوعد والعهد من الإمام الحسين عليه السلام؟!

وهنا يناسب ذكر هذه القِصّة الطريفة:

ينقل[٣] عن المرحوم السيّد ضياء الدين الدرّي أحد خطباء طهران البارعين:

---

(١) البحار ٤٨/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٢) راجع المنتخب الحسني: ٩١٠ ـ ٩٢٢.

(٣) راجع كتاب روح مجرّد: ٤٥٥ ـ ٤٥٧.

أنّه خطب في آخر سنة من سني عمره في عشرة العاشور في طهران، وفي ليلة من الليالي (الثامنة أو التاسعة) سأله شابّ قبل الخطاب: ماهو المراد من هذا البيت (وهو موجود في ديوان الشاعر الفارسي المعروف حافظ):

مريد پير مغانم زمن مرنج اى شيخ چرا كه وعده تو كردى واو بجا آورد

يعني: يا شيخ لا تنزعج منّي علىٰ أثر تخصّص إخلاصي بشيخ آخر غيرك؛ لأنّك أنت الذي وعدت، وهو الذي وفىٰ.

فقال السيّد الدرّي سأجيب عن هذا السؤال علىٰ منبر الخطاب؛ كي يكون نفعه عامّاً. ثمّ ذكر علىٰ المنبر في خطابه: أنّ المقصود بالشيخ الأوّل هو: آدم عليه السلام الذي وعد بترك شجرة الحنطة وأخلف. والمراد بالشيخ الثاني هو: أمير المؤمنين عليه السلام الذي ترك الحنطة ولم يكن يشبع من الشعير.

ومات السيّد الدرّي في تلك السنة، ورأىٰ ذلك الشاب السائل في عالم الرؤيا في السنة الثانية في نفس ليلة السؤال السيّد الدرّي، فقال له السيّد: أنت سألتني في السنة السابقة في مثل هذه الليلة عن تفسير البيت الفلاني، فأجبتك بهذا الجواب، ولكنّني الآن في هذا العالم لديّ جواب آخر، وهو: أنّ المقصود بالشيخ الأوّل إبراهيم عليه السلام الذي وعد بذبح ابنه. والمراد بالشيخ الثاني الحسين عليه السلام الذي وفىٰ بتقديم ابنه عليّ الأكبر عليه السلام قرباناً في سبيل الله.

أقول: إن كان لابدّ أن يُحمَل البيت الفارسي الذي أشرنا إليه علىٰ معنىً حقّانيّ ومعقول، فهو منحصر في التفسير الأوّل الذي ذكره السيّد الدرّي في حال حياته. وأمّا التفسير الذي نقله ذاك الشاب عن عالم رؤياه فلا قيمة له؛ وذلك لأنّ سيّدنا إبراهيم علىٰ نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام لا يستحقّ اللوم المفهوم من هذا البيت؛ فإنّه وإن كان لم يفعل ما أُمِر به من ذبح ولده، ولكن لم يكن في ذلك لا الخُلف ولا أقلّ توانٍ في الامتثال، ولم يكن نسخ الله ـ عزّ وجلّ ـ لأمره تماشياً

لضعف نفسي في إبراهيم عليه السلام ونقص عرفاني فيه، بل قال الله تعالىٰ بشأنـه: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ...﴾[١] وقال ـ أيضاً ـ سبحانه عزّ وجلّ بشأن إبراهيم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[٢] وقال جلّ وعلا ـ أيضاً ـ بشأنه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ...﴾[٣].

نعم، مقام إمامنا الحسين عليه السلام ومستوىٰ عرفانه سلام الله عليه مقام لا يضاهىٰ، ومستوىً لا يدانىٰ، وهل تعلمون أحداً أوفىٰ بعهده ووعده من الحسين عليه السلام الذي جعل فاتحة شهداء الهاشميين ـ علىٰ أحد النقلين[٤] ـ ابنه علياً الأكبر عليه السلام، وخاتمتهم في حدود فترة ما قبل وقوعه عليه السلام علىٰ الأرض ابنه عليّاً الأصغر عليه السلام وعندئذٍ قال: «هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله»[٥]. فمن أوفىٰ بعهده مع الله من الحسين عليه السلام؟!

إذن فما معنىٰ قوله عليه السلام: «أنا الذي وعدت، وأنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت»؟!

أفلا تستكشف معي ـ بعد هذا التطواف السريع في حالات المعصومين عليهم السلام من كلِّ ما أشرنا إليها من الأُمور ومن أشباهها الكثيرة الكثيرة التي تركنا ذكرها ـ أنّ للإسلام ظاهراً أُمِرَ به الجميع، وأنّ له روحاً شفّافاً لم يكن بالإمكان أن يؤمر به الجميع؛ إذ لو أُمِروا جميعاً بذلك لما نجى أحد إلّا المعصومون وأولياء الله المخلَصون. فبقي ذلك المستوىٰ من الروح والحقيقة مطمحاً للأنظار ومضماراً للسباق يصل بعض إلىٰ بعض درجاته، والآخر إلىٰ درجة أقوى أو أخفّ. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. وكانت ذنوبهم صلّى الله عليهم وعلىٰ آلهم راجعة إلىٰ تلك الدرجات.

---

(١) السورة ٣٧، الصافات، الآية: ١٠٥.

(٢) السورة ٥٣، النجم، الآية: ٣٧.

(٣) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٢٤.

(٤) راجع البحار ٤٥/٤٥.

(٥) البحار ٤٥/٤٦ و ٦٥.

وقد اقتفى كثير من علمائنا الأبرار بأئمّتنا الأطهار فيما أشرنا إليه من التضرّع والبكاء والوجد والشوق والخوف، وأذكر هنا لذلك نموذجين:

أوّلاً: ما جاء في تكملة أمل الآمل[١] عن السيّد صدر الدين محمّد بن صالح بن محمّد بن إبراهيم أحد أجداد أُستاذنا الشهيد الصدر ﵀ ـ وكان عالماً عظيماً ـ نقلاً عن العالم الجليل الشيخ عبدالعالي الإصفهاني النجفي قال: كنت ليلة من ليالي شهر رمضان في حرم أمير المؤمنين ﵇، فجاء السيّد صدرالدين إلىٰ الحرم، ولمّا فرغ من الزيارة جلس خلف الضريح المقدّس، فكنت قريباً منه، فشرع في دُعاء السحر الذي رواه أبو حمزة، فوالله مازاد علىٰ قوله: «إلٰهي لا تؤدّبني بعقوبتك» وكرّرها وهو يبكي حتّىٰ أُغمي عليه، وحملوه من الحرم وهو مغمىً عليه.

ثمّ قال صاحب تكملة أمل الآمل: كان ﵀ غزير الدمعة كثير المناجاة، ورأيت له أبياتاً في المناجاة يقول فيها:

رضاك رضاك لا جنّات عدنٍ ... وهل عدن تطيبُ بلا رضاكا

ثانياً: جاء في كتاب قصص العلماء[٢] في ترجمة المرحوم الحاج السيّد محمّد باقر الشفتي المعروف بحجّة الإسلام، وكان هذا ـ أيضاً ـ من العلماء الكبار: أنّه كان يبدأ من نصف الليل بالبكاء والتضرّع والمناجاة إلىٰ الصباح، وكان يدور في صحن مكتبته شبه المجنون محيياً ساعاته بالدعاء والمناجاة، لاطماً علىٰ رأسه وصدره، وكان حنينه وأنينه مستمراً بلا اختيار إلىٰ الصباح.

وذكر ـ أيضاً ـ في ذاك الكتاب[٣] نقلاً عن الحاج سليمان خان قاجار حاكم سبزوار: أنّ أحد أولاد السلاطين كان ساكناً في إصفهان، وقد حكىٰ له ـ أي للحاج

---

(١) تكملة أمل الآمل: ٢٣٩.

(٢) قصص العلماء: ١٣٧.

(٣) المصدر السابق: ١٣٨.

سليمان خان ـ أنّه كانت لي جارية هربت منّي، والتجأت إلىٰ بيت المرحوم حجّة الإسلام، وبعد برهة من الزمن أرجعها حجّة الإسلام إلىٰ بيتنا، وكتب لي رسالة مفادها: أنّه إن كانت هذه الجارية مقصّرة فاعفُ عنها لأجلي، واوص ملازمي البيت والخدمة بحسن المداراة معها. قال: فسألناها ذات يوم عن حالات السيّد حجّة الإسلام، فقالت الجارية: إنّ السيّد كان ينجنّ بالليل، ويعقل بالنهار، فسألناها: وكيف ذلك؟ قالت: حينما كانت تمضي قطعة من الليل كان ينشغل في مكتبته وصحنها باللطم علىٰ الرأس والبكاء كالمجانين، وكان يناجي ويدعو إلىٰ الصباح، وعند الصباح كان يلبس عمامته ورداءه ويجلس كالعقّال.

نعم، هذا هو مفاد كلام إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول في صفة المتّقين: «ينظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُم مَرْضَىٰ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ.. ويقول: لَقَدْ خُولِطُوا! ولقد خَالَطَهُمْ أمرٌ عَظِيمٌ...»[١].

وقد ذكّرتني قِصّة هذه الجارية مع حجّة الإسلام ـ حيث قالت عنه: إنّه كان ينجنّ بالليل، ويعقل بالنهار ـ بقِصّة رُويت في ترجمة سلمان رضي الله عنه، وهي: أنّه مرّ سلمان علىٰ الحدّادين بالكوفة، وإذا بشاب قد صُرِعَ والناس قد اجتمعوا حوله، فقالوا يا أبا عبدالله هذا الشاب قد صُرِعَ، فلو جئت فقرأت في أُذنه، قال: فجاء سلمان، فلمّا دنا منه رفع الشاب رأسه فنظر إليه فقال: يا أبا عبدالله لست في شيء ممّا يقول هؤلاء، لكنّي مررت بهؤلاء الحدّادين وهم يضربون بالمرازب[٢] فذكرت قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[٣].

الأمر الثاني: المضامين الراقية الشامخة العرفانيّة المنتشرة ضمن الكتاب والسنّة

---

(١) نهج البلاغة: ٤١١، رقم الخطبة: ١٩٣.

(٢) جمع مِرزَبَة ومِرزَبّة بمعنى عُصيّة من حديدة على ما ورد في المنجد.

(٣) معجم رجال الحديث ٨/١٩٥، والآية: ٢١ في السورة ٢٢، الحديد.

والأدعية، وقد مرّت الإشارة إلىٰ قطرات من هذا البحر في آخر حديثنا عن النقطة الرابعة.

فقل لي بالله : لو كانت الصلاة وروحها عبارة عن هذه الصلاة المألوفة لدينا، والتي تشتمل ـإنْ شاء الله ـعلىٰ الإجزاء الفقهي، ولا تستغرق من الوقت أكثر من خمس دقائق، فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(١) ؟! فأيّ ثقل ـ يا تُرى ـ يكون في صلاة كصلواتنا كي تكون كبيرة علىٰ غير الخاشعين منّا؟! وأيّ تحمّل واصطبار نحتاجه في صلاة كهذه الصلوات حتّىٰ يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ...﴾(٢) ؟!

ولو كانت غاية الآمال عبارة عن جنّة عرضها السماوات والأرض فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ...﴾(٣) ؟! وما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٤) .

ولو كان أشدّ العذاب عذاب نار جهنّم فما معنىٰ قول إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «... صَبَرتُ علىٰ عذابك، فَكيفَ أصبر علىٰ فِراقِك»؟! ألا تحدس معي أنّ الفراق في كلام عليّ ـ تلميذ القرآن ـ قصد به نفس ما قصد بالحجب في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(٥) ؟!

ولو كانت النار في الآخرة منحصرة في النار الماديّة التي تتبادر إلىٰ أذهاننا من قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾(٦) وهي المفهومة ـ أيضاً ـ من قول

---

(١) سورة ٢ البقرة: الآية: ٤٥.

(٢) السورة ٢٠، طه، الآية: ١٣٢.

(٣) السورة ٩، التوبة، الآية: ٧٢.

(٤) السورة ٧٥، القيامة، الآية: ٢٢ و ٢٣.

(٥) السورة ٨٣، المطفّفين، الآية: ١٥.

(٦) السورة ٧٠، المعارج، الآية: ١٥ ـ ١٦.

أمير المؤمنين عليه السلام: «آه من نار تنضج الأكباد والكلىٰ، آه من نار نزاعة للشوى، آه من غمرة من ملهبات لظىٰ»[١].

فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[٢]؟! فأيّ نار هذه التي تطّلع علىٰ الأفئدة؟ وأي فؤاد هذا؟ هل هو القلب المادّي الصنوبري؟ فلئن كان ذاك فأيّ فرق مهمّ بين أن تبدأ النار بحرق الجلد وتنتهي إلىٰ الفؤاد أو العكس؟! أو ليس هذا يعني: أنّ الفؤاد هنا بمعنى القلب المعنوي المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٣]. وبقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ...﴾[٤]. أو ليس هذا يعني: أنّ هذه النار نار أُخرى تطّلع علىٰ القلب المعنوي؟! أولا تفكّر في معنىٰ ﴿مؤْصَدَة﴾ أي: مطبقة ومغلقة، فالنار التي تطّلع علىٰ الفؤاد أليس معنىٰ إطباقها وإغلاقها كونها مطبقة ومسدودة في داخل الإنسان، فهل يناسب هذا النار المادّية؟! ثُمّ ما معنىٰ كون هذه النار في ﴿عَمَدٍ مُّمَدَّدَة﴾ أوليست العمد الممدّة لذلك القلب المعنوي، وإلّا فأعمدة البدن تنشوي بالنار المادّية، وتتجاوز النار منها؟! ثُمّ ما معنىٰ ﴿الْحُطَمَة﴾ هل المقصود بها التحطيم المادّي للجسم المادّي؟ ونحن نعلم أنّ الجسم المادّي يبقى قائماً؛ كي يشتدّ عليه ألم النار، بدليل أنّه بمجرد أن تنضج الجلود يقول الله تعالىٰ: ﴿... بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ...﴾[٥] أفلا يعني ذلك: أنّ

---

(١) البحار ٤١/١٢.

(٢) السورة ١٠٤، الهمزة، الآية: ٤ ـ ٩.

(٣) السورة ٢٢، الحج، الآية: ٤٦.

(٤) السورة ٧، الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٥) السورة ٤، النساء، الآية: ٥٦.

التحطيم تحطيم معنوي أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك كلّه.

وعلىٰ أيّة حال، فالإسلام كالقرآن يكون له ظهر وبطن، أو جسم وروح، أو قشر ولبّ، أو وجه وبطانة، أو سدى ولُحمة، وقشره يتلألأ نوراً، ويُري باطنه الذي يفوق القشر صفاءً وجلاءً وعظمةً وجمالاً، ولقد أُمرتْ عامّة الناس بأقلّ المقدار الممكن، والذي يكون هو الحدّ الذي حُكِم عليه في الفقه بالإجزاء، ولم يُـؤمَروا أمراً وجوبيّاً بأكثر من ذلك؛ لأنّه كان يؤدّي إلىٰ عدم تحمّل العامّة الكـاثرة لمـا وجب عليهم وإلىٰ ضلالهم وسوء عاقبتهم، وبقي الباقي لأهله، وهم مختلفون في المراتب والدرجات.

وبهذا النمط من الفهم للإسلام تنحلّ عدّة ألغاز ومشكلات من قبيل:

١ ـ ما معنىٰ ما ورد في الكافي بسند تامّ عن الصادق عليه السلام من أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلىٰ الله في كلّ يوم سبعين مرّة[١] ؟! وبسند آخر تامّ عنه أيضاً: «...أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلىٰ الله ويستغفره في كلّ يوم وليلة مئة مـرّة مـن غـير ذنب...»[٢].

وقد اتّضح الجواب عن ذلك: بأنّ توبة المعصومين واستغفارهم يكونان مـمّا يسمّىٰ بحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، فحينما يرتقون في صفاء النـفس مـن مرتبة إلىٰ مرتبة أعلىٰ يستغفرون ربّهم عن المرتبة السابقة الدنيا، أو حينما يحصل لديهم أقلّ غبار علىٰ القلب عن بعض مراتب الصفاء ولو لحظة يتوبون إلىٰ الله من ذلك. وقد ورد في طرق السُنّة عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّه ليغان علىٰ قلبي حتّىٰ

---

(١) أُصول الكافي ٢/ ٤٥٠، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٥٠، الحديث ٢.

استغفر الله تعالىٰ في اليوم والليلة سبعين مرّة»[١] وقد يصدر منهم ما لو صدر منّا لكان حسنة عظيمة، ولكنّهم سلام الله عليهم يستغفرون الله منه؛ لأنّ المفروض المناسب لمقامهم الشامخ أن يصدر منهم ما هو أفضل من ذلك، وقد قال الله تعالىٰ مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[٢]، فلو كان قد صدر منّا الإذن عن الحرب لبعض المسلمين الضعفاء الإيمان لجلبهم وعدم تنفيرهم من الإسلام، فلعلّنا كنّا نمدح بذلك، ولكنّه كان المفروض بالرسول الأعظم ﷺ أن يتّخذ ماهو أوفق بالمصلحة من الإذن علىٰ رغم أنّ الإذن ـ أيضاً ـ كان من الخُلُق العظيم.

٢ـ ما معنىٰ بكاء المعصومين، ومناجاتهم الطويلة، ودموعهم الغزيرة، وغشيتهم أمام عظمة الربّ، هل كانوا يحتملون بأنفسهم التورّط في المعاصي الإلهيّة، أم هل تورّطوا بالفعل فيها وهم معصومون؟! وهل يمكن فرض كلّ القضايا التي نقلت عنهم بهذا الصدد تصنّعاً منهم وتظاهراً كاذباً بهدف تعليمنا، وكان بكاؤهم أمراً صوريّاً لا عن حرقة قلب وما إلىٰ ذلك؟! كلّا هذا لا يحتمل.

والجواب أحد أمرين أو كلاهما:

إمّا أنّ كلَّ هذا كان ندماً وتوبةً إلىٰ الله عمّا عبّرنا عنه بحسنات الأبرار سيّئات

---

(١) المحجة ١٧/٧. وقد قيل في تفسير الحديث: لمّا كان قلب النبيّ ﷺ أتمّ القلوب صفاءً وأكثرها ضياءً وأعرفها عرفاً، وكان ﷺ مبيّناً مع ذلك لشرائع الملّة وتأسيس السُنّة ميسّراً غير معسر لم يكن له بدّ من النزول إلىٰ الرخص والالتفات إلىٰ حظوظ النفس مع ما كان متمتّعاً به من أحكام البشريّة، فكأنّه إذا تعاطىٰ شيئاً من ذلك أسرعت كدورة ما إلىٰ القلب لكمال رقّته وفرط نورانيّته، فإنّ الشيء كلمّا كان أصفىٰ كانت الكدورة عليه أبين وأهدىٰ. وكان ﷺ إذا أحسّ بشيء من ذلك عدّه علىٰ النفس ذنباً فاستغفر منه. راجع البحار ٢٥/٢٠٤ ـ ٢٠٥ تحت الخط.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ٤٣.

المقربين[١]. وإمّا أنّ عظمة الرب وجلاله وجماله كانت تؤدّي إلىٰ هكذا إنهيار وهكذا إظهار وهكذا تذلّل، مَثله الدنيوي ما يُرى من قبل العشّاق التافهين الذين يعشقون بعض المخلوقين أو المخلوقات من التذلّل وإبراز التقصير أمام معشوقهم أو معشوقتهم والتذاذهم بذلك وانهيارهم أمامه أو أمامها، فما ظنّك بالعشق الحقيقي من قبل العبد الذائب في ذات الله أمام من لا يستحقّ الحبّ الحقيقي والتفاني الكامل فيه إلّا هو، ألا وهو الله سبحانه وتعالىٰ؟! ولقد ورد بشأن رسول الله ﷺ أنّه كان يبكي حتّىٰ يغشىٰ عليه، فقيل له: «... يا رسول الله أليس الله ـ عزّ وجلّ ـ قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟! قال: بلى، أفلا أكون عبداً شكوراً»[٢].

٣ـ ما معنىٰ ما يترأىٰ في بادئ الأمر من القسوة علىٰ بعض الرسل من قبيل ما مضت الإشارة إليه من قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ

---

(١) قال بعض: إنّ الأنبياء والأئمّة تكون أوقاتهم مشغولة بالله تعالىٰ، وقلوبهم مملوءة به، وخواطرهم متعلقة بالملأ الأعلىٰ، وهم أبداً في المراقبة كما قال عليه السلام: «اعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» فهم أبداً متوجهون إليه، ومقبلون بكلّهم عليه، فمتى انحطوا عن تلك المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة إلىٰ الاشتغال بالمأكل والمشرب والتفرغ إلىٰ النكاح وغيره من المباحات عدوه ذنباً، واعتقدوه خطيئة، واستغفروا منه، ألا ترى أنّ بعض عبيد أبناء الدنيا لو قعد وأكل وشرب ونكح وهو يعلم أنّه بمرأىٰ من سيّده ومسمع منه لكان ملوماً عند الناس ومقصّراً فيما يجب عليه من خدمة سيّده ومالكه؟ فما ظنك بسيد السادات وملك الأملاك، وعلىٰ هذا يحمل مثل ما ورد عن أبي الحسن موسى عليه السلام في الدعاء في سجدة الشكر: «ربّ عصيتك بلساني ولو شئت وعزّتك لأخرستني، وعصيتك ببصري ولو شئت وعزّتك لأكمهتني، وعصيتك بسمعي ولو شئت وعزّتك لأصممتني، وعصيتك بيدي ولو شئت وعزّتك لكنعتني، وعصيتك بفرجي ولو شئت وعزّتك لأعقمتني، وعصيتك برجلي ولو شئت وعزّتك لجذمتني، وعصيتك بجميع جوارحي التي أنعمت بها عليّ ولم يكن هذا جزاءك منّي» راجع البحار ٢٥ / ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) تفسير البرهان ٣/ ٢٩.

فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(١) فلئن كان الله ـ تعالىٰ ـ يغفر لأصحاب الكبائر كبائرهم ولأصحاب الجرائم جرائمهم ما معنىٰ فرض السجن في بطن الحوت علىٰ نبيّ من أنبيائه لما صدر منه من ترك أولى، أو من حسنة كانت بلحاظ مقامه الكريم من سيّئات المقربين؟! وما معنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ: **﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۞ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾**(٢) فهل يُحتَمل بشأن رسول الله ﷺ أنّه كاد أن يركن إلىٰ المشركين شيئاً قليلاً فيما كانوا يريدونه من الافتراء علىٰ الله؟! كلّا.

ولا أقصد بنفي هذا الاحتمال نفيه علىٰ أساس العصمة؛ كي يدّعىٰ في مقابل ذلك أنّ فرض الآية فرض غضّ النظر عن العصمة بناءً علىٰ تفسير التثبيت في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ ...﴾** بالعصمة أي: لولا العصمة الربّانية لك لكنت تركن إليهم شيئاً قليلاً، بل أقصد بذلك: أنّه حتّىٰ مع غضّ النظر عن الإيمان بعصمة الأنبياء لا يُحتمَل ركون النبيّ ﷺ إلىٰ المشركين فيما يريدونه من الافتراء علىٰ الله؛ لأنّ هذا من أكبر الكبائر،ولو فُرِضَ عدم العصمة للنبيّ ﷺ لكان يعني ذلك: ارتكابه لصغيرة ما مثلاً، لا ارتكابه لما هو من أكبر الكبائر، وهو الافتراء علىٰ الله.

وإذن، فليس ركونه ﷺ إليهم الذي كاد أن يتورّط فيه لولا تثبيت الله إيّاه إلّا مجرّد إبداء نوع من المداهنة أو التعاطف معهم بنيّة استمالتهم بالتدريج عن هذا الطريق إلىٰ الإسلام. وهذا لو صدر منّا نحن الاعتياديين لعلّه كان يعدّ من الحسنات والفضائل، ولكن المقام الشامخ للنبي ﷺ لا يناسب التورط في شيء من هذا القبيل، بل المفروض به أن يتّخذ ماهو أصلح من ذلك.

---

(١) السورة ٣٧، الصافات، الآية: ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) السورة ١٧، الإسراء، الآيات: ٧٣ ـ ٧٥.

وبعد هذا تبدو في بادئ الأمر قسوة عظيمة علىٰ النبيّ ﷺ في قوله تعالىٰ: **﴿إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾** فلماذا هكذا قسوة علىٰ ترك ماهو أولىٰ، أو علىٰ فعل ماهو من حسنات الأبرار، ولكنّه من سيّئات المقربين؟!

وأيضاً ورد في التأريخ[1] عن نبي الله يعقوب علىٰ نبيّنا وآله وعليه آلاف التحيّة والثناء: أنّ سبب مانزل به من البلاء أنّه عليه السلام كان يذبح كلّ يوم كبشاً، فيتصدّق منه، ويأكل هو وعياله منه، وإن سائلاً مؤمناً صوّاماً مستحقّاً له عند الله منزلة، وكان مجتازاً غريباً اعترّ[2] علىٰ باب يعقوب عشية جمعة عند أوانَ إفطاره، فطلب منهم الطعام مراراً، فلم يعتنوا به، وليسوا متعمدين، بل جهلاً منهم بحقّه، ولعدم تصديقهم إيّاه، فلمّا يأس منهم، وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلىٰ الله عزّوجلّ، وبات طاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله تعالىٰ، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً، وأصبحوا وعندهم فضلة من طعامهم، فأوحىٰ الله عزّوجلّ إلىٰ يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت يا يعقوب عبدي ذلّة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلىٰ ولدك...

فما هذه القسوة علىٰ نبيّ الله يعقوب علىٰ خطأٍ لم يكن ارتكاباً لمحرم، في حين أنّه يصدر من سائر الناس الاعتياديين ما لا يُحصَىٰ من الأخطاء، بل والمحرمات، ولكنّ الله يعفو عن كثير؟!

وجواب كلّ هذا هو: أنّ تعامل المولىٰ مع من يحبّ يكون أشدّ من تعامله مع الإنسان الاعتيادي، فأنت قد تعفو عمّن ظلمك، وجحد حقّك وآذاك، في حين أنّك تؤدّب ابنك مثلاً علىٰ ما أتىٰ به لك من وردة من بستان كان يملكه؛ لأنّك كنت

---

(١) راجع البحار ١٢/٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) اعترّه: أتاه للمعروف، وقيل: إنّ في نسخة علل الشرائع عَبَر علىٰ باب يعقوب.

تتوقّع منه أن يأتيك بباقة من الورد لا بوردة واحدة.

وقد ورد في ذيل نفس الحديث الذي أشرنا إليه في قِصّة تأديب يعقوب علىٰ نبيّنا وآله وعليه السلام ما يشير إلىٰ هذه النكتة حيث قال فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلىٰ يعقوب عقيب خطأه: أوما علمت يا يعقوب أنّ العقوبة والبلوىٰ إلىٰ أوليائي أسرع منها إلىٰ أعدائي؟!؛ وذلك حسن النظر منّي لأوليائي واستدارج منّي لأعدائي[١].

وهذا المعنىٰ يصلح أن يكون أحد التفاسير للروايات الواردة في أنّ البلاء يشتدّ بقدر اشتداد الإيمان من قبيل:

١ـ ما ورد بسند صحيح عن هشام بن سالم، عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثُمّ الذين يلونهم، ثُمّ الأمثل فالأمثل»[٢].

٢ـ وما ورد ـ أيضاً ـ بسند صحيح[٣] عن عبدالرحمن بن الحجاج، قال: «ذُكِرَ عند أبي عبدالله عليه السلام البلاءُ وما يخصّ الله ـ عزّ وجلّ ـ به المؤمن، فقال: سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله مَنْ أشدّ الناس بلاءً في الدنيا؟ فقال: النبيّون، ثُمّ الأمثل فالأمثل، ويبتلي المؤمن بعدُ علىٰ قدر إيمانه وحسنِ أعمالِهِ، فَمَنْ صحّ إيمانه وحَسُنَ عمله اشتدّ بلاؤه، وَمَنْ سخف إيمانه وضَعُفَ عملهُ قلّ بلاؤهُ».

٣ـ وورد ـ أيضاً ـ بسندٍ تامٍّ عن سماعة، عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ في كتاب عليّ عليه السلام أنّ أشدّ الناس بلاءً النبيّون، ثُمّ الوصيّون، ثُمّ الأمثل فالأمثل...»[٤].

وورد ـ أيضاً ـ في حديث آخر عن الصادق عليه السلام قال: «إنّما المؤمن بمنزلة كفّة

---

(١) البحار ١٢/٢٧٢.

(٢) أُصول الكافي ٢/٢٥٢، باب شدّة ابتلاء المؤمن من كتاب الإيمان والكفر، الحديث ١.

(٣) المصدر السابق الحديث ٢.

(٤) المصدر السابق: ٢٥٩، الحديث ٢٩.

الميزان كُلّما زيد في إيمانه زيد في بلائه»[١].

ولعلَّه يدعم هذا التفسير ما ورد ـ أيضاً ـ بسند صحيح عن محمّد بن مسلم قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلّا عرض له أمرٌ يحزنه ويُذكَّر به»[٢].

فهذا التذكير يشمل كلَّ درجات التنبيه حتىٰ علىٰ مستوىٰ نفض الغبار الذي يصيب قلب العبد المؤمن وحتّىٰ ذاك الغبار الطفيف الذي عبّر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله ـ لو صحّت الرواية الماضية ـ بقوله: «إنّه ليغان علىٰ قلبي...»[٣].

وهناك تفسير ثانٍ لتلك الروايات، وهو: أن تكون ناظرة إلىٰ ما في البلايا والمحن مِن رفع الدرجات وعظيم الثواب، كما تؤيّد هذا التفسير عدّة روايات من قبيل: ما رُوِيَ عن أبي يحيىٰ الحنّاط، عن عبدالله بن يعفور قال: «شكوت إلىٰ أبي عبدالله عليه السلام ما ألقى من الأوجاع ـ وكان مسقاماً ـ فقال لي: يا عبدالله لو يعلم المؤمن ماله من الأجر في المصائب لتمنّىٰ أنّه قُرِّض بالمقاريض»[٤].

وهناك روايات أُخرىٰ تدلّ علىٰ أنّ بلاء المؤمن كفّارة لذنوبه[٥].

ومن الروايات الطريفة التي تنسجم مع كلا التفسيرين الماضيين ما رواه الكليني رحمه الله في أُصول الكافي[٦] عن الصادق عليه السلام قال: «دُعي النبيّ صلى الله عليه وآله إلىٰ طعام، فلمّا دخل منزل الرجل نظر إلىٰ دجاجة فوق حائط قد باضت، فتقع البيضة علىٰ وتد في حائط، فثبتت عليه، ولم تسقط، ولم تنكسر، فتعجّب النبيّ صلى الله عليه وآله منها، فقال

---

(١) المصدر السابق: ٢٥٤، الحديث ١٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٥٤، الحديث ١١.

(٣) المحجة ٧/١٧.

(٤) أُصول الكافي ٢/٢٥٥، باب شدة ابتلاء المؤمن من كتاب الإيمان والكفر، الحديث ١٥.

(٥) من قبيل ما في البحار ٦٧/٢٣٠، ٢٣٢، باب شدّة ابتلاء المؤمن، الحديثان ٤٣ و ٤٨.

(٦) أُصول الكافي ٢/٢٥٦، باب شدة ابتلاء المؤمن، الحديث ٢٠.

له الرجل: أعجبت من هذه البيضة؟ فوالذي بعثك بالحقِّ ما رُزئت شيئاً قطّ، فنهض رسول الله ﷺ ولم يأكل من طعامه شيئاً، وقال: من لم يُرزَء فما لله فيه من حاجة».

وهناك تفسير ثالث لتلك الروايات التي تثبت البلاء للأنبياء، ثُمّ للأولياء، ثُمّ للأمثل فالأمثل، وهو: أن يكون المقصود بالبلاء: الامتحان لا المصائب والمحن، والامتحان كما قد يكون بالمصائب والمحن كذلك قد يكون بالنعم والخيرات، كما قال الله تعالىٰ: ﴿... **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[1] وكما قال الله تعالىٰ عن لسان سليمان: ﴿... **فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** ...﴾[2].

وقد اتَّضح بكلّ ما سردناه أنّ الفقه والعرفان يشكّلان سدىٰ وُلُحمة لثوب التقوىٰ. وَمَن يفصل بينهما، ويفترضهما مدرستين منفصلة إحداهما عن الأُخرىٰ لا يعرف شيئاً من الفقه ولا العرفان.

وأُؤكّد أنّني لا أقصد بفرض الظاهر والباطن للإسلام تصحيح طريقة الباطنيّين الذين يُظهِرون للناس شيئاً ويُبطنون شيئاً آخر، بل أقصد أنّ للإسلام باطناً يشعّ من ظاهره، وظاهراً شفّافاً يُري باطنه، وظاهره يتلألأ نوراً، وباطنه أصفىٰ وأنقىٰ، وظاهره هو الذي تكفّل به الفقه الذي يحدّد الإجزاء وسقوط القضاء والإعادة لعامّة الناس، وباطنه ـ أيضاً ـ يفهم من نفس الأدلّة الفقهيّة، ويستفيد منه علماً وعملاً الخلّصون من عباد الله كلّ بدرجته، ولم يكن بالإمكان تكليف عامة الناس بتحصيل كلِّ درجات الكمال للنفس، فاكتفىٰ الإسلام بأقلِّ الدرجات لعموم الناس مع فتح باب الترقّي والنمو والاقتراب إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لمن أحبّ ذلك وبقدر ما يهتمّ به.

---

(١) السورة ٢١، الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٢) السورة ٢٧، النمل، الآية: ٤٠.

ولتوضيح اكتفاء الإسلام باقلِّ الدرجات لعامّة الناس مع إرشاده إلىٰ مراتب أرقىٰ من ذلك نشير إلىٰ عدد من المسائل الفقهية:

الأوّل: لا إشكال فقهياً في حرمة:

١ـ لبس الخاتم من الذهب للرجال.

٢ـ واستعمال أواني الذهب والفضّة.

بالتفصيل المذكور في علم الفقه، ولكنّ الفقه لم يحرّم علىٰ الإنسان مطلق الاستفادة من الأموال التي تكون فوائدها وهمية، فصحيح أنّ آنية الذهب والفضة لا تختلف في الفائدة عن أواني أُخرى إلّا بالاعتزاز بكونه ذهباً أو فضّة والتبختر به، وليس هذا إلّا فائدة وهمية، أمّا الفائدة الاستعماليّة الحقيقية فالأواني الأُخرى مشتركة فيها مع أواني الذهب والفضّة، وكذلك الخاتم من الذهب لا يختلف بشأن الرجال عن غير الذهب إلّا بالتبختر والفخفخة به، وهو إنّما يناسب حالة النساء؛ لأنّهنّ بحاجة حقيقيّة إلىٰ الزينة والحلية، وقد عبّر الله ـ تعالىٰ ـ عنهن بقوله: ﴿**أَوَمَن يُنَشَّؤُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾[1].

وقال الشاعر:

ومـا تـصنع بـالسيفِ إذا لم تكُ قـتّالا

فكسّرْ حليةَ السيفِ وصغه لكَ خلخالا

ولكن مع ذلك لم يُحرّم فقهياً علىٰ الرجال لبس خاتم مصوغ من مجوهرات قد تكون أغلى من الذهب، ولم يُحرّم علىٰ الناس استعمال أواني مصوغة ممّا هو أغلى من الذهب والفضّة.

إلّا أنّه وردت في نصوص الشريعة ما قد تشير إلىٰ قبح صرف المال في موارد المنافع الوهمية من قبل المؤمنين، وهذا ما يستفيد منه الخلّص من عباد الله،

---

(١) السورة ٤٣، الزخرف، الآية: ١٨.

ولا تعتني به عامّة الناس. ومن جملة تلك النصوص ما يلي:

١ ـ رُوِيَ بسندٍ تامّ عن موسى بن بكر، عن أبي الحسن موسىﷺ قال: «آنية الذهب والفضّة متاع الذين لا يوقنون»[١].

أفلا تستشمّ معي من هذا الحديث أنّه بيان لحكمة تحريم آنية الذهب والفضّة لا لنتيجة التحريم، أي أنّه ليس معنىٰ هذا الحديث: أنّه بعدما حرّمت الشريعة آنية الذهب والفضّة أصبحت تلك الأواني متاعاً للذين لا يوقنون، بل معناه: أنّ الذي يُوقِن بعالم الآخرة ماذا يفعل بالتلذّذات الوهميّة البحت في هذه الدنيا؟! وأنّ كونها متاعاً للذين لا يوقنون كان حكمة لتحريمها، وهذه الحكمة موجودة في جميع الملاذّ الوهميّة.

٢ ـ قوله سبحانه وتعالىٰ: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ...﴾**[٢] أفلا تستظهر معي من هذه الآية: أنّ الترف وصف يناسب الفاسقين لا المؤمنين، ولئن كان الترف عبارة عن التنعّم بأنعم الله فما معنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾**[٣] أفلا تستظهر من ذلك ما أستظهره بفهمي القاصر ـ والله أعلم بمراده ـ: من أنّ التنعّم الحقيقي بالنعم المحلّلة هو الشيء المقصود بالآية الثانية، والتنعُّم الوهمي بالمتع الوهميّة أو بنفس النعم الحقيقية ـ ولكن إلىٰ حدّ التخمة التي تخرج التنعّم من كونه حقيقيّاً إلىٰ كونه وهميّاً ـ هو الذي يسمّىٰ بالترف، ويكون داخلاً في مفاد الآية الأُولىٰ.

والثاني : لا إشكال فقهيّاً في حرمة الغناء والموسيقىٰ، وقد أُدرج في بعض

---

(١) الوسائل ٣/٥٠٧، الباب ٦٥ من النجاسات، الحديث ٤.

(٢) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ١٦.

(٣) السورة ٧، الأعراف، الآية: ٣٢.

الروايات[١] في اللغو الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿... وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[٢] ولكن ألا تصدّقني في فهمي القاصر عن القرآن الكريم علىٰ أنّ اللغو في هذه الآية الكريمة وفي الكريمة الأُخرى، وهي قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٣] عبارة عن مطلق اللغو؟ فقد جُعل التحرز عن اللغو من صفات عبادالرحمن ومن صفات المتقين، إلّا أنّ الحدّ الأدنى لهذا التحرز الذي أوجبه الفقه علىٰ عامّة الناس هو التحرّز عن الغناء.

والثالث: قد فسّر الفقهاء الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤] بأنّ المقصود هو: الاستماع والانصات لقراءة القرآن من قبل إمام الجماعة، وقد دلّ علىٰ ذلك صحيح زرارة[٥].

وهذا ـ أيضاً ـ ممّا يحدس أنّه من باب الاكتفاء بالأقلّ لعامة الناس، وأنّ الاستماع والانصات لقراءة القرآن مطلوب علىٰ كلّ حال، ويلتزم به العارفون بالله كما ورد التزام سيّد العارفين أمير المؤمنين عليه السلام بذلك حينما قرأ ابن الكوّا وهو خلف أمير المؤمنين عليه السلام في صلاة الصبح: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٦] «... فأنصت عليّ عليه السلام تعظيماً للقرآن حتّىٰ فرغ من الآية، ثُمّ عاد في قراءته، ثُمّ أعاد ابن الكوّا الآية،

---

(١) الوسائل ١٧/٣٠٨، الباب ٩٩ ممّا يكتسب به، الحديث ١٩، وص٣١٦، باب ١٠١ من تلك الأبواب، الحديث ٢.

(٢) السورة ٢٥، الفرقان، الآية: ٧٢.

(٣) السورة ٢٣، المؤمنون، الآيات: ١ ـ ٣.

(٤) السورة ٧، الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٥) الوسائل ٨/٣٥٥، الباب ٣١ من صلاة الجماعة، الحديث ٣.

(٦) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٦٥.

فأنصت عليّ عليه السلام أيضاً، ثُمّ قرأ، فأعاد ابن الكوّا، فأنصت عليّ عليه السلام ثُمّ قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[١]. ثُمّ أتمّ السورة، ثُمّ ركع»[٢].

ولنعد الآن إلىٰ ما كنّا فيه من الحديث عن أنّ الاكتفاء بقشر ظاهري عن الإسلام من عبادة جافّة وطقوس باهتة غير صحيح، فإنّه وإن كان ذاك القشر ـ أيضاً ـ يتلألأ نوراً، ولكن لو نفذنا إلىٰ روح الإسلام وباطنه الوضّاء لرأينا نوراً أوسع وأكثر تلألأً وضياءً وإشراقاً، وهذا الباطن علىٰ رغم وضوحه وبروزه من شبكة القشر ونسيجه قد يخفى علىٰ أُناس عميت بصائرهم لا أبصارهم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٣].

وهذه الروح الوضّاءة لها جانبان:

أحدهما: ما أشرنا إليه حتّىٰ الآن من جانب العرفان، أو قل: التوهج بحبّ الله والسعي إلىٰ رضوان الله الذي هو أكبر من جنّات عدن، والاحتراق بنار الوجد والعشق لله سبحانه وتعالىٰ.

وثانيهما: أنّ الإسلام دين مسيّر للحياة، ونظام كامل شامل لإدارتها بأحسن وجه، كافلاً لسعادة البشر في الدنيا، كما هو كافل لسعادته في الآخرة.

فربّ إنسان يتعبّد بظاهر العبادات الواردة في الشرع، ولكنّه يغفل عن حقيقة إدارة الإسلام للحياة، وأنّ تطبيقه يجعل المسلمين سادة العالَم، ويمكّنهم من فتح كنوز الطبيعة ونعمها وخيراتها وبركاتها ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ

---

(١) السورة ٣٠، الروم، الآية ٦٠.

(٢) الوسائل ٨/٣٦٧، الباب ٢٤ من صلاة الجماعة، الحديث ٢.

(٣) السورة ٢٢، الحج، الآية: ٤٦.

وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١].

وإنّني آسف علىٰ أنّ كثيراً من الذين يتعمّقون في فهم روح الإسلام ويصبون للوصول إليها وللاتّصاف بمتطلّباتها يلتفت إلىٰ أحد الجانبين، ويغفل عن الجانب الآخر.

فالعرفاء التفتوا إلىٰ الجانب الأوّل، وهو: الجانب الروحي، ولكن كثيراً منهم غفلوا عن الجانب الثاني، وهو: جانب إدارة الإسلام لنظام كامل شامل يسعد البشريّة في حياتها الدنيا وضرورة العمل في هذا الحقل إلىٰ أن يفتح الإسلام العالَم أجمع تحت راية إمام العصر حجّة الله علىٰ خلقه عجّل الله تعالىٰ فرجه.

والمجاهدون الإسلاميّون التفتوا إلىٰ الجانب الثاني، وهو: جانب اشتمال الإسلام علىٰ نظام الحياة بالتمام والكمال، ولكن كثيراً منهم غفلوا عن الجانب الأوّل، وابتلوا بالجدب الروحي في عباداتهم وطقوسهم.

والمفروض بالعرفاء وبالإسلاميين أن يتّبعوا الأئمّة المعصومين عليهم السلام في الاهتمام بالإسلام بقشره وبروحه بكلا الجانبين.

ومن أبرز من رأيناه في زماننا هذا ممّن لم يغفل عن أحد الجانبين، وأعطىٰ كلّ جانب حقّه هو: الإمام الراحل آية الله العظمىٰ السيّد روح الله الخمينيّ رضوان الله تعالىٰ عليه، وبهذا وذاك استطاع أن ينفذ في قلوب المؤمنين إلىٰ أن وُفِّق لإقامة دولة الإسلام علىٰ بقعة من بقاع الأرض.

وما أقبح ما ينقله بعض مخلصي الحدّاد من أنّ السيّد الإمام قدس سره أراد أن يلتقي به، ولكن الحدّاد لم يره أهلاً لذلك، فلم يشرّفه بهذا الشرف؟!

ثُمّ إنّ فهم الإسلام بهذا الشكل الذي أشرنا إليه، وطَرْحَه بهذا الأُسلوب والتوجّه

---

(١) السورة ٢٨، القصص، الآيتان: ٥ ـ ٦.

إلىٰ مغزاه المشتمل علىٰ الجانبين اللذين ألمحنا إليهما من روحه وواقعه النابض بالحياة له تأثير كبير علىٰ إبعاد الإنسان عن المعصية الذي لا يكفي فيه مجرّد التذكير بالجنّة والنار.

وتوضيح المقصود: أنّ الإنسان ميّال بسبب العامل الداخلي، وهي: شهوات النفس، والعامل الخارجي، وهي: المغريات إلىٰ المعاصي والمخالفات. وللإسلام علاج عملي لذلك، لسنا هنا بصدد شرحه.

وإجمالُه: أنّ الإسلام جُعِلَ دين الفطرة، وجُعِلَ نظاماً يلبي الحاجات الحقيقيّة للإنسان، ويؤمّن ـ لو طبّق تطبيقاً حقيقيّاً علىٰ الحياة خارجاً ـ كلَّ حاجات الإنسان الواقعية، ولا يحدَّد الإنسان إلّا من ناحية ميوله الشرّيرة غير الراجعة إلىٰ الحاجات الحقيقية كالحسد وحبّ الإيذاء مثلاً، وكذلك من ناحية السَّرف في تلبية الحاجات الحقيقيّة والتي ترجع غالباً أو دائماً إلىٰ ما يخرج من دائرة الحاجات الحقيقيّة. أمّا في دائرة تلك الحاجات الفطرية الطبيعية فليس للإسلام إلّا تنظيم وتهذيب طريقة تلبيتها وإشباعها لا رفض ذلك، وما نراه خارجاً من فقر الفقراء أو عوز المعوزين لكثير ممّا يحتاجون إليه من وسائل الراحة أو الرفاه إن هو ـ عادة ـ إلّا بسبب عدم تطبيق البشريّة لنظام الإسلام بشكله الكامل الموجب لفتح السماء والأرض خيراتهما وبركاتهما أو بسبب سوء التقسيم بين الناس **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[1] **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾**[2]

---

(١) السورة ٧، الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) السورة ٥، المائدة، الآية: ٦٦.

﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً﴾[١] **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾**[٢]. فقتر النعمة وضيقها علىٰ المعوزين يعود في الحقيقة إلىٰ ظلم الإنسان لا إلى فقر أودعه الله في الطبيعة.

وعلاوة علىٰ ذلك زوّد الله تبارك وتعالىٰ الإنسان بالقوّة المميّزة للخير والشّر، وهي: العقل، والعقل يقتضي بطبيعة الحال في الإنسان أن يضحّي دائماً بمصلحته المهمّة في سبيل مصلحته الأهمّ. فالإنسان المعتقد بالله وبالجزاء ـ بعد فرض غضّ النظر عن الروحيات العرفانيّة، والمُثل العُليا، والعقل العملي والمصالح العامّة، وفرض حصر تفكيره ودوافعه في مصالحه الشخصيّة ـ يكفيه أن يوازن بين لذّة مؤقّتة ضعيفة محرّمة، ومصالحه الأُخرويّة أعني: النجاة من النار والفوز بالجنّة، فيستعدّ للتضحية بتلك اللّذة الضعيفة المؤقتة في سبيل مصلحته العُليا الدائمة.

ولكن الذي نراه عملاً هو: أنّ كثيراً من الناس المعتقدين بالمبدأ والمعاد لم يكفهم هذا الرادع للارتداع عن المعصية، وكأنّ السبب في ذلك: أنّ الدنيا نقد حاضر، والآخرة أمر مستقبلي مؤجّل، وتوجد في الإنسان حالة الميل إلىٰ الحاضر في مقابل الأمر المؤجّل الاستقبالي. وهذا نقص في طبيعة غالبيّة البشر.

ولعلّه يشير إلىٰ هذه الحالة قوله سبحانه وتعالىٰ: **﴿إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾**[٣] وقوله تعالىٰ: **﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ**

---

(١) السورة ٧٢، الجن، الآية: ١٦.

(٢) السورة ١٤، إبراهيم، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤.

(٣) السورة ٧٦، الإنسان، الآية: ٢٧.

الآخِرَةَ﴾[١].

فلابدّ لهذا النقص من علاج، وقد ينجح ولو إلىٰ حدّ مّا علاج ذلك بأصل التذكير بالتزاحم بين المصلحتين، وضرورة تضحية المهمّ في سبيل الأهم من ناحية، وتوضيح مدىٰ أهميّة مصلحة الآخرة من ناحية أُخرى، من قبيل بيان أنّ الثواب جنّة عرضها السموات والأرض، والعقاب عقاب لا تقوم له السموات والأرض.

ولكنّنا نرىٰ عملاً: أنّ هذا ـ أيضاً ـ غير كافٍ في كثير من النفوس.

وهنا مكمّل آخر لو أضيف إلىٰ ذلك ينجح كثيراً، إلّا في من غلب عليه الشقاء أو الخبث، وهو: أن تكشف له حقيقة الإسلام بشكله النابض بالحياة وبروحه الشفّافة الخلّابة التي أشرنا إليها ضمن جانبين، فمن عرف روح الإسلام وتذوّقه ينال من ذلك لذّة لا تدانيها لذّة، وينسى كلّ اللذائذ الدنيويّة الدنية والشهوات النفسية المهلكة. ولنعم ما قال الشاعر بالفارسيّة:

اگر لذّت ترك لذّت بداني   دگر لذّت نفس لذّت نخواني

ويضاف ـ أيضاً ـ إلىٰ جانب لذّة العرفان ـ التي نعني بها التلذّذ برضوان الله، وتذوق حبّ الله إلىٰ حدّ الشغف والتيم، وتحصيل اللقاء المعنوي بالله تعالىٰ وكذلك لذّة المعرفة بتسيير الإسلام الحياة السعيدة بنظام كامل شامل ـ مكمّل آخر للابتعاد عن المعاصي، وهو: أن يسعىٰ الإنسان في سبيل تفتيح منابع الخير المودعة من قبل الله في نفسه عادة، من قبيل حبّ الإيثار وحبّ الوفاء والصدق وما إلىٰ ذلك، فإنّ هذه الغرائز ـ أيضاً ـ موجودة في الإنسان العادي إلىٰ جنب الغرائز الشهوانيّة والحيوانيّة، ولعلّ هذا أحد معاني قوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢] فكما يمكن للإنسان أن ينمّي غرائزه الحيوانيّة والشهوانيّة كذلك يمكنه أن ينمّي الغرائز الخيّرة

---

(١) السورة ٧٥، القيامة، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) السورة ٩٠، البلد، الآية: ١٠.

في نفسه، وبإمكانك أن تحسب هذا الجانب ـ أيضاً ـ جزءاً من العرفان الإسلامي الصحيح، فيكون تذوّق حبّ الله، والالتذاذ بالوصول إلىٰ الله، وبتحصيل رضا الله جزءاً من كلّ، وهو: تفتيح منابع الخير المعنوية الكاملة في النفس البشريّة وتنميتها، كما أنّ كلاً من هذين الأمرين يساعد الإنسان علىٰ الأمر الآخر، فالإيثار مثلاً وكذلك باقي صفات الخير يقرّب الإنسان إلىٰ الله، كما أنّ الاقتراب إلىٰ الله يحبّب إلىٰ الإنسان جميع الخيرات.

وقد يكون الدافعُ للإنسان السالك في المراحل الأُولى إلىٰ الخير أو إلىٰ تحصيل رضوان الله التذاذَه بذلك، وكلّما مشىٰ في الطريق أكثر إزداد التذاذه الذي يكون دافعاً له نحو الوصول إلىٰ القمّة، ولكن المفروض بالإنسان السالكٰ أن يصل إلىٰ مستوىً يكون دافعه إلىٰ الخير وإلىٰ رضوان الله نفس الخير والرضوان لا الالتذاذ بهما، وإن كان الالتذاذ يشتدّ ـ عندئذٍ ـ بذلك.

وعلىٰ أيّة حال، فقد اتّضح بكلٍّ ما سردناه: أنّ العرفان الذي تُفْتَرَض نتيجتُه الفناء والذوبان بالمعنىٰ الحقيقي للكلمة في الله عرفانٌ كاذبٌ، بل قد ينتهي إلىٰ الكفر والإلحاد، والمعصومون عليهم السلام منه براء. والعرفان الذي ينتهي إلىٰ الفناء والذوبان في الله كفناء العاشق في المعشوق وذوبانه فيه المألوفِ في العشق المجازي بين الناس أنفسهم ـ بفرق أنّ قياس هذا العشق والفناء إلىٰ ذاك العشق والذوبان قياسُ قطرة إلىٰ بحر غير متناهٍ ـ هو العرفان الصحيح الموروث عن المعصومين عليهم السلام «واجعلْ لساني بذكركَ لِهِجَاً، وقلبي بحبّك متيماً»[1] ويصل العارف إلىٰ مستوىً لا تبقىٰ له إرادة في مقابل إرادة الله تعالىٰ «...رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر علىٰ بلائه، ويوفّينا أجورَ الصابرين...»[2].

---

(١) دعاء كميل.

(٢) من خطبة للحسين عليه السلام لدىٰ عزمه علىٰ الخروج إلىٰ العراق، راجع البحار ٤٤/٣٦٧.

ختامه مسك:

والآن حان لنا أن نختم هذا المدخل المختصر إلىٰ حديثنا العملي عن تـزكية النفس بذكر رواية مرويّة عن الشبليّ، عن سيّدنا ومولانا زين العابدين عليه السلام. وليس هذا هو الشبليّ المعروف المسمّىٰ بجعفر بن يونس؛ فإنّه كان متأخِّراً عـن زمـان إمامنا زين العابدين عليه السلام بكثير، وكان قد مات في سنة ثلاث مئة وأربع وثلاثين أو خمس وثلاثين علىٰ ما ورد في روضات الجنّات[1]، والرواية ما يلي:

قال المحدّث النوري رحمه الله في مستدرك الوسائل[2] ما نصّه:

العالم الجليل الأوّاه السيّد عبدالله سبط المحدّث الجزائري في شـرح النـخبة قال: وجدت في عدّة مواضع أُوثِّقُها بخطّ بعض المشايخ الذين عاصرناهم مرسلاً أنّه: «لمّا رجع مولانا زين العابدين عليه السلام من الحـجّ اسـتقبله الشـبليّ فـقال عليه السلام له: حججت يا شبليّ؟ قال: نعم يابن رسول الله، فقال عليه السلام: أنزلت الميقات، وتجرّدت عن مخيط الثياب، واغتسلت؟ قال: نعم، قال:فحين نزلت المـيقات نـويت أنّكَ خلعت ثوب المعصية، ولبست ثوب الطاعة؟ قال: لا، قال: فحين تـجرّدت عـن مخيط ثيابك نويت أنّكَ تجرّدت من الرياء والنـفاق والدخـول فـي الشـبهات؟ قال: لا، قال: فحين اغتسلت نويت أنّك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟ قال: لا، قال: فما نزلت الميقات، ولا تجرّدت عن مخيط الثياب، ولا اغتسلت.

ثُمَّ قال: تنظّفت، وأحرمت، وعقدت بالحجّ؟ قال: نعم، قـال: فـحين تـنظّفت، وأحرمت، وعقدت الحجّ نويت أنّكَ تنظّفت بنورَةِ التوبة الخالصة لله تعالىٰ؟ قال: لا، قال: فحين أحرمت نويت أنّك حرّمت عـلىٰ نـفسك كـلَّ مـحرّم حـرّمه الله عزَّ وجلّ؟ قال: لا، قال: فحين عقدت الحجّ نويت أنّكَ قد حللت كلَّ عقد لغير الله؟

---

(١) روضات الجنّات ٢/٢٣٥. ط ـ إسماعيليان ـ قم.

(٢) مستدرك الوسائل ١٠/١٦٦ ـ ١٧٢.

قال: لا، قال لهعليه السلام: ما تنظّفت، ولا أحرمت، ولا عقدت الحجّ.

قال له: أدخلت الميقات، وصلّيت ركعتي الإحرام، ولبّيت؟ قال: نعم، قال: فحين دخلت الميقات نويت أنّك بنيّة الزيارة؟ قال: لا، قال: فحين صلّيت الركعتين نويت أنّكَ تقرّبت إلىٰ الله بخير الأعمال من الصلاة وأكبر حسنات العباد؟ قال: لا، قال: فحين لبّيت نويت أنّك نطقت لله ـ سبحانه ـ بكلّ طاعة، وصمتّ عن كلّ معصية؟ قال: لا، قال لهعليه السلام: ما دخلت الميقات، ولا صلّيت، ولا لبّيت.

ثُمّ قال له: أدخلت الحرم، ورأيت الكعبة، وصلّيت؟ قال: نعم، قال: فحين دخلت الحرم نويت أنّك حرّمت علىٰ نفسك كلّ غيبة تستغيبها المسلمين من أهل ملّة الإسلام؟ قال: لا، قال: فحين وصلت مكّة نويت بقلبك أنّك قصدت الله؟ قال: لا، قالعليه السلام: فما دخلت الحرم، ولا رأيت الكعبة، ولا صلّيت.

ثُمّ قال: طفت بالبيت، ومسست الأركان، وسعيت؟ قال: نعم، قالعليه السلام: فحين سعيت نويت أنّك هربت إلىٰ الله، وعَرَفَ منك ذلك علّام الغيوب؟ قال: لا، قال: فما طفت بالبيت، ولا مسست الأركان، ولا سعيت.

ثُمّ قال له: صافحت الحجر، ووقفت بمقام إبراهيمعليه السلام وصلّيت به ركعتين؟ قال: نعم، فصاحعليه السلام صيحة كاد يفارق الدنيا، ثُمّ قال: آه آه، ثُمّ قالعليه السلام: مَنْ صافح الحجر الأسود فقد صافح الله تعالىٰ، فانظر يا مسكين لا تضيّع أجر ما عَظُمَ حرمته، وتنقض المصافحة بالمخالفة وقبض الحرام نظير أهل الآثام، ثُمّ قالعليه السلام: نويت حين وقفت عند مقام إبراهيمعليه السلام أنّك وقفت علىٰ كلّ طاعة، وتخلّفت عن كلّ معصية؟ قال: لا، قال: فحين صلّيت فيه ركعتين نويت أنّك صلّيت بصلاة إبراهيمعليه السلام، وأرغمت بصلاتك أنف الشيطان؟ قال: لا، قال له: فما صافحت الحجر الأسود، ولا وقفت عند المقام، ولا صلّيت فيه ركعتين.

ثُمّ قالعليه السلام له: أشرفت علىٰ بئر زمزم، وشربت من مائها؟ قال: نعم، قال: نويت

أنّك أشرفت علىٰ الطاعة، وغضضت طرفك عن المعصية؟ قال: لا، قال عليه السلام: فما أشرفت عليها، ولا شربت من مائها.

ثُمّ قال له عليه السلام: أسعيت بين الصفا والمروة، ومشيت، وتردّدت بينهما؟ قال: نعم، قال له: نويت أنّك بين الرجاء والخوف؟ قال: لا، قال: فما سعيت، ولا مشيت، ولا تردّدت بين الصفا والمروة.

ثُمّ قال: أخرجت إلىٰ مِنىٰ؟ قال: نعم، قال: نويت أنّك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟ قال: لا، قال: فما خرجت إلىٰ مِنىٰ.

ثُمّ قال له: أوقفت الوقفة بعرفة، وطلعت جبل الرحمة، وعرفت وادي نَمِرة، ودعوت الله ـ سبحانه ـ عند الميل والجمرات؟ قال: نعم، قال: هل عرفت بموقفك بعرفة معرفة الله ـ سبحانه ـ أمر المعارف والعلوم، وعرفت قبض الله علىٰ صحيفتك واطلاعه علىٰ سريرتك وقلبك؟ قال: لا، قال: نويت بطلوعك جبل الرحمة أنّ الله يرحم كلَّ مؤمن ومؤمنة، ويتولّىٰ كلَّ مسلم ومسلمة؟ قال: لا، قال: فنويت عند نَمِرة أنّك لا تأمر حتّىٰ تأتمر، ولا تزجر حتّىٰ تنزجر؟ قال: لا، قال: فعندما وقفت عند العلم والنمرات نويت أنّها شاهدة لك علىٰ الطاعات حافظة لك مع الحفظة بأمر ربِّ السموات؟ قال: لا، قال: فما وقفت بعرفة، ولا طلعت جبل الرحمة، ولا عرفت نَمِرة، ولا دعوت، ولا وقفت عند النمرات.

ثُمّ قال: مررت بين العلمين، وصلّيت قبل مرورك ركعتين، ومشيت بمزدلفة، ولقطت فيها الحصى، ومررت بالمشعر الحرام؟ قال: نعم، قال: فحين صلّيت ركعتين نويت أنّها صلاة شكر في ليلة عشر تنفي كلَّ عسر، وتيسّر كلّ يسر؟ قال: لا، قال: فعندما مشيت بين العلمين، ولم تعدل عنهما يميناً وشمالاً نويت أن لا تعدل عن دين الحقِّ يميناً وشمالاً لا بقلبك ولا بلسانك ولا بجوارحك؟ قال: لا، قال: فعندما مشيت بمزدلفة، ولقطت منها الحصى نويت أنّك رفعت عنك كلّ معصية

وجهل، وثبّتّ كلَّ علم وعمل؟ قال: لا، قال: فعندما مررت بالمشعر الحرام نويت أنّك أشعرت قلبك إشعار أهل التقوى والخوف لله عزّ وجلّ؟ قال: لا، قال: فما مررت بالعلمين، ولا صلّيت ركعتين، ولا مشيت بالمزدلفة، ولا رفعتَ منها الحصىٰ ولا مررت بالمشعر الحرام.

ثُمّ قال له: وصلت مِنى، ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصلّيت في مسجد الخيف، ورجعت إلىٰ مكّة، وطفت طواف الإفاضة؟ قال: نعم، قال: فنويت عندما وصلت مِنى ورميت الجمار أنّك بلغت إلىٰ مطلبك، وقد قضىٰ ربّك لك كلَّ حاجتك؟ قال: لا، قال: فعندما رميت الجمار نويت أنّك رميت عدوّك إبليس وغضبته بتمام حجّك النفيس؟ قال: لا، قال: فعندما حلقت رأسك نويت أنّك تطهّرت من الأدناس ومن تبعة بني آدم، وخرجت من الذنوب كما ولدتك أُمّك؟ قال: لا، قال: فعندما صلّيت في مسجد الخيف نويت أنّك لا تخاف إلّا الله عزّوجلّ وذنبك، ولا ترجو إلّا رحمة الله تعالىٰ؟ قال: لا، قال: فعندما ذبحت هديك نويت أنّك ذبحت حنجرة الطمع بما تمسّكت به من حقيقة الورع، وأنّك اتّبعت سنّة إبراهيم عليه السلام بذبح ولده وثمرة فؤاده وريحان قلبه وحاجه[1] سنّته لمن بعده، وقرّبه إلىٰ الله تعالىٰ لمن خلفه؟ قال: لا، قال: فعندما رجعت إلىٰ مكّة، وطفت طواف الإفاضة نويت أنّكَ أفضت من رحمة الله تعالىٰ، ورجعت إلىٰ طاعته، وتمسّكْت بوُدِّه، وأدّيت فرائضه، وتقرّبت إلىٰ الله تعالىٰ؟ قال: لا، قال له زين العابدين عليه السلام: فما وصلت مِنىٰ، ولا رميت الجمار، ولا حلقت رأسك، ولا أدّيت نسكك، ولا صلّيت في مسجد الخيف، ولا طفت طواف الإفاضة، ولا تقرّبت، ارجع فإنّك لم تحجّ. فطفق الشبليّ يبكي علىٰ ما فرّطه في حجّه. ومازال يتعلّم حتّىٰ حجّ من قابل

---

(١) لعلّ الصحيح : وحاجة سنّته لمن بعده، أي: إنّ سنّته كانت بحاجة لمن بعده إلىٰ خَلَف له كإسماعيل، ولكنّه مع ذلك قرّبه قرباناً لامتثال أمر الله، أو الصحيح: وأحييٰ سنّته.

بمعرفة ويقين».

ولنعم ما قيل بالفارسيّة قريباً من مضامين هذه الرواية :

حاجیان آمدند با تعظیم   شاکر از رحمت خدای رحیم
آمده سوی مکّه از عرفات   زده لبّیك عمره از تنعیم
خسته از محنت و بلای حجاز   رسته از دوزخ و عذاب الیم
یافته حجّ و عمره کرده تمام   بازگشته بسوی خانه سلیم
من شدم ساعتی به استقبال   پای کردم برون زحدّ گلیم
مرمرا در میان قافله بود   دوستی مخلص و عزیز و کریم
گفتم او را بگوی چون رستی   زین سفر کردنت به رنج و به بیم
تا زتو باز ماندهام جاوید   فکرتم را ندامت است ندیم
شاد گشتم بدانکه حج کردی   چون تو کس نیست اندر اینِاقلیم
باز گو تا چگونه داشته ای   حرمت آن بزرگوار حریم
چون همی خواستی گرفت احرام   چه نیت کردی اندر آن تحریم
جمله بر خود حرام کرده بُدی   هر چه ما دون کردگار عظیم
گفت نی گفتمش زدی لبیك   از سر علم و از سَر تعظیم
می شنیدی ندای حقّ و جواب   باز دادی چنانکه داد کلیم
گفت نی گفتمش چو در عرفات   ایستادی و یافتی تقدیم
عارف حقّ شدی و منکر خویش   به تو از معرفت رسید نسیم
گفت نی گفتمش چو می رفتی   در حرم همچو اهل کهف و رقیم
ایمن از شرّ نفس خود بودی   در غم حرقت و عذاب جحیم
گفت نی گفتمش چو سنگ جمار   همی انداختی بدیو رجیم
از خود انداختی برون یکسو   همه عادات و فعلهای ذمیم

گفت نی گفتمش چو می کُشتی — گو سپند از پی اسیر و یتیم

قرب حقّ دیدی اوّل و کردی — قتل و قربان نفس دون لئیم

گفت نی گفتمش چو گشتی تو — مطّلع بر مقام ابراهیم

کردی از صدق و اعتقاد و یقین — خویشی خویش را به حقّ تسلیم

گفت نی گفتمش بوقت طواف — که دویدی بهروله چو ظلیم

از طواف همه ملائکیان — یاد کردی بگرد عرش عظیم

گفت نی گفتمش چوکردی سعی — از صفا سوی مروه بر تقسیم

دیدی اندر صفای خود کونین — شد دلت فارغ از جحیم ونعیم

گفت نی گفتمش چو گشتی باز — مانده از هجر کعبه دل بدونیم

کردی آنجا بگور مر خود را — همچنان استخوان که گشته رمیم

گفت از این باب هر چه گفتی تو — من ندانسته‌ام صحیح وسقیم

گفتم ای دوست پس نکردی حج — نشدی در مقام محو مقیم

رفته و مکّه دیده آمده باز — محنت بادیه خریده بسیم

گر تو خواهی که حج کنی پس ازین — این چنین کن که کردمت تعلیم

هذا تمام كلامنا في مدخل الحديث العملي عن تزكية النفس.



الحلقة الثالثة

البحث العملي لتزكية النفس





الفصل الأوّل
التوبة والإنابة

متىٰ نبدأ؟ ومن أين نبدأ؟

هذان سؤالان نواجههما بادئ ذي بدء، ونحاول الإجابة عنهما :

متىٰ نبدأ؟

هل نبدأ بتزكية النفس من بعد انتهاء الشباب، بدليل أنّ فترة الشباب هي فترة طغيان النفس وفوران الشهوات، وبعد هذه الفترة نكون أقدر علىٰ تهذيب النفس وتزكيتها؟

چون پير شدى حافظ از ميكده بيرون آى
رندىّ و هوسناكـى در عـهد شـباب اولىٰ

والواقع علىٰ العكس من ذلك تماماً، فلو ضَمِنَ لنا أحد الوصول إلى فترة ما بعد الشباب وعدم مباغتة الموت، قبلَ ذلك:

فأوّلاً : يكون التمادي في المعاصي والشهوات في حالة الشـباب مـانعاً عـن التزكية لدىٰ الشيب؛ لأنّ ذلك يوجب ظلمة القلب وانكسار قوّة الضمير والوجدان، ولهذا ستكون التوبة لدىٰ الشيب أصعب بكثير من ترك الذنوب لدىٰ الشباب.

وثانياً : إنّ الضعف الذي يستولي علىٰ الإنسان لدىٰ الشيب يوجب صعوبة الصبر علىٰ مشقّة التزكية ومخالفة النفس.

وثالثاً : إنّ أكثر الشهوات تزداد لهيباً واشتعالاً لدىٰ الشيب، فلو كـانت شـهوة الجنس تَخِفّ أو تخمد لدىٰ الشيب ـ وهي أمر فطريّ يمكن إشباعه لدىٰ الشباب

بالطُرُق المحلّلة عادة ـ فهناك شهوات أُخرىٰ تشتعل وتَلْتَهِب أكثر فأكثر بتقدّم العمر، ويشيب ابن آدم وتشبّ فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل، فعن رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم ويشبّ منه اثنان: الحرص علىٰ المال والحرص علىٰ العمر»[١].

وعنه ﷺ: «يهلك ـ أو قال ـ يهرم ابن آدم ويبقىٰ منه اثنتان الحرص والأمل»[٢].

وعن طُرُق العامّة عن رسول الله ﷺ : «حبّ الشيخ شابّ في طلب الدنيا وإن التفّت ترقوتاه من الكِبَر، إلّا الذين اتقوا، وقليل ماهم»[٣].

وإفساد طول الأمل وكذلك اتّباع الهوىٰ علىٰ الإطلاق للنفس أكثر بكثير من مجرّد فوران شهوة الجنس في الشابّ. وقد ورد عن امير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم خصلتان: اتّباع الهوى وطول الأمل، أمّا اتّباع الهوىٰ فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة»[٤]. وليس اتّباع شهوة الجنس إلّا جزءاً يسيراً من اتّباع الهوىٰ.

إذن فتجب المبادرة إلى تهذيب الروح وتزكية النفس من أوّل سني البلوغ وأوّل حالة الشباب. وقد ورد عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالىٰ: « ﴿... **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**...﴾[٥] أنّه توبيخ لابن ثماني عشر سنة»[٦]. ولئن استطاع أحد أن يربّي نفسه قبل سني البلوغ كي لا تزل به قدمه بعد البلوغ ويكون ملتزماً بتكاليفه من أوّل البلوغ، لكان ذلك خيراً.

---

(١) البحار ٧٣/١٦١.

(٢) البحار ٧٣/١٦١.

(٣) المحجّة البيضاء ٨/٢٤٩.

(٤) البحار ٧٣/١٦٣.

(٥) السورة ٣٥، فاطر، الآية: ٣٧.

(٦) تفسير البرهان ٣/٣٦٦.

وعلىٰ أيّة حال، فمن لم يتوفّق للتزكية مبكّراً فالمفروض به أن يبادر إلى ذلك في أقرب وقت من أوقات عمره مهما فرض فوات الفرصة؛ لأنّه بقدر ما يؤخّر العمل بهذا الصدد ستزداد الصعوبات أمام نفسه أكثر فأكثر وتضيق الفرصة أكثر من ذي قبل. وقد ورد في الحديث عن الصادقعليه السلام: أنّه «مكتوب في التوراة نُحنا لكم فلم تبكوا، وشوّقناكم فلم تشتاقوا... أبناء الأربعين أُوفوا للحساب، أبناء الخمسين زرع قد دنا حصاده، أبناء الستّين ماذا قدّمتم وماذا أخّرتم، أبناء السبعين عدّوا أنفسكم في الموتىٰ...»[1] ولنعم ما قيل:

أعينيّ لم لا تبكيان علىٰ عمري   تناثر عمري من يديّ ولا أدري
إذا كنت قد جاوزت خمسين حجةً   ولم اتأهب للمعاد فما عذري

ولنعم ما قيل بالفارسيّة :

چو در موى سياه آمد سفيدى   پديد آمد نشان نا اميدى
زپنبه شد بنا گوشت كفن پوش   هنوز اين پنبه بيرون نارى از گوش

وأيضاً نعم ما قيل بالفارسيّة :

دوشم از سر رفت خواب و ميگذشت   با غم دل چون دگر شبهاى من
تيک تاک ساعت آوردم بخود   در سخن شد ناصح گوياى من
با زبان عقربك ميگفت عُمْر   مى روم بشنو صداى پاى من
روز اگر سر گرم خواب غفلتى   در دل شب گوش كن آواى من
تو أسير آرزوهاى زمان   لحظهٔ غافل نه از يغماى من
اى ندانسته بهاى عمر خويش   نيستت آخر چرا پرواى من
از نداى عُمْر بر احوال خويش   نوحه گر شد طبع غم افزاى من
عمر من سرمايهٔ من هست ونيست   هم بر اين سرمايه استيلاى من

---

(١) البحار ٣٦/٦.

در كـــمين مـــن زمـــان تـــندرو	عــاجز از تـدبير كـارش راى مـن
بـــى خـبر از سـرنوشت خـويشتن	زندگى شد خـواب وحشـتناى مـن
اى زمان اى سود مـن از تـو زيـان	اى مـحال از گـردشت ابـقاى مـن
اين تو واين سـير بـرق افـزاى تـو	وين من ووين رنج جان افزاى مـن

ولنعم ما قيل:

ألا يـــا أيّـها القـمر المـضيء	إلىٰ كـــم تــذهبنّ وكـم تــجيء
ذهبت وفـي ذهـابك قـصر عـمري	رجــعت وفـي رجـوعك لا يـجيء

من أين نبدأ؟

كنت أتمنّىٰ أن يكون بدء عملنا من ما فوق الصفر؛ لأنّه قد مضى من عمرنا عدد من السنين إن قليلاً أو كثيراً، فالمفروض أنّنا قد طوينا مساحة من الطريق، فليست بداية عملنا الآن من الصفر.

ولئن تنازلنا عن ذلك فإنّني كنت أتمنّىٰ أن يكون بدء عملنا من الصفر، ومن صفحة بيضاء خالية عن الذنوب وعن الكمالات العرفانيّة.

ولكن الذي يحرق القلب ويدمي الفؤاد ويُبكي العين أن بدء عملنا في الأعمّ الأغلب لابدّ أن يكون من تحت الصفر، أي: يجب علينا أن نبدأ بغَسل الصفحة السوداء في قلوبنا بماء التوبة؛ لأنّنا تنزّلنا وتدهورنا عن حدّ الاعتدال الفطري بسبب المعاصي والذنوب، فالآن يجب علينا أن نبدأ بإزالة ماهو ضدّ الكمال لابصعود مدارج الكمال من أرضٍ معتدلة وقلب صافٍ، ولكنّ الذي يسلّينا عن هذه المصيبة أنّنا لسنا وحدنا هكذا نمشي في الطريق، بل يمشي أمامنا في طريق التوبة المعصومون، وأنا أفهم أنّ هذا الكلام الذي قلته ليس منطقيّاً؛ لأنّ توبتهم عليهم السلام تختلف سنخاً عن توبتنا؛ لأنّ ذنوبهم تختلف سنخاً عن ذنوبنا؛ وذلك بدليل العصمة، ولكن نبرّد أنفسنا بمجرد التشارك في الاسم، ونقول: يا ربّنا كيف لا تقبل

توبتنا ونحن قافلة عظيمة أتيناك تائبين، وأمامنا في الطريق أنبياؤك المرسلون والأئمّة المعصومون وأنت أكرم من أن تقبل توبة صدر القافلة وتوردهم مناهلك الرويّة ثُمّ تسدّ باب القبول علىٰ الذيول الوافدة التابعة لاؤلئك المقربين في سلوك الطريق.

فهذا نبيّ الله داود وهو معصوم عن الذنب بالمعنىٰ الذي نفهمه من الذنب المألوف لدىٰ غير المعصومين ولكن لهجته في التوبة عين لهجتنا حيث قال الله تعالىٰ: ﴿... **وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ**﴾[1] وهذا زين العابدين وسيّد الساجدين يقول ـ علىٰ ما ورد في مناجاة التائبين[2] ـ: «إلهي إن كان الندم علىٰ الذنب توبة فإنّي وعزّتك من النادمين، وإن كان الاستغفار من الخطيئة حِطّة فإنّي لك من المستغفرين، لك العتبىٰ حتّىٰ ترضىٰ...» ويقول ـ أيضاً ـ فيما رواه طووس الفقيه[3]: «وعزّتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك، وما عصيت إذ عصيتك وأنا بك شاكّ ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرّض، ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني علىٰ ذلك سترك المرخىٰ به عليّ، فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنّي؟ فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفّين: جوزوا، وللمثقلين حطّوا، أمع المخفّين أجوز؟ أم مع المثقلين أحطّ ...».

وهنا أُكرّر أن توبتهم عليهم آلاف التحيّة والثناء تختلف سنخاً وهويّة عن توبتنا؛ لأنّ ذنوبهم تختلف سنخاً وهويّة عن ذنوبنا.

وهنا اتبرّك بذكر كلام سيّد العارفين في زماننا الإمام الخمينيّ؇ حيث يعتذر

---

(١) السورة ٣٨، ص، الآية: ٢٤.

(٢) المناجاة الأُولى من المناجيات الخمس عشرة المعروفة.

(٣) البحار ٤٦/٨١.

عن شرح أنحاء التوبة المختلفة في السّنخ في كتابه (الأربعون حديثاً)[1] بقوله: «اعلم أنّ للتوبة حقائق ولطائف وأسراراً، ولكلّ واحد من أهل السلوك إلىٰ الله توبة خاصّة تتناسب مع مقامه، وحيث أن لا حظّ ولا نصيب لنا في تلك المقامات فلا يناسب شرحها والإسهاب في هذا الكتاب».

أقول: وممّا يؤيّد ما أفاده ـ رضوان الله عليه ـ من تعدّد أنحاء التوبة بتعدّد المقامات التي وصل إليها العبد ما ورد في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام: «التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولابدّ للعبد من مداومة التوبة علىٰ كلّ حال. وكلّ فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ، وتوبة الأصفياء من التنفّس، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الخاصّ من الاشتغال بغير الله، وتوبة العامّ من الذنوب. ولكلّ واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهىٰ أمره...»[2].

والآن حان لنا وقت الدخول في بحث التوبة.

قال الله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾**[3].

وقال عزّ من قائل: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ**

---

(١) في ذيل الحديث السابع عشر: ص ٢٨٣ بحسب أصل الكتاب الفارسي وص ٢٦٧، بحسب الترجمة العربيّة التي قام بها السيّد محمّد الغروي حفظه الله.

(٢) البحار ٦ / ٣١.

(٣) السورة ٤، النساء، الآيتان : ١٧ ـ ١٨.

يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[١].

وقال عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[٢].

وقال عزّ اسمه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّـهَ هَـدَانِـي لَكُـنتُ مِـنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

إنّ آيات التوبة في القرآن كثيرة، وكان اختياري لهذه الآيات الأربع بالذات لبدء الحديث في التوبة لنكات خاصّة بها:

أمّا الآية الأُولى فالنكتة الخاصّة بها هي ما ورد فيها: من أنّ الله ـ تعالىٰ ـ فرض علىٰ نفسه التوبة علىٰ العبد التائب حيث قال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ...﴾ وكلمة ﴿عَـلَىٰ﴾ تـعطي مـعنىٰ الوجـوب، فلاحظ رحمة الربّ ـ تعالىٰ ـ الذي لا يجب عليه عقلاً قبول التـوبة؛ لأنّ العـبد العاصي بعد أن خالف نظام العبوديّة فهو لا محالة يستحقّ جـزاء عـمله، وليست التوبة ماحية لاستحقاقه، ولكنّك تقف إعظاماً وإكباراً للرحمة البارزة في هذه الآية الشريفة؛ إذ فرض الله ـ تعالىٰ ـ قبول التوبة أمراً واجباً علىٰ نـفسه، وكأنّ عـبده

---

(١) السورة ٣، آل عمران، الآيتان: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) السورة ٢٥، الفرقان، الآية: ٧٠.

(٣) السورة ٣٩، الزمر، الآيات: ٥٣ ـ ٥٨.

المذنب له حقّ دلالٍ علىٰ الربّ ـ تبارك وتعالىٰ ـ يطالبه بما أوجبه علىٰ نفسه من المغفرة والرحمة والتوبة عليه.

ولعلّ السبب في هذا ـ بعد وضوح سعة رحمته التي ستظهر في يوم القيامة حتّىٰ يطمع إبليس فيها[١] ـ واضح، وهو: أنّ فرض العقاب علىٰ ذنوب العباد لم يكن بهدف التشفّي من العبد تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً، بل كان بهدف جعله رادعاً للعبد عن الهلاك وسقوطه في وادي الضلال وفي رذائل النفس وقبائح الأعمال، ومحفّزاً له علىٰ تزكية نفسه وتنمية الفضائل في ذاته، وتكميله في سلّم المعنويات بقدر قابليّته، هذا بالنسبة لغير الخبيث الذي وصل استحقاقه للعقاب (لولا أن يتوب) إلى حدّ لا يكون قابلاً للعفو عنه، أمّا بالنسبة لهذا فهناك ملاك آخر للعقاب زائداً علىٰ ما مضىٰ لسنا الآن بصدد شرحه. فإذا تاب العبد وأناب إلى ربّه فقد طهّر نفسه، واستعاد حسن سريرته، وبدأ يرقىٰ مرقىٰ الكمال، فقد تحقّق الهدف الذي كان كامناً من وراء فرض العقاب، فالربّ تعالىٰ يكون ـ عندئذٍ ـ أعلىٰ وأجلّ من أن يعاقبه، وهو تبارك وتعالىٰ قد فرح ـ إن صحّ التعبير ـ بحصول الهدف المنشود، وهو: هداية العبد. فقد ورد في الحديث عن أبي عبيدة الحذّاء قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام: ألا إنّ الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجل ضلّت راحلته في أرض قفر وعليها طعامه وشرابه، فبينما هو كذلك لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجّه حتّىٰ وضع رأسه لينام فأتاه آتٍ فقال له: هل لك في راحلتك، قال: نعم، قال: هو ذه فاقبضها، فقام إليها فقبضها، فقال ابو جعفر عليه السلام: والله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من ذلك الرجل حين وجد راحلته»[٢].

وأمّا الآية الثانية وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا

---

(١) راجع البحار ٧/٢٨٧، الباب ١٤ من كتاب العدل والميعاد، الحديث ١.

(٢) البحار ٦/٣٨ ـ ٣٩.

اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ...﴾ فالنكتة في اختياري لذكرها هنا هي: الحديث الوارد في ذيل تفسير هذه الآية عن الصادقعليه السلام[1] قال: «لمّا نزلت هذه الآية: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً...﴾** صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له: ثور، فصرخ بأعلىٰ صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه، فقالوا: يا سيّدنا لِمَ دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، فقال: لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال: لست لها. فقال الوسواس الخنّاس: أنا لها، فقال: بماذا؟ قال: أعدهم وأُمنّيهم حتّىٰ يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أُنسيهم الاستغفار، فقال: أنت لها. فوكّله بها إلىٰ يوم القيامة».

وأمّا الآية الثالثة وهي قوله تعالىٰ: **﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً...﴾** فكانت النكتة في اختياري لها لبدء الحديث بالتوبة ما في هذه الآية ممّا يقف العقل أمامه إعظاماً وإكباراً لرحمة الربّ؛ إذ لم يذكر فيها مجرّد عفو الله ـ تعالىٰ ـ عن ذنوب التائبين، بل ذكر تبديل سيّئاتهم حسنات، فأيّ رحمة هذه التي لا تقتصر علىٰ ترك العقاب، بل تبدّل السيّئة حسنة، وتبدّل العقاب ثواباً؟! ولعلّ تفسير الآية يكون أنسب بالقول بتجسّم الأعمال، فبدلاً عن أن يُروا أعمالهم السيّئة سيّئات يُرونها حسنات. وقد ورد في الحديث عن الباقرعليه السلام قوله: «ويستر عليه من ذنوبه ما يكره أن يوقفه عليها. قال: ويقول لسيّئاته: كوني حسنات. قال: وذلك قول الله تبارك وتعالىٰ: **﴿...أُوْلَـئِكَ يُبَدِّلُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾**»[2].

وقد يقول القائل: إذن فلنرتكب السيّئات حتّىٰ نتوب بعد ذلك، وبهذا تزداد حسناتنا.

---

(١) راجع تفسير البرهان ١/٣١٦.

(٢) البحار ٧/٢٦٠.

ولكن صاحب هذا الكلام غفل أوّلاً عن عدم ضمانٍ لنفي مباغتة الموت قبل التوبة. وثانياً عن أنّ ترك الذنب أهون من التوبة، ولا يعلم أنّه سيتوفق إلى التوبة لو أذنب، فإنّ الندم الذي هو أوّل شرائط التوبة لا يتحقّق بسهولة، فضلاً عن باقي شرائطها التي تتلو النَدَم. وقد ورد عن الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة. وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، والموت فضح الدنيا، فلم يترك لذي لبّ فرحاً»(١) . وثالثاً عن أنّ تبدّل السيّئات حسنات لا يعني أنّ المذنب إذن صار أكثر ثواباً من غير المذنب؛ لانضمام سيّئاته إلى حسناته؛ وذلك لأنّ الحسنات التي تعطىٰ لتارك الذنوب بسبب تركه للذنوب أو بسبب رحمة الرب لا تقاس بالتي تعطىٰ للتائب، ومن الباطل عقلاً أن يكون التائب من الذنب أفضل من المتحرّز من الذنب.

وأمّا الآية الرابعة وهي قوله تعالىٰ: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً** ...﴾ فالسبب لاختياري بدء الحديث بذكرها ما فيها من العموم الواضح الدال علىٰ غفران جميع الذنوب بلا استثناء، وبما فيها أشدّ الذنوب، وهو: الشرك، أمّا ما تراه من استثناء الشرك في قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ...﴾(٢) فذلك ناظر إلى المغفرة من دون توبة، في حين أن قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً** ...﴾ ناظر إلى المغفرة علىٰ أثر التوبة. والشاهد الداخلي علىٰ ذلك من نفس الآية قوله تعالىٰ بعدها مباشرة: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ**﴾.

أمّا الأُمور التي نريد أن نبحثها في مسألة التوبة فهي :

الأوّل : ضرورة التوبة.

---

(١) أُصول الكافي ٢/٤٥١.

(٢) السورة ٤، النساء، الآية: ٤٨.

الثاني : مقدّمة التوبة.

الثالث : أركان التوبة وشرائطها.

الرابع : التوبة النصوح.

الأمر الأوّل ـ ضرورة التوبة :

إنّ ضرورة التوبة تنبع من ضرورة الإيمان، وفلسفتها نفس فلسفة الإيمان والطاعة.

فمَن يرىٰ أنّ فلسفة الإيمان والطاعة عبارة عن الهروب من النار والطمع في الجنّة، فنفس الفلسفة هي التي تملي عليه التوبة؛ وذلك لأنّ الطريق الوحيد الذي أوجب الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ نفسه أن يغفر عن ذاك الطريق ولا يوجد فيه التخلّف، إنّما هو: التوبة؛ إذ قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾[1] أمّا المغفرة بلا توبة فهي تتحقّق من الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بلا شك، ولكنّه لم يوجبها علىٰ نفسه، بل علّقها علىٰ مشيئته في قوله تعالىٰ: ﴿... **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** ...﴾[2] كما أنّ قبول شفاعة الشافعين علّقه علىٰ ارتضائه فقال: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ** ...﴾[3] وقال أيضاً: ﴿**يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾[4] وقال أيضاً: ﴿... **مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ** ...﴾[5]

---

(١) السورة ٤، النساء، الآية: ١٧.

(٢) السورة ٤، النساء، الآية: ٤٨.

(٣) السورة ٢١، الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٤) السورة ٢٠، طه، الآية: ١٠٩.

(٥) السورة ١٠، يونس، الآية: ٣.

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...﴾(١) وقال أيضاً: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾(٢) وقال أيضاً: ﴿... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾(٣) إذن فالطريق الوحيد الذي وعد الله وعداً قطعيّاً بالمغفرة علىٰ أساسه إنّما هو التوبة.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا شفيع أنجح من التوبة»(٤).

ومن يرىٰ أنّ فلسفة الإيمان والطاعة عبارة عن إكمال النفس وتهذيبها وتصفيتها فالأمر هنا أوضح ممّا سبق، ونفس الفلسفة تدعوه إلى التوبة؛ لأنّ التوبة ماء يُغسَل به درن القلب وغباره وَرَيْنه. وقد ورد في الحديث عن الباقر عليه السلام: «ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادىٰ في الذنوب زاد ذلك السواد حتّىٰ يغطّي البياض، فإذا غطّىٰ البياض لم يرجع صاحبه إلىٰ خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿... بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(٥).

ومن يرىٰ أن فلسفة الإيمان والطاعة هي: أنّ الله أهل للطاعة، وبغضّ النظر عن جنّة أو نار فهو يطلب رضوان الله، ويتحرّك بحبّه لله، فالأمر هنا أوضح ممّا سبق، ونفس الفلسفة تدعوه إلى التوبة؛ لأنّ الله تعالىٰ يرضىٰ بالتوبة ويفرح بتوبة عبده كما ورد بسند صحيح عن أبي عبيدة قال: «سمعت أباجعفر عليه السلام يقول: إنّ الله ـ تعالىٰ ـ أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء

---

(١) السورة ٣٤، سبأ، الآية: ٢٣.

(٢) السورة ٥٣، النجم، الآية: ٢٦.

(٣) السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٤) البحار ٦/١٩.

(٥) السورة ٨٣، المطففين، الآية: ١٤، والحديث وارد في الوسائل ١٥/٣٠٣، الباب ٤٠ من جهاد النفس، الحديث ١٦ ونحوه الحديث ١٢، ص: ٣٠٢.

فوجدها، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»[١].

وقد ورد في الحديث أنّه لما أكل آدم من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيىٰ التاج والإكليل[٢] من وجهه أن يرتفعا عنه، فجاءه جبرئيل فأخذ التاج من رأسه، وحلّ الإكليل عن جبينه، ونودي من فوق العرش اهبطا من جواري، فإنّه لا يجاورني من عصاني، قال: فالتفت آدم إلىٰ حوّاء باكياً وقال: هذا أوّل شؤم المعصية أُخرجنا من جوار الحبيب[٣].

إنّ هذا لهو مقام عظيم أن يكون بكاؤه علىٰ الخروج من جوار الحبيب قبل أن يكون علىٰ فراقه الجنّة. وهذه هي الفلسفة الثالثة التي أشرنا إليها للتوبة والندم.

وإن شئت مقاماً أعظم من هذا المقام في التوبة فلعلّه هو المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٤] فكأنّ الآية المباركة تشير إلى أنّ توبة المتّقين ليست من صدور الذنب منهم، بل من الهمّ بالذنب، فإنّ الشيطان الذي يطوف حول قلب المؤمن يمسّ قلبه كي ينفذ فيه ويورّطه في المعصية، فيهمّ العبد بالمعصية، ولكن قبل تماميّة النفوذ والتورط في المعصية يتذكّر المتّقي وإذا هو مبصر يرتدع عنها. وقد وردت روايات عديدة بمضمون تفسير الآية بأنّ العبد يهمّ بالذنب ثُمّ يذكر الله فيحول الذكر بينه وبين تلك المعصية[٥].

والمقام الأكبر في التوبة من هذا المقام هو: توبة المعصومين التي ليست توبة من الذنب ولا من الهمّ بالذنب، بل من سيّئات المقرّبين التي هي من حسنات

---

(١) البحار ٦/٤٠.

(٢) فسّر في المنجد الإكليل بشبه عصابة تزيّن بالجوهر.

(٣) المحجة البيضاء ٧ / ٩٤ نقلاً عن الإحياء للغزالي.

(٤) السورة ٧، الاعراف، الآية: ٢٠١.

(٥) راجع تفسير البرهان ٢/٥٦.

الأبرار.

وممّا يناسب ذكره في المقام أنّ بعضهم يقول[١] : إنّ التجرّد للخير دأب الملائكة المقرّبين، والتجرد للشر دون التلافي سجيّة الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميّين. فالمتجرّد للخير ملك مقرّب عند الملك الديّان، والمتجرد للشرّ شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان، كما صدر ذلك من أبينا آدمعليه السلام، فقد ازدوجت في طينة الإنسان شائبتان، واصطحبت فيه سجيتان، وكلّ عبد مصحّح نسبه إمّا إلى الملك، أو إلى آدم، أو إلى الشيطان. فالتائب قد أقام البرهان علىٰ صحّة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان، والمصرّ علىٰ الطغيان مسجّل علىٰ نفسه بنسب الشيطان. ولقد قلع آدمعليه السلام سنّ الندم، وتندّم علىٰ ما سبق منه وتقدّم، فمن اتّخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلّت به القدم. فأمّا تصحيح النسب بالتجرد لمحض الخير إلى الملائكة فخارج عن حيّز الإمكان، فإنّ الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجناً محكماً لا يخلصه إلّا إحدىٰ النارين: نار الندم، أو نار جهنّم، فإحراق النار ضروري في تخليص جوهر الإنسان عن خبائث الشيطان. وإليك الآن اختيار أهون الشرّين، والمبادرة إلى أخفّ النارين قبل أن يطوىٰ بساط الاختيار، ويساق إلى دار الاضطرار إمّا إلى الجنّة أو إلى النار.

أقول : كلّ ما ذكره هذا القائل صحيح عدا افتراض أنّ التمحّض للخير خارج بالنسبة للإنسان عن حيّز الإمكان، فإنّ هذه الفكرة ناتجة من مذهبه ـ بما هو من أهل التسنن ـ من إنكار العصمة، أمّا نحن فنؤمن بمبدأ العصمة للمعصومين، وهم متمحّضون في الخير، وبإمكان غير المعصومين بالذات أن يتمحّضوا في الخير

---

(١) المحجة البيضاء ٧/٣ ـ ٤ نقلاً عن الإحياء للغزالي، ونحن نقلناه هنا مع تغيير يسير في ترتيب العبارة.

اقتداءً بالمعصومين عليهم السلام عن طريق تربية النفس، ولم يجعل الله المعصومين إلّا قدوة للأنام، وأمر الله ـ تعالىٰ ـ الناس بالاقتداء بهم، قال عزّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[1].

وما ظنّك بإنسان تنزّه عن شرب الماء علىٰ رغم عطشه الذي لا يتصوّر ولا يطاق، لا لحرمة شرب الماء ولا لكراهته، بل ولا لأجل الإيثار، فإنّ تركه لشرب الماء علىٰ المشرعة لم يكن فيه إيثار علىٰ الحسين وأهل بيته، بل لأجل مجرّد المؤاساة لإمام زمانه وأهل بيته، وقال:

هذا الحسينُ واردُ المنونِ وتشربين باردَ المعينِ

تاللهِ ما هذا فعالُ دينِ[2]

فبالله عليك هل تحتمل بشأن هذا الإنسان أن يعصي الله طرفة عين؟!!

وما ظنّك بامرأةٍ أُثكلت في يوم واحد بأولادها وإخوتها وسائر عشيرتها، وأُسرت وحُملت مع نسائها علىٰ الأقتاب، ومررن علىٰ مقتل الحسين والأصحاب، فنظرت إلىٰ إمام زمانها عليّ بن الحسين عليه السلام تكاد نفسه تخرج من شدّة المصاب، فقالت: ـ مسلّية لإمامها منجيةً له من الموت ـ: مالي أراك تجود بنفسك يا بقيّة جدّي وأبي وإخوتي؟ وأخذت تسلّيه وتذكر له أنّه سيأتي جمع لا تعرفهم فراعنة هذه الأُمّة ـ وهم معروفون في أهل السماوات ـ إنّهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرّقة، فيوارونها وهذه الجسوم المضرّجة، وينصبون لهذا الطفّ علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء لا يُدرَس أثره ولا يعفو رسمه علىٰ كرور الليالي والأيّام... إلىٰ أن ذكرت له عليه السلام حديث أُمّ أيمن. وعن هذا الطريق أنجت إمام

---

(١) السورة ٣٣، الاحزاب، الآية: ٢١.

(٢) البحار ٤١/٤٥ تحت الخط.

زمانها من الموت[١] فبالله عليك هل تحتمل بامرأة كهذه أن تعصي الله طرفة عين؟! ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

زن مگو مرد آفرين روزگار زن مگو بنت الجلال اخت الوقار

زن مگو خاک درش نقش جبين زن مگو دست خدا در آستين

وأمّا ما اشتهر من انحصار المعصومين في هذه الأُمّة في أربعة عشر فالمقصود بذلك أُولئك الذين خُلِقوا معصومين دون الذين عصموا أنفسهم بعد الولادة بالتربية وبحول الله اقتداءً بهم.

وفي ختام حديثنا عن ضرورة التوبة نشير إلى كلمتين نُقِلتا عن بعض السلف أو عن بعض العارفين، وهما وإن لم أرهما منتهيين إلى إمام معصوم ولكن فيهما عظة وعبرة، ونشير ـ أيضاً ـ إلى رواية لم أرها إلّا في نقل الغزالي، ولكن فيها ـ أيضاً ـ عظة وعبرة:

١ـ رُوِي عن بعض السلف[٢] أنّه قال: «ما من عبد يعصي إلّا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف[٣] به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسَفاً، فيقول الله ـ تعالىٰ ـ للأرض والسماء: كفّا عن عبدي وأمهلاه، فإنّكما لم تخلقاه، ولو خلقتماه لرحمتماه، لعلّه يتوب إليّ فأغفر له، لعلّه يستبدل صالحاً فأُبدله حسنات، فذلك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ...﴾[٤]».

---

(١) راجع البحار ٤٥/١٧٩ ـ ١٨٣.

(٢) نقله في المحجة ٧/٩٤ عن الإحياء للغزالي.

(٣) يؤيّده ما ورد في الدعاء بعد صلاة زيارة الإمام الرضا عليه السلام خطاباً لله تعالىٰ: سيّدي لو علمت الأرض بذنوبي لساخت بي أو الجبال لهدّتني أو السماوات لاختطفتني أو البحار لأغرقتني... راجع مفاتيح الجنان باب زيارة الإمام الرضا عليه السلام: ٥٠٢.

(٤) السورة ٣٥، فاطر، الآية: ٤١.

٢ ـ رُوِيَ عن بعض العارفين[١] أنّه قال: «إنّ لله ـ تعالىٰ ـ إلى عبده سرّين يسرّهما إليه علىٰ سبيل الإلهام: أحدهما إذاخرج من بطن أُمّه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عمرك، وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني. والثاني عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك، هل حفظتها حتّىٰ تلقاني علىٰ العهد فألقاك علىٰ الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿... **أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ** ...﴾[٢] وبقوله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾[٣] ».

٣ ـ عن النبيّ ﷺ: «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلّا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات:

يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يُخلَقوا.

ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا.

فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا.

وفي بعض الروايات: (ويا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا تجالسوا فتذاكروا ما علموا).

فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا ممّا عملوا»[٤].

الأمر الثاني ـ مقدّمة التوبة:

قد يقال: إنّ مقدّمة التوبة هي اليقظة؛ وذلك أنّ الإنسان بفطرته السليمة مجبول

---

(١) نقله في المحجة ٧/٢٢ عن الإحياء للغزالي.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ٤٠.

(٣) السورة ٢٣، المؤمنون، الآية: ٨.

(٤) المحجة البيضاء ٧/٩٣ ـ ٩٤ نقلاً عن الإحياء للغزالي.

علىٰ التوحيد وعلىٰ آثار التوحيد التي لا تكون إلّا الخير والصلاح، وكلّ ذنب صدر عن العبد كان غباراً علىٰ تلك الفطرة وإخماداً لنورها ورَيْناً عليها، ولا تحصل التوبة إلّا بالتيقّظ والرجوع إلى الاهتداء بنور الفطرة ومسح الغبار.

والشاهد القرآني علىٰ كون التوحيد بجميع ما له من أغصان الخير وأوراقه وثماره أمراً فطرياً للبشر وأنّ مخالفة ذلك مخالفة للفطرة عدّة آيات من قبيل قوله تعالىٰ:

١ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

٢ـ ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾(٢).

٣ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٣).

سواءٌ فسّرنا هذه الآية ابتداءً بمسألة الفطرة أو فسّرناها بعالم الذر فإنها علىٰ الثاني ـ أيضاً ـ تدلّ علىٰ أنّ التوحيد صار بسبب ما جرى في عالم الذرّ فطريّاً، وإلّا فما قيمة عهد نسيه المتعهّد، وكيف يُحتجّ به عليه؟!

وقد ورد في الحديث عن النبيّ ﷺ: «كلّ مولود يولد علىٰ الفطرة حتّىٰ يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه»(٤).

فكلّ انحراف عن هذه الفطرة بالذنب لا يمكن أن يتوب العبدُ منه قبل تيقّظه

---

(١) السورة ٣٠، الروم، الآية: ٣٠.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآيتان: ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) السورة ٧، الأعراف، الآيتان: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٤) البحار ٣ / ٢٨١.

ورجوعه ولو بمقدار ناقص إلى تلك الفطرة، وهذا ما قد نسمّيه باليقظة.

واليقظة هي أحد التفسيرين للقيام في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1] فالقيام هنا تارةً يفسّر بالمعنىٰ العام للقيام في سبيل العمل لله تعالىٰ، ولعلّ الأنسب ـ عندئذٍ ـ أن يكون قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ بياناً لمتعلق التفكير، أي: تفكّروا حتّىٰ تعرفوا ما بصاحبكم من جنّة وتتّضح لكم طريقة العمل في سبيل الله.

وأُخرى يفسّر بمعنىٰ القومة من السُباة، وهي اليقظة من سِنة الغفلة كما فسّره بذلك العارف المعروف بعبد الله الانصاري[2] ولعلّ الأنسب ـ عندئذٍ ـ أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ هو موطن الوقف في الآية، ويكون قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ كلاماً مستقلاً، والمعنىٰ ـ عندئذٍ ـ أن اليقظة تكون بالقيام من سِنة الغفلة ثُمّ التفكّر.

وعلىٰ أيّة حال، فاليقظة تكون بعدّة أسباب، منها ما يلي:

أوّلاً: ملاحظة نِعَم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ التي لا تُحصىٰ، فأوّل النِّعم ببعض المعاني هو الوجود؛ إذ هي الأرضية التي تبتني عليها باقي النِّعم، وببعض المعاني هو الهداية إلى الإيمان؛ لأنّ الإيمان أشرف من كلّ شيء، وببعض المعاني هو العقل، إذ لولاه لما كان مجال للإيمان ولا للالتذاذ الكامل بالنِّعم الأُخرى. وسائر النعم التي تأتي بعد هذه الأُمور لا تُحصىٰ، قال الله تعالىٰ:

١ ـ ﴿... وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ...﴾[3].

---

(١) السورة ٣٤، سبأ، الآية: ٤٦.

(٢) راجع منازل السائرين الباب الأوّل من البدايات، وهو باب اليقظة.

(٣) السورة ٣١، لقمان، الآية: ٢٠.

٢ ـ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ...﴾[١].

وتتجلّىٰ النِّعم عند لحظ المحرومين منها، أو لحظ ذوي العاهات والبلاء.

وليس من الصدف ما نراه من أنّ القرآن العظيم يشير إلى نِعم الله في مواضع لا تُحصىٰ من القرآن، فتأثير تذكّر النِّعم الإلهيّة في حصول اليقظة واضح؛ لأنّه يثير حالة الشكر من ناحية، والتي هي مصدر وجوب الطاعة عقلاً، ويخلق في النفوس الحبّ لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ من ناحية اُخرى، والتي هي المصدر العاطفي للطاعة.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام: أنّه قال: «ما أحبّ الله من عصاه»[٢].

ولسنا الآن هنا بصدد ذكر نِعم الله التي لا تُحصىٰ، ولكنّنا نذكر كإشارة إلى ذلك مقطعاً قرآنياً رائعاً من سورة النحل، وهو قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ* خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِن نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ* وَالْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَكُمْ فِيهٰا دِفْءٌ وَمَنٰافِعُ وَمِنْهٰا تَأكُلُونَ* وَلَكُمْ فِيهٰا جَمٰالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ* وَتَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إلاّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ* وَالْخَيْلَ وَالْبِغٰالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهٰا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ﴾، والجملة الأخيرة تشير في الأكثر إلى مركوبات اليوم: من قبيل السيّارات والطائرات ونحوها ﴿وعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وكأنّ هذا إشارة إلىٰ نِعْمة الإيمان ﴿ومِنْها جَائرٌ﴾ وكأنّ هذا إشارة إلىٰ وجود السُبل المنحرفة والتحذير منها ﴿وَلَوْ شَاء لَهَداكُمْ أجْمَعِينَ﴾ وكأنّ هذا إشارة إلى عدم الهداية بالجبر التي تسقط الهداية عن قيمتها ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً لَّكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي

---

(١) السورة ١٦، النحل، الآية: ١٨، والسورة ١٤، إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) البحار ٧٠ / ١٥.

ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ويجلب الانتباه الإشارة تحت الآيات الثلاث الأخيرة إلى أنّ هذه آيات لقوم يتفكّرون ـ يعقلون ـ يذّكّرون، فهذه نعم من ناحية، وآيات وعلامات علىٰ وجود الله وحكمته ووجوب شكره من ناحية أُخرى **﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾**، وهذه الآية الأخيرة يتجلّىٰ مغزاها حينما نعلم أنّ المشركين ـ آنئذ ـ لم يكونوا ينسبون الخَلقَ إلى أصنامهم، بل كانوا يعترفون بأنّ الخَلقَ لله تعالىٰ **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوها إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رحِيمٌ﴾**(١).

وحاصل الكلام: أنّ ما في السماوات والأرض من النِّعَم مسخّرات لخدمة البشر. ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

ابر و باد و مه و خورشيد و فلك در كارند
تا تو نانى به كف آرى و به غفلت نخورى
همه از بهر تو سرگشته و فرمان بردار
شرط انصاف نباشد كه تو فرمان نبرى(٢)

ولابدّ من الالتفات ـ أيضاً ـ إلى عجزنا عن شكر الله تبارك وتعالىٰ؛ لأنّ الشكر يعني: مقابلة نِعْمة المنعم بشيء، يقدّمه المنعم عليه إلى المنعم ممّا يملكه هو مجازاةً لنعمه، ولو بأن يكتفي ببسمة شفة أو شُكر لسان إن لم يكن قادراً علىٰ مجازاته

---

(١) السورة ١٦، النحل، الآيات: ٣ ـ ١٨.

(٢) السحب والريح والبدر المنير معاً — والشمس والفلك الدوّار في شغل
لكي تنال الغذا في فطنة وحجىٰ — فلا تكن غافلاً ترعىٰ مع الهمل
كلّ لأجلك مشغول بواجبه — فما من العدل أن تبقىٰ بلا شغل

بالمال أو بسائر الخدمات.

أمّا أن يقدّم المنعم عليه شيئاً إلى المنعم من النِّعم التي أخذها منه وهي مازالت ملكاً للمنعم، فلا يعدّ شكراً؛ لأنّه كان وما زال ملكاً للمنعم، ولم يكن من قبل المنعم عليه مستقلاً. فالعبد كيف يشكر ربّه بشكر لسان أو بمدح وثناء أو بطاعة وعبادة في حين أنّ هذا كلّه لا يكون إلّا بما هو ملك لله تعالىٰ لا له، وهو سبحانه وتعالىٰ يستوجب شكراً علىٰ الشكر.

وقد ورد في مناجاة الشاكرين[1] : «... فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول: لك الحمد...».

وفي الحديث: عن الصادقعليه السلام قال: «فيما أوحى الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى موسىعليه السلام يا موسى اشكرني حقّ شكري، فقال: يا ربّ وكيف أشكرك حقّ شكرك وليس من شكر أشكرك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك منّي»[2] .

ومن اللطيف ما قيل بالفارسيّة:

بنده همان به كه زتقصير خويش　　عذر به درگاه خدا آورد

ورنه سزاوار خداونديش　　كس نتواند كه به جا آورد

وقد ورد في الدعاء الذي يقرأ بعد صلاة زيارة الإمام الرضاعليه السلام: «... لا تُحمَدُ يا سيّدي إلّا بتوفيق منك يقتضي حمداً، ولا تشكر علىٰ أصغر منّة إلّا استوجبت بها شكراً، فمتىٰ تُحصىٰ نعماؤك يا إلٰهي؟ وتُجازىٰ آلاؤك يا مولاي؟ وتكافأ صنائعك

---

(١) وهي المناجاة السادسة من الخمس عشرة المعروفة.

(٢) أُصول الكافي ٢/٩٨، الحديث ٢٧.

يا سيّدي؟ ومن نعمك يحمد الحامدون، ومن شكرك يشكر الشاكرون...»[١].

وثانياً: معرفة عِظَم الجناية التي ارتكبناها لدىٰ المعصية وخطرها.

وقد قيل[٢]: إنّ ذلك يكون بأُمور ثلاثة: بتعظيم الحقّ جلّ وعلا، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد.

أمّا تعظيم الحقّ جلّ وعلا فهذا ما يوجب فهم عظمة المعصية؛ لأنّ عظمة المعصية تكون بتناسب عظمة المولىٰ الذي عصاه العبد.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام (طبعاً المقصود الكلام الذي لا يعنيه) وبطنه من الطعام (والمقصود هو الصوم أو عدم التخمة) وعفى[٣] نفسه بالصيام والقيام. قالوا: بآبائنا وأُمّهاتنا يا رسول الله هؤلاء أولياء الله، قال: إنّ أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً، ونظروا فكان نظرهم عبرة، ونطقوا فكان نطقهم حكمة، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة. لولا الآجال التي قد كتب الله عليهم لم تقرّ أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العقاب وشوقاً إلى الثواب»[٤].

وممّا يشير إلى أنّ العاصي يجب أن يلتفت إلى عظمة مَنْ عصاه ما ورد في دعاء أبي حمزة: «... أنا الذي عصيت جبّار السماء...»[٥].

وأمّا معرفة النفس فلو عرف الإنسان خسّة نفسه، وفقره الذاتي، واحتياجه الكامل إلى الله سبحانه وتعالىٰ، التفت إلى عِظم الذنب أكثر فأكثر، واتّجه إلى التوبة بشكل أقوىٰ.

---

(١) مفاتيح الجنان، فصل زيارة الإمام الرضا عليه السلام.

(٢) راجع منازل السائرين الباب ١ من البدايات، باب اليقظة.

(٣) لعلّ الصحيح كتبه بالألف، أي: (عفا) أي: طلب معروف نفسه بالصيام والقيام.

(٤) البحار ٦٩/٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٥) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة.

ومن الروايات الطريفة الواردة بشأن النفس ما روي عن رسول الله ﷺ وهو ما يلي:

دخل علىٰ رسول الله ﷺ رجل اسمه مجاشع، فقال: «يا رسول الله كيف الطريق إلى معرفة الحقّ، فقال ﷺ معرفة النفس. فقال يا رسول الله فكيف الطريق إلى موافقة الحقّ؟ قال: مخالفة النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى رضا الحقّ؟ قال: سخط النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى وصل الحقّ؟ قال: هجر النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى طاعة الحقّ؟ قال: عصيان النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى ذكر الحقّ؟ قال: نسيان النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلىٰ قرب الحقّ؟ قال: التباعد عن النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى أُنس الحقّ؟ قال: الوحشة من النفس. فقال: يا رسول الله فكيف الطريق إلى ذلك؟ قال: الاستعانة بالحقّ علىٰ النفس»[(١)].

وتصديق ذيل الحديث وهو ضرورة الاستعانة بالحقّ علىٰ النفس وارد في قوله تعالىٰ: ﴿... وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ...﴾[(٢)].

وأمّا تصديق الوعيد فلولاه لم يكن أحد يطيع الله، ولا أحد يتوب إلى الله، إلّا المعصوم أو من يتلو تلو العصمة. فعلينا أن نلتفت إلى عذاب الله في الآخرة، ونقيسه إلى عذاب الدنيا الذي لا يعتبر بالنسبة لذاك عذاباً اصلاً. ونخاطب ربّنا بقولنا: «... أنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها، وما يجري فيها من المكاره علىٰ أهلها، علىٰ أن ذلك بلاء ومكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدّته، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها، وهو بلاء تطول مدّته، ويدوم مقامه، ولا يخفّف عن أهله؛ لأنّه لا يكون إلّا عن غضبك وانتقامك

---

(١) البحار ٧٠/٧٢.

(٢) السورة ٢٤، النور، الآية: ٢١.

وسخطك، وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض...»[١].

وقد ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام: «أنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم، وقد أُطفأت سبعين مرّة بالماء ثُمّ التهبت، ولولا ذلك ما استطاع آدميّ أن يطفأها، وإنّه ليؤتىٰ بها يوم القيامة حتّىٰ توضع علىٰ النار، فتصرخ صرخة لا يبقى ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل إلّا جثا علىٰ ركبتيه فزعاً من صرختها»[٢].

أقول: أظنّ أنّ النار الصارخة هي نار جهنّم كما يشهد لذلك قوله تعالىٰ: **﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** (وقد فسّر بمسيرة سنة)[٣] **سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾**[٤].

وفي حديث مفصّل يصف جبرئيل نار جهنّم لرسول الله صلى الله عليه وآله: «... لو أنّ مثل خرق إبرة خرج منها علىٰ أهل الأرض لاحترقوا عن آخرهم...»[٥].

والروايات في أوصاف عذاب جهنّم كثيرة لا تُحصىٰ. وقد نسلّي أنفسنا عن كلّ واحدة منها بأنّه خبر واحد يحتمل الصدق والكذب، ولكن ماذا نفعل بتواترها المعنوي أو الإجمالي؟! ثُمّ ماذا نفعل بالقرآن الذي هو مليء بذكر أوصاف عذاب جهنّم بما يقشعرّ جلد الإنسان لمجرّد سماعه، ولو لم تكن إلّا آية واحدة لكفت، وهي قوله تعالىٰ: **﴿... كُلَّمَا نَضِجَت جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ...﴾**[٦] وقد قالوا: إنّ الجلد هو مركز الإحساس بالألم، وليس اللحم؛ ولذا لو غرزت جلدك بإبرة تحسّ بالألم، ثُمّ لا تحسّ بالألم بتعمّق الإبرة في لحمك. وقد اعتاد جبّارُوا الدنيا باختيار سائر التعذيبات علىٰ التعذيب بالنار؛ لأنّ النار

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

(٢) البحار ٨/٢٨٨.

(٣) البحار ٨ / ٢٨٨، نقلاً عن تفسير عليّ بن إبراهيم.

(٤) السورة ٢٥، الفرقان، الآية: ١٢.

(٥) البحار ٨/٣٠٥.

(٦) السورة ٤، النساء، الآية: ٥٦.

تنهي المعذّب وتميته، فيستريح من العذاب، ولكن نار جهنم لا تنهي المعذّب ولا تميته، بل الجلد يتبدّل متىٰ نضج الجلد السابق. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا...﴾[١].

وإنّي أختم الحديث عن مسألة الوعيد هنا برواية واحدة تامّة سنداً، وهي ما ورد[٢] عن أبي بصير عن الصادقﷺ قال: «ما خلق الله خلقاً إلّا جعل له في الجنّة منزلاً وفي النار منزلاً، فإذا سكن أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار نادىٰ منادٍ: يا أهل الجنّة أشرفوا، فيشرفون علىٰ النار، وترفع لهم منازلهم فيها، ثُمّ يقال لهم: هذه منازلكم التي لو عصيتم الله دخلتموها قال: فلو أنّ أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنّة في ذلك اليوم فرحاً؛ لما صرفَ عنهم من العذاب، ثُمّ ينادي منادٍ: يا أهل النار ارفعوا رؤوسكم، فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى منازلهم في الجنّة وما فيها من النعيم، فيقال لهم: هذه منازلكم التي لو أطعتم ربّكم دخلتموها، قال: فلو أنّ أحداً مات حزناً لمات أهل النار حزناً، فيورث هؤلاء منازل هؤلاء، ويورث هؤلاء منازل هؤلاء، وذلك قول الله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣]».

أقول: إنّ هذه الرواية تدلّ علىٰ أنّ الجنّة لها علوّ مكاني علىٰ جهنم، وكأنّه يشير إلىٰ ذلك ـ أيضاً ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[٤].

---

(١) السورة ٣٥، فاطر، الآية: ٣٦.

(٢) البحار ٨/٢٨٧.

(٣) السورة ٢٣، المؤمنون، الآيتان: ١٠ ـ ١١.

(٤) السورة ٧، الأعراف، الآية: ٤٠.

وثالثاً: مطالعة الزيادة والنقصان الواقعين فيما مضى من عمره؛ كي يتحسّر علىٰ ما حصل منه من نقصان، ويسعىٰ في عدم تضييع ما بقي من عمره، ويتدارك ما فاته في الماضي.

وقد ورد في هذا المضمون حديث شريف عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إنّما الدهر ثلاثة أيّام أنت فيما بينهنّ مضى أمس بما فيه فلا يرجع أبداً، فإن كنت عملت فيه خيراً لم تحزن لذهابه، وفرحت بما أسلفته منه، وإن كنت قد فرّطت فيه فحسرتك شديدة لذهابه وتفريطك فيه. وأنت في يومك الذي أصبحت فيه من غد في غرّة، ولا تدري لعلّك لا تبلغه، وإن بلغته لعلّ حظك فيه التفريط مثل حظّك في الأمس الماضي عنك، فيوم من الثلاثة قد مضى أنت فيه مفرّط، ويوم تنتظره لست أنت منه علىٰ يقين من ترك التفريط، وإنّما هو يومك الذي أصبحت فيه، وقد ينبغي لك إن عقلت وفكّرت فيما فرّطت في الأمس الماضي ممّا فاتك فيه من حسنات أن لا تكون اكتسبتها، ومن سيّئات أن لا تكون أقصرت عنها، وأنت مع هذا مع استقبال غدٍ علىٰ غير ثقة من أن تبلغه، وعلىٰ غير يقين من اكتساب حسنة أو مرتدع عن سيّئة محبطة، فأنت من يومك الذي تستقبل علىٰ مثل يومك الذي استدبرت، فاعمل عمل رجل ليس يأمل من الأيّام إلّا يومه الذي أصبح فيه وليلته، فاعمل أو دع، والله المعين علىٰ ذلك»[1].

نعم، من لم يطالع الزيادة والنقصان فيما مضى من عمره كان دائماً مغبوناً؛ لأنّه لن يتدارك ما كان له من النقص، ولا يتوفّق لجعل يومه خيراً من أمسه.

وقد ورد بسند تامّ عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «من استوىٰ يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلىٰ

---

(١) أُصول الكافي ٢/٤٥٣، باب محاسبة العمل، الحديث ١.

النقصان فالموت خير له من الحياة»[١].

وأيضاً ورد عن الصادقعليه السلام أنّه قال: «المغبون من غبن عمره ساعة بعد ساعة»[٢].

وأيضاً ورد عن الصادقعليه السلام أنّه روىٰ عن عليّ بن أبي طالبعليه السلام أنّه قال: «... لا خير في العيش إلّا لرجلين: رجل يزداد في كلّ يوم خيراً، ورجل يتدارك منيته بالتوبة»[٣].

الأمر الثالث ـ أركان التوبة وشرائطها:

وهنا نفتتح الحديث بالكلام المرويّ عن إمامنا أمير المؤمنينعليه السلام، فقد رُوي أنّه قال ـ لقائل بحضرته: أستغفر الله ـ: «ثكلتك أُمّك أتدري ما الاستغفار؟ إنّ الاستغفار درجة العلّيين، وهو اسم واقع علىٰ ستة معان: أوّلها الندم علىٰ ما مضى، والثاني العزم علىٰ ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّىٰ تلقى الله أملس ليس عليك تَبِعَة، والرابع أن تَعْمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها، والخامس أنّ تَعْمدَ إلى اللحم الذي نبت علىٰ السُّحت فتذيبه بالأحزان حتّىٰ يلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تُذيقَ الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله»[٤].

والأوّلان من هذه الأُمور ركنان للتوبة، والثالث والرابع شرطان لقبول التوبة، والأخيران شرطان لكمال التوبة، وإليك قليل من التفصيل عن الأركان والشرائط.

---

(١) الوسائل ١٦/ ٩٤، الباب ٩٥ من جهاد النفس، الحديث ٥.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٣) المصدر السابق: ص ٩٣، الحديث ٣.

(٤) البحار ٦/ ٣٦ ـ ٣٧ نقلاً عن النهج، راجع ـ أيضاً ـ نهج البلاغة: ٧٤٥، رقم الحكمة: ٤١٧.

الركن الأوّل ـ الندم:

وكونه ركناً للتوبة من الواضحات، فإنّ التوبة تعني: الرجوع إلى الله سبحانه وتعالىٰ، أو الرجوع إلى الفطرة الطاهرة التي تدنّست بالذنب، وهذا لا يمكن أن يكون من دون الندم علىٰ ما فات.

ولنعم عبد يندم علىٰ ذنبه قبل أن يمضي علىٰ ذلك سبع ساعات؛ وذلك لأنّ الروايات العديدة دلّت علىٰ أنّ كاتب السيّئات لا يكتب السيّئة التي تصدر عن العبد لمدّة سبع ساعات، وهذا يعني: أنّه إذا وقعت التوبة قبل السبع ساعات فلن يرى العبد ذنبه في يوم القيامة في صحيفة عمله، بينما لو وقعت التوبة بعد السبع ساعات فقد يرى ذنبه في صحيفة عمله يوم القيامة، وإن كان يرى بعد ذلك توبته أيضاً.

فعن الصادقعليه السلام قال: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: أربع من كنّ فيه لم يهلك علىٰ الله بعدهنّ إلّا هالك: يهمّ العبد بالحسنة فيعملها، فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيّته، وإن هو عملها كتب الله له عشراً. ويهمّ بالسيّئة أن يعملها، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء، وإن هو عملها أُجّل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات وهو صاحب الشمال: لا تعجل عسى أن يُتبعها بحسنة تمحوها، فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾[1] أو الاستغفار، فإن قال: أستغفر الله الذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم الغفور الرحيم ذا الجلال والإكرام وأتوب إليه، لم يكتب عليه شيء، وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة واستغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات: اكتب علىٰ الشقيّ المحروم»[2].

---

(١) السورة ١١، هود، الآية: ١١٤.

(٢) الوسائل ١٦/٦٤ ـ ٦٥، باب ٨٥ من جهاد النفس، الحديث ١.

والمقصود طبعاً بالاستغفار: طلب المغفرة المقترن بالتوبة بقرينة ما في ذيل الصيغة التي ذكرها للاستغفار، وهو قوله: وأتوب إليه، وبقرينة روايات أُخر من قبيل ما ورد عن الباقر عليه السلام من قوله: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم علىٰ الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ»[١].

وورد في حديث تام السند التأجيل من الغدوة إلى الليل، فعن زرارة بسند تام قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن العبد إذا أذنب ذنباً أُجِّل من غدوة إلى الليل، فإن استغفر الله لم تُكتَب عليه»[٢].

وفي رواية أُخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «صاحب اليمين أمير علىٰ صاحب الشمال، فإذا عمل العبد سيّئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: لا تعجل، وأنظره سبع ساعات، فإن مضت سبع ساعات ولم يستغفر قال: اكتُب فما أقلّ حياء هذا العبد»[٣].

والركن الثاني ـ العزم علىٰ ترك العود:

وكون هذا ركناً ـ أيضاً ـ من الواضحات؛ إذ بدونه لا يصدق عنوان الرجوع إلى الله أو الرجوع إلى الفطرة الصافية.

والندم في الغالب يستبطن العزم علىٰ عدم العود.

وقد ورد في الحديث عن ربعي، عن الصادق عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الندم علىٰ الشرّ يدعو إلى تركه»[٤] وعليه تحمل روايات فرض الندامة، هي: التوبة، من قبيل مرسلة الصدوق قال: من ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله «الندامة توبة»[٥].

---

(١) الوسائل ١٦/٧٤، الباب ٨٦ من جهاد النفس، الحديث ٨.

(٢) الوسائل ١٦ / ٦٥، الباب ٨٥ من جهاد النفس، الحديث ٤.

(٣) الوسائل ١٦/٧٠.

(٤) الوسائل ١٦ / ٦١، الباب ٨٣ من جهاد النفس، الحديث ٣.

(٥) المصدر السابق: ص٦٢، الحديث ٥.

وما عن عليّ الجهضمي عن الباقر عليه السلام: «كفى بالندم توبة»[١].

وأمّا باقي الشرائط:

فمنها: تدارك ما هضمه من حقوق الله وحقوق الناس، وقد مضىٰ ذلك في حديث عليّ عليه السلام في نهج البلاغة لمن قال بحضرته: أستغفر الله، ونظيره وارد ـ أيضاً ـ عن عليّ عليه السلام في حديثه لكميل في نقل تحف العقول حيث قال في عدّ معاني التوبة: «... والثالث أن تؤدّي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم، والرابع أن تؤدّي حقّ الله في كلّ فرض...»[٢] حتّىٰ أنّه ورد في سند صحيح عن هشام بن الحكم، عن الصادق عليه السلام شرط هداية من أضلّه وإليك نصّ الحديث:

عن هشام بن الحكم (وفي بعض النقول: عن هشام بن الحكم وأبي بصير جميعاً) عن الصادق عليه السلام قال: «كان رجل في الزمن الأوّل طلب الدنيا من الحلال فلم يقدر عليها، وطلبها من الحرام فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال له: ألا أدلّك علىٰ شيء تكثر به دنياك وتكثر به تبعك؟ فقال: بلىٰ، قال: تبتدع ديناً، وتدعو الناس إليه. ففعل، فاستجاب له الناس وأطاعوه، فأصاب من الدنيا، ثُمّ إنّه فكّر فقال: ما صنعت؟! ابتدعت ديناً، ودعوت الناس إليه ما أرى لي من توبة إلّا أن آتي من دعوته إليه فأردّه عنه، فجعل يأتي أصحابه الذين أجابوه، فيقول: إنّ الذي دعوتكم إليه باطل، وإنّما ابتدعته، فجعلوا يقولون: كذبت هو الحقّ، ولكنّك شككت في دينك، فرجعت عنه. فلمّا رأى ذلك عمد إلى سلسلة فوتّد لها وتداً، ثُمّ جعلها في عنقه وقال: لا أحلّها حتّىٰ يتوب الله عزّ وجلّ عليَّ، فأوحى الله عزّ وجل إلى نبيّ من الأنبياء قل لفلان: وعزّتي لو دعوتني حتّىٰ تنقطع أوصالك ما استجبت

---

(١) المصدر السابق: ص٦٢، الحديث ٦.

(٢) البحار ٦/٢٧ نقلاً عن تحف العقول.

لك حتّىٰ تردّ من مات علىٰ ما دعوته إليه فيرجع عنه»[١].

وإنّنا نرجو أن يكون مفاد هذا الحديث خاصّاً بمورده، وهو: ابتداع الدين، أمّا لو كان مفاده عامّاً لكلّ من ضيّع حقاً ثُمّ عجز عن أدائه، أو لكل من ضيّع حقاً من حقوق الناس ثُمّ عجز عن أدائه، فإنّني أخشى أن يكون كثير منّا مبتلىٰ بـمفاده، فتبقىٰ توبتنا ناقصة، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وعلىٰ أيّة حال، فالتوبة واجبة حتّىٰ بمقدارها الناقص، ونرجو أن تنفعنا ولو نفعاً ناقصاً.

ثُمّ إنّه لا يبعد أن يكون قيد العمل الصالح الوارد في بعض آيات التوبة إشارة إلى هذا الشرط من قبيل قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً...﴾[٢].

٢ ـ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾[٣].

٣ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

وقد يُفترض أنّ تدارك الذنب بأداء حقوق الله، وحقوق النـاس، داخـل فـي الإنابة لا في التوبة، فالتوبة: رجوع إلى الله اعتذاراً عن الذنب. والإنابة: رجوع إليه إصلاحاً لما فرّط فيه. والتوبة: رجوع إليه عهداً. والإنابة: رجوع إليه وفاءً[٥].

إلّا أنّ الظاهر: أنّ التوبة والإنابة لهما معنىً واحد، وهو: الرجوع.

وعلىٰ أيّة حال، فليس هذا إلّا مشاحّة في الاصطلاح.

---

(١) الوسائل ١٦/٥٤، الباب ٧٩ من جهاد النفس، الحديث ١.

(٢) السورة ١٩، مريم، الآية: ٦٠.

(٣) السورة ٢٠، طه، الآية: ٨٢.

(٤) السورة ١٦، النحل، الآية: ١١٩.

(٥) راجع منازل السائرين لعبدالله الأنصاري باب الإنابة، وهـو البـاب الرابـع مـن أبـواب البدايات.

ومنها: أن يكون ذلك قبل انكشاف أُمور الآخرة أو قبل معاينة الهلاك كما ورد في القرآن: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ...﴾[١].

وقال ـ أيضاً ـ عزّ من قائل في قِصَّة فرعون: ﴿... حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلٰـهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢].

والأحاديث بهذا الصدد كثيرة من قبيل:

ما عن رسول الله ﷺ: «من تاب قبل موته بسنة قَبلَ الله توبته، ثُمّ قال: إنّ السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قَبِلَ الله توبته، ثُمّ قال: إنّ الشهر لكثير، ثُمّ قال: من تاب قَبلَ موته بجمعة قَبل الله توبته، ثُمّ قال: وإنّ الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قَبلَ الله توبته، ثُمّ قال: إنّ يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين قَبلَ الله توبته»[٣].

وقد ورد في سند صحيح عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوىٰ بيده إلىٰ حلقه ـ لم يكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة»[٤].

وقد يقال: إنّ من نعم الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ عبده أنّ الموت يبدأ بالرجل، وينتهي إلى الرأس دون العكس، فتكون للإنسان مهلة التوبة قبل أن يغرغر بروحه، ويعاين أمر الآخرة.

ومن الأحاديث الصحيحة سنداً الدالّة علىٰ سَعَة الوقت بمعنى قبول التوبة متى

---

(١) السورة ٤، النساء، الآية: ١٨.

(٢) السورة ١٠، يونس، الآيتان: ٩٠ ـ ٩١.

(٣) الوسائل ١٦/ ٨٧، الباب ٩٣ من جهاد النفس، الحديث ٣.

(٤) الوسائل ١٦ / ٨٧، الباب ٩٣ من جهاد النفس، الحديث ٢.

ما وقعت قبل ساعة الموت وإن كانت هي من الواجبات الفورية ما ورد عن محمّد بن مسلم، عن الباقر ﷺ: «يا محمّد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنّها ليست إلّا لأهل الإيمان، قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟ قال: يا محمّد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم علىٰ ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثمّ لا يقبل الله توبته؟! قلت: فإنّه فعل ذلك مراراً يذنب ثُمّ يتوب ويستغفر؟ فقال: كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيّئات، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله»[١].

ولعلّ السرّ في شرط عدم حضور الموت لقبول التوبة أحد أمرين:

أوّلاً: أنّ الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب، أمّا الإيمان بالشهود فلا قيمة مهمّة له، فإنّ الإيمان بالشهود أمر سهل يفعله كلّ أحد، وإنّما الخروج من الامتحان يكون بالإيمان بالغيب واتّباعه؛ ولهذا قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿**بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ...**﴾[٢] أمّا إذا حضر الموت وانكشفت أُمور الآخرة فقد تحوّل الغيب إلى الشهود، وعندئذٍ لا قيمة مهمّة لحدوث إيمان أو توبة؛ ولعلّه لهذا السبب قال الله تعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ**﴾[٣].

إذ إن نزول الملك الذي هو من عالم الغيب يعني تحوّل الغيب إلى الشهود، وعندئذٍ تنقطع المهلة، ويُقضىٰ الأمر. وأيضاً قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا**

---

(١) الوسائل ١٦/ ٧٩ ـ ٨٠، الباب ٨٩ من جهاد النفس، الحديث ١.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآيات ١ ـ ٣.

(٣) السورة ٦، الأنعام، الآية: ٨.

نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُّنظَرِينَ﴾[١].

وثانياً: أنّ فتح باب التوبة لم يكن يعني: أنّ التائب لا يستحقّ العقاب علىٰ معصيته؛ فإنّ العاصي خالف الحقّ، ومخالفُ الحقّ يستحقُّ الجزاء ولو تاب، وذلك من قبيل ما لو أنّ أحداً قَتَل ابنك، ثُمّ تندّم علىٰ ما فعل وتاب لم تُسْقِط توبتُه حقّ قِصاصك عليه، فكذلك من خالف حقّ الربّ تبارك وتعالىٰ فاستحقّ العقاب لا يُسْقِط بتوبته استحقاقه للعقاب، وإنّما يعني فتحُ باب التوبة: أنّ الله تعالىٰ يريد تطهير روحك، وتنظيف قلبك من الدنس الذي تدنّستَ به بسبب المعصية، وجعل العقاب رحمةً بك؛ كي يؤدّي إلى أن تحرق روحك بنار التوبة قبل نار جهنّم، فإذا تبت فقد طهرت من الدنس، ورجعت إلى الفطرة الصافية، وكان هذا هو المقصود لله سبحانه، فيقبل توبتك؛ لأنّ التوبة تعني: التحوّل والانقلاب الحقيقيين في واقع نفسك، وهذا لا يكون حينما تكون التوبة نتيجة رؤية البأس والهلاك؛ إذ عندئذٍ يندم الإنسان لما يرى أمامه من العذاب الفعلي، وهذا لا يعني حصول التحوّل والانقلاب الحقيقيين في نفسه ورجوع الصفاء والطهارة إليه.

وعلىٰ أيّة حال، فالعلاجات الروحيّة الواردة في القرآن أو عن المعصومين عليهم السلام حالها حال وصفات أطبّاء الجسم، أي: إنّه كما تكون وصفة الطبيب نافعة حينما تستعمل في محلّها، أمّا لو استعملت وصفة الطبيب التي وضعها للتيفو مثلاً في ذات الجَنْب، والوصفة التي وضعها لذات الجَنْب في التيفو، لا تنفع بل تضرّ، كذلك الوصفات الروحيّة الواردة في الكتاب والسنّة، فمثلاً هذه المهلة والسَعَة التي عرفتها في باب التوبة قد وضعت لعلاج مرض اليأس؛ لأنّه لولاها ليأس الذين لم يمارسوا التوبة فور حصول المعصية ولأدّى ذلك إلى تماديهم في الغيّ وهلاكهم، فجعل باب التوبة مفتوحاً أمامهم ما لم يحضرهم الموت. أمّا لو استعملها أحد في

---

(١) السورة ١٥، الحجر، الآيات: ٦ ـ ٨.

مقام تسويف التوبة بحجة أنّه مادامت التوبة مقبولة قبل حضور الموت، والسنة كثيرة، والشهر كثير، والجمعة كثيرة، واليوم كثير، فلا داعي لي إلى الاستعجال بالتوبة وحرمان النفس من اللذات والشهوات، فقد اصبحت الوصفة هنا مضرّة لا نافعة؛ لأنّ تأجيل التوبة وتسويفها يجعل الإنسان بين خطرين: خطر مباغتة الموت وحيلولته بين الإنسان والتوبة، وخطر اشتداد رين القلب بالتمادي في الذنوب إلى أن ينحرم من التوبة ولا يتوفّق لها.

وقد ورد عن إمامنا أمير المؤمنينعليه السلام أنّه قال: «لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل، ويرجّي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين...». إلى أن قال: «... إن عرضت له شهوة أسلف المعصية، وسوّف التوبة...»[(١)].

وقد رُوِيَ عن لقمان أنّه قال لابنه: «يا بنيّ لا تؤخّر التوبة فإن الموت يأتي بغتة...»[(٢)].

فالذي يستعمل هذه الوصفة بهذا الأُسلوب غير الصحيح وهو تأجيل التوبة لا يأمن الابتلاء في يوم موته بالوصف المنقول عن إمامنا أمير المؤمنينعليه السلام فيما ورد في نهج البلاغة[(٣)] من قوله: «... اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم، وتغيّرت لها ألوانهم، ثُمّ ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنّه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع بأُذنه علىٰ صحّة من عقله وبقاء من لبّه، يفكّر فِيمَ أفنى عمره، وفيم أذهب دهره ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها، وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تَبِعَات

---

(١) نهج البلاغة: ٦٨٧ ـ ٦٨٨، رقم الحكمة: ١٥٠.

(٢) المحجة ٧/٢٢.

(٣) نهج البلاغة: ٢٠٦ ـ ٢٠٧، رقم الخطبة: ١٠٩.

جَمْعِها، وأشرف علىٰ فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتّعون بها، فيكون المَهنَأُ لغيره، والعِبءُ علىٰ ظهره، والمرء قد غَلِقَتْ رُهُونُهُ بها، فهو يعضّ يديه ندامة علىٰ ما أصحر له عند موته من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيّام عمره، ويتمنّى أنّ الذي كان يَغْبِطُهُ بها ويَحْسُده عليها قد حازها دونه...».

وعن إمامنا زين العابدين عليه السلام أنّه قال في حديث طويل:

فيا لهف نفسي كم أُسوّف توبتي وعمريَ فانٍ والردى ليَ ناظر
وكلّ الذي أَسلفت في الصحف مثبت يجازي عليه عادل الحكم قاهر[1]

ومنها: الإيمان كما هو صريح القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[2]. وقد جاء قيد الإيمان في عديد من آيات التوبة كقوله:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾[3].

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾[4]

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَـئِكَ يُبَدِّلُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾[5].

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6].

---

(١) البحار ٤٦ / ٨٧ تحت الخط.

(٢) السورة ٤، النساء، الآية: ١٨.

(٣) السورة ١٩، مريم، الآية: ٦٠.

(٤) السورة ٢٠، طه، الآية: ٨٢.

(٥) السورة ٢٥، الفرقان، الآية: ٧٠.

(٦) السورة ٧، الأعراف، الآية ١٥٣.

وليس قيد الإيمان مستأنفاً بتخيّل أنّ الكافر لا معنىٰ لأن يتوب إلى الله؛ وذلك لأنّ الكفر لا ينحصر في إنكار الله عزّ وجلّ، فقد يكون كتابياً يؤمن بالله، بل وقد يكون مشركاً من عبدة الأوثان الذين يقولون: ﴿... **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ...﴾[1].

وقد دلّت بعض الروايات علىٰ اشتراط الإيمان بالمعنى الخاص، وهو: التشيع من قبيل ما مضى من صحيحة محمّد بن مسلم عن الباقر عليه السلام: «... أما والله إنّها ليست إلّا لأهل الإيمان...»[2] فإنّ كلمة (أهل الإيمان) في ذاك التأريخ مصطلح للشيعة.

وأمّا شرائط الكمال فالروايات فيها عديدة:

منها: ما مضى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة والذي ذكر فيه إذابة اللحم النابت من الحرام، وإذاقة الجسم ألم الطاعة كما ذاق حلاوة المعصية[3] ونحوه كلام أمير المؤمنين عليه السلام لكميل في رواية تحف العقول[4].

ومنها: ما ورد فيه شرط الصوم كحديث أبي بصير عن الصادق عليه السلام في تفسير توبة النصوح قال: «هو صوم يوم الأربعاء والخميس والجمعة»[5].

ومنها: ما ورد فيه شرط الصلاة من قبيل ما في نهج البلاغة: «ما أهمني ذنب أُمهِلتُ بعده حتّىٰ أُصلّي ركعتين وأسأل الله العافية»[6].

ومنها: ما ورد فيه شرط الغسل والصلاة من قبيل ما عن مسعدة بن زياد[7]

---

(١) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٣.

(٢) الوسائل ١٦/ ٧٩، الباب ٨٩ من جهاد النفس، الحديث ١.

(٣) نهج البلاغة: ٧٤٥، رقم الحكمة: ٤١٧.

(٤) تحف العقول: ١٩٧.

(٥) الوسائل ١٦/ ٧٨ ـ ٧٩، الباب ٨٨ من جهاد النفس، الحديث ١.

(٦) نهج البلاغة: ٧١٩، رقم الحكمة: ٢٩٩.

(٧) الوسائل ٣/ ٣٣١، الباب ١٨ من الأغسال المسنونة. الحديث الوحيد في الباب.

قال: «كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فقال له رجل: بأبي أنت وأُمي أدخل كنيفاً ولي جيران، وعندهم جوارٍ يتغنّين ويضربن بالعود، فربّما أطلت الجلوس استماعاً منّي لهنّ فقال عليه السلام: لا تفعل فقال الرجل: والله ما آتيهنّ، إنّما هو سماع أسمعه بأُذني؟ فقال عليه السلام: لله أنت أما سمعت الله يقول: ﴿... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1] فقال: بلى والله لكأنّي لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من عربيّ ولا من عجميّ، لا جرم إنّي لا أعود إن شاء الله، وإنّي أستغفر الله، فقال له: قم فاغتسل وصلّ ما بدالك، فإنّك كنت مقيماً علىٰ أمر عظيم، ما كان أسوأ حالك لو متّ علىٰ ذلك، احمد الله وسله التوبة من كلّ ما يكره، فإنّه لا يكره إلّا كلّ قبيح، والقبيح دعه لأهله، فإنّ لكلّ أهلاً».

الأمر الرابع ـ التوبة النصوح:

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

«... الهي أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك سمّيته التوبة، فقلت: توبوا إلى الله توبة نصوحاً فما عُذرُ من أغفل دخول الباب بعد فتحه...»[3].

أمّا ما معنىٰ التوبة النصوح؟ فقد فُسّرت في الروايات بتفاسير ثلاثة:

---

(١) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) السورة ٦٦، التحريم، الآية: ٨.

(٣) مفاتيح الجنان، مناجاة التائبين، وهي المناجاة الأُولى من المناجات الخمس عشرة المعروفة.

١ ـ أن يتوب العبد من الذنب، ثُمّ لا يعود إليه. وبذلك نطقت صحيحة أبي بصير قال: «قلت لأبي عبداللهعليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ...﴾ قال: هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً، قلت: وأيُّنا لم يعد؟ فقال: يا أبا محمّد إنّ الله يحبّ من عباده المفتن التوّاب»(١) ونحوها غيرها(٢).

٢ ـ أن يكون باطن التائب كظاهره وأفضل كما دلت على ذلك رواية عبدالله بن سنان عن الصادقعليه السلام قال: «التوبة النصوح أن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل»(٣) ونحوها غيرها(٤).

٣ ـ أن يبدأ التوبة بصوم يوم الأربعاء والخميس والجمعة كما في رواية أبي بصير عن الصادقعليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿... تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ...﴾ قال: «هو صوم يوم الأربعاء والخميس والجمعة»(٥).

وإذا استثنينا المعنى الثالث لوضوح كونه تفسيراً بالمقدّمة، فكأنّ المعنى: أنّ صوم تلك الأيّام الثلاثة توفّق الإنسان للتوبة النصوح، إذن يبقى المعنيان الأوّلان. ولا يبعد رجوعهما إلى معنىً واحدٍ، فتفسيرها بعدم العود يعني: أنّ التوبة النصوح هي التي تَخْلُق في النفس تغيّراً وانقلاباً وتطهيراً يمنع صاحبها من أن يرجع إلى ذلك الذنب أبداً. وهذا هو الذي يكون باطنه كظاهره وأفضل.

وإن شئت فقل: إنّ النصوح صفة مشبّهة، أو مبالغة في الناصح الذي هو عبارة

---

(١) الوسائل ١٦/٧٢، الباب ٨٦ من جهاد النفس، ح٣، وص٨٠، الباب ٨٩ منها، الحديث ٤.

(٢) من قبيل رواية أبي الصباح الكناني عن الصادقعليه السلام ومحمّد بن الفضيل، عن أبي الحسن موسىعليه السلام في الوسائل ١٦/٧٢ ـ ٧٣، الباب ٨٦ من جهاد النفس، الحديث ٤.

(٣) المصدر السابق ١٦/٧٧، الباب ٨٧ من جهاد النفس، الحديث ٢.

(٤) المصدر السابق، الحديث ١.

(٥) المصدر السابق : ص ٧٨ ـ ٧٩، الباب ٨١ من جهاد النفس، الحديث ١.

عن الشيء الكامل والصاحي والمحكم وما إلى ذلك من التعبيرات، فمن علامات نصح التوبة عدم الرجوع إلى الذنب، ومن علاماته كون الباطن كالظاهر وأفضل، ومن مقدّماته صوم الأيّام الثلاثة.

وأمّا الكلام علىٰ الآثار الأُخروية للتوبة النصوح فكأنّه يستفاد من الآية الكريمة: أنّ التوبة النصوح زائداً علىٰ ما يترتب عليها من المغفرة ودخول الجنّة لها مزيّتان أُخريتان هامّتان:

الأُولى: أنّها توجب ستر العيب في يوم القيامة ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ**﴾[1]؛ وذلك لقوله تعالىٰ: ﴿... **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** ...﴾ ومن الواضح أنّ فضح الذنب في عرصات يوم القيامة من أشدّ أنحاء الإخزاء، أعاذنا الله منه.

وقد ورد التصريح بذلك أعني ستر عيب التائب توبة نصوحاً في حديث صحيح السند عن معاوية بن وهب قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله، فستر عليه في الدنيا والآخرة. قلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[2].

والثانية: أنّها تبعث للتائبين في ظلمات يوم القيامة نوراً بين أيديهم وبأيمانهم، وهو المستفاد من ذيل الآية المباركة حيث قال: ﴿**نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

---

(١) السورة ٨٦، الطارق، الآيتان: ٩ ـ ١٠.

(٢) الوسائل ١٦/ ٧١، الباب ٨٦ من جهاد النفس، الحديث ١.

وهذا التعبير قد ورد ـ أيضاً ـ في القرآن في صفة المؤمنين والمؤمنات في قوله تعالىٰ: **﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ...﴾**(١).

ويبدو لي من ذيل هذه الآية الأخيرة: أنّ المنافقين يتخيّلون أنّ نور المؤمنين يشبه نور سراج الدنيا الذي يمكن لغير صاحب النور أن يستفيد منه لو جعله صاحب النور أمام من يريد الاستفادة؛ ولذلك يقولون: انظرونا كي يصبح النور الذي في مقابلكم في مقابلتنا أيضاً، فنستفيد منه، ولكنّهم لا يعلمون أنّ هذا النور ليس كنور المصباح الدنيوي، بل لو صحّ تشبيهه بالأنوار الدنيوية فالأنسب أن يشبّه بنور البصر الذي لا يقبل الاكتساب، بل هو نور ذاتيّ للبصر يستفيد منه صاحب النور فحسب، ولا يكون إلّا في عين صحيحة، فمن كان من حين ولادته وفي رحم أُمّه مثلاً أعمى لا يصحّ له أن يقول للمبصر: انظرني أقتبس من نورك، ولو قال له ذلك لأجابه المبصر بأنّ هذا النور إنّما جئتُ به من رحم أُمّي، فارجع إلى ورائك في رحم أُمك وائت بالنور، فكذلك يقال للمنافقين والمنافقات في يوم القيامة: إنّ المؤمنين قد أتوا بهذا النور من الدنيا فارجعوا وراءكم إلى الدنيا، والتمسوا لكم منها نوراً.

وفي ختام الحديث عن التوبة النصوح تجب الإشارة إلى أنّ التائب لو خانته نفسه، ولم يستطع علىٰ جعل توبته نصوحاً بمعنى عدم العود، وتكرّر منه ذلك، فليس المفروض به أن ييأس من فائدة التوبة، فقد مضى في ذيل صحيحة أبي

---

(١) السورة ٥٧، الحديد، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

بصير قولهﷺ: «... إنّ الله يحبّ من عباده المفتّن التواب»[١] والإنسان يكون في كثير من الأحيان قبل تزكية نفسه بالرياضات النفسية مبتلىً بحالة الوقوع في كسر التوبة والرجوع إليها مراراً وتكراراً، فحاله كحالة الطفل الذي يعطي لوالديه التعهد بترك الجهالات ثُمّ يكسر ذلك ويكرّر المخالفة والتوبة، وهذا لا يوجب طرده من قبل والديه.

وبهذه المناسبة لا بأس بذكر القِصّة[٢] التالية التي فيها عظة وعبرة:

رُوِيَ أنّ شيخاً كان يمشي في أحد الطرق، فرأىٰ طفلاً جالساً يبكي، فسأله مِمّ بكاؤك؟ فقال: إنّ أُمّي أخرجتني من البيت، وكلّما أستجير بالبيوت الأُخرى لا يُفتح لي الباب. فجلس الشيخ عند الطفل، وأخذ يوافق الطفل في البكاء، وقال: لو أنّ طفلاً نهرته أُمّه وطردته من البيت لا يفتح له باب آخر فمن ينهره الله تعالىٰ عن بابه إلى أين يذهب، وكيف ينفتح عليه باب آخر؟! ثُمّ قام الشيخ لكي يذهب في طريقه، فتعلّق به الطفل، وطلب منه أن يشفعه لدىٰ أُمّه، فوافق الشيخ علىٰ ذلك، وأخذ بيد الطفل إلى بيت أُمّه، وشفعه عندها، فبكت الأُم، وقالت: يا شيخ نعم الشفيع أنت، ولكن قد شفعه ـ أيضاً ـ قبلك قانون (أولادنا أكبادنا)، ولكنّه يا شيخ إني كلّما أمنعه عن اللعب لا ينزجر، فاعلم أيّها الشيخ: لو خرج مرّة أُخرى من دون إذني من البيت ليلعب قطعت عنه علاقة الأُمومة والبنوّة، فوافق الشيخ علىٰ ذلك، فطلبت منه أن يكتب رسالة بهذا المعنى؛ كي لا يلعب بعد هذا مع الأطفال، وإلّا فما هو ابني ولا أنا أُمّه، فكتب الشيخ بذلك رسالة، وأعطاها إيّاها، فأخذت بيد الطفل، وأدخلته البيت، فما مضت إلّا سويعة وإذا رأىٰ الشيخ أنّ الطفل قد خرج

---

(١) الوسائل ١٦ / ٧٢، الباب ٨٦ من جهاد النفس، الحديث ٣، وص ٨٠، الباب ٨٩ منها، الحديث ٤.

(٢) وردت القِصّة في كتاب خزينة الجواهر في زينة المنابر: ١٧٩ ـ ١٨٠.

من البيت، وانشغل باللعب مع الأطفال، فغضبت الأُمّ، وسدّت عليه الباب إلىٰ أن انتهوا من اللعب، وذهب كلّ واحد منهم إلىٰ بيته، وبقي وحده، فجاء إلىٰ البيت، ولكن كلّما دقّ الباب لم تفتح عليه الباب، فالتجأ إلىٰ بيوت الجيران واحداً واحداً، ولكنّهم لم يفتحوا له أبوابهم، فاحتار في أمره، ورجع مرّة أُخرىٰ إلىٰ بيت أُمّه، وكلّما دقّ الباب لم يُفتح له، فقال: يا أُمّ إن لم ينفتح عليّ باب الجيران كان لي وجه للرجوع إلىٰ هذا الباب، ولكن لو لم ينفتح عليّ هذا الباب ليس لي وجه للرجوع إلىٰ باب آخر، وأخذ يبكي ويئنّ، وجعل وجهه علىٰ التراب إلى أن أخذه النوم وأُمّه تراقب حاله من علىٰ السطح، فحينما رأت الطفل قد نام بكمال الذلّ والانكسار في التراب رمت بنفسها، ورفعت رأس طفلها من علىٰ تراب الذلّ، وأخذت تمسح الغبار عن وجهه وهو نائم، ولمّا استيقظ الطفل، ونظر إلى وجه أُمّه قال: يا أُمّ لو تقطعي عنّي الماء والخبز فهو مقبول، ولو تفركي أُذني فأنا مستحقّ لذلك، ولو تركِتني في البكاء والحنين أتحمّل ذلك، ولكنّ الذيأطلبه منك أن لا ترسليني من باب بيتك إلىٰ أبواب الآخرين، فلمّا رأىٰ الشيخ هذه القِصّة شقّ قميصه، وقال: اتّضح لي من هذه القِصّة أمران:

١ ـ إنّ العبد ليس له باب وطريق غير باب الله عزّ وجلّ[١].

٢ ـ إنّ علاقة المحبّة لا تنفصم بأيّ شيء[٢].

أقول: يا ترىٰ إنّ الأُمّ تفرح برجوع ولدها وتوبته، وتتجاوز عن سيّئته، ولكن الله تعالىٰ الذي ألهم الأُمّ هذه الرحمة وهو أرحم الراحمين لا يقبل توبة العبد،

---

(١) «... إلىٰ من يذهب العبد إلّا إلىٰ مولاه، وإلىٰ من يلتجئ المخلوق إلّا إلىٰ خالقه...». مفاتيح الجنان /دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) «... هيهات أنت أكرم من أن تضيّع من ربّيته، أو تبعّد من أدنيته، أو تشرّد من آويته، أو تسلّم إلىٰ البلاء من كفيته ورحمته...». مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

ولا يفرح برجوع عبده المؤمن؟! وإنّ عطفه تعالىٰ ورحمته علىٰ العباد ثابتان حتّىٰ في يوم المعاد في حين أنّ عطف الأُمّ وحنانها لا يبقى لهما أثر في ذلك اليوم ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(١).

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٢).

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾(٣).

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٤).

وفي ختام حديثنا عن التوبة أقول : إنّ الآية الشريفة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ...﴾(٥). قد ذُكرت لها شؤون نزول، ويُحتمَل أنّها كانت جميعاً من قبيل التطبيق علىٰ المورد لا من قبيل شأن النزول، ولكنّها علىٰ أيّ حال تعتبر جميعاً قصصاً لأشخاص صدرت عنهم الذنوب الكبار العظام ممّا يؤدي إلى سَعَة الأمل للمذنبين بهذه الآية المباركة، ولذا نشير هنا إلى بعض تلك الموارد:

---

(١) السورة ٢٢، الحج، الآية: ٢.

(٢) السورة ٨٠، عبس، الآيات: ٣٤ ـ ٣٧.

(٣) السورة ٧٠، المعارج، الآيات: ٨ ـ ١٦.

(٤) السورة ٢٦، الشعراء، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

(٥) السورة ٣٩، الزمر، الآيتان: ٥٣ ـ ٥٤.

أوّلها: قيل: إنّها نزلت بشأن وحشي، وقد ورد في تفسير نمونه[١] : أنّ سورة الزمر من السور المكية، ووقتئذ لم يكن قد وقعت قِصَّة وحشي ولا وقعة أُحد، فلا يمكن أن تكون قِصَّة وحشي شأن نزول للآية المباركة، فلعلّ هذا كان تطبيقاً لهذه الآية على ذاك المورد.

وعلىٰ أيّة حال، فوحشي هو ذاك المجرم المعروف قاتل حمزة عمّ النبيّ ﷺ في وقعة أُحد.

وقد رُوِيَ في تفسير القمّي[٢] أنّ هند بنت عتبة «... كانت في يوم أُحد في وسط العسكر، فكلّما انهزم رجل من قريش رفعت له ميلاً ومكحلة، وقالت: إنّما أنت امرأة، فاكتحل بهذا، وكان حمزة بن عبدالمطلب يحمل علىٰ القوم، فإذا رأوه انهزموا، ولم يثبت له أحد، وكانت هند بن عتبة قد أعطت وحشياً عهداً: لئن قتلت محمّداً أو عليّاً أو حمزة لأعطيتك رضاك، وكان وحشي عبداً لجبير بن مطعم حبشيّاً، فقال وحشي: أمّا محمّد فلا أقدر عليه، وأمّا عليّ فرأيته رجلاً حذراً كثير الالتفات فلم أطمع فيه، فكمنت لحمزة، فرأيته يهدّ الناس هدّاً، فمرّ بي، فوطأ علىٰ جرف[٣] (حرف خ ل) نهر فسقط، فأخذت حربتي فهززتها ورميته، فوقعت في خاصرته، وخرجت من مثانته مغمسة بالدم، فسقط، فأتيته، فشققت بطنه، فأخذت كبده، وأتيت بها إلى هند، فقلت لها: هذه كبد حمزة، فأخذتها في فيها فلاكتها، فجعلها الله في فيها مثل الداغصة[٤] (الفضّة خ ل) فلفظتها ورمت بها، فبعث الله ملكاً فحملها وردّها إلى موضعها..».

---

(١) تفسير «نمونه» ١٩ / ٥٠٢.

(٢) تفسير القمّي ١/١١٦ ـ ١١٧.

(٣) الجرف: الجانب الذي أكله الماء من حاشية النهر. (المنجد)

(٤) من معاني الداغصة علىٰ ما ورد في المنجد: عظم الركبة المسمىٰ عامياً بالصابونة.

وقد ورد في سفينة البحار: «حكي أنّ مسيلمة الكذّاب اشترك في قتله وحشي وأبو دجانة، فكان وحشي يقول: قتلت خير الناس وشرّ الناس حمزة ومسيلمة...» ومنه الحديث: «حمزة وقاتله في الجنّة»[١].

وذكرَ في تفسير نمونه[٢] نقلاً عن بعض المفسّرين:

لمّا كثرت انتصارات الإسلام أراد وحشي أن يسلم، لكنّه كان يخشىٰ عدم قبول إسلامه، فنزلت الآية، فأسلم، وقال له رسول الله ﷺ: «كيف قتلت عمّي حمزة؟ فذكر وحشي قِصّة قتله لحمزة ﵁، فبكىٰ رسول الله ﷺ بكاءً شديداً، وقَبِل توبته، ولكنّه قال له: غيّب وجهك عنّي، فإنّي لا استطيع النظر إليك. فلحق بالشام، فمات في أرض تُسمّىٰ بالخمر.

وورد في تفسير الفخر الرازي: لما أسلم وحشي بناءً علىٰ هذه الآية قيل لرسول الله ﷺ: «هذه له خاصّة أم للمسلمين عامّة؟ فقال: بل للمسلمين عامّة»[٣].

وثانيها: ما رواه في تفسير نمونه[٤] باختصار عن تفسير أبي الفتوح الرازي ج ٩ ص ٤١٢ من أنّ شاباً جاء إلى رسول الله ﷺ باكياً مع شدّة التأثّر، وكان يقول: إنّي أخشى من غضب الله، قال له الرسول ﷺ: هل أشركت؟ قال: لا، قال: هل قتلت أحداً بغير حقّ؟ قال: لا، قال ﷺ: يغفر الله لك ذنوبك مهما كثرت، قال: إنّ ذنبي أعظم من السماء والأرض والعرش والكرسيّ، فقال له رسول الله ﷺ: هل أنّ ذنبك أعظم من الله؟! قال: لا، الله أكبر من كلّ شيء، قال له: تب فإنّ الإله العظيم يغفر الذنب العظيم.

---

(١) سفينة البحار ٨/٤٢٠.

(٢) تفسير «نمونه» ١٩/٥٠٦.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٧/٤.

(٤) تفسير «نمونه» ١٩ / ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

ثُمّ قال له: اذكر لي ذنبك: قال: استحي منك من ذكره، قالﷺ: اذكره لنا كي نعرف ماهو هذا الذنب، قال: كنت أنبش القبور سبع سنين، وأسرق أكفان الموتىٰ إلى أن انتهيت إلى قبر أنصاريّة، وبعد أن أخذت كفنها وسوستني نفسي، وهنا يشرح فعلته الشنيعة معها، فغضب رسول اللهﷺ وقال: أخرجوا هذا الفاسق عنّي، وقال له: ما أقربك من النار، فخرج وكان يبكي بكاءً عظيماً، وذهب إلى الصحراء، وكان يقول: يا إله محمّدﷺ إن قبلت توبتي أخبر رسولك بذلك، وإلّا فأرسل صاعقة من السماء وأحرقني بها، وأنجني بذلك من عذاب الآخرة، فنزلت الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ...﴾.

وقد ذكر الشيخ المجلسي؛ هذه القِصّة بكلّ تفصيل في البحار[1]، إلّا أن الآية التي فرض نزولها في تلك القِصَّة ليست الآية الماضية، بل آية أُخرى، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[2].

وثالثها: ما رواه فخر الرازي في تفسيره[3] بعنوان أحد الأُمور التي ذكرت في سبب نزول الآية، وهو أنّه قيل: «إنّها نزلت في أهل مكّة، فإنّهم قالوا: يزعم محمّدﷺ أنّ من عبد الأوثان، وقتل النفس لم يغفر له، وقد عبدنا وقتلنا، فكيف نسلم؟!» فنزلت هذه الآية معلنةً عن قبول توبتهم.

---

(١) البحار ٦/٢٣ ـ ٢٦.

(٢) السورة ٣، آل عمران، الآيتان: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٧/٤.

وممّا يناسب ذكره في المقام قِصّة أبي لبابة التي رواها المجلسي في البحار[١] عن تفسير عليّ بن إبراهيم في ذيل آية ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] قال: «نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، وكان رسول الله ﷺ لمّا حاصر بني قريظة قالوا له: ابعث إلينا أبا لبابة نستشيره في أمرنا، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا لبابة ائت حلفاءك ومواليك، فأتاهم، فقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل علىٰ حكم رسول الله؟ فقال: انزلوا، واعلموا أنّ حكمه فيكم هو الذبح وأشار إلى حلقه، ثُمّ ندم علىٰ ذلك، فقال: خنت الله ورسوله، ونزل من حصنهم، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ، ومرّ إلى المسجد، وشدّ في عنقه حبلاً، ثُمّ شدّه إلى الأُسطوانة التي تسمّى أسطوانة التوبة، فقال: لا أحلّه حتّىٰ أموت، أو يتوب الله عليّ، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك، فقال: أمّا لو أتانا لاستغفرنا الله له[٣] فأمّا إذا قصد إلى ربّه فالله أولى به. وكان أبو لبابة يصوم النهار، ويأكل بالليل ما يمسك رمقه، وكانت بنته تأتيه بعشائه، وتحلّه عند قضاء الحاجة، فلمّا كان بعد ذلك ورسول الله ﷺ في بيت أُمّ سلمة نزلت توبته، فقال: يا أُمّ سلمة قد تاب الله علىٰ أبي لبابة، فقالت: يا رسول الله أفأُؤذنه بذلك؟ فقال: لتفعلنّ، فأخرجت رأسها من الحجرة، فقالت: يا أبا لبابة أبشر قد تاب الله عليك، فقال: الحمدلله، فوثب المسلمون يحلّونه، فقال: لا والله حتّىٰ يحلّني رسول الله ﷺ بيده، فجاء رسول الله ﷺ فقال: يا أبا لبابة قد تاب الله عليك توبة لو ولدت من أُمّك يومك هذا لكفاك، فقال: يا رسول الله أفأتصدّق بمالي كلّه، قال: لا، قال: فبثلثيه؟

---

(١) البحار ٢٢/٩٣ ـ ٩٤.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ١٠٢.

(٣) لعلّه إشارة إلى قوله تعالىٰ: ﴿... وَلَو أَنَّهُم إِذ ظَلَمُوا أَنفُسهم جاؤوكَ فاستَغفروا الله وَاستغفر لَهُم الرسول لَوَجدوا الله توّاباً رَّحيماً﴾. السورة ٤، النساء، الآية: ٦٤.

قال: لا، قال: فبنصفه؟ قال: لا، قال: فبثلثه؟ قال: نعم، فأنزل الله: **﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**[١] ».

فلئن كانت هذه الذنوب العظام قد حطّتها التوبة ونحن نرجو أن لا تكون لنا ذنوب من هذا المستوى، فكلّنا رجاءٌ أن يغفر الله لنا ذنوبنا بتوبتنا واستغفارنا خاصّة إذا استغفرنا ربّنا في الاسحار، وقد قال الله تعالىٰ في وصف المتقين: **﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾**[٢] . وقال ـ أيضاً ـ في وصفهم: **﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾**[٣] . وأيضاً قال الله تعالىٰ في الحوار الذي نقله بين يعقوب وأبنائه: **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**[٤] .

وقد فسّر هذا التأجيل في الاستغفار بالتأجيل إلى السحر[٥] .

وفي الكافي بسند صحيح عن عمر بن أُذينة قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إنّ في الليل لساعة ما يوافقها عبد مسلم ثُمّ يصلّي ويدعو الله عزّ وجلّ فيها إلّا استجاب له في كلّ ليلة، قلت: أصلحك الله وأيّ ساعة هي من الليل؟ قال: إذا مضىٰ

---

(١) السورة ٩، التوبة، الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) السورة ٥١، الذاريات، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

(٣) السورة ٣، آل عمران، الآية: ١٧.

(٤) السورة ١٢، يوسف، الآيتان: ٩٧ ـ ٩٨.

(٥) راجع أُصول الكافي ٢/٤٧٧، باب الأوقات والحالات التي تُرجىٰ فيها الإجابة من كتاب الدعاء، الحديث ٦.

نصف الليل وهي السدس الأوّل من أوّل النصف»[١].

(١) المصدر السابق ٢ / ٤٧٨.. ولا يخفى أنّ الشيخ الطوسي‌رحمه‌الله روىٰ نفس الحديث بسند صحيح عن عمر بن يزيد، عن أبي عبدالله‌عليه‌السلام، إلّا أنّه جاء التعبير في مقام تحديد الوقت هكذا: «... إذا مضىٰ نصف الليل إلى الثلث الباقي».

راجع التهذيب ٢ / ١١٧، الحديث ٤٤١. فلو فسّرنا السدس في التعبير الذي نقلناه عن الكافي بمعنى: سدس الليل، لا بمعنى سدس النصف، تطابق التعبيران؛ وذلك لأنّ ما بين النصف الأوّل والثلث الأخير عبارة عن السدس الرابع.

وذكر الغزالي حديثاً عن رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: أنّ من الليل ساعة لا يوافيها عبد مسلم يسأل الله خيراً إلّا أعطاه إيّاه. وفي حديث آخر: يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلّا أعطاه إيّاه، وذلك كلّ ليلة. ثُمّ قال الغزالي: ومطلوب القائمين تلك الساعة وهي مبهمة في جملة الليل.. وعلّق عليه الشيخ الفيض‌رحمه‌الله بقوله: بل هي معلومة بتعليم علماء أهل البيت ـ صلوات الله وتسليماته عليهم ـ إيّانا، وهي: السدس الرابع من الليل ... ولكنّ العامّة عن بركة أمثالها لمعزولون. راجع المحجّة ٢ / ٤٠٠.

الفصل الثاني
المحاسبة

قيل: إنّ مرتبة المحاسبة تأتي بعد مرتبة التوبة، فبعد أن عقد التـوبة يـحاسب نفسه علىٰ حفظ التوبة حتّىٰ يسلم عقدُها ويثبت دوامها[١].

والواقع: أنّ التـوبة والمـحاسبة تـتفاعلان فـيما بـينهما، فـالتوبة تـؤدّي إلى المحاسبة، والمحاسبة تؤثّر في دوام التوبة، والوفاء بها من ناحية وهي قبل التوبة تؤدّي إلى التوبة من ناحية أُخرىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٢].

فقوله تعالىٰ: ﴿**وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ في الحقيقة أمر بالمحاسبة، فـعلى الإنسان أن يحاسب نفسه؛ ليرى ماذا قدّم لغده، هل قدّم خيراً أو قدّم شرّاً؟ وإن كان قد قدّم خيراً فما هو مبلغ تقديمه؟ علماً بأنّ ما يقدّمه هو الذي يبقى له، والبـاقي يفنىٰ كما قال الله تعالىٰ: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ...**﴾[٣].

---

(١) راجع باب المحاسبة، وهو الباب الثالث من أبواب البدايات من منازل السائرين.

(٢) السورة ٥٩، الحشر، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

(٣) السورة ١٦، النحل، الآية: ٩٦.

والذي تقشعرّ له الجلود التعبير الوارد في ذيل الآية ـ وهو قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ...﴾ فهذا يعني: أنّ ترك المحاسبة يكون من شأن أُولئك الذين نسوا الله، وأنّ جزاء نسيان الله هو أن يبتليه الله بنسيان نفسه، والذي هو أعظم نسيان حتّىٰ عند من لا يهتمّ إلّا بمصالح نفسه. والتعبير بنسيانه لنفسه يتمّ باعتبارين:

أحدهما: أنّ الذي نسىٰ الله لا يذكر مصالح نفسه الأُخرويّة، والتي هي المصالح الباقية والهامّة، ومن ترك مصالح نفسه فكأنّه ناسٍ لنفسه، وإلّا فكيف لا يهتمّ بمصالح نفسه.

وثانيهما: أنّ الطاقة الخيّرة الهامّة المودعة بلطف الله في النفس قد أهملها ونسيها، ونسيانها نسيان للنفس.

ويشبه التعبير بنسيان النفس التعبير المؤثّر الآخر الوارد في القرآن الكريم، وهو التعبير بخسران النفس، فقد تكرّر في القرآن عدّة مرّات عنوان: ﴿... الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ...﴾[1] فالذين خُتِمت عاقبتهم بالشرّ، ولم يكن لهم في الآخرة من خلاق قد خسروا أنفسهم، إمّا بلحاظ خسارة مصالحهم في الآخرة إلى أبد الآبدين، أو بلحاظ خسارة قوىٰ الخير التي أودعها الله في أنفسهم فخسروها.

وهناك مرتبة نازلة من خسران النفس أو نسيان النفس وردت فيالروايات بشأن من يرتكب بعض الذنوب وذلك من قبيل التعبير بحرمان صلاة الليل، كما ورد عن الصادق عليه السلام: «أنّ الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل...»[2] . وسند

---

(١) راجع السورة ٦، الأنعام، الآيتين: ١٢ و ٢٠، والسورة ٧، الأعراف، الآيتين ٩ و ٥٣، والسورة ١١، هود، الآية: ٢١، والسورة ٢٣، المؤمنون، الآية: ١٠٣، والسورة ٣٩، الزمر، الآية: ١٥.

(٢) الوسائل ١٥ / ٣٠٢، الباب ٤٠ من جهاد النفس، الحديث ١٤.

الحديث تامّ.

وكذلك ورد عن الصادقﷺ: «أنّ الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم صلاة الليل حرم بها الرزق»[١].

ورُوي أنّه جاء رجل إلى أمير المؤمنينﷺ فقال: «إنّي قد حرمت الصلاة بالليل، فقال امير المؤمنينﷺ: أنت رجل قد قيّدتك ذنوبك»[٢].

وعلىٰ أيّة حال، فحساب ما قدّم الإنسان لغد الوارد في الآية الكريمة أمر تحكم به الفطرة؛ لأنّ الإنسان المسافر في أسفاره الاعتياديّة لا بدّ له من ذلك ومن تدارك الزاد لسفره، فكيف بالسفر إلى عالم البقاء؟! وقد ورد عن مولانا أمير المؤمنينﷺ أنّه قال:

إذا كنت تعلم أنّ الفراق ... فراق الحياةِ قريبٌ قريب
وأنّ المعدَّ جهازَ الرحيلِ ... ليوم الرحيلِ مصيب مصيبْ
وأن المُقدِّم ما لا يفوت ... علىٰ ما يفوت معيبٌ معيبْ
وأنت علىٰ ذاك لا ترعوي ... فأمرُك عندي عجيبٌ عجيبْ[٣]

وكيف يصحّ ترك الاهتمام بالمحاسبة في حين أنّ وراءنا محاسبة عظيمة من قبل الله تعالىٰ، كما أخبرنا القرآن به في أكثر من مورد، منها:

١ ـ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[٤].

٢ ـ ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ

---

(١) المصدر السابق ٨ / ١٦٠، الباب ٤٠ من بقيّة الصلوات المندوبة، الحديث ٣.

(٢) المصدر السابق: ص ١٦١، الحديث ٥.

(٣) البحار ٩٢/٧٨.

(٤) السورة ٢١، الانبياء، الآية: ٤٧.

فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[١] .

ويحتمل أن تكون الآية الثانية بل ولعلّ الأُولىٰ ـ أيضاً ـ مشيرة إلى بقاء الأعمال بتموّجاتها الهوائية، وتأثيراتها المادّية، وتجزّؤها كمثقال حبّة من خردل، وتفرّقها، وانتشارها في السماوات والأرض، وأنّ الله ـ تعالىٰ ـ يجمعها يوم القيامة، ويجسّمها أمام فاعلها، فواسوأتاه علىٰ أعمالنا القبيحة.

وهناك روايات واردة عن المعصومين عليهم السلام في باب المحاسبة، وذلك من قبيل:

١ ـ ما عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «ابن آدم! إنّك لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك، وما كانت المحاسبة من همّك، وما كان الخوف لك شعاراً، والحزن لك دثاراً، ابن آدم! إنّك ميت ومبعوث وموقوف بين يدي الله فأعدّ جواباً»[٢] .

قوله: «وما كان الخوف لك شعاراً، والحزن لك دثاراً» قد فسّر الشعار والدثار في اللغة بمعنىٰ الثوب الداخلي والثوب الفوقاني؛ ولهذا يحتمل أن تكون الأصحّ النسخة التي وردت هكذا: «وما كان الخوف لك شعاراً، والحذر لك دثاراً»[٣] ؛ وذلك لأنّ الخوف أمر باطني، فيناسب تشبيهه بالشعار، والحذر أمر ظاهري، فيناسب تشبيهه بالدثار، في حين أنّ الخوف والحزن من هذه الناحية سيّان، فلا تُرى نكتةٌ في جعل الأوّل شعاراً والثاني دثاراً.

٢ ـ ما عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي الحسن الماضي عليه السلام[٤] قال: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيّئاً

---

(١) السورة ٣١، لقمان، الآية: ١٦.

(٢) الوسائل ١٦/٩٦، الباب ٩٦ من جهاد النفس، الحديث ٣.

(٣) البحار ٧٨/١٣٧ نقلاً عن تحف العقول.

(٤) الظاهر : أنّ المقصود موسى بن جعفر عليه السلام.

استغفر الله منه وتاب إليه»[١].

٣ـ ما رُوِيَ عن رسول الله ﷺ: أنّه قال لأبي ذرّ: «يا أبا ذرّ حاسب نفسك قبل أن تحاسَب، فإنّه أهون لحسابك غداً، وزِن نفسك قبل أن توزن، وتجهّز للعرض الأكبر يوم تعرض لا تخفى علىٰ الله خافية... يا أبا ذرّ لا يكون الرجل من المتّقين حتّىٰ يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك لشريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمن حلال أم من حرام؟ يا أبا ذرّ من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار»[٢].

وقد ورد في هذا الحديث الأمر بعناوين ثلاثة: محاسبة النفس قبل أن تحاسَب، ووزن النفس قبل أن توزن، والتجهّز للعرض الأكبر الذي سوف يكون في الآخرة علىٰ من لا تخفىٰ عليه خافية.

وهذه العناوين الثلاثة وإن كانت مترابطة، ولكن الظاهر وجود فَرق بينها، فكأنّ المقصود بالمحاسبة: محاسبة ما صدرت عن النفس من الأعمال؛ لكي يعرف الخير منها من الشرّ. والمقصود بالموازنة: الموازنة بين واقع ما وصلت إليه النفس من المستوى في هذا الحين، وما ينبغي أن تصل إليه؛ كي يعرف مدىٰ ماهو عليه من النقص. والمقصود بالتجهّز للعرض الأكبر: ما ينبغي أن يكون نتيجة المحاسبة والموازنة من تدارك ما فات وإكمال النقائص.

والمحاسبة من أشدّ الأُمور علىٰ النفس، ومنشأ الشدّة واضح، وهو: وحدة المحاسِب والمحاسَب، فمن السهل أن يحاسب شخص شخصاً، ولكن إذا اتّحد المحاسِب والمحاسَب يصعب حصول المحاسبة؛ ولذا ترى أنّ من يوفّق من المؤمنين للمحاسبة قليلون، وهم من خلّص العباد.

---

(١) الوسائل ١٦/٩٥، الباب ٩٦ من جهاد النفس، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق: ص٩٨، الحديث ٧.

صحيح أنّنا نقول: إنّ العقل يحاسب النفس، والعقل غير النفس، ولكنّ الواقع: أنّ المغايرة بين العقل والنفس إن هي إلّا أمراً تحليليّاً بحتاً، أمّا بحسب الوجود الخارجي فالنفس في وحدتها كلّ القوىٰ، فواقع الأمر: أن النفس هي تحاسب نفسها، فكيف يمكن ذلك؟!

وهذه المشكلة ليس لها إلّا أحد حلّين:

الحلّ الأوّل: أن يستفاد من النفس في حالة صحوها؛ لمحاسبة النفس بلحاظ حالة سباتها وضعفها.

وتوضيح ذلك: أنّ النفس لا تبتلي بالمعصية إلّا نتيجة السبات والضعف أمام المغريات، وبعد ذلك قد تنتقل إلى شيء من الصحوة والعافية لأحد أسباب ثلاثة:

١ـ إنّه بعد أن ارتكبت ما دعت إليه الشهوة خمدت الشهوة بسبب إشباعها، فهنا قد يأتي دور الصحو ولو نسبياً؛ لأجل خمود الشهوة، وكأنّ هذا هو المعنيّ بالحديث المروي عن الصادق‌عليه السلام: «قيل له: أيزني الزاني وهو مؤمن؟ فقال: لا إذا كان علىٰ بطنها سُلِبَ الإيمان منه، فإذا قام رُدّ عليه...»[(١)].

ويلحق بذلك خمود الشهوة بأسباب أُخرى: كضعف المزاج صحيّاً، أو الشيب، أو غير ذلك. فقد يوجب ذلك إدراك دور الصحو.

٢ـ إنّ المغريات التي ضعفت النفس أمامها قد تزول أو تخفّ، فقد يدرك النفس ـ عندئذٍ ـ دور الصحو ولو نسبياً.

٣ـ إنّ النفس قد تتقوّىٰ ببعض المقوّيات: من سماع وعظ واعظ، أو قراءة قرآنٍ، أو التفكير بالعواقب، أو غير ذلك.

فبأيّ سبب من هذه الأسباب حينما يدرك الإنسان الصحو ولو نسبيّاً ينبغي له أن يغتنم ذلك فرصة لمحاسبة نفسه علىٰ ما صَدر عنها في وقت السبات والغفلة

---

(١) الوسائل ٢٠/٣١٢، الباب ١ من النكاح المحرم، الحديث ١٧.

والطغيان كما ويجب عليه إيجاد أسباب الصحو بقدر الإمكان بـالطرق المـباحة حينما لم توجد بذاتها.

والحلّ الثاني: ما يتعيّن الالتجاء إليه بالنسبة لمن عجز عن الاستفادة من الحلّ الأوّل، وهو: أن يعيّن شخصاً آخر لمراقبته ومحاسبته، كي يكون المحاسِب غـير المحاسَب حتّىٰ يصبح الحساب ممكناً.

ثُمّ إنّ المحاسبة لا تختصّ بالعُصاة كي يتصوّر أنّ العُدول مستغنون عنها؛ وذلك لأنّ مراتب العرفان لا تنتهي، وعقاب العارفين علىٰ ذنوبهم العرفانية ربّما لا يقلّ في إحساساتهم عن عقاب العـاصين عـلىٰ مـعاصيهم، فـالعارف الذي يُـعاقب بحرمانه لذّة المناجاة مثلاً، أو حرمانه لبعض درجات تلك اللّذة قد يحسّ بألم هذا العقاب أكثر من ألم العاصي باحتراقه بخوف النار، إذن فمهما يبلغ العـارف فـي مراتب سلوكه التي لا تتناهى المقامات الراقية لا يستغني عن محاسبة نفسه فـي سبيل نيل المقامات التي هي أعلىٰ من ذلك والنجاة من العقاب الذي قد يراه في مستواه أعلىٰ ممّا يراه العاصي من العقاب في مستواه. وأنت لو نـظرت إلى لغـة العارفين لأحسست بشدّة احتراقهم بالمجازاة العرفانية التـي تـفوق عـلىٰ تألّـم العاصين من استحقاقهم للنار، فمثلاً لو كان الإعراض عن اللـغو بشكـل مـطلق ـ الذي جعل في ظاهر الآية المباركة وصفاً للمؤمنين[1] ـ من الواجبات العرفانية لا الواجبات الفقهيّة، وافترضنا أنّه غير ذي أهميّة قصوى ما دام هو غـير واجب فقهيّاً، فبالله عليك ألا تتذوّق شدّة الاحتراق والتألّـم إلى حـدٍّ لا يـوصف عـلىٰ فرضية صدور هذا الذنب العرفاني ممّا ورد في دعاء أبي حـمزة: «... أو لعـلّك رأيتني آلف مجالس البطّالين فبيني وبينهم خلّيتني...»؟! ولو لم يكن فـقدان لذّة المناجاة أشدّ علىٰ العارفين من حرقة ذكر النار علىٰ العاصين فماذا تفهم من الفقرة

---

(١) راجع السورة ٢٣، المؤمنون، الآيات ١ ـ ٣.

الواردة في دعاء أبي حمزة من قوله:

« ... اللّهمّ إنّي كلّما قلت قد تهيّأت وتعبّأت وقمت للصلاة بين يديك وناجيتك ألقيتَ عليَّ نعاساً إذا أنا صلّيت، وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيت، ما لي كلّما قلت قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوّابين مجلسي، عرضت لي بليّة أزالت قدمي، وحالت بيني وبين خدمتك، سيّدي لعلّك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحيّتني، أو لعلّك رأيتني مستخفّاً بحقّك فأقصيتني، أو لعلّك رأيتني معرضاً عنك فقليتني، أو لعلّك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أو لعلّك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلّك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلّك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلّك رأيتني آلف مجالس البطّالين فبيني وبينهم خلّيتني، أو لعلّك لم تحبّ أن تسمع دعائي فباعدتني، أو لعلّك بجرمي وجريرتي كافيتني، أو لعلّك بقلّة حيائي منك جازيتني...»[١] ؟!

هكذا نتعلّم من هذه الأدعية المباركة لغة محاسبة النفس الصادقة رغم وحدة التعبير لدىٰ صدورها عن العاصين، ولدى صدورها عن المتقين العارفين، وبشتّى مستويات العرفان غير المتناهية، وفي كلّ مرتبة من المراتب تعطي هذه الكلمات المعنى المناسب لتلك المرتبة. وسلام الله علىٰ أهل بيت يكون كلامهم دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

ولنختم حديثنا عن المحاسبة بالكلام حول ما قيل في تشخيص موقعيّة المحاسبة والأُمور المرتبطة بها: من أنّه لابدّ من المرابطة مع النفس أوّلاً بالمشارطة، ثُمّ بالمراقبة، ثُمّ بالمحاسبة، ثُمّ بالمعاقبة، ثُمّ بالمجاهدة، ثُمّ بالمعاتبة، وأصلها: هو المحاسبة، ولكنّ الحساب يكون بعد المشارطة والمراقبة، وتتبعه عند

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

الخسران معاتبة ومعاقبة[١].

ونحن لا نقبل من هذا الكلام فرضيّة الترتّب بين المعاقبة والمعاتبة وكون الثانية متأخرة من الأُولى بدرجتين، بل هما في عرض واحد. وبعد هذا الاستثناء نتكلّم بشكل مختصر عن هذه المراتب بالشكل الذي نراه صحيحاً، وليس يطابق بالضرورة تطابقاً كاملاً لما قاله الغزالي في شرح ذلك. فنقول:

أوّلاً ـ المشارطة:

فعمر الإنسان رأس ماله الحقيقي يضعه الإنسان أمانة بيد نفسه، ونفسه أمارة بالسوء، ولو غفل الإنسان عنها لفرّطت النفس بهذا المال، فعليه أن يشارط نفسه كلّ يوم مرّة في الأقلّ أو كلّ يوم وليلة مرّتين: بأن يأخذ علىٰ نفسه في أوّل النهار وفي أوّل الليل أن لا يتصرّف في رأس المال هذا إلّا في كذا وكذا من الأُمور، فإنّ ساعات عمره خزائن من الأموال والمجوهرات مودعة لديه من قبل الله تعالىٰ، وخسرانها يوجب الحسرات الشديدة.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أنّه يُفتح للعبد يوم القيامة علىٰ كلّ يوم من أيّام عمره أربعة وعشرون خزانة عدد ساعات الليل والنهار، فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً، فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزّع علىٰ أهل النار لأدهشهم عن الإحساس بألم النار، وهي: الساعة التي أطاع فيها ربّه، ثُمّ يُفتح له خزانة أُخرىٰ فيراها مظلمة منتنة مفزعة، فيناله عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسّم علىٰ أهل الجنّة لنغّص عليهم نعيمها، وهي: الساعة التي عصىٰ فيها ربّه، ثُمّ يُفتح له خزانة أُخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسرّه ولا ما يسوؤه، وهي: الساعة التي نام فيها أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فيناله من الغبن والأسف علىٰ فواتها حيث كان متمكناً من أن يملأها حسنات ما

---

(١) راجع المحجة ٨/ ١٥٠، والإحياء ٤/ ٣٦٢.

لا يوصف، ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿... ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[1] ».

ثانياً ـ المراقبة:

فمجرد المشارطة مع النفس لا تكفي؛ لأنّ النفس قد تخون الشرط، فلابدّ من مراقبتها في حالتين:

١ ـ حالة ما قبل العمل؛ كي يتأكّد من الدافع الذي دفعه إلى العمل؛ لأنّ النفس خدّاعة تخدع نفسها، فقد يغفل الإنسان عن دافعه الحقيقي، أو إنّ الدافع يكون في الحقيقة مركّباً من الدافع الإلهي وغيره، فيغفل عن الجزء الثاني، وينسب إلى نفسه الإخلاص.

٢ ـ وحالة العمل؛ كي يتأكد من صحته وعدم الانحراف فيه وعدم الانصراف عنه إن كان عملاً صالحاً.

والمراقبة قد تُفسَّر بأحد تفسيرين:

---

(١) السورة ٦٤، التغابن، الآية: ٩، وأمّا الرواية فهي واردة في البحار ٧ / ٢٦٢، وتتّضح ممّا في ذيل هذه الرواية ـ من أنّ فتح الخزانة الثالثة الخالية يورث من الغبن والأسف ما لا يوصف ـ عدّة أُمور، منها:

أوّلاً ـ فضيلة كبيرة لشهر رمضان المبارك بناءً علىٰ ما ورد في خطبة مرويّة عن رسول الله ﷺ من قوله: «... أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة...» فإنّ هذا يعني: أنّ الخزانة الثالثة الخالية لا توجد للمؤمن في شهر رمضان؛ إذ لا أقلّ من نوم أو تنفّس فيها، وكلتاهما تحسبان عبادة، وهذا أحد معاني ما ورد في نفس تلك الخطبة: من أنّ شهر رمضان شهر ضيافة الله. راجع متن الخطبة في البحار: ٩٦/٣٥٦ ـ ٣٥٨.

ثانياً ـ أهمّية ترك اللغو الوارد في قوله تعالىٰ في سورة ٢٣ المؤمنون ﴿... وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وفي سورة ٢٥ الفرقان ﴿... وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾. بناءً علىٰ شمولهما للغو المباح، فإنّ ذلك يوجب فتح الخزانة الثالثة المورثة من الغبن والأسف ما لا يوصف.

ثالثاً ـ عظمة الكلام المرويّ عن الرسول ﷺ لأبي ذرّ كما ورد في البحار ٧٧ / ٨٢: «... يا أبا ذرّ ليكن لك في كلّ شيء نيّة حتّىٰ في النوم والأكل...» فإنّ من فعل ذلك لم تُفتح له خزانة ثالثة.

الأوّل: مراقبة الإنسان نفسه سواءٌ قبل العمل أو حين العمل كما أشرنا إليه؛ كي لا يخطأ.

والثاني: ملاحظة الرقيب، وهو: الله تعالىٰ، فإنّه سبحانه وتعالىٰ يراقبنا في كلّ حال، وقد قال الله تعالىٰ:

١ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾(١).

٢ ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾(٢).

وعن رسول الله ﷺ أنّه قال لأبي ذرّ: «... يا أبا ذرّ اعبد الله كأنّك تراه، فإن كنت لا تراه فإنّه يراك...»(٣).

وتقسّم هذه الملاحظة إلى درجتين:

الأُولى: مراقبة المقرّبين، وهي: مراقبة التعظيم والإجلال، وهي: أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقىٰ فيه متسع للالتفات إلى غيره.

والثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم: قوم غلب يقين اطّلاع الله علىٰ ظواهرهم وبواطنهم علىٰ قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال، بل بقيت قلوبهم علىٰ حدّ الاعتدال متّسعة للتلفّت إلى الأحوال والأعمال، إلّا أنّها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة فيها، نعم غلب عليهم الحياء من الله تعالىٰ فلا يُقدمون ولا يحجمون إلّا بعد التثبّت فيه.

ويُعرف اختلاف الدرجتين بملاحظة المراقبين الاعتياديين من الآدميين،

---

(١) السورة ٤، النساء، الآية: ١.

(٢) السورة ٩٦، العلق، الآية: ١٤.

(٣) البحار ٧٧/٧٤.

فإنّك في خلواتك قد تتعاطىٰ أعمالاً، ويدخل عليك ملِك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتّىٰ تترك كلّ ما أنت فيه شغلاً به لاحياءً منه، وربّما لا يدخل عليك كبير من هذا النمط، بل يحضرك صبيّ أو إنسان عاديّ، فتعلم أنّه مطّلع عليك، فتستحي منه، فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء، فإنّ مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك، ولكنّها تهيّج الحياء منك.

فعلينا أن نراقب الله سبحانه وتعالىٰ ـ في الأقلّ ـ بقدر مراقبتنا للصغير أو للإنسان الاعتيادي، ونستحي منه ـ في الأقلّ ـ بقدر حيائنا من الصغير أو الإنسان الاعتيادي: «فلو اطّلع اليوم علىٰ ذنبي غيرك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنّك أهون الناظرين إليّ وأخفّ المطّلعين عليّ، بل لأنّك يا ربّ خير الساترين، وأحكم الحاكمين، واكرم الأكرمين، ستّار العيوب، غفّار الذنوب، علّام الغيوب، تستر الذنب بكرمك، وتؤخّر العقوبة بحلمك...»[1].

وقد ورد في الحديث عن مولانا زين العابدين عليه السلام: أنّه حينما اختلت امرأة العزيز بيوسف «قامت امرأة العزيز إلى الصنم، فألقت عليه ثوباً، فقال لها يوسف: ما هذا؟ فقالت: أستحي من الصنم أن يرانا، فقال لها يوسف: أتستحيين من لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ولا يأكل ولا يشرب، ولا أستحي أنا ممّن خلق الإنسان وعلّمه»؟!‏[2].

«وحُكي عن بعض الأحداث أنّه راود جارية عن نفسها ليلاً، فقالت: ألا تستحي؟! فقال: ممّن أستحي وما يرانا إلّا الكواكب، فقالت: وأين مكوكبها؟!»[3].

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) البحار ١٢/٢٦٦.

(٣) المحجة ٨ / ١٥٦.

ثالثاً ـ المحاسبة:

وهذا ما يكون آخر النهار وآخر الليل كما كانت المشارطة أوّل النهار وأوّل الليل، فإنّ رأى الإنسان بعد محاسبة النفس أنّها قد عملت بالوظيفة شكر الله علىٰ ذلك واستزاد الله في ذلك، وإن رأى التقصير تاب وتدارك ما مضى.

رابعاً ـ المعاتبة والمعاقبة:

فيما لو تبيّن له تقصير النفس في أداء الوظيفة، فلو ظهر أنّ النفس قد قصّرت فيما شرط عليها ينبغي للإنسان أن يوبّخها ويعاتبها، وأن يؤدّبها ببعض العقوبات.

وقد رُوي عن ليث بن أبي سليم[1] قال: «سمعت رجلاً من الأنصار يقول: بينما رسول الله ﷺ مستظلّ بظلّ شجرة في يوم شديد الحرّ إذ جاء رجل ينزع ثيابه، ثُمّ جعل يتمرّغ في الرمضاء يكوي ظهره مرّة وبطنه مرّة وجبهته مرّة، ويقول: يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم ممّا صنعتُ بكِ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى ما يصنع، ثُمّ إنّ الرجل لبس ثيابه، ثُمّ أقبل فأومأ إليه النبيّ ﷺ بيده ودعاه، فقال له: يا عبدالله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه، فما حملك علىٰ ما صنعت؟ فقال الرجل: حملني علىٰ ذلك مخافة الله، وقلت لنفسي: يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم ممّا صنعتُ بكِ، فقال النبيّ ﷺ: لقد خفت ربّك حقّ مخافته، وإنّ ربّك ليباهي بك أهل السماء، ثُمّ قال لأصحابه: يا معشر من حضر ادنوا من صاحبكم حتّىٰ يدعو لكم، فدنوا منه، فدعا لهم وقال: اللّهمّ اجمع أمرنا علىٰ الهدىٰ، واجعل التقوىٰ زادنا، والجنّة مآبنا».

وخامساً ـ المجاهدة:

فبعد أن رأىٰ الإنسان من نفسه التقصير ينبغي له أن يجاهد نفسه بتدارك ما فات وبالاستزادة فيما يأتي ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

---

(١) المحجة ٧/٣٠٨ ـ ٣٠٩.

الْمُحْسِنِينَ﴾(١) .

وعن مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام: «طوبىٰ لعبد جاهد لله نفسه وهواه...»(٢) .

وفي الختام نشير إلى كلمة جليلة حول المشارطة والمراقبة والمحاسبة للسيّد الإمام الخمينيّ رحمه الله(٣) ، وهي بتلخيص: أنّه بإمكانك أن تلحظ يوماً واحداً، وتشارط نفسك في أوّله علىٰ عدم إرتكاب ما يخالف أوامر الله، وتتّخذ قراراً وعزماً بذلك؛ إذ من الواضح: أنّ ترك ما يخالف أوامر الله ليوم واحد أمر يسير للغاية، فيسهل العزم عليه ومشارطة النفس به، وعليك بالتجربة كي تراه سهلاً يسيراً، ثُمّ تراقب نفسك في ذلك اليوم علىٰ عدم نكثها للشرط، ثُمّ تحاسب نفسك في آخر اليوم علىٰ ما حصل في ذلكاليوم، فإن كنت قد وفيت حقّاً بالشرط فاشكر الله علىٰ هذا التوفيق، وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه، فواظب علىٰ هذا العمل فترة، والمأمول أن يتحوّل ذلك إلى ملكة فيك بحيث يصبح هذا العمل بالنسبة لك سهلاً ويسيراً في الغاية، وستحسّ عندها باللذّة والأُنس في طاعة الله وترك معاصيه، وإذا حدث ـ لا سمح الله ـ في أثناء النهار تهاون حول العمل بالشرط تستغفر الله، وتعزم علىٰ الوفاء بكلّ شجاعة بالمشارطة غداً.

---

(١) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) المحجة ٨/١٧٠.

(٣) الأربعون حديثاً: ٢٦ ـ ٢٧، ذيل الحديث الأوّل.

الفصل الثالث

التـفكّر والتـذكّر

قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[1].

ومن مقدّمات السلوك إلى الله التفكّر والتذكّر. وقد قيل: إنّ التذكر فوق التفكّر؛ لأنّ التفكّر يكون عند احتجاب القلب بصفات النفس، فيلتمس الإنسان البصيرة المطلوبة، والتذكّر يكون عند رفع الحجاب، وخلوص خلاصة الإنسانيّة من قشور صفات النفس، والرجوع إلى الفطرة الأُولى، فيتذكّر ما انطبع فيها في الأزل من

(١) السورة ٣، آل عمران، الآيات: ١٩٠ ـ ١٩٥.

التوحيد والمعارف بعد النسيان بسبب التلبّس بغواشي النشأة، وقد يكون التذكّر للمعاني التي حصلت بالتفكّر بعد نسيانها[١].

وعلىٰ أيّة حال، فالتفكّر والتذكّر أمران متفاعلان، وأحدهما يدعو إلى الآخر، فإنّ التفكّر يورث التذكّر لما نسيه بسبب أغشية النفس، كما أنّ التذكّر يورث الانتباه، ومن ثمّ يدعو إلى مزيد من التفكير.

والأمر بالتذكّر وارد في القرآن الكريم بكثرة كاثرة، كقوله تعالىٰ: ﴿... **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ** ...﴾[٢]، ﴿... **مَا لَكُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾[٣]، ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وكأنّ أحد أغصان التذكّر المهمّة المأمور بها في القرآن هو: تذكّر ما عُهِدَ إلينا في عالم الذر، المنطبع في الفطرة سواءٌ فرضنا عالم الذرّ نفس عالم الفطرة، أو عالماً أسبق به تكوّنت الفطرة الطاهرة، فإنّ أغشية النفس أذهلتنا عن ذلك ولا نذكرها، ولكنّنا نستطيع أن نتذكّرها بمعنى: الرجوع إلى الفطرة والتفتيش عمّا فيها والحصول عليها، فقوله تعالىٰ مثلاً: ﴿... **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ** ...﴾ يعني: أنّ المقدار الذي تفضّلنا به عليكم من العمر كافٍ لوجدانكم لما هو الكامن في فطرتكم من التوحيد والمعارف.

وقد رُتِّبَ التذكّر في القرآن تارة علىٰ الإنابة، وأُخرى علىٰ اللب، قال الله تعالىٰ: ﴿... **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ**﴾[٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿... **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا**

---

(١) راجع شرح منازل السائرين لكمال الدين عبدالرزاق الكاشاني: ٣٤.

(٢) السورة ٣٥، فاطر، الآية: ٣٧.

(٣) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ٤.

(٤) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٥٢.

(٥) السورة ٤٠، غافر، الآية: ١٣.

الأَلْبَابِ﴾[(١)].

أمّا التفكّر فله أقسام كثيرة، منها ما يلي: فقد يكون تفكّراً في آيات الله كما أشارت إليه الآيات التي بدأنا بها الحديث **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...﴾** وهذا تفكّر يبعث بمعرفة الله وبالتوحيد، وفي نفس الوقت يبعث بالتذكير بالوظائف وضرورة الطاعة والإيمان والهرب من العذاب؛ ولهذا أعقبه الله ـ سبحانه ـ بقوله: **﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ ...﴾** وأُخرىٰ يكون التفكّر في نعم الله وآلائه، وثالثةً في كتاب الله أو في المناجاة والدعاء والصلاة، كما قال رسول الله ﷺ فيما ورد في وصاياه لأبي ذرّ: «... يا أبا ذرّ ركعتان مقتصدتان في تفكّر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ»[(٢)] ورابعةً في النفس وحالاتها ومهالكها وأساليب علاجها ونجاتها، وخامسةً في العِبَر المؤثّرة في النفس، كما ورد عن الحسن الصيقل قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عمّا يروي الناس: أنّ تفكّر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكّر؟ قال: يمرّ بالخربة أو بالدار فيقول: أين ساكنوك، أين بانوك، مالكِ لا تتكلمين»[(٣)].

ومن هذا النمط الكلام المرويّ عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «... واعلموا عباد الله أنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا علىٰ سبيل من قد مضىٰ قبلكم، ممّن كان أطول

(١) السورة ١٣، الرعد، الآية: ١٩، والسورة ٣٩، الزمر، الآية: ٩.

(٢) البحار ٧٧ / ٨٢.

(٣) تفسير البرهان ١/٣٣١.

منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصـواتـهم هـامِدَة، وريـاحهم راكِدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية. فـاستبدلوا بـالقصور المشيّدة، والنمارق الممهّدة، الصخور والأحجار المسنّدة، والقبور اللاطئة المُلحّدة التي قد بُنيَ بالخراب فِناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فمحلُّها مـقترب، وسـاكـنها مغترب بين أهل محلّة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران علىٰ ما بينهم من قرب الجوار ودنوّ الدار، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بِكَلْكَلِهِ البِلىٰ، وأكلتهم الجنادِل والثَّرَى...»[١].

وقد روي أنّه «سُئِلَ عيسىعليه‌السلام مَنْ أفضل الناس؟ قال: مَنْ كان منطقه ذكـراً، وصمته فكراً، ونظره عبرةً»[٢].

وعن الصادقعليه‌السلام قال: «كان أمير المؤمنينعليه‌السلام يقول: نبّه بالتفكّر قلبك، وجافِ عن الليل ساجداً، واتّقِ الله ربّك»[٣].

وإنّني أختم الحديث في هذا الفصل بذكر روايـتين واردتـين بشأن الآيـات المباركات التي افتتحنا بها هذا الفصل:

الأولىٰ: رُوي عن ابن عمر[٤] قال: «قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ فبكت وأطالت، ثُمّ قالت: كلُّ أمره عجب، أتاني فـي ليـلتي، فدخل في لحافي حتّىٰ ألصق جلده بجلدي، ثُمّ قال لي: يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربّي؟ فقلت: يا رسول الله إنّي لأُحبّ قربك، وأُحبّ مرادك، قد أذنت لكَ، فقام إلى قِرْبة من الماء في البيت، فتوضأ ولم يكثر من صبّ الماء، ثُمّ قام

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧٥ ـ ٤٧٦، رقم الخطبة: ٢٢٦.

(٢) تفسير البرهان ١/٣٣١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التفسير الكبير للرازي ٩/١٣٣ ـ ١٣٤.

يصلّي، فقرأ من القرآن، وجعل يبكي، ثُمّ رفع يديه فجعل يبكي حتّىٰ رأيت دموعه قد بلّت الأرض، فأتاه بِلال يؤذنه بصلاة الغداة، فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبكَ وما تأخّر؟! فقال: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً، ثُمّ قال: مالي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...﴾ ثُمّ قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها. وروي: ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّل فيها».

والثانية: ما رُوِيَ عن حبّة العرني: قال: «بينا أنا ونوف نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام في بقيّة من الليل واضعاً يده علىٰ الحائط شبيه الواله وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...﴾ قال: ثُمّ جعل يقرأ هذه الآيات، ويمرّ شبه الطائر عقله، فقال لي: أراقد أنت ياحبّة أم رامق؟ قال: قلت: رامق، هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟ فأرخىٰ عينيه فبكى، ثُمّ قال لي: يا حبّة إنّ لله موقفاً، ولنا بين يديه موقفاً لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالنا، يا حبّة إنّ الله أقرب إليّ وإليك من حبل الوريد، يا حبّة إنّهِ لن يحجبني ولا إيّاك عن الله شيء. قال: ثُمّ قال: أراقد أنت يا نوف؟ قال: قال: لا يا أمير المؤمنين ما أنا براقد، ولقد أطلت بكائي هذه الليلة، فقال: يا نوف إن طال بكاؤك في هذا الليل مخافة من الله تعالىٰ قرّت عيناك غداً بين يدي الله عزّ وجلّ...»[١].

---

(١) البحار ٤١/٢٢.

الفصل الرابع
الاعتصام والفرار

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

وقال عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

وقال عزّ من قائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٣).

وقال جلّ جلاله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ (٤).

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥).

---

(١) السورة ٣، آل عمران، الآيات: ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) السورة ٤، النساء، الآية: ١٤٦.

(٣) السورة ٢٢، الحج، الآية: ٧٨.

(٤) السورة ٤، النساء، الآية: ١٧٥.

(٥) السورة ٥١، الذاريات، الآية: ٥٠.

قد فسّر بعض الاعتصام بالله والاعتصام بحبل الله الواردين في القرآن الكريم: بأنّ الثاني هو: الاحتماء بطاعة الله، وهو اعتصام عامّة الناس. والأوّل هو: الانقطاع إلى الله عن كلّ موهوم، وذلك إمّا بمعنى الإعراض عمّا عداه، والتمسّك به وحده، وهو اعتصام الخاصّة، أو بمعنى الاتّصال الذي يعني الوصول إلى شهود الحقّ تفريداً، وهو اعتصام خاصّة الخاصّة(١).

أقول: الاعتصام معناه: الدخول في عصمته وحصنه، والاحتماء به علىٰ اختلاف درجات ذلك باختلاف درجات عرفان العبد.

وتعابير القرآن اتّفقت علىٰ الاعتصام بالله، أمّا الاعتصام بحبل الله فلم يرد إلّا في مورد واحد. والظاهر أنّ سبب الفرق هو: أنّ المقصود في باقي الموارد في القرآن كان هو بيان أنّ الحصن الوحيد الواقي من جميع الأخطار هو الله تعالىٰ، فلابدّ من الاعتصام بعصمته بالشهادة المخلصة بالوحدانية. وفي خصوص المورد الذي عُبّر بالاعتصام بحبل الله كان الكلام عن توحيد الصفّ وعدم التفرّق، فناسب التعبير بالحبل الذي هو عِقد يوحّد المفردات المختلفة، وإشراب الاعتصام معنىٰ التمسك، فالمعنى ـ والله العالم ـ تمسّكوا بحبل الله، وتوحّدوا بذلك ولا تفرّقوا. وقد فُسّر حبل الله في أكثر رواياتنا بعليّ بن أبي طالب عليه السلام أو بالأئمّة المعصومين عليهم السلام(٢).

ومن الروايات الطريفة الواردة بشأن الاعتصام بالله ما ورد عن عبدالله ابن سنان بسند صحيح، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أيّما عبد أقبل قِبَل ما يحبّ الله عزّوجلّ أقبل الله قِبَل ما يحبّ، ومَنْ اعتصم بالله عصمه الله، ومَنْ أقبل الله قِبَله

---

(١) منازل السائرين باب الاعتصام، وهوالباب السابع من البدايات. ويُحتمل في عبارته أن يكون المقصود ماهو من خرافات العرفان الكاذب فراجع.

(٢) راجع تفسير البرهان ١/٣٠٥ ـ ٣٠٧.

وعصمه لم يبال لو سقطت السماء علىٰ الأرض، أو كانت نازلة نزلت علىٰ أهـل الأرض فشملتهم بليّة، كان في حزب الله بالتقوى من كلّ بليّة، أليس الله يقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾»[١].

وأمّا الفرار إلى الله فهو قريب المعنى مـن الاعـتصام بـالله، إلّا أنّ الاعـتصام يشتمل علىٰ التركيز علىٰ الجانب الإيجابي، وهو: الالتجاء إلى الله، والفرار يشتمل علىٰ التركيز علىٰ الجانب السلبي، وهو: الهروب ممّا يخاف منه.

وعلىٰ أيّة حال، فالاعتصام بالله والفرار إليه ممّا لابدّ منه في تزكية النفس؛ إذ لا حول ولا قوّة إلّا به: ﴿... وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّـنْ أَحَـدٍ أَبَداً ...﴾[٢].

---

(١) الوسائل ١٥/٢١١، الباب ١٠ من جهاد النفس، الحديث ١، والآية: ٥١ في السورة ٤٤، الدخان.

(٢) السورة ٢٤، النور، الآية: ٢١.

الفصل الخامس
الرياضة ومجاهدة النفس

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[١].

وقال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

لاشكَّ في أنّ النفس أمّارة بالسوء، وميّالة للكسل، والدِّعة، ومحبّة للتحرّر من قيود الدين ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[٣] إذن لا يمكن حبسها علىٰ سبيل الخير والإصلاح إلّا بترويضها ومجاهدتها.

وأيضاً من خواصّ النفس أنّها تخادع نفسها، وتغطّي الحقيقة، وتجعل الإنسان غافلاً عن معايبه، فلابدّ من رياضة النفس ومجاهدتها في كشف المعايب، كما لابدّ من الرياضة في رفعها وتصفية النفس منها.

وقد ذكر بعض[٤] أنّ هناك طرقاً أربعة لكشف معايب النفس ينبغي سلوك

---

(١) السورة ٧٩، النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) السورة ٧٥، القيامة، الآية: ٥.

(٤) راجع المحجة ٥/١١٢ ـ ١١٤ نقلاً عن كتاب الإحياء.

بعضها؛ لكشف تلك العيوب لغير من كملت بصيرته، فإنّ الله ـ تعالىٰ ـ إذا أراد بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه، فمن كملت بصيرته لم تخْفَ عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكنّ أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذىٰ في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يقف علىٰ عيوب نفسه فله أربع طرق:

الأوّل: أن يجلس بين يدي بصير بعيوب النفس، مطّلع علىٰ خفايا الآفات، فارغ عن تهذيب نفسه، فيحكّمه علىٰ نفسه، ويتّبع إشاراته في مجاهدته، ومَنْ وجد ذلك فقد وجد الطبيب، فليلازمه، فهو الذي يخلّصه من مرضه، وينجيه من الهلاك، إلّا أنّ هذا قد عزّ في هذا الزمان وجوده.

والثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، فينصبه رقيباً علىٰ نفسه؛ ليراقب أحواله وأفعاله، فما يكرهه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبّهه عليه حيث قد تغفل النفس عن عيوب نفسه ولكن تلتفت إلى عيوب غيره، فإن كنتُ أغفلَ أنا عن عيوب نفسي كان بإمكاني أن أستعين في كشفها بغيري من صديق صدوق متديّن بصير، فهكذا كان يفعل الأكابر، وكان بعضهم يقول: رحم الله من أهدىٰ إليَّ عيوبي، وكلّ مَنْ كان أوفر عقلاً، وأعلىٰ منصباً كان أقلّ إعجاباً، وأعظم اتّهاماً لنفسه.

إلّا أنّ هذا ـ أيضاً ـ قد قلّ وعزّ، فإنّ الصديق قد يكون حسوداً، أو صاحب غرض، أو يكون صديقاً حقّاً، ولكنّه يداهنك بإخفاء عيبكَ عليك[1]، وقلّ الصديق الذي يترك المداهنة فيخبر بالعيب.

وقد كانت شهوة ذوي الدين أنّ ينبَّهوا علىٰ عيوبهم بنصيحة غيرهم. وإذا بِنا

---

(١) وقد يكون حبّه لك مانعاً عن التفاته إلى عيبك كما قيل:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة ولكنّ عين السخط تبدي المساويا

يكون أبغض الخلق إلينا من ينصحنا، ويعرّفنا عيوبنا، ويكاد يكون هذا مفصحاً عن ضعف الإيمان.

والثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من لسان أعدائه، فإنّ عين السخط تبدي المساوي، ولعلّ انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه، ويمدحه، ويخفي عنه عيوبه، إلّا أنّ الطبع مجبول علىٰ تكذيب العدوّ، وحمل ما يقوله علىٰ الحسد، ولكنّ البصير لا يخلو من الانتفاع بقول اعدائه، فإن مساويه لابدّ وأنّ تنتشر علىٰ ألسنتهم.

الرابع: أن يخالط الناس، فكلّ ما يراه مذموماً فيما بين الخلق يطالب نفسه بتركه، وما يراه محموداً يطالب نفسه به؛ لأنّ الإنسان يعمىٰ عن رؤية عيوب نفسه، ولكنّه يرى عيوب غيره، إذن فبإمكانه أن يعرف أوّلاً عيوب الآخرين، ثُمّ يسري الأمر إلى نفسه عن طريق المقايسة، فيتفقّد نفسه، ويطهّرها من كلّ ما يذّمه من غيره، كما ويحاول ارتداء ما يراه محموداً من غيره، وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كلُّهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدِّب. انتهى ملخصاً وبشيء من التصرف في الألفاظ.

وأمّا روايات مجاهدة النفس فنقتصر علىٰ ذكر بعضها، نرويها عن كتاب الوسائل[(١)]:

١ ـ «إن النبيّ ﷺ بعث سريّة، فلمّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس».

٢ ـ عن الصادق عليه السلام: «احمل نفسك لنفسك، فإن لم تفعل لم يحملك غيرك».

٣ ـ عن الصادق عليه السلام قال لرجل: «إنّك قد جُعِلت طبيب نفسك، وبُيّن لك الداء،

---

(١) الوسائل ١٥/١٦١ ـ ١٦٢، الباب ١ من جهاد النفس، الأحاديث ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٦ و ٨.

وعرفت آية الصحّة، ودللت علىٰ الدواء، فانظر كيف قيامك علىٰ نفسك».

٤ ـ عن الصادق عليه السلام قال لرجل: «اجعل قلبك قريناً برّاً وولداً واصلاً، واجعل علمك والداً تتّبعه، واجعل نفسك عدوّاً تجاهده، واجعل مالك عارية تردّها».

٥ ـ عن الصادق عليه السلام: «مَنْ لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر من نفسه ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوّه من عنقه».

٦ ـ عن الصادق عليه السلام: «مَنْ ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب، وإذا اشتهىٰ، وإذا غضب، وإذا رضي، حرّم الله جسده علىٰ النار».

الفصل السادس
السماع

ذكر بعض أهل العرفان الكاذب المنحرف عن خطّ أهل البيت عليهم السلام أنّ من بدايات السلوك إلى الله الالتزام الهادف بالسّماع؛ لأنّ السّماع ـ وهو الغناء ـ يحدو كلّ أحد إلى مقصده، فيؤثّر في نفس السالك إلى الله ـ أيضاً ـ في حدوه إلى مقصده الخاص به[1].

ومن المضحك استشهاده[2] لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ...﴾[3].

في حين أنّه لا علاقة للسماع بمعنى الغناء بسماع الخير والهداية، إلّا توهّمه الذي ذكرناه آنفاً، وحتّىٰ لو غضضنا النظر عمّا هو ثابت في فقه أهل البيت عليهم السلام من حرمة الغناء نقول:

إنّ السّماع يحرّك في النفس الهواجس الكامنة تحريكاً لهويّاً، وليس السالك إلى الله مغنياً ومُنهيا لتلك الهواجس، وغاية ما يفترض بشأنه سيطرته عليها

(١) راجع منازل السائرين باب السّماع، وهو الباب العاشر من البدايات، وشرحه لكمال الدين عبدالرزاق الكاشاني: ٤٤.

(٢) راجع منازل السائرين باب السّماع، وهو الباب العاشر من البدايات، وشرحه لكمال الدين عبدالرزاق الكاشاني: ٤٤.

(٣) السورة ٨، الأنفال، الآية: ٢٣.

لمحاولة خنقها كالنار تحت الرماد، والسماع يُذكيها مرّة أُخرى، ويسلك بصاحبه إلى الشيطان لا إلى الله.

إلّا أنّ الذي ينحرف عن خط أهل البيتعليهم السلام لا نتوقّع منه أكثر من هذا الفهم ﴿... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[1] .

ويقول السيّد الإمام الخمينيّ ـ رضوان الله عليه ـ نقلاً عن أُستاذٍ له: إنّ أكثر ما يسبّب فقد الإنسان العزم والإرادة هو استماع الغناء[2] .

---

(١) السورة ٢٤، النور، الآية: ٤٠.

(٢) كتاب (الأربعون حديثاً) في ذيل الحديث الأوّل: ٢٥.

الفصل السابع

الحـــزن

ومن هنا إلى تسعة فصول أي: إلى الفصل الخامس عشر سُمّيت بقسم الأبواب، في مقابل ما مضىٰ المسمّىٰ بقسم البدايات بدعوى أنّ البدايات كانت لعامّة الناس، وهم أهل الظاهر الذين لم يتجاوزوا إلى الباطن، واشتغلوا برفع الموانـع وقـطع العلائق وعندئذٍ انفتحت عليهم أبواب الباطن، فدخلوها، وهي انفعالات وآثار من أنوار القلوب[1].

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾[2].

قيل بشأن نزول هذه الآية المباركة: إنّ سبعة من فقراء الأنـصار جـاؤوا إلىٰ الرسول ﷺ وطلبوا منه تمكينهم ممّا يمكّنهم من الاشتراك في الجـهاد، فـاعتذر منهم رسول الله ﷺ بعدم وجدانه لذلك، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع، فـنزلت هذه الآية بشأنهم، وعُرِفوا بعد ذلك باسم البكّائين[3].

الحزن قد يكون بمعنىٰ التوجّع علىٰ ما فات ممّا يقبل التدارك بمثل القضاء أو

---

(١) راجع شرح منازل السائرين لكمال الدين عبدالرزاق الكاشاني: ٤٦.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ٩٢.

(٣) راجع تفسير «نمونه» ٨ / ٨٠.

التوبة أو نحو ذلك، وأُخرى يكون بمعنىٰ التأسّف علىٰ الممتنع كما في مورد الآية المباركة.

وعلىٰ أيّ حال، فهو آية الإيمان، وعلامة الشوق إلى الخير وإلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ويسبّب دفع الإنسان ـ دائماً ـ إلى جهة الكمال. ومن فوائده في موارد إمكان التدارك البعث إلى التدارك، ومن فوائده ـ أيضاً ـ دفع السرور الزائد الذي يميت القلب، ويبعث إلى التميّع وعدم المبالاة في أقلّ تقدير، ويسبّب الأشر والبطر، وذلك من المهلكات.

وعن مولانا أمير المؤمنينعليه السلام : في الخطبة المعروفة بخطبة همام أو خطبة المتّقين التي أوردها سلام الله عليه في ذكر أوصاف المتّقين: «... قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أيّاماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. تجارة مربحة يسّرها لهم ربّهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أمّا الليل فصافّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلاً، يحزّنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم...»[١].

ولا يخفىٰ أنّ الحزن بالمعنىٰ الذي يشلّ الإنسان عن العمل الاجتماعي، وعن الانشراح مع إخوانه المؤمنين، ويوجب انقباضه عن الناس، وانقباض الناس عنه، إنّما يناسب أهل العرفان الكاذب. أمّا العارف الصحيح فحزنه يكون كامناً في قلبه، يمنعه عن الأشر والبطر والبطالة، ولكنّ بشره في وجهه، محبّب إلى الناس، وجلّاب لعواطف القلوب، ومهتمّ بقضاء حوائج المؤمنين الخاصّة.

وبهموم المسلمين والإسلام العامّة.

وعن مولانا أمير المؤمنينعليه السلام أنّه قال: «المؤمن بِشره في وجهه، وحزنه في

---

(١) نهج البلاغة: ٤١٠، رقم الخطبة : ١٩٣.

قلبه، أوسع شيء صدراً، وأذلّ شيء نفساً، يكره الرِفعة، ويشنأُ السُمعة، طويل غمّه، بعيد همّه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور، صبور، مغمور بفكرته، ضنين بخلّته، سهل الخليقة، ليّن العريكة، نفسه أصلب من الصلد، وهو أذلّ من العبد»[١].

قولهﷺ: «المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه» إنّ هاتين الصفتين تكاسر إحداهما الأُخرى، وترفع الآثار السيّئة عنها، فإنّ الحزن وحده يؤدّي إلى الانكماش عن المجتمع وعن الأعمال الاجتماعيّة، كما أنّ البِشر لو كان وحده يؤدّي إلى البطالة والبطر، ولكن متى ما اجتمع الحزن الإلهي في القلب مع البِشر المأمور به المؤمن أمام الناس، يتم الإعتدال، وتكون كلّ من الصفتين كمالاً محضاً، ونافعاً له ولمجتمعه ولدينه ودنياه وآخرته.

قولهﷺ: «أوسع شيء صدراً وأذلّ شيء نفساً» حينما يصبح الإنسان واسع الصدر ـ وسعة الصدر آلة الرئاسة ـ قد يأخذه الغرور بسبب نجاحه في الأُمور وقدرته علىٰ حلّ المشاكل بسعة الصدر، ولكن يعالج ذلك وصفُهُ الآخر، وهو: أنّه «أذل شيء نفساً» فهو دائماً يلحظ نقائص نفسه، ويُذلّ نفسَه أمام قلبه، ويؤنّبها علىٰ أخطائها، وهذا يمنع عن بروز تلك الحال، ويؤدّي إلى الاعتدال المطلوب.

قولهﷺ: «ضنين بخلّته» يُحتمَل في كلمة (الخلّة) فتح الخاء وضمها[٢] فعلىٰ الفتح تكون بمعنى الفقر والحاجة، ويكون المعنى: أنّ المؤمن يبخل بعرض حاجته علىٰ الناس، فلا يمدّ يد الحاجة إليهم. وعلىٰ الضمّ يكون معناها: من الإخلاص والصداقة. وعلىٰ هذا المعنى فسّره ابن أبي الحديد بمعنىٰ كونه قليل المخالطة والتوفّر علىٰ العُزلة.

أقول: إنّ هذا شأن العرفان الكاذب، بل الأولىٰ أن يكون المقصود علىٰ هذا

---

(١) نهج البلاغة: ٧٢٤، رقم الحكمة: ٣٣٣.

(٢) راجع مجمع البحرين ٥/٣٦٥.

المعنى هو: الاحتفاظ بالخُلّة، أي: الصداقة أو الاصدقاء، بمعنى أنّه يكـون وفـيّاً للذين اتّخذهم أخلّاء في الله حافظاً لهم للغيب بما حفظ الله بـاذلاً لهـم النـصح والمعونة.

قولهعليه السلام: «نفسه أصلب من الصلد، وهو أذلّ من العبد» وهاتان الصفتان أيضاً تصلح إحداهما الأُخرى، فإنّ الصلادة والصلابة وإن كان يقصد بها الشجاعة في ذات الله والمقاومة للحقّ وضدّ الباطل، ولكن قد توجب هذه الحالة ـ والتي هي نوع اعتماد علىٰ النفس ـ الغرور والتكبّر، ولكنّه حينما كان ـ أيضاً ـ متّصفاً بأنّ نفسه أذلّ عنده من العبد تكون الصفتان نافعتين وكمالاً عظيماً للنفس. هكذا كان الأئمّةعليهم السلام يربّون العارفين بالله الحقيقيين، ويدرّبونهم عـلىٰ أن يكـونوا رُهـباناً بالليل أُسداً بالنهار.

والحزن الشديد يكون من مَظاهره البكاء، وكذلك الخوف الذي سنبحثه فـي المستقبل إن شاء الله.

والروايات المادحة للبكاء من خشية الله أو من الحزن كثيرة أُسجل لك هـنا بعضها من كتاب الوسائل:

١ ـ عن الصادقعليه السلام عن آبائه، عن النبيّصلى الله عليه وآله في حديث المناهي: قال: «ومَنْ ذرفت عيناه من خشية الله كان له بكلّ قطرة قطرت من دموعه قصرٌ في الجـنّة، مكلّل بالدرّ والجوهر، فيه ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»[(١)].

وقد تستغرب من ثواب عظيم كهذا ممّا يوصف بأنّـه لا عـين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، كيف رُتّب علىٰ مجرّد قطرة من الدمع؟! ولكن يزول هذا الاستغراب إذا التفتنا إلى أمرين:

---

(١) الوسائل ١٥ / ٢٢٣، الباب ١٥ من جهاد النفس، الحديث ١.

الأوّل: ما يكشف عنه البكاء، إنّ البكاء يكشف عن التحوّل العظيم في نفس الباكي، والتفاعل الكامل مع الله سبحانه وتعالىٰ ومع أوامره ونواهيه، وتجلّي عظمته تعالىٰ في قلبه وخشوعه له، ومن هنا يكون البكاء ـ أيضاً ـ كاشفاً عن مستوىً عالٍ من الندم علىٰ المعاصي، وموجباً لغفران الذنوب كما ورد في الحديث التالي:

٢ ـ عن الحسن العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، عن الصادق عليه السلام: «إنّ الرجل ليكون بينه وبين الجنّة أكثر ممّا بين الثرىٰ إلى العرش؛ لكثرة ذنوبه، فما هو إلّا أن يبكي من خشية الله ـ عزّ وجلّ ـ ندماً عليها حتّىٰ يصير بينه وبينها أقرب من جفنه إلى مقلته»[(١)].

وطبعاً هذا لا ينفي سائر شرائط التوبة، بل كأنّه ينظر إلى أنّ البكاء لو كان بكاءً مرتبطاً بالندم ارتباطاً حقيقيّاً فهو يلازم تحقيق باقي شرائط التوبة.

والثاني: ما يترتّب علىٰ البكاء من الاقتراب العاطفي الكبير من الله جلّت عظمته، وخَرق حُجُب النفس ممّا يؤدّي إلى تركّز التفاعل مع الله في النفس أكثر من ذي قبل؛ ولذا ينبغي للباكي أن يغتنم فرصة تلك الحالة الذهبيّة التي حصلت له في تهذيب نفسه وتزكيتها؛ فإنّ هذه الفرصة لا تحصل في أيّ وقت شاء الشخص.

وجميع الروايات الواردة في مدح البكاء من خشية الله أو الشعور بعظمته والاندهاش أمامه تُحمل علىٰ هذين التفسيرين اللّذيْن عرفتهما وذلك من قبيل:

٣ ـ ما ورد عن الصادق عليه السلام: قال: «ما من شيء إلّا وله كيل ووزن، إلّا الدموع؛ فإنّ القطرة تُطفئ بحاراً من نار، فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهه قتر ولا ذلّة، فإذا فاضت حرّمها الله علىٰ النار، ولو أنّ باكياً بكى في أُمّة لرحموا»[(٢)].

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧، الحديث ١٠.

(٢) المصدر السابق: ص٢٢٧، الحديث ١١.

٤ ـ عن الرضاﷺ في حديث صحيح السند قال: «كان فيما ناجىٰ الله به موسىﷺ أنّه ما تقرّب إليّ المتقربون بمثل البكاء من خشيتي، وما تعبّد لي المتعبّدون بمثل الورع عن محارمي، ولا تزيّن لي المتزيّنون بمثل الزهد في الدنيا عمّا يهمّ الغنىٰ عنه. فقال موسى: يا أكرم الأكرمين: فما أثبتّهم علىٰ ذلك؟ فقال: يا موسىٰ أمّا المتقرّبون لي بالبكاء من خشيتي فهم في الرفيق الأعلىٰ لا يشاركهم فيه أحد، وأمّا المتعبّدون لي بالورع عن محارمي فإنّي أُفتّش الناس عن أعمالهم، ولا أُفتّشهم حياءً منهم، وأمّا المتزيّنون لي بالزهد في الدنيا فإنّي أبيحهم الجنّة بحذافيرها يتبوّؤون منها حيث يشاؤون»[١].

هذا، والبكاء ليس نتيجة الحزن أو الخوف فحسب، بل يكون نتيجة لبعض الصفات والحالات الأُخرى ـ أيضاً ـ التي سيأتي الحديث عنها إن شاء الله، ومنها الخشوع كما جاءت الإشارة إلى ذلك في ثنايا كلامنا، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾[٢].

وقال الله سبحانه أيضاً: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[٣].

وقد ظهرت من ثنايا بحثنا فائدتان تربويّتان هامّتان تترتّبان علىٰ البكاء من خشية الله، أو من الحزن علىٰ ما فات، أو نحو ذلك ممّا يدعو إلى البكاء في الله

---

(١) المصدر السابق: ص٢٢٦، الحديث ٩.

(٢) السورة ١٧، الإسراء، الآيات: ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٣) السورة ١٩، مريم، الآية: ٥٨.

سبحانه وتعالىٰ، وهما في غاية الأهميّة القصوىٰ:

الأُولىٰ : أنّ حالة البكاء هي من أقرب الحالات إلى الله سبحانه وتعالىٰ، وأشدّها تفاعلاً مع الله عزّ وجلّ، وانشداداً عاطفياً إليه عزّ اسمه.

والثانية : أنّ هذه الحالة يمكن استثمارها في سبيل تربية النفس وتزكيتها وتنميتها، وذلك عن طريق أن يفرض الشخص علىٰ نفسه في تلك الحالة ما يشاء من ترك المذموم من الخصال أو الأفعال، أو الالتزام بالممدوح من الخصال أو الأفعال، فإنّ النفس تقبل منه هذا التحميل في تلك الساعة التي هي ساعة الصفاء وساعة الانفتاح علىٰ العالَم العلوي، في حين أنّه لو أراد الإنسان أن يأخذ علىٰ نفسه التزاماً من هذا القبيل في ساعة أُخرى ربّما لا تُعطيه نفسه ذلك ولا تطاوعه، وهي أطوع لك في إعطاء التزام كهذا في ساعة البكاء.

ولكننا يجب أن ننبّه أخيراً إلى بعض الآفات التي قد تترتّب علىٰ البكاء؛ كي يلتفت إليها سالك الطريق ويحترز منها، وطبعاً إنّ هذه الآفات لو ترتّبت علىٰ البكاء فهي نتيجة ضعف نفس الباكي، وإلّا فليس من المفروض أن يترتّب علىٰ البكاء من خشية الله أو من عظمته أو ما إلى ذلك غير الخير والسعادة. وتلك الآفات ما يلي:

١ ـ هناك آفة لا تختصّ بالبكاء، بل كثيراً ما تعرض علىٰ باقي العبادات والطاعات أيضاً، وهي: آفة العُجب وحالة الزهو والكبرياء والتبختر وما إلى ذلك، وذلك من أعظم الذنوب. والنفس نتيجة ضعفها قد تبتلي بهذه الحالة عقيب طاعاتها وعباداتها، فلابدّ من الالتفات إلى هذه الآفة والتجنّب عنها، وذلك بالتفات النفس ضمن ماهي عليه من كمال نتيجة طاعتها إلى ما لها من نقائص لا تنتهي مهما بلغت من مرقاة الكمال، وأنّ ما حصلت عليه من كمال إنّما حصلت عليه بفضل الله ورحمته وبحوله وقوّته، وليس قد بلغت ما بلغت من تلقاء نفسها. قال الله تعالىٰ:

﴿... وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ...﴾[(١)].

وقد ورد في حديث صحيح السند عن الحذّاء، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ: لا يتّكل العاملون علىٰ أعمالهم التي يعملون بها لثوابي فإنّهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم أعمارهم[(٢)] في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون من كرامتي والنعيم في جنّاتي ورفيع الدرجات العلى في جواري ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظنّ بي فليطمئنّوا فإن رحمتي عند ذلك تدركهم وبمنّي أُبلّغهم رضواني وألبسهم عفوي فإنّي أنا الله الرحمن الرحيم بذلك تسمّيت»[(٣)].

وورد ـ أيضاً ـ بسند صحيح عن الفضل بن يونس، عن أبي الحسن عليه السلام قال: «قال: أكثر من أن تقول: اللّهمّ لا تجعلني من المعارين ولا تخرجني من التقصير. قلت: أمّا المعارون فقد عرفت أنّ الرجل يعار الدين ثُمّ يخرج منه، فما معنىٰ لا تخرجني من التقصير؟ فقال: كلّ عمل تريد به الله عزّ وجلّ فكن فيه مقصّراً عند نفسك، فإنّ الناس كلّهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصّرون، إلّا من عصمه الله عزّ وجلّ»[(٤)].

وقد رُوِي أنّ زنديقاً وصدّيقاً يدخلان مسجداً، فيخرج الصدّيق زنديقاً؛ لما يُبتلىٰ به من عُجب وغرور، ويخرج الزنديق صدّيقاً؛ لما يحظىٰ به من توبة ومن

---

(١) السورة ٢٤، النور، الآية: ٢١.

(٢) هكذا ورد في البحار الطبعة الجديدة، وكأنّ فيه سقطاً، ولعلّ الصحيح: «وأفنوا أعمارهم». كما ورد كذلك في أحد النقلين في أُصول الكافي ٢ / ٦١، كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء، الحديث ٤، وإن كان ورد في النقل الآخر مثل ما في البحار هنا، راجع المصدر نفسه ٧١، باب حسن الظنّ بالله الحديث ١.

(٣) البحار ٢٢٨/٧١.

(٤) المصدر السابق: ص٢٣٣.

استهانته بنفسه بالقياس إلى الصدّيق(١).

ورُوي ـ أيضاً ـ: أنّ عيسىٰ ـ علىٰ نبيّنا وآله وعليه السلام ـ وصل في سيره في الصحراء إلى صومعة أحد الرهبان، وانشغل بالحديث معه، وإذا بشاب معروف بالفسق والفجور ومشهور بالمعاصي مرّ في ذاك الطريق، فوقع نظره علىٰ عيسىٰ عليه السلام مع ذاك العابد، ففترت رجله عن المشي، ووقف مكانه وقال: يا إلهي لو رآني عيسىٰ علىٰ ما أنا عليه من الوضع المخجل ماذا أفعل؟! ولو عاتبني علىٰ ما صدر عنّي كيف أُعالج الوضع؟! ولمّا وقع نظر العابد علىٰ الفاسق رفع رأسه إلىٰ السماء وقال: اللّهمّ لا تحشرني في يوم القيامة مع هذا الفاسق الفاجر، فأوحىٰ الله إلى عيسى عليه السلام: قل لهذا العابد: إنّنا استجبنا دعاءك، ولا نحشرك معه؛ فإنّه أصبح من أهل الجنّة بتوبته، وأصبحت من أهل النار بغرورك ونخوتك وعجبك(٢).

٢ـ والآفة الثانية التي قد تترتّب علىٰ البكاء هي: أنّ من تفاعل مع ربّه إلى حدّ البكاء قد يتخيّل أنّه إذن أدّىٰ الوظيفة، فينسى أو يتناسى وظائفه التي تكلّفه بذل المال أو الراحة أو النفس أو ما إلى ذلك في سبيل المبدأ والعقيدة والإسلام والمسلمين، أو يغفل عن الوظائف الاجتماعيّة التي يجب أن يقوم بها، ويتقوقع علىٰ نفسه وهو مسرور بأنّه قد أدّى ما عليه مادام قد تفاعل مع الله تفاعلاً معنويّاً وصل إلى مستوى البكاء، ويكون ذلك خير وسيلة له للتقاعس عن التضحيات اللازمة من دون الإحساس بوخز الضمير. وهذه الآفة ـ أيضاً ـ قد تترتّب علىٰ العبادات الأُخرىٰ ولو بمستوىٰ أقلّ ممّا تترتّب علىٰ البكاء.

وهذه ـ أيضاً ـ من نتائج ضعف النفس، وإلّا فليس المفروض بالبكاء أو بأيّ عبادة أُخرىٰ أن يترتّب عليه ذلك.

---

(١) خزينة الجواهر: ٦٤٧.

(٢) خزينة الجواهر: ٦٤٧.

وليس علاجها بترك البكاء أو ترك الطاعة أو العبـ فإنّ ذلك إعانة للشيطان علىٰ هدفه، بل علاجها يكون بمزيد من الالتفات والتيقّظ، وبـمعرفة حـرمة مـا تصنعه ـ عادة ـ الصوفية من التقوقع علىٰ الذات والتقاعس عن خدمة الإسـلام والمسلمين بحجّة العبادة أو تربية النفس، وهم يحسبون أنّـهم يـحسنون صـنعاً، وكذلك يكون العلاج بتعويد النفس علىٰ خلاف هذه الآفة.

٣ـ والآفة الثالثة هي التي قد تختص بالبكاء، ولا تترتّب علىٰ سائر العبادات والطاعات، وهي: أنّ البكاء من طبيعته أنّه يبرّد القلب، وينفّس عن الإنسان، ولهذا قد يُؤمَر المصاب بفقد عزيز من أعزائه مثلاً بالبكاء علىٰ فقيده؛ وذلك لكي ينفّس عن نفسه ويخفّف ألم المصيبة، فقد يتّفق أنّ الإنسان المؤمن حينما برّد قلبه بالبكاء ونفّس عن لوعته الإيمانية بذلك يَبرُد عمّا عليه من أداء الوظـائف الاجـتماعيّة أيضاً، ويترك ما عليه من التضحيات أو الاهتمامات التي تحتاج إلى بذل المـال تارةً، أو بذل النفس أُخرى، أو بذل الراحة ثالثةً وما إلى ذلك، فيبتعد بذلك عن الله تعالىٰ بدلاً عن الاقتراب إليه سبحانه.

فهذه الآفة ـ أيضاً ـ بحاجة إلى مزيد من اليقظة ومراقبة النفس ومحاسبتها؛ كي لا يتورّط الإنسان المؤمن في هذه المصيدة الشيطانية.

والواقع : أنّ الشيطان يدخل مع كلّ إنسان المدخلَ المناسب له فـي إغـوائـه، فليس يقدر مع كلّ احد علىٰ إغرائه بالخمور أو الفساد الجنسي أو ما إلى ذلك، لأنّ الشخص ربّما لا تكون هوايته إلّا في العبادة والطاعة، فيدخل معه نفس المدخل، ويفسد عبادته بالعجب أو الرياء، أو يجعلها سبباً لانكماشه عـن أداء الوظـائف الاجتماعيّة، وابتعاده عن خدمة الاهداف الإسـلاميّة أو مـا إلىٰ ذلك. فـهلمّ إلى التيقّظ الكامل، ومراقبة النفس الدقيقة، ومحاسبتها قبل أن تُحاسَب يوم القيامة من لدن الناقد البصير.

الفصل الثامن
الخـــوف

قال الله تعالىٰ : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وأيضاً قال عزّ من قائل: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾[2].

وقال عزّ اسمه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[3].

قيل : إنّ الفرق بين الخوف والحزن بعد اشتراكهما في تألّم الباطن أنّ الحزن علىٰ ما فات، والخوف ممّا هو آت[4].

---

(١) السورة ٣٢، السجدة، الآيتان: ١٦ ـ ١٧.

(٢) السورة ٧٦، الإنسان، الآيات: ٧ ـ ١١.

(٣) السورة ٧٩، النازعات، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

(٤) شرح منازل السائرين لكمال الدين عبدالرزاق الكاشاني : ٤٨ ـ ٤٩.

وقيل[١] : إنّ خوف العامّة يكون عن العقاب، وهو الخوف الذي يصحّ به الإيمان، وهو يتولّد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة. وخوف الخاصّة يكون عن الاحتجاب. وأمّا أهل الخصوص أو خاصّة الخاصّة فلا خوف لهم بمعنى الكلمة، إلّا هيبة الإجلال. وقد قال بعضهم:

أشتاقُهُ فإذا بدا ... أطرقتُ من إجلالِهِ

لا خيفةً بل هيبةً ... وصيانةً لجمالِهِ

أقول: نحن لاننكر هذه المراتب الثلاث من الخوف، وأنّ الثالث هو أمر فوق الخوف، ويشير إلى الأوّل مثل قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**﴾[٢] . ويشير إلىٰ الثاني مثل قوله عليه السلام: «... فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي صبرت علىٰ عذابك فكيف أصبر علىٰ فراقك...»[٣] ، وأقصد بخوف الاحتجاب: الاحتجاب المعنويّ المعقول لا الاحتجاب عن الرؤية المادّيّة الذي لا ينفكّ حتّىٰ عن المعصومين عليهم السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٤] .

وقال الله تعالىٰ: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[٥] .

---

(١) هذا المقطع أخذناه من مجموع ما في شرح منازل السائرين لعبدالرزاق الكاشاني: ٤٨، وشرح منازل السائرين لسليمان التلماسي: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) السورة ١١، هود، الآية: ١٠٣.

(٣) دعاء كميل.

(٤) السورة ٧، الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٥) السورة ٦، الأنعام، الآية: ١٠٣.

ويشير إلى الثالث قوله عليه السلام: «... وأجر اللّهمّ لهيبتك من آماقي[١] زفرات الدموع...»[٢].

ولكنّنا ننكر ما فُرِضَ من أنّ الخاصّة ليس لديهم الخوف بالمعنى الأوّل، أو أنّ خاصّة الخاصّة ليس لديهم الخوف الثاني أيضاً، ألا ترىٰ أنّ الآية الشريفة الواردة في سورة الإنسان نسبت الخوف إلى أهل بيت العصمة حيث قالت عنهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾؟!

نعم، هذا الخوف منهم لا يعني ما يكون من غيرهم من الخوف نتيجة معصية صدرت عنهم، فإنّهم لم تصدر عنهم المعصية بالمعنى المألوف، بل الخوف بالنسبة لهم يمكن أن يكون خوفاً من الوقوع في المعصية من دون أن ينافي ذلك العصمة؛ لأنّ العصمة قد تكون في طول الخوف الشديد الذي هو فوق ما يتصوّر من الإنسان الاعتيادي. ويمكن أن يكون خوفاً ممّا قد يصدر عنهم من ترك الأولىٰ كلٌّ بالقياس إلى ما وصل إليه من مقام الكمال والعرفان. وترك الأولىٰ بهذا المعنى يسبّب في أولياء الله المخلصين نوعاً من تأديب دنيويّ كما اتّفق لذي النون ـ علىٰ نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام ـ بصريح القرآن حتّىٰ قال عنه سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣]. ويمكن أن يكون خوفاً من الحجاب عن الله سبحانه وتعالىٰ كما ورد في دعاء كميل: «... صبرت علىٰ عذابك، فكيف أصبر علىٰ فراقك...».

أمّا العرفان الذي كان بدءه من قبلِ أبناء العامّة لا من مدرسة أهل البيت، فقد تورّط في تخيّل أنّه لا يتعقّل الخوف بالمعنيين الأوّلين من خواصّ الخواصّ

---

(١) مجاري الدمع من العين.

(٢) دعاء الصباح.

(٣) السورة ٣٧، الصّافات، الآيتان: ١٤٣ ـ ١٤٤.

بسبب عدم اعترافهم بعصمة الأئمّة عليهم السلام وكونهم من أخصّ الخواصّ، فحينما يُرىٰ منهم الخوف بأحد المعنيين الأوّلين (زائداً علىٰ الخوف الثالث الذي هو في الحقيقة تهيّبٌ وليس خوفاً) لا يكون ذلك منافياً لديهم للمبدأ الذي قرّروه من فقدان الخوف بالمعنيين الأوّلين لدىٰ خواصّ الخواصّ المقرّبين؛ إذ لا يهمّهم الوصول إلىٰ نتيجة نفي كون أئمّتنا عليهم السلام من المقرّبين.

علىٰ أنّ الوصول لا ينافي خوف تجدّد الحجاب، والطهارة الكاملة لا تنافي خوف تجدّد التلوّث أو تجدّد استحقاق العقاب.

ولنذيّل الحديث عن الخوف بذكر بعض روايات الباب:

١ ـ عن حمزة بن حمران بسند تامّ قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إنّ ممّا حُفِظَ من خطب رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: أيّها الناس، إنّ لكم معالم فانتهوا إلىٰ معالمكم، وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلىٰ نهايتكم، ألا إنّ المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضىٰ لا يدري ما الله صانع فيه؟ وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه؟ فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكِبَر، وفي الحياة قبل الممات، فوالذي نفس محمّد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب، وما بعدها من دار إلّا الجنّة أو النار»(١).

٢ ـ عن أبي عبيدة الحذّاء بسند تامّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضىٰ لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك؟ فلا يصبح إلّا خائفاً، ولا يصلحه إلّا الخوف»(٢).

٣ ـ عن داود الرقيّ بسند تامّ، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِمَنْ

---

(١) الوسائل ١٥/٢١٨ ـ ٢١٩، الباب ١٤ من جهاد النفس، الحديث ١.

(٢) الوسائل ١٥/٢١٩، الباب ١٤ من جهاد النفس، الحديث ٢.

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(١) قال: «من علم أنّ الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شرّ، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهىٰ النفس عن الهوى»(٢).

٤ـ رواية أنس بن محمّد أبي مالك، عن أبيه، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال في وصيته له: «يا عليّ ثلاث درجات، وثلاث كفّارات، وثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، فأمّا الدرجات فإسباغ الوضوء في السَبَرات(٣)، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والمشي بالليل والنهار إلى الجماعات. وأمّا الكفّارات فإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والتهجّد بالليل والناس نيام. وأمّا المهلكات فشحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه. وأمّا المنجيات فخوف الله في السرّ والعلانية، والقصد في الغنىٰ والفقر، وكلمة العدل في الرضا والسخط»(٤).

٥ـ رواية إسحاق بن عمّار قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا إسحاق خفِ الله كأنّك تراه، وإن كنت لا تراه فإنّه يراك، وإن كنت ترى أنّه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنّه يراك ثُمّ برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك»(٥).

ثُمّ إنّنا وإن كنّا سنبحث ـ إن شاء الله ـ الرجاء في فصل مستقلّ، لكنّنا يجب أن نشير هنا إلى: أنّ الخوف وحده إذا انفصل عن الرجاء كان بالنسبة لعامّة الناس مُفسداً، فصحيح أنّ الخوف يكون في حقيقته مصلحاً للقلب وللنفس وكذلك الرجاء ما لم ينقلب إلى الضدّ، كما ورد في الحديث عن ابن أبي نجران، عمّن ذكره،

---

(١) السورة ٥٥، الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) الوسائل ١٥/٢١٩، الباب ١٤ من جهاد النفس، الحديث ٣.

(٣) جمع سبرة، فسّرت بالغداة الباردة، أو شدّة البرد.

(٤) كتاب الخصال ١ / ٨٤ ـ ٨٥، باب الثلاثة، الحديث ١٢.

(٥) الوسائل ١٥/٢٢٠، الباب ١٤ من جهاد النفس، الحديث ٦.

عن الصادق عليه السلام قال: «قلت له: قوم يعملون بالمعاصي، ويقولون نرجو، فلا يزالون كذلك حتّىٰ يأتيهم الموت؟ فقال: هؤلاء قوم يترجّحون في الأماني، كذبوا ليسوا براجين من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه»[١]. وعن الحسين بن أبي سارة قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: لا يكون المؤمن مؤمناً حتّىٰ يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتّىٰ يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[٢].

ولكن مع ذلك لاشكّ أنّ الخوف وحده أو الرجاء وحده يؤثّر في نفوسنا أثراً عكسياً، لا نتيجة ذات الخوف أو الرجاء، بل نتيجة ضعف نفوسنا نحن الاعتياديين من الناس. ومن هنا ورد التأكيد في الكتاب والسنّة علىٰ الخوف والرجاء معاً. قال الله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ...﴾[٣].

وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام علىٰ ما ورد في خطبة همام في وصف المتّقين: «... فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون ...»[٤] ولو بقي الرجاء وحده في النفس انقلب إلى الأمانيّ الكاذبة كما مضى آنفاً في حديث ابن أبي نجران، ولو بقي الخوف وحده في النفس انقلب إلى اليأس كما هو الحال في قِصَّة حميد بن قحطبة المعروفة المرويّة عن عبيدالله البزّاز النيسابوري قال:

«كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة، فرحلت إليه في بعض الأيّام، فبلغه خبر قدومي، فاستحضرني للوقت، وعليّ ثياب السفر لم أُغيرها، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر، فلمّا دخلت إليه رأيته في بيت يجري فيه

---

(١) الوسائل ١٥/٢١٦، الباب ١٣ من جهاد النفس، الحديث ٢.

(٢) المصدر السابق: ص٢١٧، الحديث ٥.

(٣) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ١٦.

(٤) نهج البلاغة : ٤١٠، رقم الخطبة : ١٩٣.

الماء، فسلّمت عليه وجلست، فأُتي بطست وإبريق فغسل يديه، ثُمّ أمرني فغسلت يدي، وأُحضرت المائدة، وذهب عنّي أنّي صائم، وأنّي في شهر رمضان، ثُمّ ذكرت فأمسكت يدي، فقال لي حميد: مالك لا تأكل؟ فقلت: أيّها الأمير هذا شهر رمضان، ولست بمريض ولابيّ علّة توجب الإفطار، ولعلَّ الأمير له عذر في ذلك أو علّة توجب الإفطار، فقال: ما بيّ علّة توجب الإفطار، وإنّي لصحيح البدن، ثُمّ دمعت عيناه وبكىٰ، فقلت له بعدما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيّها الأمير؟ فقال: أنفذ إليّ هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليالي: أن أجب، فلمّا دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة تتّقد وسيفاً أخضر مسلولاً، وبين يديه خادم واقف، فلمّا قمت بين يديه رفع رأسه إليّ، فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال، فأطرق، ثُمّ أذِن لي في الانصراف، فلم ألبث في منزلي حتّىٰ عاد الرسول إليّ وقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: إنّا لله أخاف أن يكون قد عزم علىٰ قتلي، وإنّه لما رآني استحيىٰ منّي، فعدت إلى بين يديه، فرفع رأسه إليّ، فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد، فتبسّم ضاحكاً، ثُمّ أذن لي في الانصراف، فلمّا دخلت منزلي لم ألبث أن عاد الرسول إليّ فقال: أجب أمير المؤمنين، فحضرت بين يديه وهو علىٰ حاله، فرفع رأسه إليّ، فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد والدين، فضحك، ثُمّ قال لي: خذ هذا السيف، وامتثل ما يأمرك به هذا الخادم، قال: فتناول الخادم السيف، وناولنيه، وجاء بي إلى بيت بابه مغلق، ففتحه فإذا فيه بئر في وسطه، وثلاثة بيوت أبوابها مغلّقة، ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب شيوخ وكهول وشبّان مقيدون، فقال لي: إنّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلّهم علويين من ولد عليّ وفاطمة عليهما السلام، فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد، فأضرب عنقه حتىٰ أتيت علىٰ آخرهم، ثُمّ رمىٰ بأجسادهم

ورؤوسهم في تلك البئر، ثُمّ فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلويّة من ولد عليّ وفاطمة عليهما السلام مقيدون، فقال لي: إنّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد، فأضرب عنقه، ويرمي به في تلك البئر حتّىٰ أتيت علىٰ آخرهم، ثُمّ فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد عليّ وفاطمة مقيدون عليهم الشعور والذوائب، فقال لي: إنّ أمير المؤمنين يأمرك أن تقتل هؤلاء أيضاً، فجعل يُخرج إليّ واحداً بعد واحد، فأضرب عنقه، فيرمي به في تلك البئر حتّىٰ أتيت علىٰ تسعة عشر نفساً منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر، فقال لي تبّاً لك يامشوم، أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت علىٰ جدّنا رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولدهم عليّ وفاطمة عليهما السلام؟! فارتعشت يدي، وارتعدت فرائصي، فنظر إليّ الخادم مغضباً وزبرني، فأتيت علىٰ ذلك الشيخ أيضاً فقتلته، ورمى به في تلك البئر. فإذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله فما ينفعني صومي وصلاتي؟! وأنا لا أشكّ أنّي مخلد في النار»[١].

أقول: انظر إلى هذا الشقيّ المحروم كيف أنّ الجزء الأخير لسبب هلاكه كان هو: يأسه، لاقتله لستين من ذرّية الرسول صلى الله عليه وآله؛ إذ لو لم يكن قد استولى عليه شقاؤه باليأس كان بإمكانه أن يستشفي بدار شفاء الإمام المعصوم في زمانه موسى بن جعفر عليه السلام أو الإمام الرضا عليه السلام، ويطلب منه العلاج، أفهل ترىٰ أنّ الإمام عليه السلام كان يردّه عن بابه خائباً؟! كلّا. ثُمّ كأنّه لم يكن قد قرأ القرآن، ولم يمرّ بهذه الآية المباركة: **﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**

---

(١) البحار ٤٨/١٧٦ ـ ١٧٨.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[1] فتراه سبحانه وتعالىٰ أوعد مَنْ أشرك بالله وقتل النفس التي حرّم الله وزنىٰ بمضاعفة العذاب يوم القيامة والخلود فيه مهاناً، ثُمّ استثنىٰ من ذلك مَنْ تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، ووعد الله مَن يدخل في هذا الاستثناء أن يبدّل سيّئاته حسنات، وقد يكون من جزء العمل الصالح الذي يجب علىٰ القاتل أن يعمله هو: تهيّؤه لتنفيذ حكم القصاص عليه، ولكنّه علىٰ أيّ حال ليس باب رحمة الربّ مغلقاً عليه، ولكنّ هذا الشقي المحروم غلق باب الرحمة علىٰ نفسه باليأس.

وقد ورد في الحديث عن أبي حمزة الثمالي قال: «قال الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام: ارج الله رجاءً لا يجرئك علىٰ معصيته، وخفِ الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته»[2].

وخلاصة الكلام: أنّ الخوف والرجاء إذا اجتمعا متساويين دفع كلّ منهما الخطر الذي قد يتوجّه إلى النفوس الضعيفة من الآخر.

وقد ورد في حديث صحيح عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابه (ونحن نعتقد بصحّة مراسيل ابن أبي عمير) عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «كان أبي يقول: إنّه ليس من عبد مؤمن إلّا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد علىٰ هذا، ولو وزن هذا لم يزد علىٰ هذا»[3].

وأيضاً ورد عن حماد بن عيسى، عن الصادق عليه السلام قال: «كان فيما أوصى به لقمان لابنه أن قال: يا بنيّ خفِ الله خوفاً لو جئته ببرّ الثقلين خفت أن يعذّبك الله،

---

(١) السورة ٢٥، الفرقان، الآيات: ٦٨ ـ ٧٠.

(٢) الوسائل ١٥/٢١٧ ـ ٢١٨، الباب ١٣ من جهاد النفس، الحديث ٧.

(٣) المصدر السابق: ص٢١٧، الحديث ٤.

وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر الله لك»[١].

وهنا يبرز سؤال، وهو: كيف نفسّر تساوي الخوف والرجاء في نفوس أولياء الله الذين يشتدّ عندهم الخوف أو الرجاء أكثر بكثير من المقدار المتعارف لدىٰ المؤمنين الاعتياديين مع أنّ نموّ أحدهما لابدّ أن يكون علىٰ حساب الآخر؛ إذ لا يمكن أن يزداد مجموعهما عن المئة بالمئة؛ لأنّ أحدهما نقيض الآخر؟!

والجواب: أنّ ضرورة تساوي المجموع للمئة بالمئة وكون نموّ أحدهما علىٰ حساب ضعف الآخر إنّما يتمّ في درجة احتمال النجاة مع درجة احتمال الهلاك، أو درجة احتمال الثواب مع درجة احتمال العقاب وما إلى ذلك، ولكن قد يشتدّ الخوف والرجاء علىٰ أساس قوّة المحتمل لا علىٰ أساس قوّة الاحتمال، ففرق كبير بين خوف ورجاء مَنْ ليس له تصوّر عن الجنّة والنار إلّا التصوّر الساذج الابتدائي، وخوف ورجاء مَنْ هم والجنّة كمن قد رأوها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رأوها فهم فيها معذّبون، وفرق كبير ـ أيضاً ـ بين هذا الخوف والرجاء والخوف والرجاء لمن يكون همّه رضوان الله الذي هو أكبر من الثواب المادّي، أو يكون همّه لقاء الله بمعناه الصحيح، والنظر إلى الله بالمعنى الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢] والهرب من الحجب بالمعنى الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[٣] ومن الفراق بالمعنى الوارد في دعاء كميل: «... فكيف أصبر علىٰ فراقك...».

وهناك جواب آخر، وهو: أنّ متعلق الخوف قد يختلف عن متعلق الرجاء فلا يلزم كون نموّ أحدهما علىٰ حساب الآخر وذلك من قبيل أن يكون الرجاء برحمة

---

(١) المصدر السابق: الحديث ٦.

(٢) السورة ٧٥، القيامة، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) السورة ٨٣، المطفّفين، الآية: ١٥.

الربّ ورأفته، ويكون الخوف من سوء العاقبة وما إلى ذلك ممّا يبرز التفكيك بين المتعلقين.

ثُمّ إنّ التعبيرات الواردة في الكتاب والسُنّة ممّا يثير الخوف أو الرجاء كثيرة، ولعلّ الغالب فيها هو: أنّ التعبير المثير للرجاء غير التعبير المثير للخوف، فمثلاً التعبير بوصف الله تعالىٰ بأنّه غفور رحيم يثير الرجاء، في حين أنّ التعبير بأنّه شديد العقاب يثير الخوف.

إلّا أنّ هناك تعابير واردة عن المعصومين عليهم السلام تكون العبارة المثيرة منها للخوف عين العبارة المثيرة للرجاء، وهذا من بَراعات الأئمّة سلام الله عليهم وذلك من قبيل ما ورد في دعاء أبي حمزة: «إلهي وسيّدي وعزّتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأُطالبنّك بعفوك، ولئن طالبتني بلؤمي لأطالبنّك بكرمك، ولئن أدخلتني النار لأُخبرنّ أهل النار بحبّي لك...».

وقوله ـ أيضاً ـ في نفس الدعاء: «... فلو اطّلع اليوم علىٰ ذنبي غيرك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنّك أهون الناظرين إليّ وأخفّ المطّلعين عليّ، بل لأنّك يا ربّ خير الساترين، وأحكم الحاكمين، وأكرم الأكرمين، ستّار العيوب، غفّار الذنوب، علّام الغيوب، تستر الذنب بكرمك، وتؤخّر العقوبة بحلمك...»[١]. وقوله في دعاء كميل: «... يا إلهي وسيّدي وربّي أتُراك معذّبي بنارك بعد توحيدك، وبعد ما انطوىٰ عليه قلبي من معرفتك، ولهج به لساني من ذكرك، واعتقده ضميري من حبّك، وبعد صدق اعترافي ودعائي خاضعاً لربوبيّتك، هيهات أنت أكرم من أن تضيّع من ربيته، أو تبعّد من أدنيته، أو تشرّد من آويته، أو تسلّم إلى البلاء من كفيته ورحمته. وليت شعري يا سيّدي والهي ومولاي أتسلّط النار علىٰ وجوه خرّت لعظمتك ساجدة، وعلىٰ ألسن نطقت بتوحيدك

---

(١) مفاتيح الجنان، فقرات من دعاء أبي حمزة الثمالي.

صادقة وبشكرك مادحة، وعلىٰ قلوب اعترفت بالهيّتك محقّقة، وعلىٰ ضمائر حوت من العلم بك حتّىٰ صارت خاشعة، وعلىٰ جوارح سعت إلى أوطان تعبّدك طائعة، وأشارت باستغفارك مذعنة، ما هكذا الظنّ بك، ولا أُخبرنا بفضلك عنك ياكريم...».

وقولهم عليهم السلام في المناجاة الشعبانية: «... إلهي إن أخذتني بجرمي أخذتك بعفوك، وإن أخذتني بذنوبي أخذتك بمغفرتك، وإن أدخلتني النار أعلمت أهلها أنّي أحبّك. إلهي إن كان صغر في جنب طاعتك عملي فقد كبر في جنب رجائك أملي...»[1].

---

(١) مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية، من فصل أعمال شعبان.

الفصل التاسع
الإشـــفاق

قال الله سبحانه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾**(١).

الإشفاق نظير الخوف والخشية. ويظهر من هذه الآية المباركة أنّ الإشفاق نتيجة الخشية أو الخوف؛ إذ عبّرت بتعبير: **﴿مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾** فكأنّ الإشفاق يتولّد من الخشية.

والظاهر: أن المقصود بالخشية: الخوف وحده أو الخوف مع التعظيم والإجلال والاحترام والإكبار، ولكنّ الإشفاق مأخوذ من الشفقة، ففيه معنىٰ الترحم والعطف والحنان، أو التزلزل والاضطراب وذلك من قبيل الإشفاق علىٰ الطفل، فالإنسان المؤمن يصبح نتيجة الخشية من الله في حالة الإشفاق علىٰ نفسه والاضطراب المشوب بالشفقة والرأفة عليها.

وممّا يجلب الانتباه أنّ الإشفاق نُسِبَ في القرآن إلى الملائكة أيضاً، رغم ما نعلم به عادةً من أنّهم فارغون عن الهوى والنفس، فلا يتورّطون في المعصية، قال الله تعالىٰ: **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ**

---

(١) السورة ٢٣، المؤمنون، الآيات: ٥٧ ـ ٦١.

وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[١].

والإشفاق في عامّة الناس إشفاق من العذاب، وإشفاق علىٰ النفس من الانحراف، وعلىٰ العمل من الحبط والضياع.

وهنا إشفاق للخواصّ، وهو: الإشفاق علىٰ قلبه عن الحضور مع الحقّ ودخول العوارض في قلبه التي تبعده عن الالتفات إلى المحبوب جلّ وعلا. ولكن لا بمعنى أنّ الإشفاق الأوّل غير موجود فيهم، بل هو موجود زائداً الإشفاق الأعلىٰ. ويدلّنا علىٰ وجود الإشفاق الأوّل أيضاً في أولياء الله والمقرّبين قوله سبحانه وتعالىٰ في وصفهم: **﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾**[٢].

فهذا إمّا أن يشمل المعصومين عليهم السلام بمعنىٰ: أنّهم يخشون السقوط عن مقام العصمة، وأنّ عصمتهم التي ستبقىٰ أبداً تكون في طول هذه الخشية والإشفاق، أو يشمل ـ في الأقلّ ـ جميع غير المعصومين مهما بلغوا من درجات القرب والكمال.

وأخيراً أُشير إلى أنّ آيتين من آيات الإشفاق في القرآن نسبت الإشفاق إلىٰ قيام الساعة:

الأُولى: قوله تعالىٰ في وصف المتقين: **﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾**[٣].

والثانية: قوله تعالىٰ: **﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ**

---

(١) السورة ٢١، الأنبياء، الآيات: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) السورة ٧٠، المعارج، الآيات: ٢٢ ـ ٢٨. وما قبل هذه الآيات ما يلي: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾. الآيات: ١٩ ـ ٢١.

(٣) السورة ٢١، الأنبياء، الآية: ٤٩.

السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[1].

وكيف لا يشفق المؤمن من الساعة وقد قال الله تعالىٰ: ﴿... إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

ويظهر من الآية الثانية من آيتي الإشفاق من الساعة: أنّ وقت قيام الساعة مجهول حتّىٰ عند رسول الله ﷺ؛ إذ قال سبحانه: ﴿... وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، والأصرح من ذلك في مجهوليّة وقت قيام الساعة حتّىٰ عند رسول الله ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[4].

وإنّي أختم الحديث هنا بذكر رواية طريفة تقول: نادىٰ رجلٌ رسول الله ﷺ في أحد أسفاره بصوت عالٍ، وقال: يا محمّد! فأجابه رسول الله ﷺ مثله بصوت عالٍ: ماذا تقول؟ قال: متىٰ الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: إنّها كائنة، فما أعددت لها؟ قال: حبَّ الله ورسولَه، فقال ﷺ: «أنت مع مَنْ أحببت»[5].

---

(١) السورة ٤٢، الشورى، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

(٢) السورة ٢٢، الحج، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٣) السورة ٧، الاعراف، الآية: ١٨٧.

(٤) السورة ٧٩، النازعات، الآيات: ٤٢ ـ ٤٦.

(٥) تفسير «نمونه»: ٢٠ / ٣٩٤ نقلاً عن تفسير مراغي ٢٥ / ٣٢.

الفصل العاشر
الخشـــوع

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(١).

قد فُسِّرَ الخشوع بمعنى الخضوع الممزوج إمّا بالمحبّة التي توجب انكسار النفس هيبة للمحبوب المتعالي في العظمة، أو بالخوف ممّن له سطوة تُخشىٰ ونقمة تتّقىٰ(٢).

ولهذا ورد في بعض أدعية السحر لشهر رمضان المبارك: «اللّهمّ إنّي أسألك خشوع الإيمان قبل خشوع الذلّ في النار...»(٣). فالإيمان يوجب الخشوع بكلا شكليه المشار إليهما، في حين أن النار ـ أعاذنا الله منها ـ توجب الخشوع بشكله الثاني.

ولتأثير الآية المذكورة في نفوس بعض الناس بعض الحكايات والقَصَص، وذلك من قبيل حكاية فضيل بن عياض التي تعرّضنا لها في أوائل المدخل لهذا

---

(١) السورة ٥٧، الحديد، الآية: ١٦.

(٢) راجع شرح منازل السائرين لكمال الدين عبدالرزاق: ٥٠.

(٣) مفاتيح الجنان في ذيل دعاء أبي حمزة الثمالي: ١٩٨ بحسب طبعة طاهر خوشنويس.

الكتاب، ومن قبيل قِصّة غريبة رُويت في بعض الكتب: من أنّ رجلاً معروفاً من رجال البصرة قال: كنت أمشي في طريق وإذا بصيحة جلبت انتباهي، فعقّبتُها فرأيت رجلاً طريحاً علىٰ الأرض مغميً عليه، فسألت عنه فقالوا لي: هذا رجل من أهل الحال سمع آية من القرآن فوقع مغشيّاً عليه، قلت لهم: وأيّة آية تلك؟ فقالوا: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ...﴾** وإذا بالرجل سمع صوتي فانتبه، وأنشد هذه الأبيات الحزينة:

أمـا آن للـهجرانِ أنْ يـتصرّما ... وللغصن غصن البان[١] أنْ يتبسّما
وللعاشقِ الصبِّ الذي ذاب وانحنىٰ ... ألم يأن أنْ يُبكىٰ عليه ويُرحما
كتبت بماء الشوق بين جوانحي ... كتاباً حكى نقش الوشيّ المنمنما[٢]

ثُمّ قال ثلاث مرّات: مشكل، مشكل، مشكل، فوقع مرّة أُخرىٰ مغشيّاً عليه، فحرّكناه فإذا به قد قضىٰ نحبه[٣].

أقول: إنّ هذه القِصَّة إن لم تكن من نسج بعض المتصوّفه، وكانت قِصّة واقعية، فهي تحكي عن نموّ صاحبها في بعض الجوانب الروحية، ونقصه في بعض الجوانب الأُخرى، وإلّا فليس المفروض بمن ينمو روحيّاً في جانب الخشوع والخضوع، أو الخوف والخشية، أو الشعور بعظمة الربّ تبارك وتعالىٰ، أو ما إلى ذلك، أن يشوش علىٰ نفسه الحياة الدنيا، وأن يموت بسبب سماعه للآية المباركة ونحو ذلك من الأُمور، فلو صدق ذلك فهذا يعني: ضعف نفس في الشخص، وفي تحمّله، وفي حفظه لجانب الاتّزان.

---

(١) البان شجر معتدل القوام مهده الأصلي آسيا القطبية، ورقه ليّن كورق الصفصاف، يؤخذ من حبّته دهن طيب، ويشبّه به القدّ لطوله. وكأنّ الشاعر يشبّه شجرة الأمل بشجرة البان ويتمنّىٰ أن يتبسم غصن أمله.

(٢) الوشيّ والمنمنم بمعنى واحد تقريباً، أي: المزخرف والمنقش والمزيّن بألوان مختلفة.

(٣) تفسير «نمونه» ٢٣/٣٤٦ نقلاً عن تفسير روح المعاني ٢٧/١٥٦.

وحتّىٰ ما ورد بشأن همّام رحمة الله عليه: من أنّه حينما سَمِعَ من إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام وصف المتّقين صَعِقَ صعقة كانت نفسه فيها[١] يدلّ علىٰ عدم اكتماله في بعض الجوانب الروحيّة إلى صفّ دلالته علىٰ أنّه كان من أهل الحال، وكان شفّاف الروح ورقيق القلب، كما روي أنّه قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام بشأنه: أما والله لقد كنت أخافها عليه، ثُمّ قال: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها. فقال له قائل: «فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: ويحك إنّ لكلّ أجل وقتاً لا يعدوه، وسبباً لا يتجاوزه. فمهلاً لا تعد لمثلها، فإنّما نفث الشيطان علىٰ لسانك».

وهذا الجواب من قِبلِ إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام كان جواباً بقدر فهم السائل، ولو كان هذا السائل يعرف شيئاً يسيراً من حالات إمامنا عليه السلام وأنّه هو البكّاء في المحراب ليلاً هو الضحّاك إن طال الحراب، لما اعترض عليه بهذا الاعتراض؛ لوضوح أنّ ضيق الظرفيّة وضعف النفس الموجودين لدىٰ همّام ليسا موجودين لدى عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يُغشىٰ عليه في جوف الليل من خشية الله، وكان يمارس حياته الاعتياديّة لخدمة الإسلام في وسط النهار، وهو الذي قال في نفس خطبة المتّقين ضمن توصيفه للمتّقين: «... ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب...»، ثمّ بعد فترة من الحديث قال: «... وأمّا النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء...».

نعم هكذا يحفظ أهل الله توازنهم بين الليل والنهار.

والفرق بين الإنسان والجماد أنّ الجماد لم يكن قادراً علىٰ حمل الأمانة، ولو كان يحمّل الأمانة لكان يفقد توازنه كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

---

(١) راجع نهج البلاغة: ٤١٣، رقم الخطبة: ١٩٣.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ...﴾(١) .

وقال تعالىٰ: **﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...﴾**(٢) ولكن الإنسان هو الذي حمل الأمانة، وعليه أن يعمل علىٰ وفق متطلّباتها كاملة. وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً.

والوصول إلى هكذا مقامات مع حفظ التوازن بحاجة إلىٰ رياضة عظيمة ومثابرة كبيرة، ولا ينالها إلّا ذو حظّ عظيم. وذلك بحاجة إلى الصدق والجدّية الكاملين في إرادة تهذيب النفس من ناحية، وإلى الطلب من الله تعالىٰ أن يعيننا علىٰ أنفسنا في ذلك من ناحية أُخرى، فإن فعلنا ذلك كلّه حقّاً كنّا مصداقاً للآية الكريمة: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾**(٣) .

---

(١) السورة ٣٣، الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٢) السورة ٥٩، الحشر، الآية: ٢١.

(٣) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٦٩.

الفصل الحادي عشر
الإخبـــات

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

وأيضاً قال عزّ من قائل: ﴿... وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2].

قيل: إنّ الإخبات من أوائل مقام الطمأنينة[3] وقيل: هو السكون إلى من أنجذب إليه بقوّة الشوق[4].

وقد فُسِّر الإخبات في مجمع البحرين تارةً بمعنىٰ الطمأنينة وسكون القلب، وأُخرى بمعنى الخشوع والتواضع[5].

وورد في الحديث عن زيد الشحام بسند صحيح، عن الصادق عليه السلام قال: «قلت له: إنّ عندنا رجلاً يقال له: كليب، فلا يجيء عنكم شيء إلّا قال: أنا أُسلّم، فسمّيناه كليب تسليم قال: فترحّم عليه، ثُمّ قال: أتدرون ما التسليم؟ فسكتنا، فقال: هو

---

(١) السورة ١١، هود، الآية: ٢٣.

(٢) السورة ٢٢، الحج، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) منازل السائرين لعبدالله الأنصاري باب الإخبات.

(٤) شرح منازل السائرين لعبدالرزاق الكاشاني: ٥١.

(٥) مجمع البحرين ٢/١٩٩.

والله الإخبات، قول الله عزّ وجلّ: ﴿... **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ...**﴾»[١].

وفي الآية الثانية من الآيتين اللتين تلوناهما قد ورد توصيف المخبتين بأربعة أوصاف اثنان منها روحيان، وهما: وجل القلب لدىٰ ذكر الله، والصبر علىٰ المصيبة، واثنان منها عمليان، وهما: إقامة الصلاة والإنفاق.

(١) تفسير البرهان ٢/٢١٥ ـ ٢١٦، والآية: ٢٣ في السورة ١١، هود.

الفصل الثاني عشر
الـــزهـــــــد

قال الله تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

ورد عن مولانا أمير المؤمنينعليه السلام: «الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...﴾ ومن لم يأس علىٰ الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»[2].

يبدو أنّ هذه الآية المباركة تُبدي إحدىٰ حِكَم وجود المصائب والمحن في الدنيا، وهي: ترويض الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ أولياءه علىٰ الزهد في الدنيا، والذي يعني: أن لا تملكك الدنيا، وليس أن لا تملكها، وتفسير ذلك يكمن في كلمتين: أن لا يأسوا ولا يأسفوا علىٰ مافاتهم، ولا يفرحوا بما أُوتوا، فإنّ المصائب والمحن تطأطئ الرأس، وتذهب بالخيلاء والفخر، وتعالج الظِنّة والبخل بمال الدنيا.

كما أنّ بعض الآيات الأُخرى تفصح عن حكمة أُخرى من حِكم المصائب

---

(١) السورة ٥٧، الحديد، الآيات: ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) نهج البلاغة: ٧٥٠، رقم الحكمة: ٤٣٩.

والمحن، وهي: المجازاة أو التنبيه كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

وصدر الآية المباركة الأُولى التي بدأنا بها الحديث ـ وهو قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ...﴾ أي: من قبل أن نبرأ النفوس، أو من قبل أن نبرأ الأرض، أو المقصود كلاهما، أي: من قبل أن نبرأ الأرض والنفوس ـ مطلقةٌ تشمل تمام المصائب علىٰ ما يبدو لنا، أي: سواءٌ المصيبة التي جرت لمجرد التربية علىٰ الزهد النافعة لأولياء الله، أو المصيبة التي جرت مجازاةً أو تنبيهاً، فإنّها جميعاً مقدّرة في علم الله من قبل أن يبرأ الأرض والنفوس. وأظنّ أنّ ذيل الآية الأُولى: وهي هدف التربية علىٰ الزهد أيضاً مطلقة، فالله ـ تعالىٰ ـ لا يبخل ببعض عباده وقد هيّأ وسائل التربية لهم جميعاً. غاية الأمر أنّ من عباده من يتمتّع بهذه الوسائل، وفي مورد البحث هنا يستفيد الزهد ويتربّىٰ عليه وذلك من قبيل أولياء الله، ومنهم من يهمل ذلك ولا يتمتع بها، بل وحتّىٰ هدف التنبيه علىٰ التوبة في قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يوجد مَنْ لا يستفيده بسوء سريرته، ويوجد من العاصين من يستفيد فيؤوب إلى رشده.

والآيات الأخيرة التي هي آيات المجازاة أو التنبيه علىٰ التوبة لا تشمل طبعاً

---

(١) السورة ٤٢، الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) السورة ٣٠، الروم، الآية: ٤١.

(٣) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ٢١.

الأولياء الكمّلين الذين ليسوا بحاجة إلى التنبيه بإنزال المصائب.

ومن الطريف ما ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام أنّه قال: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»[١].

وورد أيضاً عن الصادقعليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالىٰ ليتعاهد المؤمن بالبلاء، إمّا بمرض في جسده، أو بمصيبة في أهله أو مال، أو مصيبة من مصائب الدنيا؛ ليأجره عليها»[٢].

وعنهعليه السلام: «ما من مؤمن إلّا وهو يُذكّر في كلّ أربعين يوماً ببلاء، إمّا في ماله، أو في ولده، أو في نفسه فيؤجر عليه، أو همّ لا يدري من أين هو»[٣].

وعن الباقرعليه السلام، عن آبائهعليهم السلام، عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «إنّ المؤمن إذا قارف الذنوب ابتلي بها بالفقر، فإن كان في ذلك كفّارة لذنوبه وإلّا ابتلي بالمرض، فإن كان ذلك كفّارة لذنوبه وإلّا ابتلي بالخوف من السلطان يطلبه، فإن كان ذلك كفّارة لذنوبه وإلّا ضيّق عليه عند خروج نفسه حتّىٰ يلقى الله حين يلقاه وماله من ذنب يدّعيه عليه، فيأمر به إلى الجنّة، وإنّ الكافر والمنافق ليهون عليهما خروج أنفسهما حتّىٰ يلقيان الله حين يلقيانه ومالهما عنده من حسنة يدّعيانها عليه، فيأمر بهما إلى النار»[٤].

فهذه الروايات ونحوها كالآيات تدلّ علىٰ أنّ للمصائب أسباباً مختلفة. ولا يخفى أنّه لو انحصر سبب المصائب في المجازاة أو التأديب أو كفارة الذنب، لانفضح العاصون. فمن النِعَم علىٰ العباد وجود أسباب أُخرىٰ كرفع الدرجات

---

(١) البحار ١٩٨/٨١.

(٢) البحار ١٩٨/٨١.

(٣) المصدر نفسه: ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٤) المصدر نفسه: ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

حتّىٰ يبقىٰ الستر محفوظاً إلى يوم تُبلى السرائر، ونظيره أنّ البكاء والتوبة والتضرّع والاضطراب لو كانت خاصّة بالعاصين لانفضحوا بعملهم هذا، ولكنّها شملت حتّىٰ زين العابدين سلام الله عليه، فيبقىٰ الستر محفوظاً.

ومن الطريف ـ أيضاً ـ ماورد في تفسير عليّ بن إبراهيم قال: حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب، عن عليّ بن رئاب قال: «سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ...﴾ قال: أرأيت ما أصاب عليّاً وأهل بيته هو بما كسبت أيديهم؟ وهم أهل الطهارة معصومون! قال: إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يتوب إلى الله، ويستغفره في كلّ يوم وليلة مئة مرّة من غير ذنب، إنّ الله يخصّ أولياءه بالمصائب؛ ليأجرهم عليها من غير ذنب. قال الصادق[1] عليه‌السلام: لمّا أُدخل عليُّ بن الحسين عليه‌السلام على يزيد نظر إليه ثُمّ قال: يا عليُّ بن الحسين ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ...﴾ فقال عليُّ بن الحسين عليه‌السلام: كلّا ما فينا هذه نزلت، وإنّما نزلت فينا ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ...﴾ فنحن الذين لا نأسى علىٰ مافاتنا من أمر الدنيا، ولا نفرح بما أُوتينا»[2].

ومن لطائف ما يروىٰ في التأريخ عن قتيبة بن سعيد أنّه قال: وردت علىٰ بعض قبائل العرب، فرأيت الصحراء مليئة بآبال ميّتة لا تُعدّ ولا تُحصىٰ، ورأيت امرأة عجوزاً، فسألتها لمن كانت هذه الآبال؟ قالت: لذاك العجوز الذي تراه جالساً علىٰ ذاك التل ويغزل الصوف، فذهبت إليه، وقلت له: هل هذه الآبال جميعاً كانت لك؟

(١) الراوي: إمّا هو عليّ بن رئاب فتكون هذه تكملة للحديث، أو هو علي بن إبراهيم فهذه روايـة أُخرى مرسلة.

(٢) تفسير عليّ بن إبراهيم ٢ / ٢٧٧.

قال: كانت باسمي، قلت: لماذا هلكت؟ قال: (من دون أن يشير إلى سبب الموت): الذي أعطانا هذه الآبال سلبها منّا، قلت له: ألست متألّماً علىٰ ذلك، وهل قلتَ شيئاً بهذه المناسبة؟ قال: بلىٰ قلت هذين البيتين:

لا والذي أنـا عـبدٌ مـن خـلائقه والمرءُ في الدهر نصبُ الرزء والمحنِ

مـا سـرّني أن إبـلّي فـي مـباركها وما جرىٰ من قضاء الله لم يكـنِ[١].

تفسير انحرافي لمعنىٰ الزهد:

قد يُفسَّر من قبلِ أُناسٍ قشريّين ـ وربّما يُسمَّون بالمقدّسين وهم بعيدون عن القدس الحقيقي ـ بالابتعاد عن نعم الله وطـيّباته وزينته التي أخرج لعباده. ويحاولون إبعاد المسلمين عن أيّ اهتمام بالأُمور المادّيّة الدنيويّة. ومن المفاسد العظيمة التي تترتّب علىٰ ذلك فتح السبيل لسيطرة الكافر المستكبر علىٰ خيرات المسلمين وبركاتهم ومنابعهم المادّيّة الغنيّة التي قلّ مثلها في غير بلاد المسلمين، بل وأكثر من ذلك قد يصبح الشخص المتربّىٰ علىٰ هذه الروح إنساناً حياديّاً تجاه سيطرة المستكبرين علىٰ الحكم أيضاً مادام التقمّص بالحكم يُعْتبر عندهم لوناً من التمتّع بالدنيا، وشكلاً من أشكال طلب الجاه والذي لا يناسب الزاهدين مادام الزهد عبارةً عن أن لا يهمّك مَن أكل الدنيا[٢].

---

(١) تفسير «نمونه» ٢٣ / ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

(٢) وقد ورد في حديث عن الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يجد الرجل حلاوة الإيمان في قلبه حتّىٰ لا يبالي من أكل الدنيا». الوسائل ١٦ / ١٢، الباب ٦٢ من جهاد النفس، الحديث ٥. وهذه الرواية إن صحّت يجب أن تحمل علىٰ معنىٰ ﴿...لَا تَأْسَوا علىٰ مافاتَكم﴾ الوارد في القرآن الكريم.

وأيضاً يكون هذا النمط من التفسير للزهد موجباً لتشويه الدين الحنيف وسبباً لاشمئزاز النفوس منه.

وفي مقابل هذا السنخ من التفكير أو هذا الطرز من التربية يجب بيان عدّة أُمور:

الأوّل: أنّ مَن يرغب في تقليل الاستفادة من مُتَع الدنيا: بأن يجعل تمتّعه بها أنزل من حدّ الاعتدال يجب أن لا يكون ذلك بروح الرغبة عنها وكُرهها والعزوف عنها؛ فتشمله النواهي الواردة في الكتاب والسُنّة وذلك من قبيل قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ...﴾**[1] وغير ذلك ممّا مضىٰ طرفٌ منه في بحث النقطة الرابعة من نقاط المدخل، بل يكون بروح الإيثار وتقديم الآخرين علىٰ نفسه، والإيثار لا يكون إلّا فيما هو محبوب، قال الله تعالىٰ: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾**[2] فإن كان ابتعاده بالقدر المعقول عن الإكثار من النِّعم المادّية بهذه الروح فلن يؤدّي ذلك إلى ترك خيرات البلاد وبركاتها للكافر المستكبر أو للفاسق المتجبّر، بل ينسجم ذلك مع سعيه في نفس الوقت لطرد المستكبرين والمتجبّرين، وحصر الخيرات والبركات بقدر الإمكان للمؤمنين والمسلمين؛ كي يستفيدوا منها، ويتنعّموا بها، ويبذلوها ـ أيضاً ـ في سبيل الله وفي سبيل إحياء كلمة الله، فإنّ روح الإيثار لا تكون بمجرد ترك النِّعم، بل تكون بتحصيلها؛ لكي يبذلها للآخرين، وينعّم المسلمين بها، ويكون ببذل التعب في فتح باب البركات لأجل الآخرين، لا لأجل ملذّات نفسه. وكذلك التقمّص بالحكم يجب أن يكون بروح تحمّل المسؤوليّة والخدمة، لا بروح التلذّذ بالمنصب والتفكّه بالرئاسة، أو بروح الظلم والإجحاف لا سمح الله.

والثاني: أنّ الزهد ليس عبارة عن ترك الدنيا إلّا في المحرمات والشبهات، وأمّا في المباحات فالزهد عبارة عن أن لا تملكك الدنيا. ألا ترى أنّ الآية المباركة

---

(١) السورة ٥، المائدة، الآية: ٨٧.

(٢) السورة ٣، آل عمران، الآية: ٩٢.

التي بدأنا بها الحديث لم تجعل غاية سَنّ البلاء والمصائب في الدنيا بُغض نعم الدنيا المحللة، بل جعلت الغاية: أن ﴿... **لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾.

وإليك بعض روايات الزهد تلقي بمجموعها الضوء على معنى الزهد:

١ ـ عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عزّ وجلّ»[١].

٢ ـ عن أبي الطفيل قال: «سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: الزهد في الدنيا قصر الأمل، وشكر كلّ نعمة، والورع عمّا حرّم الله عليك»[٢].

٣ ـ عن إمامنا زين العابدين عليه السلام: «... ألا وإنّ الزهد في آية من كتاب الله ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**...﴾[٣]».

٤ ـ عن الصادق عليه السلام: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[٤].

٥ ـ عن الصادق عليه السلام قال: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما الزهد في الدنيا؟ قال: تنكّب حرامها»[٥].

٦ ـ عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مالي وللدنيا، إنّما مَثَلي كراكب رُفِعَت له شجرةٌ في يوم صائف فقال تحتها، ثُمّ راح وتركها»[٦].

ويشبه هذا الكلام ما قيل:

---

(١) الوسائل ١٦/ ١٥، الباب ٦٢ من جهاد النفس، الحديث ١٣.

(٢) المصدر السابق: ص١٥، الحديث ١٢.

(٣) المصدر السابق: ص١٢، الحديث ٦، والآية: ٢٣ في السورة ٥٧، الحديد.

(٤) المصدر نفسه: ص٩، الباب ٦١ من تلك الأبواب، الحديث ٤.

(٥) المصدر نفسه: ص١٥، الباب ٦٢، الحديث ١١.

(٦) المصدر نفسه: ص١٧، الباب ٦٣ من تلك الأبواب، الحديث ١.

أحـلام نـومٍ أو كـظلٍّ زائـل   إنّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدَعُ[١]

وقيل:

ألا إنّـما الدنـيا كـمنزل راكبٍ   أناخ عشيّاً وهو في الصبح راحـلُ

٧ـ وقيل: إنّ الحسن بن عليّ عليه السلام كان يتمثل بقول الشاعر:

يا أهل لذّات دنـيا لا بـقاء لهـا   إنّ اغـتراراً بـظلٍّ زائـلٍ حـمق

وكان يُروى أنّه له[٢].

وقيل: إنّه نزل أعرابيّ بقوم، فقدّموا إليه طعاماً، فأكَلَ، ثُمّ قام إلى ظلّ خيمة لهم، فنام هناك، فاقتلعوا الخيمة، فأصابته الشمس، فانتبه وقام وهو يقول:

ألا إنّـما الدنـيا كـظلّ بـنيّة   ولابدّ يوماً أنّ ظلّك زائل[٣]

٨ـ ورُوي أنّ جبرئيل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: «يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدارٍ لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من آخر»[٤].

وقيل:

أرى طالب الدنيا وإن طـال عـمره   ونـال مـن الدنـيا سـروراً وأنـعُما

كـبانٍ بـنى بـنيانه فأتـمه   فلمّا استوى ما قـد بـناه تـهدّما[٥]

٩ـ وقد نُقل عن أبي أمامة الباهلي قال: «لما بُعِثَ النبيّ صلى الله عليه وآله أتت إبليس جنودُه، فقالوا: قد بُعِثَ نبيٌّ، وأُخرجت أُمّة، قال: يحبّون الدنيا؟ قالوا: نعم قال: إن كـانوا يحبّونها ما أُبالي أن لا يعبدوا الأوثان، وإنّما أغدو عليهم وأروح بـثلاث: أخـذ المال من غير حقّه، وإنفاقه في غير حقّه، وإمساكه عن حقّه، والشرّ كلّه من هذا

---

(١) المحجة ٦/٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المحجة ٥/٣٥٧.

(٥) المحجة ٥/٣٦٩.

نبع»[١].

١٠ ـ وعن رسول الله ﷺ: «أنا زعيم بثلاث لمن أكبّ علىٰ الدنيا: بفقر لا غناء له[٢]، وبشغل لا فراغ له، وبهمّ وحزن لا انقطاع له»[٣].

١١ ـ عن الرضا عليه السلام:

كلّنا نأملُ مدّاً في الأجلْ | والمنايا هنَّ آفاتُ الأملْ
لا يغرّنك أباطيلُ المُنىٰ | والزمِ القصدَ ودعْ عنك العللْ
إنّما الدنيا كظلٍّ زائلٍ | حلَّ فيه راكبٌ ثُمَّ رحلْ[٤]

١٢ ـ وعن محمّد بن مسلم بسند صحيح، عن الصادق عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ علامة الراغب في ثواب الآخرة زهدٌ في عاجل زهرة الدنيا، أمّا إنّ زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه ممّا قسم الله له فيها وإن زهد، وإنّ حرصَ الحريص علىٰ عاجل زهرة الحياة الدنيا لا يزيده فيها وإن حرص، فالمغبون من غبن حظّه من الآخرة»[٥].

وهذا الحديث واضح في أنّ الزهد في مقابل الحرص، وليس بمعنى التجنّب عن امتلاك نعم الدنيا، ألا ترى أنّه يرغّب في الزهد ببيان: أنّه لن يحرمه نعمة، وأنّ الحرص لن يزيده نعمة!!

والثالث: لابدّ في كلّ شيء من سلوك المنهج الوسط المتجنّب جانب التفريط وجانب الإفراط، وذلك حتّىٰ في البذل والجود، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ

---

(١) المحجة ٥ / ٣٧٠.

(٢) الظاهر أنّ المقصود: فقر النفس.

(٣) البحار ٧٣ / ٨١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٩٥.

(٥) الوسائل ١٦ / ١١ ـ ١٢، الباب ٦٢ من أبواب جهاد النفس، الحديث ٣.

مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾(١) .

وقال أيضاً: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ...﴾**(٢) .

ومن الطريف أنّ الله ـ تعالىٰ ـ سمّىٰ الافراط حتّىٰ في حقّ الحصاد الذي هو في نفسه إحسان مطلوب بالإسراف ونهى عنه، قال الله تعالىٰ: **﴿... كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**(٣) .

وقد ورد في تفسير العياشي عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: « **﴿... وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ...﴾** قال: كان فلان ابن فلان الأنصاريّ ـ سمّاه ـ كان له حرث، وكان إذا جذّه تصدّق به، وبقي هو وعياله بغير شيء، فجعل الله ذلك سرفاً»(٤) .

وقد روىٰ الكليني عن أبي الحسن عليه السلام بواسطتين كلاهما من أوثق الرواة، وهما: محمّد بن يحيىٰ العطار، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، قال: «سألته عن قول الله تعالىٰ: **﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا ...﴾** قال: كان أبي يقول: من الإسراف في الحصاد والجذاذ أن يصدّق الرجل بكفّيه جميعاً. وكان أبي إذا حضر شيئاً من هذا، فرأى أحداً من غلمانه يتصدّق بكفّيه صاح به: أعط بيد واحدة القبضة بعد القبضة، والضغث بعد الضغث من السنبل»(٥) .

وقد تلخّص من كلّ ما ذكرناه حتّىٰ الآن: أنّ الزهد له معنيان أوله مصداقان:

أحدهما: الاجتناب عن المحرّمات والمشتبهات.

---

(١) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) السورة ٢٨، القصص، الآية: ٧٧.

(٣) السورة ٦، الأنعام، الآية: ١٤١.

(٤) الوسائل ٩/٢٠٣، الباب ١٦ من زكاة الغلات، الحديث ٢.

(٥) المصدر نفسه ح ١.

والثاني: أن لا يأسىٰ علىٰ مافاته، ولا يفرح بما أُوتيه. ولا يخفى أنّ الوصول إلى هذا المقام أصعب بكثير من الزهد بمعناه القشري، أعني: ترك المحلّلات.

ومن طريف ما ورد في المعنى الأوّل، أعني: ترك المحرّمات والمشتبهات ما رواه هاشم بن البريد قال: «قال لي عليّ بن الحسين عليه السلام: الزهد عشرة أجزاء، أعلىٰ درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلىٰ درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلىٰ درجة اليقين أدنىٰ درجة الرضا»[١].

فكأنّ المقصود بقوله: (أعلىٰ درجة الزهد أدنى درجة الورع) هو: المعنى الأوّل للزهد، أي: أنّ أدنى درجة الورع هو: أن يزهد الإنسان في المحرمات والمشتبهات.

وورد نظير هذا الحديث عن نفس الراوي أعني: هاشم بن البريد، عن أبي جعفر عليه السلام، وذيله مشتمل علىٰ المعنىٰ الثاني للزهد أيضاً، والنص مايلي[٢]: عن هاشم بن البريد، عن أبي جعفر عليه السلام «إن رجلاً سأله عن الزهد فقال: الزهد عشرة أشياء، وأعلىٰ درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلىٰ درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلىٰ درجات اليقين أدنى درجات الرضا، ألا وإنّ الزهد في آية من كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿... **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ...﴾».

ثُمّ أنّه ورد عن أهل العرفان غير التابعين لأهل البيت عليهم السلام تفسير الزهد بثلاث درجات[٣]:

الدرجة الأُولى: الزهد عن المحرمات والشبهات، وهو زهد العامّة.

والدرجة الثانية: الزهد عمّا عدا المُسكة والاكتفاء بقدر الاضطرار.

---

(١) الكافي ٢/٦٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا، الحديث ١٠.

(٢) راجع البحار ٧٠/٣١٠ الحديث ٥.

(٣) راجع شرح منازل السائرين للتلمساني: ١٤٠ ـ ١٤٣، وشرحه أيضاً للكاشاني: ٥٣ ـ ٥٤.

والدرجة الثالثة : الزهد في الزهد، أي: أنّه لا يرى مال الدنيا شيئاً في جنب الله تعالىٰ، فهو مشغول عنه بالله، لا ينشغل لا بحبّ الدنيا ولا ببغضها، قيل: ومنه قول الشاعر وإن لم يقصده:

إذا زهّدتني في الهوى خشية الردى   جلت لي عن وجه يزهّد في الزهد[١]

وذكر الغزالي[٢] ما حاصله: إنّ الفقير ـ وأقصد بذلك فقر المال ـ يتصوّر له خمسة أحوال:

الأُولى : وهي الحالة العليا: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه، وتأذّىٰ به، وهرب من آخذه مبغضاً له، ومحترزاً من شرّه وشغله، وهذا هو الزهد، واسم صاحبه: الزاهد.

والثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذّى بها ويزهد فيه، ولو أتاه رضي به. وصاحب هذه الحالة يُسمّىٰ: راضياً.

والثالثة : أن يكون وجود المال أحبّ إليه من عدمه؛ لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفواً صفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة نسمّيه: قانعاً؛ إذ قنعت نفسه بالموجود حتّىٰ ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

والرابعة : أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلّا فهو راغب فيه رغبةً لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب. وصاحب هذه الحالة نسمّيه: بالحريص.

الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطرّاً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمّىٰ صاحب هذه الحالة: مضطراً. كيفما كانت رغبته في الطلب

---

(١) شرح منازل السائرين للتلمساني: ١٤٣.

(٢) راجع إحياء العلوم ٤ / ١٧٩ ـ ١٨١، وإحياء الإحياء ٧ / ٣١٥ ـ ٣١٩.

إمّا ضعيفة وإمّا قوية، وقلّما تنفكّ هذه الحالة عن الرغبة. فهذه خمسة أحوال، أعلاها الزهد، فإن انضمّ الاضطرار إلى الزهد وتصوّر ذلك، فهو أقصىٰ درجات الزهد.

وهنا أورد الفيض الكاشاني‏ﷺ علىٰ الغزالي: بأنّ الاضطرار المنضمّ إليه الزهد إن تُصوّر فليس من الخصال المحمودة، بل ولا من شيم العقلاء فضلاً عن أن يكون أقصىٰ درجات الزهد؛ فإنّ الجائع المضطرّ إلى الخبز، الفاقد له، لو آتاه الله الخبز عفواً صفواً، فتأذّى به، وهرب من آخذه، عُدَّ من المجانين... ثُمّ التقسيم الذي ذكره ليس بسديد؛ وذلك لأنّ المضطرّ ليس قسيماً للأربعة الأُخر، بل هو ـ أيضاً ـ ينقسم إلى بعضها...[1].

نعود إلى نقل كلام الغزالي : ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلىٰ من الزهد، وهي: أن يستوي عنده وجود المال وفقده، فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذّ، وإن فقده فكذلك. فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزانته لم تضرّه؛ إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن يكون في يده أو يد غيره. وينبغي أن يُسمّىٰ صاحب هذه الحالة: المستغني؛ لأنّه غنيّ عن فقد المال ووجوده جميعاً، وليفهم من هذا الاسم معنىً يفارق معنى الغنيّ الذي يطلق علىٰ الله تعالىٰ، وعلىٰ من كثر ماله من العباد، فإنّ من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فقير إلى بقاء المال في يده، وإنّما هوغنيّ عن دخول المال في يده لا عن بقائه في يده، فهو إذن فقير من وجه. وأمّا هذا الشخص فهو غنيّ عن دخول المال في يده، وعن بقائه في يده، وعن خروجه من يده أيضاً، فإنّه ليس يتأذّى به ليحتاج إلى الخروج، وليس يفرح به ليحتاج إلى البقاء، وليس فاقداً له ليحتاج إلى الدخول في يده، فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغنيّ الذي هو وصف الله أقرب،

---

(١) المحجة : ٧ / ٣١٥ـ٣١٦.

وإنّما قرب العبد من الله بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكنّا لا نسمّي صاحب هذه الحالة غنيّاً، بل مستغنياً؛ ليبقى الغنيّ اسماً لمن له الغنىٰ المطلق عن كلّ شيء، وهو: الله سبحانه. وأمّا هذا العبد وإن استغنىٰ عن المال وجوداً وعدماً، فلم يستغن عن أشياء أُخر سواه، ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زيّن الله به قلبه، فإنّ القلب المقيد بحبّ المال رِقّ، والمستغني عنه حرّ، والله تعالىٰ هو الذي أعتقه من هذا الرقّ، فهو محتاج إلى دوام هذا العتق، والقلوب متقلّبة بين الرّقّ والحرّية في أوقات متقاربة؛ لأنّها بين أصبعين من أصابع الرحمن، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلّا مجازاً.

واعلم أنّ الزهد درجةً هي كمال الأبرار، ولكنّ صاحب هذه الحالة التي هي فوق الزهد من المقرّبين، فلا جرم صار الزهد في حقّه نقصاناً؛ إذ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين؛ وهذا لأنّ الكاره في الدنيا مشغول بالدنيا، كما أنّ الراغب فيها مشغول بها. والشغل بما سوىٰ الله حجاب عن الله تعالىٰ؛ إذ لا بُعْدَ بينك وبين الله حتّىٰ يكون البعد حجاباً، فإنّه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتّىٰ تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه، فإنّه أقرب إليك منك، فلا حجاب بينك وبينه إلّا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك وبشهوات نفسك، فلذلك لا تزال محجوباً عنه، فالمشغول بحبّ نفسه مشغول عن الله، والمشغول ببغض نفسه ـ أيضاً ـ مشغول عن الله، بل كلّ ما سوىٰ الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإنِ التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حالة اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذّذ بمشاهدة معشوقه، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق، ولم يلتفت إليه، فكما أنّ النظر إلى غير المعشوق لحبّه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه، فكذا النظر إلى غيره لبغضه شرك فيه ونقص، ولكن أحدهما أخفّ من الآخر، بل الكمال في أن

لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضاً وحبّاً، فإنّه كما لا يجتمع في القلب حبّان في حالة واحدة، فلا يجتمع ـ أيضاً ـ بغض وحبّ في حالة واحدة، فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله تعالىٰ كالمشغول بحبّها، إلّا أنّ المشغول بحبّها غافل، وهو في غفلته سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل، وهو في غفلته سالك في طريق القرب؛ إذ يُرجىٰ له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة، وتتبدّل بالشهود، فالكمال له مرتقب؛ لأنّ بغض الدنيا مطيّة توصل إلى الله، فالمحبّ والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستدبر للكعبة، والآخر مستقبل لها، فهما سيّان بالإضافة إلى الحال في أنّ كلّ واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها، ولكنّ حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر، إذ يُرجى له الوصول إليها، وليس بمحمود بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة والملازم لها الذي لا يخرج منها حتّىٰ يفتقر إلى الاشتغال بالدّابّة في الوصول إليها، فلا ينبغي أن تظنّ أنّ بغض الدنيا مقصود في عينه، بل الدنيا عائق عن الله، ولا وصول إليه إلّا بدفع العائق.

فإذن قد ظهر: أنّ الزهد في الدنيا إن أُريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أُريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني.

وما ينقل عن الزاهدين من الامتناع من مال الدنيا فإمّا أن ينقل عمّن خاف أن لو أخذه لخدعه المال، وقيّد قلبه، فيدعوه إلى الشهوات، وهذا حال الضعفاء، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقّهم كمال، وهذا حكم جميع الخلق؛ لأنّ كلّهم ضعفاء إلّا الأنبياء والأولياء. وإمّا أن يُنقَل عن قويّ بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الفعل لهلكوا كما يفرّ الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحيّة لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنّه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون، والسير بسير الضعفاء

ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء، فقد عرفت ـ إذن ـ أنّ أعلىٰ المراتب في باب الزهد إيجاباً وسلباً رتبة المستغني، ثُمّ الزاهد، ثُمّ الراضي، ثُمّ القانع، ثُمّ الحريص. انتهى المقدار الذي اردت نقله من كلام الغزالي مع قليل من التلخيص، ويسير من تغيير بعض العبائر.

وأورد عليه الفيض الكاشاني‌ؒ: بأنّه لم يرَ فرقاً بين من سمّاه بالراضي ومن سمّاه بالمستغني؛ فإنّه وصفهما جميعاً بأنّ وجود المال وعدمه سيّان عنده، وأنّه لا يفرح به، ولا يتأذّى به[1].

أقول: الظاهر أنّ الغزالي يقصد بالراضي: مَنْ يرضى بما لديه من غنىً أو فقرٍ؛ نظراً لتساوي التذاذه بالمال لالتذاذه بالفقر، فهو لم يرق مرتبة الكمال الذي يجعله مبتعداً عن حبّ المال في ذاته، ولم يكن منحطّاً إلى حدّ لا يرغب في الفقر في ذاته، بل تساوت عنده الرغبتان وتكاسرتا، فأصبح المال وعدمه عنده سيّان. ويقصد بالمستغني: مَنْ كان المال وعدمه عنده سيّان أيضاً، لكن لا بملاك تكاسر الرغبتين، بل بملاك انحصار رغبته في الله سبحانه وتعالىٰ، وانشغاله به، وعدم التفاته لا إلى المال ولا إلى عدمه، وشتّان الفرق بين المفهومين.

وعلىٰ أيّة حال، فالذي نفهمه نحن من الكتاب والسُنّة وروايات أهل البيت‌ؑ ليس هو المدح للهروب من الدنيا المحلّلة فيما هو أكثر من قدر الاضطرار وبغضها وكرهها، وإنّما الذي نفهمه منها عدّة أُمور:

١ـ مدح التجنّب عن الحرام والشبهات كما مضى ذلك في بعض الروايات، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لا يَغُرّنك من المرء رداءٌ رَقَعَهْ ... وقميصٌ فوق كعب الساق منه رَفَعَهْ
وجبينٌ لاح فيه أثرٌ قد قَلَعَهْ ... أرِهِ الدرهمَ تعرف غيّه أوْ وَرَعَهْ

(١) المحجة ٧/٣١٦ ـ ٣١٩.

٢ـ مدح أن لا يفرح بما أُوتي، ولا يحزن علىٰ ما فاته كما مضى من الآية الكريمة.

٣ـ أنّ ما يصلح أكثرية الناس هو الكفاف والعفاف؛ لأنّ الأكثر من ذلك يُلهي الذهن عن الله تعالىٰ وفقدان الكفاف يشوّش الذهن في غالب الناس الاعتياديين.

وقد ورد عن عليّ بن الحسين عليه السلام[1] قال:

«مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله براعي إبل، فبعث يستسقيه، فقال: أمّا ما في ضروعها فصبوح الحيّ[2]، وأمّا ما في آنيتنا فغبوقهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللّهمّ أكثر ماله وولده. ثُمّ مرّ براعي غنم، فبعث إليه يستسقيه، فحلب له ما في ضروعها، وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعث إليه بشاة، وقال: هذا ما عندنا، وإن أحببت أن نزيدك زدناك، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللّهمّ ارزقه الكفاف، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله دعوت للذي ردّك بدعاءٍ عامّتنا نحبّه، ودعوت للذي أسعفك بحاجتك بدعاءٍ كلنا نكرهه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ ما قلّ وكفىٰ خير ممّا كثر وألهىٰ، اللّهمّ ارزق محمّداً وآل محمّد الكفاف».

٤ـ مدح الإيثار علىٰ النفس، قال الله تعالىٰ: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3].

وقال عزّ وجلّ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[4].

وقال عزّ من قائل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[5].

٥ـ إن العباد يختلف حالهم فيما يصلحهم، فربّ إنسان يصلحه الفقر، وربّ

---

(١) أُصول الكافي ٢ / ١٤٠ ـ ١٤١، باب الكفاف، الحديث ٤.

(٢) الصبوح: ما يشرب بالغداة، والغبوق: ما يشرب بالعشي.

(٣) السورة ٥٩، الحشر، الآية: ٩.

(٤) السورة ٣، آل عمران، الآية: ٩٢.

(٥) السورة ٧٦، الإنسان، الآية: ٨.

إنسان يصلحه الغنى، وربّ شخص يصلحه المرض، وربّ آخر تصلحه السلامة... وما إلى ذلك. وقد ورد في الكافي[١] عن أبي عبيدة الحذّاء بسند صحيح، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله، قال الله عزّ وجلّ: إنّ من عـبادي المـؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلّا بالغنى والسعة والصحّة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحّة البدن، فيصلح عليهم أمر دينهم. وإنّ من عبادي المؤمنين لعـباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلّا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم، فيصلح عليهم أمر دينهم. وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر ديـن عبادي المؤمنين. وإنّ من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي، فـيقوم مـن رقاده ولذيذ وساده، فيتهجّد لي الليالي، فيتعب نفسه في عبادتي، فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين؛ نظراً منّي له وإبقاءً عليه، فينام حتّىٰ يصبح، فيقوم وهو ماقت لنفسه زارئ عليها، ولو أُخلّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العـجب مـن ذلك، فيصيّره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه؛ لعجبه بأعـماله، ورضاه عن نفسه حتّىٰ يظنّ أنّه قد فاق العابدين، وجاز في عبادته حدّ التقصير، فيتباعد منّي عند ذلك وهو يظنّ أنّه يتقرّب إليّ، فلا يتّكل العاملون علىٰ أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنّهم لو اجتهدوا، وأتعبوا أنفسهم، وأفـنوا أعـمارهم فـي عبادتي، كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيم في جنّاتي، ورفـيع درجـاتي العـلىٰ فـي جـواري، ولكـن فبرحمتي فليثقوا، وبفضلي فليفرحوا، وإلى حسن الظنّ بي فليطمئنّوا، فإنّ رحمتي عند ذلك تداركهم، ومَنّي يبلّغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإنّي أنـا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسمّيت».

(١) أُصول الكافي: ٢/ ٦٠ ـ ٦١، كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء، الحديث ٤.

الفصل الثالث عشر
الـورع والتــقوىٰ

قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

وقال عزَّ من قائل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[2].

وقال عزّوجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ...﴾[3].

وقال عزَّ اسمه: ﴿... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[4].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ

---

(١) السورة ٤٩، الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٩٧.

(٣) السورة ٣، آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٤) السورة ٥، المائدة، الآية: ٢٧.

﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

مضىٰ في فصل الزهد حديث عن هاشم بن البريد، عن أبي جعفر عليه السلام «إنَّ رجلاً سأله عن الزهد فقال: الزهد عشرة أشياء، وأعلىٰ درجات الزهد أدنىٰ درجات الورع، وأعلىٰ درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلىٰ درجات اليقين أدنى درجات الرضا...»[٢].

ونحوه عن هاشم بن البريد عن زين العابدين عليه السلام[٣].

وقد رُوي عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «قال لي: يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت! فوالله ما شيعتنا إلّا من اتّقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلّا بالتواضع، والتخشّع، والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلّا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء. قال جابر: فقلت: يابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة، فقال: يا جابر لا تذهبنّ بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أُحبّ عليّاً وأتولّاه، ثمّ لا يكون مع ذلك فعّالاً؛ فلو قال: إنّي أُحبّ رسول الله ـ فرسول الله خير من عليّ عليه السلام ـ ثمّ لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنّته ما نفعه حبّه إيّاه شيئاً، فاتقوا الله، واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله عزّوجلّ [وأكرمهم عليه] أتقاهم، وأعملهم بطاعته. يا جابر والله ما يتقرّب إلى الله تبارك وتعالىٰ إلّا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا علىٰ الله لأحد من حجّة. مَنْ كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ، ومَنْ كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ. وما

---

(١) السورة ٧، الأعراف، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) البحار ٧٠ / ٣١٠.

(٣) الكافي ٢ /٦٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء، الحديث ١٠.

تنال ولايتنا إلّا بالعمل والورع»[١].

يبدو لي أنّ المقصود بما في الحديث الأوّل من أنَّ «... أعلىٰ درجات الزهد أدنىٰ درجات الورع...» هو الزهد بالمعنى الأوّل من المعنيين الماضيين في ذاك البحث، وهو: ترك المحرمات والمشتبهات، فهذا يكون أدنى درجات الورع، ويشتدّ الورع بإضافة التورّع عن المكروهات والشبهات الجائزة الارتكاب أو المباحات الشاغلة عن الله سبحانه وتعالىٰ. فكلّما توغّل الإنسان في هذا السلّم من الورع اقترب إلى الاطمئنان القلبي والعاطفي بالله سبحانه وتعالىٰ؛ ولذلك قال عليه السلام: «أعلىٰ درجات الورع أدنى درجات اليقين...».

وهناك احتمال آخر في تفسير كون «... أعلىٰ درجات الزهد أدنى درجات الورع...» وهو أنّ المقصود بالزهد: الزهد عن الحرام والمشتبه الماليّين، في حين أنّ الورع يعني: التورّع في جميع الأبواب لا في خصوص الأموال، ولا تنافي بين التفسيرين.

---

(١) أُصول الكافي ٢ / ٧٤ ـ ٧٥، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوىٰ، الحديث ٣.

وهذا الحديث يمثّل توصيات للشيعة المتعايشين ضمن أكثرية سُنّية، كي يؤثّر العمل بها في جلب ثقة السُنّة بالشيعة وبأئمّة الشيعة وبمذهبهم. وفي فرض ترك العمل بها يؤدّي ذلك إلى تشويه سمعة الشيعة والأئمّة عليهم السلام والمذهب، لكن يمكن تسرية ذلك إلى الفروض المشابهة، وذلك من قبيل توصية طلبة العلوم الدينية أو العلماء بالعمل بهذه الأُمور ضمن الأُمّة المفروض بها اتّباع العلماء، فلو رأوا منهم ما يخالف هذه الآداب لساء ظنهم بالعلماء أو الحوزة العلمية، بل قد يسوء ظنّهم بالإسلام. ويتضاعف بذلك عقاب هؤلاء العلماء أو المتعلمين، ولو رأوا منهم هذه الآداب لاشتدّت ثقتهم بالعلماء وبطلبة العلوم الإسلاميّة وبنفس شريعة الإسلام ومبادئها وآدابها ومن قبيل توصية المتدينين الذين يتعاهدون المساجد والمشاهد المشرفة ومجالس الوعظ والإرشاد بالالتزام بهذه الآداب لجلب عامّة الناس الفاقدين لمثل هذه التعاهدات. ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

شيخى بزن فاحشه گفتا مستى	هر روز بدام دگرى پيوستى
گفتا شيخا هر آنچه گوئى هستم	امّا تو هر آنچه مينمائى هستى؟!

والذي يبدو لي أنّ المقصود باليقين: ما قد يُسمّىٰ بيقين الشهود الذي هو فوق ما يُسمّى بالقطع، فالقطع هو: الانكشاف الذي يكفي في تماميته أن لا يشوبه شك، ويكفي في تحصيله البرهان، ولكن اليقين هو: العلم الذي يكون نوراً يقذفه الله في قلب من يشاء، ولا يحصل إلّا بأعلىٰ درجات الورع والتقوى الموجب لانفتاح بصيرة الإنسان التي تشاهد ما لا يشاهد البصر.

وقد قيل: إنَّ اليقين له درجات: أوّلها علم اليقين، وثانيها عين اليقين، وثالثها حقّ اليقين. ويُمثّل لذلك باليقين بالنار الذي يكون في الدرجة الأُولى بمشاهدة المرئيّات بتوسط نورها، وفي الدرجة الثانية بمشاهدتها مباشرة، وفي الدرجة الثالثة بالاحتراق فيها وانمحاء الهوية بها. وليس وراء هذا غاية، ولا هو قابل للزيادة. لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً[١].

والتقوى والورع شيء واحد. وقد بُيّنت مرتبتها في بعض الروايات بلسان آخر غير رواية الورع التي تلوناها عليك، وهي في بعض أسانيدها صحيحة السند، فقد رُوي في الكافي عن الإمام الرضا عليه السلام بثلاث وسائط كلّهم في منتهىٰ درجات الوثوق وهم: محمّد بن يحيى العطار، عن أحمد بن محمَّد بن عيسى القمّي الأشعري، عن أحمد بن محمَّد بن أبي نصر (وهذا سند قلّ ما نرىٰ مثله) عن الرضا عليه السلام قال: «الايمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة. ولم يقسّم بين العباد شيء أقلُّ من اليقين»[٢].

ونحوه في حديث آخر بسند صحيح أيضاً بثلاث وسائط كلّهم ثقات. والراوي المباشر يونس. وزاد في آخره: قلت: « فأيّ شيء اليقين؟ قال: ... التوكّل علىٰ

(١) راجع البحار ٧٠ / ١٤٢.

(٢) أُصول الكافي: ٢ / ٥٢، كتاب الإيمان والكفر، باب فضل الإيمان علىٰ الإسلام واليقين علىٰ الإيمان، الحديث ٦.

الله، والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله...»[١].

وهذا تفسير لليقين باللوازم والآثار. ولنعم ما قيل في تعريف التقوى:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرها فهو التقىٰ

واصنع كماشٍ فوق أر ... ضِ الشوكِ يحْذرُ ما يرىٰ

لا تحقرنّ صغيرةً ... إنّ الجبالَ من الحصىٰ[٢]

والتقوىٰ من الوقاية بمعنى: التوقّي. وفي عرف المتشرّعة يقصد بها: التوقّي من عذاب الآخرة، أو من غضب الرحمن، أو من الابتعاد عن الربّ أو ما إلى ذلك.

وقد قسّمها الشيخ المجلسيّ ﷺ إلى ثلاث مراتب:

الأُولىٰ: وقاية النفس من العقاب المخلّد بتصحيح العقائد الإيمانية.

والثانية: التجنّب عمّا يؤثم: من فعل أو ترك، قال: وهو المعروف عند أهل الشرع.

والثالثة: التوقّي من كلّ ما يشغل القلب عن الحقِّ، قال: وهذه درجة الخواصّ، بل خاصّ الخاصّ. واستظهر ﷺ أن يكون المقصود بالتقوىٰ في الروايات التي جعلتها فوق الإيمان وجعلت اليقين أعلىٰ منها: المعنى الثاني؛ إذ لو كان المقصود هو الأوّل لمّا صحّ جعلها فوق الإيمان، ولو كان المقصود الثالث لأشكل الفرق عن اليقين وكون اليقين فوقه. ثمّ قال: لكن درجات المرتبة الأخيرة ـ أيضاً ـ كثيرة، فيمكن حمل اليقين علىٰ أعلىٰ درجاتها، فيجتمع مع تفسير التقوى بالمعنى الثالث أيضاً[٣].

---

(١) أُصول الكافي: ٢ / ٥٢، كتاب الإيمان والكفر، باب فضل الإيمان علىٰ الإسلام واليقين علىٰ الإيمان، الحديث ٥.

(٢) تفسير «نمونه» ٢٢ / ٢٠٧.

(٣) راجع البحار ٧٠ / ١٣٦ ـ ١٣٧.

أمّا ما ورد في آية الحجّ من الأمر بالتزوّد، وأنّ خير الزاد التقوىٰ، فإنّني كنت أفهم منه وفق الفهم الساذج: أنّ المقصود هو الأمر بالتزوّد بالتقوى، فكأنّما يقول: إنّ الذي يحجّ بيت الله فالمفروض به: أن يترك الرفث والفسوق والجدال، وأن يتزوّد ـ أيضاً ـ بالتقوى، إلى أن رأيتُ تفسيراً يروي: أنَّ أُناساً من اليمن كانوا في عصر القرآن يسافرون للحج، ولم يكونوا يصحبون معهم زاداً، وكان دليلهم علىٰ ما يفعلون: أنّنا نَفِدُ علىٰ زيارة بيت الله، فهل يعقل أنّ الله تعالىٰ لا يستضيفنا، وغافلين عن أنّ الله تعالىٰ قد استضافهم عن طُرُق الوسائل المادّية الموضوعة تحت اختيارهم، فنزلت الآية المباركة تأمرهم بالتزوّد، وتشير ضمناً إلى مسألة معنويّة، وهي: ضرورة زادالتقوىٰ ـ أيضاً ـ التي هي خير زاد[1].

أقول: وكذلك سفرنا إلى عالم الآخرة، فصحيح أنّنا نَفِدُ في ذلك علىٰ الكريم. ولنعم ما قيل:

وفدتُ علىٰ الكريمِ بغيرِ زادٍ ... من الحسناتِ والقلبِ السليمِ
وحملُ الزادِ أقبحُ كلّ شيءٍ ... إذا كان الوفود علىٰ الكريم

وحقّاً كُلَّما تزوّدنا بزاد التقوىٰ عجزنا عن تأدية حقّه سبحانه وتعالىٰ، وسيكون اعتمادنا علىٰ كرم مَنْ نَفِد عليه، ولكنّنا في نفس الوقت مأمورون بالتزوّد بزاد التقوى، وبدون ذلك سنخسر هنالك خسراناً مبيناً. وقد وردت مخاطبة عليّ عليه السلام لأهل القبور بعد رجوعه من صفّين لمّا أشرف عليها بظاهر الكوفة، وفيها: «... أمّا الدور فقد سُكِنت، وأمّا الأزواج فقد نكِحت، وأمّا الأموال فقد قُسِّمت. هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: أمّا لو أُذِنَ لهم في الكلام لأخبروكم: أنّ خير الزاد التقوىٰ»[2].

---

(١) تفسير «نمونه» ٢ / ٣٠.

(٢) نهج البلاغة: ٦٨٠، رقم الحكمة: ١٣٠.

وهو الذي ورد عنه‌ﷺ ـ أيضاً ـ أنّه قال: «... إنّ المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدّم؟ لله آباؤكم فقدّموا بعضاً يكن لكم، ولا تُخلِفُوا كلاًّ فيكون عليكم»[١].

وأمّا قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿... اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ...﴾ فقد ورد عن الإمام الصادق‌عليه‌السلام أنّه قال في تفسير حقّ التقاة: «يطاع ولا يعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يكفر»[٢].

وأمّا قوله عزّوجلّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ...﴾ فهو مِنّة علىٰ العباد أوّلاً بإنزال اللباس المادّي عليهم الذي يواري السوأة المادّيّة ويعتبر كرامة، وكذلك زينة للإنسان (وأكبر الظنّ أنّ المقصود بقوله ﴿رِيشاً﴾ هو كون اللباس زينة). وهذا اللباس هو الذي انتزع من آدم وحوّاء بسبب الخطأ الذي صدر عنهما بوسوسة الشيطان؛ نظراً لكون إلباسه إيّاهما إلباساً إلهيّاً لا ينتزع منهما، وليس بحاجة إلى مؤونة اللبس بدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾[٣]. فهذه الكرامة سُلِبت من آدم وزوجه حينما ذاقا من الشجرة، فبدت لهما سوآتهما، واضطرّا إلى سترالسوأة بالفعل المادّيّ المحتاج إلى المؤونة والتعب ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَّرَقِ الْجَنَّةِ ...﴾[٤] ثُمّ تشير الآية إلى اللباس المعنوي

---

(١) المصدر السابق: ٤٣٥، رقم الخطبة: ٢٠٣. وقد ورد في نسخة صبحي الصالح «... يكن لكم قرضاً... فيكون فرضاً عليكم».

(٢) تفسير البرهان ١ / ٣٠٤.

(٣) السورة ٢٠، طه، الآية: ١١٨.

(٤) السورة ٢٠، طه، الآية: ١٢١.

الذي هو خير من اللباس المادّي ألا وهو: لباس التقوى. ويحذّرنا من أن يكرّر الشيطان علينا الحيلة التي ارتكبها مع أبوينا. وفي هذه المرّة لا ينزع عنّا لباسنا المادي؛ فإنّه لم يلبس علينا بطابع الإكرام الإلّهي البحت (وإن كانت جميع النعم بالمعنى العام إكراماً إلّهيّاً لنا)، فإنّ لبس اللباس امر اختياري لنا، ويحمل مؤونة التحصيل واللبس، ولكنّ لباس الكرامة الحقيقيّة لنا ـ والتي هي خير من اللباس المادّي ـ إنّما هو لباس التقوى. وهذا هو اللباس الذي ينزعه منّا الشيطان هذه المرّة إن عصيناه سبحانه وتعالىٰ.

وبهذه المناسبة أُشير إلى بعض أساليب نزع الشيطان عنّا لباس التقوى، وهي ما وردت في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «لمّا دعا نوح عليه السلام ربّه ـ عزّوجلّ ـ علىٰ قومه أتاه إبليس لعنه الله فقال: يا نوح إنّ لك عندي يداً! أُريد أن أُكافيك عليها.

فقال نوح عليه السلام: إنّه ليبغض إليّ أن يكون لك عندي يد فما هي؟

قال: بلى دعوت الله علىٰ قومك فأغرقتهم، فلم يبقَ أحد أُغويه، فأنا مستريح حتّىٰ ينسق قرن آخر وأُغويهم.

فقال له نوح عليه السلام: ما الذي تريد أن تكافيني به؟

قال: اذكرني في ثلاث مواطن[1] فإنّي أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في إحداهنّ:

اذكرني إذا غضبت.

واذكرني إذا حكمت بين اثنين.

واذكرني إذا كنت مع امرأة خالياً ليس معكما أحد»[2].

وفي ختام البحث أقول: إذا اتّضح لك بما شرحنا حتّىٰ الآن فضل التقوى

---

(١) هكذا وردت، والصحيح: ثلاثة مواطن.

(٢) البحار ١١ / ٣١٨.

وأثرها، عرفت أنّه كان حقّاً أن تُجعل المقياس الوحيد للمفاضلة في الآية الأُولى التي فتحنا بها الحديث، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فهذه الآية قد حصرت التفاضل بالتقوىٰ، ونفت كلَّ التفاضلات المادية التي لم تقم علىٰ أساس الأخلاق والمنتشرة فيما بين الشعوب غير المتربية بتربية السماء، وعلىٰ رأسها في ذلك التأريخ: التفاضل بالأنساب والأحساب، وهو المشار إليه صريحاً في هذه الآية المباركة.

والعقل يحكم قبل الشرع ببطلان هذه القيم، وببطلان هذه القيمة بالذات؛ لأنَّ انتساب شخص إلى قبيلة لا يعني إلّا انتسابه إليها بواسطة ماء قذر يخرج من بين الصلب والترائب، وليس هذا لو نظرنا إليه في ضوء العقل النيّر أمراً شريفاً ومشرِّفاً، وكلُّ الأنساب ترجع إلى آدم وآدم من تراب.

وقد نُقِلَ للآية المباركة عدد من شأن النزول أو مورد التطبيق، كلّها يدخل في مسألة التفاخر بالأحساب والأنساب والألوان أو اللسان وما إلى ذلك، من قبيل:

١ ـ ما رُوِيَ من أنّ رسول الله ﷺ بعد ما فتح مكّة عيَّن بلالاً للأذان علىٰ ظهر الكعبة، فقال عتّاب بن أسيد: أشكر الله علىٰ موت والدي، وأنّه ليس حيّاً في مثل هذا اليوم الذي يكون بلال هو المؤذّن لنا علىٰ ظهر الكعبة. وقال حارث بن هشام: ألم يكن لرسول الله أحد غير هذا الغراب الأسود يجعله مؤذِّناً علىٰ الكعبة. فنزلت هذه الآية المباركة[1].

٢ ـ وروي ـ أيضاً ـ أنّ رسول الله ﷺ أمر بتزويج بنت من بنات العرب من بعض الموالي (والمولىٰ يعني: العبد المعتَق، أو غير العرب ممّن يتولّىٰ أحداً في مصطلح فقهي) فتعجّبوا من ذلك، وقالوا: أتأمرنا يا رسول الله بتزويج بناتنا من

---

(١) تفسير «نمونه» ٢٢ / ١٩٩.

الموالي؟! فنزلت الآية المباركة[١].

٣ـ وفي حديث آخر: خطب رسول الله ﷺ في مكّة ذات يوم فقال: «يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برّ تقيّ كريم على الله، وفاجر شقيّ هيّن على الله. والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**»[٢].

والتفاضلات المادّية التي يتمسّك بها الناس غير المتديّنين تكون في الغالب راجعة إلى أحد اُمور ثلاثة:

١ـ التفاضل بالنسب والقبيلة، وهذا ما أشارت إليه هذه الآية.

٢ـ أو بالمال والقدرات الاقتصادية، وهذا ما أشار إليه قوله تعالىٰ: **﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً﴾**[٣] في حين أنّ العقل يحكم ـ أيضاً ـ قبل الشرع بأنّ المال أمر عرضيّ يحصل حتّىٰ بالظلم والطغيان، ويزول في لحظة من القَدَر، ولا فضيلة له في ضوء إشعاعات العقل علىٰ الإطلاق.

٣ـ أو بالمكانة الاجتماعيّة والسياسيّة أو القدرة والسلطة.

ولعلّه يشير إلى كلّ هذه الامتيازات الوهميّة قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم**

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٠٠.

(٣) السورة ٢٥، الفرقان، الآيات: ٨ ـ ١٠.

مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] ، وكأنّ الآية تشير إلى أنّه لولا مخافة أن يكون الناس أُمّة واحدة كافرة لأغنىٰ الله ـ تعالىٰ ـ الكفّار، ورفّه عليهم، إمّا بهدف الإملاء؛ كي يطغوا أكثر، ويحلّ عليهم غضب الربّ، أو بهدف مكافأتهم بالجميل علىٰ بعض ما يصدر عنهم أحياناً من أعمال حسنة؛ كي لا يستحقّوا جزاءها الحسن في الآخرة، أو لأيّ سبب آخر مجهول لدينا.

وفي مقابل هذه الامتيازات المادّيّة المزيّفة قد جاءنا القرآن بامتيازات معنويّة من أرقىٰ ما يمكن أن يكون، فقد فضّل الله ـ تعالىٰ ـ العلماء علىٰ الجهّال في قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾**[٢] . وفضّل الله ـ تعالىٰ ـ المجاهدين علىٰ القاعدين في قوله تعالىٰ: **﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾**[٣] . وفضّل الله المؤمنين علىٰ غيرهم، والعلماء علىٰ غيرهم في قوله تعالىٰ: **﴿... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا**

---

(١) السورة ٤٣، الزخرف، الآيات: ٣١ ـ ٣٥.

(٢) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٩.

(٣) السورة ٤، النساء، الآيتان: ٩٥ ـ ٩٦.

الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ...﴾[١] وفضّل الله المتقين علىٰ غيرهم في قوله تعالىٰ: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾[٢].

والذي يجلب الانتباه أنّ التفضيل بالتقوىٰ جُعِلَ تفضيلاً مطلقاً، في حين أنَّ التفضيلات الأُخرىٰ لا يفهم منها أكثر من التفضيل النسبي، ولعلَّ السبب في ذلك ما يلي: إنَّ التقوىٰ لا يمكن أن تخلو من العلم؛ لأنَّ الجاهل لا يستطيع أن يتقي موارد الخطر التي يجهلها، ولكن العلم يمكن أن يخلو من التقوىٰ، فلا يزداد صاحبه من الله إلّا بُعداً؛ ولهذا فالعلم لم يصبح امتيازاً مطلقاً، ولكنَّ التقوىٰ أصبحت امتيازاً مطلقاً. وكذلك التقوىٰ لا يمكن أن تكون بلا إيمان، في حين أنَّ الإيمان قد يكون بلا تقوىٰ؛ ولهذا لم يصبح الإيمان امتيازاً مطلقاً، ولكنَّ التقوىٰ أصبحت امتيازاً مطلقاً. وكذلك الجهاد ليس إلّا فخذاً من أفخاذ التقوىٰ. والتقوىٰ في كلِّ مورد بحسبه، فقد تكون التقوىٰ في الجهاد، وأُخرىٰ في التعلم، وثالثة في تبليغ الرسالة الإسلاميّة... وما إلى ذلك، فالتقوىٰ هي الفضيلة الجامعة المطلقة، وليس الجهاد.

أختم الحديث عن التقوىٰ بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٣].

---

(١) السورة ٥٨، المجادلة، الآية: ١١.

(٢) السورة ٤٩، الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) السورة ٥٠، ق، الآيات: ٣١ ـ ٣٥.

الفصل الرابع عشر
التبتل والانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ

قال عزّ وجلّ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَحْمٰنِ الرَحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾(١).

وقد فُسِّر التبتّل بمعنى: الانقطاع. وللانقطاع إليه سبحانه وتعالىٰ عدّة معاني، أو عدّة مراتب ودرجات:

الأولى: الانقطاع إليه في الخوف والأمل والرجاء، فلا يخاف إلّا الله، ولا يأمّل إلّا إيّاه، ولا يرجو أحداً غيره.

ويدلّ علىٰ ضرورة ذلك العقل قبل النقل؛ ذلك لعلمنا بأنّه لا مؤثّر في الوجود إلّا الله، وأنّ العالم أجمع جلوة من جلواته، وأنّ ما نراه من الأسباب والمسبَّبات والعلل والمعلولات إن هي إلّا تحت قبضة الله وإرادته، فلو رأينا شجرة نبتت بالإعجاز دفعة واحدة في قفرٍ يابسٍ، ورأينا ـ أيضاً ـ في جانب آخر بستاناً مليئاً بالأشجار والفواكه والأوراد والغلّات علىٰ أثر الغرس والزرع والسقي قد نتعجب من الأوّل، ولا نتعجب من الثاني، ولكن إذا تأمّلنا لرأينا أنّ نسبة الخالق تعالىٰ إليهما علىٰ حدٍّ سواءٍ، ودلالة كلِّ شجر أو نبت علىٰ وجود الله الواحد الأحد كدلالة

---

(١) السورة ٧٣، المزّمّل، الآيات: ١ ـ ٨.

الآخر من دون فرق بين ما سبق وجودَه عدد ممّا تعوّدنا عليه من العلل كالغرس والسقي، وما لم يسبق وجودَه ذلك، عدا تعوّدنا علىٰ الأوّل دون الثاني.

ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

برگ درختان سبز در نظر هوشيار

هر ورقش دفترى است قدرت پروردگار

وأيّ إنسان تفترض أنّه يعطف عليك فإنّما قلبه بين إصبعي الرحمن. وأيّ طعام يضرّك أو ينفعك لا يفعل ذلك إلّا بإذن الله.

وأمّا النقل فممّا يدلّ علىٰ ذلك الحديث المرويّ عن الإمام الصادقعليه‌السلام، عن بعض الكتب السماوية: «... وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي علىٰ عرشي لأُقطّعنّ أمل كلِّ مؤمّل غيري باليأس، ولأكسونّه ثوب المذلّة عند الناس، ولأُنحّينّه من قربي، ولأُبعّدنّه من فضلي، أيُؤمّل غيري في الشدائد والشدائد بيدي؟! ويرجو غيري، ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب؟! وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني، فمن ذا الذي أمّلني لنوائبه فقطّعته دونها؟! ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه منّي؟! جعلت آمال عبادي عندي محفوظة، فلم يرضوا بحفظي وملأت سماواتي ممّن لا يملّ من تسبيحي، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي. ألم يعلم مَنْ طرقته نائبة من نوائبي أنّه لا يملك كشفها أحد غيري، إلّا من بعد إذني، فمالي أراه لاهياً عنّي، أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثمّ انتزعته عنه فلم يسألني ردّه، وسأل غيري، أفيراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة، ثمّ أُسأل فلا أُجيب سائلي؟! أبخيل أنا فيبخّلني عبدي أو ليس الجود والكرم لي أو ليس العفو والرحمة بيدي أو ليس أنا محلّ الآمال؟! فمن يقطعها دوني؟! أفلا يخشىٰ المؤمّلون أن يؤمّلوا غيري؟! فلو أنّ اهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً، ثمّ أعطيت كلَّ واحدمنهم مثل ما أمّل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرّة، وكيف ينقص ملكٌ أنا قيّمه، فيا بؤساً للقانطين

من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني، ولم يراقبني»[١].

وطبعاً ليس تطرّق الأسباب الظاهرية ملوماً عندالشرع، بل مأمور به، ولكن فرق بين تطرّقها اعتماداً عليها، وتطرّقها اعتماداً وتوكّلاً علىٰ بارئها، وشتّان ما بين الروحيتين. وفي كثير من الناس قد يدور الأمر بين حالتين، كلتاهما خاطئتان: إمّا إهمال الأسباب الظاهريّة والجلوس في البيت مثلاً من دون سعي من وراء كسب الرزق بحجة أنّ الله هو الرزّاق ذو القوة المتين، ولا سعي من وراء مداواة المرض؛ لأنَّ الله ـ تعالىٰ ـ هو الشافي، وما إلى ذلك؛ وإمّا الاعتماد والاتكاء القلبي علىٰ الأسباب الظاهريّة غفلة عن أنّ مسبّب الأسباب هو الله تعالىٰ. وكلتا الحالتين غير صحيحة. والصحيح هو: السعي وراء الأسباب الظاهرية مع حصر التوكّل والاعتماد في مسبّب الأسباب وهو الله تعالىٰ. وتحصيل مقام كهذا من أصعب الأُمور.

نعم، لعلَّه يتّفق لأولياء الله الكمّل أحياناً التعفّف عن السعي وراء الأسباب الظاهريّة، بل حتّىٰ عن الدعاء لله اكتفاءً بعلم الله ـ سبحانه ـ ورضاً بقدره، إلّا أنّ أمثال هذه الأُمور إن كانت فإنّما هي حالات، وليست أُموراً ثابتة وقارّة. وممّا ينقل من مثل هذه الحالات ما عن سيّدنا إبراهيم علىٰ نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام: من أنَّه لمّا رُمي به إلى النار تلقّاه جبرئيل في الهواء، فقال: «... هل لك من حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل. فاستقبله ميكائيل فقال: إن أردتَ أخمدتُ النار فإنَّ خزائن الأمطار والمياه بيدي، فقال: لا أُريد. وأتاه ملك الريح فقال: لو شئتَ طيّرتُ النار، قال: لا أُريد. فقال جبرئيل فاسأل الله! فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي»[٢].

---

(١) أُصول الكافي ٢ / ٦٦، كتاب الإيمان والكفر، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه، الحديث ٧.

(٢) البحار ٧١ / ١٥٦. ويمكن توجيه الرواية بأن جبرئيل وميكائيل وملك الريح لم يكونوا من الأسباب الظاهرية الماديّة التي أُمرنا في هذه الدنيا الماديّة بالاستعانة بها في ظاهر الحال في ←

والثانية: أن يكون هدفه لقاء الله ورضوانه، لا الدنيا ولا الجنّة، فمن كان يريد من الله الدنيا فهو منقطع إلى الدنيا لا إلى الله، ومن كان يريد من الله الجنّة بمعناها المادِّي فحسب، فهو منقطع إلى الجنّة لا إلى الله. وقد اشتهر عن الحسين عليه السلام أنّـه كان يقول في آخر لحظة:

تركت الخلقَ طرّاً في هواكا وأيتمتُ العيالَ لكي أراكـا
فلو قطّعتني في الحبّ إربـاً لما مالَ الفؤادُ إلىٰ سـواكـا

والثالثة: أن ينسىٰ كلّ شيء من نفسه وما عداه، إلّا الله تـعالىٰ، ويـذوب فـيه ويفنىٰ، ويراه وحده ولا يرىٰ الجمع. وطبعاً هذا يكون في حالات خاصّة كحالة العبادة كما أشارت إليه الآية الشريفة ضمن تهجّد الليل، بقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[1]، وإلّا فليس المفروض بالسالك الواصل إلى الله أن يـغفل دائماً عن الجمع، بل المفروض سهولة بقائه بالله في الجمع، وإن كان يرىٰ الجمع ـ أيضاً ـ تجلّياً من تجلّيات الله سبحانه وتعالىٰ. وأقوىٰ مـقامات العـارفين فـي التبتّل والانقطاع بهذا المعنى الثالث هو: أن يصبح قادراً علىٰ الرجوع إلى عـالم التبتّل في أيّ لحظة أراد، وعارفاً طريقة الرجوع إلى الجمع ـ أيضاً ـ في أيّة لحظة، أو قل: أن يكون باقياً بالله في الجمع وجامعاً بين عالمي التوحيد والجمع. أمّا ذاك الاضمحلال الذي يعني: الغفلة الفعليّة عن الجمع، فليس دائـميّاً، ولكـنّه يكـون باختياره في أيّة ساعة، فإن كنّا عاجزين عن ذلك فلابدّ لنا ـ فـي الأقـلّ ـ مـن تحصيل هكذا حالة في ساعات العبادة أو في بعضها ـ في أقلّ تـقدير ـ كسـاعة التهجّد في جوف الليل.

←

دائرة نظم الطبيعة بل هم جميعاً من الأسباب خارج الطبيعة فلم لا يكتفي إبراهيم عليه السلام بالله من دون توسيطها؟!

(١) السورة ٧٣، المزّمل، الآية: ٨.

الفصل الخامس عشر

الرجاء

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1].

ورد في تفسير عليّ بن إبراهيم[2] بسند صحيح عن عبدالرحمن بن الحجاج، عن الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «... إن آخر عبد يؤمر به إلى النار فإذا أُمر به التفت، فيقول الجبّار: ردّوه، فيردّونه، فيقول له: لم التفتّ فيقول: يا ربّي لم يكن ظنّي بك هذا، فيقول: وما كان ظنّك بيّ؟ فيقول: يا ربّ كان ظنّي بك أن تغفر لي خطيئتي، وتسكنني جنّتك، قال: فيقول الجبّار: يا ملائكتي لا وعزّتي وجلالي وآلائي وعلويّ وارتفاع مكاني ما ظنّ بي عبدي ساعة من خير قط، ولو ظنّ بي ساعة من خير ما روّعته بالنار، أجيزوا له كذبه، فأدخلوه الجنّة، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس من عبد يظنّ بالله خيراً إلّا كان عند ظنّه به، وذلك قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾»[3].

قال بعض العرفاء المنحرفين عن خطّ أهل البيت عليهم السلام: «الرجاء أضعف منازل

---

(١) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٥٣.

(٢) تفسير القمّي ٢ / ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٣) السورة ٤١، فصّلت، الآية: ٢٣.

المريدين؛ لأنّه معارضة من وجه، واعتراض من وجه، وهو وقوع في الرعونة في مذهب هذه الطائفة، إلّا ما فيه من فائدة واحدة، ولها نَطَقَ باسمه التنزيل والسُنّة، ودخل في مسالك المحققين، وتلك الفائدة هي: كونه يفثأ حرارة الخوف حتّىٰ لا تعدو إلى الأياس»[١].

ويقصد بذلك: أنّ الرجاء يكون من ناحية معارضةً للربّ تعالىٰ؛ لأنّ العبد يريد من الله الجنّة مثلاً، في حين أنّ المولىٰ المالك لرقّه قد يريد له النار، فعارض إرادة الله بإرادة أُخرى في مقابلها. ويكون من ناحية أُخرى اعتراضاً علىٰ الله؛ لأنّه يقول له: يا ربّ أنت غنيّ عن عذاب عبادك، فعليك أن تعفو عنهم، فلماذا تعذّب. وهذا كلُّه يعني: وقوع العبد في الرعونة، أي: الوقوف مع حظوظ النفس لا مع ما يريده المولى تعالىٰ، إلّا أنّه مع ذلك أصبح الرجاء مطلوباً في الكتاب والسنّة، ومسلكاً من مسالك المحقّقين لما فيه من مداواة ما قد ينجم من الخوف لولم يقابل بالرجاء، وهو الانتهاء إلى اليأس.

أقول: لا أعرف كيف فرض العيبين في صدر كلامه في الرجاء، في حين أنّ الرجاء لا يعني إرادة رحمة الرب ولو علىٰ خلاف إرادة الرب، أي: فيما لو كانت إرادته هي الغضب، بل يعني: الأمل في أن تكون إرادة الربّ هي الرحمة، وذلك علىٰ مستوىٰ الأمل لا علىٰ مستوىٰ الاعتراض. فالعبد المؤمن مسلّم للعذاب لو أراد الله عذابه، ولكن أحد أسباب رجائه للرحمة وعدم العذاب علمه بأنّ عذابه لن يزيد في مُلك الله تعالىٰ. وهذا غير جعل ذلك إشكالاً واعتراضاً علىٰ الله.

ولنعم التعبير الوارد عن إمامنا موسىٰ بن جعفر سلام الله عليه في محراب عبادته: «... إن تعذّبني فإنّي لذلك أهل، وهو يا ربّ منك عدل، وإن تعف عنّي

---

(١) منازل السائرين قسم الأبواب، باب الرجاء طبق نسخة شرح منازل السائرين للكاشاني: ٥٧ ـ ٥٨.

فقديماً شملني عفوك...» إلى أن يقول عليه السلام: «وليس عذابي ممّا يزيد في ملكك مثقال ذرّة، ولو أنّ عذابي ممّا يزيد في مُلكك لسألتك الصبر عليه، وأحببت أن يكون ذلك لك، ولكن سلطانك اللّهم أعظم، وملكك أدوم من أن تزيد فيه طاعة المطيعين، أو تنقص منه معصية المذنبين فارحمني يا أرحم الراحمين، وتجاوز عنّي يا ذا الجلال والإكرام، وتب عليّ إنّك أنت التّواب الرحيم»[1].

هذه هي لهجة إمامنا موسىٰ بن جعفر عليه السلام في بيان الرجاء، وأين هي عن لهجة الاعتراض؟! لكن أنّىٰ لمن انحرف عن خطّ أهل البيت أن يدرك حقيقة العرفان؟!! ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾.

وكذلك ممّا يبعث بالرجاء علمنا بأنّ في عذابنا سرور عدوّ الله، وفي إدخالنا الجنّة سرور نبيّ الله، كما ورد عن سيّد العارفين وزين العابدين إمامنا السجّاد عليه السلام قوله: «... إلهي إن أدخلتني النار ففي ذلك سرور عدوّك، وإن أدخلتني الجنّة ففي ذلك سرور نبيّك، وأنا والله أعلم أنَّ سرور نبيّك أحبّ إليك من سرور عدوّك...»[2].

علىٰ أنّ المقصود بالرجاء هو: الرجاء الباعث إلى العمل لما يرجوه الراجي (وهذا ليس معارضة لإرادة الربّ، ولا اعتراضاً عليه) لا الرجاء الباعث إلى ترك المبالاة وعدم السعي فيما يرجوه. فعن ابن أبي نجران، عن الصادق عليه السلام قال: «قلت له: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو، فلا يزالون كذلك حتّىٰ يأتيهم الموت، فقال: هؤلاء قوم يترجّحون في الأمانيّ، كذبوا ليسوا براجين، من رجا

---

(١) راجع حاشية مفاتيح الجنان طبعة طاهر خوشنويس: ٥٩٢ ـ ٥٩٤.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه»[(١)] .

فالعبد إذا بثّ بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، ورجىٰ الربّ تعالىٰ، كان هذا رجاءً حقيقياً محموداً. وكذلك لو كان منهمكاً في المعاصي، ثُمّ أقبل علىٰ التوبة راجياً قبولها من الربّ، كان ذلك رجاءً حقيقياً محموداً. أمّا من ينهمك في المعاصي بحجة الرجاء فهو مشمول لقوله تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ...﴾[(٢)] .

وإن شئت مثلاً عرفياً لما قلناه مثّلنا لك بمن يملك تربة صالحة للزرع ولاستثمارها في شتّىٰ الأثمار والغلّات والورود والنّعم، فزرع فيها، وسقاها، وحافظ علىٰ نظافتها، وعلىٰ إيصال نورالشمس إليها وما إلى ذلك، وقال: إنّني أرجو هذه التربة الصالحة أن تنفعني كذا وكذا من النّعم الإلهيّة، فأنت ترىٰ أنّ هذا رجاء معقول ومقبول. أمّا لو ضيّع التربة، وسيّبها، ولم يعتن بها، وذلك بترك الزرع، أو بترك السقي، أو بسائر أنحاء التسييب والإضاعة ثمّ قال: أنا أرجو من هذه التربة الصالحة أن تنفعني، لرأيت أن هذا ليس رجاءً، بل هو سفهٌ وخبال. والآية المباركة التي بدأنا بها الحديث يبدو أنّها ظاهرة في نفس المعنىٰ، وأنّ قوله: ﴿... لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ لا يقصد الوعد بالغفران، بلا سببٍ صالح من قبل العبد، بل يقصد الغفران بسبب التوبة (ولذا لم يستثن حتّىٰ الشرك). والشاهد علىٰ أنّ المقصود هو الغفران بالتوبة: الآيات اللاحقة لها، وهي قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[(٣)] .

---

(١) الوسائل ١٥ / ١٦، الباب ١٣ من جهاد النفس، الحديث ٢. وقد مضىٰ هذا الحديث في فصل الخوف.

(٢) السورة ٧، الأعراف، الآية: ١٦٩.

(٣) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٥٤.

وما ذكرناه من أنّ الراجي إنّما هو من يعمل لما يرجوه واضح في رجاء الجنّة والمغفرة، وأوضح في رجاء رضا الربّ، وأوضح منهما في رجاء لقاء الرب بالمعنىٰ الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١) وفي مقابل المعنىٰ الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(٢).

وأختم الحديث بهذه الأبيات الطريفة:

وما في الخلق أشقىٰ من محبٍّ　　　وإنْ وجدَ الهوىٰ حلوَ المذاقِ
تراه باكياً في كلِّ حينٍ　　　مخافةَ فرقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم　　　ويبكي إن دنوْا خوفَ الفراقِ(٣)

وأمّا ما ذكره من أنّ الرجاء يمنع من المفسدة التي قد تترتب علىٰ الخوف فهو صحيح، كما مضىٰ منّا بيانه في فصل الخوف.

---

(١) السورة ٧٥، القيامة، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) السورة ٨٣، المطففين، الآية: ١٥.

(٣) شرح منازل السائرين للكاشاني: ٥٩.

الفصل السادس عشر
الحــــرمــــة

قيل: لمّا انفتحت أبواب الغيب علىٰ العبد بـإشراق نـور الحـقّ عـلىٰ القـلب وانعكاسه إلى النفس علىٰ أثر العمل بنتائج أبحاث البدايات، ثُمّ أبحاث الأبواب، اطّلع القلب علىٰ الحضرة الإلهيّة بانفتاح عين البصيرة، وتمرّنت النفس بالطاعة، فكأنّ القلب يأخذ في المعاملة مع الحقّ لقوّة اليقين وظهور آثار الأُنس بـطلوع أنوار القدس[1] فمن هنا إلى الفصل الحادي والعشرين قد تسمّى بقسم المعاملات ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

قال الله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[3].

وقال عزّوجلّ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ...﴾[4].

وقال عزّ اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ

---

(١) راجع شرح منازل السائرين للكاشاني: ٦١.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ١١١.

(٣) السورة ٢٢، الحج، الآية: ٣٢.

(٤) السورة ٢٢، الحج، الآية: ٣٠.

اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾(٣).

قد يلتزم العبد بترك المخالفة لله في ساعات عدم توافر المغريات الملحّة علىٰ المخالفة، كإنسان مستغن عن الزنا بما لديه من زوجة أو زوجات، فيترك الزنا، أو مستغن عن السرقة بما لديه من الرفاه الاقتصادي، فلا يقترب من السرقة، أو ما شابه ذلك. وهذا له شيء من الفضيلة، فقد توقّىٰ ـ علىٰ أيّة حال ـ النار، بل حصل ـ أيضاً ـ علىٰ شيء من الثواب، لكن هذا ليس هو الذي قدر الله حقَّ قدره، أو عظّم شعائر الله، أو عظّم حرمات الله. فالعبد ينبغي له أن يكون تعامله مع مولاه تعامل المعظّم والمقدّر لمولاه حقّ قدره. وهذا له درجتان:

الأُولىٰ: تعظيمه لثواب الله وعقابه بحيث حتّىٰ لو اشتدّت المغريات إلىٰ الشهوات النفسانيّة والملذّات المحرّمة يتركها طمعاً بالثواب وخوفاً من العقاب علىٰ أساس أنّهم والجنّة كمن رآها فهم فيها منعّمون، وأنّهم والنار كمن رآها فهم فيها معذّبون. فمن تكون هذه حالته فمن الطبيعي أنّ كثرة المغريات لا تفعل في

---

(١) السورة ٢٢، الحج، الآيتان: ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٦٧.

(٣) السورة ٧١، نوح، الآيات: ١٣ ـ ٢٠.

نفسه شيئاً.

والثانية: أن يكون معظّماً لرضا الله سبحانه وتعالىٰ ومتهيّباً من سخطه، فالمهمّ عنده ليس الثواب والعقاب المادّيين، بل رضا الله سبحانه وسخطه. ومنطق أصحاب هذا المقام هو: انّنا لو عملنا لأجل الثواب ففي الحقيقة قد عملنا لأنفسنا لا لله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنّنا لم نعمل إلّا بروح التجارة والأُجرة، ولو عملنا خوفاً من العقاب فقد عملنا ـ أيضاً ـ لأنفسنا، فالعمل حقّاً لله لا يكون إلّا بالعمل لمرضاته بغضّ النظر عن الطمع في الثواب أو الخوف من العقاب. وعليه، فتعظيم شعائر الله، أو تقدير الله حقَّ قدره، أو تعظيم حدوده لا يكون إلّا بطلب رضاه والتجنّب عن سخطه بما هو رضاه وسخطه، لا بما هو مقدّمة للثواب والعقاب.

ومطلوبية رضا الله مستقلّاً لا تعني سلب مطلوبية الجنّة، أو نفي الخوف من العقاب (حتّىٰ يقال: إنّ حبّ اللذائذ النفسانية أو بغض الآلام النفسية من لوازم ذات الإنسان، ولا ينفكّ عن الإنسان ما لم يبدّل إلى مخلوق آخر) وإنّما تعني: أنّه حتّىٰ لولا الثواب والعقاب لكان يكفي في التزام هذا العبد الخالص في العبودية كون المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أهلاً للعبودية، أو قلْ: حبّه لله تعالى.

وممّا روي عن مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التّجار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[١].

وكذلك روي عنه أنّه عليه السلام قال: «ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، لكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك...»[٢].

وحكي عن الأصمعي: أنّه رأىٰ ببعض السواحل جماعة من الفقراء يبكون،

---

(١) نهج البلاغة: ٧٠٢، رقم الحكمة: ٢٣٧.

(٢) البحار ٧٠ / ١٨٦.

وفيهم شاب يضحك، فسأله عن حاله وحالهم فأنشأ يقول:

إنّهم عبدوك[١] من خوفِ نارٍ ويروْنَ الثوابَ فضلاً جزيلاً
أو لأن يسكنوا الجنان فيُسقوا من عيونٍ رياضُها سلسبيلاً
ليس لي في الجنان يا قوم رأيٌ أنا لا أبتغي لحبّي بديلا

قلت: يا فتىٰ ما هذا التجرّئ علىٰ حبيبك، وما حيلتك إن طردك؟! فأنشأ:

أنا إن لم أجدْ من الحبِّ وصلا رمت في النار منزلاً ومقيلا
ثُمّ أزعجت أهلَها بندائي بكرةً في حميمها وأصيلا
معشرَ المشركين نوحوا عليَّ أنا عبدٌ أُحبُّ مولىً جليلا
لم أكن في الذي ادّعيت محقّاً فجزائي به العذاب طويلا[٢]

أقول: لاحظ كيف تورّط صاحب هذا الكلام العرفاني في الخلط بين فرض الحبّ وفرض كذبه في الحبّ، وقايس بين هذا العرفان المنحرف عن خط أهل البيت والعرفان الكامن في الكلمة المنقولة عن إمامنا زين العابدين عليه السلام: «...لئن أدخلتني النار لأُخبرنّ أهل النار بحبّي لك...»[٣] وأيضاً المرويّ في نفس الدعاء: «...إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللت علىٰ فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلىٰ النار، وحلت بيني وبين الأبرار، ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبّك من قلبي. أنا لا أنسىٰ أياديك عندي، وسترك عليّ في دار الدنيا...»[٤].

أمّا المثل الذي ورد في القرآن لتوضيح ضرورة أن نقدّر الله حقّ قدره، فهو مثل يوضّح تفاهة قدرة ما سوىٰ الله، وانحصار القدرة الحقيقيّة في الله تعالىٰ. وهو ما

---

(١) مقتضىٰ وزن الشعر أن يقول: (عابدوك).

(٢) راجع شرح منازل السائرين للكاشاني: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) و (٤) دعاء أبي حمزة.

مضىٰ في مستهلّ الحديث من الآيتين (٧٣ ـ ٧٤) من سورة الحج. ومورد نزول الآية وإن كان ـ في الأكثر ـ مشركي مكّة والذين ورد أنّهم كانوا يطْلون أصنامهم بالمسك والعنبر أو الزعفران والعسل، وكان الذباب يقع عليها ويسلب منها هـذه الأُمور، ولم يكونوا يقدرون علىٰ استنقاذ ما أخذوه، لكن قد يستظهر من الآيـة إرادة الإطلاق لكلِّ معبود صنميّ أو بشريّ أو غير ذلك، بل لكلِّ جبّار يـطاع أو قدرة يعتمد عليها منفصلاً عن الله تعالىٰ؛ وذلك بقرينة أنّ الخطاب في صدر الآية لم يوجّه إلى المشركين خاصّة، بل إلى جميع الناس؛ إذ قال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** وفي ذيل الآية أثبت القدرة والعزّة لله في مقابل الضعف الذي أوضحه في صدر الآية لغير الله.

وكذلك في الآية الأُخرىٰ وهي قوله: **﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾** جاء تعليل ضرورة رجاء الوقار لله تعالىٰ بالإشارة إلى ما يبدي قدرته الواسعة؛ إذ قال **﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾** والمخاطبون المباشرون في هذه الآية أيضاً ـ في أغلب الظنّ ـ هم مشركو قوم نوح، ولكن لا يبعد أن يكون مفاد الآية مطلقاً شاملاً لجميع النـاس، فالمشركون يطالَبون بأن يرجوا لله وقاراً ولو بمعنى ترك الشرك والإيـمان بـالله وبالتوحيد، والموحّدون يطالَبون بأن يرجوا لله وقاراً بمعنى: أن يقدّروا حقّ قدره، أو يعظّموا حرماته وشعائره بالمستويين اللذين مضت الإشارة إليهما.

والمقصود بقوله: **﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾** ـ في أغلب الظنّ ـ أحد معنيين أو كلاهما:

الأوّل: خلق الناس مختلفين في الأطوار: من اللهجات المـختلفة، أو الألوان المختلفة، أو الشُعور المختلف، أو العواطف المختلفة، أو الهيئات المختلفة، أو ما إلى ذلك من الاختلاف في الأطوار. وقد يشهد لهذا المعنىٰ قوله تـعالىٰ: **﴿وَمِـنْ**

آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(١).

والثاني: خلق كلّ إنسان في أطوار متبادلة خلقاً بعد خلق. وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(٢).

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

ثمّ إنّ المستوىٰ الثاني من تعظيم شعائر الله، أو حرماته، أو حدوده، أو تقدير الله حقَّ قدره، أو رجاء الوقار لله (وهو ما أشرنا إليه من كون المطلوب والمقصود للعبد رضا الله تعالىٰ وبغضّ النظر عن جنّة أو نار) ينقسم ـ أيضاً ـ في ذاته إلى مستويات ودرجات إلى أن يصل إلى المحو الكامل في ذات الله. ونموذجه ما هو مرويّ عن إمامنا أميرالمؤمنين عليه السلام من أنّه كان في صلاته يستغرق في الله إلى حدّ استخرج السهم من رجله في حال الصلاة فلم يلتفت(٤).

ولا تستغرب من ذلك، فلئن كان انمحاء صويحبات يوسف في جمال يوسف الذي ليس إلّا قطرة من بحر جمال الربّ تعالىٰ يؤدّي إلى أن يقطعن أيديهنّ من

---

(١) السورة ٣٠، الروم، الآية: ٢٢.

(٢) السورة ٢٣، المؤمنون، الآيات: ١٢ ـ ١٦.

(٣) السورة ٤٠، غافر، الآية: ٦٧.

(٤) راجع تفسير «نمونه» ٤ / ٤٢٨، وأنوار المواهب للشيخ النهاوندي: ١٦٠ والمحجة البيضاء للفيض الكاشاني ١ / ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

غير التفات، فلماذا نستغرب من انمحاء أولياء الله في ذات الله وفي جماله وجلاله إلى حدّ لا يحسّون بإخراج السهم من الجسد أو غير ذلك. قال الله تعالىٰ:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[١].

(١) السورة ١٢، يوسف، الآيات: ٣٠ ـ ٣٢.

الفصل السابع عشر
الإخـــــلاص

قال عزّ من قائل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[1].

والمخلِص (بكسر اللام) يعكس انتساب خلوص الفعل إلى العبد، أي: أنّه هو الذي أخلص الفعل من كلّ غاية سوىٰ الله. و (بالفتح) يعكس خلوص نفس الإنسان من كلّ رجاسة ونجاسة. فالأوّل مقدّمة للثاني، والثاني نتيجة الأوّل. والتعبير الثاني ـ أيضاً ـ وارد في عدد من الآيات وذلك من قبيل قوله تعالىٰ: ﴿... كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

وقوله تعالىٰ عن لسان إبليس: ﴿... لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[3].

وبما شرحناه تبيّن: أنّه يقرب إلى الذهن الفرق بين التعبير بالمخلِص (بكسر

---

(١) السورة ٣٩، الزمر، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) السورة ١٢، يوسف، الآية: ٢٤.

(٣) السورة ١٥، الحجر، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠، والسورة ٣٨، ص، الآيتان: ٨٢ ـ ٨٣.

اللام) والتعبير به (بفتح اللام) بأنّ الأوّل يصدق علىٰ العبد من بدايات سلوكه، والثاني يصدق في النهايات.

والإخلاص مع التضحية في سبيل الله هما سيّدا الأوصاف الفاضلة. وتوضيح ذلك: أنّ وزن كلٍّ عمل وقيمته عند الناس إنّما يكون بمقدار نتائجه الخارجيّة، فالخادم الذي يكون أكثر نتاجاً في خدمته خارجاً مثلاً يكون هو المقرّب عند صاحب العمل، والمقاتل الذي يكون أكثر نتاجاً في فتح البلاد يكون هو المقرّب لدى السلطان، وما إلى ذلك، وحتّىٰ بالنسبة للمؤمنين الذين يستأجرون أُناساً للخدمات الإسلاميّة يكون المقرَّب منهم أكثر ـ لدىٰ أُولئك المؤمنين ـ مَن ينتج خارجاً أكثر في خدمته الموكّلة إليه، كخدمة التبليغ مثلاً للإسلام أو أيّ خدمة أُخرىٰ، ولكنَّ الوزن والقيمة للأعمال لدىٰ الربّ سبحانه وتعالىٰ ليس بكثرة النتاج الخارجي، بل بمدىٰ الخلوص الباطني للعبد من ناحية، ومدىٰ تضحية العبد في عمله هذا من ناحية أُخرى وإن قلّت النتائج الخارجيّة، فربّ جنديٍّ ضعيفٍ قليل الإنتاج تحت راية زعيم حربٍ فاتحٍ عظيم يكون خيراً عندالله من ذاك الزعيم الفاتح؛ لكونه أكثر إخلاصاً، وأكثر تضحية منه. ومن هنا فُسّر قوله تعالىٰ: ﴿... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ...﴾[1] من قبل الإمام الصادق عليه السلام في حديث بقوله: «ليس يعني أكثر عملاً، ولكن أصوبكم عملاً. وإنّما الإصابة خشية الله، والنيّة الصادقة. ثمّ قال: الإبقاء علىٰ العمل حتّىٰ يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله عزّوجلّ...»[2].

وفُسِّر في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «أتمّكم عقلاً، وأشدّكم لله

---

(١) السورة ١١، هود، الآية: ٧، والسورة ٦٧، الملك، الآية: ٢.

(٢) تفسير البرهان ٢ / ٢٠٧، والكافي ٢ / ١٦.

خوفاً، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً، وإن كان أقلّكم تطوّعاً»[١].

وبكلمة أُخرىٰ: إنّ الإخلاص هو روح الأعمال جميعاً؛ لأنّ الله هو الكمال المطلق الذي مَنْ أراده وجده، ولم يتحوّل مقصوده إلى السراب، وذلك بخلاف مَنْ أراد غير الله، فإنّ أيَّ هدف آخر غير الله ناقصٌ، وبتكامل العبد يتّضح له نقصه، أو يصبح لدىٰ الوصول إليه سراباً، أو يلتفت لدىٰ نزع الروح أو بعد الموت إلى كونه سراباً.

وبكلمة ثالثة: إنّ الإخلاص هو سيّد الصفات الفاضلة؛ لأنّه يدعو إلى باقي الصفات؛ لأنّ الذي يخلص لله يريد ما أراده الله، والله قد أراد من عبده الصفات الفاضلة.

وأقلُّ درجات الإخلاص اللازم أن تكون عبادته خالصة لله بالمعنىٰ الفقهي من الخلوص الذي لا ينافي كون الهدف الأخير الداعي له إلى هدف امتثال أمر الله عبارةً عن الوصول إلى الجنّة أو الفرار من النار، أو أيَّ هدف آخر دنيوي أو أُخروي، وأن يترك العبد المناهي علىٰ الإطلاق.

وأقوىٰ درجاته أن يكون إخلاصه في كلِّ شيء، لا في خصوص العبادات بالمعنى المصطلح الفقهي، وأن يكون إخلاصه بمعنى: أن يكون هدفه محضاً هو الله تعالىٰ ورضوانه، لا جنته أو الهرب من ناره، وإن كانت تلك أهدافاً جانبية وحاصلة ضمناً بلطف الله وكرمه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ

---

(١) تفسير «نمونه» ٤٤ / ٣١٧.

لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ * أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ...﴾[1].

وفي تفسير هذه الآيات اتّجاهان[2] بيانهما ـ بتكميل أو تنقيح منّي ـ ما يلي:

١ ـ أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خطاباً للذين ذكروا فيما قبل هذه الآية من أصحاب جهنّم، فقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع يشمل جميع أهل الجنّة، وعندئذٍ يناسب أن يكون المقصود بالرزق المعلوم في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾: إجمالاً عن التفصيل الذي جاء بعد ذلك في قوله: ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ...﴾ إلى آخر الآيات التي تبيّن نعماً مادّيّةً مزيّنةً بنعم معنويّةٍ مفهومةٍ لعامّة الناس وذلك من قبيل كونهم مكرمين أو غير ذلك. فإذن كأنّ الملحوظ في ذلك أدنىٰ درجات الجنّة؛ لأنّه الذي يتصوّر ثبوته لتمام أهل الجنّة.

٢ ـ أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خطاباً لتمام الناس من المؤمنين والمجرمين، فقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء متّصل. وقد رجّحنا فيما سبق أن يقصد بالمخلَصين (بالفتح): الذين هم في نهايات مستويات الإيمان، وهم الذين أخلصوا أنفسهم لله، أو أخلصهم الله ـ تعالىٰ ـ لنفسه من كلّ شائبة أو درَن. فكأنّ الآية تقول ـ والله العالم ـ: إنّ النعم المادّيّة والمزيّنة بنعم معنويةٍ قابلةٍ للتصوّر ولو مختصراً لعامّة الناس إنّما تعتبر جزاءً للأعمال الحسنة أو تجسّماً لها، وكذلك العذاب يعتبر جزاءً للأعمال السيّئة أو تجسّماً لها (علىٰ

---

(١) السورة ٣٧، الصافات، الآيات: ٣٩ ـ ٦٢.

(٢) راجع تفسير «نمونه» ١٩ / ٥١ مع ما قبله وما بعده.

المسلكين المعروفين من مسلك تجسّم الأعمال أو عدمه). وأمّا المخلَصون فلا يكفي بشأنهم جزاء أعمالهم، وليسوا هم من الذين عملوا للجزاء، بل عملوا لذات الله سبحانه وتعالىٰ، فهم يُعامَلون معاملة تختلف عن معاملة الأجير، فجزاؤهم خارج عن حيطة أعمالهم، وهو فضل خاصّ من الله لهم، وكأنّما يعاملهم الله ابتداءً لذواتهم الذائبة في الله لا لأعمالهم، فجزاؤهم الأوفىٰ يكون جزاءً معنوياً محضاً: من لقاء الله، والالتذاذ بجمال الله بالمعنى الممكن، وغير ذلك ممّا لا يمكن لعامة الناس تصوّره، فعندئذٍ يناسب أن يقال: إنّ قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ ليس إجمالاً للتفصيل الآتي في تتمّة الآيات، بل إشارة إجماليّة إلى تلك النعم المعنوية التي لا يمكن توضيحها لمن لم يُرزَقها بعدُ، ثُمّ جاءت تتمة الآيات لتوضّح أنّ هؤلاء المخلَصين ـ أيضاً ـ ليسوا محرومين من تلك النعم المادّية، بل هي لهم ـ أيضاً ـ كما للآخرين، ويزيدون علىٰ الآخرين بتلك النعم المعنوية التي هي فوق تصوراتنا في هذه الدنيا، وذلك لأنّ المخلَصين هم ـ علىٰ أيّ حال ـ بشر، والبشرُ بذاته يملك الجسد الذي هو أمر مادّي، كما يملك الروح التي تعالت إلى مستوىٰ الخلوص لله، فكما يُكرَم بروحه العالية الراقية مرقاة الخلوص كذلك يكرم بالإكرامات المادية المناسبة لجانبه المادي، وهو جسده الذي هو مركوب لروحه، تماماً من قبيل ما لو دخل شخص عزيز راكباً فرسه علىٰ ملك كريم، فذلك الملك يكرم الشخص في غرفته الخاصة بما يناسب عزّته ومقامه، ويكرم مركوبه ـ أيضاً ـ وهو الفرس في الإصطبل الخاص به بالعلف المناسب له.

والقرآن الكريم قد تكرّرت منه التعابير الإجماليّة عن نعم أُخروية غامضة إلى صفّ تعابيره التفصيلية المفهومة، ويحتمل أن تكون تلك التعابير المجملة جميعاً إشارة إلى ما ذكرناه من النعم المعنوية التي هي فوق تصوّراتنا، والتي لم يكن يمكن شرحها وتوضيحها لنا، وذلك من قبيل قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ...﴾[١].

٢ ـ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٢].

يا ترىٰ ما هو المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ هل المقصود الدخول في محشر العباد الذي يضمّ جميع الناس دخولاً مكانياً وجسدياً ضمن سائر البشر المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[٣] أو بقوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ...﴾ أوَليس هذا الدخول أمراً واقعاً بوضوح وغير مخصوص بالنفس المطمئنة؟! فالذي يقرب للذهن أنّ المقصود هو: الدخول في عباد الله المخلَصين بمعنىٰ الانحساب منهم ووقوعه في صفوفهم.

ثُمّ يا تُرى ما معنىٰ ﴿ادْخُلِي جَنَّتِي﴾ أوليست الجنان كلُّها جنان الله سبحانه وتعالىٰ؟ فأيّ جنّة هذه التي أضافها الله تعالىٰ إلى نفسه؟!! أفلا تحدس معي أنّ هذه جنّة الفوز بلقاء الله بالمعنىٰ المعقول من لقاء الله وجنّة الرضوان ورضوان من الله أكبر، وأنّها إشارة إلى تلك النِّعم المعنوية التي هي فوق تصوّراتنا، والتي يكون الالتذاذ بها فوق جميع الالتذاذات علىٰ الإطلاق.

٣ ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٤] فإذا كان لهم ما يشاؤون (ومن الطبيعي أن يشاؤوا كلَّ ما رأت عين أو سمعت أُذن أو خطر علىٰ قلب بشر) فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أليس هذا إشارة اجماليّة إلى ما لم يكن يمكن

---

(١) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ١٧.

(٢) السورة ٨٩، الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.

(٣) السورة ١٨، الكهف، الآية: ٤٧.

(٤) السورة ٥٠، ق، الآية: ٣٥.

شرحه وتفصيله أو بيانه وتوضيحه؟!

أمّا ما أشرنا إليه من أنّ الآيات المباركات ذكرت نعماً مادية مزينة بنعم معنوية يدركها أهل الدنيا ولو في صورة مصغّرة، فقد قصدنا بتلك النّعم المعنوية ما يلي:

١ ـ هم مكرَمون، ففرق بين أن يُنعَم علىٰ أحد بالفواكه والمأكولات الشهية والمشروبات اللذيذة من دون حالة الاحترام والإجلال والإكبار، وأن يُنعم علىٰ أحد بتلك النّعم مقترنةً بتلك الحالة، ولا يقاس الالتذاذ في الفرض الثاني به في الفرض الأوّل.

٢ ـ الجلسة الإخوانية علىٰ سرر متقابلين، ولا يخفىٰ علىٰ أحد أنّ التفكّه الإخواني في مجلس من هذا النمط التذاذه أشدّ من أصل الالتذاذ بالماديات الموجودة في المجلس.

٣ ـ اطّلاعهم علىٰ أهل الجحيم والعذاب الموجود فيه، فالله يعلم ما يتداخلهم من السرور نتيجة المقايسة والتقابل بين ما هم فيه من النّعم العظيمة التي لا تتناهىٰ، وعذاب الكفّار الذي لا يتناهىٰ.

ولتوضيح الكلام أكثر ممّا مضىٰ في درجات الإخلاص نقول: إنّه يمكن أن يذكر للإخلاص في العمل درجات:

الدرجة الأُولىٰ: هو الإخلاص بالمعنىٰ الذي يكون فقهياً مصححاً للعبادة، وتوضيح الأمر: أنّه لا شكّ فقهيّاً في اشتراط العبادة بالقربة، ومن هنا يقع الإشكال فيمن يأتي ببعض العبادات لهدف قضاء حاجة دنيوية: من شفاء مرض، أو دفع عدوّ، أو رفع فقر، أو ما إلى ذلك؛ إذ يقال: إنّ الهدف من هذه العبادة لم يكن هو التقرّب إلى الله، بل كان هو قضاء الحاجات، بل إنّ الإشكال يتّسع أكثر من ذلك ليشمل عبادة كلٍّ من يعبد الله التماساً لثواب الآخرة أو هرباً من عذاب الله، ولم تكن عبادته عبادة الأحرار الذين يعبدون الله لكونه أهلاً للعبادة، وهذا يعني:

بطلان عبادة جميع العبّاد ما عدا النادر من المؤمنين كالمعصومين عليهم السلام ومن قارب العصمة.

إلّا أنّ هذا الإشكال له حلّ على مستوى الفقه، وهو ما يقال من أنّ العبادة إنّما تصدر عن المؤمن غير المرائي امتثالاً لأمر الله أو للتقرب إليه، إلّا أنّ الذي دعاه إلى هذا التقرب أو إلى هذا الامتثال هو الوصول إلى حاجته الدنيوية أو الأُخروية، فبرغم أنّ الهدف النهائي كان عبارة عن تلك الحاجة إلّا أنّ تلك الحاجة صارت من قبيل الداعي إلى الداعي، والداعي الثاني الطولي هو داع القربة، وهذا كافٍ في تصحيح العبادة فقهياً.

الدرجة الثانية: أن يكون هدف العامل هو الله سبحانه وتعالى، إلّا أنّ له هدفاً جانبياً أيضاً، وهو: قضاء الحاجة أو الثواب الأُخروي أو النجاة من النار. ولا شكَّ أنّ هذه الدرجة خير من الدرجة الأُولى، إلّا أنّه قد يفترض هذا ـ أيضاً ـ ناقصاً نتيجة عدم تمحضه في ذات الله.

الدرجة الثالثة: أن يكون هدفه ـ أيضاً ـ هو الله سبحانه وتحصيل رضاه، ولكن يسهم مع هذا الهدف في الغاية التذاذه برضوان الله وبالتقرب إليه أو الوصول إليه، لا الثواب أو نفي العقاب أو قضاء الحاجة.

الدرجة الرابعة: أن يكون الهدف محضاً هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ من دون أيّ نظر ولو جانبي: لا إلى حاجة دنيوية، ولا إلى الثواب والعقاب، ولا إلى التذاذه بعبادة الله وتحصيل رضوانه، أو قربه، أو الوصول إليه؛ وذلك لأنّه قد نسي ذاته، وقطع من نفسه جذور حبِّ الذات، فانحصر ما في نفسه في حبِّ الله تعالى.

إلّا أنّ هناك اتّجاهاً يقول باستحالة انقطاع حبِّ الذات من النفس، إلّا بتبدّل هوية الإنسان وحقيقته؛ لأنّ حبّ الذات ذاتيٌ للإنسان[1]. والنقل شاهد لهذا

---

(١) راجع فلسفتنا: ٣٥ ـ ٣٦.

الرأي الأخير، لأنّ المعصومين عليهم السلام على رغم بلوغهم مستوىٰ عبادة الأحرار وكون غايتهم القصوىٰ رضوان الله والتقرب إليه والذوب فيه والوصول إليه وفناءهم في ذات الله تعالىٰ وفي حبّه، نرىٰ أنّ الأدعية الكثيرة الواردة عنهم عليهم السلام واضحة في طلب الجنّة وما فيها من النِّعم المادية، وطلب الابتعاد من النار. وحملها جميعاً علىٰ التصنّع المحض؛ لغرض تعليمنا نحن الذين لم نصل إلى تلك المستويات، في غاية الصعوبة والإشكال.

وعليه، فمنتهىٰ درجات الإخلاص أو ما قد يُسمّىٰ بالتهذيب ليس هو تهذيب النفس عن شائبة حبّ الثواب أو حبّ الالتذاذ؛ فإنّ هذا الحبّ ذاتي للإنسان، و نقصُ الإنسان المانع عن الوصول الحقيقي إلى الله أي: إلى كنه ذاته ـ أيضاً ـ ذاتيٌّ للممكن، بل منتهىٰ درجات التهذيب أو الإخلاص هو: أن يصل إلى مستوىٰ كفاية حبّ الله مُحرِّكاً له إلى ما أراده الله، أي: إنّه لولا الثواب والعقاب لكان يتحرّك ـ أيضاً ـ نحو ما يريده الله؛ وعلامة ذلك أنّ الإنسان لن يحسّ ـ عندئذٍ ـ بالفتور والكسل في الطاعة أو بحالة الإكراه عليها؛ لأنّ رضا الله رضاه، وحبّه حبّه، فيفعل ما يفعل بكلِّ طواعية ورغبة لا كرهاً لخوف العقاب أو لتحصيل الثواب. والنقطة المقابلة تماماً لذلك هم المنافقون الذين قال الله ـ تعالىٰ ـ عنهم:

﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ ...﴾[١].

وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿... وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[٢] وفيما بين هاتين النقطتين المتقابلتين متوسّطات كثيرة.

وإن شئت نموذجاً للإخلاص الكامل ولما شرحناه: من أنّ الإخلاص الكامل

---

(١) السورة ٤، النساء، الآيتان: ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ٥٤.

لا يعني عدم الالتفات إلى الثواب والعقاب، فانظر إلى رواية أبي الدرداء، وإليك نصّها: ورد عن عروة بن الزبير قال:

«كنّا جلوساً في مجلس في مسجد رسول الله ﷺ فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم ألا أُخبركم بأقلّ القوم مالاً، وأكثرهم ورعاً، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟ قالوا: مَنْ؟ قال: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلّا معرض عنه بوجهه. ثُمّ انتدب له رجل من الأنصار فقال له: يا عويمر لقد تكلّمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها، فقال أبو الدرداء: يا قوم إنّي قائل ما رأيت، وليقل كلّ قوم منكم ما رأوا: شهدت عليَّ بن أبي طالب بشويحطات النجّار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفىٰ ممّن يليه، واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته، وبعد عليّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجيّ وهو يقول: إلهي كم من موبقة حَلِمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرّمت عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعَظُمَ في الصحف ذنبي، فما أنا بمؤمّل غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك. فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاستترت له، وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثُمّ فرغ إلى الدعاء والبكاء والبثّ والشكوى، فكان ممّا به الله ناجاه أن قال: إلهي أُفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثُمّ أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليّتي، ثُمّ قال: آه إن أنا قرأت في الصحف سيّئة أنا ناسيها وأنت محصيها فتقول: خذوه، فياله من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملأ إذا أُذن فيه بالنداء، ثُمّ قال: آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزّاعة للشوى[1]

---

(١) (بفتح الشين) جمع شُواء بضمّه، وهي: جلدة الرأس، وقيل: الآخر من اليد والرجل وغيرهما. مجمع البحرين ١ / ٢٥٣.

آه من غمرة من ملهبات لظىٰ، قال: ثُمّ أنعم في البكاء فلم أسمع له حسّاً ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر أُوقظه لصلاة الفجر، قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته فلم يتحرّك، وزويته فلم ينزو، فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون مات والله عليّ بن أبي طالب، قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمةعليها‌السلام: يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه ومن قِصّته؟ فأخبرتها الخبر، فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله ثُمّ أتوه بماء، فنضحوه علىٰ وجهه فأفاق، فنظر إليّ وأنا أبكي، فقال: ممّ بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فقلت: ممّا أراه تنزله بنفسك، فقال: يا أبا الدرداء فكيف ولو رأيتني ودُعي بي إلىٰ الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبّار قد أسلمني الأحبّاء، ورحمني أهل الدنيا، لكنت أشدّ رحمة لي بين يدي من لا تخفىٰ عليه خافية، فقال أبو الدرداء: فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله»[١].

نختم حديثنا عن الإخلاص بذكر بعض روايات الباب:

١ ـ عن داود بن سليمان، عن الرضاعليه‌السلام، عن آبائهعليهم‌السلام قال: «قال أمير المؤمنينعليه‌السلام: الدنيا كلّها جهل إلّا مواضع العلم، والعلمُ كلّه حجّة إلّا ما عمل به، والعمل كلّه رياء إلّا ما كان مخلصاً، والإخلاص علىٰ خطر حتّىٰ ينظر العبد بما يُختم له»[٢].

٢ ـ عن دارم، عن الرضاعليه‌السلام عن آبائهعليهم‌السلام قال: «قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ما أخلص عبد لله ـ عزّوجلّ ـ أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه»[٣].

---

(١) البحار ٤١ / ١١ ـ ١٢.

(٢) المصدر السابق ٧٠ / ٢٤٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

والمقصود بإخلاص العبد: إمّا هو إخلاصه لعمله لله فيصبح هو مخلصاً (بكسر اللام)، أو هو إخلاص نفسه لله فيصبح مخلَصاً (بالفتح)، ولا يبعد إرادة كلتا الدرجتين، بل كلّ الدرجات بأنّ يقال: كلّ درجة من الإخلاص لو دامت أربعين صباحاً أوجبت انفجار ينبوع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه بما يناسب تلك الدرجة.

٣ـ روي أنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله إنّا نعطي أموالنا التماس الذكر، فهل لنا من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: لا. قال: يا رسول الله! إنّا نعطي التماس الأجر والذكر، فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: إنّ الله ـ تعالىٰ ـ لا يقبل إلّا من أخلص له، ثُمّ تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: **﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ...﴾**»(١).

٤ـ وهذه الرواية تجسّد مثلاً رائعاً عن إخلاص سيّد العارفين وأميرالمؤمنين عليّ عليه الصلاة والسلام، وهي ما يلي: «لمّا أدرك عمرو بن عبدودّ لم يضربه، فوقعوا في عليٍّ فردّ عنه حذيفة، فقال النبيّ ﷺ: مه يا حذيفة، فإنّ عليّاً سيذكر سبب وقفته، ثُمّ إنّه ضربه، فلما جاء سأله النبيّ ﷺ عن ذلك، فقال: قد كان شتم أُمّي، وتفل في وجهي، فخشيت أن أضربه لحظّ نفسي، فتركته حتّىٰ سكن ما بي، ثُمَّ قتلته في الله»(٢).

ولا يبعد أن يكون هذا المستوىٰ من الإخلاص هو العامل المهمّ، أو أحد العوامل المهمّة في فرض رجحان ضربة عليّ عليه السلام على أعمال أُمّة رسول الله ﷺ جميعاً، فقد رُوِي عن النبيّ ﷺ أنّه قال لعليّ عليه السلام: «... أبشر يا عليّ، فلو وزن اليوم عملك بعمل أُمّة محمّد ﷺ لرجح عملك بعملهم»(٣).

وورد بسند سُنّي أنّه قال رسول الله ﷺ: «لمبارزة عليّ بن أبي طالب لعمرو بن

(١) تفسير «نمونه» ١٩ / ٣٦٥، والآية: ٣ في السورة ٣٩، الزمر.

(٢) البحار ٤١ / ٥٠ ـ ٥١.

(٣) المصدر السابق ٢٠ / ٢٠٥.

عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال أُمّتي إلى يوم القيامة»[١].

٥ ـ عن مصباح الشريعة عن الصادقعليه‌السلام: «... وأدنى حدّ الإخلاص بذل العبد طاقته، ثُمّ لا يجعل لعمله عند الله قدراً، فيوجب به علىٰ ربّه مكافأة بعمله لعلمه أنّه لو طالبه بوفاء حقّ العبوديّة لعجز. وأدنىٰ مقام المخلص في الدنيا السلامة من جميع الآثام، وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنّة»[٢].

٦ ـ عن الحسن بن عليّ الزكيعليه‌السلام أنّه قال: «لو جَعَلت الدنيا كلّها لقمة واحدة، ولقّمتها من يعبد الله خالصاً لرأيت أنّي مقصّر في حقّه، ولو منعت الكافر منها حتّىٰ يموت جوعاً وعطشاً ثُمّ أذقته شربة من الماء لرأيت أنّي قد أسرفت»[٣].

٧ ـ عن رجل، عن معاذ بن جبل قال: قلت: حدّثني بحديث سمعته عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله حفظته وذكرته في كلّ يوم من دقّة ما حدّثك به، قال: نعم، وبكىٰ معاذ، فقلت: اسكت، فسكت، ثُمّ نادىٰ: بأبي وأُمّي حدّثني وأنا رديفه، قال: «فبينا نسير إذ يرفع بصره إلىٰ السماء فقال: الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما أحبّ. قال: يا معاذ، قلت: لبّيك يا رسول الله إمام الخير ونبيّ الرحمة، فقال: أُحدّثك ما حدّث نبيّ أُمّته إن حفظته نفعك عيشك، وإن سمعته ولم تحفظه انقطعت حجّتك عند الله.

ثُمّ قال: إنّ الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات، فجعل في كلّ سماء ملكاً قد جلّلها بعظمته، وجعل علىٰ كلّ باب منها ملكاً بوّاباً، فتكتب الحفظة عمل العبد من حين يصبح إلىٰ حين يمسي، ثُمّ يرتفع الحفظة بعمله، له نور كنور الشمس حتّىٰ إذا بلغ سماء الدنيا فيزكّيه ويكثره، فيقول له ملك سماء الدنيا: قف، فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الغيبة، فمن اغتاب لا أدع عمله يجاوزني إلى

---

(١) المصدر السابق ٢٠ / ٢٠٥ تحت الخط نقلاً عن الحاكم في المستدرك.

(٢) المصدر السابق ٧٠ / ٢٤٥.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

غيري، أمرني بذلك ربّي.

قال: ثُمّ يجيء من الغد ومعه عمل صالح، فيمرّ به ويزكّيه ويكثره حتّىٰ يبلغ السماء الثانية، فيقول الملك الذي في السماء الثانية: قف، فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه، إنّما أراد بهذا العمل غرض الدنيا [أظنّ أنّ الصحيح عرض] أنا صاحب الدنيا، لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: ثُمّ يصعد بعمل العبد مبتهجاً بصدقة وصلاة، فتعجب الحفظة، ويجاوزه إلى السماء الثالثة، فيقول الملك: قف، فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه وظهره، أنا ملك صاحب الكبر، فيقول: إنّه عمل وتكبّر فيه علىٰ الناس في مجالسهم، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كالكوكب الدرّي في السماء، له دويّ بالتسبيح والصوم والحجّ، فيمرّ به إلى ملك السماء الرابعة، فيقول له: قف، فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه وبطنه، أنا ملك العُجْب، فإنّه كان يعجب بنفسه، وإنّه عمل وأدخل نفسه العجب، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري، واضرب به وجه صاحبه.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد كالعروس المزفوفة إلى أهلها، فيمرّ به إلى ملك السماء الخامسة بالجهاد والصلاة ما بين الصلاتين، ولذلك رنين كرنين الإبل، عليه ضوء كضوء الشمس، فيقول الملك: قف، أنا ملك الحسد، فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه، وتحمّله علىٰ عاتقه [أنّه كان يحسد من يتعلّم، ويعمل لله بطاعته، فإذا رأىٰ لأحد فضلاً في العمل والعبادة حسده ووقع فيه، فيحمله علىٰ عاتقه] ويلعنه عمله.

قال: وتصعد الحفظة، فيمرّ بهم إلى ملك السماء السادسة، فيقول الملك: قف، أنا صاحب الرحمة اضرب بهذا العمل وجه صاحبه، واطمس عينيه؛ لأنّ صاحبه لم يرحم شيئاً إذا أصاب عبداً من عباد الله له ذنب للآخرة أو ضرّ في الدنيا يشمت به،

أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

وقال: وتصعد الحفظة بعمل العبد أعمالاً بفقه واجتهاد وورع، له صوت كالرعد، وضوء كضوء البرق، ومعه ثلاثة آلاف ملك، فيمرّ بهم إلى ملك السماء السابعة فيقول الملك: قف، واضرب بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الحجاب أحجب كلّ عمل ليس لله، إنّه أراد رفعة عند القوّاد، وذكراً في المجالس، وصوتاً في المدائن، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ما لم يكن خالصاً.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به من خُلُق حسن وصمت وذكر كثير تشيّعه ملائكة السماوات السبعة بجماعتهم، فيطؤون الحجب كلّها حتّىٰ يقوموا بين يديه، فيشهدوا له بعمل صالح ودعاء، فيقول الله: أنتم حفظة عمل عبدي، وأنا رقيب علىٰ ما نفسه عليه، لم يردني بهذا العمل عليه لعنتي، فيقول الملائكة: عليه لعنتك ولعنتنا.

قال: ثُمّ بكى معاذ، وقال: قلت: يا رسول الله ما أعمل؟ قال: اقتدِ بنبيّك يا معاذ في اليقين، قال: قلت: إنّك أنت رسول الله وأنا معاذ بن جبل، قال: وإن كان في عملك تقصير يا معاذ فاقطع لسانك عن إخوانك وعن حملة القرآن، ولتكن ذنوبك عليك لا تحملها علىٰ إخوانك ولا تزكّ نفسك بتذميم إخوانك، ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك، ولا تراءِ بعملك، ولا تدخل من الدنيا في الآخرة، ولا تفحّش في مجلسك؛ لكي يحذروك بسوء خلقك، ولا تناج مع رجل وعندك آخر، ولا تتعظّم علىٰ الناس فيقطع عنك خيرات الدنيا، ولا تمزّق الناس فتمزّقك كلاب أهل النار، قال الله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾[1] أتدري ما الناشطات؟ كلاب أهل النار تنشط اللحم والعظم، قلت: من يطيق هذه الخصال؟ قال: يا معاذ أما إنّه يسير علىٰ من يسّر الله عليه» قال: وما رأيت معاذاً يكثر من تلاوة القرآن كما يكثر تلاوة هذا

---

(١) السورة ٧٩، النازعات، الآية: ٢.

الحديث[١].

٨ـ عن ابن رئاب عن الصادق عليه السلام قال: «من أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فهو ممّن يكمل إيمانه»[٢].

٩ـ وعنه عليه السلام قال: «من أوثق عرىٰ الإيمان أن تحبّ لله، وتبغض لله، وتعطي في الله، وتمنع في الله»[٣].

١٠ ـ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «إنّ أولىٰ الناس أن يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتّىٰ استشهدت، قال: كذبت، ولكنّك قاتلت ليقال: جريء، فقد قيل ذلك. ثُمّ أُمر به، فسُحب علىٰ وجهه حتّىٰ أُلقي في النار. ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن قال: كذبت، ولكنّك تعلّمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ القرآن، فقد قيل. ثُمّ أُمر به، فسحب علىٰ وجهه حتّىٰ أُلقي في النار»[٤].

١١ ـ وقال صلى الله عليه وآله: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوىٰ: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى أمر الدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٥].

١٢ ـ وقال صلى الله عليه وآله: «إنّما يبعث الناس علىٰ نيّاتهم»[٦].

١٣ ـ وقال صلى الله عليه وآله مخبراً عن جبرئيل عن الله عزّوجلّ أنّه قال: «الإخلاص سرّ

---

(١) البحار ٧٠ / ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البحار ٧٠ / ٢٤٩.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي»[١].

١٤ ـ وعن أبي جعفر الجوادعليه السلام قال: «أفضل العبادة الإخلاص»[٢].

١٥ ـ وعن الصادقعليه السلام قال: «ما أنعم الله ـ عزّوجلّ ـ علىٰ عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله ـ عزّوجلّ ـ غيره»[٣].

١٦ ـ وعن سيّدة النساء صلوات الله عليها قالت: «من أصعد إلى الله خالص عبادته أهبط الله ـ عزّوجلّ ـ إليه أفضل مصلحته»[٤].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

الفصل الثامن عشر
التوكّل

قال الله عزّوجلّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَد جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[1].

روي عن معاوية بن وهب، عن الصادقعليه السلام[2] قال: «من أعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً: من أُعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، ومن أُعطي التوكّل أُعطي الكفاية. ثمّ قال: أتلوت كتاب الله عزّوجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ...﴾[3] وقال: ﴿... لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ...﴾[4] وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...﴾[5].

ورد في عرفان بعض العرفاء المنحرفين عن خطّ أهل البيتعليهم السلام: أنّ التوكّل كلة الأمر كلّه إلىٰ مالكه والتعويل علىٰ وكالته. وهو من أصعب منازل العامّة عليهم، وأوهىٰ السبل عند الخاصّة: أمّا كونه من أصعب منازل العامّة عليهم فلأنّهم غائصون في الأسباب الظاهريّة والماديّة، ومنهمكون في ذواتهم، وغافلون عن

---

(١) السورة ٦٥، الطلاق، الآية ٢ ـ ٣.

(٢) أُصول الكافي ٢ / ٦٥، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، الحديث ٦.

(٣) السورة ٦٥، الطلاق، الآية: ٣.

(٤) السورة ١٤، إبراهيم، الآية: ٧.

(٥) السورة ٤٠، غافر، الآية: ٦٠.

المؤثّر الحقيقي الواحد الأحد، فمن الصعب عليهم أن يوكّلوا الله سبحانه في أُمورهم ويعتمدوا عليه، لا علىٰ أنفسهم، ولا علىٰ ما يحسّون به من الأسباب. وأمّا كونه أوهىٰ السبل لدىٰ الخاصّة فلعلمهم بأنّ الحقَّ ـ تعالىٰ ـ قد وكلّ الأُمور كلَّها إلىٰ نفسه، وأيأس العالم من ملك شيء منها. وأشرف الناس وأكملهم وهو الرسول ﷺ، مُخاطَب بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ فكيف بأدونهم وأضعفهم، فإذا لم تكن أُمورهم بأيديهم وكان الملك بأسره له، فأيّ شيء يكلونه إلى الله ويسلّمونه إليه؟! وفي أيّ شيء يجعلونه وكيلاً لهم؟! فكان التوكّل أضعف السبل عندهم.

ثُمّ قال: التوكّل علىٰ ثلاث درجات كلّها تسير مسير العامّة:

الدرجة الأُولى: التوكّل مع الطلب والسعي من وراء الأسباب، فبرغم أنّ التوكّل يقتضي بذاته عدم الاهتمام بالأسباب، ولكنّه يريد أن يلهي نفسه بالأسباب وما لديه من صنعة، أو تجارة، أو عمل؛ كي يقع في طريق نفع الناس، ولينشغل بما هو خير، خشية أن لو بقي فارغاً قد تَطلُب نفسه طرق الهوىٰ، علىٰ أنّه لو اكتفىٰ بالتوكّل وكفاه الله أُموره من دون سعي وراء الأسباب، قد يحسن ظنّ الناس به، فيحصل عنده العجب والدعوىٰ، ففي معاطاته للأسباب وتشبّهه بالعوام، الخلاص من هذه الأمراض.

والدرجة الثانية: التوكّل مع ترك الطلب وغضّ العين عن السبب: من صنعة، أو تجارة، أو ما إلى ذلك من الأُمور؛ وذلك اجتهاداً منه في تصحيح التوكّل؛ لأنّ من يسعىٰ من وراء الأسباب قد يكون غير واصل إلى مرتبة التوكّل، ولكنّه يتخيل الوصول إليها، أمّا إذا انقطع عن السبب وابتلىٰ بالفقر والعدم، فقد يتّضح له عدم تمامية مقام التوكّل عنده خصوصاً لدىٰ شدّة الجوع، فعليه أن يصحّح توكّله بانقطاعه عن الأسباب، هذا إضافة إلى أنّ تعلّقه بالأسباب الشريفة عند الناس: من

تجارة، ومهنة محترمة، قد يجعل النفس طالبة للتشرف بذلك، والتعزّز به، ولحفظ ماء الوجه، في حين أنّ تركه لهذه الأسباب يؤدّي إلى قمع تشرّف النفس وكسرها من ناحية، وإلى التفرّغ لحفظ واجبات الطريقة من ناحية أُخرى.

والدرجة الثالثة: هي التشبّه بالمتوكّلين، وليس صاحبها متوكّلاً في الحقيقة؛ وذلك لمعرفته لعلل التوكّل المؤدّية إلى خلاصه من تلك العلّة؛ وذلك لأنّه علم أنّ الملك خالص لله لا يشاركه أحد، وليس بيده شيء كي يكله إلى الله تعالىٰ. فهذا صاحب مقام فوق التوكّل، ولكنّه يشبه المتوكّل في قطع النظر عن الأسباب فقط[1]. انتهىٰ ملخصاً.

أقول: إنّ توهّم أنّ الالتفات إلى أنّنا لانملك شيئاً، وأنّ الملك كلّه لله لا يبقي مجالاً للتوكّل يجب أن ينشأ من أحد أمور، وكلّها باطل:

الأوّل: بيان أنّه لئن كان كلُّ شيء ملكاً لله فما معنىٰ توكيله في أمر ما؟! فإنّ الموكّل إنّما يتّخذ الوكيل فيما يملكه هو لا فيما يملكه موكّله.

والجواب: أنّ هذا إنّما يبطل التوكّل بمعنىٰ التوكيل الذي اعتبر في الفقه عقداً من العقود، أمّا إذا قُصِدَ به مجرّد الاعتماد عليه فلا يأتي فيه هذا البيان. ويمكن أن يُسمّىٰ ذلك بالتوكيل الفقهي، ولكن مجازاً باعتبار الملكية المجازية التي فرضها الله لنا في الأُمور.

والثاني: بيان أنّ العبد لا معنىٰ لإرادته لما في صالحه حتّىٰ يتوكّل في تحقيق ذلك علىٰ الله، بل المفروض بالعبد أن لا يريد إلّا ما أراده الله.

والجواب: أنّ أصل حبِّ الذات وحبِّ المصلحة أمر ذاتيّ للإنسان، وفرضُ انفكاكه عنه خيالٌ طوبائي كما مرّت الإشارة إليه، نعم، له أن يفدي بذلك في سبيل

---

(١) راجع منازل السائرين باب التوكّل من قسم المعاملات وشرحه للكاشاني: ٧٥ ـ ٧٧ وشرحه الآخر للتلمساني: ١٩٧ ـ ٢٠١.

ما يريده الله، لكنّه يبقىٰ تمنّي أن يكون ما يريده الله مطابقاً لمصلحته ـ كما هو الواقع ـ وفي ذلك يتوكّل علىٰ الله.

والثالث : بيان أنّ العبد لا يملك اختياراً؛ لأنّ أفعاله وتروكه تُنسب إلىٰ الله مباشرة، أو أنّه مجبور في الاختيار، فهو علىٰ أيّ حال لا يستطيع أن يفعل شيئاً من تلقاء نفسه حتّىٰ يتوكّل في ذلك علىٰ الله، وإنّما الفاعل المطلق هو الله، وهو مفاد التوحيد في الفعل.

فإن كان هذا هو المقصود قلنا : إنّ أساس هذا التوهّم هو : الغفلة عمّا أسماه أئمّتنا سلام الله عليهم بأمر بين الأمرين، والغافلون عن ذلك يكونون بين قائِل بالجبر ومنكر للاختيار وبين قائل بالجبر علىٰ الاختيار، وهو في روحه عين الجبر، ولا يصحّ معه ثواب ولا عقاب. أمّا علىٰ مسلك الشيعة ـ أعزّهم الله ـ التابعين لأئمّتهم القائلين بالاختيار الذي هو أمر بين الأمرين، فقد بقي للعبد شيء، وهو : الاختيار وإن كان ما في هذا الشيء من السلطة والقدرة مفوّضاً إليه من الله آناً فآناً، وهو أحد معاني الأمر بين الأمرين، وإذا بقي له الاختيار بقي المجال الواسع للتوكّل والتوكيل. وشرح ذلك من زاوية التحليل العقلي يُطلب من حديثنا في باب الطلب والإرادة في علم الأُصول، ولكنّني أذكر هنا عدداً من الروايات المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام :

الأولى : صحيحة يونس بن عبدالرحمن عن غير واحد، عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قالا : «إنّ الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه علىٰ الذنوب ثُمّ يعذّبهم عليها. والله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون. قال : فسئلا عليهما السلام هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة؟ قالا : نعم، أوسع ممّا بين السماء والأرض»[١].

---

(١) الكافي ١ / ١٥٩ كتاب التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، الحديث ٩.

←

أقول: ما نتصوّره: أن يكون مقصوداً لهﷺ، ويكون أوسع ممّا بين السماء والأرض هو أحد أمرين وكلاهما صحيح:

الأوّل : أنّ الله زوّد البشر بكلّ الطاقات التي يأتي بها الفعل أو يتركه، وزوّده بالقدرة والسلطان، ويفيض عليه في كلّ آن وجوده وطاقاته وقدرته وسلطانه، ثُمّ العبد هو الذي يُعمل سلطانه الذي زوّده الله به وأفاضه عليه حتّىٰ في ساعة الفعل أو الترك ـ يُعمِله ـ في جانب الفعل أو الترك.

والثاني : ما مضت الإشارة إليه في آخر النقطة الرابعة من الحلقة الأُولىٰ من هذا الكتاب من: أنّ فعل العبد مستند بتبع نفس العبد إلى الله سبحانه بالإضافة الإشراقيّة وذلك لا ينافي الاختيار.

والثانية : أيضاً عن يونس، عن عدّة، عن أبي عبداللهﷺ قال: «قال له رجل: جعلت فداك، أجبر الله العباد علىٰ المعاصي ؟ فقال: الله أعدل من أن يجبرهم علىٰ المعاصي ثُمّ يعذّبهم عليها. فقال له: جعلت فداك، ففوّض الله إلى العباد؟ قال: فقال: لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي، فقال له: جعلت فداك، فبينهما منزلة؟ قال: فقال: نعم، أوسع ما بين السماء والأرض»[١].

والثالثة : ما روي عن سهل بن زياد وإسحاق بن محمّد وغيرهما رفعوه، قال: «كان أميرالمؤمنينﷺ جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفّين إذ أقبل شيخ فجثا بين يديه، ثُمّ قال له: يا أميرالمؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟

←

والمقصود بالقدر في هذا الحديث هو: التفويض لا الجبر، فإنّ القدرية استعملت تارة في المجبّرة وأُخرىٰ في المفوّضة. راجع مرآة العقول ٢ / ١٧٨ و ١٩٢.

(١) المصدر السابق: الحديث ١١.

فقال أميرالمؤمنينعليه‌السلام: أجل يا شيخ، ما علوتم تلعة، ولا هبطتم بطن واد إلّا بقضاء من الله وقدر.

فقال له الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أميرالمؤمنين؟

فقال له: مَهْ يا شيخ! فوالله لقد عظَّم الله الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليه مضطرين.

فقال له الشيخ: وكيف لم نكن في شيء من حالاتنا مكرهين ولا إليه مضطرين، وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟!

فقال له: وتظنّ أنّه كان قضاءً حتماً وقدراً لازماً؟ إنّه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر من الله، وسقط معنىٰ الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمذنب، ولا محمدة للمحسن، ولكان المذنب أولىٰ بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولىٰ بالعقوبة من المذنب. تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان، وخصماء الرحمان، وحزب الشيطان، وقدرية هذه الأُمّة ومجوسها.

إن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ كلّف تخييراً، ونهىٰ تحذيراً، وأعطى علىٰ القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يملّك مفوّضاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً. ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. فأنشأ الشيخ يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يومَ النجاةِ من الرحمنِ غفرانا
أوضحتَ من أمرنا ما كانَ ملتبساً ... جزاك ربُّك بالإحسان إحسانا»[(١)]

والرابعة: حديث الوشّا عن أبي الحسن الرضاعليه‌السلام قال: «سألته، فقلت: الله فوّض الأمر إلى العباد؟ قال: الله أعزّ من ذلك. قلت: فجبرهم علىٰ المعاصي؟ قال: الله

(١) المصدر السابق: ص ١٥٥ ـ ١٥٦، الحديث ١.

أعدل وأحكم من ذلك. قال: ثُمّ قال: قال الله: يابن آدم أنا أولىٰ بحسناتك منك، وأنت أولىٰ بسيّئاتك منّي. عملت المعاصي بقوّتي التي جعلتها فيك»[١].

انظر إلى هذه الرواية الطريفة كيف تشير إلى إفاضة القدرة من الله وانتساب الفعل إلى العبد، وتقول عن لسان الله تعالىٰ: «يابن آدم أنا أولىٰ بحسناتك منك»؛ لأنّ قدرتك عليها منّي. «وأنت أولىٰ بسيّئاتك منّي»؛ لأنّ قدرتك التي أخذتها منّي صرفتها فيما هو مبغوض لي بحسب عالم التشريع.

والخامسة: الرواية المرويّة عن جعفر الصادقعليه السلام أنّه قال لقدريّ: «اقرأ الفاتحة، فقرأ، فلمّا بلغ قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[٢]. قال له جعفرعليه السلام: علىٰ ماذا تستعين بالله وعندك أنّ الفعل منك، وجميع ما يتعلّق بالأقدار والتمكين والألطاف قد حصلت وتمّت؟! فانقطع القدريّ»[٣].

أمّا ما قاله صاحب منازل السائرين من: أنّ الدرجة الثانية للتوكّل تشتمل علىٰ ترك الأسباب طلباً للاجتهاد في التوكّل، فهذا كلام باطل؛ وذلك لأنّ الله تعالىٰ وإن كان هو المدبّر للأُمور ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[٤] وهو ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ...**﴾[٥].

إلّا أنّ تدبيره علىٰ نمطين:

أحدهما: تدبيره لما لا يعقل ولا يدرك ولا يريد ولا يختار كما في الجمادات والنباتات، فهو يدبّر أمرها أفضل تدبير من دون توسّط اختيار تلك الأُمور

---

(١) المصدر السابق: ص ١٥٧ الحديث ٣.

(٢) السورة ١، الحمد، الآية: ٥.

(٣) مرآة العقول: ٢ / ١٧٩.

(٤) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ٥.

(٥) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ٧.

للأسباب التي خلقها الله أو التي جعلها الله أسباباً؛ لأنّ تلك الأُمور لا اختيار لها. فالنباتات ـ مثلاً ـ التي لا حظّ لها من الاختيار، لا تختار لنفسها أسباب النموّ، وإنّما الله ـ تعالىٰ ـ يدبّر لها أسباب النموّ بشكل طبيعي كما في الغابات، أو بإلهام البشر للتعهّد بذلك كما في النباتات الأهليّة من دون جعل اختيارها إيّاها حلقة من حلقات تدبير أُمورها، بل وكذلك الحال في الطفل الذي لم يعطه الله حولاً ولا طولاً للدفاع عن نفسه، فتراه تعالىٰ يلهم أباه وأُمّه الدفاع عنه وتهيئة أسباب تنميته.

وثانيهما: تدبيره للوجودات التي خلق لها العقل والإرادة والقدرة والاختيار في الحدود التي زوّدها الله بهذه الأُمور، فتدبيره لها في تلك الحدود عبارة عن نفس تزويده إيّاها بهذه الأُمور وتهيئة الأسباب الطبيعيّة لها. فلو أنّ أحداً ترك أسباب بقاء الحياة من كسب أو أكل أو شرب أو ما إلى ذلك ثُمّ مات، لم يكن له القول بأنّ الله لم يدبّر أمري، أو أنّ التوكّل علىٰ الله لم يفدني بتقصير من الله. ولو أنّ أحداً استفاد من تلك الأسباب التي خلقها الله أو الآثار التي أودعها الله فيها، واستفاد ممّا زوّده الله به من عقل وعلم وقدرة ومشيئة وما إلى ذلك، لم يكن معنىٰ ذلك الخروج عن تدبير الله والدخول في تدبير نفسه. ولو أنّ أحداً قال: إنّي متّكل علىٰ الله وعلىٰ تدبيره لأُموري، فترك الاستفادة من طريقة تدبير الله تعالىٰ لأُموره، وهي: تهيئة الأسباب له، وتزويده بقدرة الكسب والعمل والصنعة والتجارة، لم يكن هذا توكّلاً، بل هذا خبال وجنون؛ فإنّ من يتوكّل علىٰ الله ينهج المنهج الذي عيّنه الله له في حصول التدبير معتمداً علىٰ الله لا علىٰ ذلك المنهج، فإنّ إبقاءه متمكّناً من ذاك المنهج وعدمه بيد الله، وإيصال ذاك المنهج إلى الهدف المقصود وعدمه بيد الله. فمن باب المثل نقول: نحن نعلم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو**

﴿الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[١] ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[٢] ونحن نعلم ـ أيضاً ـ أن الشافي هو الله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٣] ولكن هذا لايعني: أنّني لو لم أسع في سبيل تحصيل الخبز أو لم أراجع الطبيب فبقيت جوعاناً أو مريضاً، أنتظر ـ عندئذٍ ـ أن يطعمني أو يشفيني، فإنّ إطعامه إيّاي عبارة عن إقداره لي علىٰ كسب الخبز، كي اكسب الخبز وآكله، وشفاؤه لي عبارة عن إقداري علىٰ مراجعة الطبيب، وتحصيل الدواء، وجعله للشفاء في ذاك الدواء.

وهذا الذي قلناه يتمّ حتّىٰ علىٰ المبنىٰ الفاسد القائل بأنّنا مجبورون علىٰ الاختيار، أو المبنىٰ الفاسد القائل بالجبر الصريح. فعلى كلٍّ حال يكون المتوكّل في تناول الأسباب اختياراً أو جبراً معتمداً علىٰ الله، لا علىٰ الأسباب التي يكون الله ـ تعالىٰ ـ قادراً علىٰ خرقها. ولنذكر لك بعض الشواهد علىٰ المقصود من الروايات المروية عن أهل بيت العصمة عليهم السلام:

١ ـ عن الصادق عليه السلام: «ليس منّا من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه»[٤].

٢ ـ عن معلّىٰ بن خنيس قال: «سئل أبو عبدالله عليه السلام عن رجل وأنا عنده، فقيل له: أصابته الحاجة. قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربّه. قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه. فقال أبو عبدالله عليه السلام: والله للّذي يقوته أشدّ عبادة منه»[٥].

٣ ـ ما ورد عن عمر بن يزيد بسند تام قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: رجل قال:

---

(١) السورة ٥١، الذاريات، الآية: ٥٨.

(٢) السورة ٢٦، الشعراء، الآية: ٧٩.

(٣) السورة ٢٦، الشعراء، الآية: ٨٠.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٣ / ٩٤، الباب ٥٨، الحديث ٣، ورقم التسلسل العامّ للحديث ٣٥٥.

(٥) الكافي ٥ / ٧٨، كتاب المعيشة، باب الحث علىٰ الطلب والتعرض للرزق، الحديث ٤.

لأقعدنّ في بيتي، ولأُصلّينّ، ولأصومنّ، ولأعبدنّ ربّي، فأمّا رزقي فسيأتيني، فقال أبو عبدالله عليه السلام: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم»[١].

٤ ـ ورد عن الوليد بن صبيح قال: «سمعته يقول: ثلاثة تردّ عليهم دعوتهم: رجل رزقه الله مالاً فأنفقه في غير وجهه، ثُمّ قال: يا ربّ ارزقني، فيقال له: ألم أرزقك. ورجل دعا علىٰ امرأته وهو لها ظالم، فيقال له: ألم أجعل أمرها بيدك. ورجل جلس في بيته وقال: يا ربّ ارزقني فيقال له: ألم أجعل لك السبيل إلى طلب الرزق؟!»[٢].

وبعد فقد اتّضح أنّ التوكّل معناه: الاعتماد علىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في تسيير الأُمور من دون منافاة ذلك لتعاطي الأسباب ولا مطلوبية عدم التعاطي، بل مع مطلوبية تعاطي الأسباب. ومن يدّعي التوكّل مع ترك الأسباب كان كمن يدّعي الرجاء مع ترك التوبة، وفعل المعاصي.

ومظاهر التوكّل أُمور أربعة:

أوّلاً: إنّ المتوكّل برغم تعاطيه للأسباب ليس اعتماده القلبي عليها، بل علىٰ مُسبِّب الأسباب القادر في أيّ لحظة علىٰ أن يحول بيننا وبين الأسباب، أو بين الأسباب وبين تأثيرها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ...﴾[٣] فكيف لا يحول بين المرء والأسباب، أو بين الأسباب وتأثيرها؟! ووجودنا ووجود الأسباب وتوصّلنا إلى الأسباب وإلى نتائج الأسباب كلّها بافاضة مستمرّة من الله

---

(١) المصدر السابق ١ / ٧٧.

(٢) الكافي ٢ / ٥١١، كتاب الدعاء، باب مَنْ لا تستجاب دعوته، الحديث ٣. وأمّا قوله: «وهو لها ظالم» فقد فسّره المجلسي رحمه الله بأنّه ظالم لها بدعائه عليها؛ لأنّه قادر علىٰ التخلص منها بوجه آخر. راجع مرآة العقول ١٢ / ١٧٦.

(٣) السورة ٨، الانفال، الآية: ٢٤.

لحظة فلحظة.

ثانياً: إنّ المتوكّل حقّ التوكّل يكون صاحب نفس مطمئنّة، أي: لا يشوبه قلق أو اضطراب إذا خانته الأسباب، أو أبطأت عن الانتاج أو انحرم هو من الأسباب، أو أبطأ حصوله عليها «... وَلَعَلَّ الَّذي أَبطَأَ عَنّي هوَ خَيرٌ لي لِعِلمِكَ بِعاقِبَةِ الأُمور...»[١]، ولعلَّ هذا أحد معاني الاطمئنان في قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * آرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾**[٢].

ثالثاً: إنّ المتوكّل علىٰ الله لا يتعاطى الأسباب المحرّمة؛ لأنّه إنّما يتعاطى الأسباب من باب أنّ الله أمرنا بتعاطيها، والله تعالىٰ لم يأمرنا بتعاطي الأسباب المحرّمة، فتركها لا يؤدّي إلى الحرمان من حصول النتيجة أو إبطائها إلّا إذا دخل في قوله: «... وَلَعَلَّ الَّذي أَبطَأَ عَنّي هوَ خَيرٌ لي...».

رابعاً: إنّ تعاطي الأسباب من قبل المتوكّل لا يكون علىٰ شكل الحرص واللهوث وتحميل النفس ما يزيد علىٰ طاقتها الاعتياديّة؛ لأنّ كلّ هذا غير مأمور به. وقد قلنا: إنّ المتوكّل إنّما يتعاطى الأسباب لأجل أنّ الشريعة أمرته بذلك.

---

(١) دعاء الافتتاح.

(٢) السورة ٨٩، الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.

الفصل التاسع عشر
التــفو يـــض

قال الله تعالىٰ نقلاً عن لسان مؤمن آل فرعون:

﴿... وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[1].

يمكن تفسير التفويض بعين معنىٰ التوكّل. ويمكن تفسيره بما هو فوق التوكّل؛ لأنّ التوكّل يعني: الاعتماد علىٰ الله أو توكيله فيما نريد. والتفويض يعني: إرجاع الأُمور إليه فيما هو يريد لا فيما نحن نريد، فنحن بين يديه كـالميّت بـين يـدي الغسّال.

---

(١) السورة ٤٠، غافر، الآية: ٤٤.

الفصل العشرون

الثــقـة

قال الله تعالىٰ: ﴿... فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(١).

قال أبو إسماعيل عبدالله الأنصاري: «الثقة سواد عين التوكّل، ونقطة دائرة التفويض، وسويداء قلب التسليم»(٢).

وحاصل هذا الكلام: أنّ الثقة نقطة محورية لتلك الأوصاف الثلاثة الأُخرىٰ.

وهذا كلام صحيح، ولولا الثقة بالله لما حصل شيء من تلك الصفات.

ثُمّ يقسم الثقة علىٰ ثلاث درجات، ولكنّنا حذفنا ذلك إيماناً منّا بعدم صحّة هذا التقسيم في كثير من الصفات التي قسّمها إلى الدرجات الثلاث.

---

(١) السورة ٢٨، القصص، الآية: ٧.

(٢) منازل السائرين، أبواب المعاملات، باب الثقة.



الفصل الواحد والعشرون
التسليم

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1].

وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[2].

وقال عزّوجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[3].

الظاهر: أنّ التسليم في الآية الأُولىٰ والثالثة عبارة عن التسليم في الأُمور التشريعية. والتسليم في الآية الثانية عبارة عن التسليم بصدق وعد الله ورسوله. ومن هنا يبدو أنّ مصطلح التسليم الذي يعتبر من إخوة التوكّل والتفويض غير وارد في القرآن الكريم.

ولو أردنا افتراض فرق بين التفويض والتسليم فلابدَّ أن يفترض أنّ التفويض يشتمل علىٰ الفناء في قدرة الله والاعتراف بالعجز، فالعبد ـ عندئذٍ ـ يبرأ من حوله

---

(١) السورة ٤، النساء، الآية: ٦٥.

(٢) السورة ٣٣، الأحزاب، الآية: ٢٢.

(٣) السورة ٣٣، الأحزاب، الآية: ٥٦.

وقوّته إلى حول الله وقوّته. وأمّا التسليم فيشتمل زائداً علىٰ ذلك علىٰ الفناء في علم الله والاعتراف بالجهل.

وعلىٰ أيّة حال، فقد قال بعض العرفاء المنحرفين عن خط اهل البيت عليهم السلام: إنّ الصفات الأربع الأخيرة أعني: التوكّل والتفويض والثقة والتسليم كلّها من الدرجات الرفيعة لعامة الناس. وأمّا الخاصّة فيتجاوزون هذه المقامات لما فيها من الاعتلال؛ لأنّها جميعاً مشتملة علىٰ نسبة الأشياء إلى غير الحقّ تعالىٰ جهلاً بحقائق الأُمور؛ إذ لولم تنتسب الأشياء إلى غير الحقّ ففي ماذا يتحقّق التوكّل أو التفويض أو الثقة أوالتسليم؟! إلّا أنّ التوكّل يشتمل زائداً علىٰ ذلك علىٰ نقطة ضعف أُخرىٰ، وهي: أنّ المتوكّل فرض مصالحَ لنفسه، فجعل الحقَّ وكيلاً عنه في تلك المصالح، فالتوكّل أدنىٰ مرتبة من التفويض؛ لأنّ علله أكثر منه، كما أنّ التفويض أدنىٰ مرتبة من التسليم؛ لأنّ التسليم يشتمل علىٰ الفناء في علم الله والاعتراف بالجهل، في حين أنّ التفويض غير مشتمل علىٰ ذلك، فالتسليم أقرب إلى التوحيد الذاتي[١].

أقول: قد اتّضح بطلان هذا الطرز من التفكير ممّا شرحناه في بحث التوكّل فلا نعيد.

ونضيف هنا: أنّ المقصود بالتوحيد الذاتي لو كان وحدة الوجود بالمعنى الذي ينكر الوجود المغاير لوجود الله للممكنات حتّىٰ بمعنى الوجود التبعي والتعلّقي وقد يُسمّىٰ بوحدة الموجود، فهذا ما أوضحنا بطلانه في محله، وليس هنا مجال بحثه.

---

(١) راجع شرح منازل السائرين للكاشاني: ٨٢ ـ ٨٣.

الفصل الثاني والعشرون
الصبر

من هنا إلى الفصل الثلاثين سُمِّي بالأخلاق، وقيل: الأخلاق مواريث المعاملات، فإنّ الأخلاق ملكات في النفس يصدر معها الأفعال من النفس محمودة بلا رويّة، فإذا تكرّرت المعاملات القلبية مع الله بالنيّات الصادقة ظهرت من دوام تكررها هيئات راسخة في النفس؛ لتنوّرها بنور القلب وصفائه الحاصل ببركة المعاملات، فيسهل عليه بسبب تلك الهيئات صدور الفضائل والخيرات عنها وسلوك الطريقة[1].

قال الله عزّوجلّ: **﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[2].

وقال عزّ من قائل: **﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**[3].

وقال عزّ اسمه: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا**

---

(١) شرح منازل السائرين للكاشاني، أبواب الأخلاق، باب الصبر: ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) السورة ١٦، النحل، الآية: ٩٦.

(٣) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ١٠.

إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[١].

وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

وقال عزّ وعلا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[٣].

وإليك بعض روايات الصبر:

١ ـ ورد في حديث صحيح السند عن فضيل بن يسار، عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»[٤].

ولعلَّ السرّ في افتراض الصبر رأساً للإيمان واضح:

فأوّلاً: الصبر علىٰ الطاعة وترك المعصية رأس الإيمان؛ لأنّ نفس الإنسان معجون خُلِقَ من شهوات وغرائز من ناحية، ومن العقل والحكمة من ناحية أُخرىٰ، فليس هو كالحيوان الذي لا يمتلك إلّا الشهوات، فلا يفترض بشأنه الصبر علىٰ مخالفتها أو تركها أو معاكستها، ولا هو كالملَك الذي لا يمتلك إلّا العقل والمعرفة، فليست له شهوة يفترض صبره في مقابلتها.

فالصبر يعني: تغليب جيش العقل علىٰ جيش الشهوة اللذَين هم مصطفّان للقتال في نفس المؤمن، فمن الطبيعي أن يكون الصبر هو رأس الإيمان.

وثانياً: الصبر علىٰ المصيبة، يعني: حفظ الهدوء في مقابل المصيبة بقدر انتسابها

---

(١) السورة ٢، البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٥٣.

(٣) السورة ٢، البقرة، الآية: ٤٥.

(٤) أُصول الكافي: ٢ / ٨٩، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، الحديث ٥.

إلى الله سبحانه، وإن كان لابدّ له من الدفاع عن نفسه ـ لو كان منتسباً إلى عدوّ له ـ بقدر انتسابها إلى العدوّ، بل ولابدّ له ـ أيضاً ـ من سلوك طريق العلاج في المصائب الإلّهية بقدر ما يسّر الله له من العلاج. فهذا كلّه لا ينافي الصبر في مقابل المصيبة بمعنى حفظ التوازن وعدم الخروج علىٰ الله بالجزع والشكوىٰ إلى غير الله. ومن الواضح: أنّ عدم الخروج علىٰ الله بذلك يعتبر رأس الإيمان. نعم، لا بأس بالشكوىٰ إلى الله تعالىٰ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

٢ـ ورد ـ أيضاً ـ بسند صحيح عن حمزة بن حمران، عن الباقر عليه السلام قال: «الجنّة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر علىٰ المكاره في الدنيا دخل الجنّة. وجهنّم محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذّتها وشهوتها دخل النار»[2].

وتفسير هذه الرواية واضح: فإنّ احتفاف الجنّة بالمكاره وجهنم باللذات هو الافتتان الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَيُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[3].

ولو كان العكس هو الواقع، أي: أنّ الجنّة كانت محفوفة باللذات، وجهنّم محفوفة بالمكاره لأصبح الناس كلُّهم مؤمنين.

٣ـ عن أبي سيّار، عن الصادق عليه السلام قال: «إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبرّ مظلّ عليه [وفي بعض النسخ مطلّ عليه] ويتنحّىٰ الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر

---

(١) السورة ١٢، يوسف، الآية: ٨٦.

(٢) أُصول الكافي ٢ / ٨٩ ـ ٩٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، الحديث ٧.

(٣) السورة ٢٩، العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣.

للصلاة والزكاة والبرّ: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه»[١].

ولعلّ هذا الحديث يؤكّد فكرة تجسّم الأعمال، أو أنّه تمثيل وتقريب إلى الذهن لتأثير المعنويّات والأعمال لو لم نقبل بمسلك تجسّم الأعمال.

٤ ـ عن عليّ عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر علىٰ الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر علىٰ المصيبة حتّىٰ يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض. ومن صبر علىٰ الطاعة كتب الله له ستّ مئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش. ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسع مئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش»[٢].

هذه الرواية قسّمت الصبر إلى ثلاثة أقسام: الصبر علىٰ المصيبة، والصبر علىٰ الطاعة، والصبر علىٰ ترك المعصية.

ولكن أكثر آيات الصبر التي أشرنا في مستهلّ الحديث إلى بعضها واردة في مورد الصبر علىٰ المصيبة وإن أمكن دعوى الإطلاق فيها، نعم، يمكن استثناء آيتي: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾.

وقد ورد تفسير الصبر في قوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ بالصوم[٣].

وكأنّ المقصود: التفسير بالفرد المناسب لمورد الآية باعتبار قرنه بالصلاة

---

(١) أُصول الكافي ٢ / ٩٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، الحديث ٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٩١، الحديث ١٥.

(٣) راجع تفسير البرهان ١ / ٩٤.

لا حصره بذلك. وكذلك ورد تفسيره بالصبر علىٰ ترك الحرام[١].

وعلىٰ أيّة حال، فالذي يُفهم من هذه الرواية: أنّ الصبر علىٰ الطاعة أفضل من الصبر علىٰ المصيبة، وأنّ الصبر علىٰ ترك المعصية أفضل من الصبر علىٰ الطاعة. وهذا أمر واضح الصحّة؛ فإنّ الصبر علىٰ الطاعة صبر علىٰ تكاليف الله تعالىٰ، فمن الطبيعي أن يكون أفضل من الصبر علىٰ المصائب المادية: من فقد مال أو ولد أو نحو ذلك. والمقصود بالصبر علىٰ الطاعة: الصبر علىٰ فعل الواجبات، في حين أنّ المقصود بالصبر علىٰ ترك المعصية: الصبر علىٰ مخالفة الشهوات النفسية وترك اللذائذ المحرّمة. ومن الطبيعي أنّ الثاني أصعب بكثير من الأوّل؛ ولهذا أصبح الصبر عن الثاني أفضل من الصبر علىٰ الأوّل. أمّا لو غضضنا النظر عن هذا التحديد فسيتّحد الصبر علىٰ الطاعة والصبر عن المعصية؛ لأنّ ترك الطاعة معصية، وترك المعصية طاعة.

ولكن قال بعض: إنّ الصبر علىٰ الطاعة فوق الصبر عن المعصية؛ وذلك لأنّ الصابر عن المعصية مشتغل بقلبه في وساوسها، والمشتغل بالطاعة سالم من هذا الوسواس، فمقامه فوق مقام ذلك الآخر، خصوصاً إذا صبر علىٰ دوامها، وحافظ عليها من النقص، وفعلها في الأوقات المشروعة من غير تفويت[٢].

أقول: بناءً علىٰ هذا البيان فالصبر علىٰ الطاعة ـ أيضاً ـ فيه اشتغال قلبه بوسوسة ترك الطاعة وراحته، وربّ إنسان يطيع الله في الواجبات في حين أنّه لا يتورّع عن مقارفة المحرمات، بينما المتورع عن مقارفة المحرمات والصابر عنها يكون ملتزماً عادة بالواجبات.

ومن الطريف ـ أيضاً ـ ما قاله بعض المنحرفين عن خط أهل البيت عليهم السلام: من أنّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) راجع شرح منازل السائرين للتلمساني قسم الأخلاق: ٢٢٢.

الصبر من منازل العامّة دون الخاصّة؛ وذلك لأنّ الخاصّة وصلوا إلى مستوىٰ المحبّة، والمحبّ يلتذّ بالعذاب الذي أراده محبوبه، فليس له ألم حتّىٰ يصبر عليه، فيتناقض الصبر والمحبّة كما قيل:

أُريد وصاله ويريد هجري　　　فأترك ما أُريد لما يريد

وقيل:

وكلٌّ لذيذةٍ قد نلتُ منه　　　سوىٰ ملذوذِ وجدي بالعذابِ

وأيضاً إنّ الصبر أمر منكر في طريق التوحيد، بل هو أنكر من كلِّ منكر؛ وذلك لأنّ فيه قوّة الدعوىٰ؛ لأنّ الصابر يدّعي قوّة الثبات، فيلزم من هذا أنّه يعتقد أنّ لنفسه قوّة، وأنّ تلك القوّة عظيمة. وهذا مبالغة في البهتان؛ إذ ليس لأحد قوّة أصلاً؛ لأنّ القوّة لله جميعاً، وبذلك يشهد التوحيد، والتوحيد يقتضي فناء النفس، فيكون الصبر أنكر؛ لأنّ إثبات النفس في طريق التوحيد من أقبح المنكرات[1].

أقول: هذا الكلام ناتج من عدم الإيمان بالوجود التعلّقي، ومن الغفلة عن ذاتيّة الآلام المادّية للإنسان لدىٰ المصائب من وجه، والتي لا تنافي الالتذاذ المعنوي بما أراده الله وبالقيام بالواجب من وجه آخر.

وليس هنا محلّ شرح ذلك فلسفيّاً، ولكنّي أقول هنا: إمّا أنّ القوم جريؤون جدّاً في تأويل القرآن، أو يعتقدون: أنّ أقطابهم أعلىٰ مرتبة من أُولي العزم من الأنبياء الذين نسب الله ـ تعالىٰ ـ إليهم الصبر في قوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ...﴾[2]، وكذلك قال يعقوب عليه السلام الذي هو نبيّ من أنبياء الله العظام وإن لم

---

(١) راجع منازل السائرين قسم الأخلاق باب الصبر وشرحه للكاشاني: ٨٦، وشرحه الآخر للتلمساني: ص ٢٢٠.

(٢) السورة ٤٦، الأحقاف، الآية: ٣٥.

يكن من أُولي العزم: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[١].

ويعجبني أن أذكر هنا رواية طريفة بشأن صبر يعقوب وآبائه:

فقد ورد في الأثر: «لمّا كان من أمر إخوة يوسف ما كان كتب يعقوبعليه‌السلام إلىٰ يوسفعليه‌السلام وهو لا يعلم أنّه يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله عزّوجلّ إلىٰ عزيز آل فرعون سلام عليك. فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد: فإنّا أهل بيت مولعة بنا أسباب البلاء: كان جدّي إبراهيم أُلقي في النار في طاعة ربّه، فجعلها الله ـ عزّوجلّ ـ عليه برداً وسلاماً، وأمر الله جدّي أن يذبح أبي[٢] ففداه بما فداه به، وكان لي ابن وكان من أعزّ الناس عليّ ففقدته، فأذهب حزني عليه نور بصري، وكان له أخ من أُمّه، فكنت إذا ذكرت المفقود ضممت أخاه هذا إلىٰ صدري، فأُذهب عنّي بعض وجدي، وهو المحبوس عندك في السرقة، وإنّي أُشهدك أنّي لم أسرق ولم ألد سارقاً. فلما قرأ يوسف كتابه بكىٰ، وكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا. فلمّا انتهىٰ الكتاب إلى يعقوب قال: والله ما هذا بكلام الملوك والفراعنة، بل هو كلام الأنبياء وأولاد الأنبياء، فحينئذٍ قال: يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف»[٣].

وكما قلنا لا نريد بحث المسألة فلسفيّاً، لكن يمكن إبطال عدم إمكان اجتماع الصبر والحبّ بتجربة الإنسان العادي الغارق في حبّ نفسه حينما يشرب دواءً مرّاً، ويتحمّل ألم المرارة، ويصبر عليه في سبيل حبّه لنفسه ولشفائه المترتب علىٰ

(١) السورة ١٢، يوسف، الآية: ١٨.

(٢) هذه من روايات تطبيق الذبيح علىٰ إسحاق دون اسماعيل علىٰ نبيّنا وآله وعليهما الصلاة والسلام.

(٣) البحار ١٢ / ٢٦٩ والآية في السورة ١٢، يوسف، الآية: ٨٧.

هذا الدواء، ألا ترىٰ كيف اجتمع الصبر علىٰ شرب الدواء وتألّمه به مع حبّه لنفسه، فهو يعتبر صابراً علىٰ البلاء علىٰ الرغم من أنَّ ما فعله كان صالحاً لنفسه، وهو يحبّ نفسه أشدّ الحبّ وغارق في مشتهيات نفسه ومصالحها أشدّ الغرق، وقد فعل ما فعله لأجل نفسه؟! فسواءٌ فُسِّر ذلك فلسفيّاً علىٰ أساس اختلاف مراتب النفس أو جوانبها وزواياها، أو فُسِّر ذلك علىٰ أساس كون ذات المؤلم هي المقدّمة للمحبوب التي يسري إليها الحبّ والالتذاذ بها، وأمّا الألم فهو لازم المحبوب ولا يسري إليه الحبّ والالتذاذ، أو فسّر بأيّ تفسير ثالث، فنفس التفسير يسري إلىٰ محل الكلام.

نعم، في حالات الإنذهال في الله تعالىٰ ربّما لا يحسّ العبد بالألم نتيجة فنائه في الله وذهوله عن كلٍّ ما سواه، وذلك من قبيل ما يُروىٰ بشأن إخراج السهم من رجل إمامنا أميرالمؤمنين عليه السلام في وقت انشغاله بالصلاة[1] وهذا أمر آخر، وهو أمر ممكن وواقع في المحبوب البشري كما حدّثنا القرآن[2] عن صويحبات يوسف وتقطيعهنّ أيديهنّ حين النظر إلى جمال يوسف الظاهري بالباصرة، فكيف لا يكون لدىٰ النظر إلى الجمال الحقيقي بالبصيرة لمن هو حبيب قلوب الصادقين وإله العالمين وغاية آمال العارفين؟!

٥ ـ حديث صحيح السند عن عبدالله بن سنان وإسحاق بن عمّار، عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّوجلّ: إنّي جعلت الدنيا بين عبادي قرضاً، فمَنْ أقرضني منها قرضاً أعطيته بكلٍّ واحدة عشراً إلى سبع مئة ضعف وما شئتُ من ذلك. ومَنْ لم يقرضني منها قرضاً فأخذت منه شيئاً قسراً فصبر أعطيته ثلاث خصال، لو أعطيت واحدة منهنّ ملائكتي لرضوا بها منّي. قال:

---

(١) المحجة البيضاء ١ / ٣٩٨، وتفسير «نمونه» ٢ / ٤٢٨، وأنوار المواهب: ١٦٠.

(٢) السورة ١٢، يوسف، الآية: ٣١.

ثُمّ تلا أبو عبدالله عليه السلام قول الله عزّوجلّ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ [فهذه واحدة من ثلاث خصال] وَرَحْمَةٌ [ثنتان] وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [ثلاث]﴾[1]. ثُم قال أبو عبدالله عليه السلام: هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً»[2].

٦ـ رواية الوشاء عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّا صُبَّر، وشيعتنا أصبر منّا. قلت: جعلت فداك كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟! قال: لأنّا نصبر علىٰ ما نعلم، وشيعتنا يصبرون علىٰ ما لا يعلمون»[3].

---

(١) السورة ٢، البقرة، الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) أُصول الكافي ٢ / ٩٢ ـ ٩٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، الحديث ٢١.

(٣) المصدر السابق: ص ٩٣، الحديث ٢٥.

الفصل الثالث والعشرون

الـــرضــــا

روي: إنّ الحسين عليه السلام لمّا عزم علىٰ الخروج إلى العراق قام خطيباً فقال: «الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، وصلّى الله علىٰ رسوله وسلّم. خُطَّ الموت علىٰ ولد آدم مخطّ القلادة علىٰ جيد الفتاة. وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي يتقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن منّي أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضىٰ الله رضانا أهل البيت، نصبر علىٰ بلائه، ويوفّينا أُجور الصابرين...»[1].

قال بعض: إنّ الرضا من أوائل مسالك أهل الخصوص وأشقّها علىٰ العامّة[2] ومن هنا يعتقد هذا الباحث: أنّ مقام الرضا أعلىٰ مرتبة من مقام الصبر؛ لأنّه جَعَل الصبر في البحث الماضي من منازل العامّة. والظاهر: أنّ مقصوده بالرضا في المقام هو: الرضا الذي يكون من ثمرات الحبِّ. ونحن وإن لم نوافق فيما مضىٰ علىٰ كون الصبر مخصوصاً بالعامّة، ولكن من الصحيح هنا القول بأنّ الرضا مقام فوق مقام الصبر؛ لأنّ الصبر قد يكون صبراً علىٰ مضض، ولكنّ الرضا يعني: عدم المضض،

---

(١) البحار ٤٤ / ٣٦٦ ـ ٣٦٧. والظاهر أن الصحيح تقطّعها عسلان الفلوات.

(٢) منازل السائرين، قسم الأخلاق، باب الرضا.

ويعني: حبّه لما يريده الله تعالىٰ كما مضىٰ عن الحسينعليه السلام قوله: «... رضىٰ الله رضانا أهل البيت نصبر علىٰ بلائه ويوفّينا أُجور الصابرين».

والرضا علىٰ قسمين:

الأوّل: الرضا الذي يكون من ثمار الحبّ، فإنّ رضا المحبّ في رضا محبوبه، وإن كان رضا محبوبه في موت المحبّ لأحبّ الموت، أو في ابتلائه لأحبّ الابتلاء.

وقد ورد في الحديث: «إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه»[١].

وفي حديث طريف نقلاً عن أمير المؤمنينعليه السلام قال: «سألت النبيّصلى الله عليه وآله عن سُنّته فقال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحبّ أثاثي، والشوق مركبي، وذكر الله ـ عزّوجلّ ـ أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعمل سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوّتي، والصدق شفيعي، والطاعة جنّتي، والجهاد خُلُقي، وقرّة عيني في الصلاة»[٢].

والرضا الذي هو من ثمرات الحبّ لله هو أفضل قسمي الرضا.

والثاني: قسم آخر للرضا أقلّ مرتبة من ذاك، وهو: الرضا الذي يكون من ثمرات العلم بأنّ الله ـ تعالىٰ ـ لا يقدّر لعبده إلّا ما فيه خيره.

وفي الحديث عن الصادقعليه السلام: «قال الله عزّوجلّ: عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلّا جعلته خيراً له، فليرض بقضائي، وليصبر علىٰ بلائي، وليشكر نعمائي، أكتبه يا محمّد من الصديقين عندي»[٣].

---

(١) المحجة البيضاء ٨ / ٨٨.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠١.

(٣) أُصول الكافي ٢ / ٦١، كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا والقضاء، الحديث ٦.

وأيضاً عن الصادق عليه السلام بسند صحيح: «إنّ فيما أوحىٰ الله ـ عزّوجلّ ـ إلى موسىٰ بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران. ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن، فإنّي إنّما أبتليه لما هو خير له، وأُعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه ما هو شرّ له لما هو خير له. وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر علىٰ بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي، أكتبه في الصدّيقين عندي إذا عمل برضائي وأطاع أمري»[١].

وأيضاً عن ابن أبي يعفور بسند صحيح، عن الصادق عليه السلام قال: «عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله ـ عزّوجلّ ـ له قضاءً إلّا كان خيراً له، وإن قُرِّض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له»[٢].

وبعد هذا المرور السريع بقسمي الرضا: ما كان من ثمار حبّ الله عزّوجلّ، وما كان من ثمار العلم بحكمة الله وموافقة تقديره لصالح العبد، يناسب المرّ السريع ـ أيضاً ـ برضوان الله تعالىٰ، والذي هو أكبر من نِعَم الجنّة المادّية بصريح القرآن، والذي هو من الغايات القصوىٰ لأولياء الله العارفين.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

وإن أُريد توضيح الفكرة بمستوىٰ الفهم العادي قلنا: ربّ إنسان يجتمع بحبيبه علىٰ مائدة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين بالمقدار المتصوّر في الموائد الدنيويّة، وفي بستان زاهر أورقت فيه الأشجار وأينعت فيه الأثمار، وازدهرت

---

(١) المصدر السابق: ص ٦١ ـ ٦٢، الحديث ٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٢، الحديث ٨.

(٣) السورة ٩، التوبة، الآية: ٧٢.

فيه الورود، وعلىٰ ماء جارٍ زلالٍ صافٍ كالزجاج والمرآة، إلّا أنّه كـان يـحتمل وجود كدورة ولو مختصرة عنه في قلب حبيبه وعلىٰ الخـصوص نـفترض ذاك الحبيب وليّاً لكثير من نعمه وعظيماً في صفاته الخلقيّة والإنسانيّة، ثُمّ تطرأ علىٰ لسان هذا الحبيب كلمة تكشف عن رضاه عنه، فتراه يثلج قلبه، ويبرد فؤاده، ويلتذّ برضا حبيبه عنه لذّة تُنسيه كلّ ما كان غائراً فيها من تلك اللذائذ الأُخرى، فكيف بالعبد المؤمن بالقياس إلى الله سبحانه وعلا، علماً بأنّ مـعرفته بـالله فـي الجـنّة لاتقاس بمعرفته به في الدنيا.

وقد ورد في الحديث عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «إذا صار أهل الجنّة في الجنّة، ودخل وليّ الله إلى جناته ومساكنه، واتّكىٰ كلّ مؤمن علىٰ أريكته، حفّته خدّامه، وتهدّلت عليه الأثمار، وتفجّرت حوله العيون، وجرت من تحته الأنهار، وبسطت له الزرابيّ، ووضعت له النمارق، وأتته الخدّام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك، قال: ويخرج عليه الحور العين من الجنان، فيمكثون بذلك ما شاء الله، ثُمّ إنّ الجبّار يشرف عليهم، فيقول لهم: أوليائي واهل طاعتي وسكّان جنّتي في جواري ألا هل أُنبّئكم بخير ممّا أنتم فيه؟ فيقولون: ربّنا وأيّ شيء خير ممّا نحن فيه: فيما اشتهت أنفسنا، ولذّت أعيننا من النعم في جوارك الكريم؟! قال: فيعود عليهم القول فيقولون: ربّنا نعم، فائتنا بخير ممّا نحن فيه، فيقول لهم تبارك وتعالىٰ: رضائي عنكم ومحبّتي لكم خير وأعظم ممّا أنتم فيه، قال: فيقولون: نعم يا ربّنا، رضاك عنّا ومحبّتك لنا خير وأطيب لأنفسنا. ثُمّ قرأ عليّ بن الحسين عليهما السلام هذه الآية: **﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**»(١).

---

(١) تفسير البرهان ٢ / ١٤٥.

الفصل الرابع والعشرون
الشـــكر

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّـهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾[1].

وقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

أثبتت هاتان الآيتان المباركتان خير أَثَرين لشكر الله سبحانه وتعالىٰ:

الأوّل: نفي العذاب عن الشاكر؛ إذ ورد في الآية الأُولى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ...﴾.

ومن الطريف في هذه الآية: أنّ الله ـ سبحانه ـ فرض بلطفه ورحمته أنّ العبد المؤمن كأنّه يُسدي بطاعته وبشكره نعمة علىٰ المولىٰ سبحانه وتعالىٰ يستحقّ عليها الشكر فيقول: وكان الله شاكراً عليماً.

والثاني: الزيادة في النعمة؛ إذ ورد في الآية الثانية: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ...﴾.

وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: «من أُعطي أربعاً لم يحرم أربعاً: مَنْ أُعطي الدعاء لم يحرم الإجابة، ومَنْ أُعطي الاستغفار لم يحرم التوبة، (الظاهر: أنّ

---

(١) السورة ٤، النساء، الآية: ١٤٧.

(٢) السورة ١٤، إبراهيم، الآية: ٧.

المقصود توبة الله عليه)، ومَنْ أُعطي الشكر لم يحرم الزيادة، ومن أُعطي الصبر لم يحرم الأجر»[١].

ووجوب شكر المنعم وجوب عقليّ قبل أن يكون وارداً مـن الشـرع، حـتّىٰ بالنسبة للمنعم المخلوق الذي لم يكن إلّا واسطة فيض من قبل الخالق وكان المنعم الحقيقي هو الخالق تبارك وتعالىٰ.

وفي الحديث عن عمّار الدُهني قال: «سمعت عليَّ بن الحسين عليهما السلام يقول: إنّ الله يحبّ كلَّ قلب حزين، ويحبّ كلَّ عبد شكور. يقول الله تبارك وتعالىٰ لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره. ثُمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس»[٢].

وعـن الرضـا عليه السلام: «مَـنْ لم يشكـر المـنعم مـن المـخلوقين لم يشكـر الله عزّوجلّ»[٣].

وحقيقة الشكر مكافأة المنعم عن نعمته، وذلك إمّا ببذل نعمة له كالمال أو ـ في الأقلّ ـ الثناء والحمد لله. وأقلّ المراتب بعرفان النعمة بالقلب وبحبّه إيّاه.

وعن الباقر عليه السلام عن أبيه، عن جدّه قال: «قال عليّ عليه السلام: حقٌ على من أُنعم عليه أن يحسن مكافأة المنعم، فإن قصر عن ذلك وسعه فعليه أن يحسن الثناء، فإن كلَّ عن ذلك لسانه فعليه معرفة النعمة ومحبّة المنعم بها، فإن قصر عـن ذلك فـليس للنعمة بأهل»[٤].

فإذا وجب شكر المنعم المخلوق الذي لم يكن في واقع الأمر إلّا واسطة لفيض

---

(١) البحار ٧١ / ٤٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٤.

(٤) المصدر السابق: ص ٥٠.

النعمة والمفيض الحقيقي هو الله فكيف لا يجب شكر الله سبحانه وتعالىٰ؟!

إلّا إنّ شكره سبحانه وتعالىٰ بالنحو المألوف فيما بين المخلوقين أنفسهم غير معقول. ويمكن بيان ذلك بعدّة تعابير:

١ ـ إنّ الشكر عبارة عن مكافأة المنعم بنعمه، ولا معنىٰ لمكافأته سبحانه وتعالىٰ؛ فإنّه غنيّ عن العالمين، وهو المنعم علىٰ الخلق ولا يُنعم عليه، ولا ينفعه شكرنا إيّاه، بل تعود منفعة شكرنا إيّاه إلينا.

٢ ـ إنّ الشاكر لو أراد أن ينعم علىٰ المنعم بشيء جزاءً لنعمته فعليه أن ينعم عليه بما يملكه، ولا أقلّ من الإنعام عليه بلسانه بالثناء، أو بقلبه بعرفان النعمة وبذل الحبّ، ولكنّا نحن لا نملك شيئاً أمام الله سبحانه كي نبذله إيّاه، فلو شكرناه بلساننا فلساننا مملوك له، ولو شكرناه بقلبنا فقلبنا مملوك له. وليس لنا شيء كي نكافئ الله سبحانه به علىٰ نعمه.

٣ ـ إن تمكّنّا من الشكر ووُفِّقنا له، فهو نعمة جديدة أنعم الله بها علينا، وبحاجة إلى شكر جديد.

وعن الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله علىٰ عبد بنعمة بالغة ما بلغ فحمد الله عليها إلّا كان حمد الله أفضل من تلك النعمة وأعظم وأوزن»(١).

إذن فشكر الله يجب أن ينتهي إلى أحد معنيين:

١ ـ معرفة العبد: بأنّ هذه النعمة من الله، وبعجزه عن شكره، وإقراره بذلك، وبالثناء عليه تبارك وتعالىٰ برغم غناه عن ثنائنا.

وعن الصادق عليه السلام: «أوحىٰ الله إلى موسى عليه السلام: يا موسىٰ اشكرني حقّ شكري، فقال: يا ربّ كيف أشكرك وليس من شكر أشكرك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ.

---

(١) المصدر السابق: ص ٥١.

فقال: يا موسى شكرتني حقَّ شكري حين علمت أن ذلك منّي»[١].

٢ـ أن يبذل العبد نعمه سبحانه وتعالىٰ في طاعته، ولا يبذلها في معصيته.

وعن الصادق عليه السلام قال: «شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين»[٢].

ولا يعصي أحد الله سبحانه وتعالىٰ إلّا بنعمته؛ فإن عصىٰ بلسانه فلسانه نعمة من الله عليه، وإن عصىٰ بيده أو بأيّ جارحة من جوارحه فكلٌّ الجوارح نعم الله عليه، أو بأيّ قوّة من قواه فكلّها نعم الله عليه، أو بأيّ مال من أمواله فهي جميعاً من نعم الله عليه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوها ...﴾[٣]. ومَثَلُ معصية الله بنعمه مَثَلُ مَنْ أنعم عليه شخص بسيف فضرب به وجه المنعم أو ابنه.

وأختم الحديث هنا عن الشكر بذكر رواية عن الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ضغطة القبر للمؤمن كفّارة لما كان منه من تضييع النعم»[٤].

---

(١) المصدر السابق. وقد مضى تخريجه عن الكافي في بحث اليقظة ص٢١٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٠.

(٣) السورة ١٤، إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٤) البحار ٧١ / ٥٠.

الفصل الخامس والعشرون
الحيـــاء

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾[1].

الحياء انقباض النفس عن القبيح خجلاً، وهو من الناس قد ينتج كتم القـبيح، ولكن من الله لا يمكن أن يكون إلّا بترك القبيح؛ لأنّ العالَم بأسره في محضر الله تعالىٰ، والله تعالىٰ يعلم بكلِّ شيء علماً حضوريّاً، فلا يُعقَل الكتمان عنه.

وفي الحديث: «يـا أبـا ذر، أُعـبد الله كأنّك تـراه، فـإن كـنت لا تـراه فـإنّه يراك ...»[2].

وعن عليّ بن الحسين عليهما السلام: «خفِ الله تعالىٰ لقدرته عليك، واستحي منه لقربه منك»[3].

قيل: إنّ شخصاً من أهل الحال كان قد تاب بعد معصية، وكان يبكي، فقيل له: لِمَ تكثر البكاء ألا تعلم بأنّ الله ـ تعالىٰ ـ غفّار؟! قال: نعم، يمكن أن يعفو عنّي،

---

(١) السورة ٩٦، العلق، الآية: ١٤.

(٢) البحار ٧٧ / ٧٤.

(٣) المصدر السابق ٧١ / ٣٣٦.

ولكن ماذا أفعل بخجل رؤيته لي في حال المعصية؟![١].

گـيرم كـه تـو از سـر گـنه در گـذرى

زان شرم كه ديدى كه چه كردم چه كنم[٢]

وعن الصادق عليه السلام: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنّة»[٣].

وعن أحدهما عليه السلام قال: «الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «لا إيمان لمن لا حياء له»[٥].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «رحم الله عبداً استحيىٰ من ربّه حقّ الحياء: فحفظ الرأس وما حوىٰ، والبطن وما وعىٰ، وذكر القبر والبلىٰ، وذكر أنّ له في الآخرة معاداً»[٦].

وعن مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام: «والحياء خمسة أنـواع: حـياء ذنب، وحياء تقصير، وحياء كرامة، وحياء حبّ، وحياء هيبة. ولكلٍّ واحد من ذلك أهل، ولأهله مرتبة علىٰ حدة»[٧].

وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشهد لكون أوّل شرّ في العبد انتزاع الحـياء منه. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوّل ما ينزع الله من العبد الحياء، فيصير ماقتاً ممقّتاً، ثُمّ ينزع منه الأمانة، ثُمّ ينزع منه الرحمة، ثُمّ يخلع دين الإسلام عن عـنقه، فـيصير شيطاناً لعيناً»[٨].

وإلىٰ جانب الحياء الممدوح يوجد لدينا حياء مذموم: فالحياء الممدوح هو: الاستحياء من الأمر القبيح، والحياء المذموم هو: الاستحياء من الأمر الحسن كمن

---

(١) و (٢) تفسير «نمونه» ٢٧ / ١٦٨.

(٣) البحار ٧١ / ٣٢٩.

(٤) و (٥) المصدر السابق: ص ٣٣١.

(٦) و (٧) المصدر السابق: ص ٣٣٦.

(٨) المصدر السابق: ص ٣٣٥.

يحتلم ثُمّ لا يغتسل استحياءً من أهل البيت الذين لو اغتسل لعرفوا أنّه قد احتلم مثلاً، وكمن يستحي من السؤال؛ لأنّه ينكشف بذلك جهله مثلاً وما إلى ذلك.

وقد ورد عدد من الروايات فيها إشارة إلى الحياء القبيح، وذلك من قبيل:

١ ـ ما عن الصادقعليه السلام، عن آبائهعليهم السلام قال: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: الحياء علىٰ وجهين: فمنه الضعف، ومنه القوّة، وإسلام وإيمان»(١).

٢ ـ عن الصادقعليه السلام: «من رقّ وجهه رقّ علمه»(٢).

٣ ـ عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «الحياء حياءان: حياء عقل، وحياء حمق: فحياء العقل هو العلم، وحياء الحمق هو الجهل»(٣).

أي حياء العقل ينشأ من العلم، وحياء الحمق ينشأ من الجهل، أو حياء العقل يوجب العلم، وحياء الحمق يوجب الجهل.

---

(١) البحار: ٧١ / ٣٣٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٣٠.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٣١.

الفصل السادس والعشرون
الصــــدق

قال الله تعالىٰ : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾[١].

الصدق قد يُطلق علىٰ ثلاثة معان:

الأوّل: الصدق في مقابل الكذب. وهو الصدق في الحديث: بأن لا يتحدَّث إلّا بما يعتقده مطابقاً للواقع. والكذب حرام.

وإليك بعض الروايات:

١ ـ ورد عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث من كنَّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّىٰ وزعم أنَّه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف. قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٢] وقال: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٣] وفي قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ

---

(١) السورة ٤٧، محمَّد صلى الله عليه وآله، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) السورة ٨، الأنفال، الآية: ٥٨.

(٣) السورة ٢٤، النور، الآية: ٧.

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً»[١].

٢ـ وعن محمَّد بن مسلم في سند تامٍّ، عن الباقر عليه السلام قال: «إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل للشرِّ أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شرٌّ من الشراب»[٢].

وكأنّ المقصود بذلك: أنَّ مَنْ شرب الشراب فَقَدَ العقل، وإذا فَقَدَ العقل جاء احتمال ارتكابه لأيِّ جريمة من الجرائم، ولكنَّ الكذب شرٌّ من الشراب؛ لأنَّ الشخص لو التزم بالصدق ترك الجرائم؛ لأنَّه في غالب الأحيان إمَّا أن يتوقَّف علىٰ الكذب الموجب لإغفال الناس عمَّا يعجزه عن ارتكاب الجرم، أو يتوقَّف حفظ ماء وجهه أمام الناس علىٰ الكذب؛ لكي لا ينفضح بجرمه. ففتح باب الجرائم يكون بالكذب. والسكران إنَّما يفعل الجرم عن غير شعور وعمد. ولكنَّ الكاذب يفعل الجرم عن عمد وقصد، ويتقصَّد ما يشاء من الجرائم مهما بلغ في السعة والكثرة، فكان الكذب شرّاً من الشراب.

٣ـ وعن الحسين بن أبي العلاء بسند تامٍّ، عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله ـ عزَّوجلَّ ـ لم يبعث نبيّاً إلّا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البرِّ والفاجر»[٣].

٤ـ وعن إسحاق بن عمَّار وغيره بسند تامٍّ، عن الصادق عليه السلام قال: «لا تغترُّوا بصلاتهم ولا بصيامهم؛ فإنَّ الرجل ربَّما لهج بالصلاة والصوم حتّىٰ لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»[٤].

والثاني: الصدق في مقابل الخُلف. وهو الصدق في الوعد، فلو كان الوعد عن

---

(١) السورة ١٩، مريم، الآية: ٥٤، والحديث في الوسائل ١٥ / ٣٤٠، الباب ٤٩ من جهاد النفس، الحديث ٤.

(٢) الوسائل ١٢ / ٢٤٤، الباب ١٣٨ من أحكام العشرة، الحديث ٣.

(٣) البحار ٧١ / ٢.

(٤) المصدر السابق.

علم بأنَّه سيُخلف لكان كذباً بالمعنىٰ الأوَّل، ولكنَّ الشخص ربَّما لا يقصد الخُلف حين الوعد، ثُمَّ يبدو له أن يخلف. وهذا الوعد إن كان علىٰ مستوىٰ التعاهد والتعاقد فخُلفه حرام بلا إشكال؛ لأنَّ الوفاء بالعقد والعهد واجب. قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ...﴾[1].

وقال عزّوجلّ: ﴿... أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[2].

وإن لم يكن علىٰ هذا المستوىٰ، بل كان وعداً ابتدائيّاً بحتاً، فالمشهور لدىٰ الفقهاء كراهة خلفه وعدم حرمته، ولكن شبهة الحرمة قويّة لأجل الروايات المشدِّدة في ذلك مع صحّة أسانيد بعضها:

وقد ورد عن شعيب العقرقوفي بسند تام، عن الصادقعليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفِ إذا وعد»[3].

وعن هشام بن سالم بسند تامٍّ قال: «سمعت أبا عبداللهعليه السلام يقول: عدّة المؤمن أخاه نذر لا كفّارة له. فمَنْ أخلف فبخلف الله بدأ، ولمقته تعرَّض، وذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[4].

وعن سماعة بن مهران بسند تامٍّ، عن الصادقعليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ عامل الناس فلم يظلمهم، وحدَّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، كان ممَّن حَرُمت غيبته، وكملت مروءته، وظهر عدله، ووجبت أخوّته»[5].

وعن منصور بن حازم بسند تامٍّ، عن الصادقعليه السلام قال: «إنَّما سُمِّي إسماعيلعليه السلام

---

(١) السورة ٥، المائدة: الآية: ١.

(٢) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٣٤.

(٣) الوسائل ١٢ / ١٦٥، الباب ١٠٩ من أحكام العشرة، الحديث ٢.

(٤) المصدر السابق: الحديث ٣، والآية: ٣٢ في السورة ٦١، الصف.

(٥) الوسائل: ١٢ / ٢٧٩، الباب ١٥٢ من أحكام العشرة، الحديث ٢.

صادق الوعد؛ لأنّه وعد رجلاً في مكان، فانتظره سنة، فسمّاه الله صادق الوعد. ثُمَّ إنَّ الرجل أتاه بعد ذلك، فقال له إسماعيل: ما زلت منتظراً لك»[١].

والثالث: الصدق بمعنىٰ الإحكام وواجديّة كلِّ الحقيقة (يقال: رمح صدوق أي: صلب قويٌّ) وهو الصدق في الإيمان بمعنىٰ: أن لا يكون الإيمان مجرَّد لقلقة لسان، بل ولا مجرَّد الاعتقاد في مستوىٰ العقل، بل يكون الإيمان قد نزل في الإنسان إلى مستوىٰ العواطف والأحاسيس والجوارح. ولعلَّه يشير إلى هذا المعنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿... فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾[٢].

والإيمان غير الصادق فيه خطر: أن يكون عارية تُسلَب في ساعة نزع الروح أو قبل ذلك. نعوذ بالله من ذلك.

ولعلَّ خير تعبير عن الإيمان الصادق التعبير الوارد في خطبة همَّام عن إمامنا أميرالمؤمنين عليه السلام في وصف المتّقين: «... عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم...»[٣] فهذا كما ترىٰ لا يعطي مجرّد معنىٰ الاعتقاد بعظمة الخالق وصغر ما دونه، فالاعتقاد بذلك قد يجتمع مع عدم الإحساس في النفس بعظمة الخالق وعدم صغر ما عداه في رؤيته الباطنيّة، فهو يرىٰ الظالم الجبار مثلاً عظيماً، ويرىٰ الدنيا وزبرجها عظيماً علىٰ رغم اعتقاده بانَّ هذه رؤية خياليَّة وغير مطابقة للواقع، ولكنَّ الصادق في إيمانه يلمس ويتحسَّس برؤيته الباطنية عظمة الربِّ وصغر ما سواه.

ومثال ذلك في الرؤية الظاهرية: أنَّ الشخص يرىٰ الشيء الصغير الموضوع تحت آلة مُكبِّرة كبيراً. وهو يعلم أنَّه صغير، ويرىٰ الشيء الكبير الموضوع تحت

---

(١) المصدر السابق: ص ١٦٤، الباب ١٠٩ من أحكام العشرة، الحديث ١.

(٢) السورة ٤٧، محمَّد صلى الله عليه وآله، الآية: ٢١.

(٣) نهج البلاغة: ٤١٠، رقم الخطبة: ١٩٣.

آلة مُصغِّرة صغيراً وهو يعلم أنّه كبير. فكما أنَّ الصغر والكبر في الإحساس الظاهري غير مجرّد الاعتقاد بالصغر والكبر، كذلك الصغر والكبر في الإحساس الباطني غير مجرّد الاعتقاد بالصغر والكبر. وصدق الإيمان عبارة عن بلوغ الإيمان هذا المستوىٰ من الإحساس الباطني. رزقنا الله ذلك بحقِّ محمّد وآله الأطهار عليهم السلام.

ويشهد لما قلناه: من أنَّ من شرط الإيمان الصادق هو جريانه في الجوارح الروايات الكثيرة[1] التي جعلت العمل بالأركان جزءاً من الإيمان، وذلك من قبيل:

١ـ ما ورد عن عبدالرحيم القصير قال: «كتبت علىٰ يَدَيْ عبد الملك بن أعين إلى أبي عبدالله عليه السلام أسأله عن الإيمان: ما هو؟ فكتب: الإيمان هو إقرار باللسان، وعقد بالقلب، وعمل بالأركان. فالإيمان بعضه من بعض، وقد يكون العبد مسلماً قبل أن يكون مؤمناً، ولا يكون مؤمناً حتّىٰ يكون مسلماً. فالإسلام قبل الإيمان، وهو يشارك الإيمان، فإذا أتىٰ العبد بكبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنها، كان خارجاً من الإيمان، وساقطاً عنه اسم الإيمان، وثابتاً عليه اسم الإسلام، فإن تاب واستغفر عاد إلىٰ الإيمان، ولم يخرجه إلى الكفر إلّا الجحود والاستحلال: إذا قال للحلال هذا حرام، وللحرام هذا حلال ودان بذلك، فعندها يكون خارجاً من الإيمان والإسلام إلىٰ الكفر...»[2].

٢ـ وعن ابن البختري، عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس الإيمان

---

(١) راجع البحار ٦٩ / ١٨ فصاعداً، كتاب الإيمان والكفر، الباب ٣٠ أنَّ العمل جزء الإيمان.

(٢) البحار ٦٩ / ٧٣.

بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكنَّ الإيمان ما خلص في القلب، وصدَّقه الأعمال»[١].

٣ـ وعن الرضاعليه السلام، عن آبائه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الإيمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان العقول»[٢].

٤ ـ وعن الرضاعليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال أميرالمؤمنين عليه السلام: الإيمان إقرار باللسان، ومعرفة بالقلب، وعمل بالجوارح»[٣].

ويشهد لما قلناه: من أنَّ من شرط الإيمان الصادق سريانه في الاحاسيس والعواطف، الروايات التي جعلت الحبَّ من الإيمان أو الدين، وذلك من قبيل:

١ ـ ما عن الصادق عليه السلام: «لا يمحض رجل الإيمان بالله حتّىٰ يكون الله أحبَّ إليه من نفسه وأبيه وأُمّه وولده وأهله وماله، ومن الناس كلّهم»[٤].

٢ ـ وما عن الفضيل بن يسار بسند صحيح قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الحبِّ والبغض: أمن الإيمان هو؟ فقال: وهل الإيمان إلّا الحبُّ والبغض؟! ثُمّ تلا هذه الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾»[٥].

٣ ـ وما عن سعيد بن يسار بسند صحيح، عن الصادق عليه السلام قال: «هل الدين إلّا الحبّ؟! إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ ...﴾»[٦].

٤ ـ وما عن ربعي بن عبدالله قال: «قيل لأبي عبدالله عليه السلام: جُعِلت فداك: إنّا

---

(١) المصدر السابق: ص ٧٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق: ٧٠ / ٢٥.

(٥) أُصول الكافي ٢ / ١٢٥، والآية: ٧ في السورة ٤٩، الحجرات.

(٦) البحار: ٦٩ / ٢٣٧، والآية: ٣١ في السورة ٣، آل عمران.

نسمّي بأسمائكم وأسماء آبائكم فينفعنا ذلك؟ فقال: إي والله، وهل الدين إلّا الحبّ؟! قال الله: ﴿... إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾»[١].

٥ـ وما عن بريد بن معاوية قال: «كنت عن أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه قادم من خراسان ماشياً، فأخرج رجليه وقد تغلّفتا، وقال: أما والله ما جاء بي من حيث جئت إلّا حبُّكم أهل البيت، فقال أبو جعفر عليه السلام: والله لو أحبَّنا حجر حشره الله معنا. وهل الدين إلّا الحبُّ؟! إنّ الله يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ...﴾ وقال: ﴿... يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ...﴾[٢]. وهل الدين إلّا الحبُّ؟!»[٣].

ويشهد ـ أيضاً ـ لكون الإيمان الصادق متقوِّماً بالحبِّ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٤].

هذا، وليس المقصود بما أشرنا إليه واستشهدنا له بالنصوص من كون روح الإيمان هو الحبُّ: إمكان اكتفائنا بحبِّ أهل البيت عليهم السلام، والتحرُّر من كثير من الواجبات، أو ترك المحرَّمات كما قد يتوهَّمه بعض عوام الشيعة بتخيل كفاية هذا الحبّ للنجاة. ولو كان الأمر المستنتج من النصوص ذلك، لكان معناه: أنَّ أئمّتنا عليهم السلام أصبحوا باباً لتوريط الشيعة في المعاصي، في حين أنّه من الضروريّات أنَّهم باب للهداية ولإبعاد الناس عن المعاصي، بل المقصود: أنّ الإيمان لو وصل

---

(١) البحار ١٠٤ / ١٣٠، وأيضاً ورد الحديث في ٢٧ / ٩٥.

(٢) السورة ٥٩، الحشر، الآية: ٩.

(٣) البحار ٢٧ / ٩٥.

(٤) السورة ٩، التوبة، الآية: ٢٤.

إلى مستوىٰ الحبِّ والجريان في العواطف والأحاسيس والسريان في العروق مجرىٰ الدم، منع عن التورط في المعاصي. وحبُّ أهل البيت عليهم السلام باعث للطاعة لا للمعصية؛ فإنَّ الأعمال ـ علىٰ ما دلّت عليه الروايات ـ تصلهم، فتأذيهم المعاصي، ولو كنّا نحبّهم حبّاً صادقاً لما رضينا بإيذائهم.

فعن سماعة بسند تامٍّ، عن الصادق عليه السلام: «ما لكم تسوؤن رسول الله صلى الله عليه وآله!؟ فقال رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أنَّ أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك. فلا تسوؤا رسول الله، وسرُّوه»[(١)].

وعن يعقوب بن شعيب قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ...﴾[(٢)] قال: هم الأئمّة»[(٣)].

وعن محمّد بن الحسن الصفار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن أعمال العباد تعرض علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله كلَّ صباح: أبرارها وفجّارها، فاحذروا، فليستحي أحدكم أن يعرض علىٰ نبيّه العمل القبيح»[(٤)].

وقد مضىٰ في فصل الورع والتقوىٰ حديث جابر عن الباقر عليه السلام: «يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيُّع أن يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلّا من اتّقىٰ الله وأطاعه...»[(٥)].

ويشهد لما قلناه: من أنَّ تحويل الإيمان إلى الحبِّ إنّما يكون لإحكام عُراه وللابتعاد عن المعاصي، لا لأجل الالتهاء بحبِّ أهل البيت عليهم السلام والاكتفاء به والتورط في المعاصي بأمل الشفاعة، أنَّ الحبَّ المذكور في الآيات والروايات

---

(١) أُصول الكافي ١ / ٢١٩.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ١٠٥.

(٣) أُصول الكافي ١ / ٢١٩.

(٤) البحار ٢٣ / ٣٤٠.

(٥) أُصول الكافي ٢ / ٧٤.

جُعِلَ بشكل شامل: لله، وللرسول، ولأهل البيت، وللمؤمنين، وللأعمال الصالحة وترك الأعمال الفاسدة، فبغض الأعمال الفاسدة وحبّ الأعمال الصالحة جزء من الإيمان، وذلك لا يكون إلّا مع فعل الصالح وترك الفاسد.

فمن نصوص حبِّ الله قوله تعالىٰ: ﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ ...﴾[1].

ومن نصوص حبِّ الله والرسول والجهاد الذي هو من الأعمال الصالحة آية: ﴿... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ...﴾[2].

ومن نصوص حبِّ أهل البيت حديث: «...والله لو أحبّنا حجر حشره الله معنا...»[3].

ومن نصوص حبِّ المؤمنين قوله تعالىٰ: ﴿... يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ...﴾[4].

ومن نصوص حبِّ الطاعة وكره المعصية قولهعليه السلام: «وهل الإيمان إلّا الحبُّ والبغض، ثُمّ تلا هذه الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ...﴾»[5].

ويشهد لما قلناه: من أنّ الإيمان غير الصادق ـ أي: الذي لا يطابقه عمل الشخص ـ فيه خطر انتزاعه من الإنسان قبل الموت، ما روي عن المفضّل الجعفي، عن أبي عبداللهعليه السلام قال: «انّ الحسرة والندامة والويل كلّه لمن لم ينتفع بما أبصر، ومن لم يدر الأمر الذي هو عليه مقيم أنفع هو له أم ضر. قال: قلت فبما يعرف الناجي من هؤلاء؟ قال: من كان فعله لقوله موافقاً، فأثبت له الشهادة بالنجاة، ومن

---

(١) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ٢٤.

(٣) البحار ٢٧ / ٩٥.

(٤) السورة ٥٩، الحشر، الآية: ٩.

(٥) أُصول الكافي ٢ / ١٢٥، والآية: ٧ في السورة ٤٩، الحجرات.

لم يكن فعله لقوله موافقاً فإنّما ذلك مستودع»(١) .

ولك أن تُرجع القسم الثالث من الصدق وهو: الصدق في الإيمان إلى القسم الثاني، وهو: الوفاء بالعهد كما قال الله تعالىٰ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(٢) .

فإنَّ الله قد أخذ منَّا التعهد بالأُصول وبالفروع. ويدلُّ علىٰ أخذ التعهد منّا بالأُصول قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٣) ويدلُّ علىٰ أخذ التعهد منّا بالأُصول والفروع قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾(٤) .

---

(١) الكافي ٢ / ٤١٩.

(٢) السورة ٣٣، الأحزاب، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) السورة ٧، الاعراف، الآيتان: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٤) السورة ٣٦، يس، الآيات: ٦٠ ـ ٦٢.

الفصل السابع والعشرون
الإيثـــار

قال الله تعالىٰ:

١ ـ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

٢ ـ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[2].

٣ ـ ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾[3].

الإيثار تقديم غيرك من المؤمنين علىٰ نفسك في المال أو الراحة أو ما إلى ذلك من نعم الله. وقد أُكّد عليه في الآيات والروايات. وهو من أعظم الصفات الحسنة. وهو علىٰ مستويين:

---

(١) السورة ٥٩، الحشر، الآية: ٩ وذيلها كرّر في السورة ٦٤، التغابن، الآية: ١٦.

(٢) السورة ٣، آل عمران، الآية: ٩٢.

(٣) السورة ٧٦، الإنسان، الآيات: ٧ ـ ١٠.

الأوّل: الإيثار عن كرهٍ، بمعنى: أنَّ الشخص يحسّ بكلفة ومؤونة حينما يؤثر أخاه المؤمن علىٰ نفسه؛ وذلك نتيجةً لحبِّ نفسه وحبّه لمصالحها، وصعوبة رفع اليد عنها في سبيل غيره؛ باعتبار ما لدىٰ الإنسان من الشحّ الذي يكاد أن لا ينفكّ من الإنسان، كما يشهد له قوله في الآية الماضية: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ...﴾ فكأنَّ الشحّ ثابت مع كلِّ نفس، إلّا أنَّه قد يقي الله أحداً من شرّ شحّه، ويشهد لذلك ـ أيضاً ـ قوله تعالىٰ: ﴿... وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ...﴾[1] وهذا الإيثار نوع جهاد مع النفس وثوابه عظيم عند الله.

والثاني: الإيثار عن طوع ورضا ورغبة نفسية. وهذا أعظم وأثوب من الأوّل. ولا يكون إلّا بعد تربية النفس تربية كبيرة، فيصل الإنسان نتيجة لصفاء النفس الذي حصل عليه بالتربية إلى مستوىٰ فقدان الشحّ، فيؤثر غيره علىٰ نفسه طواعية.

أمّا الآيات المباركات التي أوردناها في صدر الحديث:

فالآية الأُولىٰ وهي قوله: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾ قيل: إنَّها نزلت يوم انتصار المسلمين علىٰ يهود بني النضير، ووصول غنائمهم إلى رسول الله ﷺ، وكان المهاجرون أحوج إلى تلك الغنيمة من الأنصار؛ لأنَّهم جاؤوا بالهجرة عن وطنهم متأخِّرين، فكانوا أبناء سبيل، في حين أنَّ الأنصار كانوا يعيشون في بيوتهم، فقال رسول الله ﷺ للأنصار: «إن شئتم قسَّمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسّم لكم شيء من الغنيمة، فقال الأنصار: بل نقسّم لهم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها» فنزلت: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾[2].

---

(١) السورة ٤، النساء، الآية: ١٢٨.

(٢) مجمع البيان: مج ٥ / ٩ / ٤٣٠.

وقيل: نزلت في سبعة عطشوا في يوم أُحد، فجيء بماءٍ يكفي لأحدهم، فقال واحد منهم: ناول فلاناً حتّىٰ طيف علىٰ سبعتهم، وماتوا ولم يشرب أحد منهم، فأثنىٰ الله ـ سبحانه ـ عليهم بهذه الآية(١).

وقيل: «أُهدي لبعض الصحابة رأسٌ مشويٌّ، وكان مجهوداً، فوجَّه به إلى جار له، فتداولته تسعة أنفس، ثُمَّ عاد إلى الأوّل، فنزلت: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾»(٢).

والتفسير الأوَّل هو المناسب لسياق الآية المباركة، ويمكن أن تكون باقي الموارد من قبيل التطبيق، أو تكراراً في التنزيل.

وقد روىٰ الشيخ في أماليه بسند له عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فشكا إليه الجوع، فبعث رسول الله ﷺ إلى بيوت أزواجه، فقلن: ما عندنا إلّا الماء، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ لهذا الرجل الليلة؟ فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أنا له يا رسول الله، فأتىٰ فاطمة عليها السلام، فقال لها: ما عندك يا ابنة رسول الله؟ فقالت: ما عندنا إلّا قوت الصبية، لكنّا نؤثر ضيفنا، فقال عليّ عليه السلام: يا ابنة محمّد نوّمي الصبية، وأطفي المصباح ـ كي يعتقد الضيف أنّ صاحب البيت يأكل معه ـ فلمّا أصبح عليّ عليه السلام غدا علىٰ رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، فلم يبرح حتّىٰ أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»(٣).

وعن الصادق عليه السلام: «بينا عليّ عليه السلام عند فاطمة عليها السلام إذ قالت له: يا عليّ اذهب إلى أبي، فابغنا منه شيئاً، فقال: نعم، فأتىٰ رسول الله ﷺ، فأعطاه ديناراً، وقال: يا عليّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مجمع البيان: مج ٥ / ٩ / ٤٣٠.

(٣) تفسير البرهان ٤ / ٣١٧.

اذهب فابتع لأهلك طعاماً. فخرج من عنده، فلقيه المقداد بن الأسود، وقاما ما شاء الله أن يقوما، وذكر له حاجته، فأعطاه الدينار، وانطلق إلى المسجد، فوضع رأسه فنام، فانتظره رسول الله ﷺ فلم يأتِ، ثُمَّ انتظره فلم يأتِ، فخرج يدور في المسجد فإذا هو بعليّ عليه السلام نائماً في المسجد، فحرّكه رسول الله ﷺ فقعد، فقال له: يا عليّ ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله خرجت من عندك فلقيني المقداد بن الأسود، فذكر لي ما شاء الله أن يذكر، فأعطيته الدينار، فقال رسول الله ﷺ أمّا إنَّ جبرئيل فقد أنبأني بذلك، وقد أنزل الله كتاباً فيك: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»[1].

والآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ...﴾.

والمقصود بالبِرِّ: إمَّا هو العمل البِرّ، أي: لن تصلوا إلى العمل البِرّ حتّىٰ تنفقوا ممّا تحبون، أو هو الثواب البِرّ، أي: لن تثابوا الثواب الواسع الحسن حتّىٰ تنفقوا ممَّا تحبون. ولعلَّ التفسير الأوَّل أوضح. وإنَّما جاء الحصر في الآية؛ لأنَّ قيمة العمل تكون بمقدار التضحية، والتضحية إنَّما تكون في إنفاق ما يحبُّه الإنسان دون إنفاق ما لا يهمُّه.

وقد روي عن أبي الطفيل قال: «اشترىٰ عليٌّ عليه السلام ثوباً فأعجبه، فتصدَّق به، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ آثر علىٰ نفسه آثره الله يوم القيامة بالجنَّة، ومَنْ أحبّ شيئاً فجعله لله قال الله تعالىٰ يوم القيامة: قد كان العباد يكافؤون فيما بينهم بالمعروف، وأنا أُكافيك اليوم بالجنّة»[2].

وقيل: «أضاف أبو ذر الغفاري ضيفاً، فقال للضيف: إنّي مشغول، وإنَّ لي إبلاً، فاخرج واتني بخيرها. فذهب فجاء بناقة مهزولة، فقال له أبو ذرّ: خنتني بهذه!

---

(١) المصدر السابق: ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٢) مجمع البيان: مج ١ / ٢ / ٣٤٢.

فقال: وجدت خير الإبل فحلها، فذكرت يوم حاجتكم إليه.

فقال أبو ذر: إنَّ يوم حاجتي إليه ليومٌ أُوضع في حفرتي مع أنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ...﴾. وقال أبو ذر: في المال ثلاثة شركاء: القَدَر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرِّها من هلك أو موت. والوارث ينتظرك أن تضع رأسك، ثُمَّ يستاقها وأنت ذميم. وأنت الثالث، فإن استطعت أن لاتكون أعجز الثلاثة فلا تكن، إنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ...﴾. وإنَّ هذا الجمل كان ممَّا أُحبُّ من مالي، فأحببت أن أُقدِّمه لنفسي»[١].

والآية الثالثة قوله تعالىٰ: ﴿... وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.

ويمكن أن يُجعل جمع الخصوصيّات في هذه الآية: من النذر وإطعام المسكين واليتيم والأسير ـ وهي خصوصيّات لا تجتمع في قِصَّة واحدة إلّا كصدفة ـ شاهداً علىٰ كون الآية صريحة في الإشارة إلى قضيَّة خارجيَّة ـ علىٰ الرغم من أنَّها في نفس الوقت تجري مجرى الشمس والقمر وتُعلِّم كبرىٰ الإيثار كقضيَّة حقيقيَّة ـ ولم تذكر في التأريخ شيعة وسُنَّة قِصَّة مشتملة علىٰ مجموع هذه الخصوصيّات، إلّا القِصَّة المعروفة عن أهل البيت عليهم السلام، فكأنَّ الآية صريحة في هذه القِصَّة.

ومن هنا يبدو خطأ رأي مَنْ قال: إنَّ الآيات نزلت في قِصَّة رجل أسود جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، وسأل عن التسبيح والتهليل، وقال له عمر: أكثرت السؤال علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، فنزلت السورة. أو نزلت في قِصَّة رجل من الحبشة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله للسؤال، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: اسأل وتعلَّم، قال: يا رسول الله، أنتم أفضل منَّا في اللون والشكل والنبوَّة، فإن آمنتُ أنا بما آمنت أنت به، وعملتُ بما تعمل به هل سأكون معك في الجنَّة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم، والذي نفسي بيده إنَّ بياض

---

(١) مجمع البيان: مج ١ / ٢ / ٣٤٣.

السود يبدو في الجنّة من مسيرة ألف سنة. ثُمَّ ذكر رسول الله ثواباً عظيماً لمن قال: لا إله إلّا الله، وسبحان الله، وبحمده، وهنا نزلت السورة[١].

فبالله عليك أيّ مناسبة بين موردي النزول هذين والخصوصيات المفروضة في الآية: من النذر وإطعام المسكين واليتيم والأسير؟!

والسورة أو ـ في الأقلّ ـ الآيات المربوطة مدنيَّة بإجماع مفسّري الشيعة، وعلىٰ المشهور لدىٰ السنّة، ولكن تجد متعصبّاً يرىٰ أنَّها مكّية؛ كي ينكر نزولها بشأنهم عليهم السلام؛ باعتبار أنَّها لو كانت نازلة بشأنهم لكان نزولها بعد ميلاد الحسن والحسين عليهما السلام، فلابدَّ أن تكون مدنية. ولكن بالله عليك أين كان الأسير في مكّة؟! أوليس ذكر الأسير شاهداً عى مدنيَّة الآيات؟![٢].

وكأنَّ في ذكر الأسير شاهداً علىٰ فضيلة الإيثار حتّىٰ إذا كان إيثاراً لكافر؛ وذلك علىٰ أساس عاطفة الإنسانيّة.

وهناك نكتة في هذه الآيات الشريفة تلفت النظر، وهي: أنّ آيات القرآن الشارحة لنعم الجنّة بشيء من التفصيل لا تخلو ـ عادة ـ من ذكر الحور العين، في حين أنّ هذه الآيات علىٰ شرحها الوافي لنعم الجنّة خلت من ذكرها، وكأنَّ ذلك بسبب أنَّ هذه الآيات وردت بشأن فاطمة وبعلها وبنيها، فوقع فيها التجنّب عن ذكر الحور العين إجلالاً و إعظاماً للزهراء سلام الله عليها.

وقد ورد في بعض الروايات: أنَّ جاريتهم فضّة ـ أيضاً ـ داخلة في هذه القِصَّة، ومشمولة للآيات المباركات[٣] ومن هنا قال الشيخ العارف بالله جوادي آملي حفظه الله: إنَّ هذه الآيات يفترض بها أن تبيِّن مقاماً مناسباً حتّىٰ لأدناهم في

---

(١) جاء نقل القِصّتين في تفسير «نمونه» ٢٥ / ٣٤٥ ـ ٣٤٦ عن الدر المنثور ٦ / ٢٩٧.
(٢) راجع تفسير «نمونه» ٢٥ / ٣٢٨ ـ ٣٣٠، وص: ٣٤٥ ـ ٣٤٨.
(٣) راجع البحار ٣٥ / ٢٣٧ ـ ٢٤٠.

المستوىٰ، وهي: خادمتهم فِضَّة، فإذن هذا المقام المذكور في هذه الآيات مقام خادمتهم، أمّا هم فمقامهم أعلىٰ من ذلك.

ونزول هذه الآيات بشأن أهل البيت مجمع عليه لدىٰ الشيعة، ومشهور لدىٰ السنة حتّىٰ أنَّ إمامهم محمَّد بن إدريس الشافعي قال:

إلىمَ إلىمَ[١] وحتّىٰ متى أُعاتب في حبِّ هذا الفتى

وهل زوِّجت فاطم غيره وفي غيره هل أتى هل أتى[٢]

ثُمَّ إنَّ النكتة التي أشرنا إليها لافتراض الآية كالصريح في الإشارة إلى قضيَّة خارجيَّة وهي: قضيَّة أهل البيتعليهم السلام ـ برغم أنّها في نفس الوقت تعطي كبرى كُلِّية ـ قد تسري في عدد من الآيات الأُخرىٰ، وذلك من قبيل:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٣].

فما أكثر المزكُّون، وما أكثر المصلُّون والراكعون، ولكن تحقّق الزكاة في حال الركوع إن هو إلّا صدفة، أفليس ذكر ذلك في الآية الشريفة قرينة واضحة علىٰ التفات الآية إلىٰ قضيَّة خارجيَّة واقعة؟! وتلك القضيَّة لم تعرف إلّا بشأن عليّ عليه السلام، وذلك من دون منافاة بين دلالة الآية ضمناً علىٰ القضيَّة الحقيقيَّة، وكبرىٰ الاهتمام بالصلاة والزكاة والركوع، وأمَّا تفسير الركوع بالخضوع بمناسبة دلالة عمليّة الركوع علىٰ الخضوع، فهو تفسير مجازي ويكون مخالفة للظاهر.

ولقد أخطأ مَنْ تخيَّل: أنَّ الإقران العمدي بين الزكاة والركوع قد يوجب نزول آية بشأنه، فقال: ـ علىٰ ما نُقِل عنه ـ والله لقد تصدَّقت بأربعين خاتماً وأنا راكع؛

---

(١) يحتمل أن تكون العبارة كالتالي: إلىمَ أُلامُ.

(٢) تفسير «نمونه» ٢٥ / ٣٣٠.

(٣) السورة ٥، المائدة، الآية: ٥٥.

لينزل فيّ ما نزل في عليّ بن أبي طالب فما نزل[١] ولم يَعرِف هذا الرجـل: أنَّ العمل لنزول آية غير العمل لوجه الله، وأنَّ المهمّ في عمل أميرالمؤمنين عليه السلام كـان إخلاصه وعبوديّته لله، ولم يفعل ما فعله بطمع نزول آية بشأنه. وقد ورد في بعض الأحاديث: كان في خاتمه عليه السلام الذي أعطاه للسائل: سبحان من فخري بأنّي له عبد[٢]. فطبيعي أنَّ الآية تنزل بشأن من لا يفتخر بولايته ومقامه وعظمته، وإنَّما يفتخر بعبوديّته لله، ولا تنزل بشأن مَن يعمل بطمع نزول آية؛ كي يفتخر بها.

ولنعم ما قاله حسّان بن ثابت:

أبا حسنٍ تفديك نفسي ومهجتي ... وكلُّ بطيءٍ في الهدىٰ ومسارعِ
أيذهبُ مدحي والمحبّرُ ضائعٌ ... وما المدحُ في جنبِ الإلهِ بضائعِ
فأنتَ الذي أعطيتَ إذ كنتَ راكعاً ... فدتكَ نفوسُ القومِ يا خيرَ راكعِ
فأنزلَ فيك الله خيرَ ولايةٍ ... وبيّنها في محكماتِ الشرائعِ[٣]

٢ـ قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ...﴾**[٤].

أفليس اجتماع الخصوصيّات الثلاث في هذه الآية دليلاً علىٰ إشارتها إلى نصب إمامنا أميرالمؤمنين عليه السلام وليّاً للمسلمين؟! وهي: أوّلاً: أنَّ الشيء الذي أمر الله نبيّه بتبليغه شيء كان يتثاقل النبيّ صلى الله عليه وآله في تعجيله حتّىٰ جاء هذا التأكيد الغريب من الله تعالىٰ علىٰ ذلك. وثانياً: أنّه سنخ أمر يكون عدم إبلاغه في حكم عدم إبلاغ الرسالة كلِّها. وثالثاً: أنَّ الله تعالىٰ وعد رسوله بالأمن ممّا كان يخافه صلى الله عليه وآله من أذىٰ

(١) البحار: ٣٥ / ١٨٣.
(٢) المصدر السابق: ص ١٩٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) السورة ٥، المائدة، الآية: ٦٧.

الناس، وما عسىٰ ما يمكن أن يكون هذا الحكم عدا تعيين الخلافة فيمن يخالفه هوىٰ المنافقين؟!

٣ـ قوله تعالىٰ: ﴿... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ...﴾[١] .

فبالله عليكم هل يمكن أن تكون حرمة الميتة أو لحم الخنزير التي وردت في سياق هذه الآية سبباً ليأس الذين كفروا من الدين، وموجباً لتكميل الدين، ولرضا الله ـ سبحانه ـ بالإسلام ديناً؟! أو أنَّ الشيء الوحيد الذي يمكن أن تجتمع فيه هذه الخصوصيّات هو: تعيين الخليفة الذي لولاه لتربّص الذين كفروا بموت النبيّ؛ كي لا يبقىٰ بعده مَنْ يرعىٰ الدين، فيقلبوا الساحة لصالح الكفر، ولولاه لكان دين الإسلام ناقصاً، وغير مرضيّ له سبحانه وتعالىٰ.

ولنعد إلى حديثنا عن الإيثار:

فعن أبان بن تغلب، عن الصادقعليه السلام قلت: «أخبرني عن حقِّ المؤمن علىٰ المؤمن؟

فقال: يا أبان دعه لا ترده.

قلت: بلىٰ جعلت فداك. فلم أزل أُردّد عليه.

فقال: يا أبان تقاسمه شطر مالك. ثُمَّ نظر إليّ فرأى ما دخلني فقال: يا أبان ألم تعلم أنَّ الله ـ عزَّوجلَّ ـ قد ذكر المؤثرين علىٰ أنفسهم؟!

قلت: بلى جعلت فداك.

فقال: إذا قاسمته فلم تؤثره بعد إنَّما أنت وهو سواءٌ، إنَّما تؤثر إذا أعطيته من النصف الآخر»[٢] .

---

(١) السورة ٥، المائدة، الآية : ٣.

(٢) تفسير البرهان ٤ / ٣١٧ ولعلَّ المقصود: بيان الفرد الكامل من الإيثار.

وعن جميل بن درّاج قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: خياركم سمحاؤكم، وشراركم بخلاؤكم. ومنْ خالص الإيمان البرّ بالإخوان، والسعي في حوائـجهم؛ فإن البارّ بالإخوان ليحبّه الرحمان، وفي ذلك مرغمة للشيطان، وتـزحـزح عـن النيران، ودخول الجنان. يا جميل أخبر بهذا غرر أصحابك، قلت: جعلت فداك مَنْ غرر أصحابي؟ قال: هم البارّون بالإخوان في العسر واليسر. ثُمَّ قال: يا جميل أما إنَّ صاحب الكثير يهون عليه ذلك. وقد مدح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ذلك صـاحب القليل، فقال في كتابه: ﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ...﴾»[١].

وأظهر الوجهين في مرجع الضـمير المـضاف إليـه الحبّ فـي قـوله تـعالىٰ: ﴿... وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ...﴾ أن يكون هـو الطـعام، فـيدلُّ عـلىٰ الحـاجة والجوع، فيكون ذلك من الإيثار الراقي، وأن لا يكون المرجـع هـو الله سبحانه وتعالىٰ؛ فإنَّ خصوصية كون العمل لله مفهومة من الآية التالية لهذه الآيـة، وهـي قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴾.

وقد يقول قائل: إنَّ الأَوجه هو: رجوع الضمير إلى الله؛ لأنَّ رجوعه إلى الطعام يعطي معنىٰ حبّ الطعام الراجع إلى حبّ الذات، في حين أنَّهم عليهم السلام ذائبون في حبِّ الله، ولا يفعلون شيئاً إلّا لحبِّ الله، لا لحب أنفسهم.

ولكنَّ الواقع: أنَّ حبَّ الذات إن فُسِّر بمعنىٰ التألم بالألم؛ باعتبار ما يفترض في مورد الآية المباركة من ألم الجوع، فهذا أمر ذاتي للإنسان، ولا يتوقَّف علىٰ أيّة أنانيّة ينبغي ذوبانها في ذات الله.

وهناك معنىٰ آخر للإيثار غير المعنىٰ الذي بحثناه حتّىٰ الآن، أو قلْ: مصداق آخر للإيثار غير تقديم الأخ المؤمن علىٰ نفسه، وهو: إيثار رضا الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ

---

(١) المصدر السابق.

رضا غيره. وهذا ـ أيضاً ـ مندمج في آيات سورة هل أتىٰ حيث قال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ...﴾ أي: أنَّ العمل كان لتحصيل رضا الله تعالىٰ. ومَنْ تكون أعماله لتحصيل رضا الله فمن الطبيعي أنَّه يقدّم رضا الله علىٰ رضا غيره.

وذكر بعض العرفاء المنحرفين عن عرفان أهل البيت عليهم السلام ـ الذي هو العرفان الحقيقي ـ: أنَّ هناك درجة ثالثة للإيثار غير الإيثارين اللذين عرفتهما، وهو: إيثار الإيثار، أي: أن يترك فرض كونه قد آثر؛ لأنَّ ادّعاء الإيثار يستدعي ادّعاء الملك، فالذي آثر هو الله تعالىٰ وليس هو؛ لأنَّه المالك الحقيقي، ثُمَّ يترك رؤيته؛ لكون الإيثار إيثار الله، ويترك الترك أيضاً؛ لأنَّ كلَّ هذا يعني: أن يرىٰ لنفسه حظّاً من الوجود وفعلاً أو تركاً، في حين أنّ الله هو الفعّال لما يريد، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾[1].

أقول: إنَّ هذا النمط من الحديث يتفرَّع علىٰ الغفلة عن الوجود التبعي الذي هو عين التبعية والإشراق للوجود المستقل، وأنَّ أفعال هذا الوجود التبعي أفعال للوجود المستقل بالواسطة لا بالمباشرة. وهذا هو المعنىٰ الدقيق للأمر بين الأمرين الذي غفل عنه المنحرفون عن خط أهل البيت عليهم السلام. ولتفصيل الكلام في ذلك مجال آخر. وقد مضى مقدار من الحديث عن ذلك في الحلقة الأُولى من هذا الكتاب. وأقول هنا: لو أنكرنا حتّىٰ الوجود التبعي للمخلوق فإرسال الرسل وإنزال الكتب لماذا؟! وتزكية النفس أو التربية العرفانية لمن؟!

---

(١) راجع منازل السائرين بشرحيه، أعني: شرح الكاشاني: ١٠٢ وشرح التلمساني: ٢٥٢ ـ ٢٥٣، والآية: ١٢٨ في السورة ٣، آل عمران.

الفصل الثامن والعشرون
حسـن الخُـلُق

قال تعالىٰ :

١ ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1] .

٢ ـ ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمٰن الرَّحِيم نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] .

٣ ـ ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾[3] .

قد يُرىٰ من نافلة الحديث التحدُّث عن حسن الخُلُق في فصل مستقل؛ لأنَّ الكتاب كلَّه في الأخلاق، فما معنىٰ إفراد باب للحديث عن حسن الخُلُق ؟ !

إلّا أنَّ حسن الخُلُق وإن كان قد يُطلَق علىٰ جميع محامد الأخلاق، والإسلام كلُّه أخلاق، وكأنَّ هذا المعنى العام هو المقصود بالمرويّ عن رسول الله ﷺ :

---

(١) السورة ٣، آل عمران، الآية : ١٥٩.

(٢) السورة ٦٨، القلم، الآيات : ١ ـ ٤.

(٣) السورة ٩، التوبة، الآية : ٦١.

«إنَّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق»[١].

وبقوله المرويّ أيضاً: «بُعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها»[٢] إلّا أنَّه قد يُطلق علىٰ خصوص حسن المعاشرة والتعامل مع الخَلْق، وقد يضاف إليه الخالق، إلّا أنّ الثاني يعود مرّة أُخرى إلى جانب الخُلُق بالمعنى العام؛ فانَّه جميعاً يبعث بمرضاة الخالق، فيدخل في حسن التعامل مع الخالق. فنحن ـ هنا ـ نقصد بحسن الخُلُق خصوص الأوّل، أعني: حسن المعاشرة والتعامل مع الخَلْق.

ونشير ـ هنا ـ إلى الخطأ الوارد عن العرفاء المنحرفين عن عرفان أهل البيت عليهم السلام حيث يقول القائل منهم: «إنَّ حسن المعاشرة مع الخَلْق يرتبط بمعرفتك مقام الخَلْق، إنّهم بأقدارهم مربوطون، وفي طاقتهم محبوسون، وعلىٰ الحكم موقوفون. فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخَلْق منك حتّىٰ الكلب، ومحبَّة الخَلْق إياك ونجاة الخَلْق بك»[٣].

فترى أنَّه ربط حسن الخُلُق مع الناس بالاعتقاد بالجبر، وأنَّهم جميعاً ـ إذن ـ معذورون؛ لأنَّهم مربوطون بأقدارهم، وموقوفون علىٰ حكم القضاء بشأنهم، فعلىٰ ماذا نتأذّىٰ منهم أو نجازيهم بالسوء. فالمفروض أن يأمن الخَلْق جميعاً منّا. وهذا معنىٰ ما يقال: من أنّ الصوفي يؤمن بالتصالح مع جميع الناس.

أقول: ومع القول بالجبر لا يبقىٰ موضوع للأخلاق وللحسن والقبح، ولا يبقىٰ معنىٰ للتبروٴ من أعداء الله الذي هو فرع مهم من فروع الدين. ولئن كان من الضروري أمن الناس جميعاً من المؤمن فأين الجهاد، وأين الحدود، وأين التعزيرات؟!

---

(١) البحار ١٦ / ٢١٠، و ٧١ / ٣٨٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٨٧، و ٦٩ / ٤٠٥.

(٣) راجع منازل السائرين لعبد الله الأنصاري قسم الأخلاق باب الخلق.

وعلىٰ أيّة حال، فلنذكر لك هنا نموذجاً من روايات حسن الخُلُق الواردة عن أهل البيت عليهم السلام:

١ ـ عن محمّد بن مسلم بسند صحيح، عن الباقر عليه السلام قال: «إنّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً»[١].

والمقصود بذلك: إمّا كون حسن الخُلُق كاشفاً عن كمال الدين، وأنّ مَن يكمل دينه يحسن أخلاقه، أوكون حسن الخُلُق هو نوع كمال للدين، وأنَّ الدين به يكمل.

٢ ـ عن عليٍّ بن الحسين عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما يوضع في ميزان امرئٍ يوم القيامة أفضل من حسن الخُلُق»[٢].

٣ ـ عن الصادق عليه السلام: «ما يقدم المؤمن علىٰ الله ـ عزّوجلّ ـ بعمل بعد الفرائض أحبّ إلى الله ـ تعالىٰ ـ من أن يسع الناس بخُلُقه»[٣].

٤ ـ عن ذريح بسند صحيح، عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ صاحب الخُلُق الحسن له مثل أجر الصائم القائم»[٤].

٥ ـ عن عبدالله بن سنان، عن الصادق عليه السلام: «البِرّ وحسن الخُلُق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»[٥].

٦ ـ عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الخُلُق منيحة يمنحها الله ـ عزّ وجلّ ـ خَلْقه: فمنه سجيّة، ومنه نيّة. فقلت: فأيّتهما أفضل؟ فقال: صاحب السجيّة، هو مجبول لا يستطيع غيره. وصاحب النيّة يصبر علىٰ الطاعة تصبّراً، فهو أفضلهما»[٦].

---

(١) و (٢) الكافي: ٢ / ٩٩.

(٣) المصدر السابق: ص ١٠٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.: ص ١٠١.

٧ـ عن أبي عبيدة الحذّاء، عن الصادقعليه السلام قال: «أُتي النبيّصلى الله عليه وآله بأُسارىٰ فأمر بقتلهم خلا رجل من بينهم. فقال الرجل: بأبي أنت وأُمّي يا محمَّد كيف أطلقت عنّي من بينهم؟ فقال: أخبرني جبرئيل عن الله ـ عزَّوجلَّ ـ أنَّ فيك خمس خصال يحبّه الله عزَّوجلَّ ورسوله: الغيرة الشديدة علىٰ حرمك، والسخاء، وحسن الخُلُق، وصدق اللسان، والشجاعة. فلمّا سمعها الرجل أسلم، وحسن إسلامه، وقاتل مع رسول اللهصلى الله عليه وآله قتالاً شديداً حتّىٰ استشهد»[1].

وبودِّي أن أزيِّن الكتاب ـ هنا ـ بإشارة عابرة إلى خُلُق رسول اللهصلى الله عليه وآله الذي لا يمكن أن يوصف، وكيف يمكن أن يُوصَف خُلُق من قال بشأنه الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وهذه الإشارة ضمن أمرين:

الأوّل: نقل عبارة عجبتني عن الطبرسيرحمه الله وهي ما يلي:

«من عجيب أمر رسول اللهصلى الله عليه وآله أنّه كان أجمع الناس لدواعي الترفع، ثُمَّ كان أدناهم إلى التواضع؛ وذلك أنَّهصلى الله عليه وآله كان أوسط الناس نسباً، وأوفرهم حسباً، وأسخاهم وأشجعهم، وأزكاهم وأفصحهم. وهذه كلُّها من دواعي الترفع. ثمّ كان من تواضعه أنَّه كان يرقع الثوب، ويخصف النعل، ويركب الحمار، ويعلف الناضح (يعني البعير يستقىٰ عليه) ويجيب دعوة المملوك، ويجلس في الأرض، ويأكل علىٰ الأرض، وكان يدعو إلى الله من دون زأر (أي: نهر) ولا كهر (أي: عبس الوجه) ولا زجر. ولقد أحسن مَن مدحه في قوله:

فَما حَمَلَتْ مِنْ نَاقَة فَوْقَ ظَهْرِها   أَبَرَّ وأَوْفىٰ ذِمَّةً مِنْ مُحمَّدِ»[2]

والثاني: قِصّتان طريفتان عن خُلُق رسول اللهصلى الله عليه وآله وهما ما يلي:

---

(١) البحار ٧١ / ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٢) البحار ١٦ / ١٩٩ نقلاً عن نفسير الطبرسي، وهو موجود في تفسير الطبرسي: مج ١ / ٢ / ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

الأُولى: ما ورد بسند تام عن أبان الأحمر، عن الصادق عليه السلام قال: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقد بُلِيَ ثوبه ـ يعني: ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله ـ فحمل إليه اثني عشر درهماً. فقال صلى الله عليه وآله: يا عليّ خذ هذه الدراهم فاشتر لي ثوباً ألبسه. قال عليٌّ عليه السلام فجئت إلى السوق، فاشتريت له قميصاً باثني عشر درهماً، وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فنظر إليه فقال: يا عليّ غير هذا أحبُّ إليَّ. أترىٰ صاحبه يقيلنا؟ فقلت: لا أدري، فقال: انظر. فجئت إلى صاحبه فقلت: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد كره هذا، يريد ثوباً دونه، فأقلنا فيه، فردّ عليّ الدراهم. وجئت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فمشى معي إلى السوق ليبتاع قميصاً، فنظر إلى جارية قاعدة علىٰ الطريق تبكي، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ما شأنك؟ قالت: يا رسول الله إنَّ أهلي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم بها حاجة، فضاعت، فلا أجسر أن أرجع إليهم، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة دراهم، وقال: ارجعي إلى أهلك. ومضىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السوق، فاشترى قميصاً بأربعة دراهم، ولبسه وحمد الله. وخرج فرآىٰ رجلاً عرياناً يقول: من كساني كساه الله من ثياب الجنّة، فخلع رسول الله صلى الله عليه وآله قميصه الذي اشتراه، وكساه السائل. ثُمَّ رجع إلى السوق، فاشترىٰ بالأربعة التي بقت قميصاً آخر، فلبسه وحمد الله. ورجع إلى منزله فإذا الجارية قاعدة علىٰ الطريق تبكي، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ما لك لا تأتين أهلك؟ قالت: يا رسول الله إنِّي قد أبطأت عليهم أخاف أن يضربوني، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: مرّي بين يديّ، ودلّيني علىٰ أهلك. وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله حتّىٰ وقف علىٰ باب دارهم، ثُمّ قال: السلام عليكم يا أهل الدار، فلم يجيبوه، فأعاد السلام، فلم يجيبوه، فأعاد السلام، فقالوا: وعليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال لهم: ما لكم تركتم إجابتي في أوّل السلام والثاني؟ فقالوا: يا رسول الله سمعنا كلامك[1] فأحببنا أن نستكثر منه. فقال

(١) الظاهر أنَّ الصحيح: (سلامك) كما هو الوارد في البحار: ١٦ / ٢١٥.

رسول الله ﷺ: إنّ هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤذوها، فقالوا: يا رسول الله هي حرّة لممشاك. فقال رسول الله ﷺ الحمد لله: ما رأيت اثني عشر درهماً أعظم بركة من هذه: كسا الله بها عريانين، وأعتق نسمة»[١].

الثانية: عن موسى بن جعفر عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، عن أميرالمؤمنين عليهم السلام «إنّ يهودياً كان له علىٰ رسول الله ﷺ دنانير فتقاضاه، فقال له: يا يهوديّ، ما عندي ما أُعطيك، فقال: فإنّي لا أُفارقك يا محمّد حتّىٰ تقضيني، فقال: إذن أجلس معك. فجلس معه حتّىٰ صلّىٰ في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله يتهدّدونه ويتواعدونه، فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال: ما الذي تصنعون به؟ فقالوا: يا رسول الله يهوديّ يحبسك؟! فقال ﷺ: لم يبعثني ربّي عزّوجلّ بأن أظلم معاهداً ولا غيره. فلمّا علا النهار قال اليهودي: أشهد أنّ لا إله إلّا الله، وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت إلّا لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإنّي قرأت نعتك في التوراة: محمّد بن عبدالله مولده بمكّة، ومهاجره بطيبة، وليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا متزيّن بالفحش، ولا قول الخناء، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله. وكان اليهودي كثير المال...»[٢].

أختم الحديث عن حسن الخُلُق بالإشارة إلى نموذج رائع من خُلُق الإسلام، وهو: ضرورة البرّ بالوالدين بأعلىٰ مستويات البِرّ اللذين هما خالقان مجازيان للإنسان، أي: أنّهما من المقدّمات الإعداديّة لوجوده، وقد يكون لا لشيء إلّا لشهوة بينهما. وقرن شكرهما في القرآن بشكر الله والإحسان إليهما بعبادة الله الذي هو الخالق الحقيقي، في حين أنّه في الغرب المتمدّن اليوم لا يسأل الولد عن

---

(١) الخصال: ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٢) البحار ١٦ / ٢١٦ ـ ٢١٧.

حال أبويه العجوزين المطروحين في دور العجزة أو المستشفيات إلّا بعد موتهما، فيراجعهما بعد الموت؛ لأجل بيع جسدهما للمستشفيات !!!

قال الله تعالىٰ:

١ ـ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[1].

٢ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

فقد قرن شكرهما بشكر الله حتّىٰ ولو كانا مشركين؛ وذلك بقرينة استثناء إطاعتهما في الشرك. وهذه القرينة وردت في آية أُخرى ـ أيضاً ـ في وصية الإنسان بوالديه حسناً، وهي قوله تعالىٰ:

٣ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

فيا ترىٰ هل يوجد سلطان في الدنيا يأمر أحداً بالإحسان إلى والدٍ له عدوّ لذلك السلطان ؟! نعم، هذا هو الخُلُق الرفيع للإسلام الذي لا يضاهيه خلق.

---

(١) السورة ١٧، الإسراء، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) السورة ٣١، لقمان، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

(٣) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٨.

الفصل التاسع والعشرون
التــواضــع

قال الله تعالىٰ:

١ ـ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾(١).

٢ ـ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾(٢).

٣ ـ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(٣).

التواضع هو: عقد القلب علىٰ صَغار النفس المؤثر في عواطفه وميوله وجوارحه في مقابل الله سبحانه وتعالىٰ، وفي مقابل رسله وأوليائه المعصومين، وفي مقابل المؤمنين. ويقابله التكبُّر، وهو: التعالي علىٰ الله سبحانه، وهذا كفر بالله، أو علىٰ رسوله أو الإمام، وهذا كفر بالرسول أو الإمام، أو علىٰ المؤمنين، وهذا هو

(١) السورة ٢٥، الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٣٧.

(٣) السورة ٣١، لقمان، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

التكبُّر المألوف بين المسلمين الذين لم يهذِّبوا أنفسهم، وهي معصية عظيمة.

وفرق التكبُّر عن الكِبر هو: أنّ الكِبْر مجرّد تعاليه على غيره في نفسه. أمّا التكبُّر فهو: إظهار الكِبْر وإبرازه بجوارحه. وفرق الكبر عن العُجْب: أنّ الكِبْر يكون بالقياس إلى غيره، وهو الله أو الرسول والإمام أو المؤمنون. والعُجْب ما يكون في الإنسان من رؤيته إلى نفسه بالعظمة والزهو والتبختر بذلك ولو من دون قياس بغيره، وهذا ـ أيضاً ـ من المعاصي العظيمة.

وقد ورد في روايات عديدة: أنَّ الكِبْر خاصٌّ بالله سبحانه وتعالىٰ، ويحرم منازعته فيه.

والسرُّ في ذلك واضح، وهو: أنَّ الوحيد الخالي من كلّ نقص هو الله تعالىٰ، فهو الذي يستحقُّ الكبرياء.

فعن العلاء بن فضيل بسند تام، عن الصادقعليه‌السلام، عن أبيه الباقرعليه‌السلام: «العِزّ رداء الله، والكِبْر إزاره، فمَنْ تناول شيئاً منه أكبَّه الله في جهنَّم»[1].

وعن معمر بن عطاء، عن الباقرعليه‌السلام قال: «الكِبْر رداء الله، والمتكبِّر ينازع الله رداءه»[2].

وعن ليث المرادي، عن الصادقعليه‌السلام قال: «الكِبْر رداء الله، فمَنْ نازع الله شيئاً من ذلك أكبَّه الله في النار»[3].

وبما أنَّ الكبرياء تختصّ بالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فكأنَّه لهذا جعل الكِبْر في بعض الروايات مساوقاً لأدنى الإلحاد. فعن حكيم قال: «سألت أبا عبداللهعليه‌السلام عن

---

(١) الكافي: ٢ / ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ص ٣١٠.

أدنىٰ الإلحاد فقال: إنَّ الكِبْر أدناه»[١].

والعُجب من جملة أسباب الكبر، فإنَّ من أُعجب بنفسه تعالىٰ علىٰ غيره. والروايات في ذمّ العُجْب كثيرة، وذلك من قبيل:

١ ـ ما عن الصادقعليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله بينما موسىعليه السلام جالساً إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلمَّا دنا من موسىعليه السلام خلع البرنس، وقام إلى موسى فسلّم عليه، فقال له موسى: مَنْ أنت؟

فقال: أنا إبليس.

قال: أنت فلا قرّب الله دارك.

قال: إنِّي إنَّما جئت لأُسلِّم عليك لمكانك من الله.

قال: فقال له موسىعليه السلام: فما هذا البرنس؟

قال: به أختطف قلوب بني آدم.

فقال موسى عليه السلام: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه؟

قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه (يعني: أنَّ هذه الحالة توجب الغرور والغفلة وعدم الاكتراث بعظمة الذنب. فمن الطبيعي أن يستحوذ الشيطان علىٰ صاحبها). وقال: قال الله عزّوجلَّ لداودعليه السلام: يا داود بشِّر المذنبين، وأنذر الصدّيقين.

قال داود: كيف أُبشّر المذنبين، وأُنذر الصدّيقين؟

قال: يا داود بشّر المذنبين أنِّي أقبل التوبة، وأعفو عن الذنب (يعني: ليتوبوا)، وأنذر الصدّيقين ألّا يعجبوا بأعمالهم؛ فإنَّه ليس عبدٌ أنصِبه للحساب إلَّا هلك»[٢].

٢ ـ وعن أحدهماعليهما السلام قال: «دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٠٩.

(٢) الكافي ٢ / ٣١٤.

فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدِّيق والعابد فاسق؛ وذلك أنَّه يدخل العابد المسجد مدلّاً بعبادته يدلُّ بها، فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندم علىٰ فسقه ويستغفر الله عزّوجلّ ممّا صنع من الذنوب»[١].

ويشبه هذا الحديث ما نقله في المحجَّة[٢] عن إحياء العلوم من «أنَّ رجلاً في بني إسرائيل يقال له: خليع بني إسرائيل؛ لكثرة فساده، مرَّ برجل آخر يقال له: عابد بني إسرائيل، وكانت علىٰ رأس العابد غمامة تظلُّه، فلمَّا مرَّ الخليع به قال الخليع في نفسه،: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعلَّ الله يرحمني، فجلس إليه. فقال العابد في نفسه: أنا عابد بني إسرائيل، وهذا خليع بني إسرائيل، كيف يجلس إليَّ. فأنف منه وقال له: قم عنّي. فأوحىٰ الله إلى نبيٍّ ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل، فقد غفرت للخليع، وأحبطت عمل العابد. وفي حديث آخر: فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع».

وأيضاً من أسباب التكبُّر الإحساس بالصَغار والذلِّ والهوان، فكأنَّه يريد أن يجبر ذلك بالكِبْر، أو ينتقم من الناس الذين يرىٰ نفسه حقيراً عندهم بالتكبر عليهم كما ورد في الحديث عن الصادقعليه السلام: «ما من رجل تكبَّر أو تجبَّر إلّا لذلّة وجدها في نفسه»[٣].

ومن أسباب علاج الكِبْر علاج سببه؛ فإن كان سببُ الكِبْرِ الإحساسَ بالذلِّ والصَغار، فليعرف صاحبه أنّ الله ـ تعالىٰ ـ خَلَقَ البشر عزيزاً كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...﴾[٤]، وقال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[٥].

---

(١) المصدر السابق: ص ٣١٤.

(٢) المحجة ٦ / ٢٣٩.

(٣) الكافي ٢ / ٣١٢.

(٤) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٧٠.

(٥) السورة ٤٤، الدخان، الآية: ٤٩.

وإنَّما الإنسان هو الذي يذلُّ نفسه بالكفر أو العصيان. وليس الذلُّ ـ حقيقةً ـ عبارةً عن النقصان في المال أو الولد، أو سلامة البدن، أو صباحة الوجه، أو الجاه والجلال عند أهل الدنيا أو ما إلى ذلك. وإن كان ذلُّه بالفسق، فعليه ترك الفسق. وإن كان سبب الكِبْرِ إعجابَه بنفسه، فليدقِّق في معايبه ونقائصه يرها أكثر من كماله، بل قد ينكشف له أنَّ إعجابه لم يكن بالكمال، بل بالنقص، كالإعجاب بتغلُّبه علىٰ حقِّ فلان بالمكر والظلم، فيرىٰ نفسه بذلك ذكيّاً أو شجاعاً، ولو كان إعجابه ـ حقّاً ـ بكمال، فليلتفت إلى أنَّ عاقبة الأمر مستورة عنه. وقد يؤدِّي نفس هذا الإعجاب أو أيِّ سبب آخر إلى فقده لذلك الكمال كما ورد في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام: «العَجب كلُّ العجب ممَّن يُعْجب بعمله وهو لا يدري بما يُختَم له. فمن أُعجب بنفسه وفعله فقد ضلَّ عن نهج الرشاد، وادَّعىٰ ما ليس له، والمدّعي من غير حقٍّ كاذب وإن خفي دعواه وطال دهره، فإنَّه أوَّل ما يُفعَل بالمعجب نزع ما أُعجب به؛ ليعلم أنَّه عاجز حقير ويشهد علىٰ نفسه؛ لتكون الحُجَّة عليه أوكد كما فُعِلَ بإبليس...»[١].

وما أقرب الكِبْر إلىٰ العلماء غير الربَّانيين. وتوضيح ذلك: أنَّ العالم الربَّاني هو العالم الذي تجتمع فيه صفتان:

الأُولىٰ: أن يكون مهمُّ علمه الذي يعتني به وينمِّيه معرفةَ نفسه ومعرفة ربِّه «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربَّه...»[٢]. وهذا العلم لا يزيد العالم إلَّا خضوعاً وخشوعاً؛ لأنَّه بغوره في معرفة النفس تنكشف له نقائصه التي لا تتناهىٰ[٣] أمام ما يغور فيه

---

(١) المحجة ٦ / ٢٧٥.

(٢) البحار ٢ / ٣٢، الحديث ٢٢.

(٣) فمعرفته بنقائصه تمنعه عن الكِبْر.

ـ أيضاً ـ من عظمة الربِّ التي لا تتناهىٰ[١] وتكون باقي علومه في حاشية هذا العلم الأصلي. فأوَّل العلم معرفة الجبَّار، وآخر العلم تفويض الأمر إليه.

والثانية: أن يقترن علمه بتهذيب النفس؛ فإنَّ العلم بلا تهذيب للنفس يضرُّ ولا ينفع، فإنَّ العلم سيف ذو حدَّين؛ لأنَّ معرفة الأُمور كما تُعين الشخص في وضع الشيء في محلِّه؛ إذ لولا العلم بالشيء وبمحله لما استطاع إحراز وضع الشيء في محلِّه، كذلك تُعينه في وضع الشيء في غير محلِّه؛ إذ لولا العلم بالشيء وبمحلِّه وغير محله لما استطاع إتقان وضع الشيء في غير محلِّه. ويبقىٰ تهذيب النفس وعدمه هو الذي يُعيِّن للعالم أن يصرف علمه في جانب العدل أو في جانب الظلم، ألا ترىٰ أنَّ علم الأسلحة ـ مثلاً ـ يستفيد منه العادل لإقامة العدل ولحرب أعداء الله، ويستفيد منه الظالم للظلم ولمحاربة المؤمنين. وهذا معنىٰ ما قلنا: من أنَّ العلم سيف ذو حدّين. والعلم إن لم يقترن بتهذيب النفس أوجب التكبُّر، وإن اقترن بتهذيب النفس أوجب التواضع؛ لأنَّه مهما تقدّم الإنسان في العلم انكشف أمامه وادٍ أوسع للجهل، وعرف حقيقة قوله تعالىٰ: ﴿... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٢] وعرف أنَّ ما أُوتي من العلم إنَّما هو بتوفيق الرب وليس من تلقاء نفسه، ومتىٰ ما أراد الله أن ينزعه عنه لنزعه، فهو ليس بأعظم من الرسول ﷺ الذي قال له الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾[٣].

وأيضاً ما أقرب الكِبْر إلى العبَّاد والزُّهاد المغرورين بعبادتهم وزهدهم دون المخلصين في عملهم. وقد ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام قال: «أتىٰ عالم عابداً

---

(١) فيخضع لدىٰ ما يرىٰ نفسه لا شيء في مقابل الربّ. وهذا ـ أيضاً ـ يمنعه عن الكِبْر.

(٢) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٨٥.

(٣) السورة ١٧، الإسراء، الآيتان: ٨٦ ـ ٨٧.

فقال له: كيف صلاتك؟

فقال: مثلي يُسأل عن صلاته؟! وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا.

قال: فكيف بكاؤك؟

قال: أبكي حتّىٰ تجري دموعي.

فقال له العالم: فإنَّ ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدلٌّ، إنّ المدلَّ لا يصعد من عمله شيء»[1].

أمّا مَنْ كان عابداً لله عن علم ووعي، ولم تكن عبادته عبادةَ الجهلاء، وكان مخلصاً في عمله، فهو بعيدٌ عن الكِبْر أشدّ البعد.

وناهيك ـ إذن ـ من الأنبياء والمرسلين. ومن هنا نرىٰ أن العلّامة المجلسي رحمه الله يأوّل الرواية الواردة في قِصَّة يوسف الصدّيق علىٰ نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام، فقد ورد في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «إنَّ يوسف عليه السلام لمّا قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام دخله عزُّ المُلْك، فلم ينزل إليه، فهبط جبرئيل عليه السلام، فقال: يا يوسف ابسط راحتك (يعني: باطن الكفّ) فخرج منها نور ساطع فصار في جوّ السماء، فقال يوسف عليه السلام: يا جبرئيل ما هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال: نزعت النبوَّة من عقبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب، فلا يكون من عقبك نبيّ»[2].

قال المجلسي رحمه الله: «ينبغي حمله علىٰ أنَّ ما دخله لم يكن تكبُّراً وتحقيراً لوالده؛ لكون الأنبياء مُنزَّهين عن أمثال ذلك، بل راعىٰ فيه المصلحة؛ لحفظ عزَّته عند عامَّة الناس؛ لتمكّنه من سياسة الخَلْق، وترويج الدين؛ إذ كان نزول الملك عندهم لغيره موجباً لذُلّه. وكان رعاية الأدب للأب مع نبوَّته ومقاساة الشدائد لحبّه أهمَّ

---

(١) الكافي ٢ / ٣١٣.

(٢) الكافي ٢ / ٣١١ ـ ٣١٢.

وأولىٰ من رعاية تلك المصلحة، فكان هذا منه‌عليه السلام تركاً للأولىٰ، فلذا عوتب عليه، وخرج نور النبوّة من صلبه؛ لأنَّهم لرفعة شأنهم وعلوِّ درجتهم يعاتبون بأدنىٰ شيء. فهذا كان شبيهاً بالتكبُّر ولم يكن تكبُّراً»[١].

أقول: هذا الحمل إنَّما يكون بعد فرض صدق الرواية، إلَّا أنَّ صدق الرواية عندي بعيد.

وعلىٰ أيّ حال، فعلى عكس ما قلناه: من أنَّ العلم والعبادة يوجبان الكِبْر حينما لا يكونان جامعين للشرائط، نقول هنا: إنَّهما يوجبان التواضع والخشوع حينما يكونان إلهيين واجدين للشرائط. وإن أردت أن تقف علىٰ حقيقة ذلك، فاستمع إلى حقيقة العلم وحقيقة العبوديَّة وأثرهما عن لسان الإمام الصادق‌عليه السلام في رواية طريفة مرويَّة في البحار[٢] عن عنوان البصري (وكان شيخاً كبيراً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة) قال: «كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلمَّا قدم جعفر الصادق‌عليه السلام المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: إنِّي رجل مطلوب، ومع ذلك لي أوراد في كلِّ ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي، وخذ عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف إليه. فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده، وقلت في نفسي: لو تفرَّس فيَّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه. فدخلت مسجد الرسول‌صلى الله عليه وآله وسلَّمت عليه، ثُمَّ رجعت من الغد إلى الروضة وصلَّيت فيها ركعتين، وقلت: أسألك يا الله يا الله أن تعطف عليَّ قلب جعفر، وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم. ورجعت إلى داري مغتماً، ولم أختلف إلى مالك بن أنس؛ لما أُشرب قلبي من حبِّ جعفر، فما خرجت من داري إلّا إلى الصلاة المكتوبة حتّىٰ

---

(١) مرآة العقول ١٠ / ٢١٥.

(٢) البحار ١ / ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

عيل صبري، فلمَّا ضاق صدري تنعَّلت وتردَّيت وقصدت جعفراً وكان بعدما صلَّيت العصر، فلمَّا حضرت باب داره استأذنت عليه، فخرج خادم له فقال: ما حاجتك؟ فقلت: السلام علىٰ الشريف فقال: هو قائم في مصلَّاه. فجلست بحذاء بابه، فما لبثت إلّا يسيراً إذ خرج خادم فقال: ادخل علىٰ بركة الله. فدخلت وسلَّمت عليه، فردَّ السلام، وقال: اجلس غفر الله لك، فجلست، فأطرق مليَّاً ثُمَّ رفع رأسه وقال: أبو مَنْ؟ قلت: أبو عبدالله، قال: ثبَّت الله كنيتك، ووفَّقك يا أبا عبدالله، ما مسألتك؟ فقلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم غير هذا الدعاء لكان كثيراً، ثُمَّ رفع رأسه ثُمَّ قال: ما مسألتك؟

فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك عليَّ، ويرزقني من علمك، وأرجو أنّ الله ـ تعالىٰ ـ أجابني في الشريف ما سألته.

فقال: يا أبا عبدالله ليس العلم بالتعلُّم إنَّما هو نور يقع في قلب مَنْ يريد الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ أن يهديه[١]، فإن أردت العلم فاطلب أوَّلاً في نفسك حقيقة العبوديَّة[٢]، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهِّمك.

قلت: يا شريف، فقال: قل: يا أبا عبدالله، قلت: يا أبا عبدالله ما حقيقة العبوديَّة؟

قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرىٰ العبد لنفسه فيما خوَّله الله مُلكاً؛ لأنَّ العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبِّر العبد لنفسه تدبيراً[٣] وجملة اشتغاله فيما أمره تعالىٰ به ونهاه عنه، فإذا لم يرَ العبد لنفسه فيما خوَّله الله ـ تعالىٰ ـ مُلكاً، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله ـ تعالىٰ ـ أن

---

(١) كأنَّه إشارة إلى ما قلناه: من أنَّ رأس العلم معرفة النفس والربِّ.

(٢) قال الله تعالىٰ: ﴿... وَاتقُوا اللهَ وَيعلِّمُكمُ اللهُ...﴾ السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٣) يُحمل علىٰ معنىٰ التوكُّل غير المنافي لمأموريتنا بالتذرّع بالأسباب الظاهرية بالقدر المعقول.

ينفق فيه، وإذا فوَّض العبد تدبير نفسه علىٰ مدبِّره، هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالىٰ ونهاه، لايتفرَّغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا اكرم الله العبد بهذه الثلاثة، هان عليه الدنيا وإبليس والخَلْق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزّاً وعلوّاً[١]، ولا يدع أيامه باطلاً. فهذا أوَّل درجة التُقىٰ، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

قلت: يا أبا عبدالله أوصني.

قال: أُوصيك بتسعة أشياء، فإنَّها وصيَّتي لمريدي الطريق إلى الله تعالىٰ، والله أسأل أن يوفِّقك لاستعماله[٣]: ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإيَّاك والتهاون بها.

قال عنوان: ففرَّغت قلبي له.

فقال: أمَّا اللواتي في الرياضة: فإيَّاك أن تأكل ما لا تشتهيه[٤]؛ فإنَّه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلَّا عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً، وسمِّ الله، واذكر حديث الرسول ﷺ: ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرّاً من بطنه، فإن كان ولابدَّ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه.

وأمَّا اللواتي في الحلم فمَنْ قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشراً، فقل: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة، ومَنْ شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل[٥] الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك، ومَنْ

---

(١) فيا تُرى إنّ عالماً عابداً كهذا هل يعقل بشأنه التكبُّر؟!

(٢) السورة ٢٨، القصص، الآية: ٨٣.

(٣) الظاهر أنَّ الصحيح لاستعمالها.

(٤) كأنَّ المقصود: الأكل من دون شهيَّة الأكل.

(٥) لعلَّ الصحيح: أسأل، أي: من دون حرف الفاء.

وعدك بالخنى[١] فعده بالنصيحة والدعاء.

وأمَّا اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإيَّاك أن تسألهم تعنُّتاً وتَجْرِبة، وإيّاك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً. قم عنِّي يا أبا عبدالله فقد نصحت لك، ولا تفسد عليَّ وردي؛ فإنِّي امرؤ ضنين بنفسي، والسلام علىٰ مَنْ اتَّبع الهدىٰ». انتهى الحديث.

وممَّا يمنع تورُّط العلماء بالله في التكبُّر علمهم بأنَّ العلم حُجَّة، ومن هنا يكون أمر العالم من هذه الناحية أخطر من أمر الجاهل. وقد ورد في الحديث عن الصادقعليه‌السلام: «...أنَّه يُغفَر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفَر للعالم ذنب واحد...»[٢].

وعن النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله: «مَنْ ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلّا بعداً»[٣].

وعنهصلى‌الله‌عليه‌وآله: « أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه »[٤].

وعن مسعدة بن زياد بسند صحيح، عن الصادقعليه‌السلام، عن أبيه، عن آبائه عليهم‌السلام «أنَّ عليّاًعليه‌السلام قال: إنَّ في جهنَّم رحىً تطحن خمساً، أفلا تسألون ما طحنها؟ فقيل له: فما طحنها يا أميرالمؤمنين؟ قال: العلماء الفجرة، والقُرَّاء الفسقة والجبابرة الظلمة، والوزراء الخونة، والعرفاء الكذبة...»[٥].

وأختم حديثنا عن التواضع بذكر رواية مسعدة بن صدقة عن الصادقعليه‌السلام قال: «أرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت له

---

(١) فُسِّر بالفحش في الكلام.

(٢) البحار ٢ / ٢٧.

(٣) المصدر السابق: ٢ / ٣٧.

(٤) المصدر السابق: ٣٨.

(٥) المصدر السابق.: ص ١٠٧، والخصال: ٢٩٦.

جالس علىٰ التراب، وعليه خُلقان الثياب، قال: فقال جعفر عليه السلام: فأشفقنا منه حين رأيناه علىٰ تلك الحال، فلمّا رأىٰ ما بنا وتغيُّر وجوهنا قال: الحمد لله الذي نصر محمّداً وأقرَّ عينه، ألا أُبشِّركم؟ فقلت: بلىٰ أيُّها الملك، فقال: إنَّه جاءني الساعة من نحو أرضكم عين من عيوني هناك، فأخبرني أنَّ الله ـ عزَّوجلَّ ـ قد نصر نبيَّه محمّداً صلى الله عليه وآله، وأهلك عدوَّه، وأُسر فلان وفلان وفلان التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك لكأنِّي أنظر إليه حيث كنت أرعىٰ لسيِّدي هناك وهو رجل من بني ضمرة. فقال له جعفر: أيُّها الملك، فمالي أراك جالساً علىٰ التراب، وعليك هذه الخُلقان؟! فقال له: يا جعفر، إنَّا نجد فيما أنزل الله علىٰ عيسى عليه السلام أنَّ من حقِّ الله علىٰ عباده أن يحدثوا له تواضعاً عندما يحدث لهم من نعمة، فلمَّا أحدث الله ـ عزَّوجلَّ ـ لي نعمة بمحمَّد صلى الله عليه وآله أحدثت لله هذا التواضع. فلمَّا بلغ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال لأصحابه: إنَّ الصدقة تزيد صاحبها كثرة، فتصدَّقوا يرحمكم الله، وإنَّ التواضع يزيد صاحبه رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن العفو يزيد صاحبه عِزَّاً، فاعفوا يعزّكم الله»[١].

---

(١) الكافي ٢ / ١٢١.

الفصل الثلاثون
الانبساط

ذكر عبدالله الأنصاري[1] : «الانبساط إرسال السجيَّة، والتحاشي من وحشة الحشمة، وهو السير مع الجبلَّة... إلى أن قال: الانبساط مع الحقِّ وهو أن لا يجنِّبك خوف، ولا يحجبك رجاء، ولا يحول بينك وبينه آدم وحوَّاء...».

وذكر شارح كتابه عبدالرزَّاق الكاشاني[2] : «الانبساط لا يجتمع مع الخوف والرجاء؛ فإنَّ الخوف والرجاء في حال البداية ومقام النفس والاحتجاب، والانبساطُ حال العارفين وأرباب القلوب والتجلِّيات، والخوف يحكم بالتجنُّب والبُعد، والانبساطُ لا يكون إلّا مع القرب، وفي بعض النسخ (يعني: بعض نسخ كتاب منازل السائرين): أن لا يحبسك خوف، وفي بعضها لا يجبِّنك من الجُبْن، وهي متقاربة في المعنى؛ فإنَّ الخوف يورث الجُبْن والإحجام والانقباض، وكلُّها تنافي الانبساط، وكيف لا تنافي وهو من عالم الجمال، والخوف وما يلازمه من عالم الجلال. وكذلك الرجاء؛ فإنَّ صاحب الرجاء متوقِّع شيئاً، فلابدَّ له من التملُّق حتّىٰ تقضىٰ حاجته، فلا يستطيع أن ينبسط، وصاحب الانبساط مسترسل علىٰ حكم الجبلَّة والغريزة غير متكلِّف ولا متملِّق. «ولا يحول بينك وبينه آدم وحوّاء»

---

(١) في منازل السائرين، قسم الأخلاق، الباب العاشر باب الانبساط.

(٢) في شرحه لمنازل السائرين: ١١٢ ـ ١١٣.

أي: لا يتوسَّط بين صاحب الانبساط وبين ربِّه خَلْق؛ لغاية قربه، كقولهم ما للتراب وربِّ الأرباب، فهو بصفاء الفطرة في مقام القلب، مجرَّد عن مزاحمة أحكام النشأة والصفات البشريَّة والنفسانيَّة، متوسِّل بالاتِّصال الأزلي، فلا يتوسَّل إلى ربِّـه إلَّا بربِّه، فأين هو من مزاحمة الماء والطين؟!» انتهىٰ ما أردنا نقله من كلام الكاشاني.

وقد جعل عبدالله الأنصاري[١] وكذلك الغزالي[٢] من أمثلة الانبساط قـول موسىﷺ: ﴿... إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاء وَتَهْدِي مَـن تَشَـاء ...﴾ إلّا أنَّ الشارح الآخر لكتاب منازل السائرين وهو عفيف الدِّين التلمساني[٣] تنبَّه إلىٰ أنَّه متىٰ ما حمل لفظ الفتنة علىٰ الاختبار[٤] لم يبقَ له ما يدلُّ علىٰ الانبساط.

وقال الغزالي[٥]: «اعلم أنَّ الخوف عبارة عن تألُّم القلب واحتراقـه بسـبب توقُّع مكروه في الاستقبال. وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء. ومن أنس بالله، وملك الحقُّ قلبه، وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحقِّ عـلىٰ الدوام، لم يـبقَ له التفات إلى المستقبل، فلم يكن له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلىٰ من الخوف والرجاء، فإنَّهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها. وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: «الخوف حجاب بين الله ـ تعالىٰ ـ وبين العبد». وقال أيضاً: إذا ظهر الحقُّ علىٰ السرائر لا يبقى فـيها فـضلة لرجـاء ولا لخـوف. وبـالجملة فالمحبُّ إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق، كان ذلك نقصاً فـي

---

(١) في المصدر السابق عنه.

(٢) في كتاب الإحياء ٤ / ٣١٥.

(٣) ص: ٢٧٣. انتشارات بيدار بقم.

(٤) من قبيل قوله تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَايُفْتَنُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ السورة ٢٩، العنكبوت، الآيتان: ٢ ـ ٣ (لا من قبيل قولنا: الملاحم والفتن).

(٥) في المصدر السابق عنه: ص ١٤٧.

الشهود، وإنَّما دوام الشهود غاية المقامات» انتهىٰ كلام الغزالي.

أقول: قوله: «الخوف حجاب بين الله ـ تعالىٰ ـ وبين العبد» يقصد به: الحجاب النوري؛ فإنَّهم يقسِّمون الحجاب إلى قسمين: حجاب ظلماني كشهوات النـفس، وحجاب نوراني كالخوف من الله تعالىٰ. وهم يقولون: إنَّ الخوف مـن مـقامات العوام، وليس من مقامات أهل الخصوص.

وقال الغزالي[١] : «اعلم أنَّ الأُنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوِّشه قلق الشوق، ولم ينغِّصه خوف التغيّر والحجاب، فإنَّه يثمر نوعاً مـن الانـبساط فـي الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالىٰ. وقد يكون مُنكَر الصورة؛ لما فيه مـن الجرأة وقلّة الهيبة، ولكنَّه محتمل ممَّن أُقيم في مقام الأُنس. ومَن لم يقم في ذلك المقام، ويتشبَّه بهم في الفعل والكلام، هلك به، وأشرف علىٰ الكفر. ومثاله: مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله ـ تعالىٰ ـ كليمه موسى عليه السلام أن يسأله؛ ليسـتسقي لبـني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين. وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفاً، فأوحىٰ الله ـ عزَّوجلَّ ـ إليه كيف أستجيب لهـم وقـد أظـلمت عـليهم ذنـوبهم، سرائرهم خبيثة، يدعونني علىٰ غير يقين، ويأمنون مكري، ارجع إلى عـبد مـن عبادي يقال له: برخ، فقل له: يخرج حتّىٰ أستجيب له. فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يُعرَف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها علىٰ عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بـنور الله عزَّوجلَّ، فسلَّم عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طلبتنا منذ حين، اخرج فاستسقِ لنا. فخرج فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك. انقصت عليك عيونك (وفي نسخة أُخرى: تعصَّت عليك

---

(١) في المصدر السابق عنه: ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

غيومك[١]) أم عاندت الرياح عن طاعتك، أم نفد ماعندك، أم اشتدَّ غضبك علىٰ المذنبين، ألست كنت غفَّاراً قبل خَلْق الخطَّائين ؟! خلقت الرحمة، وأمرت بالعطف، أم تُرينا أنَّك ممتنع، أم تخشىٰ الفوت فتعجل بالعقوبة ! قال : فما برح حتّىٰ اخضلَّت بنو إسرائيل بالقطر، وأنبت الله ـ تعالىٰ ـ العشب في نصف يوم حتّىٰ بلغ الركب. قال : فرجع برخ، فاستقبله موسى‌عليه‌السلام، فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربِّي، كيف أنصفني ؟ فهمَّ موسى‌عليه‌السلام به، فأوحىٰ ـ الله تعالىٰ ـ إليه : أنَّ برخاً يضحكني كلَّ يوم ثلاث مرّات. وعن الحسن قال.... كان أبو حفص يمشي ذات يوم، فاستقبله رستاقيٌّ مدهوش، فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال : ضلَّ حماري، ولا أملك غيره. قال : فوقف أبو حفص وقال : وعزَّتك لا أخطو خطوة ما لم تردَّ عليه حماره، قال : فظهر حماره في الوقت، ومرَّ أبو حفص. فهذا وأمثاله يجري لذوي الأُنس، وليس لغيرهم أن يتشبَّه بهم. قال الجنيد : أهل الأُنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياءَ هي كفر عند العامة. وقال مرَّةً : لو سمعها العموم لكفَّروهم، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك، وذلك يحتمل منهم ويليق بهم. وإليه أشار القائل :

قومٌ تخالجُهم زهَو بسيِّدهم ... والعبدُ يزهو علىٰ مقدارِ مولاهُ
تاهوا برؤيته عمَّا سواه له ... يا حسنَ رؤيتهم في عزٍّ ما تاهوا»

انتهى ما أردت نقله من كلام الغزالي.

أقول : من الطريف أنَّ الغزالي افترض أنَّ رجلاً معاصراً لموسى‌عليه‌السلام اسمه برخ، كان أعلىٰ مرتبة في الأُنس والشهود من موسى‌عليه‌السلام، ومع ذلك لم يخصُّه الله بالنبوَّة كما خصَّ موسى‌عليه‌السلام بها، فكان هو أفضل من نبيٍّ زمانه علىٰ رغم عدم نبوَّته وبرغم أنَّ ذاك النبيّ ليس نبيَّاً اعتياديَّاً، بل من أُولي العزم. وقد عرفت من القِصَّة الخُرافيَّة

---

(١) هكذا في نسخة إحياء الإحياء ٨ / ٨١.

التي سردها: أنَّ موسى لم يدرك أُنس برخ، وشهوده، وانبساطه، فهمَّ به، ولا أدري هل المقصود بقوله: «همَّ به» أنَّه أراد ضربه، أو أراد قتله، فتدارك الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ الموقف بأن وضَّح لموسى عليه السلام أنَّ برخاً يُضحكه باليوم ثلاث مرَّات!!

وأنت إذا تأمَّلت في حالات أئمَّتنا المعصومين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ الذين لا يساوي كلُّ أقطاب العرفاء والصوفيَّة ظفراً من إبهامهم، لم ترَ عيناً ولا أثراً فيهم عليهم السلام من الانبساط في الأقوال، والأفعال، والمناجاة مع الله سبحانه وتعالىٰ، أو رفع ستار الحشمة في التعابير، أو ترك الأدب فيها من سنخ ما نقلوه عن برخ في قِصَّتهم الخياليَّة، أو ما إلى ذلك، بل ترىٰ تعابيرهم العالية السامية، من قبيل ما يلي: «إلهي أُفكِّر في عفوك فتهون عليَّ خطيئتي، ثُمَّ أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليَّ بليَّتي»(١).

وقال ضرار في وصف عليٍّ عليه السلام: «... ولو رأيته إذ مثل في محرابه وقد أرخىٰ الليل سدوله، وغارت نجومه، وهو قابض علىٰ لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وهو يقول: يا دنيا أبي تعرَّضت، أم إليَّ تشوَّقت، هيهات هيهات لا حاجة لي فيك، أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي عليك، ثُمّ يقول: واه واه لبعد السفر، وقلَّة الزاد، وخشونة الطريق»(٢).

وأيضاً من الطريف أنَّهم يقولون: إنَّ السالكين حينما يصلون إلى نهاية السفر الأوَّل يفترون عن الأعمال الشاقَّة، ويقتصرون علىٰ الفرائض والسُّنَن الرواتب؛ وذلك: أنَّهم يعتقدون(٣) أنَّ أمام السالك أسفاراً أربعة:

---

(١) البحار ٤١ / ١٢.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥.

(٣) راجع شرح منازل السائرين للتلمساني: ٣٨٠ ـ ٣٨٢، وشرح منازل السائرين للكاشاني: ١٦٤ ـ ١٦٥.

السفر الأوَّل : هو السير إلى الله سبحانه وتعالىٰ، وبه يطوي السالك المنازل والأحوال والمقامات إلى أن يصل إلى الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وصولَ عيانٍ، وليس وصول دليل وبرهان، ويفنىٰ في الله عزَّوجلَّ، ويبقىٰ بعد الفناء بقاءً في الله سبحانه وتعالىٰ. وبانتهاء السفر الأوَّل يفترون عن الأعمال الشاقَّة، ويقتصرون علىٰ الفرائض والسُّنَن الرواتب؛ لما حصل لهم من الطمأنينة. قالوا: وأوَّل وصوله لا يخلو غالباً من اصطلام وسُكْر؛ لأنَّ لهذا الشهود سطوةً تقهر كلَّ شيء؛ لفناء الكلِّ فيه عند تجلِّيه، فإذا صحا واستأنس بشهوده رأىٰ جمال الذات بعينه؛ إذ لا غير ثمَّة، فشهوده شهود للحقِّ بذاته، فكان الشاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[1] عين المشهود[2].

السفر الثاني : يبدأ بالبقاء في الله. ويكون هذا السفر هو: السير في الله، أي: في مراتب أفعاله، وصفاته، وأسمائه. والتنقل فيه يُسمَّىٰ التلوين في التمكين. قالوا: والناس يعظِّمون صاحب السفر الأوَّل أكثر ممَّا يعظِّمون صاحب السفر الثاني؛ لبُعد الثاني عن إدراكهم.

السفر الثالث : وبعد كمال السفر الثاني (وانتهاؤه القطبيَّة الوجوديَّة التي هي مركز المراكز، وصاحبها قطب الأقطاب) تكون بداية السفر الثالث، وهو: سفر المرسلين. ويُسمَّىٰ السفر بالله إلى خلقه. وفيه يكون التنزُّل إلى مقادير العقول؛ لدعوتهم إلىٰ الله.

السفر الرابع : هو: الرجوع إلى الله عزَّوجلَّ، والبقاء بالله. ويُسمَّىٰ سفراً بالموجود إلى الوجود. وأكثر ما يكون هذا السفر عند الموت. وإليه أشار رسول

---

(١) السورة ٨٥، البروج، الآية: ٣.

(٢) راجع بلحاظ هذه الجملة بالذات شرح الكاشاني لمنازل السائرين: ص ١٦٤ لدىٰ شرح الدرجة الثالثة للطمأنينة.

الله ﷺ بقوله: «اخترت الرفيق الأعلىٰ» قالوا: فهذه الأسفار الأربعة هي للرُسُل بطريق الأصل، وللأتباع بالوراثة والتبعيَّة.

وذكر سماحة آية الله الشيخ جوادي آملي حفظه الله في بيان حقيقة السفر الرابع: أنَّه بعد الرجوع من الوحدة إلى الكثرة (الذي هو السفر الثالث) يسير في الكثرة بمنظار الوحدة(١).

وعبَّر السيّد الإمام ـ رضوان الله تعالىٰ عليه ـ عن هذا السفر باسم السفر من الخلق إلى الخلق، في مقابل السفر من الخلق إلى الحقّ الذي هو السفر الأوَّل، ومن الحقِّ إلى الحقِّ بالحقِّ الذي هو السفر الثاني، ومن الحقِّ إلى الخلق الذي هو السفر الثالث(٢).

أقول: إنَّ ما ورد في شرح الكاشاني لمنازل السائرين من اتِّحاد الشاهد والمشهود إن كان من باب اعتقاد أنَّه لا وجود إلّا لله تعالىٰ، فهذا لو صحَّ في نفسه لكان ثابتاً منذ البدء، بلا حاجة إلى رياضة وتهذيب نفس.

وإن كان بمعنىٰ كشف ذلك فمن الذي ينكشف له ذلك؟! هل الوجود، ولا وجود إلّا لله بحسب الفرض، وهو مطِّلع علىٰ الحقيقة منذ البدء، أو العدم وما معنىٰ الانكشاف للعدم؟!

وإن كان بمعنى حصول الاتِّحاد بين المخلوق وخالقه بعد أن كان غيره، فهذا عين الكفر.

وإن كان بمعنى فناء العبد حقيقة من غير اتِّحاد، فمن الذي يواصل بعد ذلك هذه

---

(١) راجع المقدِّمة التي كتبها سماحة الشيخ جوادي آملي ـ حفظه الله ـ علىٰ كتاب سرِّ الصلاة للسيِّد الإمام رضوان الله تعالىٰ عليه: ١٣ ـ ١٤ بحسب طبعة مؤسسة تنظيم ونشر آثار السيِّد الإمام رحمه الله.

(٢) راجع مصباح الهداية للسيّد الإمام رضوان الله عليه: ٢٠٧ ـ ٢٠٨ بحسب الطبعة المشتملة علىٰ ترجمة السيّد أحمد الفهري حفظه الله.

الأسفار ؟! فهل الله ـ تعالىٰ ـ هو الذي يسافر ويكتمل ؟! تعالىٰ الله عن ذلك علوًّاً كبيراً.

ثُمَّ: ما هو المقصود بما ورد في شَرْحي منازل السائرين من أنَّ السالك حينما يصل إلى الله يفتُر عن أعماله الشاقَّة ؟! وكأنَّهم افترضوا أنَّ الوصول له نهاية، فإذا انتهينا إلى نهاية الوصول فلا حاجة إلى الأعمال الشاقَّة، فلئن كان المقصود بالأعمال الشاقَّة: رياضات اختراعيَّة من عند أنفسهم، فهي لهم، وليست للأنبياء والأئمَّة ولأتباعهم،فهم لا يقتربون إليها منذ البدء، ولئن كان المقصود: الطاعات والعبادات والاحتراق ضمن حالات المناجاة والبكاء والتضرُّع وما إلى ذلك، فسيِّد الرسل ﷺ وأوصياؤه لم يفتروا عن ذلك و﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[1] وكانت ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ...**﴾[2] وفي الحديث الصحيح سنداً عن الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كان العشر الأواخر ـ يعني: من شهر رمضان ـ اعتكف في المسجد، وضُرِبت له قُبَّة من شعر، وشمَّر المئزر، وطوىٰ فراشه...»[3].

وأخيراً ما هو المقصود بالوصول إلىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في نهاية السفر الأوّل؟ :

إن كان المقصود الوصول إليه بمعنىٰ الفناء واتِّحاد الشاهد والمشهود، فقد مضت الإشارة إلى جوابه أعلاه.

وإن كان المقصود الوصول بالعلم والبرهان (وليس هذا هو المقصود)، فهذا أوَّل الطريق، وليس آخر الطريق، بل قد يثبت حتّىٰ للكفَّار الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم.

---

(١) السورة ٥١، الذاريات، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

(٢) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ١٦.

(٣) البحار: ١٦ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

وإن كان المقصود الوصول بمعنى التجلّي والحضور والشهود، فلا نعرف أحداً من الأنبياء وصل إليه غير رسول الله صلى الله عليه وآله.

والذي نفهمه من الآية المباركة بشأن موسى علىٰ نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام (والله أعلم بمقصوده) أنّه عليه السلام لم يكن قابلاً للتجلّي فبتجلّي الله ـ تعالىٰ ـ للجبل ـ لا له هو ـ خرَّ صَعِقاً، قال الله تعالىٰ **﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**(١) فلئن كان هذا حال موسىٰ عليه السلام الذي هو رسول الله وكليمه، ويُعدُّ من الأنبياء أُولي العزم، فما ظنُّك بالعارفين الاعتياديين؟! أفلا تستنتج معي أنّه لو فُرِض تجلّي الله ـ تعالىٰ ـ للعارف كان حظُّه الهلاك قبل الوصول؟! ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

هر چند تو را راى جفا كارى نيست — در سينه تمنّاى دل آزارى نيست
بى پرده بسوى عاشق خود مگذر — كش طاقت آنكه پرده بردارى نيست
دى شانه زد آن ماه خم گيسو را — بر چهره نهاد زلف عنبر بو را
پوشيد بدين حيله رخ نيكو را — تا هر كه نه محرم نشناسد او را

---

(١) السورة ٧، الأعراف، الآية: ١٤٣. وقد أوّل بعض العرفاء المنحرفين عن خطّ أهل البيت عليهم السلام (الجبل) في الآية المباركة بكون الإنسان وإنّيته. وجعل معنىٰ الآية: أنّه انظر إلى كونك وإنّيتك فسيتجلّى ربُّك لجبلك هذا، فإن استقرَّ مكانه فسوف تراه، ولكنّه سيتلاشى بتجلّي الربّ لفناء المحدث عند تجلّي القديم، فلا يبقىٰ لك وجود إضافي متقيد بتلك الصورة الكونيّة، فلا يبقىٰ إلّا الحقّ، ومعه لن تراني؛ لأنّك تُفنىٰ بهذا التجلّي. قال: وهذا النظر هو اللحظ، فإنّه ينظر إلى وجود الحقّ بالحقيقة لا من حيث إطلاقه، بل من حيث تقيّده بتلك الصورة الكونيّة. راجع شرح منازل السائرين للكاشاني باب اللحظ، وهو الباب الأوّل من قسم الولايات، أي: القسم الثامن من الكتاب: ص ١٩٤.

أقول: ما أجرأهم علىٰ تفسير القرآن بالرأي، وهو الذي نهى عنه أئمّتنا عليهم السلام.

أمّا ما ورد في كلمات أئمّتنا عليهم السلام بالنسبة لعامّة الناس من عنوان رؤية الله تعالىٰ، أو عنوان السفر إلى الله تعالىٰ، فهو محمول علىٰ المستويات النازلة المناسبة لعامّة الناس؛ فإنَّ التجلّي والشهود أو الحضور غير محتمل بشأن عموم الناس. ومثال ذلك:

١ ـ ما عن إمامنا أميرالمؤمنين عليه السلام، وقد سأله ذِعْلب اليماني: «هل رأيت ربَّك يا أميرالمؤمنين؟

فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرىٰ؟!

فقال: وكيف تراه؟

قال عليه السلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان...»[١].

والدليل علىٰ كون هذه الرواية ناظرة إلى حال عامّة الناس، وكون المقصود بالرؤية وإدراك القلب: مجرَّد العلم والإيمان الحاصل لكلِّ مؤمن هو: تعليقه عليه السلام العبادة علىٰ الرؤية، واستفهامه الاستنكاري من العبادة مع فرض عدم الرؤية. ومن الواضح: أنَّه تكفي لوجوب العبادة الرؤية البرهانيّة عن طريق رؤية آياته.

٢ ـ ما عن إمامنا زين العابدين عليه السلام «... وأنَّ الرَّاحل إليك قريب المسافة. وأنَّك لا تحتجب عن خلقك، إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك...»[٢].

والدليل علىٰ كون المقصود هو السفر الثابت لعامّة المؤمنين الملتزمين، وأنَّه لا ينظر إلى الخواصّ هو: أنَّه حصر الحجاب بالأعمال، يعني: المعاصي، فإذن المقصود هو ذاك المستوىٰ من الحجاب المرتفع عن بصيرة كلِّ مؤمن ملتزم دون اختصاص لذلك بالخواص. ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

---

(١) نهج البلاغة: ٣٤٤، رقم الخطبة: ١٧٩.

(٢) دعاء أبي حمزة.

کی رفته ای ز دل که تمنّا کنم تو را
کی گشته پشت پرده که حاشا کنم تو را
با صد هزار جلوه برون آمدی که من
با صد هزار دیده تماشا کنم تو را

أمّا ما أشرنا إليه من إمكان الاعتقاد بوصول النبيِّ الخاتم ﷺ إلى مرتبة الشهود والحضور، فهو أمر مستوحىٰ من قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[1] فقد ذُكِرَ لهذه الآيات المباركات تفسيران:

التفسير الأوّل: إرجاع الضمائر إلى جبرائيل. وأنَّ الاقتراب قاب قوسين أو أدنىٰ كان بين النبيِّ ﷺ وجبرائيل. وأنَّ الرؤية الواقعة مرَّتين هي: رؤية جبرائيل بصورته الأصليَّة.

والتفسير الثاني: أنَّ الضمائر راجعة إلى الله. وأنَّ الاقتراب لم يكن مادِّيّاً، وكان اقتراباً من الله. وأنَّ الرؤية رؤية بالفؤاد لا بالعين الباصرة. وعلىٰ هذا الأساس قد يقال: إنَّ هذه عبارة عن المشاهدة الحضوريَّة.

ولعلَّ أصحاب التفسير الأوَّل إنَّما ذهبوا إلى تفسيرهم: من رجوع الضمائر إلى جبرئيل، وحملوا الرؤية علىٰ رؤية جبرئيل؛ لأنَّهم حملوا الرؤية علىٰ رؤية العين الباصرة. وهذا في الله ـ سبحانه ـ مستحيل؛ إذ ليس جسماً، وليس مكانياً تعالىٰ الله

---

(١) السورة ٥٣، النجم، الآيات: ٥ ـ ١٨.

عن ذلك علوّاً كبيراً ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ...﴾[١]، ﴿... أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ ...﴾[٢]، ﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنتُم ...﴾[٣] في حين أنَّ الرؤية في المقام ليست رؤية بالعين، بل رؤية بالفؤاد، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ فهذه رؤية بالباصرة راجعة إلى سدرة المنتهى، وجنّة المأوىٰ، وآياته الكبرىٰ.

وقد ذكر بعض الأعلام لتضعيف التفسير الأوَّل، وتأييد التفسير الثاني وجوهاً، منها ما يلي:

١ ـ الضمائر في جملة: ﴿أَوْحَىٰ إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ تعود إلى الله بلا شكٍّ. فكذلك باقي الجمل بمقتضىٰ وحدة السياق.

٢ ـ قوله ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ لايناسب تفسيره بجبرئيل؛ فإنّه ليس معلِّماً لرسول الله ﷺ، وإنَّما هو بمنزلة ساعي البريد في إنزال الوحي، ورسول الله ﷺ أعلىٰ درجة منه؛ ولذا صعد في المعراج إلى مرتبة عجز عنها جبرئيل، وقال: «.. لو دنوت أنملة لاحترقت»[٤].

٣ ـ مشاهدة جبرئيل بصورته الأصليّة ليست لرسول الله ﷺ منزلة عالية بحيث يهتمّ بها القرآن بمثل قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ﴾.

٤ ـ رؤية جبرئيل تناسب أن تكون رؤية بالباصرة لا بالفؤاد، في حين أنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾.

٥ ـ المعنى المؤيّد في الروايات إنَّما هو: التفسير الثاني لا الأوَّل، وذلك من قبيل

---

(١) السورة ٦، الانعام، الآية: ١٠٣.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ١١٥.

(٣) السورة ٥٧، الحديد، الآية: ٤.

(٤) البحار ١٨ / ٣٨٢.

ما رواه الشيخ الطوسي في الأمالي عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: «لما عرج بي إلىٰ السماء دنوت من ربِّي ـ عزَّوجلَّ ـ حتّىٰ كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنىٰ».

وما رواه الصدوق في العلل عن هشام بن الحكم، عن موسى بن جعفر عليه السلام: «فلمَّا أُسري بالنبيِّ وكان من ربِّه قاب قوسين أو أدنىٰ رفع له حجاب من حجبه»[1].

أقول: ومن هذا القبيل ما ورد في دعاء الندبة: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾ دنوّاً واقتراباً من العليِّ الأعلىٰ.

فإذن المناسب لكلٍّ هذا هو التفسير الثاني. ويبدو أنَّ المقصود به هو: المشاهدة الحضوريَّة بالقلب التي لا يمكن أن تخطأ، ويكون ذلك ـ بلا تشبيه ـ من قبيل مشاهدتنا لأنفسنا ولحبِّنا وبغضنا وما إلى ذلك ممَّا هو حاضر لدىٰ أنفسنا. وهذه مشاهدة مصونة عن الخطأ؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿**أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ**﴾ ففرق بين العلم بالأُمور التي هي منفصلة عن النفس، والتي يمكن فيها الخطأ، والعلم بمشاهدة ما هو متصل بالنفس. والمثال الذي مثّلنا به من مشاهدتنا لأنفسنا ولحبِّنا وبغضنا وما إلى ذلك، إنَّما هو مثال بقدر عقولنا الناقصة وأفهامنا القاصرة، وإلّا فأين المشبَّه به من المشبَّه.

ثُمَّ إنَّ تجلِّي الله ـ سبحانه ـ لرسوله مرَّتين في حياته كما ورد في هذه الآيات، لا ينافي افتراض دوام التجلِّي له طيلة عمره المبارك؛ وذلك لإمكان حمل هاتين المرَّتين علىٰ مراتب عُلْيا من التجلِّي، وافتراض التجلِّي علىٰ مراتب متفاوتة.

ومن جملة مراتبها المرتبتان التاليتان، واللتان لا نستطيع أن نفهم مغزاهما قبل أن نصل إليهما:

---

(١) راجع تفسير «نمونه» ٢٢ / ٤٨٧ ـ ٤٨٩.

إحداهما: ما يحصل لكلِّ أحد لدىٰ الموت مؤمناً كان أو كافراً؛ ولهذا قد يُعبَّر عن الموت بلقاء الله. وقد ورد عن عبدالصمد بن بشير، عن بعض أصحابه، عن الصادق عليه السلام قال: «قلت: أصلحك الله من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومَنْ أبغض لقاء الله أبغض الله لقاءه؟

قال: نعم.

قلت: فوالله إنَّا لنكره الموت.

فقال: ليس ذلك حيث تذهب، إنَّما ذلك عند المعاينة إذا رأىٰ ما يحبّ فليس شيء أحبُّ إليه من أن يتقدَّم، والله تعالىٰ يحبُّ لقاءه، وهو يحبُّ لقاء الله حينئذٍ وإذا رأىٰ ما يكره فليس شيء أبغض إليه من لقاء الله، والله يبغض لقاءه»[1].

والثانية: ما تكون خاصَّة في يوم القيامة بالمؤمنين، قال الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2] فمن الواضح: أنَّ المقصود ليس هو النظر بالعين الباصرة؛ لأنَّ الله ليس جسماً، وليس مكانيّاً تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً، كما أنَّ حمله علىٰ النظر إلى نعم الله خلاف الظاهر جدّاً. فالظاهر: أنَّ المقصود هو النظر بعين البصيرة، وفي مقابل ذلك قال الله تعالىٰ بشأن الكفَّار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[3].

---

(١) الكافي: ٣ / ١٣٤.

(٢) السورة ٧٥، القيامة، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) السورة ٨٣، المطففين، الآية: ١٥.

الفصل الواحد والثلاثون

حـــبّ اللّه

وقد جعل بعض هذا أوّل باب من أبواب الأحوال[1] التي هي خالية من مشقَّة السعي والاجتهاد، فإنَّ المحبَّ يتبع المحبوب بالجذب والانقياد، ويكـون سـيره مقروناً باللذّة والبهجة، ولا يحسُّ العبد فيه بمشقَّة السعي وجهده.

قال تعالىٰ:

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

٢ ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ ...﴾[3].

٣ ـ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

---

(١) راجع شرح منازل السائرين للكاشاني: ص ١٦٨.

(٢) السورة ٥، المائدة، الآية: ٥٤.

(٣) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٦٥.

(٤) السورة ٣، آل عمران، الآية: ٣١.

٤ ـ ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

إلٰهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبّتك فرام منك بدلاً؟! ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا؟!(٢).

ورد في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام: «حبُّ الله إذا أضاء علىٰ سرِّ عبد أخلاه عن كلِّ شاغل وكلِّ ذكرٍ سوىٰ الله عند ظلمة. والمحبُّ أخلص الناس سرّاً لله، وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، و به يعمر الله ـ تعالىٰ ـ بلاده، وبكرامته يكرم عباده يعطيهم إذا سألوا بحقِّه، ويدفع عنهم البلايا برحمته. فلو علم الخلق ما محلُّه عند الله ومنزلته لديه، ما تقرَّبوا إلى الله إلّا بتراب قدميه»(٣).

قال(٤) أميرالمؤمنين عليه السلام: «حبُّ الله نار لا يمرُّ علىٰ شيء إلّا احترق. ونور الله لا يطَّلع علىٰ شيء إلّا أضاء. وسحاب(٥) الله ما يظهر من تحته شيء إلّا غطّاه. وريح الله ما تهبُّ في شيء إلّا حرَّكته. وماء الله يحيي به كلّ شيء، وأرض الله ينبت منها كلُّ شيء. فمَنْ أحبَّ الله أعطاه كلَّ شيء من المال والملك»(٦).

---

(١) السورة ٩، التوبة، الآية: ٢٤.

(٢) مناجاة المحبين.

(٣) البحار ٧٠ / ٢٣ نقلاً عن مصباح الشريعة: ٦٤. وكلمة (عند ظلمة) في أوائل الحديث غير موجودة في نسخة المحجَّة ذات ثمانية أجزاء، الجزء الثامن: ص ٧، وكذلك غير موجودة فيما عندي من نسخة مصباح الشريعة الباب الثاني والتسعين في حبِّ الله: ١٩٢.

(٤) هذا المقطع تتمَّة المنقول في مصباح الشريعة نقلناه من نسخة البحار ٧٠ / ٢٣ ـ ٢٤.

(٥) سماء خ ل.

(٦) كأنَّ المقصود: أنَّ المحبَّ الكاملَ توضع تحت قدرته الدنيا بأجمعها وإن كان هو ربّما لا يختار منها شيئاً.

قال [١] النبيُّ ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً من أُمَّتي قذف فـي قـلوب أصـفيائه وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبَّته؛ ليحبُّوه، فذلك المحبُّ حقّاً، طوبىٰ له ثُـمَّ طوبى له، وله عند الله شفاعةٌ يوم القيامة».

إنّ مصدر الطاعة حينما يكون هو العلم بالمبدأ والمعاد الناتج من تقليد الآباء أو العلماء أو غيرهم، كما هو الحال لدىٰ كثير من العوام، أو الناتج من البرهان كما هو الحال عند آخرين، تراه يختلف عمّا إذا كان مصدر الطاعة بعد العلم هو الحبُّ لله تعالىٰ، وأقصد بذلك: بعض المـراتب العـالية مـن الحبِّ دون أدنـى الحبِّ الذي لا ينفكُّ عنه مسلم. ومَظهرُ هذا الاختلاف أُمورٌ ثلاثة:

الأوّل: أنَّ مصدريَّة العلم للطاعة كثيراً ما تتخلَّف عن المقصود، كما ترىٰ ذلك في كثير من الفسقة الذين يعصون علىٰ رغم علمهم بالمبدأ والمعاد، ولكن مـصدريَّة الحبِّ للطاعة إذا كان في الدرجات العالية لا تنفصم ولا تـتخلَّف؛ ولذا تـرىٰ أنَّ الأبوين ـ مثلاً ـ لشدَّة تعلقهما بالطفل وحبِّهما له قد يلتزمان بتهيئة مطاليب الطفل التي لا تضرُّ به أكثر من التزامهما بطاعة الله الذي تجب عقلاً إطاعته، وإن هو إلّا لكون الطفل أحبّ إليهما من الله. وقد رُوي عن الصادق عليه السلام أنَّه قال: «ما أحبَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مَنْ عصاه. ثُمَّ تمثَّل فقال:

تـعصي الإله وأنت تُـظْهِرُ حـبَّه ... هـذا مـحالٌ فـي الفـعال بـديعُ
لو كـان حـبُّك صـادقاً لأطـعتهُ ... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مـطيعُ» [٢]

والثاني: أنَّ الطاعة التي تنتج من الحبِّ تكون طـاعة الأحـرار، وهـم الذيـن يعبدون الله تعالىٰ؛ لأنَّه أهل للعبادة، في حين أنَّ الطاعة الناتجة من مجرّد العلم تكون طاعة الأُجراء أو العبيد، وهم الذين يعبدون الله ـ تعالىٰ ـ طمعاً في جنَّته، أو

---

(١) هذا المقطع ـ أيضاً ـ تتمَّة المنقول في مصباح الشريعة نقلناه من نسخة البحار ٧٠ / ٢٤.
(٢) البحار ٧٠ / ١٥.

خوفاً من ناره. وعن عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «إنَّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإنَّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[١].

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام: «العِبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله ـ عزَّوجلَّ ـ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ طلب الثواب فتلك عبادة الأُجراء، وقوم عبدوا الله ـ عزّوجلّ ـ حبَّاً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة»[٢].

وأيضاً عن الصادق عليه السلام: «إنَّ الناس يعبدون الله علىٰ ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبةً إلى ثوابه فتلك عبادة الحرصاء، وهو: الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد، وهي: الرهبة، ولكنِّي أعبده حبَّاً له فتلك عبادة الكرام، وهو: الأمن لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُم مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[٣] ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾[٤] فمَنْ أحبَّ الله ـ عزَّوجلَّ ـ أحبَّه الله، ومن أحبَّه الله ـ عزّوجلّ ـ كان من الآمنين»[٥].

والثالث: أنَّ الطاعة الناتجة من الحبِّ تكون مقترنةً بلذَّة فائقة، والطاعةُ الناتجة من العلم بحتاً تكون مقترنةً بالسأم والملل. ومثال ذلك مثال شخصين[٦]: أحدهما يصرف ساعات من وقته في غرفة انتظار مقابلة الطبيب، فهو يتألّم ويملُّ؛ لأنَّه

---

(١) نهج البلاغة: ٧٠٢، رقم الحكمة: ٢٣٧.

(٢) الوسائل ١ / ٦٢، الباب ٩ من مقدّمة العبادات، الحديث ١.

(٣) السورة ٢٧، النمل، الآية: ٨٩.

(٤) السورة ٣، آل عمران، الآية: ٣١.

(٥) البحار ٧٠ / ١٨.

(٦) مضت الإشارة إلى هذه النكتة في ضمن بحث النقطة الثالثة من الحلقة الثانية من هذا الكتاب.

تأخَّر عن أشغاله وأعماله الحياتيَّة، ولكنَّه مجبور علىٰ ذلك؛ لتحصيل شفائه من وراء فحص الطبيب إيَّاه، ووصفه للعلاج. فهذا حاله حال العباد الذين يعبدون الله، ويرون أنفسهم مجبورين علىٰ ذلك تحصيلاً للثواب، وهرباً من العقاب، ولكنَّهم يسأمون ويملُّون من ساعات الصلاة؛ لأنَّهم يحسُّون بذهاب الوقت الذي كانوا بحاجة إليه لأُمورهم المعيشيّة والحياتيَّة، إلّا أنَّهم يصبرون علىٰ ذلك؛ لأجل الوجوب. وثانيهما يصرف ساعات من وقته في لقاء الأحبَّة، ومجلس الأُنس، وسهرة الليل، وتبادل الأحاديث معهم من كلِّ جانب، ويحسُّ في ذلك بلذَّة قصوىٰ علىٰ رغم علمه بأنّه يصرف وقته الذي كان بحاجة إليه للنوم والراحة، أو لطلب المعاش، أو ما إلى ذلك، ولا يحسُّ بملل أو سأم من صرفه لهذا الوقت. فهذا مثله مثل مَن يعبد الله حبّاً له وشوقاً إليه، فهو يحسُّ بلذَّة المناجاة وحلاوة الخلوة مع الله مع فارق كبير بين الممثل والمثال؛ لأنَّ حبَّ الأوَّل لأصحابه حبٌّ دنيويٌّ ضعيف، وحبُّ الثاني لله حبٌّ حقيقي ناتج من جمال الله وعظمته. وشتَّان ما بين الثرىٰ والثريَّا.

وقد ورد في مصباح الشريعة: «... ألا وإنَّك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها، واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعةً واحدةً ولو قُطِّعت إرباً إرباً...»[(١)].

وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: «إذا تخلَّىٰ المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حبِّ الله، وكان عند أهل الدنيا كأنَّه قد خُولِط، وانَّما خالط القوم حلاوة حبِّ الله، فلم يشتغلوا بغيره»[(٢)].

وما أشبه هذا التعبير في هذا الحديث الذي تلوناه بالتعبير الوارد عن

---

(١) البحار ٧٠ / ٦٩.

(٢) البحار ٧٣ / ٥٦.

أميرالمؤمنينعليه السلام في خطبة المتقين: «... لقد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم...»[١].

قال الشاعر:

أُحِبُّك حبَّين حبَّ الهوىٰ — وحبَّاً لأنَّك أهل لذاكا
فأمَّا الذي هو حبُّ الهوىٰ — فشغلي بذكرك عمَّن سواكا
وأمَّا الذي أنت أهلٌ له — فكشفك لي الحجب حتّىٰ أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي — ولكن لك الحمد في ذا وذاكا[٢]

وقال الشاعر:

كانت لقلبيَ أهواءٌ مفرَّقةٌ — فاستجمعتْ مذ رأتك العينُ أهوائي
فصار يحسدني مَنْ كنت أحسده — فصرت مولىٰ الورىٰ مذ صرتَ مولائي
تركتُ للناسِ دنياهم ودينَهمُ — شغلاً بذكركَ يا ديني ودنيائي[٣]

وعلىٰ أيٍّ حال، فهذا الحبُّ والالتذاذ لا يجتمعان مع الذنب. وعلىٰ هذا الأساس ورد في بعض الروايات كون الذنوب سبباً للانحرام من صلاة الليل، أو الانحرام من لذَّة المناجاة، وكيف لا وإنَّ الذنوب تخلق حجاباً بين العبد والربِّ، وتهدم الحبَّ والشوق، وتغطِّي القلبَ، وترين عليه. وقد ورد في دعاء أبي حمزة «...وأنَّك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك...».

وفي الحديث عن الصادقعليه السلام: «إنَّ الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل...»[٤] وأيضاً عن الصادقعليه السلام بسند تام قال: «إنّ الرجل يذنب الذنب فيحرم

---

(١) نهج البلاغة: ٤١١، رقم الخطبة: ١٩٣.

(٢) المحجة ٨ / ٣٢. وقد مضت هذه الأبيات مع أدنى تغيير في حالات رابعة العدوية في مدخل البحث العملي.

(٣) المحجة ٨ / ٣٣.

(٤) الوسائل ٨ / ١٦٠، الباب ٤٠ من الصلوات المندوبة، الحديث ٣.

صلاة الليل...»[١].

وأيضاً ورد في الحديث: «جاء رجل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: إنّي قد حرمت الصلاة بالليل، فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: أنت رجل قد قيّدتك ذنوبك»[٢].

وأيضاً ورد عن موسى بن جعفر عليهما السلام في و صيته لهشام بن الحكم أنّه قال: «...يا هشام، أوحىٰ الله إلى داود قل لعبادي: لا يجعلوا بيني وبينهم عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدُّهم عن ذكري، وعن طريق محبّتي ومناجاتي، أُولئك قُطّاع الطريق من عبادي، إنَّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة عبادتي ومناجاتي من قلوبهم...»[٣].

وفي حديث آخر: «أوحىٰ الله إلى داود عليه السلام أنَّ أهون ما أنا صانع بعالم غير عامل بعلمه أشدّ من سبعين عقوبة أن أُخرج من قلبه حلاوة ذكري...»[٤].

وقد جعل بعض الحبَّ مركزاً للفضائل، فبلحاظ ما بعده يثمر المقامات اللاحقة كالشوق والرضا، وبلحاظ ما قبله تنتهي إليه المقامات السابقة كالتوبة والصبر والزهد[٥]. وبكلمة أُخرىٰ: إن المحبَّة آخر منازل العامة، وأوَّل منازل الخاصَّة[٦].

وقد ظهر بكلِّ ما سردناه حتّىٰ الآن أنَّ الإيمان الكامل هو: الإيمان البالغ درجة الحبِّ، كما ورد في الحديث الصحيح السند عن الصادق عليه السلام: «... وهل الإيمان إلّا الحبُّ والبغض، ثُمَّ تلا هذه الآية: ﴿... حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ

---

(١) المصدر السابق ١٥ / ٣٠٢، الباب ٤٠ من جهاد النفس، الحديث ١٤.

(٢) المصدر السابق ٨ / ١٦١، الباب ٤٠ من الصلوات المندوبة، الحديث ٥.

(٣) البحار ١ / ١٥٤.

(٤) المصدر السابق ٢ / ٣٢.

(٥) المحجة ٨ / ٣.

(٦) راجع منازل السائرين أوّل باب من أبواب الأحوال.

إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾»[١] .

وورد ـ أيضاً ـ في الحديث الصحيح السند عن الصادقعليه‌السلام: « هل الدين إلّا الحبُّ إنَّ الله ـ عزَّوجلَّ ـ يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ...﴾ »[٢] .

أمَّا عن الآية التي فتحنا بها الحديث وهي قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فقد ورد في التفاسير عِدَّة تطبيقات لها[٣] ، وذلك من قبيل:

١ ـ تطبيقها علىٰ أميرالمؤمنينعليه‌السلام في فتح خيبر، أو في محاربته للناكثين والقاسطين والمارقين؛ ولهذا ورد في الحديث في قِصَّة فتح خيبر قول رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بعد هروب مَنْ هرب: «لأُعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، كرَّاراً غير فرَّارٍ، لايرجع حتىٰ يفتح الله علىٰ يده. فبات الناس يدوكون[٤] بجملتهم أيُّهم يعطاها، فلمَّا أصبح الناس غدوا علىٰ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله كلُّهم يرجون أن يعطاها، فقال: أين عليّ بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه، قال: فأرسِلوا إليه. فأُتي به، فبصق رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله في عينيه، ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال عليٌّ: يا رسول الله أُقاتلهم حتّىٰ يكونوا مثلنا؟ قال: انفذ علىٰ رسلك حتّىٰ تنزل بساحتهم، ثُمَّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير

---

(١) أُصول الكافي ٢ / ١٢٥، والآية: ٧ في السورة ٤٩، الحجرات.

(٢) البحار ٦٩ / ٢٣٧، والآية: ٣١ في السورة ٣، آل عمران.

(٣) راجع تفسير «نمونه» ٤ / ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٤) أي: يخوضون ويموجون.

من أن يكون لك حمر النعم. (قال سلمة) فبرز مرحب وهو يقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرَّب

فبرز له عليٌّ عليه السلام وهو يقول:

أنا الذي سمّتني أُمّي حيدره ... كليث غابات كريه المنظره

أُوفيهمُ بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ففلق رأسه، فقتله وكان الفتح علىٰ يده»(١).

وما أحلىٰ أبيات حسَّان بن ثابت:

وكان عليٌّ أرمد العين يبتغي ... دواءً فلمَّا لم يحسّ مداويا

شفاه رسول الله منه بتفلة ... فبورك مرقيَّاً وبورك راقيا

وقال: سأُعطي الراية اليوم صارماً ... كميَّاً محبَّاً للرسول مواليا

يحبُّ إلهي والإله يحبُّه ... به يفتح الله الحصون الأوابيا

فأصفىٰ بها دون البريَّة كلِّها ... عليّاً وسمَّاه الوزير المؤاخيا(٢)

٢ـ ورد أنَّه سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية، فضرب بيده علىٰ عاتق سلمان فقال: هذا وذووه. ثُمَّ قال: لو كان الدِّين معلَّقاً بالثريَّا لتناوله رجال من أبناء فارس(٣).

٣ـ وفي تفسير عليِّ بن إبراهيم: «نزلت في القائم وأصحابه»(٤).

ثُمَّ إنَّ ما ذكرنا من الامتيازات للطاعة الناتجة من الحبِّ الحقيقي الصادق في مقابل الطاعة الناتجة من العلم قد قصدنا بذلك: المقابلة بين العلم بمعنى الإيمان الجافِّ غير السيَّال في العواطف والعروق، وبين الحبِّ الحقيقي الذي لا يمكن أن

---

(١) البحار ٢١ / ٣ ـ ٤.

(٢) المصدر السابق ٢١ / ١٦.

(٣) مجمع البيان: مج ٢ / ٣ / ٣٥٨.

(٤) في الجزء الأوّل في ذيل الآية.

ينفرد عن المعرفة بجمال الله وعظمته التي لا تكون إلّا بعد العلم بالله. ولم نقصد المقابلة بين الحبِّ وحده والعلم وحده؛ فإنَّ أساس الحبِّ هو المعرفة الناتجة من العلم. ولا يمكن أن يكون حبٌّ مورث للآثار الماضية بلا معرفة، فمتى ما أنتجت المعرفة الحبَّ الخالص الصادق، أصبحت عبادة المؤمن عبادة الأحرار، واقترنت بلذَّة لا تدانيها لذَّة، وعصمت صاحبها من أيِّ معصية أو ذنب.

وقد ورد في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام ما يلي: «نجوىٰ[١] العارفين تدور علىٰ ثلاثة أُصول: الخوف، والرجاء، والحبُّ. فالخوف فرع العلم، والرجاء فرع اليقين، والحبُّ فرع المعرفة. فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحبِّ إيثار المحبوب علىٰ ما سواه. فإذا تحقَّق العلم في الصدر خاف، وإذا صحَّ الخوف هرب، وإذا هرب نجا، وإذا أشرق نور اليقين في القلب شاهد الفضل، وإذا تمكَّن من رؤية الفضل رجا، وإذا وجد حلاوة الرجاء طلب، وإذا وُفِّقَ للطلب وجد، وإذا تجلَّىٰ ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبَّة، وإذا هاج ريح المحبَّة استأنس ظلال المحبوب، وآثر المحبوب علىٰ ما سواه، وباشر أوامره، واجتنب نواهيه، واختارهما علىٰ كلِّ شيء غيرهما، وإذا استقام علىٰ بساط الأُنس بالمحبوب مع أداء أوامره واجتناب نواهيه، وصل إلى روح المناجاة والقرب. ومثال هذه الأُصول الثلاثة كالحرم والمسجد والكعبة، فمَنْ دخل الحرم أمِن من الخَلْق، ومَنْ دخل المسجد أمِنت جوارحه أن يستعملها في المعصية، ومَنْ دخل الكعبة أمِن قلبه من أن يشغله بغير ذكر الله.

فانظر[٢] أيُّها المؤمن فإن كانت حالتك حالة ترضاها لحلول الموت، فاشكر

---

(١) يعني: المناجاة.

(٢) من هنا قد يكون تكملة لكلام الإمام الصادق عليه السلام، وقد يكون تفريعاً لمن جمع نصوص مصباح الشريعة.

الله علىٰ توفيقه وعصمته، وإن تكن الأُخرىٰ فانتقل عنها بصحّة العزيمة، واندم علىٰ ما سلف من عمرك في الغفلة، واستعن بالله علىٰ تطهير الظاهر من الذنوب وتنظيف الباطن من العيوب، واقطع زيادة الغفلة عن نفسك، وأطف نار الشهوة من نفسك»[(١)].

واعلم أنَّ الحبَّ ذو طرفين، وليس ذا طرف واحد، فكما أنَّ العبد المؤمن يحبُّ الله عزَّوجلَّ كذلك الله ـ عزَّوجلَّ ـ يحبُّ عبده المؤمن.

وقد روى الكليني بسند قيل عنه: إنَّه تامٌّ[(٢)] عن أبان بن تغلب، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لمَّا أُسري بالنبي صلى الله عليه وآله قال: يا ربِّ ما حال المؤمن عندك؟ قال: يا محمَّد صلى الله عليه وآله مَنْ أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، وما تردَّدت في شيء أنا فاعله كتردُّدي في وفاة المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، وإنّ من عبادي المؤمنين مَنْ لا يصلحه إلّا الغنىٰ، ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك، وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلّا الفقر، ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك. وما يتقرَّب إليَّ عبد من عبادي بشيء أحبُّ إليَّ ممَّا افترضت عليه،

---

(١) البحار ٧٠ / ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) في السند أبو سعيد القماط، ولعلَّه خالد بن سعيد الثقة، لا أخوه صالح بن سعيد. والقرينة علىٰ ذلك ما في الكافي ١ / ٧٠ عن عِدَّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمَّد بن خالد، عن إسماعيل بن مهران، عن أبي سعيد القماط وصالح بن سعيد، عن أبان بن تغلب... فعطف صالح بن سعيد علىٰ أبي سعيد القماط يشهد لكون أبي سعيد القماط منصرفاً ـ في الأقلِّ ـ في لسان إسماعيل بن مهران إلى خالد دون صالح. وروايتنا ـ أيضاً ـ قد رواها إسماعيل بن مهران، عن أبي سعيد القماط، عن أبان بن تغلب، إلّا أنَّ الأردبيلي في جامع الرواة استظهر كون (الواو) في نصِّ الكافي القائل: «أبي سعيد القماط وصالح بن سعيد» سهواً قلميّاً، وأن يكون الصواب: «أبو سعيد القماط صالح بن سعيد».

وعلىٰ أيِّ حال، فقد ذكر الشيخ البهائي رحمه الله: أنَّ هذا الحديث من الأحاديث المشهورة بين الخاصَّة والعامَّة، وقد رووه في صحاحهم بأدنىٰ تغيير. (راجع مرآة العقول: ١٠ / ٣٨٤).

وإنَّه ليتقرَّب إليَّ بالنافلة حتّىٰ أُحبَّه، فإذا أحببته كنت إذن سمعه الذي يسمع بـه، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بـها، إن دعـاني أجبته، وإن سألني أعطيته»(١).

قوله: «ما تردَّدت في شيء أنا فاعله كتردُّدي في وفاة المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته».

إنَّ التردُّد بمعناه المألوف لدينا مستحيل علىٰ الله سبحانه، إلّا أنَّ الشيخ البهائي ﷺ ذكر في المقام عِدَّة توجيهات لهذه الجملة(٢):

١ ـ إنَّ في الكلام إضماراً وتقديراً، أي: لو جاز عليَّ التردُّد ما تردَّدت في شيء كتردّدي في وفاة المؤمن.

٢ ـ إنَّ هذا الكلام فيه استعارة تمثيليَّة، فهو يكنِّي عن توقير المؤمن واحترامه؛ باعتبار أنَّ الإنسان عادةً يتردَّد في عمل يوجب إساءة مَنْ يحترمه ويوقِّره كالصديق الوفيِّ والخلِّ الصفيِّ، بخلاف مَنْ لا يقدّره ولا يوقِّره كالعدو والحيَّة والعقرب.

٣ ـ إنَّه ورد في الحديث من طرق الخاصَّة والعامَّة: أنَّ الله ـ سبحانه ـ يظهر للعبد المؤمن عند الاحتضار من اللُطف والكرامة والبِشارة بالجنَّة ما يزيل عنه كراهة الموت، ويوجب رغبته في الانتقال إلى دار القرار، فيقلُّ تأذِّيه به، ويصير راضياً بنزوله، راغباً في حصوله، فأشبهت هذه الحالة معاملة مَنْ يريد أن يؤلم حبيبه ألماً يتعقَّبه نفع عظيم، فهو يتردَّد في أنَّه كيف يوصل ذلك الألم إليه علىٰ وجه يقلُّ تأذِّيه به، فلا يزال يظهر له ما يرغِّبه فيما يتعقَّبه من اللذَّة الجسميَّة والراحة العظيمة إلى أن يتلقَّاه بالقبول، ويعدُّه من الغنائم المؤدِّية إلى إدراك المأمول.

---

(١) أُصول الكافي: ٢ / ٣٥٢.

(٢) أخذتها من مرآة العقول: ١٠ / ٣٨٤ ـ ٣٨٥، وكذلك المجلد التاسع: ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

أقول: من جملة الروايات التي أشار إليها الشيخ البهائي رحمه الله ممّا تدلُّ علىٰ أنَّ المؤمن لا يُكرَه علىٰ الموت، بل يُحبَّب إليه الموت إلى أن يرضى بذلك ما ورد عن أبي بصير قال:

«قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك يستكره المؤمن علىٰ خروج نفسه؟ قال: فقال: لا والله. قال: قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنَّ المؤمن إذا حضرته الوفاة حضر رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين وجميع الأئمّة عليهم الصلاة والسلام، ولكن أكنُّوا عن اسم فاطمة[1]، ويحضره جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام، قال: فيقول أميرالمؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: يا رسول الله، إنَّه كان ممَّن يحبُّنا ويتولَّانا فأحبَّه، قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل، إنَّه ممَّن كان يحبُّ عليَّاً وذرّيته فأحبَّه، وقال جبرئيل لميكائيل وإسرافيل عليهما السلام مثل ذلك، ثُمَّ يقولون جميعاً لملك الموت: إنَّه ممَّن كان يحبُّ محمَّداً وآله، ويتولَّىٰ عليَّاً وذرِّيته، فارفق به، قال: فيقول ملك الموت: والذي اختاركم وكرَّمكم، واصطفى محمَّداً صلى الله عليه وآله بالنبوَّة، وخصَّه بالرسالة، لأنا أرفق به من والد رفيق، وأشفق عليه من أخ شفيق، ثُمَّ قام إليه ملك الموت فيقول: يا عبدالله، أخذت فكاك رقبتك؟ أخذت رهان أمانك؟ فيقول: نعم، فيقول الملك: فبماذا؟ فيقول: بحبِّي محمَّداً وآله، وبولايتي عليِّ بن أبي طالب وذرِّيته، فيقول: أمَّا ما كنت تحذر فقد آمنك الله منه، وأمَّا ما كنت ترجو فقد أتاك الله به، افتح عينيك فانظر إلى ما عندك، قال: فيفتح عينيه فينظر إليهم واحداً واحداً، ويفتح له باب إلى الجنّة، فينظر إليها فيقول له: هذا ما أعدَّ الله لك، وهؤلاء رفقاؤك أفتحبُّ

---

(١) قال المجلسي رحمه الله في ذيل نقله لهذه الرواية في البحار: «ولكن أكنُّوا عن اسم فاطمة» أي: لا تصرِّحوا باسمها عليها السلام؛ لئلَّا يصير سبباً لإنكار الضعفاء من الناس.

اللحاق بهم أو الرجوع إلى الدنيا؟ قال: فقال أبوعبدالله عليه السلام: أما رأيت شخوصه[١] ورفع حاجبيه إلى فوق من قوله: لا حاجة لي إلى الدنيا، ولا الرجوع إليها! ويناديه منادٍ من بطنان العرش يسمعه ويسمع من بحضرته: يا أيتها النفس المطمئنَّة إلى محمَّد ووصيّه والأئمَّة من بعده، ارجعي إلى ربِّك راضية بالولاية مرضيَّة بالثواب، فادخلي في عبادي مع محمَّد وأهل بيته، وادخلي جنَّتي غير مشوبة»[٢].

وللمجلسي رحمه الله توجيه رابع لتردُّد الله في موت عبده المؤمن، وهو: توجيهه بمسألة البداء بالمعنى المعقول عندنا، فيكون التردُّد إشارةً إلى المحو والإثبات في لوحهما؛ فإنَّه يكتب أجله في زمان وآن فيدعو المؤمن لتأخيره، أو يتصدَّق فيمحو الله ذلك، ويؤخِّره إلى وقت آخر، فهو يشبه فعل المتردِّد أُطلِق عليه التردُّد علىٰ وجه الاستعارة[٣].

وللسيّد الإمام الخمينيّ رحمه الله توجيه خامس لذلك، وهو: حمله علىٰ نسبة تردُّد المؤمن إلى الله علىٰ حدِّ ﴿... مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللّهَ رَمَىٰ ...﴾[٤] أي: أنَّ هذا من باب انتساب أفعال العبيد إلى الله علىٰ أساس الأمر بين الأمرين[٥] ثُمَّ ذكر رحمه الله تكملةً للمطلب ببيان تفسير جديد للتردُّد بالنسبة للمؤمن، وهو: أنَّ العباد إمَّا أن يكونوا عرفاء وأولياء لله، وينخرطوا لدىٰ سيرهم إلى الله في مسلك أصحاب القلوب، فيكونون مجذوبين للحقِّ، وتوَّاقين لجماله الذي لا مثيل له، ومستقبلين

---

(١) شخص الميت بصره وببصره: رفعه.

(٢) البحار ٦ / ١٦٢ ـ ١٦٣. وفسَّر المجلسي رحمه الله «غير مشوبة» بمعنى: كون الجنَّة غير مشوبة بالمحن والآلام.

(٣) مرآة العقول ١٠ / ٣٨٥.

(٤) السورة ٨، الأنفال، الآية: ١٧.

(٥) الأربعون حديثاً للسيّد الإمام رحمه الله، ترجمة السيّد محمَّد الغرويّ: ٥٢١.

ذاته المقدَّس في كلٍّ تطلُّعاتهم وآمالهم، ولا يلتفتون إلى غيره سبحانه من العوالم، بل لا يفكِّرون في أنفسهم وكمالاتهم.

وإمَّا أن ينغمروا في زخارف الدنيا، ويخوضوا في ظلمات حبِّ الجاه والمال، وتكون قلوبهم متجهةً نحو الأنانيّة والإنِّية من دون أن يعبأوا بالعالم الأقدس، ويأبهوا بالملكوت الأعلىٰ، وهم الملحدون في أسماء الله.

والطائفة الثالثة هم الذين ينتبهون إلى العالم الأرفع نتيجة نور إيمانهم، ويكرهون الموت لالتفاتهم إلى هذا العالم، فعُبِّر عن هذا التجاذب بين المُلك والملكوت، والغيب والمادَّة، والآخرة والدنيا بالتردُّد، ونُسِبَ هذا التردُّد إلى الله بالبيان الماضي(١).

قوله: «وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلّا الغنى...» هذا المقطع ورد في نقل آخر بشكل أكثر شرحاً، فقال: «... وإنَّ من عبادي المؤمن لمن يريد الباب من العبادة فأكفُّه عنه؛ لئلَّا يدخله عُجب ويفسده، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالغنىٰ، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالسقم، ولو صححت جسمه لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك. إنِّي أُدبِّر عبادي بعلمي بقلوبهم، فإنِّي عليم خبير»(٢).

وحقّاً أنَّ هذا المقطع يبرِّد قلب المؤمن علىٰ أيَّة حال يكون ما دام يعلم يقيناً أنَّ الله ـ تعالىٰ ـ لا يريد إلّا الخير بعباده، فلو سُقِم أو أُفقر فلعلَّ الصحّة أو الغنىٰ كان يوجب له البطر، ولو أُغني أو عوفي فلعلَّ الفقر أو السقم كان يوجب له الجزع

---

(١) الأربعون حديثاً للسيّد الإمام ﵀، ترجمة السيّد محمَّد الغرويّ: ٥٢٤.

(٢) البحار ٧٠ / ١٦ ـ ١٧.

وترك الصبر، وهكذا سائر الأُمور. فالمؤمن يعلم أنَّه علىٰ أيَّة حال قد روعيت مصلحته، ولوحظت الخيرات والبركات له.

وقد ورد في حديث صحيح السند عن الفضيل بن يسار، عن الصادق عليه السلام:

«... يا فضيل بن يسار، إنَّ المؤمن لو أصبح له ما بين المشرق والمغرب كان ذلك خيراً له، ولو أصبح مُقطَّعاً أعضاؤه كان ذلك خيراً له. يا فضيل بن يسار، إنَّ الله لا يفعل بالمؤمن إلّا ما هو خير له. يا فضيل بن يسار، لو عدلت الدنيا عند الله ـ عزَّوجلَّ ـ جناح بعوضة ما سقىٰ عدوَّه منها شربة ماء. يا فضيل بن يسار، إنَّه مَنْ كان همُّه همَّاً واحداً كفاه الله همَّه، ومَنْ كان همُّه في كلِّ وادٍ لم يبالِ الله بأيِّ وادٍ هلك»[١].

نعم، إنَّ الله ـ تعالىٰ ـ أقرب إلى عبده من حبل الوريد، ويعلم سرائره، وهو الذي خلقه وخلق كلَّ ما حوله من العالَم الذي جعله ضِمنه، فمن الطبيعي أن يكون أعرف بما يصلحه وما يفسده من نفس العبد.

وعلىٰ أيِّ حال، فلا يخفىٰ أنَّ هذا المقطع وكذلك المقطع الذي قبله راجعان إلى المؤمن الاعتيادي لا إلى الكمّل من عباده؛ وذلك ـ كما أفاده السيّد الإمام الخمينيّ رحمه الله[٢] ـ لأنَّ مَنْ يكره الموت، أو يعبث الغنى والفقر بقلبه إنَّما هو المؤمن العام دون الخواصِّ.

قوله: «وما يتقرَّب إليَّ عبد من عبادي بشيء أحبُّ إليَّ ممَّا افترضت عليه، وإنَّه يتقرَّب إليَّ بالنافلة حتّىٰ أُحبُّه، فإذا أحببته كنت إذن سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته».

---

(١) أُصول الكافي ٢ / ٢٤٦.

(٢) الأربعون حديثاً للسيّد الإمام رحمه الله، ترجمة السيّد محمَّد الغرويّ: ٥١٩.

لايخفىٰ أنَّ كون الفرائض أحبُّ إلى الله من النوافل، لا ينافي كون بعض المستحبات أثوب عند الله من الواجب، كما يقال في السَّلام وردِّ السَّلام؛ فإنَّ وجه أحبِّية الواجب اشتماله علىٰ المصلحة الملزمة؛ ولهذا يكون تركه مبغوضاً لله عزَّوجلَّ، في حين أنَّ المستحب ليست مصلحته إلزاميَّة؛ ولهذا يرخِّص الشارع في الترك. وهذا لاينافي أثوبيّة المستحب؛ فإنَّ الثواب لا يدور مدار المصلحة، بل يدور مدار مقدار التضحية والإخلاص، ولا شكَّ أنَّ التضحية الموجودة في الابتداء بالسلام أكثر من التضحية الموجودة في جواب السلام، بل علىٰ العموم إنَّ الالتزام بالمستحبات علىٰ رغم الإحساس بعدم الوجوب، يكون أثقل علىٰ النفس من الالتزام بالواجبات؛ لأنَّ الإحساس بوجوبها يكفي في انبعاث الداعي في نفس المؤمن الابتدائي إلى العمل، في حين أنَّ الالتزام بأمر غير واجب يكشف عن إخلاص أكثر وهمَّةٍ أقوىٰ.

وقد ذكر علماؤنا ـ رضوان الله عليهم ـ تفاسير عديدة للتعبير بـ «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...»:

منها: ما قاله الشيخ البهائي ﷺ: من أنَّ المراد ـ والله العالم ـ أنِّي إذا أحببت عبدي جذبته إلىٰ محلِّ الأُنس، وصرفته إلى عالم القدس، وصيَّرت فكره مستغرقاً في أسرار الملكوت، وحواسَّه مقصورة علىٰ اجتلاء أنوار الجبروت، فيثبت ـ حينئذٍ ـ في مقام القرب قدمه، ويمتزج بالمحبَّة لحمه ودمه إلى أن يغيب عن نفسه، ويذهل عن حسِّه، فيتلاشىٰ الأغيار في نظره حتّىٰ أكون له بمنزلة سمعه وبصره كما قال مَنْ قال:

جنوني فيك لا يخفىٰ	وناري منك لا تخبو
فأنت السمعُ والأبصارُ	والأركانُ والقلبُ[1]

---

(١) راجع مرآة العقول ١٠ / ٣٩١.

أقول: وكما يُفهَم من هذا التفسير: إنَّ هذا المقام لا يحصل إلّا بجذب الله تعالىٰ لعبده إيَّاه بعد أن يحبَّ عبده، وإلَّا فالعبد قاصر عن الوصول إلى هذا المقام. ولنعم ما تمثَّل به السيّد الإمام الخمينيّ ﷺ هنا من البيت الفارسي، وهو:

تا كه از جانب معشوق نباشد كششى

كوشش عاشق بى چاره بجائى نرسد(١)

أمَّا عن أقسام المحبَّة فأدنىٰ أقسام المحبَّة هو:

القسم الأوّل: للحبِّ وهو: الحبّ الحيوانيّ البحت، وهو: أنَّ الإنسان كالحيوان يحبُّ ما يوجب التذاذ قوَّة من قواه، كقوَّة الباصرة في المبصرات المحسَّنة، أو الذائقة في المذوقات الشهيَّة، أو الشامَّة في الروائح الطيِّبة، أو ما إلى ذلك ممَّا يعود في واقعه إلى حبِّه للذائذ نفسه، لا إلى حبِّه بالمعنىٰ الحقيقي للكلمة لذاك المحبوب. وهذا الحبُّ مشترك بين الإنسان والحيوان بفرق: أنَّ الإنسان أدقُّ من الحيوان في التفنُّن في هذه الالتذاذات، وأوسع التذاذاً من الحيوان، فالإنسان يدرك من روائع الصور ما لا يدركه الحيوان، وكذلك من روائع المطعومات وما إلى ذلك، إلّا أنَّ هذا الفرق ليس فارقاً جوهريَّاً، وهذا الحبُّ لا قيمة أخلاقيَّة أو عرفانيَّة له علىٰ الإطلاق؛ لأنَّه في الحقيقة لم يتجاوز حبَّ الذات، وكلُّ ما في الأمر إنَّما هو حبُّ التلذُّذ وبغض الألم.

والقسم الثاني: للحبِّ هو: أنَّ الإنسان عادةً يحبُّ وجود نفسه وحياته، وذلك أمر فطريٌّ وجبلِّيٌّ للبشر، فإن أدَّىٰ هذا الحبُّ إلى حبِّ واهب الوجود بنفس منطق حبِّ الالتذاذ بالوجود، رَجَعَ إلى القسم الأوَّل وإن أدَّىٰ إلى حبِّ واهب الوجود بمنطق أنَّ المحسن إلينا يستحقُّ الحبَّ، رَجَعَ إلى ما سوف يأتي إن شاء الله من القسم الثالث وإن أدَّىٰ إلى حبِّ واهب الوجود باعتبار أنَّ وجودنا إن هو إلَّا

(١) چهل حديث للسيّد الإمام الخمينيّ ﷺ: ٥٩١.

وجوداً تعلقيّاً بحتاً، وأنَّ الوجود الاستقلالي ليس إلّا لله تعالىٰ، فهو المستحقُّ للحبِّ. فهذه درجة عالية من الحبِّ العرفاني الذي لا يناله إلَّا مَنْ له حظٌّ عظيم، ولا يدركه إلّا صاحب القلب المُرهَف، و﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ولا يكفي في ذلك مجرّد الإحساس العقلي والعلمي والبرهاني بانحصار الوجود الاستقلالي بالله تعالىٰ، بل يحتاج إلى الإحساس بذلك بالضمير والوجدان وعين البصيرة. رزقنا الله ـ تعالىٰ ـ ذلك بحقِّ محمَّد وآله.

ولعلَّ هذا أحد معاني «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربَّه...»[1] أي: أنَّ الإنسان لا يعرف الوجود المستقل إلّا إذا عرف وجوده التعلقي، وأنَّه ليس إلّا تعلُّقاً بحتاً.

وبمناسبة حديث «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربَّه» أستذوق أن أنقل هنا كلمة لطيفة منسوبة إلى بعض العلماء، وكأنَّه قصد بها تفسير هذا الحديث قال:

«الروح لطيفة لاهوتيَّة، في صفة ناسوتيَّة، دالَّة من عشرة أوجه علىٰ وحدانيَّة ربَّانيَّة:

١ ـ لمَّا حرَّكت الهيكل ودبَّرته علمنا أنَّه لابدَّ للعالم من مُحرِّك ومُدبِّر.

٢ ـ دلَّت وحدتها علىٰ وحدته.

٣ ـ دلَّ تحريكها للجسد علىٰ قدرته.

٤ ـ دلَّ اطلاعها علىٰ ما في الجسد علىٰ علمه.

٥ ـ دلَّ استواؤها إلىٰ الأعضاء علىٰ استوائه إلىٰ خلقه.

٦ ـ دلَّ تقدُّمها عليه وبقاؤها بعده علىٰ أزله و أبده.

٧ ـ دلَّ عدم العلم بكيفيتها علىٰ عدم الإحاطة به.

٨ ـ دلَّ عدم العلم بمحلِّها من الجسد علىٰ عدم أينيَّته.

٩ ـ دلَّ عدم مسِّها علىٰ امتناع مسِّه.

---

(١) البحار ٢ / ٣٢.

١٠ ـ دلَّ عدم إبصارها علىٰ استحالة رؤيته»[١].

أقول: وقد دلَّت إحاطتها بمخلوقاتها الذهنية بالعلم الحضوري علىٰ إحاطة الله بكلٍّ الموجودات بالعلم الحضوري.

وقد دلَّ ارتباط مخلوقاتها الذهنيَّة بإفاضته لها الوجود آناً فآناً (فلو قطعت النظر عنها لحظة واحدة لانعدمت) علىٰ ارتباط العالم أجمع بالله تعالىٰ كذلك، فهو إنَّما يدوم بإفاضة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الوجود إيَّاهُ لحظة فلحظة، ولو قطع الله الإفاضة عن العالم لانعدم العالم.

وقد دلّ تحريكها للجسد بمجرد الإرادة علىٰ أنَّه **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**[٢].

والقسم الثالث: للحبِّ حبُّ من أحسن إلينا، وهذا الحبُّ أحد منشأيه: حبُّ الذات، ولكن ليس هو عين حبِّ الذات، كما كان كذلك في مثل حبِّ الصور الرائعة الحسيَّة، أو المطعومات الشهيَّة، أو الروائح العطرة، بل هنا قد تجاوز ـ حقّاً ـ الحبَّ إلى غير المحبِّ، وهو المحسن. ومنشأه الآخر إدراك الضمير لاستحقاق هذا المحسن الحبَّ حينما يكون إحسانه إلينا فعلاً حسناً في إدراك الضمير الـخلُقي. وهذا القسم من الحبِّ ينمو ويشتدُّ في العبد بالنسبة لله تعالىٰ بقدر ازدياد اكتشاف العبد لنعم الله **﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾**[٣].

---

(١) البحار ٦١ / ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) السورة ٣٦، يس، الآيتان: ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) السورة ١٤، إبراهيم، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤.

وأصل نعمة الوجود من الله، ونعم الآفاق والأنفس من الله، والنعم التي تصلنا من المخلوقين إن هي إلّا بتوفيق الله وقدرته وإلهامه وتسهيله وتقديره، فالمنعم الحقيقي الكامل إن هو إلّا الله، فهو المستحقُّ للحبِّ وللشكر والثناء. وهذا القسم من الحبِّ لله هو المناسب لمستوىٰ عامَّة المؤمنين، وعلىٰ هذا الأساس أُكِّد عليه في بعض الروايات، وذلك من قبيل: ما ورد عن جابر، عن الباقر عليه السلام قال: «أوحىٰ الله ـ تعالىٰ ـ إلى موسى عليه السلام أحببني وحبِّبني إلى خَلْقي، قال موسى: يا ربِّ، إنَّك لتعلم أنَّه ليس أحد أحبَّ إليَّ منك، فكيف لي بقلوب العباد؟! فأوحىٰ الله إليه فذكِّرهم نعمتي وآلائي، فإنَّهم لا يذكرون منِّي إلّا خيراً»(١).

وعن النبيِّ صلى الله عليه وآله قال: «قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لداود عليه السلام أحببني وحبِّبني إلى خَلْقي، قال: يا ربِّ، نعم أنا أُحبُّك، فكيف أُحبِّبك إلى خَلْقك؟ قال: اذكر أياديَّ عندهم، فإنَّك إذا ذكرت ذلك لهم أحبُّوني»(٢).

القسم الرابع: حبُّ مَنْ هو مستحقّ للحبِّ سواءٌ أحسن إلينا أو لا، وهو مَنْ يستجمع صفات فاضلة، والجمال الباطني والمعنوي، ولا جامع لجميع الكمالات والجمالات والفضائل إلّا الله تعالىٰ، وجميع جمال المخلُوقين وكمالهم إن هو إلّا ترشحاً من بحر جماله.

قال آية الله الشيخ المشكيني حفظه الله: إنَّ أحد الشعراء قال: (حسن يوسف در دو عالم كس نديد) ثُمَّ عجز عن تكميل البيت، فطلب ممَّن كان أشعر منه تكميل البيت فأجابه: (حسن آن دارد كه يوسف آفريد).

اللَّهمّ إنِّي أسألك من جمالك بأجمله، وكلُّ جمالك جميل، اللَّهمَّ إنِّي أسألك بجمالك كلِّه.

---

(١) البحار ٧٠ / ٢٢.

(٢) المصدر السابق.

وهذا القسم من الحبِّ لله لا يوجد في مراتب عالية إلّا لدىٰ العرفاء الكمّل.

القسم الخامس: للحبِّ هو: الحبُّ الناشئ من القرب في سلسلة الوجود، كحبِّك لأولادك، أو لأبويك، أو لعشيرتك، ولا أقرب إليك في سلسلة الوجود من الله سبحانه وتعالىٰ الذي هو الخالق، وهو الواهب للحياة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١].

إلّا أنَّ الإحساس بذلك ووجدانه ـ أيضاً ـ خاصٌّ بالعرفاء بالله.

القسم السادس: للحبِّ هو: الحبُّ الناشئ من الأُنس، فإذا أنست بجارك، أو بصاحب لك، أو بشريك لك في السفر، أو في التجارة، أو بصديق لك في مجلس، أو بزوجك في الحياة الزوجيّة، أو ما إلى ذلك، أحببته.

والأُنس بالله هو الذي يقوّي لذّة مناجاته، وهو خاصٌّ ـ أيضاً ـ بأولياء الله وأصفيائه.

الأُنس بالله لا يحويه بطّالُ	وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلّهم نجبٌ	وكلُّهم صفوة لله عمّال[٢]

والآن أودُّ أن أتحدّث بحديث مختصر عن علائم حبِّ الله.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[٣].

---

(١) السورة ٢٣، المؤمنون، الآيات: ١٢ ـ ١٤.

(٢) الإحياء للغزالي ٤ / ٣١٤.

(٣) السورة ٦٢، الجمعة، الآيتان: ٦ ـ ٧.

وقال عزّوجلّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وقد مضىٰ عن الصادق عليه السلام قوله:

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه ... هذا محالٌ في الفعالِ بديعُ
لوكان حبُّك صادقاً لأطعته ... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ[٢]

قيل:

لاتخدعنَّ فللمحبِّ دلائلٌ ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعّمه بمرٍّ بلائه ... وسروره في كلٍّ ما هو فاعل
فالمنع منه عطيَّةٌ معروفةٌ ... والفقرُ إكرامٌ وبِرٌّ عاجل
ومن الدلائل أن ترىٰ من عزمه ... طوعَ الحبيبِ وإن الحَّ العاذل
ومن الدلائل أن يُرىٰ متبسّماً ... والقلبُ فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يُرىٰ متفهِّماً ... لكلام من يحظىٰ لديه السائل[٣]

ووجدت في مكان آخر هذا البيت:

ومن الدلائل أن يُرىٰ من شوقه ... مثلَ السقيم وفي الفؤادِ علائل[٤]

وقيل أيضاً:

ومن الدلائل حزنُه ونحيبهُ ... جوفَ الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً ... نحو الجهاد وكلٍّ فعلٍ فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرىٰ ... من دار ذلٍّ والنعيم الزائل

---

(١) السورة ٣، آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) البحار ٧٠ / ١٥.
(٣) رواها الغزالي عن أبي تراب النخشبي في الإحياء: ٤ / ٣١٣.
(٤) خزينة الجواهر: ١٣٣.

ومــن الدلائــل أن تــراه بــاكـياً أن قــد رآه عــلىٰ قــبيح فـعائل
ومــن الدلائــل أن تــراه مسلّما كــلَّ الأُمـور إلى المـليك العـادل
ومــن الدلائــل أن تــراه راضـياً بــمليكه فــي كــلِّ حكـم نـازل
ومن الدلائـل ضـحكهُ بـين الورىٰ والقلبُ محزونٌ كـقلب الثـاكـل(١)

وقد ورد في الحديث: «أوحىٰ الله إلى بعض الصدِّيقين: أنَّ لي عباداً من عبيدي يحبُّوني وأُحبُّهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، فإن أخذتَ طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتُّك، قال: يا ربِّ، وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار(٢) كما يراعي الشفيق غنمه، ويحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنُّ الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنَّهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، ونصبت الأسرَّة، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، نصبوا إليَّ أقدامهم، وافترشوا إليَّ وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملَّقوني بأنعامي ما بين صارخ وباكٍ، وبين متأوِّه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحمَّلون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبِّي. أوَّل ما أعطيهم ثلاثاً: الأوَّل أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عنِّي كما أُخبر عنهم. والثاني لو كانت السماوات والأرضون وما فيهما من مواريثهم لاستقللتها لهم. والثالث أُقبل بوجهي عليهم، أفترىٰ من أقبلت عليه بوجهي يعلم أحد ما أُريد أن أُعطيه؟!»(٣).

والآية التي بدأنا بها الحديث وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ

---

(١) الإحياء ٤ / ٣١٣، رواها الغزالي عن يحيى بن معاذ، وقد حذفتُ منه بيتاً رأيته غير موافق لمذهب الحقِّ. وفي خزينة الجواهر نسب بعض أبيات هذين المقطعين إلى أميرالمؤمنين عليه‌السلام. راجع خزينة الجواهر: ١٣١ ـ ١٣٨.

(٢) لعلَّ المقصود: مراعاة الظلِّ وانتظار وصوله إلى النهاية، فهو عبارة أُخرىٰ عن قوله: ويحنُّون إلى غروب الشمس، ولعلَّ المقصود: مراعاة أوقات الصلوات بمراقبة الظلال.

(٣) البحار ٧٠ / ٢٦.

زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ...﴾ يحتمل فيه احتمالان:

أحدهما ـ أن يكون المقصود: زعمهم أنّهم يحبُّون الله فإن كانوا صادقين في زعمهم فعليهم أن يتمنَّوا لقاء حبيبهم بالموت.

والثاني ـ أن يكون المقصود: زعمهم أنَّ الله يحبُّهم فإن كانوا صادقين في زعمهم فعليهم أن يتمنَّوا الموت؛ كي يصلوا إلى ثواب مَنْ يحبُّهم.

والاحتمال الثاني هو الأقوىٰ؛ لما ورد في مورد آخر من القرآن خطاباً لليهود قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ﴾[١].

ويؤيِّد ذلك ـ أيضاً ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ...﴾[٢].

وعلىٰ أيَّة حال، فمن علامات حبِّ الله تعالىٰ ما يلي:

الأُولىٰ: تمنِّي الموت، إمَّا لأنَّه بالموت يحصل لقاء الله تعالىٰ، وإمَّا لأنّه بالموت يصل إلىٰ ما أعدَّ الله له من الثواب الجزيل. ومن المحتمل أن يكون ممَّا يشير إلىٰ هذه العلامة ما ورد في نهج البلاغة عن إمامنا أميرالمؤمنين عليه السلام: «... والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمِّه ...»[٣].

وورد ـ أيضاً ـ في الحديث: «لمَّا اشتدَّ الأمر بالحسين بن عليّ بن أبي طالب نظر إليه مَنْ كان معه، فإذا هو بخلافهم؛ لأنَّهم كُلَّما اشتدَّ الأمر تغيَّرت ألوانهم،

---

(١) السورة ٢، البقرة، الآيتان: ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) السورة ٥، المائدة، الآية: ١٨.

(٣) نهج البلاغة: ٣٤، رقم الخطبة: ٥.

وارتعدت فرائصهم، ووجلت قلوبهم، وكان الحسين عليه السلام وبعض من معه من خصائصه تشرق ألوانهم، وتهدأ جوارحهم، وتسكن نفوسهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا لا يبالي بالموت، فقال لهم الحسين عليه السلام: صبراً بني الكرام فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة[١] فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر؟! وما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلىٰ سجن وعذاب. إنَّ أبي حدّثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أنَّ الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جنانهم، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم. ما كَذبت ولا كُذبت»[٢].

وقد ورد في الصحيفة السجاديَّة عن إمامنا زين العابدين: «...واجعل لنا من صالح الأعمال عملاً نستبطئ معه المصير إليك، ونحرص له علىٰ وشك اللحاق بك، حتّىٰ يكون الموت مأنسنا الذي نأنس به، ومألفنا الذي نشتاق إليهِ، وحامَّتنا التي نحبُّ الدنو منها...»[٣].

ولا ينافي تمنِّي الموت وحبّه بهذا المعنى ما ورد في بعض الروايات من النهي عن تمنِّي سرعة حلول الموت، وذلك من قبيل المرسلة الواردة في دعوات الراوندي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لاتتمنُّوا الموت؛ فإنَّ هول المطَّلع شديد، وإن من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرزقه الله الإنابة إلى دار الخلود»[٤] فإنَّ أصل حبِّ الموت يجتمع مع عدم تمنِّي اقترابه حينما يكون الأوَّل بروح لقاء الله، أو لقاء ثوابه. والثاني بروح الإكثار من ثواب الله، أو من مرضاته. وقد ورد في الأدعية

---

(١) الظاهر أنّ الصحيح: (النعيم الدائم) أو (النعم الدائمة).

(٢) البحار ٦ / ١٥٤ و ٤٤ / ٢٩٧.

(٣) الصحيفة السجاديَّة، الدعاء الأربعون.

(٤) البحار ٦ / ١٣٨.

المرويَّة عنهم عليهم السلام الدعاء بطول العمر، وذلك من قبيل ما ورد في بعض أدعية ليالي شهر رمضان: وأن تجعل فيما تقضي وتقدّر أن تطيل عمري في خير وعافية[١] .

وخير دعاء ندعو به لأنفسنا في هذا المضمار ما عن إمامنا سيّد الساجدين عليه السلام : «...عمّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليَّ، أو يستحكم غضبك عليّ...»[٢] .

وبهذه المناسبة أروي قِصَّة منقولة عن المرحوم آية الله الحاج آقا حسين القمِّي رحمه الله، فقد رُوي أنَّه حينما أحسَّ بقرب انتهاء مرجعيَّة الشيعة إليه طلب من عدد من علماء النجف الأشرف وأكابرهم أن يجتمعوا إليه في الحرم الشريف، فجمعهم في الإيوان تحت ميزاب الذهب، وقال لهم: إنِّي جمعتكم هنا لكي تؤمِّنوا علىٰ دعائي، فإنَّ المرجعيَّة كادت أن تنتهي إليَّ، ثُمَّ قال: اللَّهمَّ إن كان انتهاء المرجعيَّة إليَّ سيضرّ بديني، فاقبضني إليك. وطلب منهم أن يؤمِّنوا علىٰ هذا الدعاء، فلم يؤمِّنوا عليه، وانفضَّ المجلس، ثُمَّ التقىٰ بهم بعد ذلك وقال لهم: ألستم تؤمنون بأنّني فقيه؟ فإنِّي أفرض عليكم بحكم ولاية الفقيه أن تستجيبوا لي فيما أردته منكم، فجمعهم مرَّة أُخرىٰ في المكان الشريف، ودعا بنفس الدعاء، وأمَّنوا علىٰ دعائه. وانتهت زعامة الشيعة إليه، ولكنَّه لم يعش إلاّ فترة يسيرة، ثُمَّ تُوفِّي رضوان الله تعالىٰ عليه.

وقيل: سُئل آية الله العظمىٰ السيّد الخوئي رحمه الله ماذا رأيت من الحاج آقا حسين القمِّي حتّىٰ أصبحت من مخلصيه ومتعلّقيه؟

فأجاب: أنَّ هذا الرجل قد صدَّق حقيقةً بيوم الحشر.

فقيل له: أفليس الآخرون مصدِّقين بيوم الحشر؟!

---

(١) مفاتيح الجنان المطبوعة بخط طاهر خويش نويس: ١٨٣.

(٢) دعاء مكارم الأخلاق، وهو الدعاء العشرون من الصحيفة السجادية.

فقال: بلىٰ، ولكن الأمر ذو درجات، وكأنَّ إيمان الحاج آقا حسين القمّي بذلك إيمانٌ عن مشاهدة وحسّ.

الثانية: من علامات حبِّ الله أن ينغمر في طاعة الله، ويبتعد عن معصيته، كما مضى في البيتين المرويين عن الصادقعليه السلام، وكما مضىٰ في الآية الشريفة: ﴿**قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي ...**﴾[١] فإنَّ مَنْ يطيع الله طمعاً في الثواب، أو خوفاً من العقاب، قد تغلب عليه المغريات، أو تضعف نفسه أمام الشهوات، فيغلبه الهوى، ويرجّح كفة اللذائذ العاجلة علىٰ النعيم الآجل، أو علىٰ الاحتراز من العذاب الآجل. أمّا الذي ذاق طعم محبَّة الله، فلا شيء أطعم عنده من تحصيل رضاه، حتّىٰ ولو اجتمعت عليه المغريات جميعاً.وسلام الله علىٰ إمامنا الذي قال: «...والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها علىٰ أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته...»[٢].

نعم، إنَّ مَنْ ذاق طعم محبَّة الله إلى حدّ العشق والهيام، أصبح معصوماً من الذنوب ما دام كذلك، ولذا ورد في دعاء كميل: «... واجعل لساني بذكرك لهجا، وقلبي بحبِّك متيَّما...» (يعني: معبَّداً مذلَّلاً).

ولا يفوتني أن أُشير إلى أنَّ الإيمان بالجنَّة والنار لو وصل إلى مستوىٰ «...فهم والجنَّة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون...»[٣] كان ـ أيضاً ـ موجباً للعصمة من الذنوب ما دام كذلك. وسلام الله علىٰ إمامنا الذي قال لأخيه: «... ثكلتك الثواكل يا عقيل! أتئنُّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرُّني إلىٰ نار سجّرها جبّارها لغضبه! أتئنُّ من الأذىٰ

---

(١) السورة ٣، آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) نهج البلاغة: ٤٧٣، رقم الخطبة: ٢٢٤.

(٣) خطبة المتقين في نهج البلاغة: ٤١٠، رقم الخطبة: ١٩٣.

ولا أئنَّ من لظىً ؟ !...»[١] .

وقال سلام الله عليه: «والله لأن أبيت علىٰ حسك السعدان مسهّداً وأُجرّ في الاغلال مصفّداً أحبّ إليَّ من أن ألقي الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلىٰ البلىٰ قفولها ويطول في الثرىٰ حلولها؟ !...»[٢] .

الثالثة: من علامات حبِّ الله الالتزام بقيام الليل وصلاة الليل؛ فإنَّ المحبَّ يحبُّ خلوة حبيبه. ونحن نعلم أنَّ ظلام الليل، وسكون الأجراس والأنفاس يساعدان علىٰ تجمُّع الحواسّ، والقدرة علىٰ الاختلاء بالله سبحانه.

وقد فُسِّرت الخلوة بمعنىٰ: تفرُّد العبد في موضع يخلو فيه من جميع الشواغل ممّا سوىٰ الله من المحسوسات الظاهرة والباطنة، ويصرف فيه همَّته ونيَّته إلى الإقبال علىٰ الله والتبتُّل إليه بالكلِّية، فيحصل له الأُنس به، والوحشة من غيره[٣] وفُسِّرت ـ أيضاً ـ بمعنىٰ: محادثة السِّر مع الحقِّ حيث لا أحد ولا ملك[٤] .

وقد ورد في الدعاء السابع والعشرين للصحيفة السجاديَّة: «...وفرِّغهم عن محاربتهم[٥] لعبادتك، وعن منابذتهم للخلوة بك؛ حتّىٰ لا يُعبد في بقاع الأرض غيرك، ولا تُعفَّر لأحد منهم جبهةٌ دونك...».

وقيل لبعض العُبَّاد: «ما أصبرك علىٰ الوحدة فقال: ما أنا وحدي، أنا جليس الله عزَّوجلَّ، إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أُناجيه صلَّيت»[٦] .

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧٢ ـ ٤٧٣، رقم الخطبة: ٢٢٤.

(٢) المصدر السابق: ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٣) رياض السالكين للسيِّد علي خان ٤ / ٢١١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) أي: أغنِ المسلمين عن محاربة الأعداء.

(٦) المصدر السابق: ص ٢١٢.

وليس الهدف من نقلنا لهذه الكلمات التشجيع علىٰ ترك الأعمال الاجتماعيّة والسياسيّة في سبيل الإسلام، وإنّما الهدف مجرّد التنبيه علىٰ لذّة الخلوة بالله التي لابدَّ منها في بعض آناء الليل أو النهار، والليل أنسب. وقد مضىٰ منّا في الأبحاث السابقة أنَّ الإسلام نظام ذو أبعاد: فمنها بُعد العرفان والانقطاع إلى الله والاختلاء به، ومنها بُعد القضايا السياسيّة والاجتماعيّة، ولا يصحُّ حذف بعضها من برنامج الحياة في سبيل بعض.

وفي الحديث[1] عن إمامنا الصادق عليه السلام قال: «كان فيما ناجى الله ـ عزّوجلّ ـ به موسىٰ بن عمران أنّه قال: يا ابن عمران، كذب من زعم أنّه يحبّني فإذا جنّه الليل نام عنّي، أليس كلُّ محبٍّ يحبُّ خلوة حبيبه؟! ها أنا ذا يا ابن عمران، مطّلع علىٰ أحبّائي، إذا جنّهم الليل حوّلت أبصارهم من قلوبهم، ومثّلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلّموني عن الحضور، يا ابن عمران، هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع في ظلم الليل، وادعني، فإنّك تجدني قريباً مجيباً».

ومن الطريف أنَّ الله ـ تعالىٰ ـ عبَّر في كتابه عن تعامله مع المؤمنين بالشراء؛ إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ...﴾[2] في حين أنّه عبَّر في هذا الحديث القدسي عن تعامله مع المحبِّين بالهبة؛ إذ قال: «... هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع في ظلم الليل...».

ولعلَّ هذا إشارة إلىٰ الفارق الكبير بين درجة الإيمان ودرجة الحبِّ، فالمؤمن الذي لم يصل بعدُ إلىٰ مستوىٰ الحبِّ الكامل يتعامل مع الله بالبيع والشراء، فيعطيه نفسه وماله في مقابل الجنّة، أمّا المحبُّ فيهب لله ما لديه من دون توقُّع العوض.

---

(١) البحار ١٣ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠، و ٧٠ / ١٤ ـ ١٥، و ٨٧ / ١٣٩.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ١١١.

وقد قيل: إنَّ أحد العُشّاق بالعشق المجازي الذي يقع فيما بين الناس حصل من معشوقه علىٰ وعد الوصال في ليلة معيَّنة، وانتظره العاشق بُرهة من الليل إلى أن غلب عليه النوم فنام، ثُمَّ جاءه المعشوق فوجده نائماً، فجعل في جيبه عدداً من الجوز وانصرف، ثُمَّ أصبح الصباح، وقد انحرم العاشق من لُقيا المعشوق، فأرسل إليه: أنَّك لماذا اخلفت الوعد، ولم تزرني الليلة الماضية؟ فأجابه المعشوق: أنِّي قد زرتك، ولكنِّي وجدتك نائماً، وشاهد صدق كلامي عدد من الجوز جعلته في جيبك. إشارة إلى أنَّك بعيد عن عالم العشق، ولو كنت عاشقاً لما كنت تنام، وأنت بعد طفل يجب أن تلاعب الأطفال بالجوز(١).

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما زال جبرئيل يوصيني بقيام الليل حتّىٰ ظننت أنّ خيار أُمّتي لن يناموا»(٢).

وأيضاً عنه ﷺ أنَّه قال: «أشراف أُمّتي حملة القرآن، وأصحاب الليل»(٣).

وأيضاً ورد في الحديث أنّه: «جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمَّد، عش ما شئت فإنَّك ميِّت، وأحبب من شئت فإنَّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنَّك مجزىٰ به، واعلم أنَّ شرف الرجل قيامه بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس»(٤).

وأيضاً ورد في الحديث عن زيد بن عليٍّ، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال أميرالمؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: «إنَّ في الجنَّة لشجرة يخرج من أعلاها الحلل، ومن أسفلها خيل بلق مسرَّجة ملجمة ذوات أجنحة لا تروث ولا تبول، فيركبها أولياء الله، فتطير بهم في الجنَّة حيث شاؤوا، فيقول الذين أسفل منهم:

---

(١) خزينة الجواهر: ٣٣٥.

(٢) البحار ٨٧ / ١٣٩.

(٣) البحار ٨٧ / ١٣٨.

(٤) المصدر السابق: ص ١٣٨.

يا ربنا، ما بلغ بعبادك هذه الكرامة؟ فيقول الله ـ جلَّ جلاله ـ إنَّهم كانوا يـقومون بالليل ولا ينامون، ويصومون بالنهار ولا يأكلون، ويجاهدون العدوَّ ولا يجبنون، ويتصدَّقون ولا يبخلون»(١).

الرابعة: من علامات حبِّ الله حبُّ الجهاد وتعشُّق الشهادة. وقد يكون نـاظراً إلى هذا صدر الحديث الذي مضىٰ ذكره قبل صفحات عن قِصَّة الحسين عليه السلام فـي وقعة كربلاء: كان الحسين عليه السلام وبعض مَن معه من خصائصه كُلَّما اشتدَّ الأمر تشرق ألوانهم، وتهدأ جوارحهم، وتسكن نفوسهم(٢).

والسرُّ في جعل هذه العلامة مستقلَّةً عن حبِّ الموت الذي مضى الحديث عنه هو: أنَّ هذا أعلىٰ مستوىً من مستويات البذل في الله والتضحية فـي سـبيل الله، فلا شيء لدىٰ الإنسان من أُموره الدنيوية أغلى من نفسه وحياته: لا ماله، ولا أهله وعياله، ولا أصحابه وأحبَّاؤه، فإذا بذل مهجته في سبيل الله متعشِّقاً ذلك، كان هذا آية حبِّه لله تعالىٰ.

وقد ورد في الحديث:

١ ـ عن الصادق، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «فوق كلِّ ذي بِرٍّ برٌّ حتّىٰ يُقتل في سبيل الله، فإذا قُتِلَ في سبيل الله فليس فوقه بِرٌّ. وفوق كلِّ ذي عقوق عقوقٌ حتّىٰ يقتل أحد والديه، فليس فوقه عقوق»(٣).

فالسرّ في كون القتل في سبيل الله فوق كلِّ برٍّ، ما أشرنا إليه: من أنَّـه أقـوى درجات التضحية والبذل. والسرُّ في كون قتل أحد الوالدين فوق كلِّ عـقوق: أَنَّ العقوق يحصل من هضم ذي الحقِّ حقَّه، ولا يوجد بحسب الحقوق البشريَّة فيما

---

(١) المصدر السابق: ص ١٣٩.

(٢) راجع بحار الأنوار: ٦/١٥٤، و ٤٤/٢٩٧.

(٣) الوسائل ١٥/١٧، الباب ١ من جهاد العدوِّ، الحديث ٢١.

بين الناس أقوىٰ ذي حقٍّ من الوالدين؛ لأنَّهما المنشأ الماديّ لوجود الشخص. ولا يوجد عقوق لهما أشدّ من القتل؛ لأنّه سلبٌ لأعزّ الأشياء إليهما، وهي: الحياة والنفس.

٢ ـ عن عليٍّ عليه السلام: «... إنَّ أفضل الموت القتل. والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من مِيتة علىٰ الفراش»(١).

٣ ـ عن سعد بن سعد الأشعري، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «سألته عن قول أمير المؤمنين عليه السلام: لألف ضربة بالسيف أهون من موت علىٰ فراش؟ فقال: في سبيل الله»(٢).

والسرُّ في مُفاد هذين الحديثين واضح، وهو: أَنَّ الموت الذي لابدَّ منه يوجب فقد الإنسان نفسه مجّاناً وبلا عوض؛ لأنَّه لم يبذلها، وفي نفس الوقت قد فقدها، ولابدَّ أن يفقدها، فما أحلى أن يكون ذلك بذلاً في سبيل الله؛ كي يكون أقلُّ ثواب عليه الجنَّة؛ لقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ...﴾**(٣).

٤ ـ عن زيد بن عليٍّ، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للشهيد سبع خصال من الله: أوّل قطرة من دمه مغفور له كلُّ ذنب. والثانية يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين، وتمسحان الغبار عن وجهه، وتقولان: مرحباً بك، ويقول هو مثل ذلك لهما. والثالثة يُكسىٰ من كسوة الجنَّة. والرابعة تبتدره خزنة الجنَّة بكلِّ ريح طيِّبة أيهم يأخذه نعه. والخامسة أن يرىٰ منزله. والسادسة يُقال لروحه: اسرح في الجنَّة حيث شئت. والسابعة أن ينظر إلى وجه الله، وإنَّها لراحة

---

(١) المصدر السابق: ح ١٢ / ١٤.
(٢) المصدر السابق: ح ٢٣ / ١٧.
(٣) السورة ٩، التوبة، الآية: ١١١.

لكلِّ نبي وشهيد»[١]، وطبعاً ليس المقصود بالنظر لوجه الله النظر المادِّي؛ لأنَّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ منزَّه عن المادَّة والتجسُّم. ووزان هذا المقطع من الرواية وزان قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢].

الخامسة: من علامات حبِّ الله هو: بلوغ مرتبة الرضا التي هي فوق مرتبة الصبر؛ فإنَّ الحبيب يرضى بما يريده حبيبه، فبدلاً عن أن يصبر علىٰ بلائه يرضى برضاه، فكأنَّه لا يحسُّ بمكروه كي يصبر عليه.

وقد روي عن الباقر عليه السلام أنَّه ذهب إلى عيادة جابر في مرضه، وسأله: كيف حالك؟

قال جابر: يابن رسول الله، أصبحت والمرض أحبُّ اليَّ من الصحّة. والفقر أحبُّ إليَّ من الغنى. والذلُّ أحبَّ إليَّ من العزِّ.

فقال له عليه السلام: أمَّا نحن أهل البيت فلسنا كذلك. فاندهش جابر واضطرب، وسأل: فإذن كيف أنتم؟

فقال عليه السلام: نحن نرضى بما يريده الله: فإن أراد لنا الغنى أحببنا الغنى. وإن أراد لنا الفقر أحببنا الفقر. وإن أراد لنا المرض أحببنا المرض. وإن أراد لنا الصحّة والسلامة أحببنا الصحّة والسلامة. وإن أراد لنا الحياة أحببنا الحياة. وإن أراد لنا الموت أحببنا الموت[٣].

منها تنعُّمه بما يبلىٰ به
وسروره في كلِّ ما هو فاعل
فالمنع منه عطيّةٌ معروفةٌ
والفقرُ إكرامٌ ولطفٌ عاجل

---

(١) الوسائل ١٥ / ١٠٠، الباب ١ من جهاد العدوّ الحديث ٢٠.

(٢) السورة ٧٥، القيامة، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) خزينة الجواهر: ص١٣٢.

بحلاوت بخورم زهر كـه شـاهد سـاقى است

به ارادت بكشم درد كه درمـانم از اوست[١]

ومن هنا وقع الكلام لدىٰ بعض العلماء في أَنَّه ما معنىٰ الصبر الذي نُسِبَ في الروايات إلىٰ أئمّتنا المعصومين عليهم السلام ؟! وذلك من قبيل ما ورد بشأن الحسين عليه السلام: «قد عجبت من صبرك ملائكة السماوات...»[٢] في حين أنَّهم عليهم السلام كانوا بالغين مرتبة الرضا، فتحمُّلهم للرزايا والمحن كان بحلاوة الرضا بقضاء الله، كما ورد عن الحسين عليه السلام قوله: « هوَّن عليَّ ما نزل بي أنَّه بعين الله...»[٣] ، وقد مضىٰ الحديث القائل بشأن الحسين وأصحابه: كانوا كُلَّما اشتدَّ الأمـر تشـرق ألوانـهم، وتـهدأ جوارحهم، وتسكن نفوسهم[٤] ، ومع تمكُّن الرضا من القلب لا يبقىٰ موضع للصبر.

وقد أجاب عن ذلك بعضهم الذي أشرنا إليه وهو: المرحوم الشيخ عليّ أكـبر النهاوندي رحمه الله بأجوبة لعلَّ أحسنها جوابان:

الأوَّل : أن يكون المقصود بالصبر المعنىٰ الأعمّ للصبر الشامل للرضا بالرزايا والمحن في جنب الله تعالىٰ.

والثاني : أن يكون إطلاق مقام الرضا بشأنهم بلحاظ جنبتهم التي تلي الربّ، وهي: جنبة روحانيَّتهم ونورانيَّتهم. وإطلاق مقام الصبر بشأنهم بلحاظ جنبتهم التي تلي الخَلْق، وهي: جنبة البشريَّة.

وأقول: إنَّ الجواب الثاني هو الأقوىٰ؛ فإنَّ الإنسان الكامل هو الواجـد لكـلتا الجنبتين. وقد مضىٰ منَّا في بحث الصبر توضيح أَنَّ الصبر لا ينافي مقام المحبَّة، والتي هي تنشئ الرضا.

---

(١) خزينة الجواهر: ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) بحار الأنوار ١٠١ / ٣٢٢.

(٣) بحار الأَنوار ٤٥/٤٦.

(٤) راجع بحار الأنوار ١٥٤/٦، و٢٩٧/٤٤.

السادسة: من علامات حبِّ الله حبُّ أحبَّاء الله، فإنَّ مَنْ أحبَّ أحداً سرى حبُّه إلى أحبَّائه. وهذا هو معنىٰ كون حبُّ أهل البيت عليهم السلام شرط الإيمان، وبغضهم علامة النفاق وقد ورد عن أبي الزبير المكّي قال: « سألت جابر بن عبد الله ـ يعني الأنصاري ـ فقلت: أخبرني أيُّ رجل كان عليُّ بن أبي طالب عليه السلام؟ قال: فرفع حاجبيه عن عينيه ـ وقد كان سقط علىٰ عينيه ـ قال: فقال: ذلك خير البشر. أما والله أن كنّا لنعرف المنافقين علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ببغضهم إيّاه»[١].

وهذا هو السرُّ في أنَّ حبَّ عليّ عليه السلام وعدمه يكون مقياساً للنجاة وعدمها في عرصات يوم القيامة. وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام يجلس في يوم القيامة علىٰ كرسيٍّ من النور في الفردوس الذي هو أعلىٰ درجات العلِّيين، وأمامه نهر من تسنيم ـ وهو شراب المقرَّبين الخالص لهم ـ ويشرف من هناك علىٰ عرصات القيامة. فَمَنْ كان معه حبُّ عليٍّ وأهل بيته أمرَ عليه السلام بإمراره علىٰ الصراط وإيصاله إلى الجنّة. ومن لم يكن معه حبُّهم أمرَ به إلى النار[٢].

ان عـليّاً عـلا إلىٰ شـرفٍ ... لو رامـه الوهـمُ زلَّ مـرقاه
مَنْ لم يـعاين سـموَّ رتـبته ... فإنَّ ضعفَ اليقينِ أعماه[٣]

وهنا قد يغترُّ بعض ويتخيلُّ أنَّه ـ إذن ـ يكفيه حبُّ عليٍّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام عن كلِّ طاعة، فليفعل ما أراد من الفسق والمجون، ويغفل عن أنَّ حبَّهم عليهم السلام إنَّما ينجيه في عرصات يوم القيامة بقدر صدق ذاك الحبِّ. ويكون حبُّهم صادقاً بقدر طاعته لهم. وها هو رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «... ولو عصيت لهويت ...»[٤].

(١) معجم رجال الحديث ٤ / ١٢ نقلاً عن رجال الكشي.
(٢) و (٣) خزينة الجواهر: ١١٩.
(٤) بحار الأنوار ٢٢ / ٤٦٧.

السابعة: من علامات حبِّ الله انقطاع قلب المحبِّ إلى الله. وقد ورد في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام: «العارفُ شخصُهُ مع الخَلْق، وقلبه مع الله، لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقاً إليه...»[١].

وقيل في الحبّ البشري المجازي التافه: إنَّ الشيخ الرئيس أبا عليٍّ بن سينا كان في فترة من الزمن في جرجان لدىٰ رجل فاضل عظيم، كان يحبُّ الحكماء، واسمه قابوس، واتَّفق أنَّه ابتلى أحد أقرباء قابوس بمرض مزمن عجزت عن معالجته الأطباء، فأمر قابوس بإحضار الشيخ الرئيس لدىٰ هذا المريض، فحضر الشيخ الرئيس عند المريض، فرآه رجلاً شابّاً، حسن الوجه، متناسب الأعضاء، ولكنَّه هزيل البدن، شاحب اللون. ففحص نبضه، وطلب رجلاً يعرف محلّات البلد ومواضعها معرفة جيِّدة، فأتوا له بإنسان من هذا النمط، فسأله الشيخ الرئيس عن أسماء محلّات البلد ـ وهو آخذ بيد المريض وقابض علىٰ نبضه ـ فذكر له ذاك الرجل أسماء محلّات البلد إلى أَن وصل إلى اسم معيَّن لتلك المحلَّات، فاضطرب نبض المريض بحركة فجائيَّة، فقال الشيخ لذاك الرجل: اذكر لي بيوت هذا المحلِّ، فذكر الرجل تلك البيوت واحداً واحداً إلى أن تحرّك نبض المريض حركة أُخرى، فقال الشيخ: اذكر لي أسماء الساكنين في هذا البيت، فذكر الأسماء وإذا بنبض المريض تحرَّك مرّة ثالثةً لدىٰ ذكر اسم معيَّن من بنات هذه العائلة. وبهذا انتهى فحص الشيخ عن حال هذا المريض، وذكر لمعتمدي قابوس: أَنَّ هذا الشاب قد عشق بنتاً اسمها كذا في المحلَّة الفلانيَّة والبيت الفلاني. ودواؤه وصال مَنْ أحبَّه. ففحصوا عن الأمر، وتبيَّن صدق الشيخ الرئيس في كلامه، فأخبروا قابوساً بذلك، فأحضر قابوس الشيخ، واستفسره عن طريقة كشفه لحقيقة الحال؟ فقال الشيخ: لمّا نظرت في وجه هذا الشاب، وفحصت نبضه، علمت أنَّ مرضه مرض العشق

---

(١) المصدر السابق ٣ / ١٤.

الدفين، والذي أبقاه سرّاً في نفسه، فأنهكه السرُّ ثُمَّ اكتشفتُ الشخص المحبوب عن طريق ذكر أسماء المحلّات والبيوت وأفراد العائلة، بعلامة اضطراب نبضه لدىٰ ذكر اسم المحلّة المخصوصة والبيت المخصوص والفرد المخصوص.

فقال قابوس: إنَّ هذا ابن أُختٍ لي، وتلك بنت أُختٍ لي، فأوقعوا النكاح بينهما[١].

فإذا كان هذا حال العشق المجازي التافه بين الناس، فما حال الحبِّ الحقيقي لله سبحانه وتعالىٰ؟!

وفي الختام أُؤكّد أمرين:

الأوّل: ليس المقصود بالانقطاع إلى الله ما يشتمل علىٰ الانطواء عن حياة الدنيا، والاعتزال عن المجتمع كما قد يفهمه بعض الناس، فإنَّ من شأن محبَّة الله أن يُطبِّق الإنسان ما أراده الله تعالىٰ من مسألة خلافة الله علىٰ وجه الأرض، وإنَّما المقصود به أنَّ العارف بالله يتلوَّن ـ كلّ الحياة عنده ـ بلون الله تعالىٰ، فلا يفعل شيئاً إلَّا لله، وبالطريقة التي فيها مرضاة الله.

ولنعم ما قاله أُستاذنا الشهيد[٢]: من أنَّه تختلف الشريعة الإسلاميّة عن اتّجاهين دينيين آخرين وهما:

أوّلاً: الاتّجاه إلى الفصل بين العبادة والحياة.

ثانياً: الاتّجاه إلى حصر الحياة في إطار ضيّق من العبادة كما يفعله المترهبنون والمتصوّفون.

أمّا الاتّجاه الأوّل الذي يفصل بين العبادة والحياة: فيدع العبادة للأماكن الخاصَّة المقرَّرة لها، ويطالب الإنسان بأن يتواجد في تلك الأماكن؛ ليؤدّي لله

---

(١) خزينة الجواهر: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) راجع نظرة عامّة في العبادات في آخر كتاب الفتاوىٰ الواضحة.

حقّه، ويتعبَّد بين يديه حتّىٰ إذا خرج منها إلى سائر حقول الحياة ودَّع العبادة، وانصرف إلى شؤون دنياه إلى حين الرجوع ثانية إلى تلك الأماكن الشريفة.

وهذه الثنائيَّة بين العبادة ونشاطات الحياة المختلفة تشلُّ العبادة، وتُعطِّل دورها التربوي البنَّاء في تطوير دوافع الإنسان، وجعلها موضوعيّة، وتمكينه من أن يتجاوز ذاته ومصالحه الضيِّقة في مختلف مجالات العمل...

إلىٰ أن قالﷺ (وهذا هو المقطع الذي أردنا أن نستشهد به في المقام):

وأمَّا الاتِّجاه الثاني الذي يحصر الحياة في إطار ضيِّق من العبادة، فقد حاول أن يحصر الإنسان في المسجد بدلاً عن أن يمدِّد معنىٰ المسجد ليشمل كلَّ الساحة التي تشهد عملاً صالحاً للإنسان.

ويؤمن هذا الاتِّجاه بأنَّ الإنسان يعيش تناقضاً داخليّاً بين روحه وجسده، ولا يتكامل في أحد هذين الجانبين إلّا علىٰ حساب الجانب الآخر، فلكي ينمو ويزكو روحيّاً يجب أن يحرم جسده من الطيِّبات، ويقلِّص وجوده علىٰ مسرح الحياة، ويمارس صراعاً مستمرّاً ضدَّ رغباته وتطلُّعاته إلى مختلف ميادين الحياة؛ حتّىٰ يتمّ له الانتصار عليها جميعاً عن طريق الكفِّ المستمرِّ، والحرمان الطويل، والممارسة العباديَّة المحدَّدة.

والشريعة الإسلاميَّة ترفض هذا الاتِّجاه أيضاً؛ لأنّها تريد العبادات من أجل الحياة، فلا يمكن أن تصادر الحياة من أجل العبادات. وهي في الوقت نفسه تحرص علىٰ أن يسكب الإنسان الصالح روح العبادة في كلِّ تصرفاته ونشاطاته، ولكن لا بمعنى أنَّه يكفُّ عن النشاطات المتعدّدة في الحياة، ويحصر نفسه بين جدران المعبد، بل بمعنى أن يحوِّل تلك النشاطات إلى عبادات، فالمسجد منطلق للإنسان الصالح في سلوكه اليومي، وليس محدداً لهذا السلوك...

والثاني: لا يتوهَّم أحد: أنَّنا إذا انتهينا إلى حبِّ الله فقد استغنينا عن الطاعة؛ لأنَّ

حبَّ الله هو غاية الغايات بالقياس إلى مقامات عامَّة الناس؛ وذلك لأنَّ أهمَّ علائم حبِّ الله وأوَّلها هو طاعته عزَّ وجلَّ، والمحبُّ مطيع لمن أحبَّه بقدر حبِّه، فبقدر ما يعصي قد ابتعد عن حبِّ الله؛ لأنَّه خالف مرضاة الله، واستحقَّ بذلك العذاب.

وعن رسول الله ﷺ في خطبته التي خطبها في مرض وفاته: «... معاشر الناس ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً، أو يصرف عنه به شراً إلَّا العمل. أيُّها الناس لا يدَّعي مدَّعٍ، ولا يتمنّى متمنٍّ، والذي بعثني بالحقِّ نبيَّاً لا يُنجي إلَّا عمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت، اللَّهم هل بلَّغت»[1].

---

(١) بحار الأنوار ٢٢/٤٦٧.

الفصل الثاني والثلاثون
في بعض المراحل المتأخّرة عن مرحلة الحبّ

ولا أذكر هنا إلّا النزر اليسير ممّا ذكروه؛ لأنّ الغالب فيما ذكروه هو خرافات أهل العرفان الخاطئ الناشئ في غير خطّ أهل البيت عليهم السلام، فأودّ أن أصون القلم عن البحث في أكثرها، فأقول:

١ ـ الغيرة:

وهي: حالة من الأحوال تفوق حالة الحبّ، فإنّ من أحبّ شيئاً واستغرق في حبّه اغتار عليه، وضنّ عن إشراك غيره إيّاه في الحبّ، فالمستغرق في حبّ الله لا يُشرك أحداً معه في قلبه إلّا من أحبّه الله، أو أمر بحبّه، فحبّه للمعصومين عليهم السلام ـ مثلاً ـ إنّما هو لأجل حبّ الله تعالىٰ إيّاهم، ولأجل أمر الله تعالىٰ بحبّهم.

وقد عقد الشيخ الحرّ رحمه الله في الوسائل باباً[1] تحت عنوان: الحبّ في الله، والبغض في الله، والإعطاء في الله، والمنع في الله.

أقول: فهذه هي الحالة التي تترتّب علىٰ حبّ الله، فمن اكتمل حبّه لله لا يحبّ غيره إلّا في الله، ولا يبغض إلّا في الله.

وأنا أقتصر من نقل بعض تلك الروايات علىٰ ما يلي:

---

(١) ج ١٦، ب ١٥ من الأمر والنهي، ص ١٦٥ فصاعداً بحسب طبعة آل البيت.

١ ـ صحيحة أبي عبيدة الحذّاء عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: من أحبّ لله وأبغض لله وأعطىٰ لله، فهو ممّن كمل إيمانه»[١].

٢ ـ صحيحة أبي حمزة الثمالي عن عليّ بن الحسين عليه السلام: «قال: إذا جمع الله الأوّلين والآخرين، قام منادٍ فنادىٰ يسمع الناس، فيقول: أين المتحابّون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: إذهبوا إلىٰ الجنّة بغير حساب. قال: فتتلقّاهم الملائكة، فيقولون: إلىٰ أين؟ فيقولون: إلىٰ الجنّة بغير حساب. قال: ويقولون: وأيّ ضرب أنتم من النّاس؟ فيقولون: نحن المتحابّون في الله. قال: فيقولون: أيّ شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنّا نحبّ في الله ونبغض في الله. قال: فيقولون: نِعْم أجر العاملين»[٢].

ومن أتفه ما رأيته في هذا الباب ما نقل عن بعض الجهّال من أهل الخلاف، حيث أفاد الشيخ الصدوق رحمه الله ـ علىٰ ما ورد في البحار[٣] ـ: أنّهم قالوا: إنّ سليمان عليه السلام اشتغل ذات يوم بعرض الخيل حتّىٰ توارت الشمس بالحجاب، ثمّ أمر بردّ الخيل، وأمر بضرب سوقها وأعناقها، وقال: إنّها شغلتني عن ذكر ربّي. وليس كما يقولون، جلّ نبيّ الله سليمان عليه السلام عن مثل هذا الفعل؛ لأنّه لم يكن للخيل ذنب، فيضرب سوقها وأعناقها؛ لأنّها لم تعرض نفسها عليه، ولم تشغله، وإنّما عُرِضت عليه وهي بهائم غير مكلّفة.

أقول: إن أخذنا بالتفسير الذي يرجع الضمير في ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[٤] وفي ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾[٥] إلىٰ الجياد، فمعنىٰ الآية واضح، وهو: أنّ الجياد عُرضت علىٰ سليمان إلىٰ أن ابتعدت عنه، وتوارت بالحجاب، فأمر سليمان عليه السلام بردّها عليه،

---

(١) المصدر السابق، ح ١، ص ١٦٥.

(٢) المصدر السابق، ح ٦، ص ١٦٧.

(٣) ج ١٤، ص ١٠١.

(٤) السورة ٣٨، ص، الآية: ٣٢.

(٥) السورة ٣٨، ص، الآية: ٣٢.

﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[١] ، أي: مسح علىٰ سوقها وأعناقها صيانةً لها، وإكراماً وتدليلاً، ولا تدلّ الآية علىٰ قضاء الفريضة وتواري الشمس.

وإن أخذنا بالتفسير الذي يرجع الضمير إلىٰ الشمس، فلم يكن تأخير الصلاة إلىٰ غروب الشمس عن عمدٍ منه ـ سلام الله عليه ـ حتّىٰ ينافي العصمة، ويصبح معصية، وغاية ما قد يكون في المقام هي ترك الأولىٰ، فلابدّ من الأخذ علىٰ هذا الفرض بما رواه الصدوق‌ ـ حسب ما ورد في البحار[٢] ـ عن الصادق‌ عليه السلام أنّه قال: «إنّ سليمان بن داود عليه السلام عرض عليه ذات يوم بالعشيّ[٣] الخيل، فاشتغل بالنظر إليها حتّىٰ توارت الشمس بالحجاب، فقال للملائكة: ردّوا الشمس عليّ حتّىٰ أُصلّي صلاتي في وقتها، فردّوها، فقام، فطفق ساقيه وعنقه[٤]، وأمر أصحابه الذين فاتتهم الصلاة معه بمثل ذلك، وكان ذلك وضوءهم للصلاة، ثمّ قام فصلّىٰ، فلمّا فرغ غابت الشمس، وطلعت النجوم».

فعلىٰ كلا التقديرين لم يصلّها سليمان عليه السلام قضاءً وفي خارج الوقت.

وقد روىٰ الصدوق أيضاً ـ علىٰ ما ورد في البحار[٥] ـ عن زرارة والفضيل: «قالا: قلنا لأبي جعفر عليه السلام: أرأيت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾[٦] ؟ قال: يعني كتاباً مفروضاً، وليس يعني وقت فوتها، إن جاز ذلك الوقت ثمّ صلّاها لم تكن صلاة مؤدّاة، ولو كان ذلك كذلك، لهلك سليمان بن داود حين صلّاها، ولكنّه متىٰ ذكرها صلّاها».

(١) السورة ٣٨، ص، الآية: ٣٣.
(٢) ج ١٤، ص ١٠١ ـ ١٠٢.
(٣) يعني: في وقت العصر.
(٤) الضمير راجع إلىٰ نفس سليمان عليه السلام.
(٥) ج ١٤، ص ١٠١.
(٦) السورة ٤، النساء، الآية: ١٠٣.

٢ ـ الشوق:

١ ـ ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[(١)] .

٢ ـ «فَهَبْني يا إلهي وَسَيِّدي وَمولاي وَرَبّي صَبرتُ عَلىٰ عَذابك، فَكيفَ أصبرُ عَلىٰ فِراقك»[(٢)] .

٣ ـ «والله لَابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه»[(٣)] .

الشوق أيضاً نتيجة من نتائج الحبّ، فإنّ الحبيب يشتاق إلىٰ حبيبه.

والآية التي بدأنا بها الحديث ظاهرة في أنّ الصالحين يريدون لقاء الله، ويشتاقون إليه، وكأنّ تقدير الآية ما يلي: (من كان يرجو لقاء الله، فليبادر بالطاعة قبل أن يلحقه الأجل، فإنّ أجل الله لآتٍ).

وقد أفاد سماحة الشيخ ناصر مكارم ـ حفظه الله ـ: أنّ ﴿لِقَاء الله﴾ قد فُسّر في بعض الكلمات بمعنىٰ لقاء الملائكة، وفي بعضها بمعنىٰ لقاء الحساب والجزاء، وفي بعضها بمعنىٰ لقاء حكم الله، وفي بعضها بمعنىٰ لقاء القيامة. وقال حفظه الله: لا دليل علىٰ كلّ هذه المعاني المجازيّة، فينبغي تفسيره بمعنىٰ الشهود الحقيقي، ولا نقصد بذلك: اللقاء الحسّيّ لله، وهو مستحيل، بل نقصد به: اللقاء الروحي والشهود الباطني الذي يحصل في عالم الآخرة بزوال حُجب المادّة وارتفاعها، وحصول حالة الشهود للإنسان[(٤)] .

أقول: هذا التفسير يناسبه ما يستفاد من آية سورة ق: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(٥)] ، فإنّ هذه الآية واردة في سياق آيات القيامة، ويناسبه أيضاً ما يستفاد من آية سورة الانشقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ

---

(١) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٥.

(٢) دعاء كميل.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٥، وبحسب طبعة صبحي صالح ص ٣٤.

(٤) التفسير الأمثل، ج ١٢، ص ٣٣٧.

(٥) السورة ٥٠، الآية: ٢٢.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾[١] لو حملناها علىٰ لقاء عالم الآخرة بقرينة ما بعد الآية من قوله: **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ...﴾**[٢] إلىٰ قوله تعالىٰ: **﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ...﴾**[٣].

ولكنّا مع ذلك نحتمل أن يكون المقصود لقاءً يحصل لدىٰ الموت، ونحتمل أن يكون هذا هوالمقصود بقوله عزّوجلّ: **﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾**، فإنّ قسماً من الحجب المادّيّة ترتفع بالموت.

وعلىٰ أيّ حال، فالكلام الذي ورد في دعاء كميل: «هَبْنِي... صَبَرتُ عَلىٰ عَذابك، فَكيفَ أصبرُ عَلىٰ فِراقك» ظاهر في شدّة الشوق إلىٰ لقاء الله.

ويحتمل أن يكون هذا هو المقصود أيضاً ممّا نقلناه عن نهج البلاغة: «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه».

وأمّا الخرافات الواردة هنا عن أهل العرفان المنحرفين عن خطّ أهل البيت عليهم السلام فعديدة، وأنا أقتصر هنا علىٰ ذكر واحدة منها:

قال عفيف الدين التلمسانيّ في شرحه علىٰ منازل السائرين ما نصّه:

«ويقال: إنّ عمر رضي الله عنه سأل بعد وفاة أبي‌بكر زوجة أبي‌بكر رضي الله عنه عن حاله وما كان وِردُه في ليله، فقالت: إنّ أبابكر لم يكن بكثير صلاة، ولكنّه كان يقوم في آخر الليل فيتوضّأ، ثمّ يركع ما شاء الله تعالىٰ، ثمّ يضع رأسه فيتنفّس، فنشمّ منه رائحة الكبد المشويّة، فقال عمر رضي الله عنه: من أين لعمر رائحة الكبد المشويّة؟! فهذا الاحتراق هو من نار الشوق»[٤].

أقول: ولا أدري أنّ نار الشوق لو شوت كبد أبي‌بكر فكيف بقي حيّاً؟! وكيف لم ينقل استشمام هذه الرائحة من قبل الناس الآخرين الكثيرين الذين كانوا يلتقون به؟! وكيف وصل إلىٰ هذا المستوىٰ من العرفان من قضىٰ عمدة عمره في الشرك؟!

---

(١) السورة ٨٤، الانشقاق، الآية: ٦.

(٢) السورة ٨٤، الانشقاق، الآية: ٧.

(٣) السورة ٨٤، الانشقاق، الآية: ١٠.

(٤) ص ٤١١.

٣ ـ القَلَق:

وهو الحالة التي تحصل بالشوق إذا جُرّد من الصبر، فإنّ الشوق إن لم يجرّد من الصبر، لم يبعث بالقلق.

وهذه الحالة تحصل قبل تماميّة مشاهدة المحبوب وهو الله سبحانه بالموت، أو بقيام القيامة، وهو محتمل ما نقلناه في أوّل البند السابق عن نهج البلاغة من قوله عليه السلام: «والله لَابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي اُمّه».

وبهذا يمكن تفسير التضرّعات الشديدة، والبكاء الخارق المنقولين عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام؛ فإنّه لا يمكن تفسيرهما بالتصنّع لتعليم الناس، ولا بالخوف ممّا صدر منهم من معصية حقيقيّة؛ لأنّهم معصومون، فلم يصدر منهم ذنب بالمعنىٰ المألوف، فقد يُفسّران علىٰ أساس «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين»، أو علىٰ أساس النموّ الروحيّ آناً فآناً ممّا يوجب أن يعدّوا المرتبة النازلة التي صعدوا عنها ذنباً علىٰ أنفسهم، أو يفسّران علىٰ أساس انهيارهم عليهم السلام أمام عظمة الربّ، وجلاله وجماله ممّا كان يؤدّي إلىٰ تذلّلهم بهذا اللسان، أو يفسّران علىٰ أساس ما قد يحصل لديهم أقلّ غبار علىٰ القلب عن بعض مراتب الصفاء ولو لحظة، نتيجة الانشغال باُمور الدنيا الذي لا بدّ منه، فيعدّون ذلك ذنباً علىٰ أنفسهم، وقد مضت منّا هذه التفاسير في بحثنا لعلامات العرفاء الكاذبين والحقيقيّين، ومضىٰ منّا في بحث الخوف احتمال أنّ الخوف منهم عليهم السلام كان عن الوقوع في المعصية من دون أن ينافي ذلك العصمة؛ لأنّ العصمة قد تكون في طول الخوف الشديد الذي هو فوق ما يتصوّر من الإنسان الاعتياديّ، أو أن يكون خوفاً من صدور ترك الأُولىٰ.

وهنا أُريد أن أقول: إنّ هناك تفسيراً آخر غير تلك التفسيرات الماضية، وهو: احتمال حصول هذه الحالة لهم علىٰ أساس القلَق الذي يحصل نتيجة عدم المشاهدة للمحبوب، والتي لا تحصل إلّا لدىٰ الموت، أو لدىٰ قيام القيامة.

٤ ـ العطش:

وإن هو في رأينا إلّا غصناً من أغصان الشوق، ولا نرانا بحاجةٍ إلىٰ البحث المستقلّ عنه، إلّا أنّ العارف المعروف (عبدالله الأنصاريّ) جعله بحثاً مستقلّاً، وقال عنه: إنّه كناية عن غلبة ولوع بمأمول، ونزّل عليه قوله تعالىٰ: **﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾** يعني: أنّ سيّدنا إبراهيمعليه‌السلام لولا شدّة عطشه إلىٰ لقاء محبوبه، لما ظنّه الكوكب؛ إذ كلّ إنسان إذا رأىٰ السراب ذكر الماء.

ولكن هذا الكلام مفضوح إلىٰ درجة أنّ شارح كتابه (عفيف الدين سليمان التلمسانيّ) اضطرّ أن يؤوّله ويحمله علىٰ حكم الإشارة، وقال[1]: «هذا علىٰ حكم الإشارة، وإلّا فخليل الرحمن ـ صلوات الله عليه ـ إنّما ذكر علىٰ وجه الدلالة علىٰ أنّه لا يجوز أن يُعبد شيء ذو نقيصة بوجهٍ مّا، فكأنّه أشار إلىٰ كمال المعبود ـ عزّ وجلّ ـ بما نبّه عليه من نقائص الكوكب والقمر والشمس والأُفول، وأراد الإشارة إلىٰ أنّ الحقّ تعالىٰ لا يغيب عن مخلوقاته، ولا ينبغي له ذلك جلّت قدرته وتقدّست صفاته».

٥ ـ الوجد:

وهي الحالة التي تحصل من مستوىً من الشهود الذي يتحقّق لدىٰ المكاشفة، فيُنسيه كلّ شيء.

أرىٰ رسمها عندي يعوّض عن رسمي
فما بالهم في الحيّ يدعونني باسمي
وهل بعد ضوء الشمس يبدو لك الدُّجىٰ
وهل عندها يبقى علىٰ الأُفق من نجم[2]

---

(١) في ص ٤١٧.

(٢) من أبيات لعفيف الدين التلمسانيّ في شرحه لمنازل السائرين، ص ٤٢٨.

آن كس كه تو را شناخت جان را چه كند؟

فرزند و عيال و خانمان را چه كند؟

ديوانه كنى هر دو جهانش بخشى

ديوانه تو هر دو جهان را چه كند؟

٦ ـ الدهش:

قال العارف المعروف (عبدالله الأنصاريّ) في منازل السائرين: «الدهش: بَهتة تأخذ العبد إذا فاجأه ما يغلب علىٰ عقله، أو صبره، أو علمه».

ومثّل لذلك بقصّة يوسف عليه السلام، حيث ورد في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾[1] ، أي: أعظمنه، وكان ذلك التعظيم سبب البهتة التي حصلت لهنّ من رؤية يوسف عليه السلام، وذلك هو الدهش.

وقال عفيف الدين التلمسانيّ في شرحه لمنازل السائرين[2] : «ما يغلب عقله هو الشهود، والذي يغلب صبره هو فرط المحبّة، والذي يغلب علمه هو إدراك المعرفة، والمعرفة هي فوق العلم».

أقول: هذه دهشة لنساء فاجرات أمام حسنٍ بشريٍّ، وبعشق مجازيٍّ، فما ظنّك بالدهشة أمام ربّ الأرباب لجلوة تحصل في بعض ساعات الخلوات، وعلىٰ أساس العشق الحقيقيّ، والعبوديّة الواقعيّة «واجعَل لِساني بِذِكرِكَ لَهجاً، وَقَلْبي بِحُبِّكَ مُتيّما»[3] .

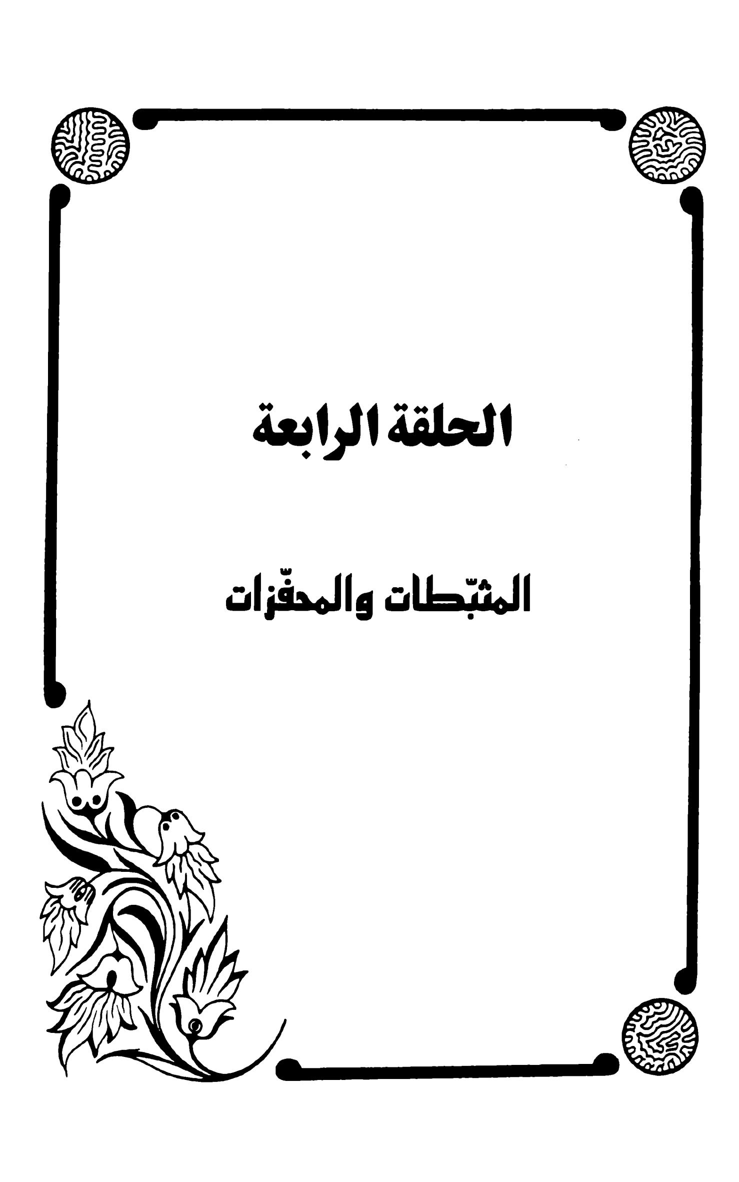
وهنا أقف عن البحث عن العرفان الحقيقيّ وفق خطّ أهل البيت عليهم السلام معترفاً بأنّ هذا بحر لا ينفد. وصلّىٰ الله علىٰ محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

---

(١) السورة ١٢، يوسف، الآية: ٣١.

(٢) ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٣) دعاء كميل.



الحلقة الرابعة

المثبّطات والمحفّزات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[1].

٢ ـ ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

---

(١) السورة ٣، آل عمران، الآيات: ١٣٣ـ ١٣٦، ويبدو أنَّ هذه الآيات المباركات واردة بشأن الدرجة الدانية من التقوى لا العالية؛ لأنّه مع الدرجة العالية لا تصدر فاحشة، ولا يحصل ظلم. ويحتمل أن يكون من قبيل هذه الآية قوله تعالىٰ في السورة ٧، الأعراف، الآية: ٢٠١ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ كما يحتمل أن تكون هذه الآية إشارة إلىٰ مرتبة أعلىٰ من التقوى، وهي: مقام التوبة من مجرَّد الهمِّ بالذنب، أو التفكير في الذنب، لا من الذنب، بأن يكون مسُّ طائف من الشيطان إشارةً إلىٰ إحداثه للهمِّ بالذنب في نفس الإنسان، أو تفكيره فيه.

الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[١].

٣ ـ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كان لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ * أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَىٰ الْجَحِيمِ﴾[٢].

٤ ـ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

---

(١) السورة ٨٣، المطففين، الآيات: ١٨ ـ ٣٦.

(٢) السورة ٣٧، الصافات، الآيات: ٤٠ ـ ٦٨.

(٣) السورة ٩، التوبة، الآية: ٧٢ وكأنَّ صدر الآية يشير إلىٰ النعم الماديّة وذيلها إلىٰ النعمة المعنويّة، وهي: الرضوان.

٥ ـ ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ[١] * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[٢].

لا إشكال ولا ريب في أنَّ الإنسان الاعتيادي لا يتحرّك عن طريق محض الإيمان العقلي بالحسن والقبح إلّا في نطاق ضيّق جداً، فإنَّ الإنسان بطبيعته كسول ميّال للدعة والراحة، وهو يطلب ـ عادة ـ أجراً علىٰ ما يقوم به من عمل خير أو ترك شرٍّ، ويكون للذّته وألمه الحظُّ الكبير لتحرّكه.

وبكلمة أُخرىٰ: إنَّ الإنسان لو كان لا يملك ميولاً وشهوات وعواطف خاصّة، وغرائز تجرُّه في كثير من الأحيان إلى القبيح وترك الحسن، لكانت تربيته خُلقيّاً سهلاً. ولعلَّه كان نفس التفاته العقلي إلى الحسن والقبح كافياً في اعتناقه للأخلاق الفاضلة، ولكن أساس صعوبة التربية الأخلاقيّة يكمن في أنَّ الإنسان يملك ميولاً وشهوات لها الحظُّ الأوفر للتحريك. فيا تُرىٰ هل بالإمكان جعل الإنسان يقف تجاه هذه المحرِّكات والمغريات العظيمة بمجرد الإيمان العقلي بحسن الحسن وقبح القبيح؟! كلّا. وهذه المشكلة الأساسيّة بحاجة إلىٰ حلٍّ أساس وجذري.

ومن حلول الإسلام لذلك جعل قوانين ونُظُم لو طُبّقت للبّت تلك الميول والغرائز بقدر واسع من دون أن تقع الحاجة إلىٰ ما هو غير نظيف خُلُقيّاً. وهذا الحلّ يكون علىٰ وفق الفطرة التي فطر الناس عليها.

إلّا أنَّ هذا الحلَّ ـ إضافة إلىٰ أنَّه لو كان وحده كان ناقصاً؛ لأنَّ جموح الإنسان وطغيان شهواته قد يجعله لا يكتفي بالقدر النظيف، ويحاول أن يمدّ يده إلى غير النظيف ـ إنَّما هو حلٌّ يتحقَّق بعد تطبيق الإسلام بحذافيره علىٰ المجتمع. أمَّا المنطقة التي لم يُطبَّق فيها الإسلام ونُظُمه فيها بالتمام والكمال، فمن الواضح أنَّه لا

---

(١) كأنّها تشير إلىٰ النعمة المعنويَّة، وهي: النظر إلى الربِّ بالبصيرة لا بالباصرة.

(٢) السورة ٧٥، القيامة، الآيات: ٢٠ ـ ٢٥.

يكفي مجرَّد فرض أن لو طُبِّق لوفىٰ بتلبية الحاجات للتربية؛ فإنَّ أكثر الناس عقولهم في عيونهم، ومجرّد الإيمان النظري بأنَّ الإسلام لو طُبِّق لكان كفيلاً بحلِّ المشاكل، لا ينفعهم في تكامل النفوس ما لم يتمّ التطبيق والتجربة العمليّة في المجتمع كمجتمع.

فإذن لابدَّ من محرِّك أسبق علىٰ هذا المحرِّك يستطيع أن يقاوم تلك الميول والإغراءات. وليس هو مجرَّد الإدراك العقلي لحسن الحسن وقبح القبيح، بل يجب أن يُعطىٰ أجراً بإزاء الفعل الحسن وترك القبيح، ويجب أن يحسَّ بالتذاذ وألم يحرِّكانه نحو الكمال.

وتُذكَرُ ـ عادةً ـ عِدَّة جزاءات لموافقة الأخلاق الفاضلة ومخالفتها تُفرضُ محفِّزةً إلىٰ سبيل الخير:

١ ـ الجزاء الخُلُقي، وهو: ارتياح الضمير عن فعل الحسن وترك القبيح، ووخزه عند فعل القبيح وترك الواجب. وهذا في الحقيقة يتمُّ وينمو بالتربية الخُلُقيَّة، وتنمية الضمير الخُلُقي في الإنسان؛ فإنَّ هذا الضمير كُلَّما نما وتكامل أكثر فأكثر ازداد هذا الجزاء، وهو ارتياح الضمير ووخزه وضوحاً وقوَّة وتأثيراً. إلَّا أنَّ هذا ـ إضافةً إلىٰ عدم كفايته وحده ـ يتوقَّف غالباً علىٰ محفِّز أسبق. فأكثر الناس لا ينمو في نفسه الضمير الخُلُقي النموّ المطلوب عن طريق مجرّد بيان الفضائل والرذائل له، وتنبيهه وإلفاته إلىٰ ارتياح الضمير ووخزه لو نمَّاه في نفسه، بل يحتاج إلىٰ جزاءٍ آخر يشوِّقه نحو الفضائل، ويبعِّده عن الرذائل حتّىٰ يتكامل بالتدريج من خلال العمل والتطبيق ضميرهُ الخُلُقي[1].

---

(١) قد يشير فيما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿...إنْ تَتَّقُوا اللّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً...﴾ السورة ٨، الأنفال، الآية: ٢٩ إلى تنامي وتكامل الضمير، واشتداد اكتشافه للحقائق الخُلُقية، واتِّساع مساحته بالتقوى. وكذلك قوله تعالىٰ ﴿...وَاتَّقُوا اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ...﴾ السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٨٢.

٢ـ الجزاء الطبيعي: بمعنى الآثار التكوينيّة الدنيويّة للأعمال الفاضلة والأفعال القبيحة فإنَّ الصفات الحسنة وأعمالها كثيراً ما تنفع الإنسان، والأوصاف الرذيلة وأفعالها تضرُّه وتجلب المفسدة إليه، فمثلاً الإنسان الصدوق الأمين يعيش عزيزاً محترماً بين الناس وموثوقاً لديهم، في حين أنَّ الإنسان الكذوب الخائن علىٰ العكس من ذلك تماماً. فهذا النفع وتلك الخسارة جزاء طبيعيّ للإنسان يحفّزه نحو الخير[١].

إلّا أنَّ هذا ـ أيضاً ـ غير كافٍ للتربية عادةً إذ كثيراً ما يتطلَّب الخُلُق الفاضل من الإنسان التضحية بشيء من مصالحه الشخصيَّة، وكثيراً ما تجرُّ الخيانة للإنسان مصلحةً شخصية ونفعاً دنيوياً. علىٰ أنَّ المنافع والمضارَّ المترتبة علىٰ الفضائل والرذائل، ليس ترتبها عليها ـ دائماً ـ واضحاً في ذهن الناس علىٰ مستوى العموم.

٣ـ الجزاء الاجتماعي من معاقبة المعتدي وتأديبه في المحاكم مثلاً، أو مدحه أو لومه علىٰ أفعاله من قِبل عموم الناس، ومجازاتهم العملية له إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ.

وهذا ـ أيضاً ـ لا يكفي؛ لأنَّه:

أوّلاً: حين يكون المجتمع فاسداً ينحرف الجزاء الاجتماعي عن الخط الصحيح في كثير من الأحيان.

وثانياً: ما أكثر الخيانات التي لا تجازىٰ بهذا الجزاء لخفائها عن أعين الناس، أو لقوَّة في الخائن تصونه عن الجزاء، أو غير ذلك. وما أكثر التضحيات التي لا تلاقي جزاءها الاجتماعي بالنحو المناسب لها.

---

(١) وأمَّا ارتياح الإنسان الناشئ من تلبية ما في نفسه من شفقة ونحوها من العواطف الخيِّرة، وتأثّره الناشئ من عدم تلبيتها، فإن شئت فألحقهما بالجزاء الخُلُقي، وإن شئت فألحقهما بالجزاء الطبيعي.

وكلُّ هذه الجزاءات مجتمعة لا تصنع شيئاً مُهمّاً ما لم يُضم إليها الجزاء الرابع.

٤ ـ الجزاء الأُخروي من: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١) ، ﴿... جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ...﴾(٢) ، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(٣) ، ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾(٤) ، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾(٥) .

وهذا الجزاء هو الذي بشَّرت به الأديان السماويّة. والدين السماوي غير المنحرف منحصر اليوم بالإسلام. فالإسلام وحده هو الكفيل بحلِّ مشكلة الأخلاق. ولولا ما في الإسلام من الجزاء الأُخروي لم تكن باقي الجزاءات بما فيها الجزاء الخُلُقي كافياً للوصول إلى الكمال. نعم، يستعين الإسلام بسائر الجزاءات وبأساليب التربية، لكن الأَساس هو موضوع الجزاء الأُخروي.

وبعد البناء علىٰ هذا الأساس، واتِّباع أساليب التربية قد يصل الإنسان المربّىٰ إلىٰ مستوىً تكفي في تحرّكه الضرورة الخُلُقية وأن الله ـ تعالىٰ ـ أهل للعبادة.

ولا أقصد أنَّ الجزاء الأُخروي علَّة تامَّة للتربية، فما أكثر المؤمنين بجزاء الآخرة الذين لا يردعهم هذا الإيمان من الفسق والفجور، والأعمال القبيحة، أو ترك الواجبات والخصال الشريفة، وإنَّما المقصود: أنَّ الإيمان بالمبدأ والمعاد وحده هو الذي يمكِّن الإنسان من تربية ذاته لو شاء.

وبكلمة أُخرىٰ: إنَّ أساس المشكل هو الشهوات والإغراءات، ولو لم تقابَلْ

---

(١) السورة ٣، آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ٧٢.

(٣) السورة ٨٣، المطفِّفين، الآية: ٢٦.

(٤) السورة ٣٧، الصافّات، الآية: ٦١.

(٥) السورة ٧٥، القيامة، الآيات: ٢٢ ـ ٢٥.

بالوعد بلذَّة لا تدانيها لذَّة، والوعيدِ بالعذاب الذي لا تقوم له السماوات والأرض، لكانت المشكلة غير قابلة للحلّ، ولكن بعد أن عُولجت استحالة الحلّ بوضع الجزاء الأُخروي، لابدَّ من الكلام في سائر المشاكل التي توجد أمام تربية الإنسان وحلولها، بعد فرض أصل وجود الشهوات والميولات حقيقة واقعيَّة.

فما هي الأُمور التي تمنع عن علاج مشكلة الشهوات بالجزاءات التي أهمَّها في المرحلة البدائيّة هو الجزاء الأُخروي من الثواب والعقاب، وأهمَّها في المرحلة النهائيَّة هو الجزاء الخُلُقي ورضوان الله تعالىٰ، بل وإدراك العقل نفس الحسن والقبح؟ وما هو علاج تلك الموانع؟

ومن يريد تربية نفسه يلاقي في المرحلة الأُولى من الصعوبة ما لا يوصف. ويقول بلسان حاله أو مقاله: مالي كُلَّما كبر سنِّي كثرت خطاياي. أما آنَ لي أن أستحي من ربّي[1] ؟!! ويقول: مالي كلَّما قلت: قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوّابين مجلسي، عرضت لي بليَّة أزالت قدمي[2] ؟!!

والشهوات والميول والعواطف علىٰ رغم أنَّها هي أساس المشكل، هي ـ أيضاً ـ أساس التكامل لو هُذِّبت ورُبِّيت؛ فإنَّه (أوَّلاً) إنَّ كثيراً منها حينما تُهذَّب تحرِّك الإنسان نحو الخير (وثانياً) لو أنَّها لم تكن موجودة في الإنسان، وكان الإنسان من قبيل المَلَك لا يملك إلّا العقل، لم تكن توجد قيمة مُهمَّة لالتزامه بالخير والصلاح، ولم يكن للتضحية مفهوم.

---

(١) و (٢) دعاء أبي حمزة الثمالي لسحر شهر رمضان.

المثبّطات

ويقع كلامنا الآن في بيان بعض المشاكل التي تعترض الطريق، وتحول دون تهذيب الإنسان شهواته ورغباته، وتعديل ما في نفسه من ميول وإغراءات بالجزاءات الثابتة للأخلاق الحسنة والأخلاق الذميمة. ومن تلك المشاكل والمثبّطات ما يلي:

١ ـ انحسار الإسلام بمعناه الواقعي عن وجه الأرض وتقوُّض الكيان الإسلامي:

وهذا ما عمَّ في زماننا شتّىٰ أرجاء العالَم الإسلامي، ما عدا ما استُثني من ذلك في الآونة الأخيرة من إيران الإسلام الذي رجع فيه كيان الإسلام نابضاً بالحياة والحمد لله، وهذا من فضل ربِّنا، ولكن سائر البلاد الإسلاميّة لا زالت تحت وطأة الاستكبار الكافر. وهذا من أهمِّ الموانع والمثبِّطات عن هداية الفرد والمجتمع، ووصولهما مرتبة الكمال؛ وذلك لِعِدَّة أُمور:

أوّلاً: قد مضىٰ أنَّ الذي جعل تربية النفس ا[illegible]اً ممكناً هو الإيمان بالمبدأ والمعاد. والجوُّ الفاسد المحكوم بنُظُم الكفر يؤثِّر أَثراً معاكساً في هذا الإيمان في النفوس، إمّا بتضعيفه والتشكيك فيه، أو بجعله غير نابض بالحياة، وغير نازل إلىٰ مستوى القلب والوجدان والعواطف؛ لفقدان المنبِّه الذي ينبِّه الإنسان ـ دائماً ـ علىٰ الإيمان، وهو: تجسُّد الإسلام في الحياة الاجتماعيَّة أمام الأعين، ولفقدان الدليل الحسِّي علىٰ كون الإسلام ديناً واقعيّاً يساير الحياة سيراً ناجحاً.

وثانياً: قد مضىٰ أنَّ الإسلام يعالج مشكلة الشهوات في جملة من أساليبه العلاجيَّة بتلبية تلك الشهوات بالوسائل المباحة، في حين أنَّ انحسار الإسلام عن وجه الأرض يُفني هذا العلاج، فيتفاقم المشكل. ومن الواضح أنَّ ميول الإنسان ورغباته النفسيَّة وعواطفه الطبيعيّة، لا يمكن تحدّيها والتغاضي عنها في أيِّ نظام يفترض نظاماً تكاملياً للإنسان. وكلُّ حلٍّ يقوم علىٰ أساس تجاوزها أو قتلها ليس ـ بشكل عامٍّ ـ عدا حلّ خيالي وطوبائي ووهمي، بل لا بدَّ من إشباع تلك الرغبات بالقدر المعقول عن طريق مشروع، وهذا ما يقوم به الإسلام، ومع تقوُّض الكيان الإسلامي يصبح هذا عسيراً أو غير ممكن.

وثالثاً: إنَّ فساد المجتمع يُكثِر المغريات، ويزيد إيحاءات الفساد والشرِّ، ممّا يؤثّر تأثيراً معاكساً في تربية النفوس، فينتقل الشخص من جوِّ البيت الفاسد إلىٰ جوِّ المدرسة الفاسدة، وإلىٰ جوِّ الأسواق والشوارع المغرية، أو الملاهي والمقاهي الملهية، وما إلى ذلك، فحتّىٰ لو فُرضَ أنَّه يُوفَّق أحياناً للاستفادة من الوسائل المربية كقراءة القرآن، أو دعاء الليل، أو سماع وعظ واعظ، أو ما إلىٰ ذلك، يكون ذاك الجوّ الفاسد العامّ هو الغالب عليه والمؤثِّر فيه.

ورابعاً: إنَّ هذه المشكلة وهي: فساد المجتمع وتقوُّض الكيان الإسلامي، تؤثّر في تكوين أو تشديد المشاكل الأُخرىٰ الآتية.

٢ ـ الجهل بحقيقة الإسلام:

وهذا في الغالب ينشأ من المشكلة الأُولىٰ، وهو: انحسار الإسلام عن ساحة الحياة، وتقوُّض الكيان الإسلامي. وقد ينشأ من عدم وجود التبليغ الإسلامي بقدر الكفاية. فالإسلام نظام كامل شامل للحياة، وفيه حلول جميع المشاكل الحياتيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيَّة وما إلىٰ ذلك، ومن يجهل بذلك يضطرُّ أن يأخذ في كثير من تصرّفاته ومرافق حياته بنُظُم غير إسلاميَّة، وعلىٰ هذا الأَساس

يبتلي بحالة ازدواج الشخصيَّة، ولا تكون شخصيّته إسلاميَّة محضاً ومن ثَمَّ لا يستطيع أن يوفِّق حياته كاملة مع الإسلام، ويستقي من معين الإسلام، كي تكتمل روحه ومعنويّاته، ويحلِّق في سماء الأخلاق والتربية الروحيَّة والكمال.

وبكلمة أُخرىٰ : إنَّ مرافق الحياة مترابط بعضها ببعض، والإسلام إنَّما يظهر أثره في تنمية النفس وتزكيتها لو أُعطي كوصفة واحدة من قبل طبيب الروح، أمَّا لو تمزَّقت هذه الوصفة وتجزّأ العلاج سواءٌ كان علىٰ أساس المشكلة الأُولىٰ وهو: انحسار الإسلام عن مسرح الحياة، أو علىٰ أساس المشكلة الثانية وهو: جهل الشخص بحقيقة الإسلام، فالنتيجة الطبيعيَّة لذلك عدم اكتمال الروح، وعدم بلوغها ذروة فعليَّة الاستعدادات التي أودعها الله فيها.

٣ ـ ضيق أُفق النفس :

إنَّ النفس البشريَّة في الغالب متَّصفة قبل العلاج بضيق الأُفق، وهذا الضيق يتجلّىٰ في النفس بالصور التالية:

أوّلاً : أنّها تُقدِّم المصالح المادّيّة والمصالح العاجلة علىٰ المصالح الروحيّة والمعنويّة، وعلىٰ المصالح الآجلة، وتضيق عن استيعاب أهمّيّة المصالح المعنويّة، وكذلك الآجلة الأُخرويّة.

وثانياً : أنّها تقصر النظر علىٰ المصالح الشخصيّة والفرديّة في مقابل مصالح المجتمع، وتضيق عن رؤية المصالح الاجتماعيّة أو الاهتمام بها.

وثالثا : أنّها تضيق عن الجمع بين بعض الفضائل وبعض، فكأنّما يوجد نوع تضادّ بين قسمين من الفضائل، في حين أنّه بالتدقيق ينكشف أنّه لا تضادّ بينهما، وإنّما العيب كان في ضيق أُفق النفس التي لم تستوعبهما.

ونذكر لهذا التضادّ الوهميّ عدّة أمثلة :

الأوّل : ما يتراءىٰ في النفوس الضيّقة من التضادّ أو التنافي بين حالة الزهد

وعدم المبالاة بالدنيا من ناحية، والعمل بمفهوم خلافة الله في أرضه الذي يتطلّب عمرانها واستخراج خيراتها وبركاتها من ناحية أُخرىٰ، في حين أنّ كلتا الحالتين قد أُمرنا بهما في الشريعة، ولكنّك ترىٰ عملاً أن كثيراً ممّن يقبل علىٰ الزهد وترك الدنيا ينصرف عن العمل الجادّ في الدنيا، والاستفادة من نعم الله في سبيل ترفيه العائلة، أو مساعدة الجيران، أو طلب الخير للمسلمين، وما إلىٰ ذلك، ويتقوقعُ علىٰ نفسه، ويترك الأعمال الاجتماعيّة. وترىٰ كثيراً ممن لديه أعمال خيرية أو اجتماعيّة لمصلحة العباد ينسىٰ الزهد في هذه الدنيا، وينكبُّ عليها حلالاً أو حراماً، ويقتنع بما يرىٰ من نفسه من بعض الخيرات والمبرات أو الأعمال الاجتماعيّة، وينسى قوله تعالىٰ: ﴿... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

والخلاصة: أنّه يصعب علىٰ أُفق النفس الضيقة الجمع بين خصلةٍ ورد فيها عن الصادق عليه السلام قوله: «جعل الخير كلّه في بيت، وجعل مفتاحهُ الزهد في الدنيا. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجد الرجل حلاوة الإيمان في قلبه حتّىٰ لا يبالي من أكل الدنيا. ثُمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: حرام علىٰ قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتّىٰ تزهد في الدنيا»[٢] وخصلة الاهتمام بالحصول علىٰ خزائن الأرض لصالح تحكيم المبدأ والعقيدة بين الناس، كما حكىٰ الله تعالىٰ عن يوسف عليه السلام قوله: ﴿... اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٣] ولكن النفوس الكاملة لا ترىٰ أيّ صعوبة في الجمع بين الخصلتين.

وها هو إمامنا أمير المؤمنين سلام الله عليه لا يرىٰ تهافتاً بين الصفتين، فمن

---

(١) السورة ٥، المائدة، الآية: ٢٧.

(٢) الوسائل ١٦/١٢، الباب ٦٢ من جهاد النفس، الحديث ٥.

(٣) السورة ١٢، يوسف، الآية ٥٥، وما تليها من آية قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

ناحية تراه يهتمّ باستحصال فدك، وبالاحتجاج علىٰ الغاصبين له حتّىٰ عن طريق إرسال زوجته الطاهرة لإلقاء ذاك الخطاب الرنّان علىٰ الرجال، ويهتمّ بإمرته علىٰ المسلمين، ويقاتل عليها، ويقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ومن ناحية أُخرىٰ يقول: «... ألا وإنّ إمامكم قد اكتفىٰ من دنياه بِطِمريهِ، ومن طُعْمه بقُرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون علىٰ ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسدادٍ فو الله ما كنزت من دنياكم تِبراً ولا ادّخرت من غنائمها وَفراً ولا أعددت لبالي ثوبي طِمراً ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلّا كقوت أتانٍ دبرة، ولهي في عيني أوهىٰ وأهون من حفصة مقرة بلىٰ كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مظانّها في غد جدث، تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها، لأضغطها الحجر والمدر، وسدَّ فرجها التراب المتراكم، وإنّما هي نفسي أروّضها بالتقوىٰ لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت علىٰ جوانب المنزلق...»[1].

ويقول علىٰ ما في النهج : «... والله لهي (النعل الذي كان يخصفه) أحبُ اليّ من إمرتكم إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً...»[2].

وفي الواقع : لا تنافي ـ أبداً ـ بين الزهد بمعنى ترك الحرام والشبهات، وأن لا يملكك من الدنيا مُباحها فضلاً عن حرامها ومكروهها من ناحية، وبين العمل بخلافة الله في أرضه في سبيل تعمير البلاد، لأجل العباد، وخدمة المجتمع، ونشر

---

(١) نهج البلاغة: ٥٧٣ ـ ٥٧٤، رقم الكتاب: ٤٥.

(٢) نهج البلاغة: ٧٠ الخطبة:٣٣ قال الشريف الرضي‏: ومن خطبة له‏ عند خروجه لقتال أهل البصرة قال عبدالله بن عباس:« دخلت علىٰ أمير المؤمنين‏ بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لاقيمة لها. فقال‏: والله لهي أحبُّ إليَّ من إمرتكم، إلّا أن أقيم حقّاً أو أدفع باطلاً...».

الهدىٰ، وترفيه المؤمنين من ناحية أُخرىٰ. ولا تضارُبَ ـ أبداً ـ بين الزهد بمعنىٰ أن لا يأسو الإنسان علىٰ ما فاته باعتبار مصلحته الشخصيّة، ولا يفرح بما أُوتي من زاوية تلك المصلحة من ناحية، وبين الإقبال علىٰ نعم الدنيا والسعي في تنميتها بالطرق المحلّلة لمصلحة المجتمع الإسلامي، لا لنفسه من ناحية أُخرىٰ، بل وإقبال المال الحلال علىٰ الإنسان مع افتراض أن يكون الإنسان هو المالك له لا أن يكون المال مالكاً لقلبه لا ينافي الزهد أيضاً.

الثاني: ما يحسّ به ـ أيضاً ـ من التنافي الوهمي بين حالة العبادة الفرديّة، والإقبال علىٰ الله تعالىٰ في المناسك التي يُختلىٰ فيها مع الله تعالىٰ من ناحية، والإقبال علىٰ الأعمال الاجتماعيّة المطلوبة، والتعايش مع الناس وفي الناس لأجل الله من ناحية أُخرىٰ. فترىٰ كثيراً من المتعبّدين يجنحون إلىٰ مستوىً من الترهبن والابتعاد عن الخَلْق، وترىٰ كثيراً ممّن يقدّمون خدمات اجتماعيّة مشكورة مقصّرين في مستوىٰ الخلوة مع الله والانقطاع العبادي إلىٰ الله تعالىٰ، في حين أنّه لا يوجد أيّ تنافٍ بين الأمرين عدا ما يخلقه الوهم في النفوس نتيجة ضيق أُفق النفس.

الثالث: الشجاعة والجرأة والإقدام علىٰ المخاطر في حدودها الشرعيّة من ناحية، وحالة الخوف والتذلّل أمام الله والخضوع والخشوع له من ناحية أُخرىٰ، وها هو مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قد ضرب المثل الأعلىٰ في ذلك، فقد رُوي أنّه عليه السلام «كان إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلوّن، فقيل له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله علىٰ السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها»[١]، ومن ناحية أُخرىٰ شجاعته وإقدامه مشهوران معروفان إلىٰ جنب ذاك الخوف والذلّ والخشوع أمام الله تعالىٰ.

وعن الشيخ المفيد رحمه الله أنّه قال: « ومن آيات الله الخارقة للعادة في أمير

---

(١) المحجة البيضاء ١/ ٣٥١.

المؤمنينعليه السلام، أنّه لم يعهد لأحد من مبارزة الأقران ومنازلة الأبطال ما عُرفَ لأمير المؤمنينعليه السلام من كثرة ذلك علىٰ مرّ الزمان، ثُم لم يوجد في ممارسي الحروب إلّا من عرته بشرّ ونيل منه بجراح أو شين، إلّا أمير المؤمنينعليه السلام فإنّه لم ينله مع طول مدة زمان حربه جراح من عدوه، ولا وصل إليه أحد منهم بسوء حتّىٰ كان من أمره مع ابن ملجم لعنه الله علىٰ اغتياله إيّاه ما كان...»[١].

نعم، وإن شئت نقطة من بحر تذلّله لله تعالىٰ وخوفه وخشوعه بالليل، فاستمع إلىٰ ما وصفه ضرار أمام معاوية قال: «فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخىٰ الليل سدوله، وغارت نجومه وهو قائم في محرابه، قابض علىٰ لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأنّي الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا دنيّة أبي تعرضت؟! أم إليّ تشوّقت؟! هيهات هيهات غُرّي غيري لا حاجة لي فيك، قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها. فعمرك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير. آه آه من قلّة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق، وعظم المورد. فسالت دموع معاوية علىٰ لحيته فنشفها بكمّه، واختنق القوم بالبكاء...»[٢] وفي نفس الوقت تراه بالنهار يقاتل الأبطال ويضرب الشجعان:

هو البكّاء في المحراب ليلاً ... هو الضحّاك إن طال الحرابُ

وهذا البيت الذي استشهدنا به منقول عن عمرو بن العاص. والقصّة مايلي: روىٰ المرحوم الشيخ علي أكبر النهاونديرحمه الله عن الجزء الثاني من زهر الربيع (ولا أظنّه مطبوعاً): أنّ أمير المؤمنينعليه السلام كتب إلىٰ معاوية: « غرّك عزّك، فصار قصار ذلك ذلّك. فاخش فاحش فعلك؛ لعلّك تُهدىٰ بهدىٰ. والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ». فلمّا وصل المكتوب إلىٰ معاوية، أمر عمرو بن العاص أن يصعد المنبر،

---

(١) المحجة البيضاء ١٩٤/٤.

(٢) بحار الأنوار ١٢١/٤١.

ويسبّ عليّاًعليه السلام ويذمّه، ووعده أن يعطيه جائزة عظيمة علىٰ ذلك. فلبّاه عمرو بن العاص، وصعد المنبر، فلمّا همّ بالأمر جُسّد أمامه حيوانٌ كجثّة بعير، وبارتفاع المنبر فاتحاً فمه مهدّداً له ببلعه مع المنبر لو أساء إلىٰ عليّعليه السلام، فاضطرب عمرو بن العاص وأنشأ يقول:

بآل محمّدٍ عُرف الصوابُ ... وفي أبياتِهم نزل الكتابُ
وهم حجج الإلٰه علىٰ البرايا ... بهم وبجدّهم لا يسترابُ
وهم كلماتُ آدم إذ تلاها ... فتاب بها عليه واستجابُ
ولا سيّما أبا حسنٍ عليّاً ... له في الحرب مرتبةٌ تهابُ
طعام سيوفه مهجُ الأعادي ... وفيض دما الرقاب لها شرابُ
فضربته كبيعته بخمّ ... معاقدها من القوم الرقابُ
وبين سنانه والدرع صلحٌ ... وبين البيض والبيض اصطحابُ
عليٌّ هازم الأحزاب جمعاً ... هو الساقي علىٰ الحوض الشرابُ
عليٌّ التبر والذهب المصفّىٰ ... وباقي الناس كلّهم ترابُ
إذا لم تَبْرَ من أعدا عليّ ... فمالك في محبّته ثوابُ
هو البكّاء في المحراب ليلاً ... هو الضحّاك إن طال الحرابُ
هو النبأ العظيم وفلك نوحٍ ... وباب الله وانقطع الخطابُ

فأمره معاوية بالنزول عن المنبر، وعاتبه علىٰ ما فعل، فقصّ له عمرو بن العاص قصّة ما رآه من الحيوان وقال: إنّ هذا أورث خوفاً عظيماً عندي، وأنشأت هذه الأبيات من غير قصد، وأنت تعلم العداوة والبغضاء الموجودتين بيني وبين عليّ بن أبي طالب. فإن شئت أعطيتني الجائزة التي وعدتني بها، وإن شئت منعتها عنّي، فقال معاوية: أُعطيك نصف تلك الجائزة[١].

---

(١) أنوار المواهب: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

عود علىٰ ما كنّا فيه:

والخلاصة: أنّ الإنسان الاعتيادي الضيّق الأُفق لا يستطيع أن يكون راهباً بالليل، وفي نفس الوقت أسداً بالنهار، وكأنّه يراهما حالتين متضاربتين، في حين أنّ الروايات الواردة عن أهل البيت وصفت أصحاب الحجّة ـ عجّل الله فرجه ـ تارةً والمؤمنين أُخرىٰ والشيعة ثالثة: بأنّهم رهبانٌ بالليل، وأُسد بالنهار.

فمن الأوّل أي: الذي وصف أصحاب الحجّة بهذا الوصف ما ورد عن الصادق عليه السلام في صفتهم: «... رجال لا ينامون الليل، لهم دويٌّ في صلاتهم كدويّ النحل، يبيتون قياماً علىٰ أطرافهم، ويصبحون علىٰ خيولهم[1]، رهبان بالليل، ليوث بالنهار هم أطوع له من الأمة لسيّدها. كالمصابيح كأنّ قلوبهم القناديل. وهم من خشية الله مشفقون، يدعون بالشهادة، ويتمنّون أن يُقتلوا في سبيل الله، شعارهم: يا لثارات الحسين. إذا ساروا يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر، يمشون إلىٰ المولىٰ ارسالاً، بهم ينصر الله إمام الحقّ»[2].

ومن الثاني أي: الذي وصف المؤمنين بهذا الوصف ما عن أحدهما عليهما السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله في صفة المؤمنين: «... عشرون خصلة فيٰ المؤمن؛ فإن لم تكن فيه لم يكمل إيمانه... إلىٰ أن يقول: رهبان بالليل، أُسد بالنهار...»[3].

ومن الثالث أي: الذي وصف الشيعة بذلك ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً لنوف: «... هل تدري من شيعتي؟ قال: لا والله، قال: شيعتي الذبل الشفاه، الخمص البطون، الذين تعرف الرهبانيّة والربانيّة في وجوههم، رهبان بالليل، أُسد بالنهار، الذين إذا جنّهم الليل اتّزروا علىٰ أوساطهم وارتدوا علىٰ أطرافهم، وصفّوا

---

(١) لعلّ الخيول كناية عن مركوباتهم المتطوّرة وقتئذٍ، ولعلّ المصلحة الإلهيّة تقتضي رجوع وضع الحرب ـ وقتئذ ـ إلى وضع أيّام ركوب الخيول والقتال بالوسائل البسيطة المعروفة قديماً.

(٢) بحار الأنوار ٥٢/٣٠٨.

(٣) أُصول الكافي ٢/٢٣٢.

أقدامهم، وافترشوا جباههم، تجري دموعهم علىٰ خدودهم، يجأرون إلىٰ الله في فكاك رقابهم، وأمّا النهار فحلماء علماء، كرام نجباء، أبرار أتقياء...»[١].

الرابع: الخوف من ناحية، والرجاء من ناحية أُخرىٰ. فترى بعض الناس إن اتّجه نحو الخوف قلّ رجاؤه، وقد ينقلب خوفه بالتدريج ـ علىٰ أثر عدم اقترانه بالرجاء المتعادل معه ـ إلىٰ اليأس، ويجرُّه ذلك إلىٰ ارتكاب المعاصي والقبائح. وإن اتّجه نحو الرجاء قلّ خوفه، وقد ينقلب رجاؤه بالتدريج ـ علىٰ أثر عدم اقترانه بالخوف المتعادل معه ـ إلىٰ الجرأة والأماني، فينهمك في المعاصي والآثام.

في حين أنّه لا منافاة عقلاً بين الخوف والرجاء، بل بينهما كمال الملاءمة. ويؤكّد التلاؤم بينهما أنّهما لو روعيا بشكل صحيح أنتجا نتيجة واحدة: فمن خاف النار هرب منها، ولجأ إلىٰ الجنّة ومن رجا الجنّة طلبها واهتم بها. ومن خاف غضب الرحمن لجأ منه إلىٰ رضوانه. ومن رجا رضوان الله طلبه وفتّش عنه. وإنّما التضادُّ ينشأ من الضيق في النفوس، وعدم التحليق في الآفاق الرحبة الواسعة، والقيم الروحيّة العليا.

الخامس: الحفاظ علىٰ حالة القيادة والاستقلال في الشخصية والفكر من ناحية، وعلىٰ الخضوع للحقّ والرأي الصحيح أينما وجد ولو عند من هو دونه من ناحية أُخرىٰ؛ ذلك أنّ الإنسان القادر علىٰ الاستقلال في التفكير ينبغي له إخراج ما بالقوّة فيه إلىٰ الفعل، وتنمية تفكيره المستقل، وتفجير ذكائه وبراعته، ولا ينبغي له التقليد الأعمىٰ عن الآخرين والذوبان فيهم. والشخص الذي قد توصّل إلىٰ الحقّ وإلىٰ سبيل الرشاد، ينبغي له أن يهدي الناس، ويتصف بصفة القيادة، إلّا أنّه في نفس الوقت الذي يحفظ شخصيته واستقلاله في التفكير، ويقود الآخرين، ويهديهم إلىٰ الصراط المستقيم، لابدَّ له ـ أيضاً ـ أن لا تتحوّل هذه الحالة إلىٰ العُجب والغرور، وعدم الخضوع للحقّ، ويجب أن تكون الحكمة ضالّة له أينما

---

(١) بحار الأنوار ٦٨/ ١٩١.

وجدها، ويجب أن يتقبّل الحقّ ولو كان عند من هو أدون منه بمراتب. والجمع بين هاتين الصفتين صعب علىٰ الإنسان الاعتيادي.

السادس: التواضع أو الحلم من ناحية، وعدم الخنوع للظلم والهوان من قبل أعداء الله من ناحية أُخرىٰ؛ فقد يصعب علىٰ النفس الجمع بين الأمرين؛ فالتواضع أو الحلم إن انحرف عن مسيره الصحيح، تحوّل إلىٰ الخنوع لظلم الظالمين وجور الجائرين، كما أنّ عدم الخنوع للظلم والجور إن انحرف عن مسيره الصحيح، تحوّل إلىٰ التبختر والعجب. في حين أنّه لا توجد أيُّ منافاة واقعية بين تلكما الفضيلتين.

وبإمكانك أن تمثّل بكلّ صفتين متضادتين كان التوفيق بينهما باختلاف الموارد، كالشجاعة والإقدام في موردها، والتقيّة والاحتياط في مورد آخر. وأن تمثّل بالتجنب عن الإفراط مع التجنب عن التفريط في كلّ ما يحسن فيه التجنبُ عنهما، كترك البخل وترك الإسراف **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾**[1].

ولتجمّع كلّ الصفات الفاضلة ـ التي قد يرى الوهم تضادّاً بينها ـ في إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام، وصفه الشاعر باجتماع الأضداد في صفاته حينما قال:

جمعت في صفاتك الأضداد ... فلهذا عزت لك الأندادُ

زاهدٌ حاكم حليم شجاع ... فاتك ناسك فقير جوادُ

أنت سرّ النبيّ والصنو وابن ... العم والصهر والأخ السجّادُ

لو رأىٰ مثلك النبيّ لآخاه ... وإلّا فأخطأ[2] الانتقادُ[3]

---

(١) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) الأولىٰ أن يقال: (لم ينصف الانتقاد)، كي لا نتورّط في إدخال الفاء علىٰ الجزاء القابل للشرطية نتيجة ضرورة الشعر.

(٣) أنوار المواهب: ٣٥٨.

٤ ـ العادة:

والواقع: أنّ العادة ليست من أسباب المنع عن التربية الأخلاقيّة والوقوع في الأخلاق السيّئة فحسب، بل هي بذاتها أداة فارغة يمكن ملؤها بما يضرّ؛ كما يمكن ملؤها بما ينفع، فإذا ملئت بما يضرّ أصبحت من المشاكل الواقعة في طريق التربية. وإذا ملئت بما يورث الملكات الفاضلة أصبحت من المحفّزات نحو الخير والصلاح. وعليه فيمكن البحث عنها هنا، كما يمكن البحث عنها في المبحث الآتي، وهو: (بحث المحفّزات نحو الصلاح). ونحن اخترنا البحث عنها هنا (أعني: بحث المثبّطات) ولا نحتاج في البحث الآتي إلى تكرار البحث عنها.

والعادة هي من أشدّ العوامل المؤثّرة في سلوك الإنسان، قال أحمد أمين في كتاب الأخلاق: كثيراً ما يعبّرون عن قوّة العادة بقولهم: (العادة طبيعة ثانية) يعنون بذلك: أنّ لها من القوّة ما يقرب من (الطبيعة الأُولىٰ). والطبيعة الأُولىٰ هي: ما ولد عليه الإنسان وفطر عليه. فكلُّ إنسان خرج في هذا العالم كآلة مجهزة بكثير من العُدد: عين تبصر، وأُذن تسمع، ومعدة تهضم، وغرائز فطريّة وهكذا، فهذا الذي ولدنا عليه وورثناه من آبائنا وأجدادنا، هو طبيعتنا الأُولىٰ. ولها سلطان كبير علىٰ الإنسان، فلو حاول أن يبصر بأُذنه ويسمع بعينه ما استطاع، فهو لابدّ أن يكون خاضعاً لسلطانها. وما يُدخله الإنسان علىٰ الطبيعة الأُولى من التحسين والتقبيح هو ما يسمّىٰ (الطبيعة الثانية) أو العادة. ولها كذلك سلطان كبير، فالطريق الذي نختطّه لأنفسنا في الحياة ونعتاد السير فيه، له من السلطان علينا ما يقرب من سلطان الطبيعة، فنحن أحرار في السنين الأُولى من حياتنا، لا سلطان للعادة علينا حتّىٰ إذا نمونا كان نحو التسعين في المئة من أعمالنا ـ من لبس وخلع وطريقة وأكل وشرب ونمط في الكلام والسلام والمشي والمعاملة ـ معتاداً نعمله بقليل من الفكر والانتباه، ويصعب علينا العدول عنه، وتصبح حياتنا مجرّد تكرير لأفكار

وأعمال كسبناها في أوّل عهدنا بالحياة... وقوّة العادة هي التي تـجعل المسـنّين يرفضون الآراء الجديدة والمستكشفات الحديثة، علىٰ حين نرى الأحداث يسرعون في اعتناقها والعمل بها؛ ذلك لأنّ المسنّين ألفوا نوعاً خاصّاً من الآراء، واعتادوا السير عليه حتّىٰ صاروا يكرهون ما يخالفه، أمّا الشُبّان والأحداث فلم يألفوا نوعاً خاصاً من الآراء؛ لذلك كانوا علىٰ استعداد لقبول ما تقوم البراهين علىٰ صحّته. ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما حدث للطبيب الشهير هارفي (١٥٧٨ ـ ١٦٥٧) الذي استكشف الدورة الدمويّة في الإنسـان، فـقد أعـلن اسـتكشافه، وأيّـده بالبراهين، ولكن ظلّ الأطبّاء يرفضون القول به نحواً مـن أربـعين سـنة؛ لأنّـهم اعتادوا أن يفكّروا أن لا دورة. ورحّب بالاستكشاف الأحداث؛ لمرونتهم وعدم إلفهم القديم. وهذا ما يعلل ما نراه من تمسك العجائز بالقديم والخـرافـات مـع وضوح البراهين علىٰ بطلانها[١].

ومن الأمثلة علىٰ تأثير العادة الغـريب فـي حـياتنا، مسألة المشـي، ومسألة الكلام. وقد ذكرهما أحمد أمين في كتابه تحت عنوان (سهولة العمل المعتاد) التي جعلها من خصائص العادة، قال: «ومن الأمـثلة عـلىٰ ذلك المشـي، وهـو مـن التمرينات الشاقّة، يستغرق تعلمه شهوراً: فأوّلاً نتعلّم كيف نقف، ووقوف الإنسان صعب؛ لأنّه يرتكز علىٰ قاعدة ليست بالعريضة، وعلىٰ نهاية واحدة؛ لذلك كـان وقوفه أصعب من ذوات الأربع، وكان انكفاؤه أسهل من انكفائها. وبعد أن نتعلّم الوقوف نتعلّم الارتكاز علىٰ رجل واحدة عند اتجاه الأُخرىٰ إلىٰ الأمام، ثُمّ تغيير الارتكاز من رجل إلىٰ رجل عند تقدّم الأُولىٰ. ومع هذه الصعوبات نجد أنّ العمل بتكراره واعتياده يصير في غاية السهولة. ويكفي توجيه فكرنا إلى المكان الذي نريده لتتحرك أرجلنا وتسير من غير صعوبة، ومن غير تفكير في كيف نمشي.

---

(١) مقتطف من كتاب الأخلاق لأحمد أمين: ٣٤ و ٣٥.

وأعجب من هذا وأصعب الكلام؛ فإنّا نقضي سنين في تعلّمه، ونحتاج إلىٰ استعمال عضلات الحلق والشفة والحنك واللسان، وقد نحتاج في النطق بكلمة واحدة إلىٰ استعمال كلّ هذه العضلات. ويتدرج الطفل من النطق ببعض الحروف السهلة إلىٰ الصعبة حتّىٰ تتكوّن العادة، فيصبح قادراً علىٰ التكلّم من غير إحساس بصعوبة ما»[١].

أقول: وثالث المشي والكلام هو الكتابة، فما أصعب الكتابة أوّل الأمر، وتبديل حركة اليد، وتحريك القلم بأسرع ما يمكن من حرف إلىٰ حرف إلىٰ أن تصبح عادة، وتجري في سهولة بالغة.

وذكر أحمد أمين في بيان تأثير تكرّر ورود فكرة ما لعمل علىٰ الذهن إلى أن تنتج عملاً، ثمّ يصير ذلك عادة بالتكرار: «هب أنّ شاباً مستقيماً دعاه مرّة رفقة السوء ليشرب معهم، فنرىٰ أنّ ذلك الشابّ عند سماع هذا الرأي يرفض الفكرة بتاتاً، ويقول: (لا) بملء فيه، ولكن قد يدعوه رفقاؤه لأن يصحبهم من غير أن يشرب، ويزيّنون له هذا الرأي بما أُوتوا من حيل ومهارة، فيرى بعد طول القول وكثرة الإغراء أنّ هذا الرأي لا يضره ما دام في عزمه أن يذهب ولا يشرب، وقد يتم ذلك حقيقةً، فيذهب معهم ولا يشرب، وقد يكرر ذلك، ولكنه في كلّ ذهاب معهم تقلّ قوّة الممانعة، وتأتي فكرة الشرب في كلّ مرّة، فتعمّق مجراها في المخّ، ولا تزال تضعف قوّة المقاومة عنده حتّىٰ لا يرى له قدرة علىٰ الامتناع، فيشرب الكأس الأُولى معتقداً أنّه يستطيع أن يضرب عن الشرب في أيّ وقت شاء، وهو في كلّ مرّة يشرب يثبّت عادة الشرب، وإذا به سكّير»[٢].

أقول: ولهذا ورد في الحديث: «ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة...»[٣].

---

(١) كتاب الأخلاق لأحمد أمين: ٣٣.

(٢) الأخلاق لأحمد أمين: ٣٩.

(٣) أُصول الكافي ٢/٤٥١.

وقال ـ أيضاً ـ أحمد أمين: «حكىٰ (ألفونس سكيروس) في كتابه (التربية الاستقلاليّة): أنّ امرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت أحد الحوانيت، وانتقت ما أرادت، وأخرجت من جيبها ورقة (بنك) قيمتها خمسة جنيهات، ولكنّ صرّاف الحانوت وجد أنّها مزوّرة، فبهتت المرأة، وأخرجت له أُخرىٰ، ولكنّها لم تكن خيراً من الأُولىٰ، فارتاب الرجل في أمرها وسلّمها إلى الشرطَة، وبعد التحقيق تبيّن أنّ هذه المرأة خادمة أمينة، كانت عند مخدومها ورقتان مزيّفتان وقعتا في يده اتّفاقاً، فتركهما في بيته من غير أن يمزّقهما، وكانت الخادمة تدخل الحجرة التي فيها الورقتان كلّ يوم؛ لتنظّفها، فتقع عينها عليهما ولا تعبأ بهما، ولكنّ تكرّر حضورهما في ذهنها من يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر حسّن لها أخذهما، فرفضت ذلك في أوّل الأمر بتاتاً، وبعد مدّة لمستهما بيدها وقلّبتهما، ثُمّ ردّتهما فوراً وكأنّ فيهما ناراً تحرق أصابعها، وما زال بها هذا الإغراء حتّىٰ غلبها وأوقعها في السرقة»[١].

وقال ـ أيضاً ـ في كتابه: « ممّا يستوجب الأسف أنّا في السنين الأُولىٰ ـ سني تكوّن العادات ـ لا نكون قد بلغنا حدّ التفكير الصحيح، ولا تكون لنا قوّة علىٰ التمييز بين الأشياء تمييزاً صحيحاً واختيار خيارها لنعتاده؛ فإذا بلغنا هذه السنّ، وأدركنا عيوبنا، وشاهدنا ما نعتاده من عادات سيّئة، صعُب علينا العدول عنها؛ لتصلّبها ورسوخها وإن كان ذلك ممكناً...»[٢].

أقول: نعم.

إذا عاش الفتىٰ ستّين عاماً ... فنصف العمر تمحقه الليالي
ونصف النصف يذهب ليس يدري ... بغفلته يميناً عن شمال

---

(١) الأخلاق لأحمد أمين: ٤٠.
(٢) المصدر السابق : ص ٤١.

وربـع النـصف آمـال وحـرص وشـغل بـالمكاسب والعـيال
وبـاقي العـمر أسـقامٌ وشـيبٌ وهـمٌّ بـانتقال وارتـحال
فحبّ المـرء طـول العـمر جـهلٌ وقسـمته عـلىٰ هـذا المـثال

ولا يخفىٰ أنّ العادة كما تؤثّر في نفس الإنسان بتوجيهه نحو الخير أو الشرّ، كذلك قد تؤثّر في تقوية وتنمية مؤثّر آخر، بحيث يصبح علىٰ الإنسان مؤثّران في توجيهه نحو الخير أو الشرّ، وذلك في الخيرات أو الشرور التي يكون لها في نفس البشر ـ عادة ـ دافع خلقي نفسي من الفضائل النفسيّة أو الرذائل النفسيّة، فمثلاً صفة الوفاء تتأصّل وتنمو في الإنسان بالتكرر في الالتزام بالوفاء، وصفة الجفاء ـ أيضاً ـ كذلك، وكذلك صفة البخل أو الكرم أو ما إلىٰ ذلك، فمن عوّد نفسه علىٰ حالة الانتقام أو التشفّي، تغلو في نفسه هذه الحالة، ولايكون الدافع الجديد له بعد ذلك إلىٰ الانتقام والتشيفي، العادة مباشرة فحسب، بل قوّة الغضب وضراوته للانتقام أيضاً، وكذلك من عوّد في نفسه حالة الوفاء ذكىٰ في نفسه نور الوفاء، فحينما يلتزم بالوفاء بعد ذلك ليس دافعه الجديد العادة وحسب، بل وكذلك قوّة نور الوفاء في قلبه. وكذا الحال في باقي الفضائل والرذائل، بل لعلّ التعود علىٰ المصاديق الفعلية لهذه الصفات النفسية، تخلق أحياناً تلك الصفة فيمن لم تكن لديه، أو كانت عكسها لديه.

وبالالتفات إلىٰ مدىٰ تأثير العادة في نفوسنا الذي كاد أن يكون كتأثير الغرائز الأصليّة، ومدىٰ تأثير مبادئ العادة، تتّضح لدينا أُمور هامّة لها قيمتها في مجال التربية:

الأوّل: ضرورة إسراعنا إلىٰ تربية نفوسنا مبكرين في ذلك بقدر الإمكان؛ فإنّ كلّ تأخير لذلك يعني استحكام العادات وتحددها وصعوبة التربية بعد ذلك، وضرورة تحصيل العادات الحسنة في الصغر، ثُمّ في عنفوان الشباب، ثمّ قبل سن الكهولة ... وهكذا.

ولعلّ هذا هو أحد الأسباب لما روي ـ علىٰ ما قاله المرحوم الشيخ عباس القمّي ﷺ في سفينة البحار[١] ـ: «إذا بلغ الرجل أربعين سنةٍ ولم يتب، مسح إبليس وجهه وقال: بأبي وجه لا يفلح».

فإنّ هذا الشخص قد استحكمت عاداته، ومن الصعب بعد هذا أن يغيّر عادةً أو يحسن صفة من الصفات.

وأيضاً لعلّ السبب الآخر لذلك هو : أنّ الإنسان يتحدد ـ عادة ـ طريقه في الحياة كاملاً خلال أربعين سنةٍ، ومن الواضح أنّ طريقة الحياة وظروفها ومكتنفاتها لها الأثر الكبير في سنخ التربية.

هذا، إضافة إلىٰ سبب آخر محتمل لذلك، وهو: أنّ الإنسان يبلغ ذروة كماله المزاجي والفكري من خلال أربعين سنةٍ، ثُمّ يتجه نحو التوقف، ثُمّ النقصان عادةً، فلو لم يفلح في زمان ذروة القدرة وقوّة الإرادة، ضعف احتمال الفلاح بعد ذلك، وفي الحديث عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشدّه، وإذا بلغ أربعين سنةٍ فقد بلغ منتهاه، فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان. وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع»[٢].

وعليه فالاهتمام بتربية النفس قبل بلوغ الأربعين من أشدّ الضرورات، خاصةً وأنّ سني الأربعين فما فوق هي سنوات اشتداد الحساب والكتاب عليه من قبل الله تعالىٰ علىٰ ما في بعض الروايات، فعن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

«إنّ العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة، فإذا بلغ أربعين سنة أوحىٰ الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى ملائكته أنّي قد عمّرت عبدي عمراً (وقد طال)، فغلّظا وشدّدا وتحفظا واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره. قال: وقال

(١) سفينة البحار ٣/٢٨٤.

(٢) الخصال ٢٣/٥٤٥، أبواب الأربعين.

أبو جعفر عليه السلام: إذا أتت علىٰ العبد أربعون سنة قيل له: خذ حذرك فإنّك غير معذور، وليس ابن أربعين سنة أحقّ بالعذر من ابن عشرين سنة، فإنّ الذي يطلبهما واحد، وليس عنهما براقد، فاعمل لما أمامك من الهول، ودع عنك فضول القول»[١].

وليس معنىٰ ما قلناه: من ضرورة تزكية النفس قبل الأربعين عدم ضرورة ذلك في أوّل الشباب، وكفاية الابتداء بذلك في سنّ الثلاثين مثلاً، وإنّما المقصود: أنّه ببلوغ الأربعين يكاد أن تفوت الفرص نتيجة تصلّب العادة، وتنزل القوى بالضعف والانهيار والنخور، ولا بدّ من تزكية النفس من أوّل البلوغ لو فاتته التزكية قبل البلوغ. وفي الحديث: «سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿... **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**...﴾[٢] فقال عليه السلام: توبيخ لابن ثمانية عشر سنة»[٣].

وتمام الآية ما يلي: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾.

ويعجبني هنا ذكر أبيات وردت بالفارسيّة في توصيف خصائص سني العمر:

چو عمراز سی گذشت ویاخود از بیست	نمیشاید دگر چون غافلان زیست
نشاط عمر باشد تا چهل سال	چهل رفته فرو ریزد پر وبال
پس از پنجه نباشد تن درستی	بصر کندی پذیرد پای سستی
چو شصت آمد نشست آمد پدیدار	چو هفتاد آمد افتاد آلت از کار
به هشتاد ونود چون در رسیدی	بسا سختی که از گیتی کشیدی
از آنجا گر بصد منزل رسانی	بود مرگی بصورت زندگانی
چو در موی سیاه آمد سفیدی	پدید آمد نشان نا امیدی[٤]

---

(١) المصدر السابق ٢٤/٥٤٥ ـ ٥٤٦، أبواب الأربعين.

(٢) السورة ٣٥، فاطر، الآية: ٣٧.

(٣) وسائل الشيعة ١٦/١٠١، الباب ٩٧ من جهاد النفس، الحديث ٥.

(٤) سفينة البحار ٦ / ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

الثاني: ضرورة تربيتنا لأطفالنا، ومدىٰ المسؤوليّة الكبيرة الملقاة علىٰ عواتقنا بهذا الصدد؛ لأنّ السنين الأُولىٰ من العمر لها الحظّ الوافر من تكوّن العادات، والإنسان غافل فيها غير شاعر بحقائق الأمور، وغير قادر علىٰ تقييم القضايا بالشكل الكامل، فعلىٰ الأولياء أن يراقبوا الصغار، ويربّوهم إلىٰ أن يبلغوا مرتبة الكمال والالتفات. والأخبار في باب تربية الأولاد كثيرة منها:

ما في وصية النبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام قال: «يا عليّ، حقُ الولد على والده أن يحسن اسمه وأدبه، ويضعه موضعاً صالحاً، وحقّ الوالد علىٰ ولده أن لا يسمّيه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس أمامه، ولا يدخل معه الحمام. يا عليّ، لعن الله والدين حملا ولدهما علىٰ عقوقهما. يا عليّ، يلزم الوالدين من عقوق ولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما. يا عليّ، رحم الله والدين حملا ولدهما على برّهما. ياعليّ من أحزن والديه فقد عقهما»[١].

وفي رواية أُخرىٰ: «جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ما حقُّ ابني هذا؟ قال: تحسن اسمه وأدبه، وضعه موضعاً حسناً»[٢].

وفي رواية ثالثة عن إمامنا زين العابدين عليه السلام: «وأمّا حقّ ولدك فأن تعلم أنّه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشرّه، وأنّك مسؤول عمّا وليته من حسن الأدب، والدلالة علىٰ ربّه عزّوجلّ، والمعونة علىٰ طاعته. فاعمل في أمره عمل من يعلم أنّه مثاب علىٰ الإحسان إليه، معاقب علىٰ الإساءة إليه...»[٣].

الثالث: ضرورة علاج العادات السيّئة بالدفع قبل الرفع؛ فإنّ من لم يقدر علىٰ معالجة العادة قبل تكوّنها، فهو أعجز عن علاجها بعد تكوّنها.

---

(١) وسائل الشيعة ٢١ / ٣٨٩ ـ ٣٩٠، الباب ٢٢ أحكام الأولاد، الحديث ٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٧٩، الباب ٨٦ من تلك الأبواب، الحديث ١.

(٣) وسائل الشيعة ١٥/١٧٥، الباب ٣ من جهاد النفس، الحديث ١.

الرابع : ضرورة علاج العادة السيّئة لو تكوّنت فوراً ففوراً؛ إذ كُلّما مضىٰ عليها الزمان استحكمت أكثر فأكثر.

ومن الخطأ الفاحش تأجيل التوبة الموجب لرسوخ أثر الذنب في النفس واستحكامه، وتحوّله إلىٰ العادة لو لم تتكوّن بعد، وتأثيره في اشتداد العادة لو كانت قد تكوّنت، علىٰ أنّ المذنب لا يضمن لنفسه إمهال الموت إيّاه للتوبة، وكذلك عدم تعرضه لموانع أُخرىٰ. ولو تاب وأصلح فقد خسر علىٰ أيّ حال ذاك المقطع من عمره. وقد مضىٰ منّا بحث التوبة مفصلاً في أوّل الحلقة الثالثة من كتابنا هذا، فلا نفصّل الكلام مرّة أُخرىٰ، إلّا أنّنا نزيّن المقام هنا برواية واحدة من روايات التوبة عن الإمام الباقر سلام الله عليه قال: « سئل رسول الله ﷺ عن خيار العباد فقال: الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا»[١] .

وعلاج العادة صعب مستصعب بالأخص إذا استفحلت، فلو أنّ أحداً فاتته العلاجات الوقائية كتربية الأبوين، أو انتهاجه هو منهج الرفع قبل الدفع، وخانته ارادته إلىٰ أن وقع في الفخّ، فهناك نصائح تقدّم لمن يريد العلاج لعادة سيّئة موجودة فيه، ونحن نذكرها مع تنقيحات من ناحية، وإضافات من ناحية أُخرىٰ. وهذه النصائح علىٰ قسمين:

القسم الأوّل : ما يقدّم لمن يرى في نفسه القدرة علىٰ محاربة العادة بشكل مباشر ومعاكستها. وهذا القسم من النصائح كما يلي:

١ ـ إنّ الإنسان تختلف حالاته النفسيّة من ساعة إلىٰ ساعة ومن زمان إلىٰ زمان، فقد تحصل له حالة الصحوة والانتباه والتوجّه إلىٰ الحقّ وحالة الصفاء الروحي، وأُخرىٰ تزول عنه هذه الحالة، وإنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً. فهذا المبتلى

---

(١) وسائل الشيعة ١٦ / ٦٧، الباب ٨٥ من جهاد النفس، الحديث ٨.

بالعادة السيّئة ينبغي له أن يختار ساعة الصحوة والانتباه، ويستغلّها في سبيل العزم القويّ علىٰ ترك تلك العادة السيّئة والنيّة الصارمة لمخالفتها، فإنّ نفس النيّة الصارمة والعزم القويّ الذي لا يشوبه ريب وتردّد يقوّي قدرة النفس علىٰ محاربة العادة وتركها.

وقد مضت في أوائل الحلقة الثانية من حلقات هذا الكتاب قصّة أحد قطّاع الطريق اسمه فضيل بن عياض: عشق جارية، فبينما يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...﴾ فأخذته الصحوة وقال: يا ربّ، قد آن فرجع وتاب(١).

وقد مضىٰ في أوائل الحلقة الثالثة من هذا الكتاب تفسير التوبة النصوح بالتوبة التي تخلق في النفس تغيراً وانقلاباً وتطهيراً، بشكل لن يرجع صاحبها إلىٰ ذلك الذنب أبداً.

وخير تعبير عن التوبة النصوح تعبير ورد عن إمامنا زين العابدين سلام الله عليه في دعاء التوبة: « اللهمّ إنّي أتوب إليك في مقامي هذا من كبائر ذنوبي وصغائرها، وبواطن سيّئاتي وظواهرها، وسوالف زلّاتي وحوادثها، توبة من لا يحدّث نفسه بمعصية، ولا يضمر أن يعود في خطيئة. وقد قلت يا إلٰهي في محكم كتابك: إنّك تقبل التوبة عن عبادك، وتعفو عن السيّئات، وتحبّ التوابين، فاقبل توبتي كما وعدت، واعف عن سيّئاتي كما ضمنت، وأوجب لي محبّتك كما شرطت، ولك يا ربّ شرطي إلّا أعود في مكروهك، وضماني أن لا أرجع في مذمومك، وعهدي أن أهجر جميع معاصيك...»(٢).

٢ـ ينبغي أن يلتفت هذا المعتاد الذي أصبح بصدد معاكسة العادة ومحاربتها،

---

(١) سفينة البحار، مادّة (الفضيل)، والآية: ١٦ في السورة ٥٧، الحديد.

(٢) الدعاء: الواحد والثلاثون من الصحيفة السجاديّة.

إلىٰ أنّه لو خالف تركه للعادة مرّةً واحدةً فـي الأثـناء، ورجـع إلىٰ عـادته قـبل استئصالها من نفسه، فهذه المرّة الواحدة ضررها عليه أكثر بكثير من نفع الرياضة التي يتحمّلها طوال مدّة مديدة في سبيل مخالفة العادة؛ ذلك لأنّ العمل علىٰ طبق ما اعتاد عليه باعتباره عملاً موافقاً لميله ورغبته النفسيّة، وجرياً علىٰ وفق التيار المترسّخ في نفسه، يكون تأثيره علىٰ النفس، وعلىٰ ترسيخ العادة، وإبطال أثر ما صنعه مدّة من الزمن من معارضة العادة، أشدّ بكثير من تأثير الترك في النفس.

٣ـ إذا كان يرى في نفسه العجز عن مواصلة الترك الدفعي، فـليلتزم بـالترك التدريجي. وإذا كان هكذا حاله فقد يكون الأفضل له ـ إن لم يكن المعتاد عليه من المحرّمات الإلٰهيّة ـ أن يحدّث نفسه من أوّل الأمر بالترك التدريجي، ولا يُنشئ بناءً نفسيّاً علىٰ الترك الدفعي والدائمي؛ لأنّه حينما تخونه إرادته بـعد ذلك، قـد يصاب بخيبة أمل، وباليأس عن العلاج، وبردّ الفعل العنيف، المانع عن القدرة علىٰ العلاج بعد ذلك.

والقسم الثاني: ما تقدّم من النصائح المشتملة علىٰ كيفيّة محاربة العادة بطريقة غير مباشرة. فلو صعبت علىٰ الإنسان محاربة العادة؛ لتمكّنها من النفس وترسّخها فيها، فبإمكانه ـ غالباً ـ أن يجهد في جوانب أُخرىٰ خارج نـطاق تـلك العـادة المترسّخة، ممّا يكون جهده فيها أسهل عليه من جهده في مخالفة العادة ابـتداءً. وبذلك يسهل عليه كسر العادة والاشتغال بالمحاربة المـباشرة. وهـذه النـصائح ـ أيضاً ـ تتلخّص في ثلاث:

١ـ أن يحارب الأُمور النفسيّة أو الخارجيّة التي تبعث بتلك العادة وتـنبّه إليها وتؤكّدها. فإذا لم تصبح تلك الأُمور بنفسها له عادة، أو كان تعوّده عليها أخفّ من تعوّده علىٰ العادة المقصود علاجها فمحاربته لتلك العادة الأُخرىٰ أو للتي لم يعتد بعد عليها أصلاً، تكون أسهل عليه من محاربته لعادته. وبإقصائه

لتلك البواعث وأسباب العادة يهون عليه كسر العادة، فمثلاً لا يسمح لنفسه ـ وبقدر الإمكان ـ بالتفكير فيما اعتاده وفي فوائده الظاهريّة، ولا يسمح لنفسه بقدر الإمكان بالدخول في المجالس التي تمارس فيها تلك العادة، ولا يصاحب من يتذوّق أو يمارس تلك العادة؛ فإنّ قرين السوء يزري ويؤثّر في الإنسان.

ولا أقصد طبعاً بهذا الكلام القول بحسن الابتعاد عن الفسقة، وقبح الاقتراب منهم لكلّ أحد، وفي كلّ حال حتّىٰ فيما لو ترتّبت علىٰ ذلك هداية ذاك الفاسق، وإنّما أقصد الكلام من زاوية علاج العادة فحسب، وإصابة العدوىٰ من صديق السوء. وعن رسول الله ﷺ: «المرء علىٰ دين خليله وقرينه»[1].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً﴾[2].

٢ـ أن يخلق الأجواء النفسيّة والخارجيّة المضادّة لتمركز العادة ولمبادئها، كأن يشغل نفسه بتفكير آخر حتّىٰ لا ينشغل بالتفكير الذي يؤكّد العادة، أو يفكّر ويطالع في مضارّ تلك العادة ومفاسدها، وفي عظمة عقاب الله لو كان المعتاد عليه معصية لله تعالىٰ، أو يعاشر الصديق الصالح، ويتردّد علىٰ مجالس الصلحاء والمتّقين ويخالطهم حتّىٰ تصيبه العدوىٰ الصالحة من الصديق. وما أسعد حظّ من يرافق أُناساً تذكّره مخالطتهم بالله تعالىٰ، وتوحي إليه بحسن الأخلاق والصفاء والوفاء واتّباع رضوان الله.

---

(١) أُصول الكافي ٢/٣٧٥، و ٦٤٢. والسند صحيح.

(٢) السورة ٢٥، الفرقان، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

وعن مصباح الشريعة عن الصادقعليه السلام قال: «احذر أن تواخي من أرادك لطمع أو خوف أو فشل أو أكل أو شرب. واطلب مواخاة الأتقياء ولو في ظلمات الأرض، وإن أفنيت عمرك في طلبهم؛ فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لم يخلق علىٰ وجه الأرض أفضل منهم بعد النبيّين. وما أنعم الله علىٰ العبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ...﴾»[١].

٣ـ القاعدة الرابعة من القواعد الأربع المذكورة في كتاب الأخلاق لأحمد أمين[٢] حيث قال: حافظ علىٰ قوّة المقاومة، واحفظها حيّة في نفسك؛ وذلك بأن تتبرّع بعمل صغير كلّ يوم، لا لسبب إلّا لمخالفة نفسك وهواك؛ لأنّ هذا يعينك علىٰ مقاومة المصائب إذا حان حينها، ويكون مثلك مثل رجل يدفع في كلّ سنةٍ مبلغاً صغيراً تأميناً علىٰ بيته ومتاعه.

أقول: أصل تعويد النفس علىٰ مخالفة الميول تقوية للإرادة أمر صحيح، ولكن ينبغي أن يصرف هذا ضمناً في مصرف تربية النفس بالعنوان الأوّلي. وأقصد بذلك: أنّه تارة يترك الإنسان بعض ميوله ومشتهياته التي لا توجد منقبة في تركها في حدّ ذاتها، ويتدرّج في تصعيد هذا الترك ومخالفة النفس؛ لما تترتّب علىٰ ذلك من قوّة الإرادة التي يستفيد منها بعد هذا في تربية النفس من كسر عادة سيّئة أو غير ذلك، وأُخرىٰ يختار الإنسان في نفس تركه هذا ومخالفته للنفس التدرّج في الالتزام بترك المكروهات وفعل المستحبّات. وهذا أفضل؛ لأنّه ـ إضافة إلىٰ ما فيه من تقوية الإرادة المفيدة فيما بعد لتربية النفس ـ يكون هذا بعنوانه الأوّلي والذاتي

---

(١) مصباح الشريعة، الباب الواحد والسبعون في المؤاخاة، والآية ٦٧ في السورة ٤٣، الزخرف.

(٢) كتاب الأخلاق : ص٣٨.

ـ أيضاً ـ تربيةً للنفس وتهذيباً لها، فهو بالفعل يكون في نموٍّ وتسامٍ روحي وأخلاقي ومعنوي. وقد ورد عن الصادق عليه السلام: «مَن استوىٰ يوماه فهو مغبون. ومن كان آخر يومه شرّهما فهو ملعون. ومَن لم يعرف الزيادة في نفسه كان إلىٰ النقصان أقرب. ومَنْ كان إلىٰ النقصان أقرب فالموت خير له من الحياة»[١].

وهذه الرواية من الروايات التي أحسُّ عليها بآثار الصدق ونور الإمامة، وكلُّ بنودها واضحة بالمنطق القطعي. فمن استوىٰ يوماه فهو مغبون؛ لأنّ العمر هو رأس مال الإنسان، فمن استوىٰ فقد خسر رأس ماله، فيكون لا محالة مغبوناً. ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو مبعد عن رحمة الله؛ لأنّ المفروض بالإنسان أن يكون في تقدّم، فإن لم يكن في تقدّم فالمفروض عدم التقهقر في أقلّ تقدير؛ إذ هذا يعني خسارة رأس المال زائداً خسارة ما كسبه سابقاً. ومن لم يعرف الزيادة كان إلىٰ النقصان أقرب؛ لأنّ الإنسان بطبيعته متحرّك، ونادرٌ وقوفه، فلو لم يتحرّك إلىٰ الأمام ففي الأكثر يتحرّك إلىٰ القهقرىٰ. ومن كان إلىٰ النقصان أقرب فالموت خير له؛ لأنّه بالحياة يخسر ولا يربح. وقد مضىٰ في أواخر الحلقة الثالثة من هذا الكتاب دعاء إمامنا زين العابدين عليه السلام: «... عمّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ، أو يستحكم غضبك عليّ...»[٢].

وختاماً **أقول**: إنّ العادة الحسنة حينما تتكوّن فهي علىٰ رغم ما تترتّب عليها من فوائد هامّة جداً: كسهولة العمل المعتاد، وتوفير الزمن، والانتباه، وخلق ميل نفسي نحو ذاك الشيء الحسن، وهذا الميل يجرّ الإنسان نحو الخير، علىٰ رغم كلّ هذا يوجد لها ضرر جانبي،وهو: أنّه حينما صارت العبادة أو أيّ عمل خيري عادةً

---

(١) بحار الأنوار ٧١/١٧٣.

(٢) الدعاء العشرون من الصحيفة السجاديّة.

للإنسان، يقلّ في كثير من الأحيان الالتفات التفصيلي وحضور القلب حين العمل. ولا يصحُّ تدارك ذلك بكسر العادة؛ فإنّ كسر العادة الحسنة خسارة عظيمة،بل ينبغي أن يكون تداركه بأمرين:

الأوّل: التعمّد إلىٰ إلفات النفس وتذكيرها حين الانشغال بالعمل إلىٰ العمل وإلىٰ الله تعالىٰ، وتركيز الذهن علىٰ ذلك وإحضار القلب؛ فإنّ العمل القليل بالحضور خير من العمل الكثير مع تلهّي القلب. وعن رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكّر خير من قيام ليلة والقلب ساه»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا صلّيت صلاة فريضة فصلّ لوقتها صلاة مودِّع تخاف أن لا تعود إليها»[٢].

وعن طريق العامة عن رسول الله ﷺ: «إنّما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرّع وتبأس وتندّم وتقنع بمدّ يديك فتقول: اللهم اللهم، فمن لم يفعل فهي خداج»[٣].

والثاني : أنّ شيئاً من الأعمال الخيّرة أو مرتبة من الصلاح إذا أصبح عادة، فليطمح الإنسان إلىٰ المرتبة الأعلىٰ وعملٍ خيريّ آخر لا يوجد فيه هذا النقص من دون أن يترك الشيء الأوّل. وبهذا يزداد الإنسان خيراً طيلة عمره.

٥ ـ غفلة النفس عن دوافعها الحقيقيّة :

ومن غرائب النفس البشريّة أنّه يعرض عليها ـ أحياناً ـ ما يشبه الغفلة عن دوافعها الحقيقية، علىٰ رغم أنّها ـ في الحقيقة ـ من المعلومات الحضوريّة لها، فتبرّر النفس ـ أحياناً ـ ما يصدر عنها بتبرير لا واقع له، وتتخيّل أنّها مخلصة في

---

(١) وسائل الشيعة ٤/٧٤ ـ ٧٥، الباب ١٧ من أعداد الفرائض، الحديث ١٣.

(٢) المحجة البيضاء ١/٣٥٠.

(٣) المصدر السابق : ص ٣٤٩، وفُسّر الخداج بمعنى الناقص.

العمل الفلاني لله، وأنّ هدفها الله جلّ وعلا فحسب، فتراه يغتاب أو يكذب أو يفتري انتقاماً أو سخطاً أو تماهلاً في الدين، ولكنّه يبرّر ذلك بينه وبين نفسه ـ لتخفيف تأنيب الضمير أو رفعه ـ بأنّ ذلك كان لأجل دفع الشرّ، أو الحيلولة دون طغيان ذاك الشخص، أو ما إلىٰ ذلك. فلو دقّق حقّاً في عمله ودوافعه النفسيّة لاتّضح له تدخّل غير الله في تحريكه.

وقد يتخيّل الإنسان أنّه وصل إلىٰ درجة معتد بها من الكمال، في حين أنّه ليس الأمر كذلك، فمثلاً ربما لا يستطيع أن يصدّق الإنسان بأنّه لم يترقّ في نفسيّاته وتطلّعاته إلىٰ المراتب المعنويّة، وكماله الروحي منه حينما كان طفلاً رضيعاً، وإذا به يتأثّر من أنّ فلاناً تقدّم عليه في المجلس مثلاً، في حين أنّ هذا هو عين حالة طفولته في الوقت الذي كان يتأثّر لو قدّمت أُمّه عليه طفلاً آخر، أو أرضعت طفلاً آخر غيره، أو أجلسته في حجرها. فبامتحان من هذا القبيل يستطيع أن يعرف أنّه في أمثال هذه الأُمور لا يزال يعيش نفسيّات أيّام طفولته، وإنّما الفرق في المصداق المبرز لهذه النفسيّات لا أكثر من ذلك.

وربّما لا يستطيع الغنيّ المتموّل أن يصدّق أنّه في خسّة نفسه كذاك الفقير السائل، الذي يمتلئ غيظاً وحسداً لو رأىٰ أنّه أُعطي للفقير الآخر، فلس واحد دونه، في حين أنّه هو ـ أيضاً ـ يمتلئ غيظاً وحسداً لو رأىٰ أنّ ربحاً هائلاً قد حصل عليه صديق له دونه، وكانت نسبة الربح إلىٰ ماله وحاله كنسبة الفلس الواحد إلىٰ حال ذاك الفقير السائل. فالنفسيّة هي عين تلك النفسيّة، وإنّما الفرق في المصداق.

والخلاصة: أنّ الغفلة عن الدوافع الحقيقيّة، وعن معرفة حقيقة نفسه، والدرجة التي وصل إليها من رفعة ومقام، أو خسّة وانحطاط، هي أحد الموانع عن تربية النفس. ولا بدّ من رفعها بالدقّة والالتفات، والتجربة ومحاسبة النفس.

٦ ـ التقليد أو إصابة العدوىٰ:

ومن المشاكل التي تعترض الطريق حالة التقليد، أو التأثّر بمن يتفاعل معه، فإنّ هذه الحالة موجودة عادة لدىٰ النفس البشريّة، وهي تشبه العادة في أنّها قد تولّد الخير والكمال حينما يتّفق تقليده صدفة لإنسان خيّر فاضل، أو تأثّره به ممّن يكون أعلىٰ مرتبة منه في الكمالات، فتساعده هذه الحالة علىٰ النموّ. وقد تولّد الشرّ حينما يقلّد إنساناً رذلاً خسيساً دنيئاً في روحيّاته ومعنويّاته.

وعلىٰ هذا الأساس يؤكّد ـ عادة ـ علىٰ اختيار الجليس الصالح، واجتناب جليس السوء كما ورد عن أبي الحسنعليه السلام قال: «قال عيسىٰعليه السلام: إنّ صاحب الشرّ يعدي، وقرين السوء يردي، فانظر من تقارن»[(١)].

وما عن ابن عباس قال: «قيل: يارسول اللهصلى الله عليه وآله، أيّ الجلساء خير؟ قال: من تذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغّبكم في الآخرة عمله»[(٢)].

وروي عن أمير المؤمنينعليه السلام قال: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: انظروا من تحادثون، فإنّه ليس من أحد ينزل به الموت إلّا مثّل له أصحابه إلىٰ الله، فإن كانوا خياراً فخياراً، وإن كانوا شراراً فشراراً. وليس أحد يموت إلّا تمثّلت له عند موته»[(٣)].

٧ ـ الانبهار والإحساس بالحقارة أمام أُبّهة الباطل:

وهذه الحالة غالباً ما تتواجد لدىٰ المسلمين الذين فقدوا المجتمع الإسلامي ذا سيادة إسلاميّة صحيحة، وأصبحوا تحت وطأة الغرب الكافر

(١) وسائل الشيعة ١٢/٢٣، الباب ١١ من العشرة، الحديث ٢.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٣) المصدر السابق، الحديث ١.

المستكبر، فأصبح الغرب له أُبّهة في نظر المسلمين السُذّج الغافلين عمّا يعيشه الغرب ـ علىٰ رغم تقدّمه الظاهري ـ من التفسّخ المعنوي من ناحية، والتمزّق الروحي والعائلي فيما بينهم من ناحية أُخرىٰ، وسوء العاقبة في الآخرة من ناحية ثالثة، والغافلين ـ أيضاً ـ عن أنّ ذاك التقدّم المادّي عندهم، وهذا التأخّر المادّي عند المسلمين المقهورين، ليس علىٰ أساس الحضارتين، بل حضارة الإسلام لو طبّقت لأحرزت التقدّم عليهم مادّياً أيضاً ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ...﴾[1]. وإنّما تسيطر العدوّ عليهم علىٰ أساس تركهم لمبدئهم ودستورهم، فأصبح المسلم الغافل عن هذه النكات ينظر بعين الإكبار إلىٰ الغرب، ويحسّ بالحقارة أمام عظمته الظاهرية وهذا ممّا يميت الهمم من ناحية، ويورث حالة التقليد من ناحية أُخرىٰ، ومن ثمّ يصدّ عن الترقي والتعالي في الأخلاق والكمالات والقيم والمثل والمعنويات.

وكذلك قد تحدث هذه الحالة لدىٰ بعض علىٰ رغم عيشه في ظلّ الحكومة الإسلاميّة المباركة وذلك إمّا قبال الغربيين الذين لا زالوا يمتلكون قوّة ظاهريّة مادّيّة وإمّا لبعض من نفس المسلمين المستضعفين نسبياً قبال مسلم آخر أقوىٰ منه مادّياً واقتصادياً، وأضعف منه ديناً وتقوى، فينجرّ نحو أخطائه وفسوقه نتيجة انبهاره بقدرته الماليّة والاقتصادية مثلاً.

وحالة الانهيار هذه أمام الزبرجة والعظمة الماديّة هي التي جعلت المعترضين اعترضوا علىٰ رسالة رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2].

---

(١) السورة ٧، الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) السورة ٤٣، الزخرف، الآية: ٣١.

٨ ـ الضياع :

وهذه الحالة ـ أيضاً ـ توجد غالباً في المسلمين المحرومين عن السيادة الإسلاميّة وحكومة الإسلام الحقيقيّة، والمنكوبين تحت وطأة الاستكبار الكافر، فهم يحسّون بالضياع علىٰ أساس أنّهم غرقوا في بحر الخسارات الناجمة من تسيطر الكفار والكفر عليهم، وعدم وضوح طريق النجاة عندهم، وعدم تحدّد المسؤوليّات بشكل واضح، وعدم وجود هدف محدّد وواضح لديهم. وهذا ـ أيضاً ـ ممّا يميت الهمم من ناحية، ويورث اليأس من ناحية أُخرىٰ، ويوجب الخمول والركود، ويجعل الإنسان المسلم لا يفكّر في علاج مجتمعه، ولا في علاج نفسه، ومن ثَمَّ يمنع عن التربية الخلقيّة والنموّ الروحي.

٩ ـ حالة الاستسلام للأمر الواقع :

وهذه الحالة تنشأ من رؤية الشخص نفسه أمام أمر واقع، ومن الكسل، ومن العوامل السابقة. وحالة الاستسلام للواقع من أشدّ المثبّطات، وأهمّ الموانع عن النموّ والترقّي المعنوي الفردي، والعمل في سبيل ترقية المجتمع.

ومن نعم الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ المسلمين كافّة في زماننا هذا، وجود حكومةٍ إسلاميّة صالحة في بقعة من بقاع الأرض، وهي: إيران، لها سيادتها وأُبّهتها وعظمتها، فإنّ لها الفضل الكبير علىٰ المسلمين في أطراف العالم في كسر هذه المثبّطات الثلاث الأخيرة، فإنّه إلىٰ حد كبير كسرت أُبّهة الغرب في نظر المسلمين، ووضعتهم علىٰ طريق العمل من دون ضياع، وسلبت منهم حالة الاستسلام، وخلقت في نفوسهم حالة الإقدام. والحمد لله علىٰ ما هدانا، والشكر له علىٰ ما أولانا.

هذا تمام كلامنا في عدّ بعض المثبّطات ـ لا علىٰ سبيل الحصر ـ عن التعالي الروحي، والنموّ المعنوي، بعد الأخذ بعين الاعتبار الصراع الموجود في نفس الإنسان بين شهواته الحيوانيّة من ناحية، وجذور الأخلاق الإنسانيّة من ناحية أُخرىٰ.

المحفّزات

والآن حان لنا أن نبحث بعض المحفّزات إلىٰ الخير والتعالي في مقابل ما شرحناه من المثبّطات، وذلك كالتالي:

١ ـ المثل الأعلىٰ مفهوماً: (ارم ببصرك أقصىٰ القوم)

ينبغي للإنسان أن يصوّر أمامه حدّاً أعلىٰ من الكمال في شعبة من شعب الأخلاق أو في جميع الشعب، ويجعله مثلاً أعلىٰ ماثلاً إزاء عينيه، محدداً لحدوده، مشخّصاً لتفاصيله بقدر معتدّ به، ثمّ يشرع في الاقتراب نحوه خطوة خطوة. فهذا المثل الأعلىٰ يكون محفّزاً له نحو الخير؛ إذ من ناحية يكون نفس تصوّره للمثل الأعلىٰ ومحاسنه مرغّباً له ومشجّعاً، ومن ناحية أُخرىٰ يلتفت ـ دائماً ـ إلىٰ مدىٰ بُعد المرحلة التي وصل إليها عن مرحلة المثل الأعلىٰ، فهذا يحركه نحو الاهتمام بالاقتراب. وإذا وصل إلىٰ مرحلة ذاك المثل أو اقترب منه، قويت همّته، واشتدّت عزيمته، فكان بإمكانه فرض مثل آخر أعلىٰ وأبعد مدىً عن المثل السابق، ومن ناحية ثالثة يكون هذا المثل الأعلىٰ مصداقاً لمحفزٍ آخر سوف يأتي الكلام عنه إن شاء الله من حمل همٍّ كبير، ومن ناحية رابعة قد يكون نفس ذاك المثل الأعلىٰ منيراً لدرب السلوك وسبيل الوصول، ويوجب تخطيط الشخص لذاك المثل ولسبل الوصول إليه. فنسبة من يعمل من دون مثل مع من يعمل بعد تجسيد المثل نسبة من

يبني بيتاً من دون تصوير مسبق له مع من يبني بيتاً بعد هندسة البيت في صورة يجعلها ماثلة بإزائه.

والخلاصة: أنّ نصح أمير المؤمنينعليه السلام في باب الحرب يمكن تسريته إلىٰ جميع مقامات الهمم العالية حيث قال: «تزول الجبال ولا تزل! عضّ علىٰ ناجذك. أعرِ الله جمجمتك. تدفي الأرض قدمك. ارم ببصرك أقصىٰ القوم، وغضّ بصرك، واعلم أنّ النصر من عند الله سبحانه»(١).

وشاهدنا فعلاً جملة: «ارم ببصرك أقصىٰ القوم» أي: إنّه يجب التركيز علىٰ أقصىٰ القوم المحارب، والاهتمام بإفنائهم عن آخرهم، والاقتراب إلىٰ هذا الهدف شيئاً فشيئاً.

وقد تتفق الحاجة إلىٰ جعل مثلين؛ مثل أعلىٰ، ومثل أدنى واقع في طريقه إلىٰ الأعلىٰ، فإن وصل إلىٰ الأدنىٰ مثّل أمامه ما هو أعلىٰ منه، إلىٰ أن يصل إلى ذاك المثل الأعلىٰ.

ولنلخّص نحن مثلنا الأعلىٰ في كلمة مختصرة، وهي: تحصيل رضا الله تعالىٰ.

وبالإمكان أن يختار أحد لنفسه بعض المُثل العليا من الكلمات القصار الواردة عن الأئمّةعليهم السلام، كقولهعليه السلام: «...كفىٰ بي عزّاً أن أكون لك عبداً...»(٢) فلتكن المثل الأعلىٰ العبوديّة لله تعالىٰ، وكقولهعليه السلام: «المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدراً، وأذلّ شيء نفساً. يكره الرفعة، ويشنأ السمعة. طويل غمّه، بعيد همّه، كثير صمته، مشغول وقته. مشكور صبور، مغمور بفكرته، ضنين بخلته، سهل الخليقة، ليّن العريكة، نفسه أصلب من الصلد، وهو أذلُّ من العبد»(٣).

---

(١) نهج البلاغة: ٣٧، رقم الخطبة: ١١.

(٢) بحار الأنوار ٧٧/٤٠٠، و ٩٤/٩٢ و ٩٤.

(٣) نهج البلاغة: ٧٢٤، رقم الحكمة: ٣٣٣.

ويمكن انتخاب المثل الأعلىٰ من بعض الخطب الطوال أيضاً، كأن ينتخب من خطبة المتقين بعض الجمل.

ولا يبعد أن يكون أحد الأهداف من كثير من الآيات والروايات الواردة في توصيف مراحل راقية من الكمال، أو تعريف المتقين، بل وحتّىٰ ما ورد في توصيف الجنّة، هو: تجسيد أمثال عليا، فحتّىٰ جعل المثل الأعلىٰ هو الوصول إلىٰ الجنّة بما يوصف من نعيمها وعيشها وصفائها يحفّز الإنسان نحو الخير والسعادة، وكذلك روايات صفات الشيعة ونحوها قد تكون بهذا الصدد، وذلك من قبيل ما جاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «شيعتنا المتباذلون في ولايتنا، المتحابّون في مودّتنا، المتزاورون في إحياء أمرنا. الذين إن غضبوا لم يظلموا، وإن رضوا لم يسرفوا. بركة علىٰ من جاوروا، سلم لمن خالطوا»[(١)].

وكذلك ما عن الصادق عليه السلام: « إيّاك والسفلة، فإنّما شيعة عليّ عليه السلام من عفّ بطنه وفرجه، واشتدّ جهاده وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، وخاف عقابه، فإذا رأيت أُولئك فأُولئك شيعة جعفر »[(٢)].

وكثير من الروايات الواردة في أبواب مختلفة كباب السفر، أو كتاب الصلاة، أو غير ذلك، قد يكون أحد أهدافها إعطاء مُثل عليا خاصّة بذاك الباب. فبإمكان الشخص أن يصبح مالكاً لمُثل عُليا عديدة كلّ واحد منها لباب من الأبواب.

وهناك نكتة في مسألة تشخيص المثل الأعلىٰ لا ينبغي إغفالها، وهي: أنّ تشخيص المثل الأعلىٰ علىٰ رغم كونه نافعاً في التربية، وشأن الإنسان في ذلك شأن معمار يضع نصب عينيه هندسة البيت ومثلاً نهائياً عمّا يريده من شكل البيت؛ كي يهتدي في وقت البناء بهدي هذا المثل، إلّا أنّ هذا التصوير قد يكون في نفس

---

(١) المحجة البيضاء ٤/٣٥٢.

(٢) المصدر السابق : ص ٣٥٣.

الوقت ذا مشكلة جانبية؛ وذلك لأنّه قد يصبح هذا المثل قيداً علىٰ يده، مانعاً عن نموّه أكثر من ذلك فيما لو كان المثل في حدّ ذاته مثالاً دانياً وله نهاية. فالمفروض بالإنسان أحد أمرين: إمّا أن يبدل مثله الأعلىٰ بين حين وحين كلّما اقترب منه في العمل أو وصل إليه، وإمّا أن يجعل مثله ممّا لا نهاية له، كأن يكون مثله الأعلىٰ تحصيل رضوان الله تعالىٰ.

٢ ـ القدوة: (المثل الأعلىٰ المتجسّد في إنسان)

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾[١] . ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٢] . ﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ...﴾[٣] .

«... ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً، يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفىٰ من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون علىٰ ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد...»[٤] .

خُلِقَ الإنسانُ حسّيّاً أكثر منه عقليّاً، فقد لا يحرّكه نحو الصلاح مجرّد اتخاذ مثل أعلىٰ مفهومي بقدر ما يحرّكه اتّخاذ ذلك المثل الأعلىٰ متجسّداً في إنسان، يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، وهذا المثل الأعلىٰ المتجسّد يكون علىٰ

---

(١) السورة ١٧، الإسراء، الآيتان: ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) السورة ٦، الأنعام، الآيتان : ٨ ـ ٩.

(٣) السورة ٢٥، الفرقان، الآية: ٢٠.

(٤) نهج البلاغة: ٥٧٣، رقم الكتاب: ٤٥.

قسمين: فقد يكون متجسّداً في شخصيّة معصوم من المعصومين عليهم السلام، وأُخرىٰ يكون متجسّداً في غير معصوم. ولكلّ من المثلين بعض الامتيازات علىٰ الآخر.

فالمثل المعصوم امتيازه علىٰ غير المعصوم يكون :

أوّلاً : باعتبار كمال المعصوم ونقص غير المعصوم في درجة الكمال، فجعل غير المعصوم مثلاً أعلىٰ قد يجمّد الإنسان إلىٰ حدّ محدود، أو يحرّك الإنسان بتحريك ناقص، وإن أمكن علاج ذلك في الجملة بجعله مثلاً أعلىٰ مرحليّاً، واجتيازه إلىٰ مثل أعلىٰ آخر بعد الوصول إليه. أمّا المثل المعصوم فهو عارٍ عن هذا النقص.

وثانياً : بتنزّه المعصوم عن الأخطاء والزلّات، وتورّط غير المعصوم في بعض المعائب والاشتباهات. فإذا جعلنا غير المعصوم مثلاً أعلىٰ لنا، قد تصيبنا من نقائصه ومعائبه العدوىٰ ـ أيضاً ـ لا شعوريّاً، بالأخصّ إذا كان المثل حيّاً نعيش معه ونعاشره، وإن أمكن ـ أيضاً ـ علاج ذلك في الجملة: تارة باختيار مثل أعلىٰ يكون الفارق بيننا وبينه كبيراً جدّاً، بحيث يكون أكمل منّا حتّىٰ في أكثر نقائصه ومعائبه، أي: إنّه في نفس المعائب الموجودة عنده يكون أقلّ عيباً منّا، فيكملنا حتّىٰ في معائبه، وأُخرىٰ باختياره مثلاً أعلىٰ في شُعب كماله مع الالتفات إلىٰ نقائصه والتحرّز بقدر الإمكان من إصابة العدوىٰ لنا في نقائصه. أمّا المثل الأعلىٰ المعصوم فهو عارٍ عن هذه النقائص.

والمثل غير المعصوم امتيازه علىٰ المعصوم يكون من وجهين أيضاً :

فأوّلاً : إنّنا قد نفكّر في المثل المعصوم أنّنا لا نستطيع أن نكون مثله؛ لأنّه معصوم ونحن لسنا بمعصومين. وهذا التفكير قد يفتّ في عضدنا ويضعف عزيمتنا، في حين أنّ المثل الأعلىٰ إن كان غير معصوم لم يراودنا فيه تفكير من هذا القبيل.

وليعلم أنّ هذا التفكير في الحقيقة باطل؛ فإنّ المعصومين عليهم السلام إنّما جُعلوا لنا أُسوة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ

اللّهَ كَثِيراً﴾[١] ، **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ...﴾**[٢] .

أمّا العصمة المخصوصة بهمعليهم السلام، والتي لا يمكننا أن ننالها فإنّما هي: العصمة الإلهيّة المرافقة لشخصيّة المعصوم منذ أوّل وجوده. أمّا الاعتصام الكامل بالله من كلّ ذنب علىٰ أثر العمل والتعب والتربية والرياضة النفسانية بطرقها الشرعيّة فكلّ إنسان مؤهّل للوصول إليه.

وثانياً : إنّنا قد نعظّم الفاصل الموجود بيننا وبين المعصوم في الدرجة، فتأخذنا حالة اليأس ونقول: متىٰ نستطيع أن نطوي هذه المسافات الطويلة البعيدة المدى؟! وهذا بخلاف المثل أو القدوة غير المعصوم الذي لا نحسُّ بيننا وبينه بهذا المستوى من الفاصل الطويل، وإن أمكن علاج ذلك في الجملة: بأن يجعل المعصوم مثلاً أعلىٰ وقدوة لا بمعنى كون الهدف الوصول إليه كاملاً، بل بمعنى السير والاتّجاه نحوه «...ألا وإنّكم لا تقدرون علىٰ ذلك، ولكن أعينوني...» علىٰ أنّ من قويت همّته ورسخت عزيمته وشدّ الرحال للوصول أعانه الله علىٰ ذلك **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[٣] . ولو أنّ أحداً جمع لنفسه بين القدوتين: المعصومة وغير المعصومة فحسناً فعل.

والمقصود بجعل الشخص قدوة هو: الالتفات والتأمّل في صفاته وأفعاله وأهدافه وآماله وآلامه، كي نكون مثله. فلنقتد ـ مثلاً ـ برسول الله صلى الله عليه وآله في صلابته في الهدف العقائدي؛ إذ عرضوا عليه كلّ المغريات من المال والملك فقال:

« ... لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما أردته، ولكن يعطوني

---

(١) السورة ٣٣، الاحزاب، الآية: ٢١.

(٢) السورة ٦٠، الممتحنة، الآيتان: ٤ و ٦.

(٣) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٦٩.

كلمة يملكون بها العرب، ويدين لهم بها العجم، ويكونون ملوكاً في الجنّة. فقال لهم أبو طالب ذلك.

فقالوا: نعم وعشر كلمات.

فقال لهم رسول الله ﷺ: تشهدون أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله...»[١].

ولنجعل الحسين عليه السلام قدوة لنا في صبره الذي عُبّر عنه بـ«... قد عجبت من صبرك ملائكة السماوات...»[٢] وفي رضاه الذي عُبّر عنه بقوله لدىٰ قتل ولده في حجره: «... هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله...»[٣].

ولنجعل العباس عليه السلام قدوة لنا في مقام المواساة حينما رمىٰ الماء من يده ولم يشربه؛ لأنّه تذكر عطش الحسين وأهل بيته[٤] ولم يكن في رميه للماء تخفيف عن الحسين عليه السلام وأهل بيته كي يحمل ذلك علىٰ الإيثار، وإنّما هو مقام عظيم فوق طاقة الإنسان العادي في المواساة التي هي فوق مقام الإيثار.

ولنجعل الشهيد الصدر رحمه الله قدوةً لنا حينما صمّم علىٰ الشهادة، لأجل نصرة الإسلام وقال: «... وأنا أُعلن لكم يا أبنائي أنّي صمّمت علىٰ الشهادة، ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه منّي. وإنّ أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتّىٰ يكتب الله لكم النصر. وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول الله ﷺ: إنّها حسنة لا تضرّ معها سيّئة، والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت...»[٥].

ولنجعل الإمام الخمينيّ رحمه الله قدوة لنا في إقدامه الشجاع الذي أقدمه لله وفي

---

(١) بحار الأنوار ١٨/ ١٨٢.

(٢) المصدر السابق ١٠١ / ٣٢٢.

(٣) المصدر السابق ٤٥ / ٤٦.

(٤) بحار الأنوار ٤٥ / ٤١.

(٥) مباحث الأُصول الجزء الأوّل من القسم الثاني، النداء الثاني من النداءات الثلاثة لأُستاذنا الشهيد رحمه الله : ١٥٠.

سبيل الله، وبهدف طلب مرضاة الله، فاستطاع أن يكسر حصناً عظيماً من حصون الطغاة، ويقيم راية الإسلام مرفرفة علىٰ بقعة مباركة من أراضي الإسلام.

ثمّ هذا المحفّز وهو القدوة تارةً يبحث من زاوية الشخص الذي يروم تربية نفسه، فيتكلّم في أنّه كيف يستطيع أن يرقىٰ وينمو عن طريق القدوة، وهذا ما فعلناه الآن، وأُخرىٰ يبحث من زاوية نفس القدوة، فيتكلّم في شروط تأثير القدوة في النفوس وكيفيّة أخذه بيد الناس نحو الكمال وتربيتهم الروحيّة.

والواقع: أنّ القدوة لا يستطيع ـ عادةً ـ أن يؤثّر تأثيراً مهمّاً في المجتمع والنفوس في هدايتهم نحو الصلاح، إلّا إذا كان يفوقهم بدرجات عالية وتفاوت كبير؛ كي يبتعد أوّلاً بقدر الإمكان عن النقصين اللذين ذكرناهما في القدوة غير المعصوم، وكي يكون ثانياً بعلوّ مقامه الروحي وسموّه عن المربّىٰ جاذباً له ومصعّداً إيّاه في مرقاة الكمال إلىٰ المثل والقيم العليا.

ووظيفة الحوزة العلميّة بالذات والعلماء بالخصوص في شيعة آل محمّد عليهم السلام عظيمة في هذا المضمار:

فأوّلاً: قد نصبوا أنفسهم في أعراف الشيعة منصب قيادة الأُمّة وقدوتها، وفرضوا أنّهم يخطون محلّ خطىٰ الأنبياء والمرسلين، فأقلّ تكاسل أو تساهل في تهذيب النفس عندهم، يؤثّر تأثيره السلبي في المقودين، بل يوجب الانتكاسة عندهم في طريق الصلاح، وأكثر من ذلك قد يوجب سوء ظنّهم بالقادة الحقيقيين، بل بأصل المبدأ والمعاد لا سامح الله.

ومن أسرار شرط العصمة في الأنبياء والأئمّة عليهم السلام هو كونهم قادة للأُمّة، ولا تتمّ القيادة الحقيقيّة نحو الكمال بغير العصمة، فلئن لم تشترط العصمة في العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وخلفهم الصالح، فلابدّ من شرط ما يتلو العصمة من النزاهة وعلوّ الهمّة وصفاء النفس فيهم؛ كي يكونوا قادرين علىٰ أداء الوظيفة.

وثانياً: إنّ الحوزة والعلماء بمقدار اطّلاعهم علىٰ الأحكام والأهداف والمفاهيم

والقيم المعنويّة وعظمة الله تعالىٰ تقوىٰ الحجّة عليهم، ويضعف عـذرهم لدىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وهذا معنىٰ ما ورد في الحديث عن الصادقعليه السلام: «... يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالم ذنبٌ واحد...»[1].

وفي حديث آخر: «أوحى الله تعالىٰ ـ تبارك وتعالىٰ ـ إلىٰ داودعليه السلام أنّ أهون ما أنا صانع بعالم غير عامل بعلمه أشدّ من سبعين عقوبة: أن أُخرج من قلبه حلاوة ذكري...»[2].

علىٰ أنّ العالم الذي استفاد الآخرون من علمه وهو خالف علمه، شديدُ الحسرة يوم القيامة. وعن الباقرعليه السلام: أنّه قال لخيثمة: «أبلغ شيعتنا أنّه لا ينال ما عند الله إلّا بالعمل، وأبلغ شيعتنا أنّ أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلىٰ غيره، وأبلغ شيعتنا أنّهم إذا قاموا بما أُمروا أنّهم هم الفائزون يوم القيامة»[3].

وثالثاً: إنّ كون الإنسان في منصب القيادة بنفسه منزلق للإنسان؛ إذ يعطيه نوعاً من التبختر، ويستوجب حالة التكبر، وعدم الانصياع للحقّ، والنزوع إلىٰ طـلب الجاه والجلال، والابتعاد عن الإخلاص؛ ولهذا فهو بحاجة إلىٰ درجة عالية مـن تربية النفس، وتهذيب الأخلاق، وكمال الإخلاص، كـي لا يـزول قـبال إغـراء منصب القيادة، ولا ينزلق في هذا المنزلق الخطير.

٣ ـ حمل همّ واسع رفيع:

إنّ النفس البشريّة الاعتياديّة لهي ضيّقة لا ترى إلّا مصالحها الماديّة من ناحية، والشخصية من ناحية أُخرىٰ. وعلىٰ أثـر ضـيق مسـاحة المـادّة فـي المـصالح

---

(١) بحار الأنوار ٢ / ٢٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٩.

الشخصيّة تقع الانصدامات والتشاحّ المستمرُّ بين الناس في لذائذهم ومصالحهم ومآربهم، وتنتج من ذلك الصراعات المريرة، والتكالبات علىٰ الأُمور التافهة والجزئية، والسقوط في حضيض الرذائل والقبائح والمحرّمات.

وهذا علاجه عبارة عن توسيع أُفق النفس عن طريق حمل هموم واسعة رفيعة تترفّع عن الجزئيات من ناحية، وتتسع عن الضيق الموجب للتصادم والاصطكاك من ناحية أُخرىٰ.

والنقطة التي كان يركّز النظر إليها في المحفّز الأوّل وهو المثل الأعلىٰ مفهوماً، كانت عبارة عن الفاصل في العمق بين المستوى النفسي الذي وصل إليه المربّىٰ والمثل الأعلىٰ الذي يطمح الوصول إليه، في حين أنّ النقطة التي يركّز النظر إليها في هذا المحفّز عبارة عن ضيق أُفق النفس وسعته. وعلىٰ أيّ حال فهما متقاربان ومتداخلان.

والطفل الذي يكون همّه اللعب بالتراب وما شابه ذلك، قد يصبح في العمر والفهم إلىٰ مستوى يدرك أنّ هذا لا ينفعه، وأنّ الذي ينفعه هو ما ينشغل به الكبار من بناء البيت، أو ترتيب وضع العائلة، أو التجارة، أو ما إلىٰ ذلك، ولكنّه ما دام مكفولاً من قبل أوليائه ومنصرفاً إلىٰ الألعاب الطفوليّة، تراه لا تنمو همّته، ولا يتّسع أُفقه النفسي، في حين أنّه لو فجع بموت وليّه وإحساسه بالمسؤوليّة تجاه العائلة ـ مثلاً ـ تراه يتحوّل في وقت قصير من المستوى الضيّق من الهموم إلىٰ مستوىٰ أوسع، ويترفّع عن كثير من السفاسف التي كان لا يترفّع عنها، علىٰ أساس أنّه ابتلي بحمل هم واسع رفيع لم يكن حاملاً له قبل ذلك.

والإنسان الذي يعيش في أُفق بلد صغير متداني الأطراف ومتضارب المصالح، تراه أضيق أُفقاً من الذي يعيش في دائرة واسعة تقلّ فيه مرتبة تضارب المصالح والمآرب.

ومن يعيش لعائلته تراه أكبر همّة وتعالياً ممّن يعيش لنفسه.

ومن يعيش لقومه تراه أكبر همّة وأُفقاً ممّن يعيش لعائلته.

ومن تراه يعيش للناس تراه أوسع أفقاً وذهنيّة ممّن يعيش لقوم.

ومن يعيش للاسلام والمبادئ والمعنويات تراه يطعن علىٰ الأهداف المـاديّة التي هي معترك الناس في حياتهم التافهة.

ومن يعيش لله سبحانه وهو الوجود الذي لا يتناهىٰ، تراه يترفّع عن كلّ ضيق يحويه عالم الإمكان.

ومن يعمل في سبيل اقامة دولة الإسلام في منطقة ما، أو في سبيل توسيع رقعة الدولة الإسلاميّة المباركة، ليس كمن يعيش لنفسه وعياله، ويترفّع عن كثير مـن المطالب الكدرة التي يتنازع فيها أهل الدنيا.

ومن يعيش لرضوان الله تعالىٰ، ويعمل في سبيل الوصول إلىٰ عالم الحضور، ينسىٰ الدنيا وما فيها كدنيا، ويعمل في الدنيا كخليفة للربّ عـلىٰ وجـه الأرض ويتعامل مع كلّ ما حوله بوصفه فانياً في الله، ومظهراً من مظاهره، وجـلوةً مـن جلواته، ومؤشّراً إلىٰ ذاته لا بوصفه دنيا.

وعن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «قدر الرجل علىٰ قدر همّته...»[1] وكأنّه لأجل توجيه الناس نحو علوّ الهمّة وسعة الأُفق ورد في الروايات الاهتمام حـتّىٰ فـي الأُمور الدنيويّة والمصالح الشخصيّة بمعالي الأُمور وترك مباشرة الأُمور الجزئيّة:

فعن الصـادق عليه السلام: «...إنّ الله ـ عـزّ وجـلّ ـ يـحبّ مـعالي الأُمـور، ويكـره سفسافها...»[2] (سفالها خ ل)[3].

---

(١) نهج البلاغة: ٦٦٢، رقم الحكمة: ٤٧.

(٢) فسِّر السفساف بالرديء من كلّ شيء، والأمر الحقير.

(٣) معجم رجال، الحديث ١٢٥/١٤ ترجمة الكميت بن زيـاد، وكـذلك وسـائل الشـيعة: ٧٣/١٧، الباب ٢٥ من مقدمات التجارة، الحديث ٣.

وأيضاً عن الصادق عليه السلام: «لا تكوننّ دوّاراً في الأسواق، ولا تلِ دقائق الأشياء بنفسك؛ فإنّه لا ينبغي للمرء المسلم ذي الحسب والدين أن يلي شراء دقائق الأشياء بنفسه ما خلا ثلاثة أشياء، فإنّه ينبغي لذي الدين والحسب أن يليها بنفسه: العقار، والرقيق، والإبل»[١].

وأيضاً عن الصادق عليه السلام قال: «باشر كبار أُمورك بنفسك، وكلّ ما صغر منها إلىٰ غيرك، فقيل: ضرب أيّ شيء؟ فقال: ضرب أشرية العقار وما أشبهها»[٢].

والأمثلة في هذه الروايات مأخوذة من الوضع الاقتصادي لوقتئذٍ، وقسم منها صادق حتّىٰ اليوم.

والمقصود من هذه الروايات: الندب إلىٰ تخصيص مباشرة الأُمور بالكبار منها، كي لا تتعوّد النفس علىٰ الاهتمام بالسفاسف والصغار، حتّىٰ لا تموت الهمم، ولا يضيق أُفق النفس. فإذا كانت تعاليم أهل البيت عليهم السلام في الأُمور الدنيويّة والشخصيّة هكذا، فما ظنّك بالأُمور المعنويّة والواقعيّة؟!

وكلّما انشغل اهتمام الشخص بالمطالب العالية التفت ولو عن طريق المقايسة إلىٰ تفاهة الأُمور الدانية، وترفّع عنها كما قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتّقين: «... عظُم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم...»[٣].

ثمّ إنّ الهدف والهمّ كلّما كان أضيق وأخسّ، كان أسرع إلىٰ التلاشي في ذهن صاحبه حينما يصبح في فهمه وتطلّعاته أكبر منه، أو إلىٰ تحديد صاحبه وتجميده. وقد يبتلي علىٰ هذا الأساس ـ لو لم ينتقل إلىٰ هدف أوسع ـ بخيبة أمل وباليأس أو الانحراف أحياناً، في حين أنّه لو كان الهدف هو رضا الله تعالىٰ الذي لا يحدّه حدٌّ،

---

(١) وسائل الشيعة ١٧/٧٣، الباب ٢٥ من مقدمات التجارة، الحديث ٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣/١٠٤، الحديث ٤٢٥.

(٣) نهج البلاغة: ٤١٠، خطبة المتقين، رقم الخطبة: ١٩٣.

ولا تتناهىٰ عظمته وقدرته وحكمته وعلمه وجزاؤه الحسن، ورضوانه وجنّته التي عرضها السماوات والأرض، كان ذلك منعّشاً للآمال. ومهما اقترب الإنسان من هدف من هذا القبيل،اشتدّت رغبته إليه، وأحسّ ببعد منتهاه وعمق أغواره، وكأنّ الأُمور المعنويّة تصبح حسّيّة لديه، وكأنّ الأُمور الغيبية تصبح حاضرة عنده «... فهم والجنّة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون...»[١].

٤ـ التضحية:

إنّ من أهمّ ما يؤثّر في تزكية النفس وتقوية الروح والاقتراب إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ هي: التضحية في سبيل المبدأ والعقيدة والإسلام، وكذلك في سبيل كلّ خير للناس وللمؤمنين. وأقصد بالتضحية: تقديم مصلحة المبدأ أو الإسلام أو المؤمنين علىٰ مصلحة الشخص؛ فإنّ هذا يكسر في النفس طوق ضيق الأُفق المبتلى به الإنسان عادة في بداية أمره المتلخص في أنّه لا يرى إلّا مصالحه الشخصيّة. وأساس الانحراف لدىٰ الإنسان انطواؤه علىٰ مصالحه الخاصّة من ناحية، وضعف الإرادة من ناحية أُخرىٰ. والتضحية تعالج كلتا هاتين المشكلتين. وكلّما كانت التضحية أكبر، كان أثرها في صفاء النفس وارتفاع الروح وعلوّ الهمّة أقوى، حتّىٰ يصل الأمر إلىٰ التضحية بالنفس، فكيف بمن يضحّي بكلّ غال ونفيس، وبالنفس وبالأهل والمال والعيال والأطفال ثمّ يقول: «... هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله ...»[٢].

وقبل التضحية يتحقّق مشهد من مشاهد التقابل بين مصلحة المجتمع أو مصلحة الإسلام أو رضا الله تعالىٰ أو سبيل الجنّة من ناحية، والمصالح الشخصيّة التافهة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بحار الأنوار ٤٥/ ٤٦.

من ناحية أُخرىٰ، فيرى الإنسان الاعتيادي الواقف في بداية الطريق نفسه متحيّراً ومخيّراً بين الجنّة والنار، أو بين الخير والشرّ، أو بين نوعين من المصالح، وهـذا المشهد حينما يكون قويّاً يخلق في نفسه هزّاً عميقاً عظيماً، وينتهي ـ عادة ـ إلىٰ تبدّل الحالة النفسيّة إمّا إلىٰ جانب الارتقاء والسعادة والسـموّ الروحـي، أو إلىٰ جانب السقوط في الهاوية والشقاء والخسران، وكلّما كـان مشـهد التـقابل بـين المصلحتين أقوى، كانت الهزّة النفسيّة أشدّ، والتكامل أو السقوط أقوى وأعظم. ونذكر لذلك مثلين:

أحدهما: من أُولئك الذين كانوا من أهل السعادة، فأثّر فيهم هذا المشهد وأحدث تلك الهزّة، وانتهىٰ إلىٰ الانتقال الفجائي إلىٰ الكـمال وطـيران الروح فـي سـماء المعالي والفضيلة، ألا وهو: حرّ بن يزيد الرياحيّ، فأنت تعلم أنّ حرّاً لم يكن في بداية أمره يعتبر من الصالحين، بل ارتكب تلك الجريمة النكراء، وهـي: أنّـه جعجع بالحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في وسط الطريق، ومنعهم عن الرجوع، وألجأهم إلىٰ سلوك المخاطر، ولكنّ الذي غيّر نفسيّته الوضيعة، وأوصلها إلىٰ خير مراتب الكمال فجأةً، هو ما أحسّ به دفعةً من مشهد الصراع النفسي بـين الحـقّ والباطل، حينما انكشف له أنّ أقلّ الأمر الذي سيقع هو: قتال شديد، أيسـره أن تسقط الرؤوس، وتطيح الأيدي، فدار أمره بـين الاحـتفاظ بـالحياة الرخـيصة والأمن لدىٰ طاغية الوقت، وبين ترك الدنيا وزخرفها والانتقال إلىٰ صفّ الهدىٰ والتضحية في سبيل إمام المتّقين الحسين عليه السلام، وأخذته الهزّة في جميع أعماقه هزةً عظيمة، وارتعدت فرائصه، فقال له مهاجر بن أوس: «...إنّ أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قطّ مثل هذا، ولو قيل لي: من أشـجع أهـل الكـوفة؟ لمـا عدوتك، فما هذا الذي أرىٰ منك؟

فقال له الحرّ (معبّراً عن مشهد وقوعه بين الطريقين): إنّي والله أُخيّر نفسي بين

الجنّة والنار، فوالله لا أختار علىٰ الجنّة شيئاً ولو قطّعت وأُحرقت».

فأدركته السعادة، وحصل له ذاك التحوّل الدفعي الذي انتهىٰ به الأمر بعد حالة الشقاء إلىٰ حالة استحقّ بها رثاء الحسين عليه السلام إيّاه بعد استشهاده ـ علىٰ ما في التأريخ ـ بقوله وهو يمسح وجهه: «أنت الحرّ كما سمّتك أُمّك، وأنت الحرّ في الدنيا، وأنت الحرّ في الآخرة».

ورثاه رجل من أصحاب الحسين عليه السلام وقيل: بل رثاه عليّ بن الحسين عليه السلام قائلاً:

لنعم الحرّ حرّ بني رياح ... صبورٌ عند مختلف الرماحِ

ونعم الحرّ إذ نادىٰ حسيناً ... فجاد بنفسه عند الصباحِ

فيا ربّي أضفه في جنانٍ ... وزوّجه مع الحورالملاحِ[1]

و ثانيهما: من كان في النقطة المقابلة للمثل الأوّل الذي ذكرناه، فهو ـ أيضاً ـ شهد في نفس تلك القصّة وهي قصّة الحسين عليه السلام مشهد التقابل العنيف بين مصالح المبدأ والإسلام والفضيلة من ناحية، ومصالحه الشخصية الدنيئة من ناحية أُخرىٰ وهزّ ذلك مشاعره، ولكنّه تحول إلىٰ شقاء لا نهاية له. فقصّة واحدة حوّلت الشخص الأوّل إلىٰ سعادة أبديّة بسبب مشهد التقابل بين المصلحتين والموازنة بينهما، وحوّلت الشخص الثاني بنفس السبب إلى شقاء أبديّ ألا وهو: عمر بن سعد، رأىٰ نفسه مخيّراً بين الدنيا والآخرة، وعبّر هو عن هذا المشهد بأروع تعبير؛ إذ قال:

فوالله ما أدري وإنّي لحائرٌ ... أُفكّر في أمري علىٰ خطرينِ

أأترك ملك الري والريُّ منيتي ... أم أرجعُ مأثوماً بقتل حسينِ

حسينُ ابن عمّي والحوادثُ جمّةٌ ... ولكنّ ملك الريّ قرةُ عيني

---

(١) بحار الأنوار: ٤٥ / ١٠ ـ ١٤. وفي نقل آخر ورد البيتان الأوّلان عن الحسين عليه السلام. المصدر السابق: ٤٤ / ٣١٩.

فكان تأثير هذا المشهد وهذا الاهتزاز العميق في نفسه أن سقط إلىٰ الهـاوية، واختار الشقاء وقال:

وما عاقلٌ باع الوجود بدين

بل انتهىٰ إلىٰ الشكّ والزندقة وقال:

يـــقولون إنّ الله خـــالق جـــنّةٍ ونـــارٍ وتـــعذيبٍ وغـــلّ يـدينِ
وإن صـدقوا فـيما يـقولون إنّـني أتوبُ إلىٰ الرحـمن مـن سـنتينِ
وإن كـــذبوا فـــزنا بـدنيا هـنيئة وملكٍ عـقيم دائـم الحـجلين[١]

والروايات المؤكِّدة لضرورة ترجيح كفّة الفضيلة والعمل الصالح علىٰ كفّة اللذّة الدنيويّة لدىٰ تحقّق مشهد للتزاحم بينهما، كثيرة وبألسن مختلفة:

منها: ما ورد بلسان تقديم الآخرة علىٰ الدنيا، وذلك من قبيل:

١ ـ ما في حديث المناهي عن رسول الله ﷺ: «...ألا ومـن عـرضت له دنـيا وآخرة، فاختار الدنيا علىٰ الآخرة، لقي الله ـ عزّوجّل ـ يوم القـيامة وليست له حسنة يتّقي بها النار. ومن اختار الآخرة، وترك الدنيا، رضي الله عنه، وغـفر له مساوئ عمله»[٢].

٢ ـ ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن النبيّ ﷺ: «طوبىٰ لمن ترك شهوة حاضرة لموعد لم يره»[٣].

ومنها: ما ورد بلسان تقديم رضا الربّ أو الدين علىٰ هوى النفس أو المصالح الشخصيّة والمادّية، وذلك من قبيل:

١ ـ ما عن الباقر عليه السلام قال: قال الله عزّ وجـلّ: «وعـزّتي وجـلالي، وعـظمتي

---

(١) رياحين الشريعة ٤ / ٢٣٨.

(٢) وسائل الشيعة ١٥ / ٢٠٩، الباب ٩ من جهاد النفس، الحديث ١.

(٣) المصدر السابق: ص ٢١٠، الحديث ٣.

وبهائي؛ وعلوّ ارتفاعي، لا يؤثّر عبد مؤمن هواي علىٰ هواه في شيء من أمر الدنيا إلّا جعلت غناه في نفسه، وهمّته في آخرته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر»[١] وسند الحديث تامّ، ومتنه يسطع منه نور الإمامة، وتشعّ منه العظمة الربّانيّة.

٢ـ عن الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: «يا عليّ، أُوصيك في نفسك بخصال، فاحفظها، ثُمّ قال: اللهمّ أعنه. أمّا الأُولىٰ فالصدق، لا يخرجنّ من فيك كذبة أبداً. والثانية الورع، لا تجترئنّ علىٰ خيانة أبداً. والثالثة الخوف من الله كأنّك تراه. والرابعة كثرة البكاء من خشية الله ـ عزّ وجلّ ـ يبنىٰ لك بكلّ دمعة بيت في الجنّة، والخامسة بذل مالك ودمك دون دينك. والسادسة الأخذ بسنتي في صلاتي وصيامي وصدقتي: أمّا الصلاة فالخمسون ركعة. وأمّا الصوم فثلاثة أيّام في كلّ شهر: خميس في أوّله، وأربعاء في وسطه، وخميس في آخره. وأمّا الصدقة فجهدك حتّىٰ يقال: أسرفت، ولم تسرف. وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الزوال وعليك بقراءة القرآن علىٰ كلّ حال، وعليك برفع يديك في الصلاة وتقليبهما، وعليك بالسواك عند كلّ صلاة، عليك بمحاسن الأخلاق فاركبها، عليك بمساوئ الأخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلومنّ إلّا نفسك»[٢].

والشاهد في قوله: «والخامسة بذل مالك ودمك دون دينك» وسند الحديث تامّ، ومتنه يتشعشع بنور النبوّة.

ولئن اتّضح أنّ وقوع مشهد التزاحم بين المصلحتين، أو التردّد بين الطريقين: طريق النجاة، وطريق الهلاك حينما يكون فجأةً وقويّاً ينتهي ـ عادة ـ إلىٰ هزّة

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥ / ٢٧٩، الباب ٣٢ من جهاد النفس، الحديث ٢.
(٢) المصدر السابق: ص ١٨١ ـ ١٨٢، الباب ٤ من جهاد النفس، الحديث ٢.

المشاعر دفعةً هزّةً عظيمة، ومن ثُمّ ينتهي إمّا إلىٰ السعادة العظمىٰ، أو إلىٰ الدرك الأسفل، ترتّبت علىٰ ذلك عدّة نصائح، لابدّ من الأخذ بها:

الأولىٰ: لا ينبغي للإنسان أن يبقىٰ غافلاً عن هذا النمط من الامتحان إلىٰ أن يقع فيه؛ لأنّ اتخاذ التصميم لسلوك أحد الطريقين لدىٰ التزاحم العنيف الهازّ للمشاعر من الأعماق، يكون فورياً، كما اتّفق لحرّ بن يزيد من ناحية، ولعمر بن سعد من ناحية أُخرىٰ في القصّتين اللتين أشرنا إليهما. وهنا يكمن خطر الانزلاق إلىٰ درك لا يُرى عمقه، ولا يدرك غوره، انزلاقاً أبديّاً لا يعود صاحبه إلىٰ خير. فعلىٰ الإنسان أن يكون ـ دائماً ـ علىٰ أُهبة الاستعداد لامتحان من هذا القبيل، وأن يطالع ـ دائماً ـ ما حوله من المكتنفات؛ كي يستطيع أن يتنبّأ الواقعة قبل الوقوع، ولا يفاجأ بالأمر، وعندئذٍ يكون أقدر علىٰ اختيار الطريق الصحيح، وإنجاء نفسه من الهلكة.

والثانية: لا ينبغي للإنسان أن ينتظر وقوع حالة من هذا القبيل علىٰ وفق الصُدف والمفاجأة الخارجة عن اختياره، وهو لا يعلم ماذا ستتمّ له من سعادة أو شقاء، بل ينبغي له أن يخلق هو ظروفاً مؤدّية إلىٰ أمر من هذا القبيل، علىٰ أن يدبّر الظروف بالحدود التي يرىٰ في نفسه القدرة علىٰ تحمل المشهد الناجم منها، وعلىٰ ترجيح جانب الخير، فمثلاً من يصعب عليه إنفاق المال بإمكانه أن يتعمّد الفحص عن مواضع الإنفاق التي تهزّ المشاعر: من أيتام معوزين، أو مشروع خيرٍ يدعو ضمير الإنسان نحو التفاعل معه، ـ زائداً علىٰ الواجبات الفقهيّة التي لابدّ له من الالتزام بها ـ ويقرن ذلك بزمان حاجة ماسّة شخصيّة له بما لديه من المال، كي يقع بين نداء النفس الأمّارة التي يدعوها إلىٰ تلبية مآربه الشخصيّة، ونداء الوجدان الذي يدعوه إلىٰ مساعدة المحتاجين المعدمين، أو المشروع الإسلامي النافع، مع ترتيب المقارنات والمكتنفات الخارجيّة والنفسيّة من قبل الطرفين بنحو يساعده

علىٰ تقديم جانب الخير، فيرجّح عند ذلك جانب السعادة، ويسلك طريق النجاة. وبهذا يكون أوّلاً قد نمّىٰ عزيمة الخير في نفسه، واستطاع إيصال نفسه إلىٰ بعض مستويات الكمال، وثانياً حقّق لنفسه أُهبة الاستعداد لمشهد تزاحم أكبر من ذلك، قد يتّفق له في المستقبل من دون اختياره، ولا يفاجأ بذلك.

وأيضاً من يصعب علىٰ نفسه الاعتراف بالحقّ بحضور الناس حينما يعتبر ذلك الاعتراف كسراً لنفسه، وتنازلاً لخصمه، مشيناً له في بعض الأعراف الاجتماعيّة، ومبرزاً لجهله الذي كان خافياً علىٰ الناس الذين ينظرون إليه كمفكّر ألمعيٍّ ومحقّق عبقريّ، ينبغي أن يعقد لنفسه حواراً في بعض معتقداته مع من يحتمل أن يغلبه، ويوضّح له خطأ رأيه بحضور فئة من الناس، وبمستوىٰ يحدس أنّه قادر علىٰ تحمّل انكسار أُبّهته قبالهم، وتجرّع مرارة الاعتراف بالحقّ لديهم، فيفعل ذلك لأجل النتائج التي أشرنا إليها. وما إلىٰ ذلك من الأمثلة التي يمكن أن تفترض.

والثالثة: ينبغي للإنسان أن يجرّب نفسه ويقيّمها بين حين وحين بإيجاد مشهد تزاحم وهمي بين المصلحتين؛ كي يعرف مدىٰ استعداده لتغليب جانب الخير، ويقيّم مدىٰ مرتبة الكمال أو النقص ـ لا سمح الله ـ التي وصلت إليها نفسه. وأذكر لذلك مثلين:

١ ـ حدّثني أُستاذي الشهيد الصدر‌رحمه‌الله عن حالات المرحوم الشيخ عليّ القميّ‌قدس‌سره المتعبّد الزاهد المعروف في النجف الأشرف أنّه قال له شخص ذات يوم: لو ظهر الإمام صاحب الزمان عجّل الله فرجه، وأمرك بأن تحلق لحيتك، وتمشي في الطرقات والأسواق بمشهد من الناس بهذه الحالة علناً، ونهاك أن توضّح للناس كونك مأموراً بهذا الحلق من قبل الإمام‌عليه‌السلام، فهل أنت مستعدّ نفسيّاً لتنفيذ ذلك؟ علماً بأنّ هذا إراقة لماء وجهه أمام الناس تماماً. فكان يبكي خشية أن لا يكون مستعدّاً لذلك.

٢ ـ كتبت من ذكرياتي عن حياة أُستاذنا الشهيد الصدر في ترجمتي له ما يلي:

حدّثني ذات يوم: أنّه حينما كتب كتاب (فلسفتنا) أراد طبعه باسم جماعة العلماء في النجف الأشرف، بعد عرضه عليهم متنازلاً عن حقّه في وضع اسمه الشريف علىٰ هذا الكتاب، إلّا أنّ الذي منعه عن ذلك أنّ جماعة العلماء أرادوا إجراء بعض التعديلات في الكتاب، وكانت تلك التعديلات غير صحيحة في رأي أُستاذنا الشهيد، ولم يكن يقبل بإجرائها فيه، فاضطرّ أن يطبعه باسمه. قال: إنّي حينما طبعت هذا الكتاب لم أكن أعرف أنّه سيكون له هذا الصيت العظيم في العالم، والدويُّ الكبير في المجتمعات البشريّة ممّا يؤدّي إلىٰ اشتهار من ينسب إليه الكتاب، وأنا الآن أُفكّر أحياناً أنّي لو كنت مطّلعاً علىٰ ذلك، وعلىٰ مدىٰ تأثيره في إعلاء شأن مؤلّفه لدىٰ الناس، فهل كنت مستعدّاً لذلك أو لا؟ وأكاد أبكي خشية أنّي لو كنت مطّلعاً علىٰ ذلك لم أكن أستعدّ لطبعه بغير اسمي.

رحمك الله يا أبا جعفر، وهنيئاً لك هذه الروح الطاهرة والمعنويّات العالية العظيمة، في حين كنت تعيش في مجتمع يتكالب أكثر أبنائه علىٰ سفاسف الدنيا، أو زعاماتها، أو كسب مديح الناس وثنائهم، أو جمع ما يمكنهم من حطام الدنيا ونعيمها من حلال أو حرام[١].

والرابعة: التزاحم بين المصلحتين يتدرّج في الإنسان ـ عادة ـ من صغر سنّه وضعف قدراته ومقامه وارتباطاته إلىٰ ما بعد ذلك، فكلّما كبر سنّه واتّسع نشاطه وزادت قدراته، وارتفع مقامه، وتوسّعت ارتباطاته، اشتدّ التزاحم، وقويت المصلحتان اللتان تمّ الاصطكاك بينهما. فلو أردنا أن نأخذ مثلاً من الحوزة العلميّة قلنا: إنّ طالب العلم الاعتيادي قد يكون التزاحم عنده عبارة عن مكابرة له في

---

(١) راجع مباحث الأُصول، الجزء الأوّل من القسم الثاني: ٤٥.

البحث مع شخص فيما يعلم أنّ الحقّ مع صاحبه، ولكن حينما يصبح مرجعاً للتقليد يقع التزاحم بين مصلحة الحقّ التي تقتضي التنازل لصاحب له عن المرجعيّة، ومصالحه الشخصيّة التي تنجم من هذا المقام.

ولو أردنا أن نأخذ مثلاً من الحياة الماليّة قلنا: قد يقع التصادم بين ولدين في مقتبل عمرهما علىٰ دينار واحد بينهما، ولكن حينما يقوى عود التجارات الواسعة لهذا ولذاك، قد يقع التصادم بينهما في الظهور بمظهر الحقّ، علىٰ رغم علمه بالبطلان في صفقة واحدة تدرّ عليه بالحقّ تارة وبالباطل أُخرىٰ أرباحاً هائلة، تنوء مفاتحها بالعصبة أُولي القوّة.

فعلىٰ الإنسان أن يعوّد نفسه علىٰ تقديم المصلحة الإسلاميّة والأخلاقيّة علىٰ المصلحة الشخصيّة من أوّل يوم، فإذا قدر علىٰ ذلك قدر عليه في اليوم الثاني؛ لأنّ الفارق ضئيل، وهكذا إلىٰ آخر يوم، في حين أنّه لو لم يربّ نفسه علىٰ ذلك من أوّل الأمر إلىٰ أن وصل إلىٰ تزاحمات كبيرة ومصلحتين متصادمتين عظيمتين، فسوف ينهار قبال إغراء المصالح الشخصيّة، ولا يقدر علىٰ إنجاء نفسه.

والخامسة: موضوع العناوين الثانويّة يقع فيه كثير من الخلط واللبس في إيهام النفس بحقّانيّة احدىٰ الكفّتين في مقابل الأُخرىٰ حيث تقتضي المصلحة الحقيقيّة الإسلاميّة أو الأخلاقيّة أحياناً اتّخاذ موقف ليس في صالحه الشخصي، فيعمد الشخص فوراً إلىٰ دعوى أنّ العنوان الثانوي يتطلّب منه اتّخاذ الموقف الآخر؛ كي لا ينكسر مثلاً، ويبقىٰ قادراً علىٰ نصر الإسلام، أو إلىٰ القول بأنّه يجب عليه ترك الجهاد، لأنّه يعرضه للقتل، في حين أنّ الإسلام بحاجة إلىٰ حياته، أو إلىٰ الغيبة والوقيعة والهتك بحجّة أنّ فلاناً وجب فضحه، وجازت غيبته، وما إلىٰ ذلك، فهذا مزلّة لنفوس الكبار، ومزلقة لأقدام العظام، يجب التوجّه إلىٰ ذلك بدقّة كاملة.

٥ ـ المحاسبة والموازنة:

ونحن قد بحثنا المحاسبة في الحلقة الثالثة من هذا الكتاب، فهنا نختصر الكلام عن ذلك، ونخصّصه بذكر أقسام المحاسبة.

وتوضيح المقصود: أنّ أصحاب الأموال اعتادوا علىٰ أن يحسبوا أموالهم وأرباحهم وخسائرهم بين حين وحين؛ لأنّ الاطلاع علىٰ المحصول يؤثّر أوّلاً في مدىٰ الصرف وكيفيّة الصرف، وثانياً في مدىٰ الاهتمام بالدخل ومعالجة الخسائر الماضية والخسائر المستقبليّة المحتملة.

وكذلك ـ الحال تماماً ـ ينبغي أن يكون في محاسبة الإنسان نفسه بلحاظ رأس ماله الأصلي، وهو: العمر، ومدىٰ أرباحه من رأس المال هذا أو خسائره.

وقد ورد في وصايا رسول الله ﷺ لأبي ذرٍ:

«يا أبا ذرّ، حاسب نفسك قبل أن تحاسب؛ فإنّه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزن...»[١].

والقرآن يقول: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...﴾[٢].

وتنقسم المحاسبة والموازنة إلىٰ عدّة أقسام:

الأوّل: محاسبة الأعمال التي صدرت عن الشخص المحاسِب بالقياس إلىٰ ما ينبغي وما لا ينبغي، فإن صدر عنه الخير شكر الله عليه واستزاد منه، وإن صدر عنه الشرّ تاب إلىٰ الله منه وتداركه. ولو ترك هذه المحاسبة كثُرت أخطاؤه وهو لا يعلم.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام: «انّ رسول الله ﷺ نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ايتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله، نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب.

---

(١) وسائل الشيعة ١٦ / ٩٨، الباب ٩٦ من جهاد النفس، الحديث ٧.

(٢) السورة ٥٩، الحشر، الآية: ١٨.

فقال ﷺ فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه، فجاؤوا به حتّىٰ رموا بين يديه بعضه علىٰ بعض، فقال رسول الله ﷺ: هكذا تجتمع الذنوب. ثُمّ قال: إيّاكم والمحقّرات من الذنوب، فإنّ لكلّ شيء طالباً ألا وإنّ طالبها يكتب **﴿مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾**»[١].

وما في ذيل الحديث من «محقّرات الذنوب» قد فسّر في حديث آخر عن زيد الشحّام بسند تامّ، عن الصادق عليه السلام: «اتّقوا المحقّرات من الذنوب، فإنّها لا تغفر، قلت: وما المحقّرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبىٰ لي إن لم يكن لي غير ذلك»[٢].

والثاني: محاسبة النفس علىٰ نواياها ودوافعها الكامنة، فإنّ من يغفل عن ذلك، ويقتصر علىٰ النظر إلىٰ ظواهر عمله، فقد يغفل عمّا معه من الرياء، وعن الشرك الخفي، وعن الدوافع المادّيّة، ويحسب أنّه يحسن صنعاً **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾**[٣] **﴿... إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ...﴾**[٤].

والثالث: موازنة نفسه بين مدىٰ ما هو واصل إليه الآن من المقام ومن الدرجات المعنويّة والقيم والأخلاق، وبين ما كان واصلاً إليه في وقت سابق؛ كي يعرف مدىٰ رقيّه أو نزوله.

والرابع: موازنة نفسه بين مدىٰ ما هو واصل إليه الآن من مقام ودرجات ومُثل

---

(١) وسائل الشيعة ١٥ / ٣١١، الباب ٤٣ من جهاد النفس، الحديث ٣، والآية: ١٢ في السورة ٣٦، يس.

(٢) وسائل الشيعة ١٥ / ٣١٠، الباب ٤٣ من جهاد النفس، الحديث ١.

(٣) السورة ١٨، الكهف، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤) السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٨٤.

عليا، وبين ما ينبغي أن يصل إليه؛ كي يعرف مدىٰ النقص الموجود فعلاً والذي ينبغي أن يملأه ويكمّله.

والخامس: أن يوكّل محاسبة نفسه إلىٰ أخٍ له مؤمن معتمد عارف؛ لأنّ الشخص قد يغفل عن نقائص نفسه وأخطائه، وقد يكون صاحبه أقدر علىٰ أن يكشف له أخطاءه والمؤمن مرآة المؤمن(١).

٦ ـ التفكير في العواقب:

فإنّ التفكير في عاقبة الخير الدنيويّة والأُخرويّة يرغّب الإنسان نحو الخير، والتفكير في عاقبة الشرّ الدنيويّة والأُخرويّة يبعّد الإنسان عن الشرّ، وكذلك التفكير في الدنيا وفنائها يزهّد الإنسان عن محرّماتها وشبهاتها، ويهوّنها في نفس الإنسان، والتفكير في الآخرة ونعيمها وجحيمها ودوامها يرغّب الإنسان نحو العمل الصالح، ويزهّد عن الظلم والفساد.

٧ ـ الجوّ الصالح:

لا إشكال في أنّ الجوّ يؤثّر في الإنسان تأثيراً بالغاً، فإن كان صالحاً صلح الفرد، وإن كان فاسداً فسد الفرد؛ ولهذا لو أصبح الجوّ العام صالحاً تحت نظام الإسلام أثّر في عامّة الأفراد، وكان الغالب فيهم هو الخير والصلاح، ولو أصبح جوّاً منحرفاً عن الإسلام الصحيح فبقدر انحرافه يؤثّر في عموم الأفراد.

وكذلك الأجواء الخاصّة لها تأثيرها الكبير في الأفراد من جوّ العائلة إلىٰ جوّ المدرسة إلىٰ جوّ الأصدقاء والإخوان... إلىٰ غير ذلك.

---

(١) نسب المجلسي رحمه الله جملة «المؤمن مرآة المؤمن» إلىٰ الرسول صلى الله عليه وآله في بحار الأنوار ٧٤ / ٢٦٨.

وينبغي الاهتمام الكامل بالنسبة لتربية الأطفال بتهذيب جوّ البيت والعائلة، وتربية الأُمّ التي هي المدرسة الأُولى للطفل في الأعراف المتشرعيّة، ثُمّ اختيار خير مدرسةٍ له يتوفّر فيها أكبر قدر ممكن من الجوّ الصالح، والإشراف من قبل وليّ صالح عليه وعلىٰ تحركاته ومجالساته وما شابه ذلك.

وقد مضىٰ منّا الحديث عن ضرورة تربية الأطفال والأولاد ضمن البحث عن توفير العادة الصالحة. ولكن بقيت علينا الإشارة إلىٰ مدّة الاهتمام بتربية الولد وهي تتحدّد بالسنّ الذي يتقبّل التربية والتأديب من وليّه، ولعلّه لا حدّ دقيق لذلك. ويختلف الأمر باختلاف الأولاد، إلّا أنّ هنا حدّين غالبيين: أحدهما حدّ البلوغ، والآخر حدّ ريعان الشباب. كما أنّ هناك طائفتين من الروايات، فكأنّ احداهما تنظر إلىٰ الحدّ الثاني وإلىٰ أعلىٰ مستويي إمكان المواصلة مع الأولاد في التربية، والأُخرىٰ تنظر إلىٰ الحدّ الأوّل وإلىٰ أقل المستويين.

فممّا ينظر إلىٰ أطول الحدين: ما عن الصادق عليه السلام: «الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلّم الكتاب سبع سنين، ويتعلّم الحلال والحرام سبع سنين»[(١)].

وأيضاً عنه عليه السلام: «دع ابنك يلعب سبع سنين، ويؤدّب سبع سنين، والزمه نفسك سبع سنين، فإن أفلح وإلّا فلا خير فيه»[(٢)].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «يربّىٰ الصبيّ سبعاً، ويؤدّب سبعاً، ويستخدم سبعاً. ومنتهىٰ طوله في ثلاث وعشرين سنة، وعقله في خمس وثلاثين، وما كان بعد ذلك فبالتجارب»[(٣)].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «الولد سيّد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن

---

(١) وسائل الشيعة ٢١ / ٤٧٥، الباب ٨٣ من أحكام الأولاد، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق: الحديث ٤.

(٣) المصدر السابق: الحديث ٥.

رضيت خلائقه لإحدى وعشرين سنة وإلّا فاضرب علىٰ جنبيه، فقد أعذرت إلىٰ الله»[١].

وممّا ينظر إلىٰ أقصر الحدّين: ما عن الصادق عليه السلام: دع ابنك يلعب سبع سنين، وألزمه نفسك سبعاً، فإن أفلح وإلّا فإنّه ممّن لا خير فيه[٢].

وأيضاً عنه عليه السلام: «أمهل صبيّك حتّىٰ يأتي له ستّ سنين، ثمّ ضمّه إليك سبع سنين، فأدّبه بأدبك، فإن قبل وصلح وإلّا فخلّ عنه»[٣].

٨ ـ معرفة الإسلام:

بوصفه نظاماً كاملاً شاملاً مُسعداً للحياة من ناحية، وبوصفه برنامجاً روحيّاً مكمّلاً للإنسان، وموصلاً له وصولاً معنويّاً لحضيرة القدس والحضور من ناحية أُخرىٰ، ومؤمّناً لسعادة الآخرة مادّيّاً متجسّداً في الجنّة، ومعنويّاً متجسّداً في رضوان الله ولقائه بعين البصيرة (لا الباصرة) من ناحية ثالثة، فكلّما اتّسعت هكذا معرفة بالإسلام تفصيلاً، اتّسع أثرها في تزكية النفس وتربية الروح. أمّا المعرفة الإجماليّة فإن أثّرت ـ وأثرها ناقص ـ جرّت الإنسان بالنهاية إلىٰ السعادة، وإن لم تؤثّر جرّت الإنسان إلىٰ الشقاء الأبدي؛ لأنّ من ينحرف عن رضوان الله علىٰ رغم العلم بالحقيقة ولو إجمالاً أشقىٰ ممّن ينحرف عن جهل.

وأمّا إبداء الإسلام كوصفة مؤمّنة لحياة الآخرة فحسب، فهي ليست إلّا وصفة ناقصة، ليس من يعطيها للمريض الروحي طبيباً حاذقاً، ولا توجب ـ عادة ـ

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٧٦، الحديث ٧.

(٢) وسائل الشيعة ٢١ / ٤٧٣، الباب ٨٢ من أحكام الأولاد، الحديث ١. صحّحنا المتن من الكافي ٦ / ٤٦ بحسب طبعة الآخوندي.

(٣) المصدر السابق: الحديث ٢. وطبيعيّ أنّ هذه التحديدات ليست حدّيّة، فقد تزيد وقد تنقص.

الإفاقة المرجوّة؛ لأنّها أغفلت حاجتين ماسّتين يحسُّ بهما الإنسان في أعماق نفسه وفي ضميره ووجدانه، ولو إحساساً غامضاً وإجماليّاً: أحدهما إحساسه ببرمجة حياة سعيدة هنيئة آمنة مطمئنة، والثاني إحساسه بالعطش الروحي، والحاجة إلىٰ الارتواء من معين القرب إلىٰ الله، والفوز برضاه والذوبان فيه. والوصفة الناقصة لا تجلب رغبة المريض، ولا تشجّعه علىٰ العلاج، فلابدّ للطبيب الحاذق من إعطاء الوصفة الكاملة الناجعة؛ كي يؤثّر في الأعماق، ويحيي القلوب الميّتة بإذن الله.

٩ ـ التدريب :

لا يتمّ التكامل في غير المعصوم إلّا بالتدريب وترويض النفس. وها هو إمامنا المعصوم عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول على ما في نهج البلاغة في كتابه لعثمان بن حنيف: «... وإنّما هي نفسي أُروّضها بالتقوىٰ؛ لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت علىٰ جوانب المزلق...» ويقول عليه السلام في نهاية الكتاب: «... طوبىٰ لنفس أدّت إلىٰ ربّها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها، حتّىٰ إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسّدت كفّها في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربّهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿... **أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾»(١).

وينصح للتدريب بعِدَّة أُمور منها :

١ ـ إيجاد دورات أخلاقيّة ونوبات متقطِّعة زمنيّاً للتدريب، كما هو المألوف في نظام الإسلام: من افتراض مناسبات معيَّنة لأعمال الخير والعبادات والمساعدات

---

(١) نهج البلاغة: ٥٧٤ و ٥٧٩، والكتاب ٤٥ إلىٰ عثمان بن حنيف، والآية : ٢٢ من السورة ٥٨، المجادلة.

والاهتمامات الحسنة، وهي مناسبات زمانيَّة أحياناً، ومكانيَّة أُخرىٰ، ومرتبطة بأُمور أُخرىٰ غير الزمان والمكان ثالثة، فالأعياد في الإسلام وشهر رمضان ونحو ذلك من ناحية، والأماكن المقدَّسة من ناحية أُخرىٰ، ومناسبة الاستطاعة أو مناسبات الظفر بنعمة من الله تستوجب الشكر، أو الابتلاء ببلاء يستوجب التوبة والإنابة والدعاء والاقتراب إلىٰ الله، أو ذنب ـ لا سمح الله ـ يستوجب الإنابة والتوبة وغُسل التوبة وما إلىٰ ذلك، كلٌّ هذه فرص ومناسبات اتَّخذها الإسلام كوسيلة للتدريب علىٰ الخير وتزكية النفس.

٢ ـ التدرُّج من السهل إلىٰ الصعب علىٰ النفس: من أخلاق فاضلة، وأعمال حسنة، ومن القليل إلىٰ الكثير.

٣ ـ الأدعية والأذكار وقراءة القرآن والصلوات ـ وخاصَّة صلاة الليل ـ وما إلىٰ ذلك ممَّا يساعد علىٰ الحضور والخلوة.

وتوضيح المقصود: أنَّ العبادات علىٰ قسمين:

أحدهما: العبادات التي لا تنسجم ـ عادةً ـ مع الدرجة الكاملة للحضور والخلوة مع الله، كالدرس والتدريس حينما يكونان عبادتين، بل وحتّىٰ الكسب والتجارة؛ إذ بإمكان الشخص أن يجعلهما عبادة لله، وذلك عن طريق جعل غاياتهما غايات إلهيَّة، كالإنفاق علىٰ العيال الواجب أو المستحب، أو الإنفاق علىٰ المحتاجين، أو علىٰ المشاريع الإسلاميَّة وما إلى ذلك.

والثاني: العبادات التي تساعد علىٰ مستوى أكبر من الحضور والخلوة مع الله، كالصلاة والمناجاة والدعاء والتوبة، والبكاء من خشية الله، أو من الخشوع قبال عظمة الله وما إلىٰ ذلك.

وحصر العبادة في القسم الثاني والانسحاب من الأُمور الحياتيَّة والاجتماعيَّة، ليس من تعاليم الشريعة الإسلاميَّة، فإنَّ شريعة الإسلام لا توافق علىٰ حالة الترهبن وما إلىٰ ذلك.

ولكنَّ القسم الثاني من العبادة حينما يؤتىٰ بها بحالة الخشوع والحضور والخلوة مع الله، يكون أكثر تأثيراً في تربية النفس من القسم الأوّل، ولهذا لابدَّ للإنسان الحريص علىٰ تكميل نفسه وتزكيتها من تخصيص بعض من أوقاته يوميًّاً بذلك، ومسألة التأكيد علىٰ صلاة الليل داخلة في هذا المضمار.

١٠ ـ توفير الحاجات النفسيَّة والجسديَّة:

من أهمِّ ما يحقِّق للنفس فرصة التربية توفير ما يلبّي الحاجات النفسيّة والجسديَّة عن طُرقها المشروعة؛ كي تفرغ النفس للتزكية والتكامل، ولا تتَّجه النفس في إشباع الحاجات إلىٰ الطرق غير المشروعة. ومن هذا الباب الأدب الإسلامي في التبكير بالزواج في مقتبل العمر، ومن هذا الباب ـ أيضاً ـ الأدب الإسلامي في تأجيل الصلاة لدىٰ مدافعة الأخبثين حتّىٰ يتمَّ دفعهما، وكذلك ينفع دفع الحاجات وعلاجها قبل العبادة لحضور القلب.

وهذا المحفِّز هو أحد الأُمور التي تتوفَّر بأفضل الأنحاء وأكملها حينما يكون الإسلام هو الذي يحكم المجتمع.

١١ ـ نظام العقوبات:

ولنظام العقوبات أثر بالغ في التربية: من الحدود، والتعزيرات، والقصاص، والديات، والكفارات. وهذا أحد الأُمور التي تتوفَّر بأفضل الأنحاء حينما يكون الإسلام هو الحاكم في المجتمع.

١٢ ـ المربِّي:

ومن الأُمور الهامَّة المؤثِّرة في تزكية النفس وتربيتها، تسليمُ الشخص نفسه بيد مربٍّ يكون أعلىٰ مستوىً بدرجات رفيعة من المربَّىٰ. وهذا من قبيل ما مضىٰ في

المحفِّز الثاني: من اتِّخاذ القدوة، بفرق: أنَّ النظر في المحفِّز الثاني ـ وهو القدوة ـ كان إلىٰ ممثِّليَّته للصفات الحسنة والمُثل العليا بالاقتداء بأوصافه وأعماله ونواياه وأهدافه، والنظر في هذا المحفِّز يكون إلىٰ الرجوع إليه والاسترشاد به، وقبول نصائحه وإرشاداته.

١٣ ـ الضمير أو الوجدان أو الفطرة:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[١].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٣].

وقال عزَّ اسمه: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللوَّامَةِ﴾[٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...﴾[٥].

وقال ـ أيضاً ـ في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٦].

وقال ـ أيضاً ـ في الكتاب: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾[٧].

---

(١) السورة ٩١، الشمس، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(٢) السورة ٩٠، البلد، الآية: ١٠.

(٣) السورة ٧٦، الإنسان، الآية: ٣.

(٤) السورة ٧٥، القيامة، الآية: ٢.

(٥) السورة ٣٠، الروم، الآية: ٣٠.

(٦) السورة ٧، الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٧) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٦٧.

إنّ الله عزَّ وجلَّ خلق في النفس البشريَّة مَحْكمةً اسمها: الضمير أو الوجدان، أو الفطرة، تدرك أوَّلاً كثيراً من الحقائق الراجعة إلىٰ الفضيلة والرذيلة، ممَّا يكون حسنها وقبحها أمرين واقعيين، وغير مأخوذين من مجرَّد الشهرة أو العادة أو التأديب الاجتماعي وغير ذلك، وتؤنِّب وتلوم ثانياً الإنسان لدىٰ مخالفة تلك الحقائق، وتحسِّسه بالوخز عندها، وتحسِّسه بالرضا والارتياح لدىٰ موافقتها. وهذا من أعظم نعم الله علىٰ العباد، ولولاه لما انفتح علىٰ البشر أيُّ باب من أبواب الهداية.

وكأنَّ الآيات الأربع الأُولىٰ تشير إلىٰ هذه القوَّة المودعة في النفس.

وهناك قوَّة أُخرىٰ قريبة من قوَّة الضمير، قد تُسمَّىٰ بالفطرة وهي لم تكن مدركاتها مباشرة عملية بمعنىٰ الحسن والقبح أو الفضيلة والرذيلة، ولكنَّها تدرك مصدر المسؤوليَّة العمدة والأساس في الإنسان، ألا وهو الله سبحانه وتعالىٰ، أو الدين والمبدأ. وكأنَّ الآيات الثلاث الأخيرة تشير إلىٰ هذه القوَّة. وهي وإن كانت في الحقيقة جزءاً من قوَّة العقل النظري لا العملي، لكن لشدَّة التصاقها بقوَّة الضمير والعمل قد تحشر في صفِّ تلك القوَّة. ويُسمّىٰ الجميع بالضمير أو الوجدان تارة، وبالفطرة أُخرىٰ.

ويحتمل كون الآيات الثلاث الأُولىٰ إشارة إلىٰ الضمير والفطرة معاً. وتشير إلىٰ الفطرة ما ورد عن النبيِّ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولد علىٰ الفطرة حتّىٰ يكون أبواه يهوِّدانه وينصِّرانه»[(١)].

وهناك قوَّة ثالثة في النفس قريبة من الأُوليين، وهي: مركز الاطمئنان والسكون والارتياح تارة، والاضطراب أو الرعب أُخرىٰ. ويمكن تسميتها بالقلب أو الفؤاد، وقد يقصد بهما مركز الإدراك المرتبط بالضمير أو الفطرة.

---

(١) بحار الأنوار ٣ / ٢٨١.

ولعلّ المعنىٰ الأوّل هو المقصود بمثل قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

٢ ـ ﴿... قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...﴾[2].

٣ ـ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ...﴾[3].

٤ ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ...﴾[4].

٥ ـ ﴿... سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ...﴾[5].

ولعلّه المقصود بالنفس المطمئنّة في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[6].

ولعلّ المعنىٰ الثاني هو المقصود بمثل قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿... وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[7].

٢ ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[8].

٣ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[9].

---

(١) السورة ٢٨، القصص، الآية: ١٠.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٣) السورة ٣، آل عمران، الآية: ١٥١.

(٤) السورة ١٣، الرعد، الآية: ٢٨.

(٥) السورة ٨، الأنفال، الآية: ١٢.

(٦) السورة ٨٩، الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.

(٧) السورة ١٦، النحل، الآية: ٧٨.

(٨) السورة ٢٢، الحج، الآية: ٤٦.

(٩) السورة ٥٠، ق، الآية: ٣٧.

٤ ـ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١].

٥ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٢].

٦ ـ ﴿... وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٣].

وهذه القوىٰ الثلاث: أعني أوّلاً الضمير أو الوجدان، وثانياً الفطرة، وثالثاً القلب أو الفؤاد، هي خير أدوات لهداية البشر ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً ...﴾[٤].

ووظيفتنا تجاه هذه النعم القيّمة والتي تصلح أن تكون خير محفّز للخيرات والفضائل والحسنات والكمالات، هي جلاؤها وصقلها، وتقويتها، ونفض الغبار عنها.

وإن شئت توضيحاً أكثر من ذلك قلنا: إنّ الضمير المودع من قبل الله سبحانه وتعالىٰ في نفس كلّ فرد من أفراد البشر، لا يخطأ في فهمه وإدراكه، وهي الجوهرة الربّانيّة والرسول الباطني الذي أُرسل لهداية البشر، بمعونة العقل النظري في النظريّات المحتاج إليها للوصول إلىٰ النتائج الخارجيّة: من إدراك الخالق، أو معرفة الرسول، وما شابه ذلك، ولكن هذا الضمير علىٰ رغم ماله في حدّ ذاته من صفاء ونور وجلاء، يبتلى هو أو يبتلى الإنسان بالقياس إليه بمشكلتين:

الأُولىٰ: أنّ الشهرة أو العادة أو العقل الجمعي أو القرار الاجتماعي علىٰ شيء لأجل المصالح أو لأجل نزعات نفسيّة أو لأيّ عامل آخر وما إلىٰ ذلك، تخلق في النفس في كثير من الأحيان قناعات معيّنة، وقد تُسمّى أو يُسمّىٰ بعضها بالمشهورات أو الآراء المحمودة، فيقع الاشتباه في النفس ـ أحياناً ـ بين هذه

---

(١) السورة ٧، الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) السورة ٢٣، المؤمنون، الآية: ٧٨.

(٣) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ٩، والسورة ٦٧، الملك، الآية: ٢٣.

(٤) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٣٨.

الإدراكات التي دخلت من العوامل الغريبة إلى النفس، وبين الإدراكات التي هي من صميم النفس، والتي تنبع من الضمير أو الفطرة اللذين لا يخطأان، فلابدَّ من التيقُّظ الكامل في التشخيص بينهما. ومن العلائم التي تنفع كثيراً في الفصل بينهما: أنَّ المدرك بالضمير أو الفطرة، يكون ـ عادةً ـ أعمَّ شمولاً وانتشاراً بين أصناف الناس المختلفة؛ لأنَّها نبعت من النفس البشريَّة التي هي أمر مشترك بين الجميع ولكن القناعات الناتجة من العوامل الخارجيَّة والغريبة علىٰ النفس تكون ـ عادةً ـ أقرب إلىٰ الاختلاف باختلاف الظروف والبيئات.

والثانية: أنَّ هذه الجوهرة الربَّانيّة تقع ـ أحياناً ـ تحت الغبار، فيخفت نورها، أو ينطفئ لا سمح الله. والغبار الذي يغطِّي هذه الجوهرة بستار رقيق أحياناً وكثيف أُخرىٰ غباران:

أحدهما: غبار الشبهات والمغالطات التي قد يتخيّل الإنسان كونها براهين عقليَّة فيذعن لها، وبهذا يغطِّي وجدانه وضميره أو فطرته. وعلاج ذلك إذكاء العقل النظري وتنميته وشدَّة الالتفات والتيقُّظ.

وثانيهما: غبار الشهوات أو المعاصي، والتي إذا كثرت أوجبت الرين علىٰ القلب كما ورد في القرآن: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[1].

والعلاج الوحيد لذلك بعد الالتجاء إلىٰ الله تعالىٰ التقوى والورع، فكلَّما زادت التقوى خفَّ الغبار والرين إلىٰ أن يرتفع، بل قد يقوى ويشتدُّ نور الضمير والوجدان نتيجة للتقوى أكثر من أصله الذي كان، فتنعكس فيه الحقائق أكثر من ذي قبل، وقد يكون هذا ممَّا يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿**...وَاتَّقُوا اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ...**﴾[2]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**... إنْ تَتَّقُوا اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ...**﴾[3]، وقوله عزَّ من قائل:

---

(١) السورة ٨٣، المطففين، الآية: ١٤.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٣) السورة ٨، الأنفال، الآية: ٢٩.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١] .

ولا ينبغي أن نغفل عن الدعاء والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالىٰ للتوفيق لذلك؛ لأنّ التوفيق من الله؛ فإنَّ الله ـ تعالىٰ ـ يقول: ﴿... وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ...﴾[٢] ، فلو أنّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ أراد أن يذكي ضميرنا ووجداننا وعقلنا انتهينا إلىٰ كلّ خير، ولو أنّ الله ـ تعالىٰ ـ أوكلنا إلى أنفسنا طرفة عين لهلكنا، وكلُّ مساعينا إن هي إلّا مقدّمات إعدادية للإفاضة من الله سبحانه وتعالىٰ قد تفضّل الله ـ تعالىٰ ـ علينا بإقدارنا عليها، وأمرنا بالالتزام بها.

وقد ورد في الحديث عن ابن أبي يعفور قال: «سمعت أبا عبداللهعليه‌السلام يقول ـ وهو رافع يده إلىٰ السماء ـ: ربِّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، لا أقلّ من ذلك ولا أكثر، قال: فما كان بأسرع من أن تحدر الدموع من جوانب لحيته، ثُمّ أقبل عليَّ فقال: يابن أبي يعفور، إنّ يونس بن متى وكّلَه الله ـ عزّوجلّ ـ إلى نفسه أقلّ من طرفة عين فأحدث ذلك الذنب.

قلت: فبلغ به كفراً أصلحك الله؟

قال: لا، ولكنّ الموت علىٰ تلك الحال هلاك»[٣] .

وطبعاً يحمل الذنب في الحديث علىٰ معنىٰ ترك الأولىٰ، ممّا يحسبه الأنبياء والأوصياء والمعصومون بالنسبة لأنفسهم ضلالة ونقصاناً للدرجة، وعلىٰ هذا الأساس ورد في القرآن: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤] .

---

(١) السورة ٢٩، العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) السورة ٢٤، النور، الآية: ٢١.

(٣) أُصول الكافي ٢ / ٥٨١، باب دعوات موجزات، الحديث ١٥.

(٤) السورة ٣٧، الصافات، الآيتان: ١٤٣ ـ ١٤٤.

اللّهمَّ لا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين أبداً بحقِّ محمَّد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

وفي نهاية البحث أُشير إلى أمرين:

الأمر الأوّل: أنَّ من المحتمل أن يكون أُسلوب إتمام الحجَّة علىٰ العبد في يوم القيامة، أو ـ في الأقلّ ـ أحد أساليب إتمام الحجَّة عليه في ذلك اليوم، عبارةً عن مجموع أمرين:

أ ـ تقوية الذاكرة، قال الله تعالىٰ: ﴿**يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنْسَانُ مَا سَعَى**﴾(١).

وفي الحديث عن خالد بن نجيح، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة دُفِعَ إلىٰ الإنسان كتابُه، ثُمَّ قيل له: اقرأ. قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: إنَّ الله يذكّره، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعله إلّا ذكره كأنّه فعله تلك الساعة؛ فلذلك قالوا: ﴿... **يَا وَيْلَنَا مَالِهذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إلّا أَحْصَاهَا** ...﴾»(٢).

ولعلّ ما في يوم القيامة من أمثال تجسُّم الأعمال، أو تطاير الكتب أو شهادة الجوارح، أو شهادة الأرض أو نحو ذلك، يكون جميعاً مساعدة للذاكرة، أو دعماً وتأييداً لها.

ب ـ إذكاء الضمير والوجدان، كي يحاسب الإنسان نفسه بنفسه، وتتمُّ الحجَّة عليه بذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿**اقْرَأْ كتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**﴾(٣).

الأمر الثاني: أنَّ ما ذكرناه: من أنَّ تصفية القلب وإذكاء الضمير يساعدان علىٰ

---

(١) السورة ٧٩، النازعات، الآية: ٣٥.

(٢) بحار الأنوار ٧ / ٣١٥، والآية: ٤٩ في السورة ١٨، الكهف. إلّا أنّ الوارد في القرآن: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾.

(٣) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ١٤.

انعكاس الحقائق في مرآة القلب والضمير، لا نقصد بذلك الاستغناء عن التعلُّم المألوف بحجَّة أنَّنا ـ إذن ـ نلازم التقوى، فيزوِّدنا الله ـ تعالىٰ ـ بنور العلم كما قال في محكم كتابه: ﴿... وَاتَّقُوا اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ...﴾[١] فلا حاجة إلى إتعاب النفس بالتعلُّم.

فإنَّ عدم الحاجة إلىٰ التعلُّم لا نعهده في غير المعصومين عليهم السلام، ونحن قد أُمرنا من قبل الشريعة بالتعلُّم، قال الله تعالىٰ: ﴿... فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢].

وروايات التعلُّم لعلَّها فوق حدِّ الإحصاء، وكنموذج له نذكر ما يلي:

١ ـ عن ابن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: «تعلَّموا العلم؛ فإنَّ تعلُّمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة...»[٣].

٢ ـ وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أربع يلزمن كلَّ ذي حجىً وعقلٍ من أُمّتي. قيل: يا رسول الله ما هنَّ؟ قال: استماع العلم، وحفظه، ونشره عند أهله، والعمل به»[٤].

٣ ـ وعن قتادة، عن الصادق عليه السلام: «لست أُحبُّ أن أرى الشابَّ منكم إلَّا غادياً في حالين: إمَّا عالماً، أو متعلّماً، فإن لم يفعل فرَّط، فإن فرَّط ضيَّع، فإن ضيَّع أثم، وإن أثم سكن النار والذي بعث محمَّداً صلى الله عليه وآله بالحقِّ»[٥].

٤ ـ وعن الرضا عليه السلام، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: طلب العلم فريضة علىٰ كلِّ مسلم، فاطلبوا العلم من مظانِّه، واقتبسوه

---

(١) السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) السورة ٩، التوبة، الآية: ١٢٢.

(٣) بحار الأنوار: ١ / ١٦٦.

(٤) المصدر السابق: ص ١٦٨.

(٥) المصدر السابق: ص ١٧٠.

من أهله؛ فإنَّ تعليمه لله حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلىٰ الله تعالىٰ ...»[1].

٥ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أيُّها الناس، اعلموا أنَّ كمال الدين طلب العلم والعمل به، وأنَّ طلب العلم أَوجب عليكم من طلب المال. إنَّ المال مقسوم بينكم، مضمون لكم، قد قسَّمه عادل بينكم وضمنه، سَيَفي لكم به، والعلم مخزون عليكم عند أهله، قد أُمرتم بطلبه منهم فاطلبوه...»[2].

٦ـ وعن السكوني، عن الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أُفٍّ لكلِّ مسلم لا يجعل في كلِّ جمعة يوماً يتفقّه فيه أمر دينه، ويسأل عن دينه»[3].

٧ـ وعن إسحاق بن عمّار قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ليت السياط علىٰ رؤوس أصحابي حتّىٰ يتفقّهوا في الحلال والحرام»[4].

٨ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «... يا كميل، إنَّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عنّي ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم ربّاني، ومتعلِّم علىٰ سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلِّ ناعق، يميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلىٰ ركن وثيق...»[5].

فبفهم العقل وبقرينة هذه الأدلة النقليّة وأَمثالها، ندرك أنَّ المقصود بما يدلُّ علىٰ كون جلاء القلوب والضمائر يوجب انعكاس الحقائق في النفس، ليس هو

---

(١) المصدر السابق: ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧٥.

(٣) المصدر السابق: ص ١٧٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٢١٣.

(٥) نهج البلاغة: ٦٨٥، رقم الحكمة: ١٤٧.

الاستغناء عن التعلُّم، وإنَّما المقصود بذلك: أنَّ جلاءهما وصفاءهما يوجب انعكاس قسم من الحقائق التي لا يكفي فيها مجرّد التعلُّم، وأنَّ مَنْ وقع الرين والغبار علىٰ قلبه، فَقَدَ تلك الإدراكات الربَّانية الطاهرة. والمقدار الذي يكون ارتباطه بتطهير القلب وجلاء الضمير والوجدان واضحاً حتّىٰ لعامَّة الناس، هو: مدركات الضمير والفطرة.

ويبدو لي أنَّه ممَّا يشير إلى الضمير والفطرة والقلب قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء ...﴾[1].

ومن الطريف تشبيه الآية المباركة التي نزلت قبل حوالي أربعة عشر قرناً ضيق الصدر بحالة من يصّعَّد إلىٰ السماء، ولم يكن أحد ـ يومئذٍ ـ يعلم بأنَّ الصعود إلىٰ السماء يوجب ضيق التنفُّس بسبب عدم وجود الهواء.

وقد ورد في تفسير هذه الآية المباركة أنّه لمَّا نزلت هذه الآية سُئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر ما هو؟ فقال: «نور يقذفه الله في قلب المؤمن، فينشرح له صدره وينفسح.

قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟

قال ﷺ: نعم، الإنابة إلىٰ دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»[2].

ومن الروايات التي تشير إلى العلم الذي ليس بمجرد التعلُّم ما روي عن عنوان البصري، عن الإمام الصادق عليه السلام؛ إذ ورد فيها قوله: «... ليس العلم بالتعلُّم، إنَّما هو نور يقع في قلب من يريد الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ أن يهديه...».

---

(١) السورة ٦، الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) تفسير مجمع البيان في ذيل هذه الآية.

والرواية مفصَّلة[١] وطريفة، وقد مضىٰ ذكرها في أواخر بحث التواضع، أي: في أواخر الفصل التاسع والعشرين من الحلقة الثالثة من هذا الكتاب فراجع.

١٤ـ وسائل المغفرة:

إنَّ وسائل المغفرة لهي من أعظم المحفِّزات نحو الخير وكسب السعادة؛ وذلك لأمرين: أحدهما عامٌّ، والآخر خاصٌّ بأرباب القلوب وأصحاب الحال:

أمَّا الأمر العامُّ فهو: أنَّ المنهمك في المعاصي وبالذات في الكبائر لو أصابه اليأس من رحمة الربِّ انسدَّ عليه باب النجاة، وتمادى في الغيِّ أكثر من ذي قبل. وعلاج ذلك عبارة عن إلفات نظره إلىٰ وسائل المغفرة.

وأمَّا الأمر الخاصُّ الذي يستفيد منه الخواصّ فهو: أنَّهم حينما يلتفتون إلىٰ سعة رحمة الربِّ وغفرانه، فبدلاً عن إغراء ذلك إيَّاهم للتورُّط في المعاصي والانهماك في الذنوب يحملهم وجدانهم وضميرهم ـ علىٰ أثر ذلك ـ علىٰ الابتعاد أكثر فأكثر من المعاصي، وعلىٰ الانقياد أكثر فأكثر بالأوامر، أفليس ينبغي التناسب الطردي بين رأفة المولىٰ وحنانه، وبين طاعته وترك العصيان؟! أو هل من الانصاف أن نعصي ربّاً فتح علينا باب التوبة إلى حين معاينة الموت! أو هل يسمح الوجدان أن لا نتوب ولا نؤوب إلىٰ مولىً يفرح بتوبتنا أشدَّ من فرح رجل أضلَّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، كما ورد في الحديث[٢]؟!

وقد ينقل عن رجل اسمه حاجب، أو تخلّصه[٣] في قصائده يكون بحاجب:

---

(١) وهي موجودة في البحار ١ / ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) بحار الأنوار ٦ / ٤٠.

(٣) التخلّص: عادة مخصوصة بشعراء العجم، وهي: أنَّه يختارون لأنفسهم اسماً مستعاراً ينهون قصائدهم ببيت يشتمل علىٰ ذاك الاسم.

أنّه قال في ذيل أبيات له في مدح عليٍّ عليه السلام:

حاجب اگر بهشت برين در كف على است

من ضامنم هر آنچه توانى گناه كن

فرأى أمير المؤمنين عليه السلام في عالم الرؤيا وقال له:

حاجب يقين بهشت برين در كف على است

شرمى ز روى وى كن و كمتر گناه كن

وعناوين المغفرة في الكتاب الكريم عديدة، وذلك من قبيل:

١ ـ التوبة:

قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾[١].

٢ ـ العفو عن الصغائر لدىٰ ترك الكبائر:

قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً**﴾[٢].

٣ ـ العفو عن اللمَم:

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾[٣].

---

(١) السورة ٤، النساء، الآية: ١٧.

(٢) السورة ٤، النساء، الآية: ٣١.

(٣) السورة ٥٣، النجم، الآيتان: ٣١ ـ ٣٢.

٤ ـ الحسنة تُذهب السيِّئة :

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[1] .

٥ ـ العفو لدىٰ مشيئة الله :

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ...﴾[2] .

وقال عزّ من قائل: ﴿... إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ...﴾[3] .

٦ ـ الشفاعة :

قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[4] .

وأمَّا مَن يسيء الاستفادة من هذه العناوين، وينهمك في المعاصي بحجَّة سعة رحمة الله، ووجود عناوين من هذا القبيل للمغفرة، فهذا حاله حال مَن يستعمل وصفة الطبيب في غير محلّها، فيتحوَّل ما اشتملت عليه الوصفة عن كونه دواءً ناجعاً إلىٰ كونه سُمّاً قاتلاً. فقد أشرنا إلىٰ أنَّ وسائل المغفرة هذه جعلت لفتح باب الأمل في وجه العاصي؛ كي لا يبتلىٰ باليأس ولا يتورَّط في قعر الدركات، وقد صمِّمت جميعاً بشكل لا يوجب لو استعمت بالشكل الصحيح التجرُّؤَ علىٰ المعصية، ولكن يستعملها الخاطئ في غير محلِّها، ويأخذ منها أثراً غير مطلوب، وهو التجرُّؤ علىٰ المعصية.

---

(١) السورة ١١، هود، الآية: ١١٤.

(٢) السورة ٤، النساء، الآية: ٤٨.

(٣) السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٤) السورة ٢٠، طه، الآية: ١٠٩.

وتوضيح ذلك باختصار: أنَّ أوَّل هذه العناوين هو التوبة، وهي وحدها التي حتَّم الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ نفسه قبولها، وتوبته عزَّ وجلَّ علىٰ العاصي بقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَىٰ اللَّهِ ...﴾ أمَّا الاعتماد عليها للانهماك في المعاصي فهو منهج مغلوط لاستعمال الوصفة؛ وذلك لوجهين:

الأوَّل: أنَّ العاصي لا يعلم هل سوف يمهله الموت للتوبة أو لا، فكيف يصحُّ التورُّط في المعصية بالاعتماد علىٰ التوبة؟!

والثاني: أنَّه ما يدريه أنَّ ما يصدر عنه من الذنب لن يجرَّه مستقبلاً ـ لما يؤثِّر في النفس تأثيراً غير مرضيٍّ: من إفسادها، وتنزيلها إلى المراتب السافلة، وتقوية جوانب الشرِّ فيها، وتضعيف دوافع الخير فيها ـ إلىٰ معصية أُخرىٰ، وهكذا إلىٰ أن يصل في الشقاء إلى مرتبة لن يُوفَّق للتوبة. وفي الحديث عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد إلَّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتّىٰ يغطِّي البياض، فإذا غطَّى البياض لم يرجع صاحبه إلىٰ خير أبداً، وهو قول الله عزَّوجلَّ: ﴿... بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[1].

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة ...»[2] وهذا أمر طبيعي؛ لأنَّ القلب قبل الخطيئة نيِّر وضَّاء، فيسهل معه ترك الذنب، وبعد الوقوع في الخطيئة يبتلي بالسواد والظلمة.

وعن طلحة بن زيد، عن الصادق عليه السلام قال: «كان أبي عليه السلام يقول: ما من شيء أفسد

---

(١) مضت الرواية في بحث التوبة، وهي واردة في وسائل الشيعة ١٥ / ٣٠٣، الباب ٤٠ من جهاد النفس، الحديث ١٦، والآية: ١٤ في السورة ٨٣، المطففين.

(٢) مضىٰ في بحث التوبة، وهو وارد في أُصول الكافي ٢ / ٤٥١.

للقلب من خطيئة إنَّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتّىٰ تغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله »(١).

وعن ابن فضَّال، عن الصادق عليه السلام قال: « إنَّ الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإنَّ العمل السيّء، أسرع في صاحبه من السكّين في اللحم »(٢).

وهناك عنوان آخر في القرآن للمغفرة، وهو عنوان الاستغفار. وقد يفترض أنَّه لا يلازم التوبة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(٣).

وقال عزَّ من قائل: ﴿... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾(٤).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(٥).

فقد يُتوهَّم أنَّ المقصود بالاستغفار مجرَّد طلب المغفرة من دون ندم وتوبة. وما أسهل طلب المغفرة، فالإنسان يتعمَّد الذنب ثُمَّ يطلب المغفرة من الله؛ كي لا يعذّبه. وهذا هو عين التغرير بالذنب، وفتح الباب للانهماك في المعاصي.

ولكن الواقع : أنَّ المقصود بالاستغفار هو: طلب المغفرة مع الندم، وذلك يرجع

---

(١) وسائل الشيعة ١٥ / ٣٠١، الباب ٤٠ من جهاد النفس، الحديث ٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٢، الحديث ١٤.

(٣) السورة ٤، النساء، الآية: ١١٠.

(٤) السورة ٤، النساء، الآية: ٦٤.

(٥) السورة ٣، آل عمران، الآيتان: ١٣٥ ـ ١٣٦.

إلىٰ التوبة التي عرفت فيها الجواب عن الشبهة، وأنَّها إذا لوحظت بشكلها الصحيح لا تؤدِّي إلىٰ الجرأة، بل تؤدِّي إلىٰ التطهير، وانفتاح باب الرجوع إلىٰ الله تـعالىٰ، وتزكية النفس.

أمّا الشاهد علىٰ كون المقصود بالاستغفار هو طلب المغفرة مع النـدم، فـعدَّة أُمور:

الأوّل: أنَّ هذا هو المعنىٰ العرفي لطلب المغفرة، فلو أنَّ ابناً أساء إلى أبيه، ثُمّ جاء إلىٰ أبيه يعتذر منه، ويقبِّل يده ويطلب منه العفو والإغماض عـنه، كـان المـعنى العرفي لذلك الندم.

والثاني: التقييد الوارد في الآية الثالثة للاستغفار بقوله: ﴿**وَلَمْ يُصِرُّوا عَـلَى مَـا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.

والثالث: الروايات الدالَّة علىٰ أنَّ المقصود بالاستغفار هو: الاستغفار المـقترن بالندم والتوبة، وذلك من قبيل:

١ـ ما ورد عن جابر، عن أبي جعفرعليه السلام قال: «سمعته يقول: التائب من الذنب كمن لا ذنب له. والمقيم علىٰ الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ»[1]، فلو كان طلب المغفرة وحده كافياً لمحو الذنب، لما كـان المسـتغفر المـقيم عـلىٰ الذنب كالمستهزئ.

٢ـ ما رواه الحسن بن محمَّد الديلمي في الإرشاد قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر الله في كلِّ يوم سبعين مرَّة يقول: أستغفر الله ربِّي وأَتوب إليه، وكذلك أهل بيتهعليهم السلام وصالح أصحابه، يقول الله تعالىٰ: ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ...**﴾[2] قال: وقال رجل: يا رسول الله: إنِّي أُذنب فما أقول إذا تبت؟

---

(١) وسائل الشيعة ١٦ / ٧٤، الباب ٨٦ من جهاد النفس، الحديث ٨.

(٢) السورة ١١، هود، الآية: ٩٠.

قال : استغفر الله.

فقال : إنّي أتوب ثُمَّ أعود.

فقال : كُلَّما أذنبت استغفر الله.

فقال : إذن تكثر ذنوبي.

فقال : عفو الله أكثر، فلا تزال تتوب حتّىٰ يكون الشيطان هو المدحور»[(١)] .

وهذه الرواية واضحة في استعمال كـلمتي: (الاسـتغفار والتـوبة) ككـلمتين مترادفتين، فيقول الرسول ﷺ: «كلّما أذنبت استغفر الله » ويرتّب عليه بعد ذلك قوله: « فلا تزال تتوب حتّىٰ يكون الشيطان هو المدحور ».

٣ ـ ما عن فضل بن عثمان المرادي قال : « سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : قال رسول الله ﷺ: أربع من كنَّ فيه لم يهلك علىٰ الله بـعدهنَّ إلّا هـالك: يـهمُّ العـبد بالحسنة فيعملها، فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيّته، وإن هو عملها كتب الله له عشراً. ويهمُّ بالسيّئة أن يعملها، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء، وإن عملها أُجِّل سبع ساعات. وقال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات وهو صاحب الشمال: لا تعجل عسىٰ أن يتبعها بحسنة تمحوها؛ فإنَّ الله ـ عزَّوجلَّ ـ يقول : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ...﴾[(٢)] أو الاستغفار؛ فإن هو قـال: أسـتغفر الله الذي لا إلٰه إلّا هو، عالم الغيب والشهادة، العزيز الحكيم، الغـفور الرحـيم، ذا الجـلال والإكرام، وأتوب إليه، لم يكتب عليه شيء، وإن مضت سبع ساعات ولم يـتبعها بحسنة واستغفار، قال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات: اكتب عـلىٰ الشـقيِّ المحروم»[(٣)] .

---

(١) وسائل الشيعة ١٦ / ٨١، الباب ٨٩ من جهاد النفس، الحديث ٥.

(٢) السورة ١١، هود، الآية: ١١٤.

(٣) أُصول الكافي ٢ / ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

فترى الرواية عبَّرت أوّلاً بالاستغفار، ثُمَّ ترجمت ذلك بقوله: أستغفر الله... وأتوب إليه.

٤ـ نرى أنَّ مضموناً واحداً يُجعل في حديث دائراً نفياً وإثباتاً مدار الاستغفار وعدمه، وفي حديث آخر دائراً نفياً وإثباتاً مدار التوبة، وعدمها، ممَّا يوحي إلى استعمال الكلمتين بمعنى واحد:

ففي حديث عبدالصمد بن بشير، عن أبي عبدالله عليه السلام: «العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجَّله الله سبع ساعات، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتب عليه سيِّئة»[1].

وفي حديث حفص، عن أبي عبدالله عليه السلام: «ما مؤمن يذنب ذنباً إلّا أجَّله الله سبع ساعات من النهار، فإن هو تاب لم يكتب عليه شيء، وإن هو لم يفعل كتب عليه سيِّئة...»[2].

بل وقد يقصد بالدعاء والاستغاثة بطلب النجاة من تبعات الذنب الدنيوية ـ أيضاً ـ ما يلازم التوبة، وأظنُّه المقصود بالحديث الوارد بشأن قارون وأصحابه: «وعزَّتي وجلالي لو إيَّاي دعوني مرَّة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً...».

وبما أنَّ هذا الحديث طريف ويبعث بالرجاء والأمل يناسب أن أذكره هنا وهو كالتالي:

لمَّا اتَّهم قارونُ موسىٰ عليه السلام: بالفحشاء، وكذَّبته الامرأة التي كانت قد اتَّفقت مسبقاً مع قارون في قذفه بالزنا بها لقاء مالٍ من قارون، خرَّ موسى ساجداً يبكي ويقول: «... يا ربِّ إنَّ عدوَّك قد آذاني، وأراد فضيحتي وشيني، اللَّهمَّ فإن كنت رسولك فاغضب لي وسلِّطني عليه، فأوحى الله ـ سبحانه ـ أن ارفع رأسك، ومرِ

---

(١) وسائل الشيعة ١٦ / ٦٦، الباب ٨٥ من جهاد النفس، الحديث ٥.

(٢) المصدر السابق: الحديث ٦.

الأرض بما شئت تطعك، فقال موسىٰ: يا بني إسرائيل، إنَّ الله ـ تعالىٰ ـ قد بعثني إلىٰ قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليثبت مكانه، ومن كان معي فليعتزل. فاعتزلوا قارون ولم يبقَ معه إلّا رجلان، ثُمَّ قال موسىٰ عليه السلام: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلىٰ كعابهم، ثُمّ قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلىٰ ركبهم، ثُمَّ قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلىٰ حقوهم، ثُمَّ قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلىٰ أعناقهم، وقارون وصاحباه في كلِّ ذلك يتضرَّعون إلى موسى عليه السلام، ويناشده قارون بالله والرحم حتّىٰ روي في بعض الأخبار أنَّه ناشده سبعين مرَّة، وموسى في جميع ذلك لا يلتفت إليه لشدَّة غضبه. ثُمّ قال: يا أرض خذيهم، فانطبقت عليهم الأرض. فأوحىٰ الله سبحانه إلىٰ موسىٰ: يا موسىٰ، ما أفظَّك! استغاثوا بك سبعين مرَّة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزَّتي وجلالي لو إيَّاي دعوني مرَّة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً »[١].

وأمَّا العفو عن الصغائر فقد دلَّت عليه الآية المباركة كما مضىٰ مقيَّدة باجتناب الكبائر، ولا أحد ممَّن يرتكب صغيرة يستطيع أن يضمن أنّه لن تصدر عنه كبيرة إلىٰ آخر العمر، ومن ثَمَّ لا يضمن العفو عن تلك الصغيرة، كما لا يستطيع أن يضمن عدم جرِّ تلك الصغيرة إيَّاه إلىٰ الإصرار أو إلىٰ الكبائر.

وعليه فالعفو عن الصغيرة ليس قطعيّاً؛ لعدم قطعيَّة المعلَّق عليه، ومن ثمَّ ليس المفروض به أن يوجب الجرأة علىٰ المعصية إلَّا بسوء الاستفادة من قبل نفس العاصي.

وأمَّا العفو عن اللمَم فقد دلَّت عليه الآية المباركة الماضية.

وعمدة المحتملات في اللمَم المستفادة من كتاب لسان العرب ثلاثة :

١ ـ أن يكون معنىٰ اللمَم: مقاربة المعصية من غير مواقعة.

---

(١) بحار الأنوار ١٣ / ٢٥٧.

٢ـ أن يكون بمعنىٰ: صغار الذنوب.

٣ـ أن يكون معنىٰ الإلمام: أنّك تأتي بشيء في وقت ولا تقيم عليه ولا تصرُّ، وكأنَّ المقصود: أنَّك تبتلىٰ صدفة بمعصية ثُمَّ تتركها وتتوب عنها، وقد تبتلىٰ بها صدفة مرَّة أُخرىٰ من دون أن تصرَّ عليها.

والذي دلَّت عليه الروايات هو المعنىٰ الثالث، وذلك من قبيل ما عن محمَّد بن مسلم، عن الصادقعليه السلام قلت له: «أرأيت قول الله عزَّوجلَّ: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللمَمَ**...﴾ قال: هو الذنب يلمُّ به الرجل فيمكث ما شاء الله، ثُمَّ يلمُّ به بعد»[1].

وما عن إسحاق بن عمَّار في حديث، عن الصادقعليه السلام «... سألته عن قول الله عزَّوجلَّ ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللمَمَ**...﴾ قال: الفواحش: الزنا والسرقة، واللمَم الرجل يلمُّ بالذنب فيستغفر الله منه»[2] ونحوهما غيرهما[3].

وعلىٰ أيِّ حال، فالإشكال الماضي هنا ـ أيضاً ـ غير مسجَّل. أمَّا علىٰ التفسير الأوّل فواضح. وأمَّا علىٰ التفسير الثاني فلرجوعه إلى العفو عن الصغائر، فالجواب نفس الجواب الذي ذكرناه عن الإشكال في العفو عنها.

وأمَّا علىٰ التفسير الثالث وهو الصحيح فلأنَّه من الواضح أنَّ من يريد أن يواقع الخطيئة لا يثق بأنَّها سوف تكون من اللمَم، ولا بأنَّه حينما يموت لن يكون عليه شيء غير اللمَم من الكبائر والفواحش حتّىٰ يكون اللمَم مغفوراً له.

وأمَّا أنَّ الحسنة تذهب السيِّئة كما قال الله تعالىٰ: ﴿**أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً**

---

(١) أُصول الكافي ٢ / ٤٤١، كتاب الإيمان والكفر، باب اللمَم، الحديث ١، والآية: ٣٢ في السورة ٥٣، النجم.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٤٢، الحديث ٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٤١ ـ ٤٤٢.

مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[١] فالذي يبدو لي من هذه الآية المباركة ـ والله أعلم بمقصوده ـ أنَّه ليس المقصود كون الحسنة موجبة للعفو عن السيِّئة من دون تبدل الحال كي يثمر ذلك الجرأة وعدم المبالاة بالذنب؛ فإنَّ الآية فرضت الحسنة مُذهِبة لنفس السيِّئة لا موجبة للعفو عن العقاب فحسب.

والمقصود بإذهابها للسيِّئة ـ والله العالم ـ هو: محو أثر السيِّئة علىٰ النفس، فكما أنَّ السيِّئة تحدث السواد علىٰ القلب أو تؤثِّر في القلب أسرع من تأثير السكِّين في اللحم كما مضىٰ، كذلك الحسنة تُصقل القلب وتبدِّل الحال، وبقدر تبدّل الحال يرتفع العقاب، فهذه درجة من التوبة والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ.

فإذا فسِّرت قاعدة: أنَّ الحسنات يذهبن السيِّئات بهذا التفسير، فأثرها كأثر قبول التوبة: إنَّما هو إعطاء الأمل للمؤمن المذنب لا الجرأة. أمَّا الذي يستغلّها في سبيل الجرأة علىٰ المعاصي، فهذا يعني سوء الاستفادة من وصفة الطبيب، كمن يسيء الاستفادة من فكرة التوبة. وليس هذا عيباً في وسائل المغفرة.

وأمَّا العفو المعلَّق علىٰ مشيئة الله في الآيتين الماضيتين، فمن الواضح أنَّه نتيجة تعليقه علىٰ مشيئة الله وعدم تنجيزه لاتثمر الجرأة، إلّا لمن يريد أن يسيء الاستفادة من هذه الوصفات.

وأمَّا الشفاعة فلا إشكال في أنَّ الاعتقاد بها من أعظم المحفِّزات نحو الخير وكسب السعادة والكمال؛ لما قلنا من : أنَّ المنهمك في المعاصي وبالذات في الكبائر لو أصابه اليأس انسدَّ عليه باب النجاة، ولكن الاعتقاد بالشفاعة يدفع عنه اليأس، ويفتح له باب الأمل الذي لولاه لما تحرَّك نحو الخير.

وأمَّا كون الاعتقاد بالشفاعة موجباً للهلاك؛ لأنَّه يجرِّئ العبد علىٰ المعصية، فليس إلّا كتأثير الاعتقاد بالتوبة في بعض النفوس في إيجاد الجرأة له علىٰ

---

(١) السورة ١١، هود، الآية: ١١٤.

الذنوب، بأمل أنَّه سوف يتوب عنها فتضمحلُّ. وهذا في الحقيقة ـ كما قلنا ـ ليس مشكلة التوبة أو الشفاعة، بل هي مشكلة كيفيَّة استعمال هذه الفكرة في غير محلِّها، فكما نقول في التوبة بأنَّ الاعتماد عليها في ارتكاب الذنوب من أعظم الأخطاء؛ لأنَّه:

أوّلاً: إنَّ التوبة أصعب من ترك الذنب؛ لأنَّ القلب إذا قسىٰ بالذنب كان رجوعه إلىٰ الهُدىٰ أصعب من استمراره علىٰ الهدى قبل القسوة.

وثانياً: إنَّ إمهال الموت للوصول إلىٰ التوبة غير مضمون.

وثالثاً: إنَّ الذنب قد يجرُّ الإنسان إلىٰ ذنب آخر، ثُمَّ ينجرُّ إلىٰ ذنب ثالث، وهكذا إلىٰ أن يغطِّي السواد قلبه، وعندئذٍ لا يرجع إلى الخير أبداً، كذلك نقول في الشفاعة:

أوّلاً: إنَّ الشفاعة لم تكن مضمونة لأحد؛ لأنَّها مقيَّدة ـ كما سوف يأتي إن شاء الله ـ في الآيات بإذن الله سبحانه وتعالىٰ.

وثانياً: إنَّ الذنب بأمل الشفاعة قد يجرُّ الإنسان نحو ذنب آخر، وهكذا إلىٰ أن يخرج صاحبَه من قابلية نيل الشفاعة.

وثالثاً: إنَّ الشفاعة قد تقع بعد دخول النار أو قبله، وبعد تحمُّل شدائد القيامة التي تذهل لها كلُّ مرضعة عمَّا أرضعت، وتضع كلُّ ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، فحتّىٰ لو فُرِضت قطعيَّة الشفاعة لأحد فالمفروض به أن تحجزه شدائد عرصات يوم القيامة ومسألة البرزخ عن المعاصي، ولو لم يكن إلّا الموت لكفى، فكيف وما بعد الموت أمرُّ وأدهىٰ.

أمَّا الدليل علىٰ الشفاعة فهو:

أوّلاً: التصريح بذلك في آيات كثيرة كقوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿... مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ...﴾[1].

---

(١) السورة ١٠، يونس، الآية: ٣.

٢ ـ ﴿... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ...﴾[١] .

٣ ـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾[٢] .

٤ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[٣] .

٥ ـ ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ...﴾[٤] .

٦ ـ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَىٰ﴾[٥] .

٧ ـ ﴿... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ...﴾[٦] .

وثانياً: الروايات التي هي فوق التواتر، نشير إلى نزر يسير منها:

١ ـ ما رواه السيّد الطباطبائي رحمه الله في تفسيره[٧] عن أمالي الصدوق رحمه الله، عن ن خالد، عن الرضا عليه السلام، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال ر الله صلى الله عليه وآله: مَن لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي. ومَن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي. ثُمَّ قال صلى الله عليه وآله: إنَّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمَّتي. فأمَّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل. قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله، فما معنىٰ قول الله عزَّوجلَّ: ﴿... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ...﴾[٨] ؟ قال عليه السلام: لا يشفعون إلّا لمن ارتضىٰ الله دينه».

---

(١) السورة ٢١، الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٢) السورة ١٩، مريم، الآية: ٨٧.

(٣) السورة ٢٠، طه، الآية: ١٠٩.

(٤) السورة ٣٤، سبأ، الآية: ٢٣.

(٥) السورة ٥٣، النجم، الآية: ٢٦.

(٦) السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٧) تفسير الميزان ١ / ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٨) السورة ٢١، الانبياء، الآية: ٢٨.

قال السيّد الطباطبائي﵀ في ذيل نقله لهذا الحديث: قوله: «... إنّما شفاعتي ...» هذا المعنىٰ رواه الفريقان بطرق متعدّدة عنه ﷺ.

٢ـ ما رواه ـ أيضاً ـ السيّد الطباطبائي﵀ في تفسيره [١] عن تفسير العيّاشي، عن سماعة بن مهران، عن أبي إبراهيم﵇ في قول الله: ﴿... **عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾[٢] قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً، ويؤمر الشمس فيركب علىٰ رؤوس العباد، ويلجمهم العرق، ويؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئاً، فيأتون آدم، فيستشفعون منه، فيدلّهم علىٰ نوح، ويدلّهم نوح علىٰ إبراهيم، ويدلّهم إبراهيم علىٰ موسىٰ، ويدلّهم موسىٰ علىٰ عيسىٰ، ويدلّهم عيسىٰ فيقول: عليكم بمحمّد خاتم الرسل، فيقول محمّد ﷺ: أنا لها، فينطلق حتّىٰ يأتي باب الجنّة، فيدقّ فيقال له: من هذا؟ والله أعلم، فيقول: محمّد، فيقال: افتحوا له، فإذا فتح الباب استقبل ربّه فخرّ ساجداً، فلا رفع رأسه حتّىٰ يقال له: تكلّم وسل تعط، واشفع تشفّع، فيرفع رأسه، ويستقبل ربّه فيخرّ ساجداً، فيقال له مثلها، فيرفع رأسه حتّىٰ أنّه ليشفع من قد أُحرق بالنار. فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأُمم أوجه من محمّد ﷺ، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿... **عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾.

قال السيّد الطباطبائي﵀ في ذيل نقله لهذا الحديث: «أقول: وهذا المعنىٰ مستفيض مرويّ بالاختصار والتفصيل بطرق متعدّدة من العامّة والخاصّة، وفيها دلالة علىٰ كون المقام المحمود في الآية هو مقام الشفاعة، ولا ينافي ذلك كون غيره ﷺ من الأنبياء وغيرهم جائز الشفاعة؛ لإمكان كون شفاعتهم فرعاً لشفاعته فافتتاحها بيده ﷺ».

---

(١) تفسير الميزان ١ / ١٧٥.

(٢) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٧٩.

٣ـ ما رواه ـ أيضاً ـ السيّد الطباطبائي رحمه الله في تفسيره[١] عن تفسير الفرات، عن محمّد بن القاسم بن عُبيد معنعناً، عن بشر بن شريح البصري، قال: «قلت لمحمّد بن عليٍّ عليه السلام: أيّة آية في كتاب الله أرجىٰ؟

قال: فما يقول فيها قومك؟

قلت: يقولون: ﴿... يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ...﴾[٢].

قال: لكنّا أهل البيت لا نقول ذلك.

قال: قلت: فأيُّ شيء تقولون فيها؟

قال: نقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[٣]: الشفاعة والله، الشفاعة والله، الشفاعة».

٤ـ ما عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: أما إنّ من شيعة عليٍّ عليه السلام لمن يأتي يوم القيامة وقد وضع له في كفّة سيّئاته من الآثام، ما هو أعظم

---

(١) تفسير الميزان ١ / ١٧٦.

(٢) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٥٣. وكأنّ من اعتقد كون هذه الآية أرجىٰ آية انطلق من نقطة وعد هذه الآية بمغفرة الذنوب جميعاً؛ إذ قالت ﴿...إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ في حين أنّ ذيل الآية واضح في كون هذه الآيات راجعة إلى التوبة، فقد جاء عقيب هذه الآية مباشرة قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ولسبب كون هذه الآية من آيات التوبة لا المغفرة المطلقة، لم يستثن منها الشرك كما استثني في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ...﴾ السورة ٤، النساء، الآية: ٤٨.

(٣) السورة ٩٣ الضحى، الآية: ٥. وقد مضت في النقطة الثالثة من الحلقة الثانية رواية أُخرىٰ في تعيين أرجىٰ آية، بآية ﴿إِنَّ الحَسناتِ يُذهِبنَ السَّيّئاتِ﴾.

من الجبال الرواسي والبحار السيّارة، تقول الخلائق: هلك هذا العبد، فلا يشكّون أنّه من الهالكين، وفي عذاب الله من الخالدين، فيأتيه النداء من قبل الله تعالىٰ: يا أيُّها العبد الجاني هذه الذنوب الموبقات فهل بإزائها حسنة تكافئها وتدخل الجنَّة برحمة الله، أو تزيد عليها فتدخلها بوعد الله؟

يقول العبد : لا أدري، فيقول منادي ربِّنا عزَّ وجلَّ: إنَّ ربِّي يقول: نادِ في عرصات يوم القيامة: ألا إنَّ فلان بن فلان من بلد كذا وكذا وقرية كذا وكذا، قد رُهِنَ بسيِّئاته كأمثال الجبال والبحار ولا حسنة بإزائها، فأيُّ أهل هذا المحشر كانت لي عنده يد أو عارفة فليغثني بمجازاتي عنها، فهذا أوان شدَّة حاجتي إليها، فينادي الرجل بذلك، فأوَّلُ من يجيبه عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: لبَّيك لبِّيك لبَّيك أيُّها الممتحن في محبَّتي، المظلوم بعداوتي، ثُمَّ يأتي هو ومن معه عدد كثير وجمّ غفير وإن كانوا أقلَّ عدداً من خصمائه الذين لهم قبله الظلامات، فيقول ذلك العبد: يا أمير المؤمنين، نحن إخوانه المؤمنون، كان بنا بارَّاً، ولنا مكرماً، وفي معاشرته إيَّانا مع كثرة إحسانه إلينا متواضعاً، وقد نزلنا له عن جميع طاعاتنا، وبذلناها له، فيقول عليٌّ عليه السلام: فبماذا تدخلون جنَّة ربِّكم؟ فيقولون برحمة الله الواسعة التي لا يعدمها من والاك ووالىٰ آلك يا أخا رسول الله. فيأتي النداء من قبل الله تعالىٰ: يا أخا رسول الله، هؤلاء إخوانه المؤمنون قد بذلوا له، فأنت ماذا تبذل له؟ فإنِّي أنا الحكم ما بيني وبينه من الذنوب قد غفرتها له بموالاته إيَّاك، وما بينه وبين عبادي من الظلامات فلا بدَّ من فصلي بينه وبينهم، فيقول عليٌّ عليه السلام: يا ربِّ أفعل ما تأمرني، فيقول الله: يا عليُّ، اضمن لخصمائه تعويضهم عن ظلاماتهم قِبله، فيضمن لهم عليٌّ عليه السلام ذلك، ويقول لهم: اقترحوا عليَّ ما شئتم أُعطكم عوضاً من ظلاماتكم قِبله، فيقولون : يا أخا رسول الله، تجعل لنا بإزاء ظلاماتنا قِبله ثواب نفس من أنفاسك ليلة بيتوتتك علىٰ فراش محمَّد صلى الله عليه وآله، فيقول عليٌّ عليه السلام: قد وهبت ذلك لكم. فيقول الله

عزَّوجلَّ: فانظروا يا عبادي الآن إلىٰ ما نلتموه من عليٍّ فداءً لصاحبه من ظلاماتكم، ويظهر لهم ثواب نفس واحد في الجنان من عجائب قصورها وخيراتها، فيكون ذلك ما يرضي الله به خصماء أُولئك المؤمنين، ثُمَّ يريهم بعد ذلك من الدرجات والمنازل ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر علىٰ بال بشر، يقولون: ربَّنا، هل بقي من جنانك شيء؟ إذا كان هذا كلُّه لنا فأين تحلُّ سائر عبادك المؤمنين والأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين؟ ويخيَّل إليهم عند ذلك أنَّ الجنَّة بأسرها قد جعلت لهم، فيأتي النداء من قبل الله تعالىٰ: يا عبادي، هذا ثواب نفس واحد من أنفاس عليٍّ بن أبي طالب الذي اقترحتموه عليه، قد جعله لكم فخذوه وانظروا، فيصيرون هم وهذا المؤمن الذي عوَّضه عليٌّ عليه السلام في تلك الجنان ثُمَّ يرون ما يضيفه الله عزَّ وجلَّ إلىٰ ممالك عليٍّ في الجنان ما هو أضعاف ما بذله عن وليِّه الموالي له ممَّا شاء من الأضعاف التي لا يعرفها غيره. ثُمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقُّوم المعدَّة لمخالفي أخي ووصيِّي عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام[1].

وقد يشتدُّ الإشكال علىٰ مثل الرواية الأخيرة ممَّا يفتح باب الشفاعة علىٰ مصراعيه مع وضوح كونها قبل دخول النار: بأنَّها توجب الجرأة علىٰ المعاصي، ولكنَّ الجواب ما مضىٰ: من أنَّ هذه الشفاعة قد تكون في نهايات يوم القيامة، وشدائد القيامة لا تطاق، والنجاة عنها يكون بالعمل، إلىٰ سائر الأجوبة التي مضى ذكرها.

٥ ـ ما عن أبي بصير قال: « سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنَّ قوماً يُحرقون بالنار حتّىٰ إذا صاروا حمماً أدركتهم الشفاعة، قال: فينطلق بهم إلى نهر يخرج من رشح أهل الجنّة فيغتسلون فيه، فتنبت لحومهم ودماؤهم، وتذهب عنهم قشف النار،

---

(١) بحار الأنوار ٨ / ٥٩ ـ ٦١، و ٦٨ / ١٠٧ ـ ١٠٩.

ويدخلون الجنَّة، فيسمَّون: الجهنَّميِّين، فينادون بأجمعهم: اللَّهمَّ أذهب عنَّا هذا الاسم، قال: فيذهب عنهم، ثُمَّ قال: يا أبا بصير، إنَّ أعداء عليٍّ هم الخالدون، لا تدركهم الشفاعة»[١].

٦ ـ ما عن إبراهيم بن إسحاق النهاوندي، قال: قال الرضاعليه‌السلام: «مَنْ زارني علىٰ بُعد داري ومزاري أتيته يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتّىٰ أُخلِّصه من أهوالها: إذا تطايرت الكتب يميناً وشمالاً، وعند الصراط، وعند الميزان»[٢].

ثُمّ إنَّ الشفاعة تقسَّم من قبل بعض إلىٰ قسمين:

الأوّل: ما قد يُسمَّىٰ بشفاعة القيادة، أو شفاعة العمل.

وليس هذا في الحقيقة عفواً إضافيَّاً علىٰ ما يقتضيه نفس عمل الإنسان من العفو، وأملاً جديداً للعبد العاصي زائداً علىٰ أعماله وتوبته وحسناته، وإنَّما يُسمَّى القرآن مثلاً أو المعصومعليه‌السلام شفيعاً باعتبار أنَّ العمل بالقرآن أو بإرشادات المعصوم هو الذي شفع للإنسان، وأعان الإنسان علىٰ عفو الله تعالىٰ عن سيِّئاته، أو علىٰ رفع درجاته فكان القرآن أو المعصوم هو الخيط بينه وبين الله. والظاهر أنَّ هذه الشفاعة هي المقصودة بما ورد عن النبيِّصلى‌الله‌عليه‌وآله من قوله: «لا شفيع أنجح من التوبة...»[٣] كما فسَّر بعض بهذا التفسير[٤] الشفاعة الواردة بشأن القرآن، وذلك من قبيل: ما عن النبيِّصلى‌الله‌عليه‌وآله: «إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل فعليكم بالقرآن؛ فإنّه شافع مشفَّع، وماحل مصدَّق. ومن جعله أمامه قاده إلىٰ الجنَّة، ومن جعله

---

(١) بحار الأنوار ٨ / ٣٦١.

(٢) وسائل الشيعة: ١٤ / ٥٥١، الباب ٨٢ من المزار، الحديث ٢.

(٣) بحار الأنوار ٨ / ٥٨.

(٤) راجع منشور جاويد للشيخ جعفر السبحاني ٨ / ٦٥، وعدل الهى للشيخ المطهري: ص ٢٤٤.

خلفه ساقه إلىٰ النار...»[١] بل وفُسِّر أيضاً بذلك[٢] قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[٣].

وعلىٰ أيٍّ حال، فهذه الشفاعة ليست هي المقصودة بأكثر أدلَّة الشفاعة، ولا هي الظاهرة منها؛ فإنَّ الشفاعة أصلها من الشفع في مقابل الوتر، وبمعنى الانضمام إلىٰ الشخص لمعونته. فهي تنصرف عن حيطة آثار عمله إلّا بمقدار خلق أصل الأرضيَّة للشفاعة؛ إذ ليس كلُّ إنسان فيه أرضيَّة قبول الشفاعة، وهذه الأرضيَّة رهينة لعمل الإنسان. وهذه الشفاعة ليست مورداً لشيء من الإشكالات التي أَوردها منكرو الشفاعة، وليست مقصودة لهم.

الثاني: ما قد يُسمَّىٰ بشفاعة المغفرة، أو شفاعة رفع الدرجات.

والمقصود بها: المعونة التي تأتي للإنسان من قبل أهل الشفاعة للعفو أو لزيادة الدرجات، زائداً علىٰ ما كانت تقتضيه أعمال الإنسان لولا الشفاعة. وهذا هو الذي يبعث بأمل جديد في نفوس العاصين والمذنبين، وكذلك في نفوس المؤمنين ولو بلحاظ رفع الدرجات. وقوله صلى الله عليه وآله: «إنَّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمَّتي، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل»[٤] ناظر إلىٰ شفاعة المغفرة دون شفاعة رفع الدرجات[٥].

---

(١) أُصول الكافي ٢ / ٥٩٩ كتاب فضل القرآن.

(٢) راجع عدل الهى: ٢٤٠.

(٣) السورة ١٧، الإسراء، الآية: ٧١.

(٤) بحار الأنوار ٨ / ٣٤.

(٥) تفسَّر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله لسائر الأنبياء المعصومين المستفادة من إطلاق بعض الروايات ـ كما في تفسير القمّي في تفسير قوله تعالىٰ في السورة ٣٤، سبأ، الآية: ٢٣ ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...﴾ : ما أحد من الأوّلين والآخرين إلّا وهو محتاج إلىٰ شفاعة محمَّد صلى الله عليه وآله يوم القيامة ـ بمعنىٰ شفاعة رفع الدرجات.

وقد فسِّرت هذه الشفاعة بعدّة تفاسير:

التفسير الأوّل: افتراض هذه الشفاعة أمراً شكليّاً بحتاً، فإنَّ هناك من سَلَب التأثير عن الشفاعة علىٰ الإطلاق، وجعله مجرّد عمل شكلي وإكرام من الله للشفيع في الوساطة الشكليَّة فقال: إنَّ الشفاعة إنَّما هي بالشكل فقط، وليست حالة وساطة بالمعنىٰ الذي يفهمه الناس في علاقاتهم بالعظماء؛ حيث يلجؤون إلى الأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة مودَّة، أو مصلحة معيَّنة، أو موقع معيَّن ليكونوا الواسطة في إيصال مطالبهم وقضاء حوائجهم عنده. إنَّ الشفاعة هي: كرامة من الله لبعض عباده فيما يريد أن يظهره من فضلهم في الآخرة، فيشفِّعهم فيمن يريد المغفرة له ورفع درجته عنده؛ لتكون المسألة في الشكل وساطة في النتائج التي يتمثَّل فيها العفو الإلّهي الربَّاني تماماً كما لو كان النبيُّ السبب، أو الوليُّ هو الواسطة[1].

---

(١) من وحي القرآن ٢٥ / ٦٦ ـ ٦٩.

ونصّ عبارته ما يلي:

أمّا الشفاعة التي جاء الحديث عنها في الروايات المتعدّدة عن السنّة والشيعة فإنّها ليست حالة وساطة بالمعنىٰ الذي يفهمه الناس في علاقاتهم بالعظماء لديهم الذين قد لا يستطيع الناس مخاطبتهم بشكل مباشر للحواجز المادّيّة الفاصلة بينهم وبين الناس ولذلك يلجأ الناس إلى الأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة مودّة أو مصلحة أو موقع معيّن ليكونوا الواسطة في إيصال مطالبهم إليهم وقضاء حوائجهم عنده.

إنّ الشفاعة هي كرامة من اللّه لبعض عباده فيما يريد أن يظهره من فضلهم في الآخرة فيشفعهم فيمن يريد المغفرة له ورفع درجته عنده لتكون المسألة ـ في الشكل ـ واسطة في النتائج التي يتمثّل فيها العفو الإلّهي والنعيم الربّاني تماماً كما لو كان النبي هو السبب أو كان الوليّ هو الواسطة ولكنها ـ في العمق ـ إرادة اللّه لذلك ممّا لا يمكن لنبيّ مرسل أو ملك مقرّب أو وليّ امتحن اللّه قلبه للإيمان أمر تغييرها في الاتجاه الذي تتحرك فيه، وبذلك فهم يدرسون مواقع رضا اللّه في عباده ليقوموا بالشفاعة أو ليأذن اللّه لهم بالشفاعة. وفي ضوء ذلك لا معنىٰ للتقرب للأنبياء والأولياء ليحصل الناس علىٰ شفاعتهم؛ لأنّهم لا يملكون من أمرها شيئاً بالمعنى

←

أقول: إنّ الشفاعة الشكليَّة ينبغي أن يُطيَّب بها خاطر الأطفال ويُكرَموا بـها، لا خاطر الأنبياء والأوصياء والأولياء، وافتراضها مقاماً محموداً، وكيف يمكن أن تكون الشفاعة التي خُصَّت بأهل الكبائر «... فأمّا المـحسنون فـما عـليهم مـن سبيل...» أمراً شكليّاً، وأيُّ مشكلة في شمول الشفاعة الشكليَّة لأهل الصغائر ؟؟!

ولعلَّ الذي دعا هذا الشخص إلىٰ افتراض شكليَّة الشفاعة عجزه عن حلٍّ ما سوف تأتي الإشارة إليه من إشكالات الشفاعة.

إلَّا أنَّه عندئذٍ يكون إنكار الشفاعة ـ لا سمح الله ـ أكثر منطقيَّة من افـتراض شكليَّتها.

←

الذاتي المستقلّ، بل اللّه هو المالك لذلك كلّه علىٰ جميع المستويات، فهو الذي يأذن لهم بذلك في مواقع محدّدة ليس لهم أن يتجاوزوها. الأمر الذي يفرض التقرب إلى اللّه في أن يجعلنا ممّن يأذن لهم بالشفاعة له. وهذا هو الذي نفهمه من آيات الشفاعة في القرآن التي تؤكّد علىٰ أنّها قضية تتصل باللّه فليس لأحد أن يمارسها إلّا بإذنه فيمن ارتضاهم اللّه لينالوا عفوه. قال اللّـه تعالىٰ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ (١٩ / ٨٧)، ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ﴾ (٢٠ / ١٠٩)، ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَـهُ﴾ (٣٤ / ٢٣)، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، وليس معنىٰ إذن اللّه للشفعاء أنّه أعطاهم الحرّيّة في ذلك أو أنّه يتقبّل منهم ذلك علىٰ أساس خصوصيات علاقاتهم ليتقرب الناس منهم بالوسائل الخاصّة التي تثير مشاعرهم وتؤكّد علاقاتهم بهم بشكل شخصي، كما هي الأشياء الشخصيّة، بل إنّ معنىٰ ذلك أنّ اللّه جعل لهم هذه الكرامة ليستعملوها فيما يوافق رضاه؛ لأنّ المفروض أنّ رضاهم لا ينفصل عن خطّ رضاه، كما أنّ رضاه يتحرّك في آفاق حكمته لا في آفاق رغبات القريبين إليه بالمعنى الذاتي للمسألة. وفي ضوء ذلك فإنّ الاستشفاع بالأنبياء والأولياء لا يمثّل خروجاً عن توحيد الاستعانة باللّه؛ لأنّه يرجع في الحقيقة إلى طلب المغفرة من اللّه والنجاة من النار من خلال ما اقتضته إرادة اللّه وحكمته في ارتباط عفوه بشفاعة هذا النبيّ أو الوليّ علىٰ أساس ما أراده اللّه من حكمته في ذلك.

انتهى نصّ عبارته.

التفسير الثاني: أنَّ الشفاعة وإن كانت مؤثِّرة تأثيراً حقيقيّاً، وليست أمراً صوريّاً كما فُرِض في التفسير الأوَّل إلَّا أنَّ هذه الشفاعة طريق تكوينيٌّ لنزول الرحمة والمغفرة والتطهير من قبل الله تعالىٰ إلى العبيد، فهي أمر يبدأ من الله وينتهي إلى العاصي عن طريق الأنبياء والأوصياء والأولياء والمؤمنين، بخلاف ما هو المتعارف في الدنيا من الشفاعة بين الناس ممَّا يبدأ بالعاصي بطلبه الشفاعة من الوسيط وينتهي بمن كان له العقاب، والوسيط يؤثِّر فيمن له العقاب في عفوه عن الذنب ورفع العقاب عنه.

وبهذا البيان يدفع صاحبه الإشكالات الثبوتيَّة علىٰ الشفاعة بحجَّة أنَّ الشفاعة التي توجب خلاف العدل، أو التبعيض بين المذنبين من دون فارق أو نقض القانون، أو تأثُّر المشفوع إليه بالشفيع، أو أن يقال: إنَّ هذا ينافي التوحيد، أو يستلزم كون الشفيع أرحم من الله، أو ما إلىٰ ذلك، إنَّما هي الشفاعة التي تبدأ من العاصي وتنتهي بالمشفوع إليه، وليست الشفاعة التي تبدأ من الله تعالىٰ وتنتهي إلى العصاة.

وحاصل الفكرة: أنَّ المغفرة من الله تعالىٰ والرحمة منه مباشرة، إلَّا أنَّ النعم المعنويَّة أمثال المغفرة والرحمة والتطهير عن الذنوب ورفع الدرجات، حالها حال النعم الماديَّة كالرزق والشفاء وما إلىٰ ذلك، فكما أنّ النعم الماديّة إنَّما تنزل علىٰ الإنسان بأسباب ووسائط كالشمس والمطر والهواء والتراب والماء والدواء وما إلىٰ ذلك.

ابر و باد و مه و خورشيد و فلك در كارند

تا تو نانى بكف آرىّ و بغفلت نخورى

كذلك النعم المعنويَّة لا تصل إلىٰ الإنسان إلَّا عن طريق وسائط: وهم الأنبياء والأوصياء والأولياء والكمَّلون والمؤمنون[١].

---

(١) راجع عدل الهى للشيخ المطهري: ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

بل به يدفع ـ أيضاً ـ الإشكال الإثباتي على الشفاعة بلحاظ آيات نفي الشفاعة ببيان: أنَّ آيات نفي الشفاعة تقصد نفي الشفاعة المألوفة في الدنيا، والتي تبدأ بالعاصي وتنتهي بالمشفوع إليه، وآيات الشفاعة تقصد الشفاعة الصحيحة التي تبدأ بالله وتنتهي بالعصاة[1].

إلَّا أنَّ هذه الشفاعة ليس فيها أمل جديد للعاصي غير نفس أمل سعة رحمة الله عزَّ وجلَّ.

وعلى أيِّ حال، فهذه الشفاعة خلاف ظاهر أكثر أدلَّة الشفاعة؛ فإنَّها تنصرف ـ بقطع النظر عن الإشكالات ـ إلى الشفاعة المألوفة في هذه الدنيا، وهي: العفو عن المذنب لأجل الشفيع، لا العفو الذي كان المفروض أن ينزل على المذنب ولكنَّه لم يرَ طريقاً للنزول إلَّا بتوسُّط الشفيع، وذلك من قبيل توسط الشمس والتراب في وصول الأرزاق إلينا.

وهنا أيضاً لا أرى مبرِّراً لمصير من صار إلى تفسير الشفاعة بذلك عدا عجزه عن حلِّ الإشكالات التي توجَّه إلى الشفاعة بالمعنى المألوف.

التفسير الثالث: ما أشرنا إليه آنفاً من الشفاعة المألوفة في الدنيا التي هي لأجل الشفيع، أي: إنَّ الله ـ تعالى ـ إنَّما يعفو عن المذنب لا لأنَّه أراد العفو والرحمة في ذاتها، ولم يكن طريق لنزول العفو أو الرحمة إلَّا الشفعاء، فالشفعاء كانوا وسطاء في خطِّ النزول، بل كان العفو والرحمة لأجل طلب الشفيع ذلك من الله، فالشفيع وسيط في خطِّ الصعود بين العبد والله سبحانه وتعالى. وهذا هو ظاهر أدلة الشفاعة التي تحمل ـ لولا محذور ـ على نفس ما هو المفهوم والمألوف في هذه الدنيا: من أنَّ كرامة الشفيع لدى المشفوع إليه أوجبت قبول طلبه وشمول رحمة المشفوع إليه للمشفوع له. وهذا المعنى هو في غاية الظهور من مثل قوله تعالى: ﴿... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ

---

(١) المصدر السابق: ٢٥٩.

ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[١]؛ فإنَّ سياق الآية كما ترى جعل البدء بالعاصي، فهو الذي يجيء إلى النبيِّ ﷺ ويطلب منه طلب المغفرة، ثُمَّ يدعو له الرسول، ثُمَّ يجد الله توَّاباً رحيماً. وليس العكس كما يقوله صاحب التفسير الثاني.

ومثل هذه الآية في السياق ما ورد عن رسول الله ﷺ: «إذا قمتُ المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أُمَّتي، فيشفِّعني الله فيهم. والله لا تشفَّعت فيمن آذى ذرِّيتي»[٢].

وعنه ﷺ: «إنَّ الله أعطاني مسألة، فأخَّرت مسألتي لشفاعة المؤمنين من أُمَّتي يوم القيامة، ففعل ذلك»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «يا جابر، لا تستعن بعدوِّنا في حاجة، ولا تستعطه، ولا تسأله شربة ماء؛ إنّه ليمرُّ به المؤمن في النار فيقول: يا مؤمن، ألست فعلت بك كذا وكذا، فيستحيي منه فيستنقذه من النار...»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته، فيشفَّع فيهم حتّىٰ يبقىٰ خادمه، فيقول: فيرفع سبّابتيه: يا ربِّ، خويدمي كان يقيني الحرَّ والبرد، فيشفَّع فيه»[٥].

وهذا المعنىٰ من الشفاعة هو مورد الإشكالات الثبوتيَّة والإثباتيَّة التي تورد في المقام. ومَنْ عدل عن هذا المعنى للشفاعة إلى المعنى السابق، وحمل مثل هذه الآية علىٰ خلاف سياقها، إنَّما فعل ذلك لعجزه عن حلِّ تلك الإشكالات.

---

(١) السورة ٤، النساء، الآية: ٦٤.

(٢) بحار الأنوار ٨ / ٣٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق: ص ٤٢.

(٥) المصدر السابق: ص ٦١.

ونحن نقتصر هنا علىٰ ذكر أهمِّ الإشكالات التي أُوردت أو يمكن أن تـورد علىٰ الشفاعة، وهي ما يلي:

الأوّل: ما هو مسلك الوهّابيين: من أنَّ الإيمان بالشفاعة نوع شركٍ بالله تعالىٰ.

ولعلَّ هذا أتعس وجوه الإشكال في المقام؛ وذلك لأنَّ شائبة الشرك إنَّما هي فيما لو فرض أنَّ الشفاعة تكون بمعنىٰ أنّ الشفيع هو الذي يغفر ذنب العـبد فـي مقابل إرادة الله تعالىٰ، في حين أنَّ المدَّعىٰ هو: أنَّ الشفاعة تكون أساساً بإذن الله، ثُمَّ يكوز ران من الله كاستجابة لدعاء الشفيع. وهذا أبعد ما يكون من الشرك، ومنسجم تماماً مع فكرة التوحيد. وليس انسجام الشفاعة مع فكرة التوحيد متوقِّفاً علىٰ تفسيرها بكون الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ هو الذي أراد العفو، فأمر وليَّه الشـفيع بشفاعة المشفوع له، بل يكفي في ذلك افتراض كون الشفيع داعياً لله بـإذنه فـي طلب العفو للمذنب، واستجابة الله ـ تعالىٰ ـ لدعوة وليِّه سنخ استجابته لكلِّ دعاء آخر، ولو كان الإيمان بهذا شركاً لكان الإيمان بالدعاء ـ أيضاً ـ شركاً، في حين أنَّ القرآن يقول: ﴿... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...﴾[1].

والثاني: أنَّ الشفاعة تستلزم كون الشفيع أكثر رحمة من ا ى؛ لأنَّـه لولا شفاعته لما غفر الله لهذا العاصي، ولكنّ شـفاعة الشـفيع ا . شـمول العـفو والمغفرة له.

والجواب: أنَّ صفة الرحمة والشفقة بمعناهما العاطفي الراجع إلىٰ نوع من التأثُّر الإنسـاني، مـوجودةٌ فـي الشـافعين بـما فـيهم الأنـبياء والصـدِّيقون وجـميع المعصومين عليهم السلام، ولكنَّ الله تعالىٰ منزَّ ن ذلك، وإنَّما الرحمة الثابتة للربِّ تكون بمعنى مجرَّد عن شوائب التأثُّر والانكسار العاطفي، فإذا كان العاصي واصلاً في مستوى عصيانه إلىٰ حدٍّ لا يستحقُّ رحمة الربِّ تعالىٰ، ولكنَّه لم يكن واصلاً إلى

(١) السورة ٤٠، غافر، الآية: ٦٠.

مرتبة لا تشمله العطوفة التأثُّريَّة الإنسانيّة النزيهة الموجودة في الصلحاء، أو كان واصلاً إلىٰ تلك المرتبة ولكنّه لاقىٰ من العذاب ما هيّأه لشمول العطوفة الإنسانيّة له، ولم يكن بعدُ مشمولاً للرحمة الإلٰهيَّة المجرّدة عن شوائب التأثّر، اتَّجهت إليه رحمة الشفيع الإنسانيّة التي تكون ساحة الربِّ منزَّهة عنها، ولم تتَّجه إليه الرحمة الإلٰهيّة التجريديَّة. أمَّا لو كان العاصي غير واصل إلى مستوى حرمانه من تلك الرحمة التجريديَّة، فهو مشمول لرحمة الربِّ، وقد تشمله شفاعة الشفيع أيضاً. فهذا الاعتراض قد ينتج من الخلط بين رحمة الربِّ المجرَّدة عن شوائب التأثُّرات العاطفيَّة، ورحمة الشفيع الناتجة من صفة الرقّة المخصوصة بالإنسان ومنهم الشفعاء، والمنزَّهة عنه ساحة الربِّ.

وأيضاً قد يكون للعاصي حقٌّ أخلاقيٌّ علىٰ الشفيع، وهذا الحقُّ اقتضى مكافأته من قبل الشفيع بطلب العفو من الله تعالىٰ، فأصبح العفو عنه متوقِّفاً علىٰ الشفاعة.

الثالث: أنَّ الشفاعة نوع استثناء وتبعيض بين المذنبين، وهو خلاف العدل أو الحكمة.

والجواب:

أوّلاً: يمكن افتراض عدم التبعيض، وذلك بشمول شفاعة الشافعين لكلِّ مذنب بقيت له أرضيَّة الشفاعة، إمَّا ابتداءً أو بعد فترة من العذاب، ولا يحرم منها إلَّا الذي أفنت ذنوبُه أيَّ أرضيَّة وقابليَّة له للشفاعة.

وثانياً: لو فُرِض التبعيض كما لو لم تشمل شفاعة الشافعين بعض من كان بالإمكان شمولها له، لم يكن هذا خلاف العدل أو الحكمة؛ لأنَّ قبول الشفاعة من قبل الله تعالىٰ إنَّما هو مكافأة للشفيع علىٰ أعماله الصالحة، وليس مكافأة للمشفوع له كي يرجع ذلك إلى التبعيض بين المذنبين، كما أنَّ فرض تبعيض الشفيع للمذنبين المؤهَّلين لقبول الشفاعة ـ أيضاً ـ ليس قبيحاً أو خلاف الحكمة؛ فإنَّ الشفاعة

كانت فضلاً من الشفيع لا حقّاً واجباً عليه، وقد يختصُّ ملاك الفضل ـ كحقٍّ المشفوع له الأخلاقي على الشفيع ـ ببعض دون بعض.

الرابع : أنَّ القول بالشفاعة يستلزم الاعتقاد بأنَّ الله يقع تحت تأثير الشفيع، ويتبدّل غضبه بالرحمة، تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

والجواب : أنَّ الغضب والرضا بمعناهما العاطفيين البشريين الراجعين إلىٰ نوع من التأثُّر، غير موجودين في الله سبحانه وتعالىٰ؛ فإنَّه منزَّه عن الحالات الإنسانيّة الراجعة إلىٰ التبدُّلات في الحالات النفسيَّة سواءٌ الرفيعة أو الدنيئة. وأمَّا بالمعنى الممكن في الله سبحانه وتعالىٰ فهو الذي قد يُعبَّر عنه بعلمه تعالىٰ باستحقاق العبد للرضوان أو للعذاب، أو يُعبَّر عنه بالرضا وعدم الرضا المجرَّدين من شوائب التأثُّر، فلو كان العبد العاصي غير مستحقٍّ لرحمة الربِّ التجريديَّة، ولكنَّه استحقَّ عطوفة الشفيع التأثُّريَّة، لحقّ له علىٰ الشفيع أو غير ذلك، فدعا الشفيع عند الله له بالمغفرة، وشملته مغفرة الربِّ نتيجة لهذه الشفاعة ولم تكن شاملة له لولا الشفاعة، فهذه المغفرة في الحقيقة استجابة للشفيع، ومكافأة له علىٰ أعماله الصالحة، وليس تبدُّلاً للغضب بالرضا بشأن هذا المذنب، فقد أصبح المذنب في حدود ما شملته شفاعة الشفيع فحسب دون الرحمة التجريديَّة الإلٓهيَّة منعَّماً بجنَّة عرضها السماوات والأرض، لا برضوان من الله الذي هو أكبر.

والخامس : أنَّ العفو عن هذا المذنب إن كان عدلاً فلماذا يفترض عدمه لولا شفاعة الشفيع؟! وإن كان ظلماً فطلب الشفيع إيَّاه طلبٌ للظلم، ولا معنىٰ لاستجابة الله سبحانه وتعالىٰ لطلب الظلم؟!

والجواب : أنَّ هذا غفلة عن شيء ثالث غير العدل والظلم، ألا وهو الفضل، فعفوه سبحانه وتعالىٰ عن هذا المذنب فضل، وليس ظلماً ولا عدلاً «اللَّهمَّ عاملنا بفضلك، ولا تعاملنا بعدلك» والعبد قد توجد فيه أرضيَّة المعاملة بالفضل لولا

شفاعة الشفيع، وعندئذٍ سواءٌ جاءته الشفاعة أو لم تجئه يشمله فضل الربِّ تبارك وتعالىٰ، وأُخرىٰ لا توجد فيه هذه الأرضيَّة والقابليَّة؛ لأنَّ ذنوبه أفنت ذلك، وعندئذٍ يكون شمول الفضل له متوقِّفاً علىٰ أن يشفع له الشفيع؛ كي يكون هذا الفضل مكافأة لحسنات الشفيع لا لحسنات المشفوع له، وهذا معنىٰ قوله ﷺ: «...إنَّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمَّتي، فأمَّا المحسنون فما عليهم من سبيل...»[1].

وثالثة لا توجد فيه حتّىٰ أرضيَّة الشفاعة، ويكون هذا محروماً من الشفاعة.

والسادس: (وقد يكون تعميقاً للخامس): أنَّ العفو ما لم يصل إلىٰ مستوىٰ القبح فهو حسن ذاتاً، وإن كان حسناً صدر عن الله تعالىٰ سواءٌ شفع الشفيع أو لا، وإن وصل العفو إلىٰ مستوىٰ القبح لم يبق مجال للشفاعة؛ لأنَّها ـ عندئذٍ ـ طلبٌ للقبيح.

والجواب: أنَّ هناك حالةً وسطاً بشأن العاصي، وهي: أن يخرج العفو عنه عن القبح أو عن عدم الحسن في خصوص ما إذا أصبح هذا العفو مكافأة لحسنات الشفيع، فبما أنَّ العفو أصبح جزاءً للحسنات خرج عن القبح أو عن عدم الحسن، وتبدَّل الموضوع.

أمَّا إذا تجاوز حال العاصي عن هذا الشأن، وأصبح العفو عنه قبيحاً علىٰ الإطلاق أو قل (بلُغة جوابنا عن الإشكال الخامس): أصبحت أرضيّة الشفاعة وأهليّتها مفقودة بشأن العاصي، فعندئذٍ لا يأذن الله للشفاعة، ولا تقبل الشفاعة.

وإلىٰ هنا تمَّ حديثنا عن الإشكالات الثبوتيَّة للشفاعة.

وقد تحصَّل: أنَّ الشفاعة بمعناها المفهوم لدىٰ عامَّة الناس لا يرد عليها إشكال ثبوتي، اللَّهم إلَّا إذا فُرِض ضمُّ ظلم إليها كما هو متعارف لدىٰ الشفاعة عند الظالمين من عون أحد ـ بالرشا مثلاً ـ بهضم حقِّ شخص آخر، وهذا ـ طبعاً ـ غير موجود لدىٰ الله الملك العدل المبين.

---

(١) البحار ٨ / ٣٤.

والشفاعة في الحقيقة ثواب من قبل الله ـ تعالىٰ ـ للشفيع علىٰ أعماله الحسنة باستجابة طِلبته من دون إيقاع ظلم علىٰ أَحد.

بقيت في المقام إشكالات إثباتيّة علىٰ الشفاعة، نذكرها هنا مع جوابها إن شاء الله :

الأوّل : أنَّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قال في كتابه: **﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾**[1] ، والإيمان بالشفاعة بالمعنى الذي يكون بدؤه من الشفيع أو بطلب العاصي نفسه، ينافي قانون نفي كلِّ شيء للإنسان ما عدا سعيه.

والجواب : أنَّه يكفي في صدق هذا القانون أنَّ أهليَّة الشفاعة وقابليّتها إنَّما تكون بسعي الإنسان. وهذا أمر وسط بين القول بأنَّ الشفاعة لا تعني إلَّا كون الشفيع مجرّد واسطة في نزول الرحمة وأنَّ إرادة العفو والرحمة من الله تبدأ من الله، ومن دون دخل إرادة الشفيع في ذلك، والقول بأنَّ الشفاعة ثابتة بلا أيِّ علاقة لعمل العبد بذلك، فتصحُّ الشفاعة بشأن كلِّ أحد، فالحقُّ المستفاد من الآيات والروايات هو: أنَّ الشفيع يعطىٰ كجزاء راجع إلى حسناته إذناً في الشفاعة، وله ـ عندئذٍ ـ حقُّ الشفاعة لكلِّ من فيه أهليَّة قبول الشفاعة. وهذه الأهليَّة مرتبطة تمام الارتباط بعمل المشفوع له وحفظه هو هذه الأهليَّة لنفسه، فصحَّ أنّ ليس للإنسان إلَّا ما سعىٰ. ولولا هذا الجواب لأشكل عفو الله أيضاً؛ لأنَّ عفوه ومغفرته أمر زائد علىٰ عمل العبد، في حين أنَّ مَن يعترض علىٰ الشفاعة لا يعترض علىٰ أصل عفو الله ومغفرته الثابتين بصريح القرآن والروايات الكثيرة.

والثاني : أنَّ بعض الآيات تنفي تدخل أيِّ شيء، أو أيِّ نفس علىٰ العموم في شأن العبد يوم القيامة سوىٰ الله تعالىٰ، فهو بيده الأمر وحده كقوله تعالىٰ: **﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾**[2] .

---

(١) السورة ٥٣، النجم، الآية: ٣٩.

(٢) السورة ٨٢، الانفطار، الآية: ١٩.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ...﴾[(١)].

والجواب عنه: أنَّه يكفي في صدق عنوان عدم امتلاك نفس شيئاً أو عدم كون أحدٍ عاصماً من الله، أنَّ العفو إنَّما هو بيد الله لا بيد الشفيع، وإنَّما شأن الشفيع أن يطلب من الله عفوه، أمَّا قبوله أو عدم قبوله فهما منوطان بأمر الله تعالىٰ، وذلك منوط بمدى أرضيَّة قبول الشفاعة في العبد، وهو منوط بعمله الذي يحفظ تلك الأرضيَّة أو يفنيها.

والثالث: الآيات النافية للشفاعة من قبل غير الله، وذلك من قبيل قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[(٢)].

٢ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[(٣)].

٣ ـ ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[(٤)].

٤ ـ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ...﴾[(٥)].

٥ ـ ﴿مَا لَكُم مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ...﴾[(٦)].

وذكر السيّد الطباطبائي ﵀ في تفسيره: أنَّ الآيات المثبتة للشفاعة لغير الله بإذن الله، والآيات النافية للشفاعة عن غير الله، لا تنافي بينهما؛ فإنَّ الآيات النافية

---

(١) السورة ٤٠، غافر، الآية: ٣٣.

(٢) السورة ٢، البقرة، الآية: ٤٨.

(٣) السورة ٢، البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٤) السورة ٢، البقرة، الآية: ١٢٣.

(٥) السورة ٣٩، الزمر، الآية: ٤٤.

(٦) السورة ٣٢، السجدة، الآية: ٤.

للشفاعة عن غير الله تنفي ثبوتها بالاستقلال لغيره تعالىٰ، والحاصرة للشفاعة بالله تثبت الشفاعة بالاستقلال له سبحانه وتعالىٰ، والمثبتة لها لغير الله بإذن الله تعني ثبوت الشفاعة لغير الله بإعطاء الله إيَّاها لغيره، وهذا يعني: أنَّ الشفاعة أوَّلاً وبالذات كانت لله، ولم تكن بالاستقلال لغير الله سبحانه، تماماً كما هو الحال في آيات نفي علم الغيب عن غيره، وإثباته له تعالىٰ بالاختصاص، ولغيره بارتضائه قال الله تعالىٰ: ﴿لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ...﴾[2].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿... عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ...﴾[3].

وكذلك الآيات الناطقة في التوفِّي والخلق والرزق والتأثير والحكم والملك وغير ذلك، فإنَّها شائعة في أُسلوب القرآن؛ إذ ينفي كلَّ كمال عن غيره تعالىٰ، ثُمَّ يثبته لنفسه، ثُمَّ يثبته لغيره بإذنه ومشيئته، فتفيد أنَّ الموجودات غيره تعالىٰ لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها واستقلالها، وإنَّما تملكها بتمليك الله لها إيَّاها ... إلىٰ أن قال: ومنه يظهر: أنَّ الآيات النافية للشفاعة إن كانت ناظرة إلىٰ يوم القيامة فإنَّما تنفيها عن غيره تعالىٰ بمعنى الاستقلال في الملك، والآيات المثبتة تثبتها لله سبحانه بنحو الأصالة، ولغيره تعالىٰ بإذنه وتمليكه ...[4].

أقول: إنَّ قوله: إن كانت ناظرة إلىٰ يوم القيامة ظاهر في أنَّه ﷺ يحتمل كون آيات نفي الشفاعة راجعة إلىٰ البرزخ، إلَّا أنَّه بعيد.

---

(١) السورة ٢٧، النمل، الآية: ٦٥.

(٢) السورة ٦، الأنعام، الآية: ٥٩.

(٣) السورة ٧٢، الجنّ، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

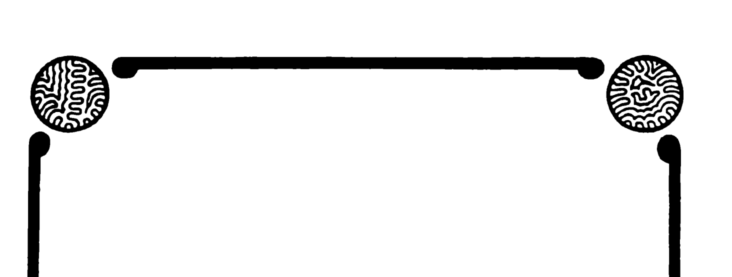
(٤) راجع تفسير الميزان ١ / ١٥٦ ـ ١٥٧.

وعلىٰ أيٍّ حال، فيمكن تعميق ما ذكره ﷺ من الجمع بأن يقال: صحَّ نفي الشفاعة عمَّن يملكها لا بالاستقلال بنكتة أنَّ الشفاعة تكون بمعنىٰ النصرة والعون، وتكون مأخوذة من الشفع بمعنىٰ الضمِّ، وحينما تكون النصرة والعون بالاعتماد علىٰ الله ونصرته وعونه، وينتفيان من دون نصرته تعالىٰ وعونه، يصحُّ نفيهما عن غير الله في مقابل الله سبحانه وتعالىٰ، كما أنَّ العلم بالغيب بإظهار من له الغيب إيَّاه، يصحُّ نفي كونه علماً بالغيب.

هذا تمام كلامنا في الشفاعة. وقد أَنهيتُ كتابي هذا بالحديث عن الشفاعة آملاً أن تنالني شفاعتهم عليهم أفضل الصلاة والسلام يوم لا يشفعون إلَّا لمن ارتضىٰ.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

ذو الحجّة الحرام سنة ١٤١٨



الفهارس

فهرس مصادر الكتاب.

فهرس محتويات الكتاب.





فهرس مصادر الكتاب

«أ»

١ ـ أُصول الفقه : للشيخ المظفّر، طبع في مطابع دار النعمان بالنجف، سنة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م، الطبعة الثانية.

٢ ـ أُصول الكافي وفروعه : لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، المتوفّىٰ سنة ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ، صحّحه وعلّق عليه : علي أكبر الغفّاري، الناشر : دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الثالثة.

٣ ـ الأُسس المنطقيّة للاستقراء : للسيّد محمّد باقر الصدر، دار الفكر، الطبعة الأُولىٰ ـ بيروت سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧٢ م.

٤ ـ كتاب أسرار الصلاة : للحاج ميرزا جواد الملكي التبريزي، انتشارات: كتاب فروشى فرهومند ـ طهران سنة ١٣٩١ هـ.

٥ ـ الأربعون حديثاً : للإمام الخمينيّ ﷺ، ترجمة : السيّد محمّد الغروي، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ـ قم إيران، بلا تأريخ.

٦ ـ إحياء علوم الدين : للإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، المتوفّىٰ في سنة ٥٠٥ هـ، صُحّح بإشراف : الشيخ عبد العزيز عزّ الدين السيروان، دار القلم ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، بلا تأريخ.

٧ ـ الإسراء والمعراج : للشيخ علي حبّ الله، الطبعة الأُولىٰ التأريخ : ١٩٩٥ م ـ ١٤١٥ هـ، الناشر : مؤسسة العروة الوثقىٰ : برج البراجنة ـ شارع حاطوم ـ ملك علي نايف حرب، ص ب : ١٤٧ / ٢٤.

٨ ـ أنوار المواهب (فارسي) : للشيخ علي أكبر نهاوندي، انتشارات كتابفروشي محمودي، بلا تأريخ.

٩ ـ كتاب الأخلاق: لأحمد أمين (المصري) الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان سنة ١٩٦٩ م.

« ب »

١٠ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار : للعلّامة الشيخ محمّد باقر المجلسي، دار إحياء التراث العربي / مؤسسة الوفاء، الطبعة الثالثة المصححة، سنة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

١١ ـ البرهان في تفسير القرآن : للعلّامة السيّد هاشم الحسيني البحراني، دار الكتب العلميّة، قم ـ إيران، بلا تأريخ.

« ت »

١٢ ـ التوحيد : للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي، المتوفّىٰ سنة ٣٨١، صحّحه وعلّق عليه المحقّق : السيّد هاشم الحسيني الطهراني، تحقيق ونشر : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، الطبعة الخامسة، سنة ١٤١٦ هـ

١٣ ـ تفسير نمونه (فارسي) : لآية الله ناصر مكارم الشيرازي، الناشر : دار الكتب الإسلاميّة، طهران، تأريخ النشر سنة ١٣٦٢ هـ ش.

١٤ ـ التفسير الأمثل: لآية الله ناصر مكارم الشيرازي.

١٥ ـ تنقيح المقال في علم الرجال : للعلّامة الجليل المامقاني، أُوفست : انتشارات جهان ـ طهران بوذرجمهري علىٰ النسخة المطبوعة في المطبعة المرتضويّة في النجف الأشرف، سنة ١٣٥٢.

١٦ ـ تحف العقول : للشيخ الثقة الجليل الأقدم أبو محمّد الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحرّاني، من أعلام القرن الرابع، عني بتصحيحه والتعليق عليه: علي أكبر الغفاري، الناشر : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم الطبعة الرابعة، سنة ١٤١٦ هـ ق.

١٧ ـ تفسير القمّي : لأبي الحسن عليّ بن إبراهيم القمّي، من أعلام قرني (٣ ـ ٤) هـ، صحّحه وعلّق عليه وقدم له : السيّد طيب الموسوي الجزائري، أُوفست انتشارات كتابفروشي علّامة في قم علىٰ النسخة المطبوعة في منشورات مكتبة الهدىٰ ـ النجف ـ العراق.

١٨ ـ التفسير الكبير : للإمام الفخر الرازي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان، بلا تأريخ.

١٩ ـ توحيد علمي وعيني در مكاتيب حكمي وعرفاني (فارسي) : للعلّامة السيّد محمّد حسين الحسيني الطهراني، الناشر : انتشارات حكمت، الطبعة الأُولىٰ سنة ١٤١٠.

٢٠ ـ تهذيب الأحكام : لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، المتوفّىٰ ١٤٦٠ هـ، حقّقه وعلّق عليه : السيّد حسن الموسوي الخرسان، عني بنشره: الشيخ عليّ الآخوندي صاحب دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثانية ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩ م / مطبعة النعمان ـ النجف ـ العراق.

٢١ ـ تكملة أمل الآمل: للسيّد حسن الصدر، المتوفّىٰ سنة ١٣٥٤ هـ، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، نشر: مكتبة آية الله المرعشي قم، مطبعة الخيام، التأريخ: ١٤٠٦هـ.

« ج »

٢٢ ـ جامع السعادات : للشيخ محمّد مهدي النراقي، المتوفّىٰ ١٢٠٩ هـ، حقّقه وعلّق عليه : السيّد محمّد كلانتر، قدم له : الشيخ محمّد رضا المظفّر. منشورات دار النعمان للطباعة والنشر ـ النجف الأشرف ـ العراق، بلا تأريخ.

٢٣ ـ جلوهٔ حقّ (فارسي) : لآية الله مكارم الشيرازي، الناشر : مطبوعات هدف ـ قم. الطبعة الأُولىٰ سنة ١٣٧٣ هـ ش.

« خ »

٢٤ ـ خدمات متقابل اسلام وايران (فارسي) : للشيخ مرتضىٰ مطهري، الطبعة الثامنة، المطبعة العلميّة في قم، تأريخ الطبع ١٣٥٧ ش. الناشر : انتشارات صدرا ـ قم ـ إيران.

٢٥ ـ خزينة الجواهر في زينة المنابر (فارسي) : للعلامة الشيخ علي أكبر النهاوندي، الطبعة الثالثة ١٣٧٣ / شركت چابخانه خراسان.

٢٦ ـ كتاب الخصال: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي، المتوفّىٰ سنة ٣٨١هـ، صحّحه وعلّق عليه علىٰ أكبر الغفّاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة ـ قم ـ إيران سنة ١٤٠٣ ق ـ ١٣٦٢ ش.

« د »

٢٧ ـ ديوان حافظ (آئينۀ جام) فارسي : لشمس الدين محمّد حافظ الشيرازي، مع ملاحظات الشيخ مرتضىٰ المطهري، الناشر : انتشارات صدرا، الطبعة الأُولىٰ ـ إيران، سنة ١٣٧٢.

« ر »

٢٨ ـ رسالة السير والسلوك (فارسي) : المنسوبة إلىٰ السيّد بحر العلوم، تقديم وشرح : السيّد محمّد حسين الحسيني الطهراني، الطبعة الأُولىٰ، الناشر : انتشارات حكمت، الطبعة الأُولىٰ ١٣٦٠ ش ـ ١٤٠٢ ق.

٢٩ ـ روح مجرّد (فارسي) : للعلّامة السيّد محمّد حسين الحسيني الطهراني، الطبعة الأُولىٰ ١٤١٤، مطبعة : سپهر، الناشر : انتشارات حكمت.

٣٠ ـ رياحين الشريعة (فارسي): للشيخ ذبيح الله محلاتي، الناشر : دار الكتب الإسلاميّة ـ طهران ـ إيران، الطبعة الخامسة سنة ١٣٦٨، طبع في مطبعة خورشيد.

٣١ ـ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات : للعلّامة الميرزا محمّد باقر الموسوي الخوانساري الإصفهاني، تحقيق : أسد الله إسماعيليان، الناشر، مكتبة إسماعيليان ـ قم ـ إيران، مطبعة : مهر استوار قم سنة ١٣٩١ هـ.

٣٢ ـ رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب (فارسي) : للسيّد محمّد حسين الحسيني الطهراني، انتشارات حكمت، بلا تأريخ.

٣٣ ـ رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين عليه السلام : للسيّد علي خان المدني الشيرازي ١٠٥٢ ـ ١١٢٠ هـ ق، تحقيق : السيّد محسن الحسيني الأميني، طبع ونشر : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم، الطبعة الأُولىٰ بتأريخ ١٤١١ هـ ق.

« س »

٣٤ ـ سفينة البحار : للمحدث الشيخ عباس القمّي، الناشر : دار الأُسوة للطباعة والنشر التابعة لمنظمة الأوقاف والشؤون الخيريّة، المطبعة أُسوة، الطـبعة الأُولىٰ، تأريخ النشر ١٤١٤ هـ ق.

٣٥ ـ سرّ الصلاة (فارسي) : للإمام الخمينيّ، الناشر : مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينيّ، الطبعة الأُولىٰ ١٣٦٩.

« ش »

٣٦ ـ شرح چهل حديث (فارسي): للإمام الخمينيّ ١، النـاشر: مـؤسسة تـنظيم و نشرآثار الإمام الخمينيّ، الطبعة الرابعة، مطبعة دفتر تبليغات إسلامي حوزة علميّة قم.

٣٧ ـ شرح منازل السائرين : لكمال الدين عبد الرزاق الكاشاني، انتشارات: مكتبة حامدي العلميّة ـ طهران ـ إيران.

٣٨ ـ شرح منازل السائرين : لعفيف الدين سليمان التلمساني، الطبعة الأُولىٰ سنة ١٤١٣ ق ـ ١٣٧١ ش، الناشر : انتشارات بيدار ـ قـم ـ إيران.

« ع »

٣٩ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام : للشيخ المحدّث أبي جعفر الصدوق محمّد بن عليّ ابن الحسين بن بابويه القمّي، المتوفّىٰ سنة ٣٨١ هـ، تصحيح وتذييل : السيّد مهدي الحسيني اللاجوردي، الناشر : رضا مشهدي، الطبعة الثانية سنة ١٣٦٣، مـطبعة : زندگي.

٤٠ ـ عدل الهى (فارسي) : للشيخ مرتضىٰ مطهري، الطبعة الثالثة، النـاشر : مؤسّسة انتشارات اسلامى، مطبعة حيدري ١٣٥٣ ش ـ ١٣٩٤ ق.

« غ »

٤١ ـ الغدير في الكتاب والسنة والأدب : للشيخ عبد الحسين أحمد الأميني، منشورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامّة، الطبعة الرابعة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م، مطبعة الحيدري ـ طهران ـ إيران.

« ف »

٤٢ ـ الفوائد : للشيخ محمّد كاظم الآخوند الخراساني، المطبوع في ذيل كتاب حاشية فرائد الأُصول للآخوند الخراساني، منشورات مكتبة بصيرتي ـ قم ـ إيران، بلا تأريخ.

٤٣ ـ فلسفتنا : للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، منشورات عويدات ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولىٰ سنة ١٩٦٢ م.

٤٤ ـ الفتاوىٰ الواضحة: للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدس سره.

« ق »

٤٥ ـ القرآن الكريم.

٤٦ ـ قصص العلماء (فارسي) : للميرزا محمّد التنكابني، انتشارات كتابفروشى علمية اسلاميّة ـ طهران ـ إيران، بلا تأريخ.

« م »

٤٧ ـ منتهىٰ الآمال (فارسي) : للشيخ عباس القمّي، الناشر : منظمة انتشارات جاويدان، بلا تأريخ.

٤٨ ـ المنتخب الحسني.

٤٩ ـ المنجد : د : لويس معلوف.

٥٠ ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل : للمحدث ميرزا حسين النوري الطبرسي، المتوفّىٰ سنة ١٣٢٠ هـ، تحقيق ونشر : مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم ـ إيران، الطبعة الأُولىٰ ١٤٠٧ هـ، مطبعة مهر.

٥١ ـ مرآة العقول في شرح أخبار الرسول صلى الله عليه وآله : للعلامة الشيخ محمّد باقر المجلسي، إخراج ومقابلة وتصحيح : السيّد هاشم الرسولي، الناشر : دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثالثة، مطبعة مروي، تأريخ النشر ١٣٧٠.

٥٢ ـ من لا يحضره الفقيه : للمحدّث أبي جعفر الصدوق محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي، المتوفّىٰ سنة ٣٨١، أشرف علىٰ تحقيقه والتعليق عليه: السيّد حسن الموسوي الخراساني، نشر : الشيخ عليّ الآخوندي صاحب دار الكتب الإسلاميّة ـ نجف ـ عراق، الطبعة الرابعة ١٨٧٨ هـ مطبعة النجف.

٥٣ ـ مصباح الهداية إلىٰ الخلافة والولاية (فارسي) : للإمام الخمينيّ، ترجمة: السيّد أحمد الفهري، انتشارات : پيام آزادى، سنة ١٣٦٠.

٥٤ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن : لأمين الإسلام أبي عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري، حقّقه وعلّق عليه : لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصّائيين، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأُولىٰ ١٤١٥ ـ ١٩٩٥ م.

٥٥ ـ مباحث الأُصول تقريراً لأبحاث سماحة آية الله العظمىٰ الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر : للسيّد كاظم الحسينيّ الحائريّ، الناشر : المؤلّف نفسه، الطبعة

الأُولىٰ، تأريخ النشر ١٤٠٧ هـ، مطبعة مركز النشر ـ مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم ـ إيران.

٥٦ ـ معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة : للمرجع السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي، منشورات مدينة العلم ـ آية الله العظمىٰ الخوئي ـ إيران ـ قم / دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

٥٧ ـ المحجة البيضاء في إحياء الإحياء : للمحدث محمّد بن المرتضىٰ المدعو بالمولىٰ محسن الكاشاني، المتوفّىٰ سنة ١٠٩١ هـ، صحّحه وعلّق عليه : علي أكبر الغفّاري، الناشر : مكتبة الصدوق ـ طهران ـ إيران ١٣٣٩ هـ ش، مطبعة حيدري.

٥٨ ـ معالم المدرستين : للعلّامة السيّد مرتضىٰ العسكري، الطبعة الرابعة سنة ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م، التوزيع : مؤسّسة البعثة ـ طهران ـ إيران.

٥٩ ـ مفاتيح الجنان : للشيخ عباس القمّي، طبعة طاهر خوشنويس.

٦٠ ـ مجمع البحرين : للشيخ فخر الدين الطريحي، المتوفّىٰ سنة ١٠٨٥، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، الناشر : مكتبة مرتضوي ـ طهران ـ إيران، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٥، مطبعة خورشيد.

٦١ ـ مصباح الشريعة : للإمام جعفر الصادق عليه السلام، الطبعة الأُولىٰ، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ـ لبنان، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م.

٦٢ ـ الميزان في تفسير القرآن : للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي / دار الكتاب الإسلامي ـ قم ـ إيران، بلا تأريخ.

٦٣ ـ منشور جاويد (فارسي) : للشيخ جعفر السبحاني، الناشر : دار القرآن الكريم، الطبعة الأُولىٰ، مطبعة مهر، تأريخ الطبع ١٤١٠ هـ. ق.

٦٤ ـ من وحي القرآن: للسيّد محمّد حسين فضل الله، ط. دار الزهراء ـ بيروت.

«ن»

٦٥ ـ نهج البلاغة.

٦٦ ـ نشان از بى نشانها: لعلي مقدادي إصفهاني.

«و»

٦٧ ـ وسائل الشيعة: للشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي‌ﷺ، المتوفّىٰ سنة ١١٠٤ هـق، الناشر: مؤسّسة آل البيت.

فهرس محتويات الكتاب

الحلقة الأولىٰ
البحث العلمي لتزكية النفس
(٩ ـ ٧٤)

الحلقة الثانية

مدخل البحث العملي لتزكية النفس

(٧٥ـ٢٠٨)

الحلقة الثالثة

البحث العملي لتزكية النفس

(٢٠٩ـ ٥٣٤)

الحلقة الرابعة
المثبّطات والمحفّزات
(٥٣٥ ـ ٦٤٥)

الفهارس

(٦٤٧ ـ ٦٦٤)